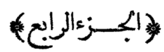
﴿ فهرست الجزء الرابع من الاستقصا في تاريخ دول المغرب الاقصى ﴾

تمت

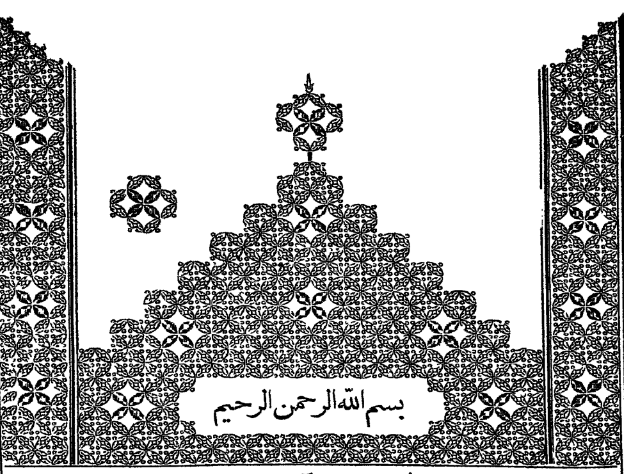


الجزء الرابع

من كتاب الاستقصا لاخبار دول المغرب الاقصى

تأليف العالم العلامة المحقق الفهامة وحيد
الاوان وفريد الزمان بحر العلوم الراوى
الشيخ أحمد بن خالد الناصرى
السلاوى حفظه الله
وأدام علاه
آمين





﴿الخبر عن دولة الاشراف السجلماسيين من آل علي الشريف وذكر نسبهم وأوليتهم﴾

اعلم ان نسب هذه الدولة الشريفة العلوية من أصرح الانساب وسببها المتصل برسول الله صلى الله عليه وسلم من أمتن الاسباب وأول ملوكها كما سيأتي هو المولى محمد بن الشريف بن علي الشريف المراكشي ابن محمد بن علي بن يوسف بن علي الشريف السجلماسي ابن الحسن بن محمد بن حسن الداخل ابن قاسم ابن محمد بن أبي القاسم بن محمد بن الحسن بن عبد الله بن أبي محمد بن عرفة بن الحسن بن أبي بكر بن علي ابن الحسن بن أحمد بن اسمعيل بن قاسم بن محمد النفس الزكية ابن عبد الله الكامل ابن الحسن المثنى ابن الحسن السبط ابن علي وفاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم هكذا ذكر هذا النسب الذي هو حقيق بان يسمى سلسلة الذهب جماعة من العلماء كالشيخ أبي العباس أحمد بن أبي القاسم الصومعي والشيخ أبي عبد الله محمد العربي ابن يوسف الفاسي والعلامة الشريف أبي محمد عبد السلام القادري في كتابه الدر السني فيما بفاس من النسب الحسني وغيرهم وقد تقدم في أخبار السعديين أن الصواب أن يراد في عمود هذا النسب الشريف بعد قاسم الآخر ما نصه ابن الحسن بن محمد بن عبد الله الاشتر ابن محمد النفس الزكية الى آخر ما مر ﴿قال أبو عبد الله الفاسي في المرآة﴾ ان الشرفاء الذين لا يشك في شرفهم بالمغرب كثيرون كالجوطيين من الحسنيين الادريسيين وكشرفاء تافيلالت من الحسنيين أيضا المحمديين وكالصقليين والعراقيين وكلاهما من الحسينيين بالياء الساكنة بين السين والنون فان شرف جميعهم لا يختلف فيه اثنان من أهل بلادهم ومن يعرفهم من غيرهم اهـ وعن شيخ الجماعة الامام أبي محمد عبد القادر الفاسي رحمه الله أنه قسم شرفاء المغرب بحسب القوة والضعف الى خمسة أقسام ومثل للقسم الأول المتفق على صحته باصناف منهم هؤلاء السادة السجلماسيون وقال الشيخ أبو علي اليوسي رحمه الله شرف السادة السجلماسيين مقطوع بصحته كالشمس الضاحية في رابعة النهار وعن الشيخ أبي العباس أحمد بن عبد الله بن معن الاندلسي أنه كان يقول ما ولي المغرب بعد الادارسة أصح نسبا من شرفاء

تافيلالت

تأليف لا لت وبالجملة فإن شرف هؤلاء السادة السجلماسيين مما لا نزاع في صراحته ولا خلاف في صحته عند أهل المغرب قاطبة بحيث جاوز حد التواتر بمرات رضي الله عنهم ونفعنا بهم وبأسلافهم آمين

﴿دخول المولى حسن بن قاسم الى المغرب واستيطانه بسجلماسة والسبب في ذلك﴾

قالوا ان أصل سلف هؤلاء السادة رضي الله عنهم من ينبع النخل من أرض الحجاز قالوا وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أقطع جدهم علي بن أبي طالب أرض ينبع فاستقرت ذريته به وتناسلت الى هذا العهد وكان أول من دخل منهم المغرب المولى حسن بن قاسم فحكى عن الفقيه العالم أبي عبد الله محمد ابن سعيد المرغيثي صاحب الرجز المسمى بالمقنع قال أخبرني الشيخ الامام المولى أبو محمد عبد الله بن علي ابن طاهر الحسني أن جده الداخل الى المغرب هو المولى حسن بن قاسم قال وكان دخوله اليه في أواخر المائة السابعة وكان يومئذ من أبناء الستين ونحو ذلك وتوفي رحمه الله قبل انقضاء المائة المذكورة اه وخبر ابن طاهر هذا هو أصح ما ينقل في كيفية الدخول ووقته وذكر بعضهم عنه أن دخوله كان سنة أربع وستين وستمائة ﴿وقال الشيخ أبو اسحق ابراهيم بن هلال﴾ أن دخوله كان في أوائل الدولة المرينية ذكر ذلك في منسكه فعلى هذا يكون دخوله في دولة السلطان يعقوب بن عبد الحق المريني وقد أشرنا الى ذلك في محله فيما سلف ﴿وقال العلامة أبو سالم العياشي في رحلته﴾ أن المولى حسن بن قاسم دخل المغرب في المائة السابعة وكان سكناه من ينبع النخل بعد شريعرف بعد شريني ابراهيم فهؤلاء كلهم اتفقوا على أن الدخول كان في المائة السابعة وهو الصحيح الصواب ان شاء الله وزعم بعضهم أن ذلك كان في المائة السادسة وهو بعيد واختلفوا في السبب الداعي الى دخول هذا السيد الى المغرب فذكر صاحب كتاب الانوار السنية فيما بسجلماسة من النسبة الحسنية أن سبب دخوله أن ركب الحاج المغربي كان يتوارد على الاشراف هنالك وكان شيخ الركب في بعض القدمات رجلا من أهل سجلماسة يظن انه السيد أبو ابراهيم فلما اجتمع بالموسم بالسيد حسن المذكور وكانت سجلماسة وأعمالها ومئذ شاغرة من سكنى الاشراف فلم يزل أبو ابراهيم يحسن للمولى حسن موطن المغرب والسكنى بسجلماسة حتى استماله فاجمع السير مع الركب وقدم به أبو ابراهيم فاستوطن ببلدهم سجلماسة * وقال حافده المولى أبو محمد عبد الله بن علي ابن طاهر فيما قيد عنه وكان الذي أتى به من أهل سجلماسة أولاد البشير وأولاد المتزاري وأولاد المعتصم وأولاد ابن عاقلة وصاهره منهم أولاد المتزاري اه ﴿وذكر صاحب الارجوزة﴾ أن الشيخ أبا ابراهيم الذي جاء به من ذرية عمر بن الخطاب رضي الله عنه * وقال بعضهم ان أهل سجلماسة لم تكن تصلح الثمار ببلادهم فذهبوا الى الحجاز بقصد أن يأتوا برجل من أهل البيت تبركا به فأتوا بالمولى حسن المذكور فحقق الله رجاءهم وأصلح ثمارهم حتى عادت بلادهم هي هجر المغرب ﴿وقال غيره﴾ ان سبب اتيانهم به أن الاشراف من آل ادريس رضي الله عنه كانوا قد تفرقوا ببلاد المغرب وانتثر نظامهم واستولى عليهم القتل والصغار من أمراء مكناسة وغيرهم فقل الشرف بالمغرب وأنكره كثير من أهله حقنا لدمائهم فلما طلع نجم الدولة المرينية بالمغرب أكبروا الاشراف ورفعوا أقدارهم واحترموهم ولم يكن ببلد سجلماسة أحد من آل البيت الكريم فأجمع رأي كبرائهم وأعيانهم أن يأتوا بمن يتبركون به من أهل ذلك النسب الشريف فقيل ان الذهب يطلب من معدنه والياقوت يجلب من موطنه وان بلاد الحجاز هي مقر الاشراف ولذلك الجوهر النفيس من أجل الاصداف فذهبوا الى الحجاز وجاؤا بالمولى حسن على ماذكرنا فأشرقت شمس البيت النبوي على سجلماسة وأضاءت أرجاؤها وظللتها من الشجرة الطيبة ظلالها وأفياؤها حتى قيل ان مقبرة أهل سجلماسة هي بقيع المغرب وكفاها هذا شرفا وفخرا ومزية وذخرا ﴿وذكر بعضهم﴾ ان أهل سجلماسة لما طلبوا من المولى قاسم بن محمد أن يبعث معهم أحد أولاده

وكان يومئذ أكبر شرفاء الحجاز ديانة ووجاهة اختبر من أولاده من يصلح لذلك وكان له على ما قيل ثمانية من الولد فكان يسأل الواحد منهم بعد الواحد ويقول له من فعل معك الخير فما تفعل معه أنت فيقول الخير ومن فعل معك الشر فيقول الشر فيقول اجلس الى ان انتهى الى المولى حسن الداخل فقال له كما قال لاخوته فقال من فعل معي الشر أفعل معه الخير قال فيعود ذلك بالشر قال فأعود له بالخير الى ان يغلب خيري على شره فاستنار وجه المولى قاسم وداخلته أريحية هاشمية ودعا له بالبركة فيه وفي عقبه فاجاب الله دعوته وكان المولى حسن الداخل رجلا صالحا ناسكا له مشاركة في العلوم خصوصا علم البيان فانه كانت له فيه اليد الطولى ولما استقر بسجلماسة واطمأنت به الدار زوجه الشيخ أبو ابراهيم ابنته وسكن على ما قيل بموضع يقال له المصلح ولما توفي تنازع أهل سجلماسة في موضع دفنه حتى كادت نار الحرب تشب بينهم فأجمع رأيهم أن يدفنوه بمحل وسط هم فيه سواء فمسحوا أرض سجلماسة بالحبال وقسموها أرباعا ودفنوه بمكان سوي يتوسط جميع النواحي ولم يحفظ تاريخ وفاته وما استنبطه اليفرني في ذلك فمبني على غير أساس والله تعالى أعلم

﴿ذكر ذرية المولى حسن بن قاسم وتناسلها بالمغرب والالمام بشيء من مناقب المولى على الشريف﴾

لما توفي المولى حسن بن قاسم رحمه الله لم يخلف الاولدا واحدا وهو المولى محمد ثم خلف المولى محمد هذا ولدا واحدا أيضا وهو المولى الحسن يسمى باسم جده وهو المدفون حول المدينة الكبرى بازاء الشيخ أبي عبد الله الخراز من أرض سجلماسة وخلف المولى الحسن المذكور ولدين (أحدهما) المولى عبد الرحمن المكنى بابي البركات وهو أكبرهما ومن ذريته أولاد أبي حميد بالتصغير القاطنون بوادي الرتب بالقصر الجديد على مرحلة من سجلماسة ومنهم أيضا الشرفاء النازلون ببني زروال (وثانيهما) المولى علي المعروف بالشريف ومنه تفرعت فروع المحمديين وتكاثرت وكان رحمه الله رجلا صالحا مجاب الدعوة كثير الاوقاف والصدقات حاجا مجاهدا ذا همة سنية وأحوال مرضية رحل في بعض الاوقات الى فاس واستوطنها مدة طويلة وكان سكناه منها بالحومة المعروفة بجزاء ابن عامر من عدوة القرويين وترك هنالك دارا ثم أقام مدة بقرية صفرو وخلف بها عقارا وآثارا هي بها الى الآن وأقام مدة أخرى ببلد جرس التي على مرحلتين ونصف من سجلماسة وترك بها مثل ذلك ودخل عدوة الاندلس برسم الجهاد مرارا وأقام بها مدة طويلة ثم عاد الى سجلماسة فكاتبه أهل الاندلس يطلبون منه العود اليهم ويحضونه على الاعتناء بامور الجهاد ويشكون اليه ضعف أهل الاندلس عن مقاومة العدو وانها شاغرة عمن تجتمع عليه القلوب وقد كانوا راودوه وهو مقيم عندهم على أن يبايعوه ويملكوه عليهم والتزموا له الطاعة والنصرة فرغب عن ذلك ورعا وزهدا وعزوفا عن الدنيا وزهرتها ﴿قال اليفرني رحمه الله﴾ وقد وقفت على رسائل عديدة بعث بها اليه علماء غرناطة يحضونه على الجواز اليهم واستنفار المجاهدين الى حماية بيضتهم ويذكرون له ان كافة أهل غرناطة من علمائها وصلحائها ورؤسائها قد وظفوا على أنفسهم من خالص أموالهم دون توظيف سلطان عليهم أموالا كثيرة برسم الغزاة الذين يردون معه من المغرب وحلوه في بعض تلك الرسائل بما نصه الى الهمام الضرغام قطب دائرة فرسان الاسلام الشجاع المقدام الهصور الفاتك الوقور الناسك طليعة جيش الجهاد وعين أعيان الانجاد المؤيد بالفتح في هذه البلاد المسارع الى مرضات رب العباد مولانا أبي الحسن علي الشريف اه نص التحلية وكتبوا مع ذلك الى علماء فاس يلتمسون منهم أن يحضوا المولى عليا على العبور الى العدوة فكتب اليه أعلام فاس بمثل ذلك وحثوه على المسارعة الى اغاثتهم وذكروا له فضل الجهاد وانه من أفضل أعمال البر وكان من موجبات تخلفه عن اغاثة أهل غرناطة انه كان قد عزم على الذهاب الى الحج فقالوا له في بعض تلك الرسائل

وعوضوا

وعوضوا هذه الوجهة الحجية التي أجمع رأيكم عليها وتوفر عزمكم لديها بالعبور الى الجهاد فان الجهاد أصلحكم الله في حق أهل المغرب أفضل من الحج كما أفتى به الامام ابن رشد رحمه الله حين سئل عن ذلك وقد بسط الكلام عليه في أجوبته ووجه ماذهب اليه من ذلك اه وكان ممن كتب اليه من علماء غرناطة جماعة منهم الفقيه أبو عبد الله محمد بن سراج شيخ المواق وقاضي الجماعة بها ومن شيوخ فاس الذين كتبوا اليه الفقيه أبو عبد الله المكري شيخ شيوخ الامام ابن غازي وأبو العباس أحمد بن محمد بن ماواس وأبو زيد عبد الرحمن الرقعي صاحب الرجز المشهور وغيرهم ومما ضمنه أهل الاندلس في رسائلهم القصيدة الآتية في مدح المولى علي وصاحبه الفاضل أبي عبد الله محمد بن ابراهيم العمري وحثهما على اجابتهم وهي من انشاء الفقيه أبي فارس بن الربيع الغرناطي يقول فيها

أيا راكبا يطوى المفاوز والقفرا * رشدت ولقيت السلامة والخيرا
ترحل وجد السير يوما وليلة * وسافر تجدها في مطا العهاز هرا
تحمل رعاك الله مني الى الحما * تحية مشتاق تهيجه الذكرا
وأم ديار الحي من سجلماسة * فتلك ديار تجمع العز والفخرا
وسلم على تلك الديار وأهلها * سلام محب لم يطق عنهم صبرا
فعندي لهم حب جرى في مفاصلي * ومازج مني العظم والدم والشعرا
فتلك بقاع الدين والخير والهدى * فكم من تقي في سماها سما بدرا
هم القوم لا يشقى بهم جلساؤهم * يضوع عبير الزهر من بينهم نشرا
وقل يا أهيل القبلة السادة الاولى * اذا ما دعوا في حادث أسرعوا النفرا
وخص سليل الهاشمي ابن صهره * علي الذي يعلو على زحل قدرا
أبا الحسن المولى الشريف الذي به * على الغرب شمس النصر طبقت الغبرا
ولاحت بآفاق القلوب عجائب * بها سلب الالباب تحسبها سحرا
هو الصقر مهما اهتز كل مجلجل * هزبر اذا ما انشب الناب والظفرا
هو الغوث ان دارت رحى الحرب للقا * وغيث اذا ما المزن ما أرسلت قطرا
أغار على الاعلاج فاجتاح جمعهم * وجدلهم قتلا وشددهم أسرا
بطنجة قد طاب المسماتلزمرة * بنصرتها ترجو من الملك الاجرا
دعاها بأقصى السوس قوم فاسرجوا * من الصافنات الجرد لم يأخذوا الحذرا
فهبت ركاب القوم والشمس أشرقت * وأرهق جيش الله أعداءه خسرا
ولا عجب أن الآلي هو منهم * ليوث الشرى قد أوسعوا أمر حبا شرا
أجر جارك اللهفان من غمراته * أبا حسن وانصر جزيرتك الخضرا
وناد أبا عبد الاله خليلكم * به تجلب السراء في حادث الضرا
سليل أبي اسحق أكرم به أبا * لقد خلف الفرع الزكي الرضى البرا
أليس الذي لبى ندا أهل طنجة * وجمع أهل الغرب من حينه طرا
وأوقع بالكفار أي وقيعة * فمن لم يمت بالسيف مات له ذعرا
وأصبح ثغر الدين أشنب باسما * وأرهق وجه الكفر من حزن قترا
ونال من الله السعادة والرضا * وجنات عدن في المعاد له ذخرا
وقل أيها العدل الذي اتخذ التقى * شعارا وسامى في منازلها الشعرا
أرى كل ما في الغرب أصبح قانطا * لاندلس يرجو بطلعتكم نصرا

اسم اليهودي الذي قتله علي رضي الله عنه يوم خيبر

وغرناطة الغـرّاء نادتكم أقبـلا * وبالراية البيضاء كي تنصر الحمرا
فساكنها وقف عليكم رجاؤه * كبيرهم والطفل والكاعب العذرا
بجئنا عن في أرضكم حاميا لهم * رجالا وفرسانا غطارفة غـــرّا
حماة أباة الضيم من كل ماجد * كريم يباري الغيث والسيل والبحرا
فدونكم الكفار تعني طغاتها * وتشبع من قتلاهم الوحش والطيرا
لقد طمع الكفار ملك رقابنا * واهلاكهم في أرضنا الحرث والثمرا
منازلنا من كل حصن وقرية * تناديكم غوثا لخطب أتى امرا
فكم من ضعيف لا حراك بجسمه * وشيخ بها أربى على مائة عشرا
وبيض وسمر من أوانس كالدما * وصبية مهد لا تعي النفع والضرا
ومنبر جمع للخطابة والدعا * ومسجد دين للصلاة وللاقرا
وكرسي علم مقعد لمهذب * تصدّر على ما يضيء لنا الصدرا
وأجداث أبناء الصحابة فوقها * وكل ولي أشعث لا بس طمرا
تناديكم غوثا من الله سرعة * فقد كاد أن يستأصل الكفر ذا البرا
فجثوا لنا بالسير بعدا وقربة * أجيرا ننا من كيد من أضمر الجورا
وعزما بانجوى مثل تلك التي مضت * ليبصر هذا الفنش مثلكم كبرا
وأنتم بحمد الله تدرون ما أتى * عن المصطفى في الغزو من خبر خبرا
فلله ما أسنى وددت لو انني * قتلت فأحيي ثم أقتل مدمرا
وما في كتاب الله من آية أتت * كشمس الضحى في الصحو سافرة غرّا
خذاها بحمد الله عذرا جبينها * يضوع شذى تهدي لمغنا كما عطرا
وتبلغ عني للكرام تحية * من أندلس للغرب قد عبروا البحرا
فعونا رجال الله عونا العدوة * أحاطت بها البأساء واشتدت الضرا
فانتم لنا الجند القوي ونحوكم * تشوّقنا فاستعجلوا نحونا السيرا
ونثني على خير البرية ذي الهدى * محمد المبعوث بالملة اليسرا
وآل وصحب ثم تال أتبعهم * ومن لذوي الاسلام قد قصد النصرا

وبهذه الرسائل العذبة الالفاظ المستوفقة الالحاظ يعلم أن المولى عليا الشريف رحمه الله كان مشهورا في عصره متقدّما على كافة أهل مصره وانه كان ملحوظا بالاجلال عندهم والاكبار وان هذه الدار العالية البناء والاسوار معظمة من لدن قديم مشهود لها بالخير والتقديم وأظن أن وقعة طنجة المشار اليها في هذه القصيدة هي وقعة سنة احدى وأربعين وثمانمائة وقد تقدّمت الاشارة اليها في محلها وقد كان للمولى على المذكور جهاد في ناحية اكدج من بلاد السودان ورزق الظفر والفتح كما ذكره مبسوطا في النزهة فلينظر هنالك ﴿وذكر صاحب كتاب الانوار السنية﴾ أن المولى عليا مكث أربع عشرة سنة لا يولد له ثم ولد له بعد ذلك ولدان أحدهما المولى محمد بفتح الميم والثاني أبو المحاسن يوسف وهو أصغرهما أما المولى محمد فخلف أربعة أولاد وهم السيد الحسن والسيد عبد الله والسيد علي والسيد قاسم وهم على هذا الترتيب في السن ويقال لسائرهم أولاد محمد نسبة الى هذا الجد وفروعهم كثيرة يطول تتبعها وأما المولى يوسف فانه ولي زاوية أبيه وأجمع الناس على انه المتأهل لها دون غيره لرزانته ووفور عقله فتولاها بعد نزاع ورسم توليته لها لم يزل موجودا عند بعض حفدته وكان ذلك كله في دولة بني مرين ﴿وقال صاحب كتاب الانوار﴾ وقد قيل انه لم يكن له ولد حتى بلغ ثمانين سنة فولد له تسعة من الولد خمسة

منهم

منهم أشقاء وأمهم حليمة من ذرية بعض المرابطين بسجلماسة وهم السيد علي وهو جد الملوك أبقى الله فضلهم والسيد أحمد والسيد عبد الواحد والسيد الطيب والسيد عبد الواحد المكنى بابي الغيث جد الاشراف البلغيثيين وانما كني بذلك لكثرة ما نزل من الغيث عند ولادته وكان الناس قبله في جدب شديد وهم على هذا الترتيب في السن وأربعة أشقاء أمهم طاهرة من ذرية بعض المرابطين أيضا وهم السيد الحسن بالتكبير والسيد الحسين بالتصغير والسيد عبد الرحمن والسيد محمد ومن منازل هؤلاء الاشقاء اليوم الموضع المعروف بأخنوس وتفصيل أنساب هؤلاء الاولاد الثمانية يطول فلنقتصر على ذكر المولى علي المثنى لانه الغرض المقصود فنقول * ولد للمولى علي المذكور ثلاثة من الولد وهم السيد محمد والسيد محرز والسيد هاشم جد الاشراف المرانيين أهل زاوية المراني وكلهم قد عقبوا فأما المولى محمد فولد له المولى علي الشريف المراكشي وهو المثلث مع عدة أولاد سواه والمولى علي هو جد الملوك أيضا وتوفي بمراكش وبنى عليه حافده أمير المؤمنين المولى الرشيد قبة بديعة تلقاء ضريح القاضي عياض رحمه الله وولد للمولى علي الشريف المذكور تسعة من الولد المولى الشريف اسما وكانت ولادته سنة سبع وتسعين وتسعمائة وهو جد الملوك والمولى الحفيد والمولى حاج والمولى محرز والمولى حرون والمولى فضيل والمولى أبو زكرياء والمولى مبارك والمولى سعيد فهؤلاء هم أولاد المولى علي الشريف وكان المولى الشريف أفضلهم وأشرفهم وله رحمه الله عدة أولاد كلهم نجوم زاهرة ذوو همم باهرة منهم المولى محمد بفتح الميم وهو أكبرهم والمولى الرشيد والمولى اسمعيل وهؤلاء الثلاثة ولوا الامر بالمغرب على هذا الترتيب ومنهم المولى الحران وسيأتي والمولى محرز والمولى يوسف والمولى أحمد والمولى الكبير والمولى حمادة والمولى عباس والمولى سعيد والمولى هاشم والمولى علي والمولى مهدي وهو شقيق اسمعيل من بينهم هذا ما تيسر ذكره من نسب هذه الدولة الشريفة ذات الظلال الوريفة وبالله التوفيق

﴿الخبر عن رياسة المولى الشريف بن علي وما دار بينه وبين أبي حسون السملالي المعروف بابي دميعة﴾

قد قدمنا أن ظهور أبي حسون السملالي كان في أيام السلطان زيدان بن المنصور السعدي وانه استولى على القطر السوسي أولا ثم تناول درعة وسجلماسة ثانيا قالوا وكان استيلاؤه على سجلماسة سنة احدى وأربعين وألف باستدعاء المولى الشريف بن علي له واستصراخه اياه على بني الزبير أهل حصن تابوعصامت أعدائه كذا في البستان فقدمها أبو حسون واستولى عليها وولى عليها عاملا من قبله ورجع الى مقره من أرض السوس ﴿وقال اليفرني في النزهة﴾ كان أبو الاملاك المولى الشريف بن علي وجيها عند أهل سجلماسة وسائر المغرب يقصدونه في المهمات ويستشفعون به في الازمات ويهرعون اليه فيما جل وقل قال وكان قدم ذات يوم وهو صبي على الامام المولى أبي محمد عبد الله بن علي بن طاهر الحسني فسأل عنه اذ لم يكن يعرفه قبل ذلك فقيل له هو ابن المولى علي الشريف ففرح به أبو محمد ومسح على ظهره وقال ماذا يخرج من هذا الظهر من الملوك والسلاطين فعلم الناس أن ذلك كائن لا محالة لما يعلمون من صحة كشف أبي محمد وصدق فراسته فكان المولى الشريف بعد ان كبر وولد له الاولاد يشيع ان هذا الامر لا بد أن يصير الى بيته ويكون لهم شأن عظيم اعتمادا على فراسة أبي محمد بن طاهر رحمه الله ثم كان بين المولى الشريف المذكور وبين أهل تابوعصامت وهي حصن منيع من حصون سجلماسة عداوة تامة فاستصرخ عليهم أبا حسون السملالي صاحب السوس لصداقة كانت بينهما واستصرخ أهل تابوعصامت أهل زاوية الدلاء فاغاث كل منهما من استصرخه والتقى العسكران معا بسجلماسة لكنهما انفصلا على غير قتال حقنا لدماء المسلمين وكان ذلك سنة ثلاث وأربعين وألف ولما رأى أهل تابوعصامت ما بين المولى الشريف وأبي حسون من الصداقة والوصلة مالوا بكليتهم الى أبي حسون وخدموه

بأنفسهم وأولادهم وأظهروا له النصح وصدق المحبة طمعا فى استفساده على المولى الشريف اذ كان ظاهرا عليهم به فلم يزالوا يسعون فى ذلك الى ان أظلم الجو بينهما واستحكمت العداوة وتوفرت دواعيها ولما رأى ابنه المولى محمد بن الشريف ذلك اهتبل الغرة فى أهل تابوعصامت وخرج ليلا فى نحو مائتين من الخيل مظهرا انه قاصد لبعض النواحى ثم كبسهم على حين غفلة وتسوّر عليهم حصنهم فراع أهل تابوعصامت الا المولى محمد فى جماعته قد وضعوا السيف فيهم وحكموه فى رقابهم فلم يكن عندهم دفاع واستمكن منهم واستولى على ذخائرهم وشفى صدر أبيه مما كان يجده عليهم ولما انتهى الخبر بذلك الى أبى حسون حمى أنفه واشتد غضبه وكتب الى عامله بسجلماسة واسمه أبو بكر يأمره أن يحتال على المولى الشريف حتى يقبض عليه ويبعث اليه به حبيسا فامتثل أمره وتقبض على المولى الشريف غدرا بان تمارض ثم استدعاه لعيادته والتبرك به ثم قبض عليه وبعث به الى السوس فاعتقله أبو حسون فى قلعة هنالك مدة الى ان افتكه ولده المولى محمد بمال جزيل وعاد المولى الشريف الى سجلماسة فى خبر طويل وكان ذلك كله فى حدود سنة سبع وأربعين وألف ﴿قال فى البستان﴾ وأعطى أبو حسون المولى الشريف وهو معتقل عنده جارية مولدة من سبى المغافرة كانت تخدمه قال وهى أم المولى اسمعيل وأخيه المولى مهدى اه ولست أدرى ما مراده بهذا فان كانت الجارية نسبية فى المغافرة فهى حرة فيكون المولى الشريف قد وطئها بعقد النكاح وهذا هو الذى يغلب على الظن بدليل ان السلطان الاعظم المولى اسمعيل رحمه الله لما عزم على جمع جيش الودايا قال لهم أنتم أخوالى اشارة الى هذا الصهر كما سيأتى وان كانت مملوكة لهم ثم صارت الى أبى حسون فالوطء حينئذ كان بملك اليمين والله تعالى أعلم وصاحب البستان كثيرا ما يجازف فى النقل ويتساهل فيه فلا ينبغى أن يعتمد على ما ينفرد به من ذلك وبالله التوفيق

﴿الخبر عن امارة المولى محمد بن الشريف وبيعته بسجلماسة والسبب فى ذلك﴾

لما قبض أبو حسون على المولى الشريف وسجنه عنده كان ولده المولى محمد مجمعا على اهلاك من بقى من أهل تابوعصامت واستئصال شأفتهم وكان قد تقوّى عضده بعض الشئ بما أخذ من أموالهم فى الوقعة السالفة فاتخذ بعد تغريب أبيه الى السوس جيشا لا بأس به وانضم اليه جمع من أهل سجلماسة وأعمالها وذلك سنة خمس وأربعين وألف وكان أصحاب أبى حسون قد أساؤا السيرة بسجلماسة ونصبوا حبالة الطمع فى الناس حتى ملتهم القلوب وزوعوا بغض المملكة السوسية فى قلوب الخاصة والعامة ومن عسفهم انهم كانوا قد ضربوا الخراج بسجلماسة وأعمالها على كل شئ حتى على من يجدونه فى الشمس زمن الشتاء وفى الظل زمن الصيف وضيقوا على الناس حتى ازدرتهم العيون وملتهم النفوس فلما قام المولى محمد واجتمع عليه من ذكرناه آنفا دعاهم الى الايقاع باهل السوس فأجابوه ووجد فيهم داعية لذلك فاعصوصبوا عليه وصرفوا اعزمهم الى محو دعوة أبى حسون من بلادهم فثاروا وابعهما له للعين وأخرجوهم عنها صاغرين بعد قتال شديد ثم أجمع رأيهم على بيعة المولى محمد فبايعوه سنة خمسين وألف فى حياة أبيه ووافق على بيعته أهل الحل والعقد بسجلماسة فاستتب أمره واستحكمت بيعته ووافقه القدر وساعده السعد وافتتح من ملك المغرب بابه واذا أراد الله أمرا هيأ أسبابه

﴿استيلاء المولى محمد بن الشريف على درعة وطرده أبا حسون السملالى عنها﴾

لما تمت البيعة للمولى محمد بن الشريف وجمع الله سبحانه شمله بأبيه كما مر شمر لمضايقة أبى حسون السملالى وأهل السوس ببلاد درعة اذ كانت تحت ولايته كما قلنا فنهض اليه فى جمع كثيف ووقعت بينهما حروب قطيعة يشيب لها الوليد ثم انقشع سحاب تلك الفتنة عن انتصار المولى محمد وانهزام أبى حسون وفراره الى

مسقط رأسه من أرض السوس فاستولى المولى محمد على درعة وأعمالها واتسعت ايالته وتوفرت جموعه وعظمت جبايته وطار فى بلاد المغرب صيته وكان من أمره ما نذكره

﴿وقعة القاعة بين المولى محمد بن الشريف وأهل زاوية الدلاء وما نشأ عنها﴾

لما صفا للمولى محمد بن الشريف قطر سجلماسة ودرعة حدثته نفسه بالاستيلاء على المغرب اذ هو يومئذ مقر الرياسة ومتبوأ الخلافة فما دام لم يحصل عليه استيلاء فالملك عرضة للزوال وصاحبه ناسج على غير منوال وكان الرئيس أبو عبد الله محمد الحاج الدلائى يومئذ مستوليا على فاس ومكناسة وأعمالهما وامتدت ولايته بعد مهلك أبى عبد الله العياشى الى سلا وأعمالها فلما ظهر المولى محمد بالصحراء واستفحل أمره وقويت شوكته خاف محمد الحاج منه الوثوب على فاس فعاجله بالحرب وعبر اليه نهر ملوية وكان الدلائى أشد قوة من الشريف وأكثر جمعا فضايقه باقليم الصحراء وقصد سجلماسة مرارا وكانت بينهما أثناء ذلك وقعة القاعة ضحى يوم السبت الثانى عشر من ربيع النبوى سنة ست وخمسين وألف فكانت الهزيمة فيها على الشريف وتقدم الدلائى الى سجلماسة فافتتحها واستولى عليها وفعلت البربر فيها الافاعيل العظيمة ثم انبرم الصلح بينهما على ان ما حازت الصحراء الى جبل بنى عياش فهو للمولى محمد وما دون ذلك الى ناحية الغرب فهو لاهل الدلاء ثم استثنى أهل الدلاء خمسة مواضع أخر كانت فى ايالة المولى محمد فجعلوها لهم وهى الشيخ مغفر فى أولاد عيسى والسيد الطيب فى قصر السوق وأحمد بن على فى قصر بنى عثمان وقصر حليمة فى وطن غريس وآسر بر فى فركلة فهذه الاماكن الخمسة شرطوا على المولى محمد أن لا يحرك لهم منها ساكنا وانبرم الصلح على ذلك ورجع أهل الدلاء فى جموعهم فما كان غير بعيد حتى اطلع المولى محمد على ما أوجب الفتك بالشيخ مغفر وبعض من شرطوا عليه بقاءه ففتك بهم واصطلم نعمتهم فبلغ ذلك أهل الدلاء فجمعوا جموعهم ونهضوا الى سجلماسة عازمين على استئصال المولى محمد وشيعته وأن لا يدعوا له قليلا ولا كثيرا وكتبوا اليه كتابا يتهددونه فيه ورموه بالغدر وأنه ناكث ومقسم حانث وأغلظوا له فى الكلام وأفحشوا عليه فى الملام فأجابهم المولى محمد برسالة يقول فيها الى السيد محمد المدعو بالحاج ابن السيد محمد بن أبى بكر بن سيرى الوجارى الزمورى ومن شمله رداء الديوان من الابناء والاخوان سلام على جلهم سلام استحباب وسنة فقد كتبناه اليكم من سجلماسة كتب الله لها من شركم أنفع التمائم وألبسها من الظفر بكم أرفع العمائم وبعد السلام فان نيران هذه الفتن التى أضرمتموها بعد خمودها الستر لها يا أهل اذلم يعرفكم أهل المغرب الا باطعام قصاع العصائد وهجو بعضكم لبعض بما لا يسمع من بشيع القصائد أما العلوم فقد أقررنا لكم فيها انصافا بالتسليم لو قصدتم بها العمل وأجر التعليم وأيم الله لئن نظم فينا الديان يوما من الدهر شمل الديوان لتعاينن أنت أو بنوك ما يحبه لنا البنون والاخوان ولقد حدث السادة أهل البصيره أن ستدور عليكم منا الدائرة المبيره أتطمعون فى النجاة بعد ترويعكم الشرفاء والشريفات والعابدين والعابدات فشمروا ان شئتم عن ساعد الجد للصلح واغتنموا السلم ما دام يساعدكم وقت النجح فان الحرب نار والتخلف عنها بعد ايقادها شنار والله يعلم أن هذه المراودة ليست بجزع ولا وجل منكم وما نشبهكم عند الهراش الا بما يطيش حول المصابيح من الفراش بل المراد الاكيد نشر رداء التبرى لئلا تجأرون متى أنشبنا فيكم مخالب التجرى وما قذفتم به أعراضنا من خسة القدر وانا قساة لا نصغى لقبول العذر فانتم تنهون عن الفحشاء وقدملاتم منها الاحشاء وان زجرتم عنها قلتم كلا وحاشى لكن من نتج نسلا نسب اليه ومن خاف من شئ سلط عليه وأما ما احتوى عليه بساط المغرب ما بين بربر وعرب فقد طمعنا من الله كونه فى القبضه عند ما تمكن اليه النهضه ان لم أكنه بالذات والديوان فبالابناء والاخوان كعوائد الدول يشيد الاخير منها ما أسسه الاول وانظر ما يكون لخاطركم به

الطمئنان فنساعدكم عليه الآن فلله درّه من دغوغي أشاع عارك بابيات أنشدناها مولاى محمد بن مبارك

واعلم بانك من دجاجل مغرب * فبعيسى صولة نصره ستموت
أنتم عكاكز خلفتكم عاهر * وأبو دسير جدكم جالوت
شبانكم مردوكل كهولكم * قرنان صنعة شيخكم ديوث
ضجرت لدولتكم سموات العلى * واستثقلتها الارض والبهموت

وما أنت في الحقيقة الاقرد من القرود والقراد اللاصق في كل كلب مجرود وما صرّحتم به من الصلح بين الملوك مكيدة فقد سبقكم بها السلطان أبو حمو ارحمه الله وحتى الآن رغبتم في الخير فهو مطلبي ومغناطيس طبي وان عشقتم الغير فجوابي لكم قول المتنبي

ولا كتب الا المشرفية والقنا * ولا رسل الا الخميس العرمرم

استيلاء المولى محمد بن الشريف على فاس ثم رجوعه عنها

كان محمد الحاج الدلائي مستوليا على فاس بعد سيدي محمد العياشي كما قلنا وكان أهل فاس يعترضون في طاعته تارة ويستقيمون أخرى فولى عليهم قائده أبا بكر التاملي وأنزله بدار الامارة من فاس الجديد فاتفق ان وقعت بينه وبين أهل فاس القديم حروب فحاصرهم وقطع عنهم الماء فكتب أهل فاس الى المولى محمد بن الشريف يستصرخونه ويضمنون له الطاعة والنصرة بما شاء من عدد وعدة متى قدم عليهم واحتل بين أظهرهم ووافقهم على ذلك عرب الغرب من الخلط وغيرهم فاغتنمها المولى محمد منهم وأقبل مسرعا حتى اقتحم دار الامارة بفاس الجديد منسلخ جمادى الثانية سنة ستين وألف وقبض على أبي بكر التاملي فسجنه وبايعه أهل البلدين فاس القديم وفاس الجديد معا واتفقوا على نصرته والقيام بامره وكتبت له البيعة بفاس سابع رجب فأقام عندهم نحو أربعين يوما واتصل الخبر بمحمد الحاج فجهز اليه جيشا كثيفا فبرز اليهم المولى محمد ودافعهم يوما أو بعض يوم فضعف عنهم وانهزم بظهر الرمكة خارج فاس يوم الثلاثاء عاشر شعبان سنة تسع وخمسين وألف فاسلم فاسا وانكفأ راجعا الى سجلماسة ودخل أهل فاس الذين كانوا معه مدينتهم فاغلقوها عليهم وحاصرهم التاملي وأصحابه وقطع عنهم الماء وجرت خطوب هلك فيها جماعة من أعيان فاس منهم عبد الكريم اللاديني الاندلسي ومحمد بن سليمان وغيرهما وكان ذلك أواخر صفر سنة احدى وستين وألف ثم راجعوا طاعة أهل الدلاء فولى عليهم محمد الحاج ولده أحمد ولما استقر بفاس طالب أهلها باخراج الجناة ورؤس الفتنة من ضريح المولى ادريس رضي الله عنه فتعصب لهم الشريف أبو الحسن علي بن ادريس الجوطي وقام دونهم ثم عجز واختفى حتى أخرج بالامان الى زاوية أهل المخفية ومنها اخرج عن فاس بالكلية وسكنت الفتنة وكان ذلك في رمضان سنة احدى وستين وألف واستمر أحمد الدلائي أميرا على فاس الى أن توفي في عشرين من ربيع الاول سنة أربع وستين وألف وخلفه أخوه محمد ومات سنة سبعين وألف رحم الله الجميع ثم وثب على فاس الجديد أبو عبد الله الدريدي فاستولى عليه

استيلاء المولى محمد الشريف على وجدة وشنه الغارات على تلمسان وأعمالها وما نشأ عن ذلك

لما أيس المولى محمد بن الشريف من فاس والمغرب صرف عزمه لتمهيد عمائر الصحراء وبلاد الشرق فسار يتقرّى الحلل والمداشر والقرى الى ان بلغ بسيط آنكاد فبايعته الاحلاف وهم العمارنة والمنبات من عرب معقل وبايعته سقونة منهم أيضا فسار بهم الى بني يزناسن وكانوا يومئذ في ولاية الترك فأغار عليهم وانتهب أموالهم وامتلأت أيدي العرب من مواشيهم ثم انثنى الى وجدة وكان أهلها يومئذ حزبين بعضهم قائم

بدعوة الترك وبعضهم خارج عنها فانحاز الخارجون الى المولى محمد فاغزاهم بشيعة الترك فانتهبوهم وشردوهم عن البلد وصفت وجدة له فاستولى عليها وكان ذلك أعوام الستين وألف ثم دلته العرب على أولاد زكرى وأولاد على وبنى سنوس المجاورين لهم فشن عليهم الغارات وانتهبهم فدخلوا فى طاعته ثم ساروا الى ناحية ندرومة فشن الغارة على مضغرة وقدية وطرارة ولماصة ورجع الى وجدة فأقام بها مدة ثم توجه الى تلمسان فاغار على سرحها وسرح القرى المجاورة لها واكتسح بسائطها فبرز اليه أهلها ومعهم عسكر الترك الذى كان بالقصبة فاوقع بهم وقتل منهم عددا كثيرا ورجع عوده على بدئه الى وجدة فشتى بها ولما انصرم فصل الشتاء خرج على طريق الصحراء فأغار على الجعافرة وانتهب أموالهم وقدم عليه هنالك محمود شيخ حيان من بنى يزيد بن زغبة وهم اليوم فى عداد بنى عامر بن زغبة فقدم عليه محمود المذكور فى قبيلته مبايعا له ومتمسكا بطاعته وقدمت عليه أيضا دخيسة ففرح بهم وأكرمهم ودلوه على الاغواط وعين ماضى والغاسول فنهب تلك القرى واستولى على أموالها وفرت أمامه عرب الحارث وسويد وحصين من بنى مالك بن زغبة فنزلوا الجبل واشتدوا متحصنين به فرجع عنهم واضطربت أحوال المغرب الاوسط واشرأبت رعاياه الى الانتقاض على الترك وأخذ نبأى معسكر يخندق على نفسه وبعث الى صاحب الجزائر المسمى عندهم بالدولة يخبره بما لحق الرعايا من عيث صاحب سجلماسة فاخرج صاحب الجزائر عساكره وهيأ مدافعه واستعد لحرب المولى محمد وقدم نائبه بالعساكر الى تلمسان فلما سمع به المولى محمد استمر راجعا الى وجدة وفترق العرب الذين كانوا مجتمعين عليه ووعدهم لفصل الربيع القابل ثم قفل الى سجلماسة بعد ماشب نيران الحرب فى الايالة التركية ونسفها نسفا وضرب أولها آخرها ولما وصل عسكر الترك الى تلمسان وأخبروا برجوع المولى محمد الى تافيلالت سقط فى أيديهم ووجدوا البلاد خالية وكل الرعايا قد أجفلت عن أوطانها وتحصنوا بالجبال ولم يأتهم أحد بمؤنة ولا خراج وانحرف عنهم أهل تلمسان أيضا وكانوا قد ركنوا الى المولى محمد وخاطبوه فرأى الترك انهم قد شوركوا فى بلادهم وزوحموا فى سلطانهم فرجعوا الى الجزائر وكان من أمرهم مانذكره الآن

﴿مراسلة عثمان باشا صاحب الجزائر للمولى محمد بن الشريف ومادار بينهما فى ذلك﴾

لما رجع عسكر الترك الى الجزائر وأخبروا صاحبها عثمان باشا الدولة بحال الرعايا وما نالها من صاحب سجلماسة جمع أهل ديوانه وأرباب مشورته وتفاوضوا فى أمر المولى محمد وكيف التخلص من سطوته فلم يروا أجدى لهم من أن يبعثوا اليه برسالة مع اثنين من أعيان الجزائر وعلمائها واثنين من كبار الترك ورؤسائهم لانهم كانوا لايتمكنون من حربه لو أرادوا ذلك لانه يغير ويظفر وينتهب ثم يصحر فلا يمكنهم التعلق بأذياله ولا قطع فراسخه وأمياله فبعثوا اليه برسالة من املاء الكاتب أبى الصون المحجوب الحضرى مع الوفد المشار اليه يقول فيها الحمد لله الذى وصى ولا رخص فى مدافعة اللص والصائل شريفا أومشروفا ونص وهو الصادق سبحانه على فصم عرى أصله المتأصل مجهولا أو معروفا وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم وعلى آله تيجان العز براقع الجباه والخياشم وصحابته صوارم الصولة الحاسمة من الكفر الطلى والغلاصم بالرماح العاملة والسيوف القواصم ولا زال تأبد بعد حمد الله الامقصد خطاب الشريف الجليل القدر الصادق اللهجة والصدر من رتق الله به فتوق وطنه وحمى به من أحزاب الاباطيل أنجاد أرضه واغوار عطنه حافد مولانا على وسيدتنا البتول وولد مولانا الشريف ابن مولانا على السيد الصؤل سلام عليكم مارصعت الجفان سموت البحور ولمعت الجواهر الحسان على بياض النحور ورحمة الله تعالى وبركاته ما أساغت محض الحلال ذكاته وبعد فقد كاتبنا كم من مغنى غنيمة المقيم والظاعن والزائر ورباط الجريد مدينة ثغر الجزائر صان الله من البر

والبحر عرضها وأمن من زعازع العواصف والقواصف أرضها الماعالكم معادن الرياسه وفرسان القيافة والعيافة والفراسه فضلا عن سماء صحامن الغيم والقتام جوه وضحا نشرت عليه الوديقة وقيافقشى ضوءه بان شؤن المملكة لم يتوان عن مكنون علمكم أمرها ولا اعوزعزاءكم زيدها وعمرها وذلك ان الوهاب سبحانه منحكم هيبة وهمة في الجود والحلم والحماسة واختار لكم عنوان عنايتها في غاب الصون سجلماسة لكن فاتكم سر رأي التدبير وأركبتم حزمكم جوح الجهل والتبذير مع ان ذلك في الحقيقة دأب كل مؤسس للدوله لا يجمعها الا بجنايات الجولة والصوله نخرقت على الايالة العثمانية جلباب صونها الجديد من وجدة الابلق الى حدود الجريد فشوشت علينا أخلاق اخلاط الاعراب الى ان تعوقوا علينا في أوفق الآراب وشننت الغارة الشعواء على بني يعقوب فحسمت رسمهم على العقيب والعرقوب وغادرت جماهرهم تسعى على عيالهم الزياني والموزونه في أسواق مستغانم وديار مازونه وجررت ذيل المذلة على أطراف الغاسول والاغواط فالتقطتهم بطانتك التقاط سباع الطير الوطواط وقادك الجاهل الجهم محمود حيان لعين ماضي والصوانع وبني يطفيان فراحت رياح وسويد ينفض كل بطل منهم غباره وطينه على طود راشد وبلد قسطينه ولا كادنا الا ما هتكتم من ستر السر على مرس أبي الربيع السيد سليمان مع انكم أولى من يراعي حرمته وتوقيره ويدافع عنه وعمن سواه ويرفد فقيره وتنسبون العجم للجهل وانهم جفاة وأجلاف ثم صرتم بدلا وأخلاف خرج جيش قصبتنا بتلمسان بما لديهم من الرماة والفرسان فهزمتموهم بقرار وقتلتموهم قتل مذلة واحتقار فقلنا هذا أقل جزاء كل كلب حقير عقور يعترض عرضه لصولة الاسد المصور ولا وافت الآفة في الغالب الا الحضر مع شيع في الاجنة تجني الجناو الحضر كان أولاد طلحة وهداج وخراج يؤدون لهذه المثابة ما ثقل وخف من الخراج ولا يفوتنا من ملازمها وبر ولا شعر ولا صوف ولا سقب ولا جدي ولا خروف الى ان طلعت علينا غرة شمسك السعيده فعادت كل شيعة قريبة عنا بعيده وأعانك افتراق الجفاة من أهل وجده وان نصيبك الاوفر منهم أهل جدة ونجده ولولاك ما ثار علينا أهل تلمسان وأنكروا ما للناء عليهم من قديم الحنانة والاحسان وردوا عليك الساحة والبساط وحرغوبهم أن تزفر علينا بسطوة الثعبان والساط مع علمنا اليقيني ان شجرتنا لا تضعضع بزعازع حيان ولا تندرس ولو انهارت عليها جبال جيان وان الحجر لا يدق بالطوب والخاطف لا يطأ أوطية الخطوب كذلك في المثل جندك خلال الصدر والورود لا يصبرون لصواعق البارود ولا تنجح جحة الدروع والذوابل الا في سوق شن الغارات على حلل القبائل وأما أسوار الجحافل وأدوار الكتائب فلا يصدمها فيهدمها الا سيول الخيول والرماة الرواتب وزنت صولتك لبني عامر لذاذة النفار لكنف الكافر وداخل الوسواس والسوس جبال طرارة ومضغرة وبني سنوس والرعايا تود أن يحتفل لبنها في ضروعها لتختزن في تبن الخداع سنبل زروعها وان قبلت منهم الاقوال والافعال تعل طباعها على الدولة فتصير كالاغوال واياك اياك والغرور لما عثرت عليه في كتاب البوني وأوراق السيوطي وعلى بادي وابن الحاج ورسالة أهل سبتة لعبد الحق بن أبي سعيد المريني بأنك المخصوص بصعود تلك الادراج ذلك منك بعيد الوصول لا تدركه بالسمرة ولا بقبائع النصول وان أوتاد الروم والترك تتقوض من أرض الغرب ولا يبقى من ينازعكم فيها بحرب ولا ضرب ليس لك في غنيمة ادراكه طمع ولا سبيل لتبديد ما نظمه حازم ناوجمع وقد غرتك أضغاث الاحلام وأغوالك ضباب الغيب فأصبح ظنك منه في غياهب الاظلام فان جزمت به فانت لا شك حانث وان كان منكم يقينا فرابع أو ثالث أولكم ثائر والثاني مقتف له سائر والثالث لكما أمير ناثر اما عادل أو جائر ولا تمد تباع المخاطرة الى أوطاننا فتخشى مخالب سطوة سلطاننا أما الشجاعة الغريزة فقد علمنا أن لك منها بالمهيمن تعالى أوفر نصيب وعن ضرب فيها فاصاب الغرض بسهم مصيب لكن غاية كفاية الشجاع اذا حمي الوطيس

الدفاع

الدفاع سيما في هذا الحين التي أبخستها عند الخلاص صناعة البارود والرصاص وجسرك علينا كونك عقابا على فرع شجر أو يعسوب نحل احتمل صدع حجر لو رأيت ملوك آحاد أمصار البر والبحر لعلمت أنك محجوب ومحجور في حق ذلك الحجر وتحققت ان بين الامراء مدارة ومراعاة وأن أحوال الدول أيام وساعات كل أحد يخاف على صدع نخاره ويطلق بخوره تحت نتن بخاره وما مرادنا الا أمان العرب في المواضع ليطيب لها جولان الانتقال في المشاة والمرابع ويجلب اليهم الغنى والعديم ما يحصل له فيه ربح من الكساء والحناء والاديم فان تعلقت همتك بالامارة فعليك بالمدن التي بجرها عليك همج البرابر فصار يدعى لها بها على المنابر فشدّ لها حيازيمك لتذوق حلاوة الملك المجونة بمرهم النجاة أو الهلاك دع عنك وطن الرمال والعجاج ومخاطرة النفس في الفدافد والفجاج فناشدناك جدّك من الاب والام وما لك فيه من أخ وخال وعم الا ما تجنبت ساحات تلمسان ولا زاحمتها بجموع رماة ولا فرسان وان اشتهت الاعراب غارات بعضها على بعض فوعدها امانأى عنا من مطلق الارض وحسبنا أبدا على الغالب لتعلموا أن رأيهم عن معاني الصواب غائب اذ كلهم ذوو جفاء ونفار ويعمهم عند الدول ما يعم الكفار ليبقى بيننا وبينكم الستر المديد على الدوام وتلغى كلام الوشاة من الاقوام وقد شيعنا نحوكم أربعة صحاب تسر بمجالستهم الخواطر والرحاب الفقيه الوجيه السيد عبد الله النفزي والفقيه الابر السيد الحاج محمد بن علي الحضري المزغنائي واثنين من أركان ديواننا وقواعد اوانئا أتراك سيوط وغاية غرضنا جميل الجواب بما هو أصفى وأصدق خطاب والله تعالى يوفقنا لاحمد طريق ويحشرنا مع جدّك في خير فريق آمين والسلام وكتب في منتصف رجب الفرد الحرام عام أربعة وستين وألف اهـ

ولما وصلت الرسل الى المولى محمد وقرأ الكتاب اغتاظ مما تضمنه من العتاب فاحضر الرسل وعاتبهم على قول مرسلهم وتحامله عليه فقالوا والله نحن أتيناك سفراء برسالة باشا الجزائر فاكتب لنا الجواب ولا تقابلنا بعتاب فقال صدقتم فكتب اليهم بكتاب يقول في أوّله (وبعد) فقد كتبناه اليكم من غرة جبين الصحارى وصرّة أمصار المغارب والبرارى مغنى سجلماسة التي هي قاعدة العرب والبربر المسماة في القديم كنز البركه حالتي السكون والحركه ومضى في كتابه الى أن ختمه ولم يجبهم الى ما أرادوا ولما رجعوا برسالته الى صاحب الجزائر قرأها بحضر أرباب الديوان ثم ردّهم في الحين دون كتاب ولما قدموا على المولى محمد ثانية قالوا والله انه لم يكن لنا علم بما في الكتاب ولو اكتفينا به ما رجعنا اليك نحن جئناك لتعمل معنا شريعة جدّك وتقف عند حدّك فما كان جدّك يحارب المسلمين ولا يأمر بنهب المستضعفين فان كان غرضك في الجهاد فرابط على الكفار الذين هم معك في وسط البلاد وان كان غرضك في الاستيلاء على دولة آل عثمان فابرز اليها واستعن بالرحيم الرحمن فلا يكن عليك في ذلك ملام فهذا ما جئنا له والسلام وأما ايقاد نار الفتنة بين العباد فليس من شيم أهل البيت الامجاد ولا يخفى عليك أن ما تفعله حرام لا يجوز في مذهب من مذاهب المسلمين ولا قانون من قوانين الاعجام وهذان فقيهان من علماء الجزائر قد جا آ اليك حتى يسمعا منك ما تقوله ويحكم الله بيننا وبينك ورسوله فقد تعطلت تجارتنا وأجفلت عن وطنها رعيتنا فما جوابك عند الله في هذا الذي تفعله في بلادنا وأنت ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم مع انه لم يعجزنا أن نفعله نحن في بلادكم ورعيتكم على اننا محمولون على الظلم والجور عندكم لكن تأبى ذلك همة سلطاننا فلما سمع المولى محمد كلامهم أثر فيه وعظهم ودا خلته القشعريرة وعلاه سلطان الحق فأذعن له وقال والله ما أوقعنا في هذا المحذور الا شياطين العرب انتصروا بنا على أعدائهم وأوقعونا في معصية الله وأبلغناهم غرضهم فلا حول ولا قوة الا بالله وانى أعاهد الله تعالى لا أعرض بعد هذا اليوم لبلادكم ولا لرعيتكم بسوء وأني أعطيكم ذمة الله وذمة رسوله لا قطعت وادي تافنا الى ناحيتكم الا فيما يرضي الله ورسوله وكتب لهم بذلك عهدا الى صاحب الجزائر وقنع بما فتح الله عليه من سجلماسة ودرعة وأعمالهما

ولم يعد يغزو الشرق ولا توجه اليه بعد ذلك الى أن خرج عليه به أخوه المولى الرشيد فكان من أمره معه ما نذكر بعد ان شاء الله

﴿ثورة المقدم أبي العباس الخضر غيلان الجرفطي ببلاد الهبط﴾

كان أبو العباس الخضر غيلان الجرفطي من أصحاب أبي عبد الله العياشي وكان مقدما على الغزاة ببلاد الهبط ولما قتل العياشي في التاريخ المتقدم استقل هو برياسة تلك الجهة واستمرت حاله الى سنة ثلاث وستين وألف فثار بالقصر وزحف الى قصر كتامة فبرز اليه أهله فاقتتلوا مليا ثم انهزموا واتبعهم الخضر فاقتحم القصر عنوة وقتل جماعة وافرة من أعيانه وفر الكثير منهم الى فاس منهم أولاد الفقيه أبي عبد الله القنطري من أعيان القصر وبقي الخضر متغلبا على تلك الناحية وفي ذي الحجة سنة تسع وستين وألف خرج من فاس المرابط الرئيس أبو سلهام بن كدار واتصل بالخضر غيلان وصار في جملته وكان أبو سلهام المذكور ممن ظاهر الدلائيين على سيدي محمد العياشي فبقي ذلك في قلب الخضر غيلان حتى قبض على أبي سلهام المذكور واعتقله بآصيلا ثم سرحه بعد حين قاله في نشر المثاني

﴿وفاة المولى الشريف بن علي رحمه الله﴾

كان المولى الشريف بن علي بسجلماسة وأعمالها على ما وصفناه قبل من الوجاهة والرياسة والسيادة ممتثل الامر متبوع العقب منذ نشأ ثم بايعه أهل سجلماسة سنة احدى وأربعين وألف ونازعه بنو الزبير أصحاب تابوعصامت وبذلك استصرخ عليهم أبا حسون السملالي حتى ملك سجلماسة كما مر ولما تخلص من نكبة السوس وعاد الى سجلماسة وجد ابنه المولى محمدا قد قام بالامر بعده فتخلى له عنه وقطع بقية عمره فيما يرضي الله تعالى الى ان أتاه اليقين ثالث عشر رمضان سنة تسع وستين وألف بسجلماسة مسقط رأسه ومقر عزه ومنبت أشباله ومدرج ملوكه واقياله وجددت البيعة للمولى محمد ففارقه أخوه المولى الرشيد فخرج الى الجبال فبقي متنقلا في احيائها الى ان كان من أمره ما نذكره

﴿اغارة المولى محمد بن الشريف على عرب الحياينة من أعمال فاس وما يتبع ذلك﴾

لما كان آخر سنة ثلاث وسبعين وألف أغار المولى محمد الشريف على زرع الحياينة باحواز فاس فانتسفه وأفسده ووقعت عقب ذلك مجاعة عظيمة أكل الناس فيها الجيف والدواب والآدمي وخلت الدور وعطلت المساجد وخرج أهل فاس يستغيثون بأهل الدلاء وكان الشريف أبو عبد الله محمد بن عبد الله ابن علي بن طاهر الحسني قد قدم فاسا بقصد أن يبايعه أهلها فلم يجيبوه وقيل بل نصره بعضهم وخرج الى عرب الحياينة فذهب بهم الى قتال المولى محمد بن الشريف فلم يلقه وفي أوائل سنة أربع وسبعين وألف حاز طاغية النجليز طنجة من يد البرتقال ﴿قال في البستان﴾ لضعفهم عن مقاومة المسلمين يومئذ بسبب ان المسلمين غزوهم في هذه الايام فقتلوا منهم ستمائة مقاتل ثم غزوهم فقتلوا منهم أربعمائة أخرى ﴿وقال منويل القشتيلي﴾ في كتابه الموضوع في أخبار المغرب الاقصى سبب ذلك أن طاغية البرتقال وهو اخوان السادس يقال بالتاء والجيم أراد تأكيد المحبة بينه وبين طاغية النجليز وهو كارلوس الثاني فزوجه أخته وجهزها اليه بمفاتيح طنجة فبقيت بيده اثنين وعشرين سنة ثم تخلى عنها للمسلمين اهـ

﴿قيام المولى الرشيد بن الشريف على أخيه المولى محمد ومقتل الاخ المذكور رحمه الله﴾

قد قدمنا ما كان من فرار المولى الرشيد عن أخيه المولى محمد يوم وفاة أبيهما رحمه الله فذهب المولى الرشيد يومئذ الى تدغة فأقام بها مدة ثم سار الى دمنات فأقام بها مدة أيضا ثم أتى زاوية أهل الدلاء فأقام عندهم

ماشاء الله فيقال ان بعض أهل الزاوية أشار عليه بالخروج منها خوفا عليه من الفتك به لان الدلائيين كانوا يزعمون فيما عندهم من العلم أن خلاء الزاوية يتم على يده فقيل المولى الرشيد اشارته ثم خرج الى جبل آصر وافاقام به برهة من الدهر ثم توجه الى فاس ومعه نفر قليل فبات بظاهر فاس الجديد فاكرم رئيسها أبو عبد الله الدريدي ضيافته ومن الغد ارتحل عنها الى تازا ثم الى عرب الاحلاف ﴿وقال في النزهة﴾ الى أن أدّته خاتمة المطاف الى قصبة اليهودي ابن مشعل وكان لهذا اليهودي أموال طائلة وذخائر نفيسة وله على المسلمين صولة واستهانة بالدين وأهله فلم يزل المولى الرشيد يفكر في كيفية اغتيال اليهودي المذكور الى أن أمكنه الله منه في خبر طويل فقتله واستولى على أمواله وذخائره وفرّقها فيمن تبعه وانضاف اليه من عرب آنكاد وغيرهم فقوى عضده وكثر جمعه اه ﴿وقال صاحب نشر المثاني﴾ ان المولى الرشيد لما ارتحل عن فاس قدم على الشيخ أبي عبد الله اللواتي باحواز تازى وكان الشيخ المذكور ينتحل طريقة الفقر ويعظم أهل البيت فبالغ في اكرامه فبينما هو مقيم عنده اذ رأى ذات يوم رجلا ذاهبًا من عماليك وأتباع وخيل وهو يصطاد كهيئة الملوك فسأل عنه فقيل له هذا ابن مشعل من يهود تازى فانصرف المولى الرشيد وجعل مدية في فمه وجاء الى الشيخ اللواتي فلما رآه الشيخ على تلك الحال أعظم ذلك وقال له المال والرقبة لك ياسيدى فما الذى دهاك قال تأمر جماعة من عشيرتك يسيرون معى حتى أقتل بهذا اليهودي غيرة على الدين فقال قد فعلت لا يتخلف عنك منهم أحد فاختار المولى الرشيد منهم جماعة وواعدهم على تبييت اليهودي واقتحام داره عليه وكان اليهودي قد اتخذ دارا بالبيداء على نحو مرحلة من تازى في جهة الشرق فلما كانت ليلة الموعد تقدم المولى الرشيد الى دار ابن مشعل في صورة ضيف فأضافه ابن مشعل ولما انتصف الليل أحاط أصحابه بالدار وكبس المولى الرشيد اليهودي في بعض خلواته فقتله وأدخل الرجال فاستولى على دار ابن مشعل بعد الفتك بأصحابه وحراسه وعثر فيها على أموال كثيرة وذخائر نفيسة وقيل وهو الشائع عند بني يزناسن أن ابن مشعل المذكور كان مقيما بين أظهرهم قد اتخذ حصنا ببعض جبالهم وهم محدقون به فجاءهم المولى الرشيد ولم يزل يلاطفهم في شأن اليهودي حتى أثر كلامه فيهم ونمى الى اليهودي بعض ذلك وانهم مسلموه فنزل الى المولى الرشيد بهدية نفيسة يسترضيه بها فلم يكن باسرع من ان قبض عليه وقتله وتقدم الى الدار فاستولى عليها واستخرج مافيها من الاموال فالله أعلم أى ذلك كان ثم ان المولى الرشيد دعا لنفسه اعراب الشرق وجمع كلمتهم ونزل وجدة واتصل ذلك كله باخيه المولى محمد صاحب سجلماسة فتخوف منه لما يعلم من صرامته وشهامته فنهض لقتاله والقبض عليه فلما التقى الجمعان ببسيط آنكاد كانت أول رصاصة في نحر المولى محمد فكان فيها حتفه وذلك يوم الجمعة التاسع من المحرم سنة خمس وسبعين وألف ودفن بدار ابن مشعل فأسف المولى الرشيد لقتله وأظهر الحزن عليه وتولى تجهيزه بنفسه فحمله الى بني يزناسن وواراه هنالك في رمسه رحمه الله وغفر له وكان المولى محمد شجاعا مقداما لا يبالى بالعظائم ولا يخطر بباله خوف الرجال ولا يدرى ماهي النكبات والاوجال وتقدم وصف أهل الدلاء له بقولهم الاجدل الذى لا تؤوده هموم الليالى ولا حرارة قيظ المصيف عقاب أشهب على قنة كل عقبة لا يقنعه المال دون حسم الرقبة وشجاعته شهيرة وكان مع ذلك قويا في بدنه أيدا في أعضائه وجسمه لا يقاوم في الصراع ولا يزاول في الدفاع ﴿حكى﴾ انه في بعض أيام حصاره لتابوعصامت جعل يده في بعض ثقب الحصن وصعد عليها مالا يحصى من الناس حتى كأنها خشبة منصوبة ولبنة مضروبة وكان سخيا جدا حتى انه أعطى الاديب الشهير المتقدم في صناعة الشعر المعرب والملحون أبا عثمان سعيدا التلمساني صاحب القصيدة العقيقية وغيرها نحوا من خمسة وعشرين رطلا من خالص الذهب جائزة له على بعض امداحه فيه وحكاياته في هذا المعنى شهيرة ولما قتل رحمه الله قام بسجلماسة ولده المولى محمد الصغير مقامه لكن لم يتم له أمر وسيأتى بعض خبره ان شاء الله

﴿الخبر عن دولة أمير المؤمنين المولى الرشيد بن الشريف رحمه الله﴾

لما قتل المولى محمد بن الشريف رحمه الله في التاريخ المتقدم وانحشرت جموعه كلها الى أخيه المولى الرشيد فبايعوه البيعة العامة ودخل في طاعته الاحلاف وبنو يزناسن وغيرهم وبعث الى أهل تلك النواحي كلها من العرب والبربر يدعوهم الى الطاعة واجتماع الكلمة فقدمت عليه وفودهم بالهدايا وكتب من كان مع أخيه في ديوان جيشه وكساهم وأعطاهم الخيل والسلاح وعظم أمره وعلا كعبه ثم احتاج الى المال وكان قد أخذ ولد اليهودي ابن مشعل يوم قتل أباه فجاءت أمه تطلب فداءه فتفرس فيها وماطلها به ثم قال لا أسرحه حتى تدليني على مال زوجك أو أقتله فانعمت له بذلك وركب معها الى القصبة فدلته على خزانة في بيت فنقب عنها فالفى فيها خوابي مملوءة ذهبا وفضة فاستخرجها وارتاش بتلك الاموال وفرق منها على من معه من العرب والبربر وسائر الاجناد فحسنت حاله وحالهم وعد ذلك من سعادته ولما قضى أربه ورتب جنده بعث رسله الى الآفاق بالاعذار والانذار والوعد والوعيد لاهل الطاعة والعصيان ثم سار على أثرهم قاصدا فتح المغرب الذي كان قد تعذر على أخيه من قبله فنزل على وادي ملوية وأقام به أياما للاستراحة وانتظار من يأتيه من أهل تلك النواحي مثل جاوت والريف وغيرهما فلم يأته أحد والله غالب على أمره

﴿فتح مدينة تازا ثم سجلماسة وما تخلل ذلك﴾

لما أقام المولى الرشيد رحمه الله على ملوية ولم يأته من أهل المغرب أحد تقدم الى تازا فافتتحها بعد محاربة طويلة وبايعه أهلها والقبائل التي حولها ولما اتصل خبر ذلك باهل فاس اجتمعوا مع جيرانهم من عرب الحياينة والبهاليل وأهل صفرو وغيرهم وتحالفوا على حرب المولى الرشيد وعدم بيعته بحال ظنا منهم أنه يفعل بهم ما فعله أخوه المولى محمد بالحياينة من النهب والقتل وأمر رؤساء فاس عامتها بشراء الخيل والعدة والاكثار منها ووظفوا على كل دار مكحلة ومن لم توجد عنده مكحلة منهم يعاقب فاشتروا من ذلك فوق الكفاية وخرجوا الى باب الفتوح لعرض الخيل والسلاح وعملوا اللعب المسمى بالميز واجتمعوا أيضا مع الحياينة وأكدوا الحلف على حرب المولى الرشيد ولما بلغه خبرهم وما هم عليه أعرض عنهم وعدل الى سجلماسة وكان ذلك منه صوابا في الرأي اذ قدم الاسهل فالاسهل وتناول الاخف فالاخف ولما أناخ على سجلماسة حاصرها نحو تسعة أشهر الى ان فر عنها ابن أخيه المولى محمد الصغير المنتزي بعد أبيه كما مر فخرج منها ليلا ودخلها المولى الرشيد واستولى عليها وسد فرجها ورتب حاميتها ومهد أطرافها ورجع الى تازا فاحتل بها ولكل أجل كتاب

﴿حصار مدينة فاس ثم فتحها والايقاع بثوارها﴾

لما قفل المولى الرشيد رحمه الله من سجلماسة الى تازا أقام بها أياما فاتفق أهل فاس مع أحلافهم من الحياينة أن يغيروا عليه بمستقره منها ويبدؤه بالحرب قبل ان يبدأهم ليكون ذلك كاسرا من شوكته وفاتا في عضده فتأهبوا للحرب وخرجوا في شوال سنة خمس وسبعين وألف ولما قابلوا محلته افترقت كلمتهم ورجعوا منهزمين من غير قتال فتبعهم المولى الرشيد الى قنطرة نهر سبو خارج فاس ثم رجع عنهم فبعثوا اليه في الصلح فلم يتم بينه وبينهم صلح الى ان ملك أطراف المغرب كله وكان ذلك من حسن تدبيره وترتيبه الامور * ثم دخلت سنة ست وسبعين وألف ففي صفر منها زحف الى فاس وحاصرها وقاتلها ثلاثة أيام فأصابته رصاصة في طرف أذنه ورجع سالما ثم عاد الى حصارها مرة أخرى في ربيع الاول من السنة المذكورة فقتل ونهب ورجع الى تازا لانه لم يأت بقصد فتحها ثم توجه الى الريف بقصد الرئيس أبي محمد

عبد الله أعراس الثائر به فكانت بينهما وقعات وحاصره في بعض حصونه الى أن قبض عليه في رمضان من السنة فعفا عنه واستبقاه وكر راجعا الى فاس فنزل عليها في أواخر ذي القعدة من السنة وقاتلها قتالا شديدا الى ثالث ذي الحجة فاقتحم فاسا الجديد من أعلا السور من ناحية الملاح وفر أميرها يومئذ أبو عبد الله الدريدي وهذا الدريدي كان في جملة من اخوانه بني دريد بن اثبج الهلاليين وكانوا في ديوان السعديين ولما بايع أهل فاس الرئيس أبا عبد الله محمد الحاج الدلائي كان الدريدي هذا في عسكره فلما افشلت ريح أهل الدلاء بالمغرب نزع عنهم واستبد بفاس الجديد وحالف أهل فاس القديم على حرب الدلائيين ثالث جمادى الثانية سنة أربع وسبعين وألف وقد كان أحمد بن صالح اللبريني رئيس أهل عدوة الاندلس قد خطب ابنة الدريدي لولده صالح بن أحمد فزوجه اياها والتحم ما بينهما فكان الدريدي يشن الغارات على قبائل البربر الذين بأحواز مكناسة وغيرها ويأتي بالنهب والطبل يقرع عليه الى أن يدخل دار الامارة واستمر على ذلك الى ان اقتحم عليه المولى الرشيد فاسا كما قلنا ففر الى منجاته ﴿وقال في النزهة﴾ بل قتله المولى الرشيد وسكن هيعة فاس الجديد ومن الغد زحف الى فاس القديمة فحاصرها وقاتلها فضعفوا عن مقاومته وفر رئيس اللطيين ابن الصغير وولده ليلا الى بستيون باب الجيسة ولما طلع الفجر فر أيضا رئيس عدوة الاندلس أحمد بن صالح فرأى أهل فاس ان أمرهم قد ضعف وكلمتهم قد افترقت فخرجوا الى المولى الرشيد وبايعوه واجتمعت كلمتهم عليه فبعث في طلب ابن صالح فوجد بحوز المدينة فجيء به وسجن بباب دار ابن شقرا بفاس الجديد ثم قتل وقتل معه عدة من أصحابه ثم قبض على ابن الصغير وولده وبعد سبعة أيام أمر السلطان بقتلهما فقتلا واستقام أمر فاس وصلحت أحوالها ﴿وقال في النزهة﴾ افتتح أمير المؤمنين المولى الرشيد فاسا القديمة فحكم السيف في رؤسائها وأفناهم قتلا فتمهدت البلاد واجتمعت الكلمة وكان دخوله حضرة فاس القديمة صبيحة يوم الاثنين أوائل ذي الحجة سنة ست وسبعين وألف وبويع بها اثر ذلك ولما تمت له البيعة أفاض المال على علمائها وغمرهم بجزيل العطاء وبسط على أهلها جناح الشفقة والرحمة وأظهر احياء السنة ونصر الشريعة فحل من قلوبهم بالمكان الارفع وتمكنت محبته من قلوب الخاصة والعامة اه وولى قضاء فاس السيد حمدون المزوار ثم خرج الى بلاد الغرب فقصد الخضر غيلان الثائر ببلاد الهبط وكان بقصر كتامة فزحف اليه المولى الرشيد فانهزم الخضر الى آصيلا ورجع المولى الرشيد عنه الى فاس أوائل ربيع الاول سنة سبع وسبعين وألف فكتبت له البيعة بفاس وقرئت بين يديه قبل زوال يوم السبت الثامن عشر من ربيع الاول المذكور ثم في شهر ربيع الثاني من السنة غزا المولى الرشيد أحواز مكناسة وقصد آيت واللال من البربر شيعة محمد الحاج الدلائي فأوقع بهم ورجع عوده على بدئه وبعد رجوعه نزل محمد الحاج بجموع البربر قرب وادي فاس بابي هن وره من أحواز فاس فقاتله المولى الرشيد ثلاثا ورجع كل الى وطنه ثم خرج المولى الرشيد الى تازا وأعمالها حادي عشر رجب فتفقدها ورجع الى فاس في شوال من السنة المذكورة ثم عزل القائد مكناسة ثم خرج ثاني يوم النحر من السنة الى بني زروال فاوقع بالشريف النابغ فيهم وبعث به محبوسا الى فاس فدخلها ثاني محرم سنة ثمان وسبعين وألف ثم مال المولى الرشيد الى تطاوين فقبض على رئيسها أبي العباس النقسيس في جماعة من حزبه وقدم بهم الى فاس فسجنهم بها أوائل ربيع الاول سنة ثمان وسبعين وألف الى أن كان من أمرهم ما نذكره

﴿فتح زاوية الدلائي وتغريب أهلها الى فاس وتلمسان وما يتبع ذلك﴾

لما كانت ضحوة يوم الخميس الثاني عشر من ذي القعدة سنة ثمان وسبعين وألف خرج أمير المؤمنين المولى الرشيد رحمه الله غازيا زاوية أهل الدلاء وكان قد أسند الفتوى الى الفقيه أبي عبد الله محمد بن أحمد الفاسي فلقي جموع الدلائيين وعليهم ولد محمد الحاج ببطن الرمان من فازاز فانتشبت الحرب بين الفريقين مليا

ثم انهزم الدلائيون ورجعوا يقفون أثرهم الى الزاوية ﴿وقال الشيخ اليوسى رحمه الله فى محاضراته﴾ كان الرئيس أبو عبد الله محمد الحاج الدلائى قد ملك الغرب بسنين عديدة واتسع هو وأولاده واخوته وبنو عمه فى الدنيا فلما قام السلطان المولى الرشيد بن الشريف ولقى جموعهم ببطن الرمان ففضها دخلنا على الرئيس أبى عبد الله المذكور وكان لم يحضر المعركة لعجزه وكبر سنه يومئذ فدخل عليه أولاده واخوته وأظهروا له حزنا شديدا وضيقا عظيما فلما رأى منهم ذلك قال لهم ماهذا ان قال لكم حسبكم فحسبكم يريد الله تعالى قال اليوسى وهذا كلام عجيب واليه يساق الحديث والمعنى ان قال الله تعالى لكم حسبكم من الدنيا فكفوا راضين مسلمين اه وكان استيلاء المولى الرشيد على الزاوية فى ثامن المحرم سنة تسع وسبعين وألف ولما خرج اليه أهلها عفا عنهم ولم يرق منهم دما ولا كشف لهم سترا حلما وكرما منه رحمه الله ﴿وقال فى النزهة﴾ لما وقعت الهزيمة على أهل الدلاء دخل المولى الرشيد الزاوية وأمر محمد الحاج وأولاده وأقاربه أن يحملوا الى فاس ويسكنوا بها فحملوا اليها واستوطنوها مدة ثم أمر أن يذهب بهم الى تلمسان فغربوا اليها وسكنوها مدة * وحدثوا أن محمد الحاج رحمه الله لما دخل تلمسان قال كنت وجدت فى بعض كتب الحدثان انى أدخل تلمسان فظننت أنى أدخلها دخول الملوك فدخلتها كما ترون ولم يزل بها الى أن توفى فاتح سنة اثنتين وثمانين وألف ودفن عند ضريح الامام السنوسى رضى الله عنه ولما توفى المولى الرشيد رجع أولاده وأقاربه الى فاس فاستوطنوها باذن من السلطان المظفر المولى اسمعيل ولما دخل المولى الرشيد الزاوية غير محاسنها وفرق جموعها وطمس معالمها وصارت حصيدا كأن لم تغن بالامس بعد ان كانت مشرقة اشراق الشمس فمحت الحوادث ضياءها وقلصت ظلالها وأفياءها وطالما أشرقت بابى بكر وبنيه وابتهجت وفاحت من شذاهم وتأرجت ارتحل عنها فرسان الاقلام الذين يجاب بوجوههم الظلام وبانت عنها ربات الخدور وأقامت بها اثافى القدور ولقد كان أهلها يعفون آثار الرياح فعفت آثارهم وذهبت الليالى باشخاصهم وأبقت أخبارهم فثل ذلك العرش وعدا الدهر حين أمن من الارش ولم يدفع الرمح ولا الحسام ولم تنفع تلك المنن الجسام فسقا الدنيا ما رعت لهم حقوقا ولا أبقت لهم شروقا وهى الايام لا تتقى من تجنيها ولا تبقى على مواليها ومدانيها اذهبت آثار جلق وأخمدت نار المحلق وذللت عزة ابن شداد وهدت القصر ذى الشرفات من سنداد وكل يلقى مجله وموجله ويبلغ الكتاب يوما أجله ولقد أحسن ربى نعمتهم المقر باحسانهم ومنتهم شيخ مشايخ المغرب على الاطلاق الامام الذى وقع على علمه وعمله الاتفاق أبو على الحسن بن مسعود اليوسى رحمه الله فى رائيته الذى رثى بها الزاوية المذكورة وبكى أيامها يقول فى مطلعها

أكلف جفن العين أن ينثر الدرا * فيأبى ويعتاض العقيق بها حمرا

وهى طويلة شهيرة ﴿قلت﴾ ولم يصرح فيها باسمائهم مراعاة لجانب السلطان وذلك هو الواجب والمناسب فرحم الله الشيخ اليوسى ما كان أخبره بمقتضيات الاحوال

﴿فتح مراكش ومقتل الامير أبى بكر الشبانى وشيعته﴾

لما فرغ المولى الرشيد رحمه الله من أمر الزاوية توجه الى مراكش فى الثانى والعشرين من صفر من السنة أعنى سنة تسع وسبعين وألف فاستولى عليها وقتل رئيسها أبا بكر بن عبد الكريم الشبانى وجماعة من أهل بيته ﴿وقال فى النزهة﴾ لما بلغ أبا بكر الشبانى وقومه مسير المولى الرشيد اليهم خرجوا فارين بانفسهم من مراكش الى شواهق الجبال لما خامر قلوبهم من رعبه فدخل المولى الرشيد مراكش وأفنى من وجد بها من الشبانات وقبض على أبى بكر وبنى عمه فعرضهم على السيف واستنزل تلك الفئة الشريدة من الصياصى وأخذ منهم بالاقدام والنواصى وأخرج عبد الكريم من قبره فاحرقه بالنار ولما فتح مراكش قام بها نحو شهر ثم رجع الى فاس فدخلها يوم الجمعة السابع والعشرين من ربيع

الثاني من السنة المذكورة وفي هذه السنة خرج المولى محمد الصغير من تافيلالت في شيعته وخلى سبيل البلد وفيها أيضا ركب الخضر غيلان البحر الى الجزائر وخلى سبيل آصيلا ولما رجع المولى الرشيد الى فاس عزل أباعبد الله الفاسي عن الفتوى وعزل الفقيه المزوار عن قضائها منسلخ جمادى الثانية من السنة وولى القضاء الفقيه أباعبد الله محمد بن الحسن المجاصي والخطابة بجامع القرويين الفقيه أباعبد الله محمدا البوعناني وفي منتصف رجب من السنة المذكورة غزا المولى الرشيد بلاد الشاوية ورجع الى فاس في سابع رمضان العام فعفا عن بعض أهل الدلاء وبقي الآخرون بضريح الشيخ أبي الحسن علي ابن حرزهم الى تمام السنة فعفا عن الجميع وردهم الى بلادهم الا ما كان من محمد الحاج وبنيه فانهم غربوا الى تلمسان ومات هو هنالك ولما ولي الأمر المولى اسمعيل وقعت الشفاعة في الاولاد فرجعوا الى فاس كما مر وفي يوم السبت سابع عشر ذي الحجة من السنة غزا المولى الرشيد آيت عياش من برابر صنهاجة وفيها أمر بضرب السكة الرشيدية وأقرض تجار فاس وغيرها اثنين وخمسين ألف مثقال بقصد التجارة الى أن ردوها بعد سنة وفي هذه السنة أيضا حاز طاغية الاصبنيول مدينة سبتة من يد البرتقال في سبيل مشارطة وقعت بينهم في مدينة اشبونة واستمرت في يد الاصبنيول الى الآن

﴿بناء قنطرة وادي سبو خارج فاس﴾

وفي يوم السبت الرابع عشر من ذي القعدة سنة تسع وسبعين وألف أمر المولى الرشيد ببناء قنطرة نهر سبو ذات الاقواس الاربعة خارج فاس فأخذوا في تهيئة الاسباب وحفر الاساس وفي منتصف جمادى الثانية سنة ثمانين وألف شرعوا في البناء بالآجر والجير فكملت على أحسن حال ولما تكلم الشيخ اليوسي في المحاضرات على الحديث الصحيح ان أخنع الاسماء عند الله رجل تسمى بملك الاملاك قال ما نصه ومن البشيع الواقع في زماننا في الاوصاف انه لما بنى السلطان المولى الرشيد بن الشريف جسر نهر سبو صنع بعضهم يعني القاضي أباعبد الله المجاصي أبياتا كتبت فيه برسم الاعلام أولها

صاغ الخليفة ذا المجاز * ملك الحقيقة لا المجاز

قال فحمله اقتناص هذه السجعة والتغالي في المدح والاهتبال بالاسترضاء على ان جعل ممدوحه ملكا حقيقيا لا مجازيا واغا ذلك هو الله وحده وكل ملك دونه مجاز الممدوح وغيره اه وفي هذه السنة وذلك يوم الاثنين الثاني والعشرين من رجب خرج المولى الرشيد غازيا الابيض فقبض على أولاد أخي الابيض ولما وصل الى تازا أمر بقتلهم فقتلوا ثم مرض مرضا شديدا أشرف منه على الموت فأمر بتسريح المساجين واخراج الصدقات فعافاه الله وفي منتصف ذي القعدة من السنة أمر باعمال وليمة العرس لاخيه المولى اسمعيل بدار ابن شقراء من حضرة فاس الجديد ﴿قال اليفرني﴾ احتفل المولى الرشيد في ذلك العرس بما لم يعهد مثله اه وكانت العروس من بنات الملوك السعديين وفي شوال من السنة جدد قنطرة الرصيف بفاس والله أعلم

﴿فتح تارودانت وايليغ وسائر السوس﴾

قد قدمنا أن أباحسون السملالي كان مستوليا على بلاد السوس فاستمر حاله على ذلك الى أن توفي سنة سبعين وألف وكان رحمه الله لين الجانب محمود السيرة موصوفا بالعفة متوقفا في الدماء ولما هلك خلفه ولده أبو عبد الله محمد بن أبي حسون فلما كانت سنة احدى وثمانين وألف غزا المولى الرشيد رحمه الله بلاد السوس فاستولى على تارودانت رابع صفر من السنة وأوقع بهستوكة فقتل منهم أكثر من ألف وخمسمائة وأوقع باهل الساحل فقتل منهم أكثر من أربعة آلاف وأوقع باهل قلعة ايليغ دار ملك أبي حسون فاستولى عليها في مهل ربيع الاول من السنة وقتل منهم بسفح الجبل أكثر من ألفين وصفا

أمر السوس للمولى الرشيد ﴿وفي هذه السنة أيضا﴾ في سابع ربيع الاول منها قتل المولى اسمعيل وكان نائبا عن أخيه بفاس ستين رجلا من أولاد جامع وكانوا يقطعون الطريق فقتلهم وصلبهم على سور البرج الجديد ﴿وفيها في جمادى الاخيرة منها﴾ أمر المولى الرشيد بضرب فلوس النحاس المستديرة وكانت قبل مربعة وهي الاشقوبية وجعل أربعة وعشرين في الموزونة وكانت قبل ثمانية وأربعين ورجع الى فاس في ثالث رجب من السنة ﴿وفي أول شعبان منها﴾ شرع في بناء مدرسة الشراطين بدار الباشا عزوز من فاس وكان قد أمر ببناء مدرسة عظيمة بازاء مسجد الشيخ أبي عبد الله محمد بن صالح من حضرة مراكش والله لا يضيع أجر من أحسن عملا

﴿تأليف جيش شراقة وأوليتهم وشرح لقبهم﴾

قد قدمنا في أخبار السعديين أن لفظ شراقة في الاصل لقب لعرب بادية تلمسان ومن انضاف اليهم وسموا بذلك لانهم في جهة الشرق عن المغرب الاقصى فاهل تلمسان مثلا يسمون أهل المغرب الاقصى مغاربة وأهل المغرب الاقصى يسمون أهل تلمسان مشارقة الا أن العامة يلحنون في هذه النسبة فيقولون شراقة بتخفيف الراء والقاف المعقودة وقد كان للسعديين جند من هؤلاء العرب كما مر ولما جاء الله بدولة أمير المؤمنين المولى الرشيد رحمه الله واجتمع عليه من عرب آنكاد وغيرهم ما قدمناه ذكره نزع اليه من أهل تلك البلاد عدة قبائل بعضها من العرب وبعضها من البربر أنفاما من ولاية الترك فقبلهم فمن العرب أشجع وبنو عامر ومن البربر مديونة وهوارة وبنو سنوس فامر رحمه الله ببناء القصبة الجديدة بفاس بديار لمتون وعرصة ابن صالح وبذل لاصحابه وقواده ألف مثقال لبناء سورها وأمرهم ببناء الدور فيها وأعطى شراقة هؤلاء ألف دينار لبناء قصبة الخميس بعد ان كان أنزلهم أولا باحواز فاس فحصل منهم الضرر لاهل المدينة وشكوهم فامرهم بالانتقال بحلتهم الى بلاد صدينة وفشتالة بين النهرين سبوا وورغة وأقطعهم تلك الارض وعزل عزابهم وأمرهم ببناء بيوتهم على حدة ثم أعطاهم ألف دينار لبناء سور القصبة كما قلنا وجعلهم قبيلة واحدة فلم تميز الآن عربهم من بربرهم ثم خرج المولى الرشيد رابع رمضان من السنة لزيارة الشيخ أبي يعزى رضي الله عنه ومنه ذهب الى سلا فزار صلحاءها وعاد الى فاس فدخلها منسلخ رمضان المذكور ﴿ثم دخلت سنة اثنتين وثمانين وألف﴾ في صفر منها بعث خيلا للجهاد على طنجة وفي منتصف جمادى الاولى بعث خيلا أخرى الى السوس وعليهم أبو محمد عبد الله آعتراس ثم خرج الى الصيد بتافراطاست فبلغه هنالك خبر ثورة ابن أخيه المولى محمد بن محمد بمراكش فرجع الى فاس فدخلها يوم السبت حادي عشر رمضان ثم خرج منها عصر يومه ذلك فلقيه ابن أخيه بفزارة مقبوضا عليه بيد أصحابه فبعث به الى تافيلالت وسار هو الى مراكش وبعث قائده زيدان العامري الى فاس في ذي القعدة ليأتيه بالجيش لغزو السوس فأتاه أهل السوس طائعين ولم يبق للحركة محل بعد ان كانت الاخبية قد أخرجت الى وادي فاس وضربت به فاستقرت قواعد الملك للمولى الرشيد وتمهدت أمر الدولة والله غالب على أمره

﴿وفاة أمير المؤمنين المولى الرشيد رحمه الله﴾

كان أمير المؤمنين المولى الرشيد رحمه الله في هذه المدة مقيما بمراكش كما قلنا الى ان كان عيد الاضحى من سنة اثنتين وثمانين وألف فلما كان ثاني يوم النحر وهو يوم الخميس ركب فرساله وأجراه فجمح به في بستان المسرة ولم يملك عنانه فأصابه فرع شجرة نارنج فهشم رأسه وقيل دخل في أذنه وكانت فيه منيته رحمه الله ودفن بمراكش بالقصبة منها ثم نقل الى ضريح الشيخ أبي الحسن علي بن حرزهم بفاس لوصية منه بذلك ومات رحمه الله وسنه اثنتان وأربعون سنة لانه ولد سنة أربعين وألف ورثاه بعضهم بقوله

وماشج ذات الغصن رأس امامنا * لسوءله خدن المحبة جاحد
ولكنه قد غار من لين قــده * وان من الأشجار ماهو حاسد

﴿قلت﴾ لا يخفى أن مثل هذا الشعر لا يحسن أن تمدح به الملوك فانه بالغزل أشبه منه بالرثاء وكان قد وقع بين المولى الرشيد رحمه الله و بين شيخ الوقت الامام أبي عبد الله محمد بن ناصر الدرعي رضي الله عنه مكاتبات توعده أمير المؤمنين في بعضها فمات عقب ذلك وكفى الشيخ المذكور أمره ﴿ومن مآثره رحمه الله﴾ أنه لما مر في بعض حركاته بالموضع المعروف بالشط من بلاد الظهراء أمر بحفر آبار شتى فهي الآن تدعى بآبار السلطان اضافة له يستقي منها ركب الحجيج في ذهابه وايابه فهي ان شاء الله في ميزان حسناته وكان رحمه الله محبا في جانب العلماء مؤثر الاغراضهم مولعا بمجالستهم محسنا اليهم حيث ما كانوا ﴿ومن نوادره معهم﴾ ما حكي من أن العلامة أبا عبد الله محمد المرابط ابن محمد بن أبي بكر الدلائي حضر يوما بمجلس السلطان المذكور وذلك بعد الايقاع بزاويتهم وتغريبهم الى فاس فأنشد السلطان معرضا بالفقيه المذكور قول أبي الطيب المتنبي ومن نكد الدنيا على الحر أن يرى * عدوا له ما من صداقته بد
ففهم أبو عبد الله المرابط اشارته فقال أيد الله أمير المؤمنين ان من سعادة المرء أن يكون خصمه عاقلا فاستحسن الحاضرون حسن بديهته ولطف منزعه ومن تواضع المولى الرشيد رحمه الله مع أهل العلم ما حكاه صاحب الجيش من انه بعث الى بعض علماء عصره ليقرأ معه بعض الكتب فامتنع ذلك العالم وقال كما قال الامام مالك رضي الله عنه العلم يؤتى ولا يأتي قال فكان المولى الرشيد رحمه الله يتردد لمنزل ذلك العالم للقراءة عليه وقد ذكر صاحب نشر المثاني أنه كان يحضر مجلس الشيخ اليوسي بالقرويين اه وهذه لعمري منقبة فخيمة ومأثرة جسيمة فرحم الله تلك الهمم التي كانت تعرف للعلم حقه وتقدر قدره قالوا وكان رحمه الله جوادا سخيا رحل الناس من المشرق فادونه وقصده بعض طلبة ثغر الجزائر فامتدحه ببيتين وهما

فاض بحر الفرات في كل قطر * من ندى راحتيك عذبا فراتا
غرق الناس فيه والتمس الفقـــر خلاصا فلم يجده فماتا

فوصله بألفين وخمسين دينارا ﴿قال اليفرني﴾ وشأوه رحمه الله في السخاء لا يلحق والحكايات عنه بذلك شهيرة وفي أيامه كثر العلم واعتز أهله وظهرت عليهم أبهته وكانت أيامه أيام سكون ودعة ورخاء عظيم حتى قيل انه في اليوم الذي بويع فيه بفاس كان القمح في أول النهار بخمس أواق للمتوصار في آخره بنصف أوقية فتيمن الناس بولايته واغتبطوا بها والله تعالى أعلم

﴿الخبر عن دولة أمير المؤمنين المظفر بالله أبي النصر المولى اسمعيل بن الشريف رحمه الله﴾

لما توفي المولى الرشيد رحمه الله في التاريخ المتقدم وكان أخوه المولى اسمعيل بمكناسة الزيتون خليفة على بلاد الغرب فبلغه خبر موته فاجتمع الناس عليه وبايعوه واتفقت كلمتهم عليه ثم قدم عليه أعيان فاس وأعلامها وأشرافها ببيعتهم وقدم عليه أهل بلاد الغرب من الحواضر والبوادي كذلك بهداياهم وبيعاتهم الا مراكش وأعمالها فانه لم يأت منها أحد فجلس رحمه الله للوفود الى أن فرغ من شأنهم ورتب أموره بمكناسة وعزم على السكنى بها اذ كان لا يبغي بها بدلا حيث أعجبه ماؤها وهواؤها هكذا في البستان ﴿وقال أبو عبد الله اليفرني في النزهة ونحوه في نشر المثاني﴾ لما توفي المولى الرشيد رحمه الله اتصل خبر وفاته بالمولى اسمعيل وهو يومئذ خليفته بفاس الجديد ليلة الاربعاء السادس عشر من ذي الحجة سنة اثنتين وثمانين وألف فبويع رحمه الله وحضر بيعته أعيان المغرب وصلحاؤه بحيث لم ينازع في انه أحق بها وأهلها أحد ممن يشار اليه زاد في الظل الظليل ووافق على بيعته أهل الحل والعقد من العلماء والاشراف كالشيخ أبي محمد عبد القادر بن علي الفاسي والشيخ أبي علي اليوسي وأبي عبد الله محمد بن علي الفيلالي وأبي العباس أحمد بن سعيد المكيلدي وأبي عبد الله محمد بن عبد القادر الفاسي وأخيه أبي زيد

صاحب نظم العمل والقاضي أبي مدين وغيرهم من بقية الاعيان وكانت بيعته في السنة الثانية من يوم الاربعاء السادس عشر من ذي الحجة المذكور آنفا ووافق ذلك اليوم الثالث من شهر ابريل العجمي وكان سنه يوم بويع ستا وعشرين سنة لان ولادته كانت عام وقعة القاعة وهي مؤرخة بخط من يوثق به بسنة ست وخمسين وألف ولما تمت بيعته نهض بأعباء الخلافة وضبط الامور وأحسن السيرة

﴿ثورة المولى أبي العباس أحمد بن محرز بن الشريف وما كان من أمره﴾

لما توفي المولى الرشيد رحمه الله واتصل خبر وفاته باهل سجلماسة وغيرها أقبل ابن أخيه المولى أبو العباس أحمد بن محرز مبادرا الى مراكش طالبا للامر وداعيا الى نفسه والتفت عليه طوائف من عرب السوس وغيرهم وغلب على تلك النواحي ونشبت أهل مراكش بلامع برقه وبذلك تقاعدوا عن الوفادة على أمير المؤمنين المولى اسمعيل رحمه الله ولما صح عنده خبر ابن محرز وذلك في آخر ذي الحجة من السنة نهض الى مراكش فوصل اليها وبرز اليه أهلها فيمن انضم اليهم من قبائل أحوازها وقاتلوه فانتصر عليهم وهزمهم ودخل مراكش عنوة يوم الجمعة سابع صفر سنة ثلاث وثمانين وألف فعفا عن أهلها وأجفل ابن محرز وشيعته الى حيث نجوا ولما احتل المولى اسمعيل بمراكش أمر بنقل شلو أخيه المولى الرشيد في تابوته الى فاس ليدفن بضريح الشيخ ابن حرزهم كامر ثم قفل السلطان الى مكناسة منسلخ ربيع الاول سنة ثلاث وثمانين وألف

﴿انتقاض أهل فاس وقتلهم القائد زيدان واعلانهم بدعوة ابن محرز وما نشأ عن ذلك من محاصرة السلطان لهم﴾

لما قفل أمير المؤمنين اسمعيل الى مكناسة أخذ في ترتيب أمور دولته وفرق الراتب على الجند وكان عازما على غزو بلاد الصحراء فلم يرعه الا الخبر بان أهل فاس قد انتقضوا وقتلوا قائد الجيش زيدان بن عبيد العامري وكان مقتله ليلة الجمعة ثاني جمادى الاولى من السنة فزحف السلطان اليهم وحاصرهم واستمر القتال بينه وبينهم أياما ثم بعثوا الى المولى أحمد بن محرز ليأتيهم فيجتمعوا عليه فقدم دبدو وأنزل على ملوية وبعث اليهم رسوله يعلمهم بجيئته فاعلنوا بنصره وذلك يوم الخميس العشرين من جمادى الثانية من السنة وفي سلخ الشهر المذكور بعثوا عشرة من الخيل للقائه بتازا ثم أصبح عليهم رسول الخضر غيلان يعلمهم بانه قد قدم من ثغر الجزائر في البحر وانه نزل بتطاوين مع رؤسائها أولاد النقسيس فتشعبت الآراء وتعددت أسباب الهراش وتكاثرت الظباء على خداش وهاجت فتنة بفاس قتل فيها نفر من أولاد الثائر المتقدم أبي الربيع سليمان الزرهوني على يد مولاي أحمد بن ادريس من شرفاء دار القيطون ثم قتل بعض شيعة الزرهوني مولاي حفيد بن ادريس أخا الشريف المذكور وكان ما كان مما لست أذكره ولما اتصل خبر ابن محرز بالمولى اسمعيل نهض اليه في جنوده قاصدا تازا فحاصره بها أشهرا ففر عنها ابن محرز ودخل الصحراء ولما علم السلطان بفراره عدل الى ناحية الهبط بقصد الخضر غيلان فحاربه الى أن ظفر به وقتله يوم الاحد العشرين من جمادى الاولى سنة أربع وثمانين وألف وعاد الى فاس الجديد أواسط جمادى الثانية من السنة وحاصر أهل فاس وطاولهم ولم يحدث معهم حربا الى ان أذعنوا الى الطاعة وراجعوا بصائرهم ففتحوا البلد وخرجوا الى السلطان تائبين فعفا عنهم وذلك في سابع عشر رجب سنة أربع وثمانين وألف فكانت مدة انتقاضهم أربعة عشر شهرا وثمانية عشر يوما ذاقوا فيها وبال أمرهم ثم ولى عليهم القائد أبا العباس أحمد التلمساني وعلى فاس الجديد الوزير أبا زيد عبد الرحمن المنزاري وسار الى مكناسة ثم عاد بالقرب الا أن هذين الواليين قد جارا في الحكومة وعاثا في البلدين بضرب الابشار ونهب الاموال وغير ذلك والله لا يظلم مثقال ذرة وعزل أيضا عن خطابة القرويين الفقيه أبا عبد الله

البوعناني وولاها القاضي أباعبد الله المجاصي وذلك في آخر رجب من السنة والله أعلم

﴿تجديد أمير المؤمنين المولى اسمعيل بناء مكناسة الزيتون واتخاذه اياها دار ملكه﴾

كانت مدينة مكناسة الزيتون من الامصار القديمة بارض المغرب بناها البربر قبل الاسلام ولما جاءت دولة الموحدين حاصروا مكناسة سبع سنين ثم افتتحوها عنوة أواسط المائة السادسة وخربوها ثم بنوا مكناسة الجديدة المسماة بتاكرارت ومعناها المحلة واعتنى بها بنو مرين من بعدهم فبنوا قصبتها وشيدوا بها المساجد والمدارس والزوايا والربط وكانت يومئذ هي كرسي الوزارة كما أن حضرة فاس الجديد هي كرسي الامارة واختصت مكناسة بطيب التربة وعذوبة الماء وصحة الهواء وسلامة المخترن من التعفن وغير ذلك وقد وصفها ابن الخطيب في مواضع من كتبه مثل النفاضة والمقامات وغيرهما وأثنى عليها نظما ونثرا وأنشد قول ابن عبدون من أهلها فيها

ان تفتخر فاس بما في طيها * وبانها في زيها حسناء
يكفيك من مكناسة أرجاؤها * والاطيبان هواؤها والماء

فلما كانت بهذه المثابة كان أمير المؤمنين المولى اسمعيل رحمه الله لا يبغي بها بدلا فلما فرغ من أمر فاس رجع اليها وشرع في بناء قصوره بها بعد ان هدم ما يلي القصبة من الدور وأمر أربابها بحمل أنقاضها وبنى لهم سورا على الجانب الغربي وأمر ببناء دورهم به وهدم الجانب الشرقي كله من المدينة وزاده في القصبة القديمة ولم يبق أمامه الا الفضاء فجعل ذلك كله قصبة وبنى سور المدينة وأفردها عن القصبة وأطلق أيدي الصناع في البناء ومداومة العمل وجلبهم من جميع حواضر المغرب ولما لم يقنعه ذلك فرض العملة على القبائل مناوبة فصارت كل قبيلة من قبائل المغرب تبعث عددا معلوما من الرجال والبهائم في كل شهر وفرض الصناع وأهل الحرف على الحواضر فصار أهل كل مصر يبعثون من البنائين والنجارين وغيرهم عددا معلوما كذلك وأسس المسجد الاعظم بداخل القصبة مجاور القصر النصر الذي كان أسسه في دولة أخيه المولى الرشيد رحمه الله ثم أسس الدار الكبرى التي بجوار ضريح الشيخ المجذوب واستمر البناء والغرس بمكناسة سنين كما سيأتي التنبيه على ذلك في محله ان شاء الله

﴿مجيء المولى أحمد بن محرز الى مراكش واستيلاؤه عليها ونهوض السلطان الى محاصرته بها﴾

﴿ثم دخلت سنة خمس وثمانين وألف﴾ فيها ورد الخبر على السلطان المولى اسمعيل وهو بمكناسة بدخول ابن أخيه المولى أحمد بن محرز مراكش واستيلائه عليها وكان السلطان يومئذ متوجها الى آنكاد لما بلغه من عيث العرب الذين به وقطعهم الطريق فلم يثنه ذلك عنهم بل سار اليهم وأوقع بسقونة منهم وقتل خلقا كثيرا ونهب ورجع مؤيدا منصورا ثم استعد لحرب ابن محرز وخرج في العساكر على طريق تادلا فكان اللقاء بينهما على أبي عقبة من وادي العبيد فاقتتلوا وانهزم ابن محرز وقتل كبير جيشه حيدة الطويري ورجع أدراجه الى مراكش فتبعه السلطان المولى اسمعيل وألقى بكلكله على مراكش أوائل سنة ست وثمانين وألف ونمي اليه أن بعض أهل محلته قد أضمروا الغدر منهم الشيخ عمر البطوئي وولده وعبد الله آعراس واخوته هؤلاء كانوا أمراء عسكره فخنقهم وأتلف نفوسهم وبعث الى من بقي منهم بفاس فقبض عليهم وقتلوا وحيزت دورهم وأموالهم واستمر السلطان محاصر المراكش الى ربيع الثاني من سنة سبع وثمانين وألف فشدد في الحصار وازدلف اليها في جنوده فوقع قتال عظيم مات فيه من الفريقين ما لا يحصى وانحجر ابن محرز داخل البلد وبقي يقاتل من أعلى الاسوار ثم تمادى الحصار الى ثاني ربيع الثاني من سنة ثمان وثمانين وألف فاشتد الامر على ابن محرز وضاق ذرعا فخرج فارا عن مراكش ناجيا فيما أبقته الحرب من جموعه ودخل السلطان المولى اسمعيل المدينة عنوة فاستباحها

وقتل سبعة من رؤسائها وكحل ثلاثين منهم وهدأت الفتنة وذهبت أيام المحنة والله غالب على أمره

﴿تأليف جيش الوداية وبيان فرقهم وأوليتهم﴾

هذا الجيش من أمثل جيوش هذه الدولة الشريفة أبقى الله فضلها وبسط على البلاد والعباد عنها وعدلها وهو ينقسم الى ثلاثة أرحاء رحى أهل السوس ورحى المغافرة ورحى الوداية ويطلق على الجميع وداية تغليبا ﴿فأما أهل السوس﴾ فنهم أولاد دجرار وأولاد مطاع وزرارة والشبانات وكلهم من عرب معقل وكانوا في القديم جند الدولة السعدية وكان ملوكها يستنفرونهم للغزو بحالهم لاعتيادهم ذلك أيام كونهم بالصحراء ثم أنزلوهم ببسيط آزغار مراغمة لعرب جشم من الخلط وسفيان وغيرهم اذ كانت الخلط شيعة بني مرين وأصهارهم كما مر فلما جاءت الدولة السعدية بقوا منحرفين عنها وكلما طرقها خلل ثاروا عليها وخرجوا عن طاعتها فقيض لهم السلطان محمد الشيخ السعدي هؤلاء القبائل من معقل وزاحمهم بهم في بلادهم وشغلهم بهم فكانت تكون بينهم الحروب فتارة تنتصف معقل من جشم وتارة العكس حتى أوقع المنصور السعدي بالخلط وقيعته الشهيرة وأسقطهم من الجندية فنقل أولاد مطاع الى زبيدة قرب تادلا ولما أشرفت الدولة السعدية على الهرم استطالت الشبانات عليها بما كان لهم من الخؤلة على أولاد السلطان زيدان فاستبدت فرقة منهم بمراكش كما مر وثارت أخرى بفاس الجديد مع أبي عبد الله الدريدي المتغلب بها حسبما سلف الى أن نقل أمير المؤمنين المولى اسمعيل رحمه الله جميعهم الى وجدة كما سيأتي ثم خلطهم بعد باخوانهم من المغافرة والوداية وصير الجميع جيشا واحدا فهذه أولية أهل السوس ﴿وأما المغافرة﴾ فسيأتي بيان كيفية اتصالهم بالمولى اسمعيل ومصاهرتهم له ﴿وأما الوداية﴾ فكان السبب في جمعهم واستعمالهم في الجندية أنه لما فتح المولى اسمعيل رحمه الله مدينة مراكش الفتح الثاني وأجفل ابن محرز عنها أقام بها أياما ثم خرج الى الصيد بالبسيط المعروف بالبحيرة من أحواز مراكش فرأى اعرابيا يرعى غنماله وبيده شفرة يقطع بها السدر ويضعه لغنمه لتأكل ورقه فقال الوزعة علي بأب الشفرة فأسرعوا اليه وجاؤا به الى أن أوقفوه بين يديه فسأله فانتسب له الى ودي كغني قبيلة من عرب معقل بالصحراء وأخبره بأنهم دخلوا من بلاد القبلة بسبب جدب أصابهم قال دخلنا السوس بجمع كبير فافترقنا وذهبت كل طائفة منا الى قبيلة فنزلت عليها ونحن نزول مع الشبانات فقال له المولى اسمعيل رحمه الله أنتم أخوالي وسمعتم بخبري ولم تأتوني والآن أنت صاحبي واذا رجعت بغنمك الى خيمتك فاقدم علي الى مراكش وأوصى به من يوصله اليه ثم بعد أيام قدم أبو الشفرة على السلطان فكساه وحمله وبعث معه خيلا يجمع بها اخوانه من قبائل الحوز فجمع من وجد منهم وجاء بهم الى السلطان فأثبتهم في الديوان وكساهم وحملهم ثم نقلهم بحللهم الى مكناسة الزيتون دار الملك ومقر الخلافة ثم دخل نجع آخر بعدهم فاثبتهم في الديوان أيضا وبالغ في اكرامهم والاحسان اليهم وعين لسكناهم من مكناسة المحل المعروف بالرياض بجوار قصبتها وأمرهم ببناء الدور وأعطى أعيانهم ورؤساءهم النوائب وهي الزوايا التي لا تغرم مع القبائل ثم قدم نجع ثالث جاؤا من جهة القبلة فأثبتهم كاخوانهم الذين قدموا قبلهم وسلك بهم مسلكهم ولما نقل رحمه الله زرارة والشبانات الذين كانوا بفاس الجديد مع الدريدي بعث بهم اليها أيضا ليجتمعوا مع اخوانهم ثم قسم الوداية الذين بالرياض قسمين فبعث نصفهم الى فاس الجديد وعمره بهم وولى عليهم القائد أبا عبد الله محمد بن عطية منهم وأبقى النصف الآخر بالرياض من مكناسة وولى عليهم القائد أبا الحسن عليا المدعو بابي الشفرة فكانا يتداولان القسمين مرة هذا ومرة هذا ثم استقر الامر على ان صار أبو الشفرة بفاس وابن عطية بالرياض ﴿وأما خبر الخلط﴾ فانه لما أوقع بهم المنصور السعدي تفرقوا في القبائل شذر مذر وصاروا عيالا على غيرهم ولما أشرفت الدولة السعدية على الهرم اجتمعوا ورجعوا الى ازغار فغلبوا عليه وعفوا وكثروا وتمولوا وأكثروا من الخيل والسلاح الى ان جاء الله بالمولى اسمعيل

رحمه الله فانتزع منهم خيلهم وسلاحهم كغيرهم من قبائل المغرب وضرب عليهم المغارم واستمروا على ذلك الى أيام السلطان المرحوم المولى محمد بن عبد الله فظهروا فى دولته وكانوا يعسكرون معه فى حروبه ويغرمون ما وجب عليهم من الزكوات والاعشار وكذلك مع ابنه المولى سليمان وابن ابنه المولى عبد الرحمن بن هشام رحم الله الجميع بمنه وهم اليوم فى عداد القبائل الغارمة وكذا قبائل الحوز الذين هم من عرب معقل كلهم غارمة والله تعالى المتولى لامور العباد لا معقب لحكمه ولا راد لقضائه

﴿انتقاض البربر شيعة الدلائيين والتفافهم على أحمد بن عبد الله منهم وايقاع السلطان بهم﴾

لما كان أمير المؤمنين المولى اسمعيل رحمه الله مقيما بمراكش بعد فرار المولى أحمد بن محرز عنها بلغه اجتماع البربر الصنهاجيين على أحمد بن عبد الله الدلائى وعيثهم فيمن جاورهم من قبائل العرب من تادلا الى سايس فبعث رحمه الله عسكرا الى تادلا اعانة لاهلها على البربر فهزمتهم البربر وقتلوا بالخلف وانتهبوا واستولوا على تادلا ثم بعث اليهم عسكرا آخر فيه ثلاثة آلاف من الخيل وعقد عليه لبخلف فهزمهم البربر وقتلوا بخلف وانتهبوا معسكره ثم أعقبه مابعسكر ثالث فوقع به ماوقع بالاولين هذا كله والسلطان مقيم بمراكش يرصد ابن محرز الذى بالسوس ثم بلغه قيام أخيه المولى حمادة بالصحراء وحربه لاخيه المولى محرز الثائر بها أيضا وهو والد المولى أحمد صاحب السوس فتقدم السلطان رحمه الله الاهم ورجع الى حرب البربر بتادلا تخوفا من اتساع خرقهم على الدولة وهنالك لقيه أخوه المولى الحران جاء مستصرخا له على أخيه المولى حمادة ثم تقدم السلطان رحمه الله الى البربر فأوقع بهم وقعة شنعاء واستلحمهم وقطع منهم سبعمائة رأس بعث بها الى فاس مع عبد الله بن حمدون الروسى ﴿وفى نشر المثانى﴾ أنه قتل من البربر يومئذ ثلاثة آلاف فزينت المدينة وأخرجت المدافع وكان يوما مشهودا ولما انقضت الوقعة فر المولى الحران من المحلة الى الصحراء ورجع السلطان الى مكناسة فدخلها فى أواسط شوال سنة ثمان وثمانين وألف وفى هذه الايام ولى قضاء فاس الفقيه الورع أبا عبد الله محمد العربى بردلة بعد عزل القاضى أبى عبد الله المجاصى وولى مظالمها وجباياتها عبد الله الروسى وولى مواريثها أباه حمدون وأمر بقتل أهل تطاوين الذين كانوا بسجن فاس وهم عشرون فضربت أعناقهم ورفعت على الاسوار ثم جئ بالمولى الحران من الصحراء مقيدا مغلولا فلما قابله من عليه وأطلقه وأعطاه خيلا وأقطعه مداشر بالصحراء يتعيش بها وسرحه الى حال سبيله

﴿عود الكلام الى بناء حضرة مكناسة الزيتون﴾

واستمر السلطان المولى اسمعيل رحمه الله بمكناسة قائما على بناء حضرتها بنفسه وكلما أكمل قصرا أسس غيره ولما ضاق مسجد القصبة بالناس أسس الجامع الاخضر أعظم منه وجعل له بابين بابا الى القصبة وبابا الى المدينة وجعل رحمه الله لهذه القصبة عشرين بابا عادية فى غاية السعة والارتفاع مقبوة من أعلاها وفوق كل باب منها برج عظيم عليه من المدافع النحاسية العظيمة الاجرام والمهاريس الحربية الهائلة الاشكال ما يقضى منه العجب وجعل فى هذه القصبة بركة عظيمة تسير فيها الفلك والزوارق المتخذة للنزهة والانبساط وجعل بها هريا عظيما لاختزان الطعام من قمح وغيره مقبو القناطيط يسع زرع أهل المغرب وجعل بجواره سواقى للماء فى غاية العمق مقبوا عليها وجعل فى أعلاها برجا عظيما مستدير الشكل لوضع المدافع الموجهة الى كل جهة وجعل بها اصطبلا عظيما لربط خيله وبغاله مسيرة فرسخ فى مثله مسقف الجوانب بالبرشلة على أساطين وأقواس عظيمة فى كل قوس مربط فرس وبين الفرس والفرس عشرون شبرا يقال انه كان مربوطا بهذا الاصطبل اثنى عشر ألف فرس مع كل فرس سائس من المسلمين وخادم من أسرى النصارى يتولى خدمته وفى هذا الاصطبل سانية من الماء دائرة عليه

مقبوة الظهر وأمام كل فرس منها تقب كالمعدة لشربه وفي وسط هذا الاصطبل قباب معدة لوضع سروج الخيل على أشكال مختلفة وفيه أيضا هري عظيم مربع الشكل مقبو الاعلى على أساطين عظيمة وأقواس هائلة لوضع سلاح الفرسان أصحاب الخيل وينفذ اليه الضوء من شبابيك في جوانبه الاربعة كل شباك يتيف وزنه على قنطار من حديد وفوق هذا الهري من أعلاه قصر يقال له المنصور ولا يقصر ارتفاعه من مائة ذراع خمسون في الاسفل وخمسون في الاعلى وفيه عشرون قبة في كل قبة طاق عليه شباك من حديد يشرف منه أهل القبة على بسيط مكناسة من الجبل الى الجبل وكل قبة مسقفة بالبرشلة والقرمود وغير ذلك ثم أربع قباب منها متقابلة سعة كل واحدة منها سبعون شبرا في مثلها وباقي العشرين أربعون ويجاور هذا الاصطبل بستان على قدر طوله فيه من شجر الزيتون وأنواع الفواكه كل غريب طوله فرسخ وعرضه ميلان ويتخلل هذه القصور التي في داخل القلعة شوارع مستطيلة متسعة وأبواب عظيمة فاصلة بين كل ناحية وبين الاخرى ورحاب عظيمة مربعة معدة لعمارة المشور وفي كل جانب الى غير ذلك مما لا يحيط به الوصف ﴿قال صاحب البستان﴾ وقد شاهدنا آثار الاقدمين بالمشرق والمغرب وبلاد الترك والروم فما رأينا مثل ذلك في دولهم ولا شاهدناه في آثارهم بل لو اجتمعت آثار دول ملوك الاسلام لرجح بها ما بناه السلطان الاعظم المولى اسمعيل رحمه الله في قلعة مكناسة دار ملكه ولم تزل تلك البناآت على طول الدهر قائمة كالجبال لم تخلفها عواصف الرياح ولا كثرة الامطار والثلوج ولا آفات الزلازل التي تخرب المباني العظام والهياكل الجسام قال ومن يوم مات المولى اسمعيل والملوك من بنيه وحفدته يخربون تلك القصور على قدر وسعهم وبحسب طاقتهم ويبنون بأنقاضها من خشب وزليج ورخام ولبن وقرمود ومعدن وغير ذلك الى وقتنا هذا وبنيت من أنقاضها مساجد ومدارس ورباطات بكل بلد من بلدان المغرب وما أتوا على نصفها هذه مدة من مائة سنة وأما الجدرات فلا زالت ماثلة كالجبال الشوامخ وكل من شاهد تلك الآثار من سفراء الترك والروم يعجب من عظمته ويقول ليس هذا من عمل بني آدم ولا يقوم به مال اهـ

﴿تأليف جيش عبيد البخاري وذكر أوليتهم وشرح تسميتهم﴾

هذا الجيش من أعظم جيوش هذه الدولة السعيدة كما تقف عليه وكان السبب في جمعه ما وجد مفصلا في كناش كاتب الدولة الاسماعيلية ووزيرها الاعظم الفقيه الاديب أبي العباس أحمد اليحمدي رحمه الله قال لما استولى السلطان المولى اسمعيل بن الشريف على مراكش ودخلها أول مرة كان يكتب عسكره من القبائل الاحرار حسبما مر حتى أتاه الكاتب أبو حفص عمر بن قاسم المراكشي المدعو عليليش وبيتهم بيت رياسة من قديم وكان والده كاتبا مع المنصور السعدي ومع أولاده من بعده فتعلق أبو حفص هذا بخدمة السلطان المولى اسمعيل وأطلعه على دفتر فيه أسماء العبيد الذين كانوا في عسكر المنصور فسأله السلطان رحمه الله هل بقي منهم أحد قال نعم كثير منهم ومن أولادهم وهم متفرقون بمراكش وأحوازها وبقبائل الدير ولو أمرني مولانا بجمعهم لجمعتهم فولاه أمرهم وكتب له الى قواد القبائل يأمرهم بشد عضده واعانته على ما هو بصدده فأخذ عليليش يبحث عنهم بمراكش وينقر عن أنسابهم الى أن جمع من بها منهم ثم خرج الى الدير فجمع من وجد به ثم سار الى قبائل الحوز فاستقصى من فيها حتى لم يترك بتلك القبائل كلها أسود سواء كان مملوكا أو حرطانيا أو حرا أسود وأتسع الخرق وعسر الرتق فجمع في سنة واحدة ثلاثة آلاف رأس منهم المتزوج والعزب ثم كتبهم في دفتر وبعث به الى السلطان بمكناسة فتصفحه السلطان وأعجبه ذلك فكتب اليه يأمره بشراء الاماء للاعزاب منهم ويدفع أثمان المماليك منهم الى ملاكهم ويكسوهم من أعشار مراكش ويأتيه بهم الى مكناسة فاجتهد عليليش في ذلك واشترى من الاماء ما قدر عليه وجمع من الحرطانيات عددا الى ان استوفى الغرض وكساهم وألزم القبائل

يحملهم

بحملهم الى الحضرة فحملوا من قبيلة الى أخرى الى أن وصلوا الى مكناسة فاعطاهم السلطان السلاح وولى عليهم قوادهم وبعثهم الى الموضع المعروف بالمحلة من مشرع الرملة من أعمال سلا ثم بعث السلطان كاتبه أبا عبد الله محمد بن العياشي المكناسي الى قبائل الغرب وبنى حسن وأمره بجمع العبيد الذين بها فمن لا مالك لا حد عليه يأخذه مجانا ومن كان مملوكا لاحد فليعط صاحبه ثمنه ويحوزه منه فخرج ابن العياشي وطاف فى تلك القبائل واستقصى كل أسود بها وكان السلطان قد كتب أيضا الى عماله بالامصار بان يشتروا له العبيد والاماء من فاس ومكناسة وغيرهما من حواضر المغرب عشرة مثاقيل للعبد وعشرة مثاقيل للامة فاستوعبوا ما وجدوا حتى لم يبق عند أحد عبد ولا أمة فاجتمع مما اشتراه العمال ثلاثة آلاف أخرى فكساهم السلطان وسلحهم وبعثهم الى المحلة بعد ان عين لهم قوادهم ثم ان ابن العياشي قدم بدفتر فيه ألفان من العبيد فيهم المتزوج والعزب فكتب السلطان الى القائد أبى الحسن على بن عبد الله الريفى صاحب بلاد الهبط أن يشترى للاعزاب منهم الاماء ويكسوهم ويعطيهم السلاح من تطاوين ويعين لهم قوادهم ويبعث بهم الى المحلة فصار المجموع ثمانية آلاف وهذا العدد هو الذى نزل أولا بها ثم ألزم السلطان قبائل تامسنا ودكالة أن يأتوا بعبيد المخزن الذين عندهم فلم يسعهم الا الامتثال فجمعوا كل عبد فى بلادهم وزادوا بالشراء من عندهم وأعطوهم الخيل والسلاح وكسوهم وبعثوا بهم اليه فمن تامسنا ألفان ومن دكالة ألفان فانزلهم السلطان بوجه عروس من أحواز مكناسة الى أن بنى قصبة آدخسان فانزل عبيد دكالة بها وأنزل عبيد تامسنا بزاوية أهل الدلاء ❊ثم دخلت سنة تسع وثمانين وألف❊ فيها غزا السلطان المولى اسمعيل صحراء السوس فبلغ آقا وطاطا وتيشيت وشنكيط وتخوم السودان فقدمت عليه وفود العرب هنالك من أهل الساحل والقبلة ومن دليم وبربوش والمغافرة وودى ومطاع وجرار وغيرهم من قبائل معقل وأدّوا طاعتهم وكان فى ذلك الوفد الشيخ بكار المغفرى والد الحرة خناثى أم السلطان المولى عبد الله بن اسمعيل فأهدى الشيخ المذكور الى السلطان ابنته خناثى المذكورة وكانت ذات جمال وفقه وأدب فتزوجها السلطان رحمه الله وبنى بها وجلب فى هذه الغزوة من تلك الاقاليم ألفين من الحراطين باولادهم فكساهم بمراكش وسلحهم وولى عليهم وبعث بهم الى المحلة وقفل هو الى حضرته من مكناسة فكان عدد ما جمع من العسكر البخارى أربعة عشر ألفا عشرة آلاف منها بمشرع الرملة وأربعة آلاف بآدخسان وما والاهما من بلاد البربر ثم عفوا وتناسلوا وكثروا حتى مامات المولى اسمعيل الا وقد بلغ عددهم مائة وخمسين ألفا كما سيأتى ان شاء الله ❊واعلم❊ انه قد وقع فى هذه الاخبار لفظ الحرطانى ومعناه فى عرف أهل المغرب العتيق وأصله الحر الثانى كأن الحر الاصلى حر أول وهذا العتيق حر ثان ثم كثر استعماله على الالسنة فقيل الحرطانى على ضرب من التخفيف ❊ وأما سبب تسمية هذا الجيش بعبيد البخارى فان المولى اسمعيل رحمه الله لما جمعهم وظفر بمراده بعصبيتهم واستغنى بهم عن الانتصار بالقبائل بعضهم على بعض حمد الله تعالى وأثنى عليه وجمع أعيانهم وأحضر نسخة من صحيح البخارى وقال لهم أنا وأنتم عبيد لسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وشرعه المجموع فى هذا الكتاب فكل ما أمر به نفعله وكل ما نهى عنه نتركه وعليه نقاتل فعاهدوه على ذلك وأمر بالاحتفاظ بتلك النسخة وأمرهم أن يحملوها حال ركوبهم ويقدموها أمام حروبهم كتابوت بنى اسرائيل وما زال الامر على ذلك الى هذا العهد فلهذا قيل لهم عبيد البخارى ❊قال فى البستان❊ كان مآل هذا العسكر البخارى مع أولاد أمير المؤمنين المولى اسمعيل رحمه الله مثل مآل الترك مع أولاد المعتصم بن الرشيد العباسى فى كونهم استبدوا عليهم وصاروا يولون ويعزلون ويقتلون ويستحيون الى ان تم أمر الله فيهم وتلاشى جمعهم وتفرقوا فى البلاد شذر مذر وما أحياهم الا السلطان المرحوم المولى محمد بن عبد الله ولما عفوا وكثروا خرجوا عليه بابنه المولى يزيد وفعلوا افعلتهم التى فعلوها من قبل حسبما نسمعه بعد ان شاء الله

﴿غزو أمير المؤمنين المولى اسمعيل بلاد الشرق وانعقاد الصلح بينه وبين دولة الترك أهل الجزائر﴾

ثم غزى أمير المؤمنين المولى اسمعيل رحمه الله بلاد الشرق فترك تلمسان عن يساره وأصحر في ناحية القبلة فقدمت عليه هنالك وفود العرب من ذوى منيع ودخيسة وحميان والمهايه والعمور وأولاد جرير وسقونة وبني عامر والحشم فسار بهم الى أن نزل القويعة على رأس وادي شلف المسمى اليوم بوادي صا وكان رائده اليها والدال له عليها هم بنو عامر بن زغبة فخرج جيش الترك من ثغر الجزائر بقضهم وقضيضهم ومدافعهم ومهاريسهم ونزلوا على وادي شلف قبالة السلطان رحمه الله ولما كان وقت العشاء أرعدوا امدافعهم ليدهشوا العرب الذين مع السلطان فكان الامر كذلك فانه لما انتصف الليل انسل بنو عامر من محلة السلطان وأصبحت الارض منهم بلاقع ولما أصبح بقية العرب وعلموا بفرار بني عامر انهزموا دون قتال ولم يبق مع السلطان الا عسكره الذي جاء به من المغرب فكان ذلك سبب تأخره عن حرب الترك وقفوله الى حضرته وكاتبه الترك في أن يخلي لهم عن بلادهم ويقف عند حد أسلافه ومن كان قبلهم من ملوك الدولة السعدية فانهم ما زاحوهم قط في بلادهم وبعثوا اليه بكتاب أخيه المولى محمد بن الشريف الذي كان بعث به اليهم مع رسلهم حسبما تقدم وبكتاب أخيه المولى الرشيد الذي فيه الحد بينه وبينهم فوقع الصلح على ذلك الحد الذي هو وادي تافنا ولما قفل السلطان رحمه الله ومر في طريقه بمدينة وجدة أمر ببنائها وتجديد ما تثلم منها ثم قفل الى فاس ثم منها الى الحضرة بمكناسة الزيتون وكان ذلك كله سنة تسع وثمانين وألف

﴿خروج الاخوة الثلاثة من أولاد المولى الشريف بن علي بالصحراء وما كان من أمرهم﴾

وفي أواخر رمضان سنة تسع وثمانين وألف بلغ السلطان رحمه الله وهو بمكناسة خروج اخوته الثلاثة المولى الحران والمولى هاشم والمولى أحمد بني الشريف بن علي مع ثلاثة آخرين من بني عمهم وانهم تدرجوا الى آيت عطاء من قبائل البربر فنهض اليهم السلطان رحمه الله بالعساكر وسلك طريق سجلماسة فكان اللقاء بجبل ساغر وافي عشرين من ذي الحجة من السنة فالتقى جيش السلطان وجيش الخارجين وجلهم آيت عطاء فاقتتلوا وكان الظفر للسلطان بعد ان هلك من جيشه ثم من رماة فاس بالخصوص نحو أربعمائة دون من عداهم وهلك قائد العسكر موسى بن يوسف وانهزم الاخوة وأبعدوا المفر الى الصحراء وكان في تلك السنة وباء عظيم قد انتشر في بلاد المغرب فرجع السلطان على طريق الفايجة فأصابه ثلج عظيم بثنية الكلاوي من جبل درن أهلك الناس وأتلف متاعهم وأخبيتهم وما تخلصوا منه الا بمشقة فادحة ولما نزلت العساكر بزاوية الشيخ أبي العزم سيدي رحال الكوش مدوا أيديهم الى أموال الناس وزروعهم بالنهب لما مسهم من ضرر الجوع فشكا الناس ذلك الى السلطان فأمر بقتل كل من وجد خارج المحلة فقتل في ذلك اليوم من الجيش نحو الثلاثمائة ثم أمر بجر الوزير أبي زيد عبد الرحمن المنزري لامر نقمه عليه وقتل أصحابه بالرصاص فجر الوزير المذكور الى فاس ومكناسة ولم يصل اليهما الا بعض شلوه فطرح على المزبلة ووصل السلطان الى مكناسة فاحتل بدار ملكه واقتعد أريكة عزه ﴿ثم دخلت سنة تسعين وألف﴾ ففي المحرم منها وقع الوباء بفاس وأعمالها فأمر السلطان العبيد أن يردوا الناس عن مكناسة فكانوا يتعرضون لهم في الطرقات بناحية سبوا وسايس يردونهم عن مكناسة وكل من يأتي من ناحية القصر وفاس يقتلونه فانقطعت السبل وتعذرت المرافق وفي أواخر المحرم من هذه السنة أوقع جيش المسلمين بنصارى طنجة فقتلوا منهم نحو ثلاثمائة وخمسين وانتزعوا منهم قصبة باربعة أبراج واستشهد من المسلمين نحو الخمسين رحمهم الله

(نقل)

﴿نقل زرارة والشبانات الى وجدة وبناء القلاع بالتخوم وما تخلل ذلك﴾

وفي هذه السنة التي هي سنة تسعين وألف أمر أمير المؤمنين المولى اسمعيل رحمه الله بنقل عرب زرارة والشبانات قوم كروم الحاج من الحوز الى وجدة لما كانوا عليه من الظلم والفساد في تلك البلاد فأنزلهم بوجدة ثغر المغرب وكتبهم في الديوان وولى عليهم أبا البقاء العياشي بن الزويعر الزراري وتقدم اليه في التضييق على بني يزناسن اذ كانوا يومئذ منحرفين عن الدولة ومتمسكين بدعوة الترك فكان زرارة والشبانات يغيرون عليهم ويمنعونهم من الحرث ببسيط آنكاد وأمر السلطان رحمه الله أن تبنى عليهم قلعة من ناحية الساحل قريبة وجدة بالموضع المعروف برقادة وأمر القائد العياشي أن ينزل بها خمسمائة فارس من اخوانه يمنعونهم النزول ببسيط تريفة والارتفاق به من حوث وغيره ثم أمر رحمه الله أن تبنى قلعة أخرى بطرف بلادهم بالعيون وينزل بها القائد المذكور خمسمائة أخرى من اخوانه أيضا وأمر أن تبني قلعة ثالثة بطرف بلادهم على ملوية وينزل بها خمسمائة فارس كذلك وجعل للقائد العياشي المذكور النظر في القلاع الثلاث وهو بوجدة في ألف فارس فكانوا في الدفتر ألفين وخمسمائة ﴿ثم دخلت سنة احدى وتسعين وألف﴾ في جمادى الثانية منها خرج السلطان من الحضرة في الجنود قاصدا بني يزناسن الذين تمادوا على العصيان فاقتحم عليهم جبلهم واعتسف ربوعهم وانتسف زروعهم وضروعهم وحرق قراهم وقتل رجالهم وسبى ذراريهم فطلبوا الامان فأمن بقيتهم على أن يدفعوا الخيل والسلاح التي عندهم فدفعوها من غير توقف وقاموا بدعوته جبرا عليهم ثم نزل ببسيط آنكاد وحضر عنده قبائل الاحلاف وسقونة فأرجلهم من خيولهم وجردهم من سلاحهم وانتزعها منهم وألزم أشياخهم أن يجمعوا له مابقي بحلتهم منها ففعلوا ثم فعل بالمهاية وحميان كذلك وانكفأ راجعا الى المغرب ولما نزل وادى صا أمر ببناء قلعة تاوريرت التي بناها السلطان يوسف بن يعقوب بن عبد الحق المريني فجددها وأنزل فيها مائة فارس من عبيده بعيالهم وأولادهم ولما نزل بوادي مسون أمر أن تبنى به قلعة أخرى بجوار القديمة وأنزل فيها مائة فارس من العبيد كذلك ثم أنزل بتازا ألفين وخمسمائة من خيل العبيد بعيالهم وولى عليهم منصور بن الرامي وجعل نظر القلاع التي بتازا وادى صا للقائد منصور المذكور وعين لكل قبيلة من قبائل تلك البلاد قلعتها التي تدفع بها زكواتها وأعشارها لمؤنة العبيد وعلف خيلهم وهم حراس الطريق فمن وقع في أرضه شيء عوقب عليه قائد تلك القلعة ولما وصل السلطان الى الكور أمر أن تبنى به قلعة أيضا وأنزل بها مائة فارس من عبيده بعيالهم ولما انتهى الى فاس أنزل بقصبة الخميس التي بني سورها المولى الرشيد خمسمائة من الخيل بعيالهم من شراقة العرب والبربر الذين قدموا مع المولى الرشيد رحمه الله حسبما تقدمت الاشارة اليه ثم أمر رحمه الله ببناء قلعة بالمهدومة وأخرى بالجديدة من أعمال مكناسة وأنزل بكل واحدة مائة من خيل العبيد بعيالهم لحراسة الطرقات وبكل قلعة فندق لمبيت القوافل وأبناء السبيل ثم دخل السلطان رحمه الله حضرته مؤيدا منصورا وذلك في خامس شعبان سنة احدى وتسعين وألف

﴿فتح المهدية ومحاربة ابن محرز بالسوس وما تخلل ذلك﴾

قد تقدم لنا ما كان من استيلاء جنس الاصبنيول على المعمورة المسماة بالمهدية في حدود العشرين بعد الالف وما كان بينهم وبين أبي عبد الله العياشي وأهل سلا من الحروب واستمر وابها الى ان كانت سنة اثنتين وتسعين وألف فافتتحها جيش السلطان المولى اسمعيل رحمه الله ﴿قال في النزهة﴾ ومن محاسن الدولة الاسماعيلية تنقية المغرب من نجاسة الكفر ورد كيد العدو عنه قال وقد فتح السلطان المولى اسمعيل عدة مدن من يد النصارى كانت من مفاسد المغرب ولم يهنأ للمسلمين معهم قرار من ذلك

المعمورة فانه رحمه الله قد افتتحها عنوة بعد ان حاصرها مدة وكان فتحها يوم الخميس رابع عشر ربيع الثانى سنة اثنتين وتسعين وألف وأسر بها نحو الثلاثمائة من الكفار اهـ ﴿وقال فى نشر المثانى﴾ كان فتح المهدية عنوة عند صلاة الجمعة خامس عشر ربيع الثانى من السنة قيل بقتال وقيل بدون قتال وانما أخذت بقطع الماء عنها وجيء بالنصارى الذين كانوا بها أسارى ولم يصب أحد من المسلمين ﴿وقال فى البستان﴾ وفى سنة اثنتين وتسعين وألف ورد الخبر على السلطان اسمعيل بان ابن أخيه المولى أحمد بن محرز الذى بالسوس قد استولى على بلاد آيت زينب وقويت شوكته فأمر السلطان رحمه الله بتفريق الراتب وتجهيز العساكر اليه من فاس فتوجهت فى ثامن ربيع الاول من السنة ثم بلغه ان العسكر المحاصر للمهدية قد أشرف على فتحها وتوقفوا على حضوره فنهض رحمه الله اليهم حتى حضر الفتح وأخرج رئيس النصارى فأمنه وأمن أصحابه وكانوا ثلاثمائة وستة أنفس وأما الغنيمة فقد أحرزها المجاهدون من أهل الفحص والريف الذين كانوا مرابطين عليها مع القائد عمر بن حدو البطوئى ورجع السلطان الى مكناسة بعد ان أنزل بالمهدية طائفة من عبيد السوس لعمارتها وسد فرجتها وحضر هذا الفتح جماعة من متطوعة أهل سلا منهم الولى الصالح أبو العباس سيدى أحمد حجى من صلحائها المشهورين بها ﴿واعلم﴾ ان السور العادى الذى اليوم بالمهدية هو من بناء البرتقال أيام استيلائهم عليها فى دولة الوطاسيين كامر ولما فرغ المجاهدون من أمر المهدية ارتحلوا مع أميرهم عمر بن حدو فاصابه الوباء فمات فى الطريق وتولى رياسة المجاهدين أخوه القائد أحمد بن حدو واقتسمها هو والقائد أبو الحسن على بن عبد الله الريفى وكان أولاد الريفى هؤلاء من الشهرة فى الجهاد والمكانة فى الشجاعة ومكائد الحرب بمنزلة أولاد النقسيس وأولاد أبى الليف وأضرابهم رحم الله الجميع ﴿ثم دخلت سنة ثلاث وتسعين وألف﴾ فيها غزا السلطان بلاد الشرق فنهب بنى عامر ورجع الى مكناسة وأمر باخراج أهل الذمة من المدينة وبنى لهم حارة خارجها بالموضع المعروف ببرّيمة وكلف أهل تافيلالت الذين بفاس بالرحيل الى مكناسة والسكنى بحارة اليهود القديمة التى أخليت فلم يزل أهل تافيلالت يذهبون ارسالا ويسكنونها بالكراء حتى ضاقت بهم ثم بلغه ان الترك قد خرجوا بعسكرهم واستولوا على بنى يزناسن وعلى دار ابن مشعل وانهم قد مدوا يد الوفاق الى ابن محرز وراسلوه وراسلهم وابرموا كلامهم معه على حرب السلطان وبلغه مثل ذلك من نائبه بمراكش فكتب اليه أن يحتاط فى حراسة مراكش ويأخذ بالحزم فى ذلك ويقيم فى نحر ابن محرز الى أن يرجع السلطان من غزو تلمسان ثم خرج رحمه الله بالعساكر لمصادمة الترك فوجدهم قد رجعوا الى بلادهم لما بلغهم من خروج النصارى بثغر شال فسار واليهم وفتكوا فيهم فتكة بكراء وردّوهم على أعقابهم صاغرين ورجع السلطان رحمه الله من وجهته ﴿وقد دخلت سنة أربع وتسعين وألف﴾ فسار على تفئته الى مراكش فأراح بها ثم نهض منها الى السوس فالتقى بابن أخيه المولى أحمد بن محرز فى أواخر ربيع الثانى من السنة وقامت الحرب بينهما على ساق واستمر القتال نحوا من خمسة وعشرين يوما هلك فيها من الفريقين ما لا يحصى ودخل ابن محرز تارودانت فتحصن بها وكان الوقت وقت غلاء فضاق الامر على أهل الحركة فجعلوا يهربون وكثر فيهم السجن والضرب والرد اليها فى الحين ثم كان بينهما حرب أخرى هلك فيها خلق كثير نحو ألفين وجرح السلطان وجرح ابن محرز أيضا وذلك فى أواسط جمادى الآخرة من السنة واستمر الحال على ذلك الى رمضان من السنة ﴿قال أبو عبد الله أكنسوس﴾ حدثنى بعض الثقات أن السلطان المولى اسمعيل رحمه الله لما أعياه أمر ابن أخيه المذكور وأصبح ذات يوم دهشا كئيبا فقال لوزيره الفقيه أبى العباس اليحمدى انى رأيت فى هذه الليلة رؤيا أحزنتنى الى الغاية فقال وما هى يا مولانا وعسى أن تكون خيرا قال رأيت كأن هذه الجنود التى معنا ما بقى منها أحد ولم يبق الا أنا وأنت مختفيين فى غار مظلم فسجد الوزير اليحمدى شكرا لله تعالى وأطال السجود ثم رفع رأسه وقال ابشر يا مولانا فقد نصرنا الله على هذا الرجل

فقال

فقال له السلطان ومن أين لك ذلك فقال له من قوله تعالى ثانى اثنين اذهما فى الغار اذ يقول لصاحبه لاتحزن ان الله معنا قال عليه الصلاة والسلام فما ظنك باثنين الله ثالثهما فسر السلطان بذلك غاية السرور وانسرى عنه ما كان يجده من الغم وعلم أن رؤياه بشارة من الله تعالى له وعلى اثر ذلك وقع الصلح بينهما فى رمضان ورجع السلطان الى حضرته فدخلها فى أواخر ذى القعدة من السنة المذكورة

امتحان القضاة والسبب فيه

(قال العلامة القادرى فى الازهار الندية) وفى هذه السنة أعنى سنة أربع وتسعين وألف أمر السلطان بالقبض على جميع القضاة وامتحنوا ووصفوا بالجهل وسجنوا فى مشور فاس الجديد حتى يتعلموا ما لابد منه من أحكام ماهم مدفوعون اليه ثم أخرجوا أيام المولد الكريم الى مكناسة فهددوا بها أيضا حتى أمر بحبس بعضهم أوقتله ثم أطلقوا معزولين اهـ (قال أكنسوس) ولعل المراد بهم قضاة البوادى ومن فى معناهم (قلت) ولم أر فى الازهار شيأ من هذا ولعله فى نسخة الاصل لانهم ذكروا انهما نسختان احداهما مختصرة من الاخرى والله أعلم

غزو البربر وبناء القلاع بازاء معاقلهم

(ثم دخلت سنة خمس وتسعين وألف) فيها خرج السلطان فى العساكر الى جبال فزاز لحرب صنهاجة من البربر الذين هنالك فلما سمعوا بخروج السلطان انهزموا الى ملوية فدخل السلطان بلادهم واختط قلعة بعين اللوح بسفح جبلهم ثم نزل بعين آصرو وأمر ببناء قلعة هنالك بسفح الجبل أيضا ثم تبع آثارهم الى ان دخلوا جبل العياشى وتربص رحمه الله بملوية الى أن دخل فصل الشتاء وكان قصده بذلك التربص اتمام سور القلعتين ولما عزم على الرجوع أنزل بقلعة آصرو ألف فارس وبقلعة عين اللوح خمسمائة فارس فأخذوا بمخنقهم واستراح الناس من عيثهم ببسيط سائس ولما منعوا من السهل وانقطعت عنهم الميرة وقلت الاقوات خشعوا ونزل وفدهم فقدموا مكناسة على السلطان تائبين فأمنهم على شرط دفع الخيل والسلاح والاشتغال بالحرث والنتاج فدفعوها عن يد وهم صاغرون وهؤلاء هم آيت ادارسن فأعطاهم السلطان رحمه الله عشرين ألفا من الغنم ألزمهم برعايتها وحفظها وأسقط عنهم الوظائف فصلحت أحوالهم وصار وافى كل عام يدفعون صوفها وسمنها ويزيدهم الغنم الى ان بلغ عددها ستين ألفا وقلت شوكتهم وذهب بأسهم

فتح طنجة

قد تقدم لنا ان طنجة صارت الى جنس النجليز من يد البرتقال واستمرت بيده الى سنة خمس وتسعين وألف فعقد السلطان المولى اسمعيل رحمه الله للقائد أبى الحسن على بن عبد الله الريفى على جيش المجاهدين ووجهه لحصار طنجة فضيقوا على من بها من النصارى وطاولوهم الى ان ركبوا سفنهم وهربوا فى البحر وتركوها خاوية على عروشها وذلك فى ربيع الاول سنة خمس وتسعين وألف قاله فى النزهة (وقال فى البستان) لما ضاق الامر على النصارى الذين بطنجة وطال عليهم الحصار خربوها وهدموا أسوارها وأبراجها وركبوا سفنهم وتركوها فدخلها المسلمون من غير طعن ولاضرب وشرع قائد المجاهدين على ابن عبد الله الريفى فى بناء ماتهدم من أسوارها ومساجدها فى فاتح جمادى الاولى من السنة (قلت) وأعقاب هذا القائد لازالوا اليوم بطنجة وكثيرا ما تكون فيهم الرياسة هنالك ثم اتفق ان نشب بقرب ساحلها مركب فرصانى جاء مدد الاهل سبتة فيه أموال وبضائع فخاربه المسلمون أهله عليه واحتووا على ما فيه وألزم السلطان قبيلة غمارة بجر مدافعه النحاسية الى مكناسة وأرسل الرماة من أهل فاس لجرها أيضا فأتوا بها الاربعين يوما والله غالب على أمره

﴿غزو البربر ثانيا وبناء القلاع في نحورهم﴾

﴿ثم دخلت سنة ست وتسعين وألف﴾ فيها خرج السلطان غازيا بلاد ملوية وجعل طريقه على مدينة صفرو ففرت قبائل البربر الى رؤس الجبال وهم آيت يوسي وشغروسن وأيوب وعلاهم وقادم وحيون ومدبونة فأمر السلطان ببناء قلعة بآعليل وأخرى على وادي كيكو امن أسفله وأخرى على وادي سكورة وأخرى على وادي تاشواكت ثم خرج السلطان بملوية ففرت القبائل المذكورة الى جبل العياشي وتفرقوا في شعابه فأمر ببناء قلعة بدار الطمع وقلعة بتاببوست وقلعة بقصر بني مطير وقلعة بوطواط وقلعة بالقصابي وأقام على نهر ملوية يبث السرايا ويشن الغارات على البربر قريبا من سنة والعمل مستمر في بناء القلاع الى ان أكملت أسوارها وأنزل رحمه الله بكل قلعة أربعمائة من خيل العبيد بعيالهم وجاءته وفود البربر تائبين طائعين فأمنهم على شرط دفع الخيل والسلاح فدفعوها وصفا له رحمه الله هذا الربع الشرقي من جبل درن والله ولي التوفيق بمنه

﴿مقتل المولى أحمد بن محرز وفتح تارودانت وما يتصل بذلك﴾

وفي هذه السنة أعني سنة ست وتسعين وألف بلغ السلطان المولى اسمعيل رحمه الله وهو بمكناسة أن أخاه المولى الحران وابن أخيه المولى أحمد بن محرز قد دخلا قصبة تارودانت واستحوذا على تلك الجهات فنهض اليهما والى السير حتى أناخ بكلكله على تارودانت وحاصرهما بها أياما فاتفق أن ابن محرز خرج ذات يوم في جماعة من عبيده لزيارة بعض الاولياء فلقيه جماعة من زرارة أصحاب السلطان فلم يعرفوه وظنوا أنه بعض قواد ابن محرز فشدوا عليه فقاصعهم هنيئة ثم قتلوه فاذا هو ابن محرز ولما اتصل الخبر بالسلطان خرج حتى وقف عليه فعرفه وأمر بتجهيزه ودفنه فدفن مع الغرناطي أحد قواد الجيش وكان قد قتل ذلك اليوم وكان مقتل المولى أحمد رحمه الله في أوسط ذي القعدة سنة ست وتسعين وألف بعد تشغيبه على السلطان أربع عشرة سنة ثم بعد أيام خرج أهل تارودانت ليلا الى قبر المولى أحمد فنبشوه ونبشوا قبر الغرناطي لانه كان قد التبس عليهم به فاستخرجوهما معا حتى عرفوا المولى أحمد فحملوه في تابوته وتركوا الغرناطي على شفير قبره واستمر المولى الحران محصورا بتارودانت والحرب قائمة على ساق الى ان دخلت سنة سبع وتسعين وألف فكانت حرب هلك نحو السبعمائة نفس من الجند منهم القائد زيتون والباشا حمدان وغيرهما ثم كانت حرب أخرى أعظم من الاولى ثم ثالثة كذلك هلك فيها القائد أبو زيد عبد الرحمن الروسي وتولى مكانه ابن الغرناطي واستمر الحال الى جمادى الاولى من سنة ثمان وتسعين وألف فاقتحم السلطان تارودانت عنوة بالسيف واستباحها واستولى عليها وفر المولى الحران الى حيث أمن على نفسه ولما اتصل خبر الفتح باهل فاس عينوا وفدا من كبرائهم وأشرافهم وعلمائهم فقدموا على السلطان بقصد التهنئة يقدمهم ولده المولى محمد بن اسمعيل فأكرم وفادتهم وخرج أولاد النقسيس من سبتة وكانوا قد لجؤا اليها بعد مقتل الخضر غيلان فقدموا على السلطان بعسكره من تارودانت فأمر بردهم الى تطاوين وقتلهم بها وأمر بقتل من كان منهم مسجونا بفاس فقتلوا أجمعون رحمهم الله ﴿ثم دخلت سنة تسع وتسعين وألف﴾ فيها قفل السلطان من السوس ودخل دار ملكه مكناسة واستقر بها وبعث الى عامل فاس أن يخرج من بها من أهل الريف الى تارودانت بقصد عمارتها والسكنى بها وفي خامس جمادى الاولى من السنة استدعى السلطان فقهاء فاس لحضور ختم التفسير عند قاضيه أبي عبد الله المجاصي فحضروا وأكرمهم ووصلهم

﴿غزو برابرة فازاز وبناء قلعة آدخسان﴾

لما تهيأ السلطان رحمه الله لغزو أهل جبل فازاز نهض اليهم وصعد الجبل من الناحية الغربية فأول

من قدم عليه من برابرته بالطاعة زمور وبنو حكم فولى عليهم رئيسهم بادشي القبلي فاستصفى منهم الخيل والسلاح ثم تجاوز هم الى المال فاستصفاه أيضا وجمع ذلك كله وقدم به على السلطان وهو بيسيط آدخسان فقدمه اليه فانكر السلطان عليه ذلك وقال له ماحملك على مافعلت ولم آمرك به فقال له يامولانا ان كان غرضك في صلاحهم وفلاحهم فهو الذي فعلت لك ولهم وان سرت معهم بغير هذا أتعبوك وأتعبوا أنفسهم واغاظهرتهم من الحرام ليشتغلوا باكتساب الحلال فانه يغوو بزكو فاستحسن السلطان قوله وأمضى فعله وأقام رحمه الله با آدخسان يحارب آيت ومالو اسنة كاملة حتى بنى قلعة آدخسان الجديدة بحل القديمة التي كان بناها أمير المسلمين يوسف بن تاشفين رحمه الله وخربت ولما دخل فصل الشتاء أنزل بالقصبة ألفا وخمسمائة فارس من عبيد أهل دكالة الذين كانوا بوجه عروس نقلهم اليها باولادهم وأنزل بزاوية أهل الدلاء ألفا وخمسمائة فارس من عبيد الشاوية الذين كانوا بوجه عروس أيضا نقلهم بعيالهم وأمرهم بحصار البربر ومنعهم من النزول للرعي والحرث ونحوهما ثم قفل الى مكناسة ﴿قال صاحب البستان﴾ وهو أبو القاسم الصياني وفي هذه المرة نقل معه جدنا الفقيه الاستاذ أبا الحسن علي بن ابراهيم باولاده الى مكناسة وسبب ذلك انه لما نزل با آدخسان واجتمع عليه الاشراف الذين با آركو قال لهم دلوني على رجل صاحب فقه ودين يؤمني في الصلوات فقالوا له ليس بهذا الجبل أتقى من سيدي علي بن ابراهيم فأتوا به فكان أمامه في المحلة ولما قفل أخذه معه قال فهذا سبب انتقال جدنا من آركو الى الحضر اهـ

﴿بيان تربية أولاد عبيد الديوان وكيفية تأديبهم﴾

قد قدمنا ان جمهور عبيد البخاري كانوا بالمحلة من مشرع الرملة وانهم تناسلوا بها وكثروا الى الغاية ﴿فلما كانت سنة مائة وألف﴾ أمر السلطان رحمه الله أولئك العبيد أن يأتوه بأبنائهم وبناتهم من عشر سنين فما فوق فلما قدموا عليه فرق البنات على عريفات داره كل طائفة في قصر للتربية والتأديب وفرق الاولاد على البنائين والنجارين وسائر أهل الحرف للعمل والخدمة وسوق الحمير والتدرب على ركوبها حتى اذا أكملوا سنة نقلهم الى سوق البغال الحاملة للآجر والزليج والقرمود والخشب ونحو ذلك حتى اذا أكملوا سنة نقلهم الى خدمة المركز وضرب ألواح الطابية حتى اذا أكملوا سنة نقلهم الى المرتبة الاولى في الجندية فكساهم ودفع اليهم السلاح يتدربون به على الجندية وطرقها حتى اذا أكملوا سنة دفع اليهم الخيل يركبونها أعراء بلا سروج ويجرونها في الميدان للتمرس بها والتدرب على ركوبها حتى اذا أكملوا سنة وملكوا رقها دفع اليهم السروج فيركبونها بها ويتعلمون الكر والفر والثقافة في المطاعنة والمراماة على صهواتها حتى اذا أكملوا سنة بعد ذلك صار وافي عداد الجند المقاتلة فيخرج لهم السلطان البنات التي قدمن معهم ويزوج كل واحد من الاولاد واحدة من البنات ويعطي الرجل عشرة مثاقيل مهر زوجته ويعطي المرأة خمسة مثاقيل شورتها ويولي عليهم واحدا من آبائهم الكبار ويعطي ذلك القائد ما يبني به داره وما يبني به اخصاص أصحابه وهي المعروفة عندنا بالنوائل ويبعثهم الى المحلة بعد ان يكتبوا في ديوان العسكر واستمر الحال هكذا في كل سنة يأتي من المحلة عدد صغير ويتوجه اليها من عند السلطان عدد كبير من سنة مائة وألف الى ان توفي السلطان رحمه الله في التاريخ الآتي فبلغ عدد هذا العسكر البخاري مائة ألف وخمسين ألفا منها ثمانون ألفا مفرقة في قلاع المغرب لعمارتها وحراسة طرقها وسبعون ألفا بالمحلة وعدد القلاع التي بناها المولى اسمعيل رحمه الله بالمغرب ست وسبعون قلعة لا زالت قائمة العين والاثر با آفاق المغرب يعرفها الخاص والعام الى الآن هكذا وجد في كناش كاتب الدولتين الرشيدية والاسماعيلية الفقيه أبي الربيع سليمان بن عبد القادر الزرهوني المتوفى بتارودانت سنة ثمان وثلاثين ومائة وألف وكان عنده دفتر العسكر كله سواء السواد الاعظم والمتفرق في قلاع المغرب

﴿قال صاحب البستان﴾ وأين هذا مما نقله المؤرخون على وجه الغرابة من أن الخليفة المعتصم بن الرشيد رحمهما الله بلغ عدد مماليكه الذين اشتراهم والذين جلبهم من بلاد الترك ثمانية عشر ألفا فال وهذا العدد الذي جمعه أمير المؤمنين المولى اسمعيل رحمه الله من العبيد لو خاض به البحر الى الاندلس وكانت تلك القلاع سفنا ومراكب جهادية لاستولى عليها والتوفيق من الله اه ﴿قلت﴾ وهو لعمري كلام مقبول لكن الانسان مجبور في قالب مختار وتصاريف الامور جارية بيد الله لا بيد غيره وما ترك من الجهل شيأ من أراد أن يظهر في الوقت غير ما أظهره الله فيه وقال الشاعر

لا يعرف الشوق الا من يكابده * ولا الصبابة الا من يعانيها

وقال الآخر لا تعذل المشتاق في أشواقه * حتى يكون حشاك في أحشائه

وقال وإذا ما خلا الجبان بأرض * طلب الطعن وحده والنزالا

ومن أمثال العامة القاعد على الجرف محسن للسباحة هذا كله بالنظر الى الحقيقة فأما الشريعة فقد قال تعالى وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل الآية وعلى كل حال فلا يسوغ للانسان أن يهمل الاستعداد المأمور به شرعا ويكل الامر الى القدر والا فيكون مخطئا مخالفا للشرع والطبع قال صلى الله عليه وسلم للاعرابي الذي ترك ناقته مرسلة اعقلها وتوكل وقال الشاعر

على المرء أن يسعى لما فيه نفعه * وليس عليه أن يساعده الدهر

اللهم انا نسألك العفو والعافية والتوفيق واللطف فيما جرت به المقادير يا نعم المولى ونعم النصير

﴿فتح العرائش﴾

﴿وفي هذه السنة﴾ أعني سنة مائة وألف في آخر شوال منها سار القائد أبو العباس أحمد بن حدو البطوئي في جماعة من المجاهدين لحصار العرائش وكان الاصبنيول خذله الله قد استولى عليها على يد الشيخ ابن المنصور السعدي كما مر فنزل القائد أبو العباس المذكور عليها وضيق على الكفار الذين بها وحاصرهم نحوا من ثلاثة أشهر ونصف كذا في النزهة ﴿وقال المؤرخ منويل﴾ ان مدة الحصار كانت خمسة أشهر قال وكان طاغية الفرنسيس وهو لويز الرابع عشر قد أعان المولى اسمعيل على فتح العرائش وحاصرها بحرا بخمس فراقط وقطع عنها المادة مدة ثم أقلع عنها ثم بعد ذلك كان الفتح ﴿قال في النزهة﴾ فتحها المسلمون بعد معاناة شديدة وذلك انهم حفروا المينات تحت خندق سورها الموالي للمرسى وملؤها بارودا ثم أوقدوها بالنار فنفطت وسقط جانب من السور فاقتحم المسلمون منه وتسلقوا الى من كان من النصارى على الاسوار فوقعت ملحمة عظيمة وفر باقيهم الى حصن القبيبات الذي بناه المنصور السعدي واعتصموا به يوما وليلة تم خامر قلوبهم الجزع وطلبوا الامان فأمنهم القائد أبو العباس المذكور على حكم السلطان فنزلوا عليه فأخذوا أسارى بأجمعهم ولم يعتق منهم الا أميرهم وحده وتم الفتح وذلك يوم الاربعاء الثامن عشر من المحرم سنة احدى ومائة وألف وما في البستان وقلده صاحب الجيش ان نصارى العرائش اعتصموا بحصن القبيبات سنة كاملة خطأ لا يعول عليه وكان عدد نصارى العرائش قبل الاستيلاء عليهم ثلاثة آلاف ومائتين ولما ظفر بهم المسلمون أسروا منهم نحو ألفين وقتلوا منهم اثنتي عشرة مائة ووجد بها من البارود والعدة ما لا يحصى كثرة فمن المدافع نحو مائة وثمانين منها اثنان وعشرون من النحاس والباقي من الحديد ومنها مدفع يسمى الغصاب طوله خمسة وثلاثون قدما بالحساب ووزن كرته خمسة وثلاثون رطلا بحيث حلق عليه بقرب خزانته أربعة رجال كذا سمع من المشاهدين لذلك بعد السؤال كذا في النزهة ﴿وقال منويل في كتابه﴾ ان النصارى ما أسلموا أنفسهم حتى شرطوا شروطا معتبرة لكن السلطان نكث اه ﴿قلت﴾ قد حكى القاضي أبو القاسم العميري في فهرسته ما حاصله أن نصارى العرائش ادعوا ان الفتح المذكور انما كان صلحا وتأمينا لا عنوة ثم لما طال النزاع في ذلك أمر السلطان قاضي حضرته

المكناسية أبا عبد الله محمد المعروف بابي مدين ببيان الحكم في ذلك فأجاب جوابا طويلا حرر فيه حكم الشريعة المحمدية غاية الاغاية فوقه وحكم على أولئك النصارى بالاسر وقد ذكر ذلك بتمامه في الفهرسة المذكورة فلينظر هنالك وأمر السلطان رحمه الله باشخاص أولئك النصارى الى مكناسة الزيتون وكانوا ألفا وثمانمائة على ما في البستان فكان يستخدمهم مع غيرهم من المساجين والاسرى في بناء قصوره بالنهار ويبيتون ليلا في الدهليز وهو في عرف المغاربة هري تحت الارض وأسكن السلطان رحمه الله أهل الريف العرائش وأمر قائدهم أن يبني بها مسجدين وحماما ويبني داره بقلعتها وفي فتح العرائش أنشد الخطيب البليغ أديب فاس ومفتيها أبو محمد عبد الواحد بن محمد الشريف البوعناني فقال

ألا أبشر فهذا الفتح نور * قد انتظمت بعزكم الامور
وطير السعد نادى حيث غنى * قد انشرحت بفتحكم الصدور
وضوء النصر ساعده التهاني * ونور الفخر نحوكم يدور
وقد وافتكم الخيرات طرا * وطاب العيش واتصل السرور
حميتم بيضة الاسلام لما * بعين الحق قد حرس الثغور
وجاهدتم وقاتلتم فانتم * لدين الله أقمار تنير
وأطلعتم صوارمكم نجوما * لدى هيجاء صاحبها كفور
فأنت البدر يوم السلم حسنا * وفي يوم الوغا الاسد الهصور
وفي ثغر العرائش قد تبدى * لقدركم على الشعرى الظهور
لقد كان الملوك فساوموها * وراموها وبان لها نفور
فلما جئتها انقادت وقالت * اليك بحق مولانا المصير
ملكت قيادعزتها بذل * فما أغنى الحصار ولا العبور
قهرتهم بابطال ضخام * على الهيجاء كلهم جسور
فكم رأس من الكفار أمسى * قطيع الرأس مجرورا يخور
وكم نحر قلادته رماح * وسن الرمح مركزه النحور
وكم أسرى وكم قتلى بأرض * وكم جرحى دماؤهم تفور
تمر بها الطيور فتنتقيها * وبات الذئب وهو لها شكور
وأضحى الناس كلهم نشاوى * على طرب وما شربت خمور
فبشرا كم بهذا الفتح نور * وبشرا كم بما من الغفور
به زادت ما ثركم علوا * وقد عظمت به لكم الاجور
ألا يا معشر الكفار هذا * يبددكم وليس له فتور
ألا يا أهل سبتة قد أتاكم * بسيف الله سلطان وقور
اذا ما جاء سبتة في عشي * تناديه اذا كان البكور
ووهران تنادي كل يوم * متى يأتي الامام متى يزور
متى يأتي ويفتحها سريعا * ويلحق أهلها منه ثبور
فيهزمهم ويقتلهم ويسبي * وسيف الحق في يده ينور
أيا مولاي قم وانهض وشمر * لاندلس فأنت لها الامير
وجاهدهم وحاربهم وفرق * جموعهم فربكم النصير
ولا يمنع بفضل الله منها * كما قد قيل بر أو بحور

لسان الحال ينشد كل يوم * ومعنى الحال تفهمه الصدور
بقرطبة تنال المجد طرّا * ويأتى العز والملك الكبير
وذلكم بعون الله سهل * ومن بركاتكم أمر يسير
أيا مولاى اسمعيل هذا * عبيدكم الضعيف المستجير
يناديكم بناديكم ويدعو * دعاء لا تعييه الدهور
فيا رب البرية يا الهى * ويا رحمن يا نعم المجير
أثب هذا الامير بكل خير * ولا تجعل تجارته تبور
وأبق الملك فيه وفى بنيه * ولو كرهت زيود أو عمور
ونحن رعية نرجوا هناء * وبالسلطان تنتظم الامور
عليكم من عبيدكم سلام * مدى الدنيا يضمخه العبير
يعم جنابكم ما قال صب * ألا أبشر فهذا الفتح نور

وقال فى ذلك الفقيه العالم الورع الشهير أبو محمد عبد السلام بن حمدون جسوس رحمه الله

رفعت منازل سبتة أقوالها * تشكو اليكم بالذى قد هالها
مع بادس وبريجة فتعطفوا * وتنبهوا كى تسمعوا تسآلها
يا ابن النبى الهاشمى محمد * قل يا أمير المؤمنين أنالها
فلقد قضيتم للعرائش حاجة * مع طنجة فاقضوا الذى آمالها
عار عليكم أن تكون أسيرة * بجواركم وجنودكم تعزى لها
ان لم تكونوا آخذين بثارها * من ذا يفك من الوثاق حبالها
لا تسمعن من جاهل ومثبط * ومصعب من جهله أحوالها
ان الذين تقدموا قد جاهدوا * بنفوسهم وبما لهم أمثالها
فتملكوا أملاكها وديارها * وتقسموا أموالها ورجالها
فابعث لها أهل الشجاعة عاجلا * حتى تراهم نازلين جبالها
وأمدهم بمؤنة ومعونة * كيفما تقطع بالعدا أوصالها
وارفع لهذا الغرب رأس انه * فى الضعف ما دام العدا انزالها
أبقاك ربى للخلافة عدة * تقفو الشريعة موثرا أفعالها
واقبل هدية من أتى بنصيحة * يبغى الثواب ولا تقل من قالها

وقال فى ذلك الشريف الاديب أبو محمد عبد السلام بن الطيب القادرى

علا عرش دين الله كل العرائش * وهد بنصر الله قصر العرائش

وهى طويلة انظرها فى نشر المثانى ان شئت ثم فى الثانى والعشرين من ربيع الاول من هذه السنة نهى السلطان عن لبس النعال السود ونادى بذلك فى سائر أمصار المغرب وأمر بلبس النعال الصفر مكانها لما قيل من ان الناس اتخذوا النعال السود منذ استولى النصارى على العرائش على يد المأمون السعدى كما تقدم وفى أوائل ذى الحجة من هذه السنة قتل السلطان ثلاثة وستين رجلا من الطائفة المسمون بالعكاكزة

فتح آصيلا

ولما فرغ المجاهدون من أمر العرائش عمدوا الى مدينة آصيلا فنزلوا عليها وحاصروا النصارى الذين بها سنة كاملة وأظهم الاصبنيول الى أن بلغ بهم الحصار كل مبلغ فطلبوا الامان فأمنوهم على حكم السلطان

ولما لم يطمئنوا الذلك ركبوا من الليل سفنهم ونجوا الى بلادهم ودخل المسلمون المدينة فلكوها وذلك سنة اثنتين ومائة وألف وعمرها أهل الريف أيضا وبنى قائدهم بها مسجدين ومدرسة وحماما وبنى داره بقلعتها والله أعلم

﴿حصار سبتة﴾

ثم سار المجاهدون بعد الفراغ من آصيلا الى سبتة فنزلوا عليها وحاصروها واستأنفوا الجد فى مقاتلتها وأمدهم السلطان بعسكر من عبيده وأمر قبائل الجبل أن تعين كل قبيلة حصتها للمرابطة على سبتة وكذلك أمر أهل فاس أن يبعثوا بحصتهم اليها فكان عدد المرابطين عليها خمسة وعشرين ألفا وتقدم السلطان اليهم فى الجد والاجتهاد فكان القتال لا ينقطع عنها صباحا ومساء وطال الامد حتى ان السلطان رحمه الله اتهم القواد الذين كانوا على حصارها بعدم النصح فى افتتاحها لئلا يبعثهم بعدها الى حصار البريجة فيبعدوا عن بلادهم مع انهم قد سئموا كثرة الاسفار ومشقات الحروب واستمر الحال الى أن مات القائد أبو الحسن على بن عبد الله الريفى وولى بعده ابنه القائد أبو العباس أحمد بن على والقتال لا زال والحال ما حال وفى كل سنة يتعاقب الغزاة عليها والسلطان مشتغل بتمهيد المغرب ومقاتلة برابرة جبل فازاز وغيرهم ولم يهيء الله فتحها على يديه ودار القائد أحمد بن على ومسجده اللذان بناهما بازاء سبتة أيام الحصار لا زالا قائمين العين والاثر الى اليوم ﴿وحكى الغزال فى رحلته﴾ أنه رأى باحد أبواب سبتة خرقا قديما لم يصلح فسأل أهلها عنه فقالوا انه من أثر الرمى الذى كان يرميه الجيش الاسماعيلى وهو أثر كرة خرقت الباب ونفذت الى داخل البلد وتركناه على حاله ليعتبر به من يأتى بعدنا ويزداد احتياطا وحزما أو كلاما هذا معناه والله تعالى أعلم

﴿غزو السلطان المولى اسمعيل برابرة فازاز وايقاعه بهم﴾

كان السلطان المولى اسمعيل رحمه الله فى هذه المدة مشتغلا بتمهيد المغرب واستنزال أممه من معاقلهم الى ان فتح أقطاره كلها وبنى قلاعها ورتب حاميتها ولم يبق له بالمغرب كله الاقنة جبل فازاز الذى فيه آيت ومالو وآيت يفالمال وآيت يسرى فعزم على النهوض اليه واقتضاض عذرته ولما أراد الخروج اليهم استخلف على فاس الجديد كبير أولاده المولى أبا العلاء محرزا وبعث الى مراكش ابنه المولى أبا النصر المأمون وترك بمكناسة ابنه المولى محمد المدعو زيدان وكان فارس أولاده الموجودين يومئذ ولما ولى المأمون على مراكش أمر برئيس الحضرة وامام الكتاب الفقيه أبا العباس أحمد اليحمدى أن يعطيه التقليد ويوصيه بما تنبغى الوصاة به وكان المولى المأمون منصرفا عن الوزير المذكور فمشى اليه على كره منه وحاز منه التقليد واستمع لوصيته امتثالا لامر والده ثم عاد اليه وقال يامولانا ان اليحمدى ينقصك ويزعم انه الذى علمك دينك فى كلام آخر فقال له السلطان رحمه الله والله ان كان قد قال ذلك انه لصادق فانه الذى علمنى دينى وعرفنى بربى نقل هذه الحكاية صاحب البستان وصاحب الجيش وكلاهما قال انه سمعها من السلطان المرحوم المولى سليمان بن محمد رحمه الله وهى منقبة فخيمة للمولى اسمعيل فى الخضوع للحق والاعتراف به رحم الله الجميع ﴿ثم دخلت سنة ثلاث ومائة وألف﴾ والسلطان عازم على النهوض الى فازاز وبعث مع ذلك بالراتب والعدة الى أهل فاس وأمرهم بالنهوض الى الترك مع ولده المولى زيدان فخرجوا فى رمضان من السنة وبعد العيد أخذ السلطان فى الاستعداد للنهوض الى فازاز ثم بدا له فخرج فى اثر المولى زيدان فلحق باطراف المغرب الاوسط وأبرم الصلح مع الترك ورجع الى الحضرة هكذا ساق صاحب البستان هذا الخبر والذى رأيته فى نشر المثانى هو ما نصه قد اختار السلطان المولى اسمعيل الفقيه أبا عبد الله محمد الطيب الفاسى لعقد المهادنة مع الترك فى حدود سنة ثلاث ومائة وألف بعد وقعة

المشارع معهم لعلمه وفصاحته وبيته فذهب نحو الجزائر صحبة ولد السلطان وهو مولاى عبد الملك ومعهم الكاتب أبو عبد الله المدعو الوزير وغيرهم من وجوه الدولة الاسماعيلية فلما قاربوا الجزائر خرج صاحبها فى جنده وقتل ونهب حتى انتهى الخبر الى فاس بانهم قتلوا أجمع وصادف ذلك يوم عاشوراء فحزن الناس لذلك وأمسكوا عن الانفاق حتى بقى ماعهد أن يشترى فى ذلك اليوم ملقى لماعرا الناس من الغم ثم جاء الخبر بانهم قادمون بعافية وانهم وصلوا الى تازى ففرح الناس واستأنفوا الانفاق كيوم عاشوراء ومات باشى القبلى فولى السلطان على زمور وبنى حكم ولده أبا الحسن على بن يشى ﴿ثم دخلت سنة أربع ومائة وألف﴾ وفيها تهيأ السلطان للنهوض الى البربر أهل فازاز فاستنفر القبائل وحشد الجيوش واستعد الاستعداد التام بالمدافع والمهاريس والمجانيق وسائر آلات الحصار فنزل رحمه الله فى جند العبيد ببسيط آدخسان ورتب على البرابر العساكر من كل جهة فبعث الباشا مساهلا فى خمسة وعشرين ألفا من الرماة طلع بها من تادلا على وادى العبيد حتى نزل خلف آيت يسرى وبعث على بن بركات مع آيت يمور وآيت ادراسن فنزلوا بتغالين وبعث على بن يشى مع زمور وبنى حكم وأمره أن ينزل بعين شوعة وبعث الى أهل تدغة وفركلة وغريس والصباح أن يقدموا بجموعهم على على بن يشى وبعث اليه مع ذلك بعسكر الطبجية بالمدافع والمهاريس وسائر آلات الحرب وبعث نصارى العرائش يجرّونها على طريق آعليل ثم على قصر بنى مطير الى ان اجتمعوا بعلى بن يشى على عين شوعة وضرب السلطان لامراء الجنود لانشاب الحرب موعدا معلوما وقال لهم اذا كان وقت العشاء من ليلة كذا فليأخذ الطبجية فى اخراج المدافع والمهاريس بالكور والبنب طول ليلتهم ليحصل للبربر الدهش فاذا أصبحتم فليقدم كل قائد من ناحيته ولينشب الحرب ليكون القتال فى ساعة واحدة من جميع الجهات ففعلوا ما أشار به عليهم ولما كانت الليلة المعينة لم يرع البربر الارعود المدافع والمهاريس تصعق فى الجوّ ونيرانها تنقدح فى ظلمات الليل واصداء الجبال تتجاوب من كل ناحية فقامت عليهم القيامة وظنوا ان الارض قد زلزلت بهم فقوّضوا أبنيتهم وحملوا عيالاتهم للفرار وصاروا لايستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا ولما أصبحوا زحف اليهم السلطان من ناحيته وزحفت اليهم العساكر من باقى الجهات واشتدّ القتال فانهزموا وتفرّقوا فى الشعاب والاودية شذر مدر وصار كل من قصد منهم ثنية أو منفذا وجد العساكر مقبلة منها والمدافع مصوبة نحوها فحل بهم القضاء وتصرف فيهم البلاء كيف شاء فقتلت رجالهم وسبيت نساؤهم وأولادهم ونهب أثاثهم وحيزت مواشيهم وأنعامهم واستلبت خيلهم وسلاحهم واستحرّ القتل والنهب فيهم ثلاثة أيام والعساكر تلتقطهم من الاودية والشعاب وتستخرجهم من الكهوف والغيران وأمر السلطان قواده مساهلا وعلى بن يشى وعلى بن بركات بجمع رؤس القتلى وجمع الخيل والسلاح ويوافوه بها لآدخسان فجمعوا ما عثروا عليه من ذلك فكان عدد الرؤس ينيف على اثنى عشر ألفا وعدد الخيل الفحول ينيف على عشرة آلاف وعدد المكاحل ينيف على ثلاثين ألفا وبالاستيلاء على هؤلاء البربر كمل للسلطان المولى اسمعيل رحمه الله فتح المغرب واستولى عليه كله ولم يبق به عرق ينبض وكتب فى الديوان من آيت يمور ألف فارس أنزلهم مع على بن بركات بقلعة تغالين وأنزل حلتهم على رأس منزل آيت ومالو ولم يترك لقبيلة من قبائل المغرب خيلا ولا سلاحا وانما كانت الخيل والسلاح عند العبيد والودايا وآيت يمور وأهل الريف المجاهدين بسبتة ﴿قال أبو عبد الله اكنسوس رحمه الله﴾ وكان المولى اسمعيل رحمه الله ارتكب أخف الضررين وأدنى المفسدتين فى اضعاف قبائل المسلمين بسلب الخيل والسلاح مع ان المطلوب هو تقويتهم بذلك لمقابلة العدوّ الكافر قال تعالى وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل الآية ورأى المولى اسمعيل انه لما أعدّ ذلك العسكر القوى الشديد قام عن المسلمين بواجب وكفاهم كل مؤنة وأراحهم من كلفة القيام بالخيل والسلاح مع ان الفساد الذى يظهر منهم عند ملك الخيل والسلاح

اعظم

أعظم وذلك بقطع الطرقات ونهب الاموال وخلع اليد من الطاعة قال وهذا القدر الذي اعتذر نابه عن السلطان ظاهر غاية الظهور ولعله خفي على الشيخ اليوسي حتى كتب اليه برسالته المشهورة اه

﴿قلت﴾ مافعله السلطان المولى اسمعيل رحمه الله من ذلك ظاهر المصلحة لا يخفى على أحد وجه استحسانه ولا يتوهم عاقل ان أهل فازاز ومن في معناهم يتخذون الخيل والسلاح للجهاد وماماقلا يحتاج السلطان رحمه الله في مثل ذلك الى الاعتذار وقوله ان ذلك الاعتذار خفي على الشيخ اليوسي ليس على ماينبغي لان الشيخ اليوسي رحمه الله ماتكلم مع السلطان في أمر أولئك القبائل ومن في معناهم وانما كلامه معه في أمور ثلاثة الاول في جباية المال من وجهه وصرفه في وجهه الثاني في اقامة رسم الجهاد وتحصين الثغور وكلها بالمقاتلة والسلاح الثالث في الانتصاف من الظالم للمظلوم وكف اليد العادية عن الرعية

﴿ونص هذه الرسالة﴾ الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين قطب المجد ومركزه ومحاز الفخر ومأرزه وأساس الشرف الباذخ ومنبعه ومناط الفضل الشامخ ومجمعه السلطان الاعظم الاجل الافخم مولانا اسمعيل ابن مولانا الشريف لازالت أعلامه منصوره وأيامه على العز واليمن مقصوره سلام على سيدنا ورحمة الله وبركاته هذا ولا زائد عندنا سوى المحبة لسيدنا وغاية التعظيم والاجلال والدعاء لسيدنا بصالح الاحوال وذلك بعض ماأوجبته يده المبسوطة علينا بالبرّ والاحسان والفضل والامتنان والتوقير والاحترام والانعام والاكرام مع ماله علينا وعلى غيرنا من الحقوق التي أوجبتها منزلته السلطانية ومثابته الطوقية الفاطمية فكتبنا هذه البطاقة وهي في الوقت منتهى الطاقة وكنا كثيرا مانرى من سيدنا التشوق الى الموعظة والنصح والرغبة في استفتاح أبواب الربح والنجح فأردنا أن نرسل الى سيدنا ماأن وفق الى النهوض اليه رجونا له ربح الدنيا والآخرة والارتقاء الى الدرجات الفاخرة ورجونا وان لم نكن أهلا لان نعظ أن يكون سيدنا أهلا لان يتعظ وان يحتمي من جميع المذام ويحتفظ فليعلم سيدنا ان الارض ومافيها ملك لله تعالى لاشريك له والناس عبيد لله سبحانه وأماءه وسيدنا واحد من العبيد وقد ملكه الله عبيده ابتلاء وامتحانا فان قام عليهم بالعدل والرحمة والانصاف والاصلاح فهو خليفة الله في أرضه وظل الله على عبيده وله الدرجة العالية عند الله تعالى وان قام بالجور والعنف والكبرياء والطغيان والافساد فهو متجاسر على مولاه في مملكته ومتسلط ومتكبر في الارض بغير الحق ومتعرض لعقوبة مولاه الشديدة وسخطه ولا يخفى على سيدنا حال من تسلط على رعيته يروم تملكهم بغير اذنه كيف يفعل به يوم يتمكن منه ثم نقول ان على السلطان حقوقا كثيرا لاتفي بها البطاقة ولنقتصر منها على ثلاثة هي أمهاتها الاول جمع المال من حق وتفريقه في حق الثاني اقامة الجهاد لاعلاء كلمة الله وفي معناه تعمير الثغور بما تحتاج اليه من عدد وعدة الثالث الانتصاف من الظالم للمظلوم وفي معناه كف اليد العادية عليهم منهم ومن غيرهم وهذه الثلاثة كلها قد اختلت في دولة سيدنا فوجب علينا تنبيهه لئلا يعتذر بعدم الاطلاع والغفلة فان تنبه وفعل فقد فاز وذلك صلاح الوقت وصلاح أهله وسبوغ النعمة وشمول الرحمة والا فقد أدّينا الذي علينا أما الامر الاول فليعلم سيدنا ان المال الذي يجبى من الرعية قد أعد للمصالح التي ينتظم بها الدين وتصلح الدنيا من أهل البيت والعلماء والقضاة والائمة والمجاهدين والاجناد والمساجد والقناطر وغير ذلك من المصالح ومثال هؤلاء كأيتام لهم ديون قد عجزوا عن قبضها الابوكيل ومثال الرعية مثل المديان والسلطان هو الوكيل فان استوفى الوكيل الدين بلا زيادة ولا نقصان وأداه الى اليتامى بحسب مايجب لكل فقد برئ من اللوم ولم تبق عليه تباعة للمديان ولا لليتيم وحصل له أجران أجر القبض وأجر الدفع وان هو زاد على الدين الواجب بغير رضى المديان فهو ظالم له أونقص اليتيم من حقه الواجب له فهو ظالم له وكذا ان استوفى الديون وأمسكها ولم يدفعها لاربابها فهو ظالم فلينظر سيدنا فان جباة مملكته قد جروا ذيول الظلم على الرعية

فأكلوا اللحم وشربوا الدم وامتشوا العظم وامتصوا المخ ولم يتركوا للناس دينا ولا دنيا أما الدنيا فقد أخذوها وأما الدين فقد فتنوهم عنه وهذا شئ شهدناه لا شئ ظنناه ثم ان أرباب الحقوق قد ضاعوا ولم تصل اليهم حقوقهم فعلى السلطان أن يتفقد الجباة ويكف أيديهم عن الظلم ولا يغتر بكل من يزين له الوقت فان كثيرا من الدائرين بطلاب الدنيا لا يتقون الله تعالى ولا يتحفظون من المداهنة والنفاق والكذب وفي أفضل منهم قال جده أمير المؤمنين مولانا على بن أبي طالب كرم الله وجهه المغرور من غررتموه اهـ وأن يتفقد المصالح ويبسط يد الفضل على خواص الناس من أهل الفضل والدين والخير ليكتسب محبتهم وثناءهم ونصرهم كما قيل

أفادتكم النعماء منى ثلاثة * يدى ولسانى والضمير المحجبا

وقد جبلت القلوب على حب من أحسن اليها ولا يهملهم فيتمنوا غيره ويتطلبوا دولة أخرى كما قيل

اذا لم يكن للمرء في دولة امرئ * نصيب ولا حظ تمنى زوالها

وما ذاك من بغض لها غير أنه * يريد سواها فهو يهوى انتقالها

وليعلم سيدنا ان السلطان اذا أخذ أموال العامة ونثرها في الخاصة وشيد بها المصالح فالعامة يذعنون ويعلمون انه سلطان وتطيب قلوبهم بما يرون من انفاق أموالهم في مصالحهم والا فالعكس وأيضا السلطان متعرض للسهام الراشقة من دعوة المظلومين من الرعية فاذا أحسن الى الخاصة دعوا له بالخير والسلامة والبقاء فيقابل دعاء بدعاء والله الموفق وأما الامر الثانى فقد ضاع أيضا وذلك انه لم يتأت في الوقت الاعمارة الثغور وسيدنا قد غفل عنها فقد ضعفت اليوم غاية وقد حضرت بمدينة تطاوين أيام مولانا الرشيد رحمه الله فكانوا اذا سمعوا الصريخ تهتز الارض خيلا ورماة وقد بلغنى اليوم انهم سمعوا صريخا من جانب الجعفرات يوم نحر جواد يسعون على أرجلهم بايديهم العصى والمقاليع وهذا وهن في الدين وغرر على المسلمين واعتاجاءهم الضعف من المغارم الثقيلة وتكليفهم الحركات واعطاء العدة كسائر الناس فعلى سيدنا أن يتفقد السواحل كلها من قلعية الى ماسة ويحرضهم على الجهاد والحراسة بعد ان يحسن اليهم ويعفيهم مما يكلف به غيرهم ويترك لهم خيلهم وعدتهم ويزيدهم ما يحتاجون اليه فهم حماة بيضة الاسلام ويتحرى فيمن يوليه تلك النواحي أن يكون أشد الناس رغبة في الجهاد ونجدة في المضايق وغيرة على الاسلام ولا يولى فيها من همته ملء بطنه والاتكاء على أريكته والله الموفق وأما الامر الثالث فقد اختل أيضا لان المنتصبين للانتصاف بين الناس في البلدان وهم العمال وخدامهم هم المشتغلون بظلم الناس فكيف يزيل الظلم من يفعله ومن ذهب يشتكى سبقوه الى الباب فزادوا عليه فلا يقدر أحد أن يشتكى فليتق الله سيدنا وليتق دعوة المظلوم فليس بينها وبين الله حجاب وليجهد في العدل فانه قوام الملك وصلاح الدين والدنيا قال تعالى ان الله يأمر بالعدل والاحسان وايتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى الآية وقال تعالى ولينصرن الله من ينصره ان الله لقوى عزيز ثم ذكر تعالى المنصورين وشروط النصر فقال الذين ان مكناهم في الارض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر فضمن تعالى للملوك النصر وشرط عليهم هذه الامور الاربعة فتى اختل عليهم أمر الرعية وتسلط عليهم من يفسد عليهم الدولة فليعلموا أن ذلك من اخلالهم بهذه الامور فكان عليهم الرجوع الى الله تعالى وتفقد ما أمرهم به ورعاية ما استرعاهم اياه وقد اتفقت حكماء العرب والعجم على ان الجور لا يثبت معه الملك ولا يستقيم وان العدل يستقيم معه الملك ولو مع الكفر وقد عاش الملوك من الكفرة المئين من السنين في الملك المنتظم والكلمة المسموعة والراحة من كل منغص لما كانوا عليه من العدل في الرعية استصلاحا لدنياهم فكيف بمن يرجو اصلاح الدنيا والدين * قال بعض الحكماء * الملك بناء والجند أساسه واذا ضعف الاساس سقط البناء فلا سلطان الا بجند ولا جند الا بمال ولا مال الا بجباية

ولا جباية الا بعمارة ولا عمارة الا بالعدل فالعدل أساس الجميع وقد صنع ارسطوطاليس الحكيم للملك الاسكندر الشكل المستدعنه وكتب عليه العالم بستان سياجه الدولة الدولة سلطان تعضده السنة السنة سياسة يسوسها الملك الملك راع يعضده الجيش الجيش أعوان يكفلهم المال المال رزق يجمعه الرعية الرعية عبيد يقودهم العدل العدل مألوف وبه صلاح العالم العالم بستان الى آخره ﴿وقال صلى الله عليه وسلم﴾ كلكم راع وكلكم مسؤل عن رعيته ﴿وقال صلى الله عليه وسلم﴾ ان رجالا يخوضون في مال الله بغير حق لهم النار يوم القيامة أو كما قال ﴿وقال صلى الله عليه وسلم﴾ ما من وال يلي ولاية الا جاء يوم القيامة ويداه مغلولتان فاما عدل يفكه واما جور يوبقه * وعن مولانا علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال رأيت عمر على قتب يعدو به بعيره بالابطح فقلت يا أمير المؤمنين أين تسير فقال بعير من ابل الصدقة شرد أطلبه فقلت أذللت الخلفاء من بعدك فقال لا تلمني فوالذي بعث محمدا صلى الله عليه وسلم بالحق لو أن عناقا ضلت بشاطئ الفرات لأخذ بها عمر يوم القيامة انه لا حرمة لوال ضيع المسلمين ولا لفاسق روع المؤمنين وقد رأى رضي الله عنه شيخا يهوديا يسأل على الابواب فقال ما أنصفناك أخذنا منك الجزية مادمت شابا ثم ضيعناك اليوم وأمر أن يجرى عليه قوته من بيت المال وليعلم سيدنا أن أول العدل أن يعدل في نفسه فلا يأخذ لنفسه من المال الا بحق وليسأل العلماء عما يأخذ وما يعطي وما يأتي وما يذر وقد كان بنو اسرائيل يكون فيهم الامير على يد نبي فالنبي يأمر والامير ينفذ لا غير ولما كانت هذه الامة المرحومة انقطعت منها النبوة بنبيها خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم فلم يبق الا العلماء يقتدى بهم ﴿قال صلى الله عليه وسلم﴾ علماء أمتي كأنبياء بني اسرائيل فكان حقا على هذه الامة أن يتبعوا العلماء ويتصرفوا على أيديهم أخذا وعطاء وقد توفي صلى الله عليه وسلم واستخلف أبو بكر رضي الله عنه وكان قبل ذلك يبيع ويشتري في السوق على عياله فلما بويع أخذ ماله الذي للتجارة وذهب الى السوق على عادته حتى رده علماء الصحابة وقالوا انك في شغل بامر الخلافة عن السوق وفرضوا له ما يكفيه مع عياله وجعلوا المال على يد أمين فكان هو وغيره فيه سواء يأخذ منه بما اقتضته الشريعة لنفسه ولغيره وهكذا سيرة الخلفاء الراشدين من بعده فعلى سيدنا أن يقتدي بهؤلاء الفضلاء ولا يقتدي باهل الاهواء وليسأل من معه من الفقهاء الثقات كسيدي محمد بن الحسن وسيدي أحمد بن سعيد وغيرهما من العلماء العاملين الذين يتقون الله ولا يخافون في الله لومة لائم فما أمروه به مما ذكرناه وعمالم نذكره فعله وما نهوه عنه انتهى هذه طريقة النجاة ان شاء الله تعالى نسأل الله تعالى أن يرزق سيدنا توفيقا وتسديدا وارشادا وتأييدا وان يصلح بوجوده البلاد والعباد وأن يحسم بسيفه أهل الزيغ والعناد آمين والحمد لله رب العالمين

ولما فرغ السلطان رحمه الله من وقعة فازاز وآيت ومالو ادعا علي بن يشي وعقد له على عشرة آلاف من الخيل وقال له لا أرى وجهك الا اذا أغرت على كروان وأتيتني منهم بعدد هذه الرؤس التي هنا لانهم كانوا بوادي زيز يعيثون في طريق سجلماسة وينهبون الرفاق فسار علي بن يشي حتى صبحهم وهم غارون فنهب حللهم ومواشيهم وقتل منهم العدد الكثير ثم نادى في تلك القبائل كلها من أتى برأس كروانى فله عشرة مثاقيل فصار كل من انحاز اليه أحد منهم يقطع رأسه ويأتي به اليه واستمر البحث عنهم في المدر والوبر الى أن قضى من جاجهم الوطر ولما اجتمعت عنده أعطى كل من أتى برأس مثقالا واحدا وجاء الى السلطان باثني عشر ألف رأس كما اقترح عليه وفق ما اجتمع منها بادخسان فشكر له فعله وولاه على قبائل العرب والبربر ﴿ودخلت سنة خمس ومائة وألف﴾ فلم يكن فيها شيء يذكر ﴿ثم دخلت سنة ست ومائة وألف﴾ ففي ربيع منها خرج المولى زيدان ابن السلطان بالعساكر قاصدا ناحية تلمسان بعد ان قتل النائب بفاس أبا العباس أحمد السلاوي فقاتل الترك ونهب ورجع ﴿ثم دخلت سنة سبع ومائة وألف﴾ فلم يكن فيها شيء يذكر ﴿ثم دخلت سنة ثمان ومائة وألف﴾ ففي يوم عرفة منها قدم عشرة رجال من أصطنبول ومعهم

كتاب من السلطان مصطفى بن محمد العثماني صاحب القسطنطينية العظمى الى السلطان المولى اسمعيل يندبه الى الصلح مع أهل الجزائر فانتدب رحمه الله وامتثل

﴿أمر السلطان المولى اسمعيل علماء فاس بالكتابة على ديوان العبيد وامتناعهم منها وما نشأ عن ذلك﴾

وفي ذي القعدة من هذه السنة أعني سنة ثمان ومائة وألف ورد كتاب من حضرة السلطان على القاضي والعلماء بفاس يعاتبهم ويوبخهم على عدم موافقتهم على تمليك العبيد المثبتين في الديوان ثم ورد كتاب آخر من السلطان يمدح العامة ويذم العلماء ويأمر بعزل القاضي والشهود كذا في البستان ﴿قال أبو عبد الله اكنسوس﴾ هذا الكلام الذي نقله صاحب البستان عن السلطان المولى اسمعيل رحمه الله فيه نظر فانه كلام مجمل وقضية جمع العبيد مذكورة مفصلة في الكناش الكبير الاسماعيلي وفيه تمييز المماليك الارقاء الذين اشتروه بالثمن على الوجه الشرعي بخطوط العدول وهؤلاء لا كلام فيهم وأما غيرهم من أهل الديوان المجلوبون من القبائل العديدة فان السلطان لم يدع فيهم الملكية وانما الكلام في جبرهم على الجندية ووجه السلطان الى علماء المشرق والمغرب السؤالات عن ذلك فكتبوا اليه الاجوبة المتضمنة للجواز بخطوطهم وكل ذلك في الكناش المذكور مبسوطا وهو شئ كثير وحاشى الله مقام السلطان المولى اسمعيل رحمه الله أن يدعى تملك الاحرار وقد تقدم كلام الشيخ اليوسي وبيان ما أنكر على السلطان ولو كان ما ذكر الصياني متصفا به السلطان المذكور لكان ذلك أول ما ينكره اليوسي ولا يسعه السكوت عليه مع انه أنكر ما هو أقل من ذلك وأخف بمراتب نعم في الكناش طوائف معروفة متميزة ثبت عند السلطان المذكور أنهم كانوا أرقاء للمنصور السعدي فلما انقرضت الدولة السعدية تفرقوا في الاقطار وهم الذين تقدم الكلام عليهم في دفتر عليليش وقد وقع البحث عن رقيتهم وسئل أهل الاسنان من كل قبيلة فعينوا الرقيق من غيره فثبت ذلك كله عند السلطان ومع ذلك فلم يدخلهم في الارقاء الخلص الذين اشتروا بالثمن بل ميزهم على حدة فكان ذلك الجند عنده على ثلاث مراتب المرتبة الاولى خالص الرقية المرتبة الثانية خالص الحرية المرتبة الثالثة واسطة بينهما اهـ والله تعالى أعلم

﴿تفريق المولى اسمعيل رحمه الله أعمال المغرب على أولاده وما نشأ عن ذلك﴾

لما كانت سنة احدى عشرة ومائة وألف فرق السلطان المولى اسمعيل رحمه الله أعمال المغرب على أولاده فعقد لابنه المولى أحمد على تادلا وأنزله بقصبتها ورتب معه ثلاثة آلاف من العبيد حامية بها وأمره أن يزيد في تلك القصبة فبنى قصبة جديدة وبنى بها قصره وبنى مسجدا أعظم من مسجد أبيه بالقصبة الاولى واستقر بها وعقد لابنه المولى عبد الملك على درعة وأعمالها وأنزله بقصبتها ورتب معه ألف فارس وعقد لابنه المولى محمد المدعو بالعالم على اقليم السوس ورتب معه ثلاثة آلاف من الخيل وعقد لابنه المولى المأمون الكبير الذي كان بمراكش على سجلماسة وأعمالها نقله من مراكش اليها وأنزله بقصبته التي بناها له بتيزيمي ورتب معه خمسمائة من الخيل وبعد سنتين توفي المولى المأمون فولى السلطان مكانه ابنه المولى يوسف وعقد لابنه المولى زيدان على بلاد الشرق فكان يغير على رعايا الترك الى ان شردهم عن نواحي تلمسان وانتهى في بعض أيام غاراته الى مدينة معسكر فاقتحمها وانتهب دار أميرها عثمان باي وأخذ ما فيها من الفرش والخرثي والادام وغير ذلك لمغيب عثمان عنها في بعض غزواته فانتهز المولى زيدان فيها الفرصة فكان ذلك سبب عزله عن الشرق وتولية أخيه المولى حفيد مكانه لان السلطان رحمه الله لم يرض فعله ونهبه لدار الباي للصلح الذي كان انعقد بينه وبين السلطان مصطفى العثماني كما مر ﴿ثم دخلت سنة اثنتي عشرة ومائة وألف﴾ فيها غزى السلطان بلاد الشرق وحارب الترك بها لانتقاض الصلح الذي كان بينه وبينهم بسبب غارات المولى زيدان المتقدمة ولما قفل السلطان من وجهته هذه هلك من

جنده أثناء الطريق عدد كثير من العطش فن أهل فاس بالخصوص أربعون نفسا سوى من هلك من غيرهم وفي هذه السنة قتل القائد عبد الخالق بن عبد الله الروسي صاحب فاس عبدا من عبيد دار السلطان دخل عليه بغير اذنه فقتله فبعث السلطان ولده المولى حفيدا من مكناسة الى فاس ليأتيه به فاستشفع اليه عبد الخالق بالعلماء والاشراف فلم يقيده المولى حفيد وذهب به مسرحا فلما دخل على السلطان بمكناسة عفا عنه ورجع الى فاس سالما ﴿ثم دخلت سنة ثلاث عشرة ومائة وألف﴾ فيها استدعى السلطان عبد الخالق الروسي من فاس فلما قدم عليه قتله وبعث ابنه المولى زيدان الى فاس وبعث معه حمدون بن عبد الله الروسي واليا عليها بدلا من أخيه المقتول والله أعلم

﴿تنازع أولاد السلطان وثورة المولى محمد العالم منهم بالسوس ومقتله﴾

﴿لما دخلت سنة أربع عشرة ومائة وألف﴾ وصل المولى عبد الملك ابن السلطان صاحب درعة الى ضريح المولى ادريس الاكبر بزرهون مهزوما والاستيلاء أخيه المولى أبي النصر على درعة وتغلبه على تلك النواحي فبعث السلطان ولده المولى الشريف الى درعة واليا عليها فثار المولى محمد العالم ببلاد السوس ودعا لنفسه وزحف الى مراكش فحاصرها في رمضان من السنة المذكورة وفي العشرين من شوال اقتحمها عنوة بالسيف فقتل ونهب ولما اتصل خبره بالسلطان بعث ولده المولى زيدان في العساكر لقتاله فقدم مراكش فصادف المولى محمدا قد خرج عنها وعاد الى تارودانت ولما احتل المولى زيدان بمراكش عاث عساكره فيها ثم تبع أخاه المولى محمدا العالم الى السوس فنزل على تارودانت واتصلت الحرب بينهما الى ان ﴿دخلت سنة خمس عشرة ومائة وألف﴾ وفيها قدم المولى حفيد حضرة فاس الجديد ووظف على أهل فاس مغرما ثقيلا وجاء الزعيم واليا عليها ثم عزل وولي مكانه أبو علي الروسي فقتل أناسا وصلبهم وفي متم شوال من السنة المذكورة مات المولى حفيد بفاس الجديد هذا كله والحرب قائمة بين المولى زيدان والمولى محمد العالم ﴿ثم دخلت سنة ست عشرة ومائة وألف﴾ ففي ثالث صفر منها ورد أمر السلطان على فاس بان تعطى كل عتبة عظم سرج ولا يحترم من ذلك أحد كائنا من كان وفي الحادي والعشرين من صفر المذكور ورد الخبر باستيلاء المولى زيدان على تارودانت وقبضه على أخيه المولى محمد العالم بعد محاربته له ثلاث سنين هلك فيها أمم وقواد ورؤساء وأعيان يطول ذكرهم ولما دخلها المولى زيدان عنوة قتل جميع من بها حتى النساء والصبيان هكذا في البستان وفي رابع ربيع الاول من السنة وصل المولى محمد العالم مقبوضا عليه الى وادي بهت فبعث السلطان من قطع يده ورجله من خلاف بعقبة بهت ولما وصل الى مكناسة خامس عشر الشهر المذكور هلك رحمه الله ﴿قال أبو عبد الله اكنسوس﴾ لما توفي المولى محمد العالم صلى عليه القاضي أبو عبد الله محمد العربي بردلة فنقم عليه ذلك بعض الحسدة وأوغر قلب السلطان عليه وقال له انه يبغضك ولولا شدة بغضه لك ما نازع الى الصلاة على عدوك الذي ثار عليك ورام نزع الملك من يدك فكتب السلطان الى القاضي بردلة يتهدده ويوبخه فأجابه القاضي بأن صلاته عليه نظيرة صلاة الحسن البصري على الحجاج بن يوسف فلما ألم على ذلك قال استحييت من الله تعالى أن استعظم ذنب الحجاج في جنب كرم الله الغفور الرحيم على انني ما صليت عليه بغير اذن بل خرج الاذن من الدار المولوية وبلغ ذلك مبلغ الشهرة التي لم يبق معها شك وذلك على لسان مترجم ينسب الامر الى الجانب المولوي فلا افتيات بعد ذلك بل الواجب هو القيام بذلك ولو بغير اذن اجلالا وتعظيما لجانب مولانا نصره الله ولما قال صلى الله عليه وسلم لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه في قضية الحديبية أمح لفظة رسول الله قال علي رضي الله عنه والله لا أمحوه أبدا فتعارض وجوب امتثال أمر الرسول بالمحو ووجوب الاجلال لمقامه الارفع فرجح رضي الله عنه وجوب الاجلال ثم الصحيح ان الحدود كفارات ففي الصحيح عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه ومن أصاب من ذلك شيأ فعوقب به في الدنيا فهو كفارة له اهـ باختصار ﴿قال

اكنسوس﴾ وكانت هذه القضية من الفتن العظيمة بالمغرب عمت أهل القطر السوسي وخصت أعيان غيرهم من العلماء الذين كانوا يخالطون المولى محمدا العالم ولولا لطف الله تعالى فان الشيخ أبا عبد الله المسناوي الدلائي كان من أخص الناس بالمولى محمد فوشي به الى السلطان وقيل له انه من شدة اتصاله به لا يغيب عنه عزمه على القيام عليك فهو اذا موافق له على ذلك فبادر بعض أصحاب السلطان ممن كان يجنح للمسناوي بالاعتذار عنه بانه كان ينهاه عن القيام وأنشد للمسناوي في ذلك

مهــلا فان لكل شئ غاية * والدهر يعكس حيـلة المحتال
فالبدر ليس يلوح ساطع نوره * والشمس قاهرة السنا في الحال
فاذا توارت بالحجاب فعنـدذا * يبـــدو بدو تعـزز وجمـال

فوقع ذلك من السلطان وتحقق براءة الشيخ رحم الله الجميع ﴿قال اكنسوس﴾ وقولنا عمت أهل القطر السوسي لان ظهوره التام انما كان هنالك ولان جل من ينتسب الى العلم والصلاح منهم كانوا معه موافقين له ومؤيدين فعله اهـ ﴿قال في نشر المثاني﴾ كان المولى محمد العالم ماهرا في فنون شتى كالنحو والبيان والمنطق والكلام والاصول وكان ينفعل للشعر وتأخذه أريحية الادب وكتب له أخوه مولاي الشريف في صدر كتاب بعث به اليه ما خاطب به سيف الدولة ابن حمدان أخاه ناصر الدولة

رضيت لك العليا وان كنت أهلها * وقلت لهم بيني وبين أخي فرق
أما كنت ترضى أن أكون مصليا * اذا كنت أرضى أن يكون لك السبق

فاقترح المولى محمد على الشيخ أبي عبد الله المسناوي أن ينوب عنه في الجواب لانه كان في جملة الوافدين عليه حينئذ فقال رحمه الله

بلى قد رضيت أن تكون مجليا * ويتلوندا كم في العلا من له السبق
ومالي لا أرضى لك المجـــد كله * وأنت شقيق النفس ان عرف الحق
ولكن ذو والضغن انتحوا ذات بيننا * فغادرها افسادهـم وبها رتق

استيلاء النجليز على جبل طارق

﴿وفي هـذا التاريخ﴾ أعني سنة سبع عشرة ومائة وألف انتزع النجليز جبل طارق من يد الاصبنيول حاصره ثلاثة أيام برا وبحرا في جند يسير فملكه لاشتغال الاصبنيول يومئذ عنه بامر الفتنة التي حدثت في ملكه ولما ملكه النجليز عظم ذلك على أجناس الفرنج خصوصا الاصبنيول والفرنسيس ورأوا أن النجليز قد ملك عليهم باب الاورباولذا حاصروه مرارا فلم يحصلوا منه على طائل واستمر في يده الى الآن ﴿ولما دخلت سنة تسع عشرة ومائة وألف﴾ ورد الخبر بموت المولى زيدان ابن السلطان بتارودانت وحمل في تابوت الى مكناسة فدفن ليلا الى جانب أخيه المولى محمد العالم وفي هذه السنة أمر السلطان بهدم قصر البديع الذي بناه المنصور السعدي بقصبة مراكش وقد تقدم الكلام عليه ﴿قال اليفرني في النزهة﴾ ومن العجائب انه لم يبق بلد من بلاد المغرب الا ودخله شئ من أنقاض البديع اهـ ﴿ثم دخلت سنة عشرين ومائة وألف﴾ فيها افتتح الترك مدينة وهران وكانت بيد الاصبنيول مدة فردها الله على المسلمين يومئذ وفيها أمر السلطان بقراءة حديث الانصات يوم الجمعة عند خروج الخطيب وجلوسه على المنبر

﴿محنة الفقيه أبي محمد عبد السلام بن حمدون جسوس رحمه الله﴾

قد تقدم لنا ما كان من أمر السلطان المولى اسمعيل رحمه الله لعلماء عصره بالكتابة على ديوان العبيد وامتناعهم من ذلك ولما كانت سنة عشرين ومائة وألف تجددت المحنة وألزم الرئيس أبو محمد عبد الله الروسي فقهاء فاس أن يكتبوا على الديوان المذكور فن كتب نجا ومن أبى قبض عليه ثم قبض على أولاد جسوس واستصفى أموالهم وأجلس فقيههم الشيخ أبا محمد عبد السلام بن حمدون جسوس بالسوق مقيدا يتطلب الفداء ثم حمل مسجونا الى مكناسة ﴿ودخلت سنة احدى وعشرين ومائة وألف﴾ فعفا

السلطان عن الفقيه المذكور وسرحه وبعث به الى فاس ابزعج الحراطين الذين بها الى مكناسة فقدم وأزعجهم فى ربيع الاول من السنة المذكورة ثم كان عاقبة الفقيه المذكور أن قتله القائد أبو على الحسن بن عبد الخالق الروسى فمن الناس من يقول أن ذلك كان بأمر السلطان ومنهم من يقول بغير أمره اهـ وقد وقعت على تقييد بخط شيخنا الفقيه أبى عبد الله محمد بن عبد العزيز محبوبة السلاوى رحمه الله وكان واعية يقول فيه ان امتحان الفقيه أبى محمد جسوس كان من أجل امتناعه من الموافقة على ديوان الحراطين الذى اخترعه عليليش المراكشى للسلطان الجليل المولى اسمعيل رحمه الله حسبما هو مشهور فهجاه بعض السفهاء وهجا فاسا من أجله وحقد عليه السلطان فاستصفى عامة أمواله وأجرى عليه أنواع العذاب وبيعت دوره وأصوله وكتبه وجميع ما يملك هو وأولاده ونساؤه ثم صار يطاف به فى الاسواق وينادى عليه من يفدى هذا الاسير والناس ترمى عليه بالدراهم والحلى وغير ذلك من النفائس أياما كثيرة فيذهب الموكلون به بما يرمى عليه حيث ذهبوا بأمواله وبقى على ذلك قريبا من سنة فكان فى ذلك محنة عظيمة له ولعامة المسلمين وخاصتهم ولما دنا وقت شهادته رحمه الله وقد أيس من نفسه كتب بخطه رقعة وأذاعها فى الناس يقول فيها ما نصه الحمد لله يشهد الواضع اسمه عقبه على نفسه ويشهد الله تعالى وملائكته وجميع خلقه انى ما امتنعت من الموافقة على تمليك من ملك من العبيد الا أنى لم أجد له وجها ولا مسلكا ولا رخصة فى الشرع وانى ان وافقت عليه طوعا أو كرها فقد خنت الله ورسوله والشرع وخفت من الخلود فى النار بسببه وأيضا فانى نظرت فى أخبار الائمة المتقدمين حين أكرهوا على ما لم يظهر لهم وجهه فى الشرع فرأيتهم ما آثروا أموالهم ولا أبدانهم على دينهم خوفا منهم على تغيير الشرع واغترار الخلق بهم ومن ظن بى غير ذلك وافترى على ما لم أقله وما لم أفعله فالله الموعد بينى وبينه وحسبنا الله ونعم الوكيل والسلام وكتب عبد السلام بن حمدون جسوس غفر الله ذنبه وستر فى الدارين عيبه صبيحة يوم الثلاثاء الثالث والعشرين من ربيع الثانى سنة احدى وعشرين ومائة وألف اهـ ثم بعد ذلك بيومين أمر أبو على الروسى بقتله فقتل رحمه الله خنقا بعد ان توضأ وصلى ما شاء الله ودعا قرب السحر من ليلة الخميس الخامس والعشرين من ربيع الثانى من السنة المذكورة ودفن ليلا على يد القائد أبى على الروسى انتهى ما وجدناه مقيدا ﴿واعلم﴾ أن قضية الفقيه أبى محمد رحمه الله من القضايا الفظيعة فى الاسلام والاسباب التى أثارتها أولا وأكدتها ثانيا حتى نفذ أمر الله فيها قضاه وقدره فى أزله بعضها ظاهر وبعضها خفى الله أعلم بحقيقته غير أن المعروف من حال الفقيه المذكور هو الصلابة فى الدين والورع التام وناهيك بشهادته هذه دليلا على ذلك وقضيته قد تعارضت فيها الانقال ودخلها التعصب فلا يوقف منها على تحقيق وغفران الله وراء الجميع فانه تعالى أهل التقوى وأهل المغفرة ﴿قال أبو عبد الله اكنسوس﴾ وقد جرى ذكر قضية الفقيه أبو محمد عبد السلام هذا بمجلس السلطان المرحوم المولى سليمان بن محمد فقال ما قتله مولانا اسمعيل وانما قتله أهل فاس قال ولم يمكنا أن نسأله عن حقيقة ذلك اهـ وفى شعبان من السنة المذكورة عزل السلطان أبا على الروسى عن فاس وولى مكانه حمدون الروسى ثم بعد مدة يسيرة أخر حمدون وأعيد أبو على وفيها قدم عبد الله الروسى ومعه أمر السلطان ببيع أصول المجاورين بالمشرق يعنى بالحرمين الشريفين

﴿ثورة المولى أبى النصر ابن السلطان بالسوس ومقتله رحمه الله﴾

﴿ثم دخلت سنة ثلاث وعشرين ومائة وألف﴾ فيها ثار أبو النصر ابن السلطان المولى اسمعيل ببلاد السوس وخب فى الفتنة ووضع ﴿وفى سنة أربع وعشرين ومائة وألف﴾ سرح السلطان كاتبه الخياط ابن منصور من السجن وولاه درعة ﴿وفى سنة خمس وعشرين بعدها﴾ قتل السلطان الخياط المذكور وأخاه عبد الرحمن وفيها ورد الخبر على السلطان بان أولاد دليم من عرب السوس قد قتلوا ولده المولى

أبا النصر الثائر بها ﴿وفي سنة ست وعشرين ومائة وألف﴾ قتل السلطان القائد أبا الدشيش وثلاثة من القواد معه وسبعة عشر من العبيد بشرع الرملة وفي جمادى الاولى من سنة سبع وعشرين ومائة وألف توفيت الحرّة عائشة مباركة زوج السلطان وهي أم ولده المولى أبي الحسن علي الآتي ذكره ﴿وفي سنة تسع وعشرين ومائة وألف﴾ سافر ولد السلطان وهو المولى أبو مروان بن اسمعيل الى الحجاز بقصد الحج وفي رمضان منها بعث والى وجدة الى الحضرة مائة رأس من رؤس بني يزناسن ﴿وفي سنة ثلاثين ومائة وألف﴾ ورد كتاب من السلطان الى فاس يتضمن تحرير أهل فاس من الكلف كلها ثم ورد عقبه كتاب آخر يوبخهم فيه ويخيرهم بين أن يكونوا جيشا أو نائبة فقال رجل منهم يدعى ولد الصحراوى انما يكون الكلام أمام السلطان فقتل وأصبح مصلوبا فبلغ ذلك السلطان فقبض على أبي علي الروسى وأصحابه وولى على فاس حمدون الروسى ثم بعد ذلك عمد حمدون الروسى الى عبد الخالق بن يوسف فقتله فقبض السلطان عليه وعلى أخيه مسعود وولى على فاس حمو اقصاره ثم بعد أيام قدم أبو علي الروسى واليا على فاس وفي هذه السنة ورد الخبر بموت المولى أبي مروان بالمشرق وفيها عزل السلطان أولاده عن الاعمال كلها ولم يترك الا ولى العهد المولى أحمد بتادلا ثم بعث ولده المولى عبد الملك الى مراكش وولاه قطر السوس واستقامت الامور وسكنت الرعية وهدأت البلاد واشتغل السلطان ببناء قصوره وغرس بساتينه والبلاد في أمن وعافية تخرج المرأة والذمى من وجدة الى وادى نول فلا يجد ان من يسألهما من أين ولا الى أين مع الرخاء المفرط فلا قيمة للقمح ولا للماشية والعمال تجبى الاموال والرعايا تدفع بلا كلفة وصار أهل المغرب كفلاحى مصر يعملون ويدفعون في كل جمعة أو شهر أو سنة ومن نتج فرسا رباه حتى اذا بلغ أن يركب دفعه الى العامل وعشرة مثاقيل معه ثمن سرجه هذا اذا كان المنتوج ذكرا فاذا كان أنثى ترك له ويدفع للعامل مثقالا واحدا ولم يبق في هذه المدة بأرض المغرب سارق ولا قاطع طريق ومن ظهر عليه شئ من ذلك وقرئ القبائل قبض عليه بكل قبيلة مر عليها أو قرية ظهر بها أولا تقله أرض حتى يؤتى به أينما كان وكما بات مجهول حال بحلة أو قرية تثقف بها الى أن يعرف حاله ومن تركه ولم يحتط في أمره أخذ بما اجترحه وأدّى ماسرقه أو اقترفه من قتل أو غيره وكانت أيامه رحمه الله غزيرة الامطار كثيرة البركة في الحراثة والتجارة وغيرهما من أنواع المعاش مع الأمن والخصب والرخاء المتحد بحيث لم يقع غلاء طول أيامه الامرة واحدة فبلغ القمح في أيامه ست أواق للمد والشعير ثلاث أواق للمد ورأس الضأن ثلاث أواق ورأس البقر من المثقال الى المثقالين سائر أيام الرخاء والسمن والعسل رطلان بالموزونة والزيت أربعة أرطال بالموزونة هكذا نقله صاحب البستان وهو مخالف لما سيأتي في الحوادث من أن الجدب والغلاء قد بلغا مبلغهما أعوام التسعين وألف ولعل ما ذكره صاحب البستان كان في آخر دولة السلطان المذكور حسبما هي عادة الله تعالى في مثل ذلك غالبا والله تعالى أعلم

﴿بناء ضريحى الامامين المولويين ادريس الاكبر والاصغر رضي الله عنهما﴾

﴿لما كانت سنة اثنتين وثلاثين ومائة وألف﴾ أمر السلطان رحمه الله بهدم قبة ضريح المولى ادريس الاكبر رضي الله عنه بزاوية زرهون وشراء الاصول المجاورة له من جهاته الاربع وهدمها وزيادتها فيه فهدمت القبة وجميع ما حولها وأعيدت على هيئة بديعة واستمر البناء والعمل في المشهد الشريف الى ان تم سنة أربع وثلاثين ومائة وألف هكذا في البستان وغيره ﴿وقال في نشر المثانى﴾ وفي سنة اثنتين وثلاثين ومائة وألف أمر السلطان المظفر المولى اسمعيل بتجديد بناء مقام مولانا ادريس الاصغر بانى فاس حيث ضريحه بها وأمر ببناء قبته التي هي عليه الآن بما اشتملت عليه من المحاسن التي يعز وجودها وأمر بتوسعة صحن المسجد على ما هو عليه اليوم من الهيئة التي لا نظير لها بفاس وتم تسقيف القبة في آخر ذى الحجة من العام المذكور ثم أمر رحمه الله باقامة الجمعة فيه فهي تقام فيه من يومئذ جعل الله ذلك في ميزان

الأمر به والمتولى له آمين ﴿وفى سنة ثلاث وثلاثين ومائة وألف﴾ مات القائد عبد الله الروسى بمكناسة وفيها غضب السلطان على أهل فاس وبعث اليهم حمدون الروسى وأخاه أباعلى وأمرهما بمصادرتهم وقبض المال منهم فبعثوا علماءهم وأشرافهم للشفاعة فلم يقبل وشرعوا فى دفع المال حتى لم يعرف له عدد ولم يسلم من الغرامة أحد وتغيب الناس فى تلك المدة وخلت المدينة من ذوى اليسار وفى هذه السنة أيضا فى المحرم منها خرج عسكر الاصبنيول من سبتة على حين غفلة من المسلمين فضربوا فى محلاتهم واستولوا عليها وعلى خباء القائد أبى الحسن على بن عبد الله الريفى ونهبوا وقتلوا وسلبوا وحازوا اشبارات المسلمين وعساتهم وحازوا قصبة آفراك واستشهد من المسلمين نحو ألف ورجعوا عودهم على بدئهم الى سبتة ومنها ركبوا البحر الى جزيرتهم ولم يبق بسبتة الا سكانها ثم كانت الكرة للمسلمين عليهم بعدها فبقى بأيدى المسلمين منهم نحو ثلاثة آلاف ﴿ثم دخلت سنة أربع وثلاثين ومائة وألف﴾ ففى المحرم منها مات الباشا غازى بن شقراء صاحب مراكش بوجدة وفى صفر منها مات باعزيز بن صدوق صاحب تارودانت وفيها انتقل المولى عبد الملك ابن السلطان الى تارودانت فاستقر بها الى ان كان من أمره ما نذكره عند التعرض لدولته ان شاء الله

﴿وفاة أمير المؤمنين المولى اسمعيل رحمه الله﴾

كانت أيام أمير المؤمنين المولى اسمعيل رحمه الله على ما ذكرنا من الأمن والعافية وتمام الضبط حتى لم يبق لاهل الذعارة والفساد محل يأوون اليه ويعتصمون به ولم تقلهم أرض ولا أظلتهم سماء سائر أيامه فقد كان خليفة ونائبا عن أخيه المولى الرشيد سبع سنين وسلطانا وملكا مستقلا سبعا وخمسين سنة حتى كان جهلة الاعراب يعتقدون أنه لا يموت ويقال ان البعض من أولاده كانوا يستبطؤون موته ويعبرون عنه بالحى الدائم وهذه المدة التى استوفاها المولى اسمعيل فى الملك والسلطان لم يستوفها أحد من خلفاء الاسلام وملوكه سوى المستنصر العبيدى صاحب مصر فانه أقام فى الخلافة ستين سنة لكن لا سواء فان المولى اسمعيل رحمه الله استوفى مدة الخلافة بثمرتها وغلاها بكمال لذتها لانه وليها فى ابان اقتداره عليها واضطلاعه بها بعد سن العشرين كما مر لا فى مدة النيابة ولا فى مدة الاستقلال ولم يكن عليه استبداد لاحد ولا نغص عليه دولته منغص سوى ما كان من ثورة ابن محرز وابنه المولى محمد العالم ومن سلك سننهم من القرابة وكلهم كان يشغب فى الاطراف لم يحصل منهم كبير ضرر للدولة بخلاف المستنصر العبيدى فانه ولى وهو ابن سبع سنين فكان فى صدر دولته تحت الاستبداد وحدث فى أيامه الغلاء العظيم ﴿قال ابن خلكان﴾ وهو غلاء لم يعهد مثله بمصر منذ زمان يوسف عليه الصلاة والسلام واستمر سبع سنين أكل الناس فيها بعضهم بعضا وبيع رغيف واحد بخمسين دينارا وكان المستنصر فى هذه الشدة يركب وحده وكل من معه من الخواص مترجلون ليس لهم دواب يركبونها وكانوا اذا مشوا يتساقطون فى الطرقات من الجوع الى غير ذلك فلذا قلنا لا يستوى حال ملك المولى اسمعيل وملك المستنصر رحمهما الله ﴿ولما كانت سنة تسع وثلاثين ومائة وألف﴾ مرض أمير المؤمنين المولى اسمعيل مرض موته ﴿قال فى نشر المثانى﴾ كان ابتداء مرضه فى ثانى يوم من جمادى الاولى من السنة المذكورة ولما أحس بالضعف بعث الى ولده المولى أحمد صاحب تادلا يستقدمه فقدم عليه وأقام ثلاثا ثم اخترمته المنية رحمه الله يوم السبت الثامن والعشرين من رجب سنة تسع وثلاثين ومائة وألف وتولى غسله الفقيه أبو العباس أحمد ابن أبى القاسم العميرى وصلى عليه الفقيه العلامة أبو على الحسن بن رحال المعدانى ودفن بضريح الشيخ المجذوب رضى الله عنه من حضرة مكناسة ﴿قال فى البستان﴾ كان السلطان المولى اسمعيل قد عهد بالامر الى ولده المولى أحمد المذكور وكان يعبر عنه بولى العهد وأنكر اكنسوس أن يكون السلطان المذكور قد عهد لاحد من أولاده قال كما أخبرنا بذلك السلطان العالم المولى سليمان بن محمد رحمه الله مرارا وكان

يحكى فى ذلك خبراوهوان المولى اسمعيل لما أيقن بالموت دعا وزيره وعالم حضرته الكاتب أبا العباس اليحمدى وقال له انى فى آخر يوم من أيام الدنيا فأحببت أن تشير على بمن أقلده هذا الامر من ولدى لانك أعرف بأحوالهم منى فقال له يا مولانا القصد كلفتنى أمرا عظيما وأنا أقول الحق أنه لا ولد لك تقلده أمر المسلمين كان لك ثلاثة المولى محرز والمولى المأمون والمولى محمد فقبضهم الله اليه فقال له السلطان جزاك الله خيرا وودعه وانصرف ولم يعهد لاحد وانما العبيد كانوا يقدمون من شاؤا ويؤخرون من شاؤا وكان المولى سليمان رحمه يحكى ذلك عند ما يعرض له ذكر أولاده هو والله أعلم

﴿بقية أخبار المولى اسمعيل رحمه الله ومآثره وسيرته﴾

﴿قال اليفرنى فى النزهة﴾ لم يزل أمير المؤمنين اسمعيل رحمه الله فى مقارعة أعدائه الى ان دوخ بلاد المغرب كلها واستولى على سهلها ووعرها واستولى على تخوم السودان وانتهى منها الى ماوراء النيل وانتشرت دولته فى عمائرها وبلغ من ذلك مالم يبلغه المنصور السعدى وامتدت مملكته فى جهة الشرق الى بسكرة من بلاد الجريد ونواحى تلمسان والله أعلم حيث يجعل رسالاته اه ﴿وقال فى البستان﴾ كان للمولى اسمعيل من الولد على ما تواتر به الخبر خمسمائة ولد ذكر ومن البنات مثل ذلك أو قريب منه قال والذى عقب من أولاده على ما رأيناه عيانا فى دفتر السلطان المولى محمد بن عبد الله اذ كان يصلهم فى كل سنة وكان يعتنى لتفرقة الصلة عليهم بسجلماسة مائة دار وخمس دور كلها الاولاده لصلبه وأما الذين لم يعقبوا أو عقبوا وانقطع نسلهم فليسوا فى الدفتر وأما الحفدة والاسباط فكان عددهم فى أيام السلطان المولى محمد بن عبد الله ألفا وخمسمائة وستين وقد زادوا اليوم فى دولة السلطان المولى سليمان بن محمد ولم يزل يصلهم الى الآن على ما فى دفتر والده ومن زاد يزاد له قال وأما ما أدركناه من أولاد المولى اسمعيل لصلبه فى دولة السلطان المولى محمد فثمانية وعشرون رجلا نعرفهم بالاسم والعين ومن بناته لصلبه مثل ذلك قد أنزلهن السلطان بقصر حمو ابن بكة ورتب لهن المؤنة والكسوة والصلة فى كل سنة وأنزل معهن الحوافد اللاتى لا أزواج لهن وكل واحدة من هذه الدور المائة والخمس التى بسجلماسة لواحد من أولاد صلبه لانه كان رحمه الله اذا رأى أحدا من أولاده الذين لم يرد اقامتهم معه بالمغرب قد بلغ أرسله الى سجلماسة وبنى له بها قصرا أودارا وأعطاه نخلا وأرضا للحراسة والفلاحة ومماليك يقومون له بخدمة أصله وحراثة أرضه فى الشتاء والصيف ويعطى كل واحد من ذلك على قدر مرتبته عنده ومنزلة أمه منه فتناسلت أولادهم ونمت فروعهم ووفر الله جمعهم وحفظ نظامهم وكان رحمه الله سديد النظر فى نقل أولاده بامهاتهم من مكناسة اسكنى تافيلالت مع بنى عمهم من الاشراف ليتدربوا على معيشتها التى تدوم لهم فكان ذلك صونا لهم من نكبات الدهر وفضيحة الخصاصة بعد موته وزوال النعمة وانزواء رداء الملك الساتر لهم بين العامة فنجحوا وأفلحوا بخلاف اخوانهم الذين ربوا بمكناسة واستمروا بها الى ان توفى والدهم وألفوا عوائدهم ومرنوا على شهواتهم فانهم لم ينم لهم نسل كاخوانهم الذين بالصحراء هذا ما يتعلق بنسل السلطان المولى اسمعيل * وأما مبانيه بقلعة مكناسة وقصوره ومساجده ومدارسه وبساتينه فشئ فوق المعهود بحيث تعجز عنه الدول القديمة والحادثة من الفرس واليونان والروم والعرب والترك فلا يلحق ضخامة مصانعه ماشيده الاكاسرة بالمدائن ولا الفراعنة بمصر ولا ملوك الروم برومة والقسطنطينية ولا اليونان بانطاكية والاسكندرية ولا ملوك الاسلام ودوله العظام كبنى أمية بدمشق وبنى العباس ببغداد والعبيديين بافريقية ومصر والمرابطين والموحدين وبنى مرين والسعديين بالمغرب وما بديع المنصور بقصر من قصوره ولا بستان المسرة باحد بساتينه فقد كان عنده بجنان حمرية مائة ألف قعدة من شجر الزيتون وحبسه كله على الحرمين الشريفين ومرت عليه بعد وفاته العصور وأيام الفترة والفتن والناس يحتطبونه فلم يظهر فيه أثر من ذلك ولما بويع السلطان المولى محمد بن عبد الله أحياه وأجرى الماء

اليه

اليه وأمر باحصاء مابقى من شجره فوجدوه ستين ألفا فكان رحمه الله يبعث بثمن غلته الى الحرمين تنفيذ المراد جده وكذا ابنه المولى سليمان رحمه الله ﴿قال صاحب البستان﴾ ولقد شاهدت الكثير من آثار الدول فما رأيت أثرا أعظم من آثاره ولا بناء أضخم من بنائه ولا أكثر عددا من قصوره لان هؤلاء الدول كان من اعتنى منهم بأمر البناء غاية أمره أن يبني قصرا ويتأنق في تشييده وتجييده وهذا السلطان لم يقتصر على قصر ولا على عشرة ولا عشرين بل جمع مباني العالم كلها في بطن تلك القلعة المكناسية كما قيل كل الصيد في جوف الفرا هذا كلام صاحب البستان رحمه الله ثم قال وكان في سجونه من الاسارى خمسة وعشرين ألفا ونيف كانوا يعملون في بناء قصوره منهم الرخامون والنقاشون والنجارون والحدادون والمنجمون والمهندسون والاطباء ولم تسمح نفسه قط بفداء أسير وكان في سجونه من أهل الجرائم كالقاتل والمحارب والسارق نحو الثلاثين ألفا تطل في العمل مع أسرى الكفار ويبيتون في السجون والاهراء تحت الارض ومن مات منهم دفن في البناء حتى لم يبق بالمغرب من أهل الفساد عرق ينبض وعما مدح به المولى اسمعيل رحمه الله قول الفقيه الاديب أبي عبد الله محمد بن عبد الله الجزولي من قصيدة له

مولاى اسمعيل يا شمس الورى * يامن جميع الكائنات فدى له
ما أنت الا سيف حق منتضى * الله من دون البرية سله
من لا يرى لك طاعة فالله قد * أعماه عن طرق الهدى وأضله

﴿ولنذكر ماسلف في هذه المدة من الاحداث﴾ ﴿ففي سنة احدى وسبعين وألف﴾ توفي الشيخ أبو عبد الله سيدي محمد المفضل ابن الشيخ أبي العباس أحمد المرسي ابن الشيخ الاكبر أبي عبد الله سيدي محمد الشرقي كان رحمه الله صالحا خيرا من فضلاء عصره حافظا للقرآن بالسبع قد اشتهر قدره في الناس كثيرا وكان يفر من ذلك واذا سأله أحد أن يتخذه شيخا يقول نحن اخوة في الله والدرهم الكامل ينفق منه أخذ القرا آت عن الفقيه الاستاذ أبي زيد عبد الرحمن بن القاضي وكتب له الاجازة بذلك وكان له نصيب من العلوم سوى القرا آت وانتسب في الطريق للولي الصالح أبي عبد الله محمد الحفيان الرتبي السجلماسي من أصحاب الشيخ أبي عبيد الشرقي وتخرج عليه نجباء من طلبة القرا آت وكان رحمه الله كثير الطعام بزاوية جده أبي عبيد الشرقي ثم انتقل الى ناحية سلا فسكن بأحوازها وبقي هنالك الى ان مات في التاريخ المذكور وحمل الى المدينة المذكورة ودفن بطالعتها قرب المسجد الاعظم وقبره اليوم مزارة عظيمة وكان له كلام كثير على طريق العروبي الملحون خاطب به الرئيس محمد الحاج الدلائي حين مشت الوشاة بينهما فوقعت من أجل ذلك بينهما مكاتبات ومعاتبات رحمهما الله ﴿وفي سنة اثنتين وسبعين وألف﴾ توفي الشيخ الرباني أبو اسحق ابراهيم بن أحمد بن عبد الله بن حسين المصلوحي دفين تامصلوحت من أعمال مراكش وقد تقدم التنبيه على وفاة جده أبي محمد عبد الله بن حسين المذكور وكانت له شهرة عظيمة وكان ابتداء أمره أنه تلمذ له طائفة من الفقراء بمراكش واجتمع عليه ناس فأنكر ذلك السلطان زيدان بن المنصور وأمر بالقبض عليه فخرج الى قبيلة سكتانة حيث ضريحه اليوم فاستقر بها الى ان توفي وكان يقول لا يأتينا الا من أمنه الله لان مقامنا هذا مقام ابراهيم ومن دخله كان آمنا وكان يقول دار نار دار وسر لا دار علم وكان اذا دخل شهر المحرم ترك حلق الشعر والزينة فاذا ليم على ذلك قال مافعلنا هذا الا امتعاضا لقتل الحسين رضي الله عنه وأسفا على ماوقع به وكان يعمل السماع ويجمع أصحابه على الحضرة على الكيفية المعهودة وربما تواجد فدخل معهم وكانت له مشاركة في العلوم أخذ عن الشيخ المجور وأبي محمد بن طاهر الحسني وأبي مهدي السكتاني وغيرهم وتوفي في التاريخ المتقدم عن سن عالية يقال أناف على المائة وبنيت عليه قبة حافلة وقبره اليوم مزارة عظيمة ﴿وفي أواخر سنة ثلاث وسبعين وألف مع السنة التي بعدها﴾ حدثت مجاعة عظيمة بالمغرب لاسيما فاس وأعمالها أكل الناس فيها الجيف والدواب والآدمي وخلت الدور

وعطلت المساجد ثم تدارك الله عباده بلطفه ﴿وفى سنة خمس وسبعين وألف﴾ فى عاشر رمضان منها
وقعت زلزلة عظيمة بفاس وغيرها من بلاد المغرب قال الفقيه أبو العباس أحمد بن عبد الهادى الشريف
السجلماسى وقعت الزلزلة فى التاريخ المذكور ونحن بمجلس البخارى عند شيخ الجماعة الامام أبى محمد
عبد القادر الفاسى رحمه الله فقام كل من بالمجلس حتى الشيخ ظنا منا ان السقف سيسقط علينا لان خشبه
صوتت وخرج سرعان الناس يلتمسون الخبر فاخبر بها كل من كان راقدا أو جالسا حتى النائم انتبه
ومن كان ماشيا لم يشعر بها فسئل الشيخ عن ذلك وهل هو كما تزعم العامة من أن الثور الذى عليه الدنيا أو
الحوت يتحرك فاجاب بان ذلك باطل لا أصل له وتلى قوله تعالى وما نرسل بالآيات الا تخويفا ﴿ وقال أيضا
ذكر بعض الحكماء أن ذلك يقع من اختناق الريح فى جوف الارض ﴿وفى يوم الاثنين الثامن والعشرين
من رجب سنة سبع وسبعين وألف توفى البهلول المتبرك به سيدى قاسم بن أحمد بوعسرية المعروف بابن
اللوشة دفين ضفة وادى ارضم من بلاد آزغار ولم يتزوج قط فلم يكن له عقب هكذا فى نشر المثانى ولعله
تصحيف والصواب ما يأتى من انه توفى سنة سبع وتسعين بتناة بمهملتين والله أعلم ﴿وفى سنة خمس وثمانين
وألف﴾ توفى شيخ السنة وامام الطريقة أبو عبد الله سيدى محمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن الحسين بن ناصر
ابن عمر والدرعى ثم الاغلانى الشهير بابن ناصر نسبة الى جده المذكور فى النسب قال تلميذه الشيخ أبو على
اليوسى فى فهرسته كان الشيخ رضى الله عنه مشاركا فى فنون من العلم كالفقه والعربية والكلام والتفسير
والحديث والتصوف عابدا ناسكا ورعا زاهدا عارفا قائما بالطريقة شاربا من عين الحقيقة وكان
رضى الله عنه مع اكبابه على علوم القوم وابتهاجه بمنهج الطريقة لا يخل بعلم الظاهر تدريسا وتأليفا
وتقييدا وضبطا فنفع الله به الفريقين وصحبه الناس شرقا وغربا فانتفع به الخلق قائما بالتعليم والتربية
للمريدين بقوله وفعله والترقية بهمته عن همة عالية وحالة مرضية وعلم صحيح وبصيرة ونورانية مع التمكن
والرسوخ فكان اذا تكلم انتقش كلامه فى القلب واذا وعظ وضع الهناء مواضع النقب ثم أطال الشيخ
اليوسى فى ترجمته وذكر له كرامات عديدة وقد أفصح عن حاله ووصفه فى قصيدته الدالية المشهورة
الموضوعة فى مدحه وأتى فيها من الاجلال لهذا الشيخ والتعظيم بما كان سبب ربحه ولهذا الشيخ شيوخ
وأتباع معروفون فى كتب الأئمة الذين تعرضوا للبيان ذلك وطريقته المتصلة برسول الله صلى الله عليه وسلم
معروفة أيضا وكان والده سيدى محمد بن أحمد من أكابر الاولياء كثير الاوراد لا يفتر لسانه عن الاذكار
حسبما نقله غير واحد والله تعالى أعلم ﴿قال مؤلفه عفا الله عنه﴾ وهذا الشيخ هو جدنا واليه ننتسب
فأنا أحمد بن خالد بن حماد بن محمد الكبير ابن أحمد بن محمد الصغير بفتح الميم ابن محمد بن ناصر الشيخ المذكور
نفعنا الله به وأفاض علينا من مدده ومدد أمثاله وأسلافنا ينتسبون بعد الشيخ المذكور الى سيدنا جعفر
ابن أبى طالب رضى الله عنه ولست الآن من ذلك على تحقيق ولعلنا نحققه فى موضع آخر ان شاء الله
﴿وفى حدود التسعين وألف﴾ كان انحباس المطر والغلاء ﴿قال الشريف أبو عبد الله محمد بن الطيب
القادرى فى الازهار الندية﴾ أن القمح قد بلغ فى هذه المدة الى أربعين أوقية للمد بسبب تأخر المطر والمد
صاع ونصف وصلى الناس صلاة الاستسقاء فأول امام خطب فيها القاضى أبو عبد الله محمد العربى بردلة
وكررها ثلاث مرات فنزل مطر يسير لم يكف ثم أعيدت الصلاة رابعة فكان الخطيب فيها الفقيه أبو عبد
الله محمد البوعنانى ثم أعيدت خامسة والخطيب القاضى بردلة ثم أعيدت سادسة والخطيب أبو عبد الله
محمد المرابط الدلائى وفيها بلغ القمح ستين أوقية وهو غلاء لم يسمع بمثله ثم أعيدت الصلاة سابعة
والخطيب أبو عبد الله البوعنانى ثم أعيدت ثامنة والخطيب الشيخ الولى الزاهد أبو عبد الله محمد العربى
الفشتالى وفى عشية غده نزل المطر مع رعد وبرق ففرح المسلمون وأكثروا من حمد الله تعالى ثم أعيدت
الصلاة تاسعة والخطيب القاضى بردلة وخرج يومئذ فى جملة الناس شيخ الاسلام وبركة الامة الامام

أبو محمد سيدى عبد القادر الفاسى راكبا على حمار جاعلا الاشراف من أهل البيت الطاهر أمامه مستشفعا بهم الى الله تعالى فنزل عند الرجوع مطر قليل ومن الغد نزل المطر الغزير الكافى النافع فانحطت الاسعار ونزل القمح الى خمس وثلاثين أوقية بعدما كررت الصلاة تسع مرات وكانت الصلاة التاسعة يوم الاثنين خامس المحرم فاتح سنة احدى وتسعين وألف ﴿وفى سنة تسع وثمانين وألف﴾ فى ليلة الجمعة الثانى عشر من شعبان منها توفى الشيخ المولى أبو محمد عبد الله الشريف الوازانى الشهير وكان عمره يوم توفى خمسا وثمانين سنة وتوفى ولده الشيخ المولى أبو عبد الله محمد وقت العشاء ليلة الجمعة الثامن والعشرين من المحرم سنة عشرين ومائة وألف وعمره يومئذ ثمانون سنة وتوفى ابنه الشيخ القطب المولى التهامى ابن محمد طلوع شمس يوم الاثنين فاتح المحرم من سنة سبع وعشرين ومائة وألف وعمره ستة وستون سنة وتوفى الشيخ مولاى الطيب بن محمد يوم الاحد وقت طلوع الفجر ثامن عشر ربيع الثانى سنة احدى وثمانين ومائة وألف وعمره نيف وثمانون سنة وتوفى ابنه الشيخ مولاى أحمد ضحوة يوم السبت الثامن عشر من صفر سنة ست وتسعين ومائة وألف وتوفى ابنه الشيخ مولاى على بن أحمد يوم الثلاثاء آخر يوم من ربيع الاول سنة ست وعشرين ومائتين وألف وتوفى ابنه الشيخ سيدى الحاج العربى بن على يوم الاربعاء فاتح سنة سبع وستين ومائتين وألف وقد أتينا بوفاة هؤلاء السادة الوازانيين مجموعة هنا لما فى ذلك من المناسبة والتقريب ويتصل نسبهم بالمولى يملح بن مشيش أخى المولى عبد السلام بن مشيش ثم بالمولى ادريس ابن ادريس رضى الله عنهم وأماتنا على محبتهم وحشرنا فى زمرتهم ﴿وفى سنة تسعين وألف﴾ وقع الوباء العظيم بالمغرب فكان عبيد السلطان يردّون الواردين من الآفاق على مكناسة الزيتون كما مر ﴿وفى سنة احدى وتسعين وألف﴾ بعد ظهر الاربعاء الثامن من رمضان منها توفى شيخ الجماعة بفاس والمغرب الامام الكبير العلم الشهير الشيخ أبو محمد عبد القادر بن على بن يوسف الفاسى ولا يحتاج مثله رضى الله عنه الى تعريف فان مآثره أشهر من قفا نبك قالوا ومع غزارة علمه وانتفاع أهل المغارب الثلاثة به لم يتصد لجمع كتاب مخصوص ولا شرح متن من المتون وانما كانت تصدر عنه أجوبة عن مسائل عنها فيجيب ويجيد وجمعها بعض أصحابه فجاءت فى مجلد ﴿وفى سنة خمس وتسعين وألف﴾ توفى الولى الصالح أبو محمد عبد الله العوفى دفين سلا من أصحاب الشيخ سيدى محمد المفضل ﴿وفى سنة ست وتسعين وألف﴾ توفى الشيخ العلامة المشارك أبو زيد عبد الرحمن بن عبد القادر الفاسى صاحب نظم عمل فاس والاقنوم فى مبادى العلوم وغيرهما من التآليف الحسان ﴿وفى سنة سبع وتسعين وألف﴾ توفى الشيخ العارف بالله تعالى ذو الاحوال الربانية والمواهب العرفانية أبو القاسم ابن أحمد اللوشة السفيانى المعروف بابى عسرية لانه كان يعمل بشماله أكثر من يمينه كان من المولهين فى ذات الله تعالى ومن أهل الاحوال والشطحات يقال انه حمل وهو صبى الى الشيخ أبى عبيد الشرقى فبرّك عليه ودعا بقرب من ماء فصبت عليه وقال لولا انا بردناهذا الصبى لاحرقته الانوار ولذا كان يهتف بابى عبيد كثيرا وينادى باسمه وينسب جميع ما يظهر على يده له ﴿وفى سنة احدى ومائة وألف﴾ أمر السلطان الناس بان لا يلبسوا النعال السود ولا يلبسها الا اليهود وتقدم التنبيه على ذلك عقب فتح العرائش ﴿وفى سنة اثنتين ومائة وألف﴾ توفى الشيخ الامام علم الاعلام آخر علماء المغرب على الاطلاق الذى وقع على علمه وصلاحه الاتفاق أبو على الحسن بن مسعود اليوسى نسبة الى آيت يوسى قبيلة من برابر ملوية وأصله اليوسى كان رضى الله عنه غزالى وقته علما وتحقيقا وزهدا وورعا ﴿قال فى فهرسته﴾ كانت قراءتى كلها أوجلها اقتحاما بانيا وزقت ولله الحمد قريحة وقادة فكنت بأدنى سماع ينفعنى الله فقد أسمع بعض الكتاب فيفتح الله علىّ فى جميعه فتحا ظاهرا وأبلغ فيه مالم يبلغه من سمعته منه ورب كتاب لم أسمعه أصلا غير أن سماع البعض فى كل فن صار مبدأ للفتح وتتميما لحكمة الله فى سنة الاخذ عن المشايخ ولا تستوحش مما ذكرناه ظنا منك أن الربح أبدا يكون على قدر

رأس المال كلا فقد يبلغ الدرهم الواحد ألف مثقال وماذلك على الله بعزيز وكان معظم قراءته بالزاوية الدلائية لم يزل مقيما بها عاكفا على بث العلم ونشره الى ان استولى عليها المولى الرشيد بن الشريف فنقله الى فاس فأقام بها مدة ثم خرج الى البادية فاستوطن بقبيلته الى ان مات رحمه الله وكان رضى الله عنه متضلعا من العلوم العقلية والنقلية حتى قال فى تأليفه المسمى بالقول الفصل فى الفرق بين الخاصة والفصل أنه بلغ درجة الشيخ سعد الدين التفتازانى والسيد الجرجانى وأضرابهما وسأله يوما سائل بمجلس درسه فقال له اسمع مالا تسمعه من انسان ولا تجده محررا فى ديوان ولا تراه مسطرا ببنان وانما هو من مواهب الرحمن ولما دخل مراكش تصدر بها لاقراء علم التفسير بجامع الاشراف فمكث فى تفسير الفاتحة قريبا من ثلاثة أشهر وهو يبدى كل يوم اسلوبا غريبا وتحقيقا عجيبا فعجب الناس من غزارة مادته مع أنه رعبابات فى ضريح بعض الاولياء والناس معه فلا يطالع كتابا ولا يراجع مؤلفا فاذا أصبح وجلس على الكرسى أطلق لسانه بما يبهر العقول وكان الشعر عنده أسهل من النفس وشعره كله حكم وأمثال كشعر العرب القدماء وقصيدته الدالية فى شيخه ابن ناصر دالة على امتداد باعه ورسوخ قدمه فى المعارف والفنون ولله در الامام أبى سالم العياشى اذ قال

من فاته الحسن البصرى يصحبه * فليصحب الحسن اليوسى يكفيه

﴿وبالجملة﴾ فهو آخر العلماء الراسخين بل خاتمة الفحول من الرجال المحققين حتى كان بعض الشيوخ يقول هو المجدد على رأس هذه المائة لما اجتمع فيه من العلم والعمل بحيث صار امام وقته وعابد زمانه رحمه الله ورضى عنه ﴿وفى سنة ثلاث ومائة وألف﴾ فى ليلة الاربعاء السابع من شهر ربيع الاول منها توفى الولى الصالح أبو العباس سيدى أحمد حجى ﴿قال الشيخ أبو العباس سيدى أحمد بن عبد القادر التستاوتى فى حقه مانصه﴾ رجل خير صالح ولقد اجتمعت به بمكناسة سنة ست وتسعين وألف فما رأيت منه الا خيرا اه ولما توفى خلفه ولده ووارث سره وضجيعه فى قبره الولى الصالح سيدى أبو محمد عبد الله حجى المعروف بالجزار وضريحهما مزارة شهيرة بسلا ﴿وفى سنة تسع أو عشر ومائة وألف﴾ توفى الفقيه العدل النوازلى الفارض الحاسب أبو الحسن على بن محمد المعروف بابى شعرة السلاوى ودفن قرب ضريح الشيخ ابن عاشر رضى الله عنه ﴿وفى سنة خمس عشرة ومائة وألف﴾ توفى الامام الفقيه الاديب الناظم الناثر أبو القاسم ابن الحسين الغرديسى ثم السلاوى المعروف بابى زائدة وذلك فى جمادى الاولى من السنة ودفن قرب ضريح الشيخ ابن عاشر رضى الله عنه ﴿وفى سنة ثمان عشرة ومائة وألف﴾ فى ضحى يوم الاربعاء الثامن والعشرين من المحرم منها كسفت الشمس كسوفا كليا وسمى ذلك العام عام الظلماء ﴿وفى سنة تسع عشرة ومائة وألف﴾ توفى الشيخ الامام العلامة الهمام ذو التصانيف المفيدة فى كل فن الحجة المتبرك به حيا وميتا أبو سرحان سيدى مسعود جموع الفاسى ثم السلاوى وذلك يوم الثلاثاء سابع جمادى الاولى من السنة ودفن بزاوية الشيخ سيدى أحمد حجى داخل مدينة سلا ﴿وفى سنة عشرين ومائة وألف﴾ يوم الاثنين ثالث جمادى الثانية منها توفى الولى الصالح العابد الناصح أبو العباس أحمد بن عبد الله معن الاندلسى نزيل المخفية من فاس حرسها الله وفى هذه السنة أيضا كان احداث قراءة المسمع الحديث المتضمن لامر الناس بالانصات وقوله أنصتوا رحمكم الله ثلاثا عند خروج الامام يوم الجمعة من المقصورة وجلوسه على المنبر ﴿وفى سنة اثنتين وعشرين ومائة وألف﴾ وذلك وقت عصر الثلاثاء الثانى والعشرين من صفر منها توفى الولى الصالح سيدى أبو محمد عبد الله ابن سيدى أحمد حجى المعروف بالجزار ودفن بازاء قبر أبيه كامر وفى يوم الاربعاء العشرين من ربيع الثانى من السنة المذكورة توفى الفقيه العلامة أبو عبد الله محمد ابن الامين الحاج محمد الصبيحى السلاوى ورثاه الشيخ أبو العباس سيدى أحمد بن عبد القادر التستاوتى بقوله جزعنا وان كنا على العلم أنه * اذا ما أراد الله أمرا تعجلا

لفقد

لفقد الامام المجتبى العالم الرضى السصيحى ومن فى وقته قد تنبلا
والا فمختار الاله اختيارنا * ونرجو اله خيرا عميما مكملا

ورثاه أيضا صديقه الملاطف الشيخ أبو العباس أحمد بن عاشر الحافى السلاوى رحم الله الجميع ﴿وفى سنة سبع وعشرين ومائة وألف﴾ ليلة الاربعاء فاتح رجب منها توفى الولى الصالح العالم العامل العارف الشهير الشيخ أبو العباس أحمد بن عبد القادر التستاوتى من كبار أصحاب الشيخ ابن ناصر ومن حفدة الشيخ أبى عبد الله محمد بن مبارك الزعرى المتقدم الذكر وما ثر هذا الشيخ أشهر من أن تذكر وزاوياه عميمة النفع والبركة بالمغرب وكانت وفاته بمكناسة الزيتون وضريحه بها شهير عند روضة الشيخ سيدى عبد الله ابن حامد رضى الله عنهم ونفعنا بهم ﴿وفى سنة تسع وعشرين ومائة وألف﴾ فى الثامن عشر من ربيع الاول منها توفى الشيخ القدوة الامام السنى أبو العباس سيدى أحمد بن محمد بن ناصر الدرعى وهو ولد الشيخ ابن ناصر المتقدم وخليفته ووارث سره وفضله رضى الله عنه أشهر من أن ينبه عليه ومن ذلك ما حكاه الشيخ أبو على الحسن بن محمد المعدانى فى كتابه الروض اليانع الفائح فى مناقب الشيخ أبى عبد الله الصالح قال حدث بعض العلماء الجلة أنه لما دخل الشيخ أبو العباس أحمد بن ناصر الدرعى المدينة المشرفة فى حجته الاخيرة جلس تجاه الحجرة النبوية والناس يزدحمون عليه لاخذ العهد وتلقين الاوراد وهو منبسط لذلك فقلت فى نفسى ان هذا الرجل مغرور راض عن نفسه كيف يتصدى فى هذا المكان الذى تخضع فيه الملوك وجميع الانس والجن والملائكة واذا طلعت الشمس اختفى السراج قال فكاشفنى بما فى نفسى والتفت الى وقال والله ما جلست لما ترون حتى أمرنى النبى صلى الله عليه وسلم وما أذعنت له حتى هددت بالسلب قال فسقطت على يده أقبلها وقلت له يا سيدى أنا تائب الى الله تعالى فدعا لى وانصرفت ومما حكاه صاحب الكتاب المذكور قال حدث الرجل الصالح البركة الفقيه الناصح سيدى محمد بن ابراهيم الجاصى قال كان السلطان المولى اسمعيل بن الشريف رحمه الله قد استدعى الشيخ سيدى أحمد بن ناصر وكان به حنق عظيم عليه وعزم اذا وصل اليه أن يفعل به مكروها لا تدرى حقيقته غير ان الامر شديد فجاء الى الشيخ جماعة من العلماء الاعلام وأصحابه الملازمين له وقد تخوفوا عليه وعلى أنفسهم غاية فكلموا الشيخ فى ذلك واستفهموه ليعلموا ما عنده من عادة الله تعالى مع أوليائه من النصرة لهم والذب عنهم فلم يسمعوا منه كلمة ثم راجعوه فى ذلك حتى هابوه وسكتوا عنه وقدم الشيخ المذكور على السلطان فلما انتهى الى قصبة آكراى قرب مكناسة الزيتون اذا برجل مجاطى يقال له الحاج عمر ولقيه هنالك فلما رآه الشيخ نزل عن فرسه ليسلم عليه فقال الشيخ ما الخبر يا ولدى فقال الرجل ما الخبر يا سيدى والله لوددت أن سيدى لم يصل الى هنا ولم يخرج من داره يعنى ان الامر عظيم فقال له الشيخ رضى الله عنه بلسان العناية الربانية ولا ما يشوش اذا كان فى رقبتك شبر وأشار بيده فاعمل فيها ذراعا ومد ذراعه ففرح العلماء الذين معه وكل من حضر بتلك المقالة وتيقنوا الأمن على الشيخ وعلى أنفسهم لما يعلمون من عادة الله الكريمة معه فكان الامر كما قال فان السلطان جاء اليه بنفسه وهو فى روضة الشيخ أبى عثمان سعيد بن أبى بكر وتلقاه بالقبول والتعظيم والتبجيل والتكريم وصافحه بيده وجلس معه فى داخل القبة ساعة ولما خرج السلطان رحمه الله من عنده جعل ينادى بلسانه فى أصحابه يقول زوروا سيدى أحمد بن ناصر يا الناس زوروا سيدى أحمد بن ناصر يا الناس ويكررها بلسانه من صميم قلبه قال سيدى محمد بن ابراهيم فلما انصرف السلطان من عند الشيخ رضى الله عنه جئت اليه وقلت له يا سيدى انا نخاف ان ينزلنا السلطان بضريح الشيخ سيدى عبد الرحمن المجذوب ويطول بنا المقام فقال لى لا نبقى الاهنا وبعد غد ننصرف الى بلادنا ان شاء الله فكان الامر كما قال بعد ان جاء الامر من السلطان يأمره بالنزول بضريح الشيخ المجذوب فقال لا أنزل الاهنا فبقى فى موضعه ثم بعث اليه السلطان يأمره بالتوجه الى بلاده معظما

مكرما اهـ ﴿وفى سنة تسع وعشرين ومائة وألف﴾ فى ليلة عيد الفطر منها توفى الفقيه العالم القاضى أبو العباس أحمد ابن العلامة أبى الحسن على المراكشى وصلى عليه من الغد ودفن بالموضع المسمى بالعلو من رباط الفتح ﴿وفى سنة احدى وثلاثين ومائة وألف﴾ فى ليلة الاحد ثامن عشر المحرم منها توفى الشيخ الصالح أبو على الحسن بن عبد الله العايدى السجيرى ودفن بزاويته من حومة السويقة من سلا وفرغ من بناء قبته فى رجب من السنة بعدها ﴿وفى سنة ثلاث وثلاثين ومائة وألف﴾ يوم الاثنين خامس عشر رجب منها توفى الفقيه العلامة خاتمة المحققين وآخر قضاة العدل بفاس الشيخ أبو عبد الله محمد العربى ابن أحمد بردلة الفاسى وفى التاريخ المذكور توفى الشيخ العلامة المتبرك به أبو العباس أحمد بن سليمان ذو التآليف العديدة فى الحساب وغيره بحضرة مراكش رحمه الله ﴿وفى سنة ثمان وثلاثين ومائة وألف﴾ كانت جائحة الجراد بالعدوتين سلا ورباط الفتح وأعمالهما وخلفه قمله المسمى فى لسان المغاربة بامردف فكان كالسيل العام لم يترك عودا ولا ورقة خضراء الا أكلها وكان ذلك فى شوال من السنة المذكورة ﴿وفى سنة تسع وثلاثين ومائة وألف﴾ يوم الاربعاء ثانى عشر صفر منها توفى الشيخ العارف بالله تعالى سيدى محمد الصالح ابن الشيخ العارف بالله تعالى سيدى محمد المعطى ابن سيدى عبد الخالق ابن سيدى عبد القادر ابن الشيخ الاكبر سيدى محمد الشرقى ومناقبه قد تكفل بها كتاب الروض الفائح فى مناقب الشيخ أبى عبد الله الصالح لابى على المعدانى وفى هذه السنة ضحى يوم السبت ثامن ذى القعدة منها توفى الفقيه العلامة المحقق سيدى أبو بكر بن على الفرجى المراكشى ثم السلاوى واحتفل الناس لجنازته وازدحموا على نعشه حتى كادوا يقتتلون عليه ودفن قرب داره بزاوية سيدى مغيث من طالعة سلا حرسها الله

﴿الخبر عن الدولة الاولى لامير المؤمنين المولى أبى العباس أحمد بن اسمعيل المعروف بالذهبى رحمه الله﴾

لما توفى أمير المؤمنين المولى اسمعيل رحمه الله فى التاريخ المتقدم اجتمع قواد العسكر البخارى وقواد الودايا وأعيان الدولة وكتابها وقضاتها وبايعوا المولى أبا العباس أحمد بن اسمعيل المعروف بالذهبى لبسط يده بالعطاء ﴿قال اكنسوس﴾ بايعوه باشارة العبيد الشبيهة بالجبر ولم يكن ذلك عن عهد من أبيه وكتبوا بيعته الى الآفاق ولما اتصل باهل فاس خبر موت السلطان كان أول من بدؤا به أن قتلوا قائدهم أبا على الروسى ثم بايعوا السلطان المولى أحمد وكتبوا بيعتهم وتوجه بها أعيانهم الى مكناسة فدخلوا على السلطان المولى أحمد وأدوا البيعة والطاعة فقبلهم ولم يظهر لهم سوأ بما ارتكبوه من قتل قائدهم بل أعطى العلماء والاشراف جائزة البيعة وولى عليهم القائد المحجوب العلج وردهم مكرمين ثم قدم عليه قواد القبائل والامصار وأعيانها من أهل الحواضر والبوادى مبايعين ومؤدين الطاعة فجلس للوفود وأجاز كلا على قدر مرتبته وردهم الى بلادهم وتفرغ لشأنه فافتتح عمله بقتل عمال أبيه وأركان دولته فقتل على بن يشى القبلى أمير البربر ونبى باحمد بن على أمير الاعمال الفاسية وما اتصل بها من بلاد الهبط والصحيح ان أحمد ابن على المذكور كان عند بيعة المولى أحمد فى السجن فدس اليه على بن يشى من ذبحه فيه فسلط الله عليه السلطان فقتله وكان جزاؤه من جنس عمله وقتل السلطان أيضا الباشا ابن الاشقر ومرجان الكبير قائد عبيد الدار وصاحب بيوت الاموال وكان لنظره ألفان ومائتان من المفاتح كلها موزعة على أبواب القصور وكل واحد من هؤلاء الخصيان له عبدان وثلاثة وأكثر يخدمونه ﴿واعلم﴾ أن المولى أحمد رحمه الله كان مستبدا عليه فى كثير من الاحوال يشير العبيد عليه فيفعل وما قتل من قتل من رؤساء الدولة الا باشارتهم وقتل جماعة من القواد والكتاب سوى من تقدم وطاف على بيوت الاموال ومخازن السلاح والكسى فأمر باخراج ذلك وتفرقته على العبيد وقواد الجيش وأعطى من ذلك فوق الكفاية وعم العلماء والاشراف والطلبة بالنوال وخص أفرادا من العسكر بالوفر فاغتبط الناس به وحمدوه رحمه الله

﴿ إغارة القائد أبي العباس أحمد بن علي الريفي على تطاوين وما دار بينه وبين الفقيه أبي حفص عمر الوقاش رحمهما الله ﴾

كان القائد المجاهد أبو العباس أحمد بن علي الريفي يلي رياسة المجاهدين هو وأبوه من قبله بالثغور والهبطية أيام السلطان المولى اسمعيل رحمه الله وكانت له ولأبيه اليد البيضاء في فتح طنجة والعرائش وغيرهما حسبما سلف بعضه فكانت له بذلك وجاهة كبيرة في الدولة خصوصا ببلاد الهبط وكان بتطاوين يومئذ الفقيه الاديب أبو حفص عمر الوقاش من بيوتاتها وأهل الرياسة بها كان أولا كاتبا مع السلطان المولى اسمعيل رحمه الله وكانت له المنزلة العالية عنده ثم لما ضعف عن الخدمة السلطانية بكبر سنه ولاه على تطاوين وأعمالها فحدثت بينه وبين القائد أبي العباس الريفي منافسة أوجبتها المجاورة والمعاصرة فكان يبلغ كل واحد منهما عن صاحبه ما يحفظه واستمر الحال على ذلك الى أن توفي السلطان المولى اسمعيل رحمه الله وأفضى الامر الى ابنه المولى أحمد فضيع الحزم وأهمل أمر الجند حتى سقطت هيبة السلطان من قلوب الولاة في النواحي فانتهز أبو العباس الريفي الفرصة في أهل تطاوين وزحف اليها في جيش كثيف ودخلها على حين غفلة من أهلها وحاول الفتك فيهم فبرز اليه الفقيه أبو حفص الوقاش في أهل تطاوين وحاربه فانتصر عليه وأوقع به وقعة أعظم مما كان أضمر له وقتل من اخوانه عددا كثيرا ونجا القائد أبو العباس بجريعة الذقن ولما اتفق للفقيه أبي حفص هذا الفتح الذي لم يكن له في حساب استخفه النشاط وغلبت عليه حلاوة الظفر حتى طمع في الملك وفاه من ذلك بما كان ينبغي له ولكل عاقل كتمانه فقال قصيدته المشهورة ينعي فيها على أهل الريف فعلتهم وينتقص دولتهم ويفتخر على أهل فاس فمن دونهم ويخبر عن نفسه بما يؤول اليه أمره فأزرى بأدبه على كبر سنه مع انه كان من أهل الادب البارع والعلم والرياسة والقصيدة المشار اليها هي قوله

بلغت من العلياء ما كنت أرتجي * وأيامنا طابت وغنى بها الطير
ونادى البشير مفصحا ومصرحا * هلم أبا حفص فأنت لها الصدر
نهضت مجيبا للندا راقصا به * وما راعني اذ ذاك زيد ولا عمرو
شرعت بحمد الله للملك طالبا * وقلت للمولى الحامد والشكر
أنا عمر المعروف ان كنت جاهلي * فسل تجد التقديم عندي ولا فخر
أنا عمر الموصوف بالبأس والندى * أنا عمر المذكور في ورد الجفر
ظهرت لاحيي الدين بعد اندراسه * فطوبى لمن أمسى يساق له الامر
ولم يبق ملك يستتب بغربنا * فعندي انتهى العلم المبرح والسر
أنا عمر المشهور في كل غارة * أنا البطل المقدام والعالم الحبر
ضبطت بلادي وانتدبت لغيرها * وعما قليل يعظم الجاه والقدر
وجئت بعدل للامامين تابعا * أنا الثالث المذكور بعدهما وتر

يعني انه ثالث العمرين وقد كان يصرح بذلك ثم قال

ففرطوط والرحمون والكوط عصبتي * وراغون كنزي والصغير به القهر
أولئك أنصاري وأرباب دولتي * وأهلي وأصهاري هم الانجم الزهر
وقد دام بالدعار مجدي وسوددي * ونخري في الاقطار باد كما الفجر
هلالي بدا لما هلالي أجابني * وغيلان اذ لبي به عظم الوفر
ودولة أهل الريف حتما تمزقت * فلم يبق بالتحقيق عندي لها جبر
أذقناهم لما أتوا شر بأسنا * فباؤا سراعا والصوارم والسمر

تطير الاكف والسواعد منهم * هنيئا لخوق للانام بنا البشر
بخوف حنين آب عنا كبيرهم * وما فاته منا الكمال ولا الخسر
فمن ذا يضاهيني ومالى وافر * وذكرى مغمور به البر والبحر

الى غير هذا مما الاغرض لنا فى جلبه وقد أجابه الفقيه أبو عبد الله محمد بن بجة الريفى ثم العرائشى بقصيدة يقول فيها

فى صفحة الدهر قد خطت لناعبر * منها ادّعاء الحمار أنه بشر
من مر عنه الصبا ومارأى عجبا * خبره بعجاب دهره الكبر

وهى طويلة الا أن قائلها لم يحكم صناعة الشعر فلذا تركناها ولما اتصل خبر هذه الوقعة بامير المؤمنين المولى أحمد رحمه الله أغضى عن الفريقين ودخل داره وعكف على لذاته وترك الناس وشأنهم وثار ببلاد الغرب والقصر وأعماله فساد كبير بين القبائل وأصحاب المخزن وهلك فى ذلك بشر كثير وسقطت هيبة الخلافة وانحل نظام الدولة بالمرة لا سيما مع مادهاها من قبل رجالها القائمين بامورها وكان ذلك منتهى مراد العبيد فقد كان على بن يشى أمير الامراء ورئيس البربر وغيرهم وكان أحمد بن على أمير جبال مرموشة وبنى وراين وعرب الحياينة وبرابرة غياثة والجبال فكان رديف على بن يشى ومباريه فى نصح الدولة وجباية الاموال وكان ابن الاشقر أمير الزراهنة وعلى يديه أعشار القبائل كلها من أهل الغرب وبنى حسن وغيرهم رديفا للاولين وكان القائد مرجان صاحب بيوت الاموال وبيده دفتر الدخل والخرج عارفا بقدر ما يدفعه العمال كل سنة فلما أتى عليهم القتل رحمهم الله خف على الرعية ما كانوا يحملونه من ثقل وطأتهم واستراحوا ممن كان يحول بينهم وبين الفساد ويزجرهم عن القبيح خصوصا البربر فانهم كانوا فى لقاع النحاس فخرجوا منها بهلاك على بن يشى وأخذوا فى اشتراء الخيل واقتناء السلاح وعادت هيف الى أديانها وتبعهم على ذلك غيرهم من قبائل العرب فكأنما كانوا على ميعاد وامتدت أيدى النهب فى الطرقات وكثر الشكايات بباب السلطان فما وجدت الناس من يشكيهم هذا حال مكناسة وأعمالها فأما فاس فقد كفى الودايا أمرها وناب واعن البربر فى العيث باطرافها وعظم الخطب واشتد الامر * ثم دخلت سنة أربعين ومائة وألف * ففى المحرم منها أغار الودايا على سوق الخميس من فاس فنهبوا وقتلوا وقبضوا على طائفة من أهل فاس فأودعوهم السجن بفاس الجديد فبعث أهل فاس جماعة من أشرافهم الى السلطان بمكناسة يشكون اليه ماناالهم من جور الودايا فلما وصلوا اليها وثب عليهم محمد بن على بن يشى قبل أن يجتمعوا بالسلطان فسجنهم أيضا فلما اتصل باهل فاس ماجرى على اخوانهم بمكناسة أخذهم ماقدم وما حدث فأغلقوا عليهم أبواب مدينتهم وشمروا للحرب الودايا فكتب الودايا الى السلطان يعلمونه بان أهل فاس قد شقوا العصا وخرجوا عن الطاعة فسرب السلطان اليهم العساكر بكل صارم وذابل وتفاقم الامر واختلط الحابل بالنابل وركبت المدافع والمهاريس والمجانيق لحصار فاس واستمر القتال الى أن بعث السلطان أخاه المولى المستضىء فى جماعة من أشراف مكناسة ومعهم أشراف فاس الذين سجنهم محمد بن على بن يشى لتلافى الامر وعقد الصلح بين الودايا وأهل فاس فانعقد الصلح ونهض عسكر السلطان الى مكناسة فسار وايوما أو يومين حتى انتقض ذلك الصلح وغدا الودايا على حصار فاس ورميها بالكور والبنب واستمر الحال على ذلك الى أن قدم من جانب السلطان القائد أبو عمران موسى الجرارى ساعيا فى الصلح فاجتمع أهل فاس وفاوضهم فى ذلك فأذعنوا وبعثوا معه جماعة من الاعيان والعلماء والاشراف يفدون على السلطان ليتم لهم ذلك بعد أن أخذوا جماعة من أصحاب أبى عمران توثقا باخوانهم ولما قدم أولئك الوفد مكناسة منعوا من الدخول على السلطان ورجعوا الى فاس مخفقين واستمر الامر على حاله الى أن كاتبهم عبيد الديوان يطلبون منهم موافقتهم على عزل السلطان المولى أحمد وتولية أخيه المولى عبد الملك صاحب السوس فأجابوهم الى ذلك وطاروا به كل مطير وأكرموا وفدهم

وحالفوهم على الوفاء ورجع العبيد الى مكناسة شاكرين ففاوضوا من بها من قواد الجند وتذاكروا ماوقع الناس فيه من الفساد وانقطاع السبل وتعذر الاسباب وتحققوا بما أتوه من سوء التدبير في تقديم المولى أحمد لكونه كان ضعيف المنة غير مطلع بأعباء الخلافة فأجمعوا على عزله واستبدال غيره به ولما تم أمرهم على ذلك بعثوا الى أخيه المولى عبد الملك جريدة من الخيل وكتبوا اليه كتابا يستحثونه للقدوم وأعلموه بما أجمع عليه رأيهم فأجاب وأقبل مسرعا نحو مكناسة ولما انتهى الى وادي بهت واتصل خبره بالعبيد دخلوا على السلطان المولى أحمد وقبضوا عليه وأخرجوه من دار الملك مخلوعا وسجنوه بداره التي كان يسكن بها قبل البيعة خارج القصبة وكان ذلك في شعبان سنة أربعين ومائة وألف

﴿الخبر عن دولة أمير المؤمنين المولى أبي مروان عبد الملك بن اسمعيل رحمه الله﴾

لما خلع السلطان المولى أحمد رحمه الله وسجن خارج القصبة كما مر اجتمع من الغد الجيش كله وركبوا لملاقاة المولى أبي مروان عبد الملك بن اسمعيل فاجتمعوا به خارج مكناسة وأدوا واجب الطاعة والتفوا عليه ودخلوا به الحضرة في ذي الملك وأهبة السلطان ثم حضر أعيان الدولة وأمراؤها وقضاتها وعلماؤها وأشرافها فبايعوه وكتب ببيعته الى الآفاق ومن الغد قدم عليه أعيان فاس من العلماء والاشراف وغيرهم ببيعتهم فدخلوا عليه وبايعوه ثم قدمت عليه الوفود للتهنئة من حواضر المغرب وبواديه فجلس لملاقاتهم وقابلهم بما يجب من البشر الى أن فرغ من شأنهم وتفقد أخاه المولى أحمد المخلوع فأمر به الى فاس كي يسجن بها ثم بدا له فامر بتوجيهه الى سجلماسة ﴿قال في الازهار الندية﴾ لما بعث السلطان المولى أبو مروان باخيه المولى أحمد المخلوع الى تافيلالت كتب الى عامله بها ان يسمل عينيه بقوره وبلوغه فنمي ذلك الى المولى أحمد ففر الى زاوية الشيخ أبي عثمان سيدي سعيد آحنصال وكان مقدم الزاوية يومئذ السيد يوسف ابن الشيخ سعيد المذكور وكان يتكلم في الحدثان فقال للمولى أحمد انك سترجع الى الملك فكان كما قال ورجا الناس أن يكون السلطان المولى أبو مروان كأبيه وان يسير فيهم بسيرته ويسد مسده فخاب الظن وأخفق المسعى وابن اللبون اذا مالز في قرن * لم يستطع صولة البزل القناعيس

وأمسك الله يده عن العطاء فلم يسمح للعسكر ولا للوفود بدرهم فكان ذلك من أكبر الاسباب في اختلال أمره وتفسخ دولته فطلب العسكر البخاري منه جائزة البيعة على العادة فبعث اليهم بأربعة آلاف مثقال وكان راتبهم على عهد السلطان المولى اسمعيل رحمه الله مائة ألف مثقال ولما بويع السلطان المولى أحمد زادهم في الراتب خمسين ألفا فلما وصلت اليهم جائزة المولى أبي مروان سقط في أيديهم وعلموا أنهم لم يصنعوا شيأ في بيعته وتناجوا بعزله وأضمروا ذلك وتحينوا وقت الفرصة فيه فنمي اليه ذلك عنهم فاخذ حذره وصار يكاتب قبائل العرب ويعدهم ويمنيهم ويحضهم على اجتماع كلمتهم كي ينفعوه يوما ما ظنا منه انهم يقاومون العبيد ثم كتب الى البربر أيضا يغريهم بالعبيد وأغرى العبيد بالبربر وقال لهم في جملة من ذلك انه لا يستقيم لنا أمر الا بعد الايقاع بهؤلاء البربر وشغلهم بالاستعداد لغزوهم وكتب الى أهل فاس يأمرهم أن يبعثوا رماتهم الى حضرته لغزو البربر وأخذ في التضريب بين العسكر والبربر وأطلع العبيد على خبيآته فحاصوا عنه حيصة حمر الوحش وأصفقوا على عزله ورد أخيه المولى أحمد للملك لسخائه وبسط يده وكذبوا فان المولى أبا مروان رحمه الله كان أنسب حالا بالخلافة من أخيه المولى أحمد لنجدته وحزمه وكان قد عزم على تطهير الحضرة وبساط الدولة من افتيات العبيد وتحكمهم على أعياصها الا أنه لم يحكم التدبير في ذلك فعاجلوه قبل أن يعاجلهم ولما تحقق المولى أبو مروان بما عزم عليه العبيد من خلعه بعث اليهم الشيخ البركة مولاي الطيب بن محمد الوزاني واعظا ومذكرا فأتاهم ووعظهم ووعدهم الخير ان أقلعوا ونهاهم عن الخروج على السلطان واتباع سبيل السلطان وخوفهم في ذلك من سخط الله فما زادهم الا نفورا ثم بعثوا بجريدة من الخيل الى سجلماسة ليأتوا بالمولى أحمد وفي أثناء ذلك ركب

العبيد من الديوان وأغار واعلى مكناسة فاكتسحوا سرحها ثم اقتحموا المدينة فنهبوها واستباحوا حرماتها وقتلوا من ظفروا به من أعيانها ثم دخلوا دار الملك للقبض على السلطان المولى أبي مروان فلم يجدوه لانه لما سمع بما فعله العبيد بمكناسة ركب في جماعة من أصحابه وفر الى فاس فدخل حرم المولى ادريس رضي الله عنه واستجار به وبعث الى أهل فاس فاستجار بهم فوعدوه الدفاع عنه والقيام بامره ولما علم العبيد بوضع المولى أبي مروان من فاس وما وعده به أهلها حبسوا رماتهم الذين كانوا قد قدموا مكناسة بقصد غزو البربر كما تقدمت الاشارة اليه وثقفوهم حتى يقدم السلطان المولى أحمد من سجلماسة ويرى فيهم وفي أخيه رأيه وكان ذلك في ذي الحجة سنة أربعين ومائة وألف

﴿الخبر عن الدولة الثانية لامير المؤمنين المولى أبي العباس أحمد الذهبي رحمه الله﴾

لما راسل العبيد المولى أحمد بن اسمعيل بسجلماسة وأعلموه بما عزموا عليه من عزل أخيه ورد الملك اليه بادر بالقدوم الى مكناسة فدخلها في التاريخ المتقدم وحضر أعيان الدولة من القواد والقضاة والكتاب والعلماء والاشراف وبايعوه البيعة الثانية وكتبوا بذلك الى الآفاق ثم دخل دار الملك وفرق الاموال والكسى في العسكر وبالغ في ذلك تقصيا لما نقمه العبيد على أخيه وكان فعل أخيه أقرب الى الصواب لو هلك الوسط وأحكم أمره ورتبه ترتيب ذوي الحزم ولكن ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن

﴿حصار أمير المؤمنين المولى أحمد لفاس والسبب في ذلك﴾

لما بويع المولى أحمد البيعة الثانية قدم عليه الوفود من القبائل والامصار فأكرم وفادتهم وتخلف عنه أهل فاس فلم يقدم عليه أحد منهم لانه لما قدم من سجلماسة وأعلم بمكان أخيه منهم وبمكان رماتهم المثقفين بمكناسة أمر بسجنهم والتضييق عليهم فأوجسوا منه شرا وحذروه ولانهم كانوا قد ارتكبوا العظيمة أولا في قتل أبي علي الروسي ونهب داره وماله ومال المخزن الذي كان تحت يده فكانوا يتوقعون سطوة السلطان المولى أحمد بهم أول ما بويع ثم لم يلتفت اليهم لشغله بنفسه فلما عادت الدولة اليه ارتابوا به وحادوا عن طاعته وتقدموا الى المولى عبد الملك وجددوا له البيعة وأعلنوا بنصره والقيام بأمره ثم ورد عليهم كتاب السلطان المولى أحمد يأمرهم أن يسلموا اليه أخاه ويدخلوا فيما دخل فيه الناس أو يأذنوا بحرب فجهروا بالخلاف وأغلقوا الابواب ووطنوا أنفسهم على الحصار ثم بعث اليهم السلطان القائد اليديني قائد الرماة المسجونين بمكناسة وأمره أن يعرض عليهم الدخول في الطاعة ويسرح لهم اخوانهم المسجونين وحمله كتابا اليهم يتضمن ذلك وغيره فلما فرغ القائد المذكور من قراءة كتاب السلطان عليهم وثبوا عليه فقتلوه ثم جروه برجله وصلبوه على التوتة التي بحومة الصفارين ثم وثبوا على الحاج الخياط عديل فقتلوه على باب داره وخرج الشريف أبو محمد عبد الله بن ادريس الادريسي في كتيبة من الخيل والرماة الى زواغة فأغار على سرح الودايا واستاق من البقر والغنم شيأ كثيرا فدخل به فاسا وبيع بأبخس ثمن وتوزعته الايدي فبيعت البقرة بست موزونات والشاة بموزونة على ما قيل وهاجت الحرب بين أهل فاس والودايا ثم نهض السلطان المولى أحمد فاتح محرم من سنة احدى وأربعين ومائة وألف في عسكر العبيدي والودايا مكناسة فزحف الى فاس ونزل عليها ثاني يومه ونصب عليها المدافع والمهاريس وآلات الحصار وانشلى العسكر على بساتينها وبحائرها فانتسفوا ثمارها واجتاحوا اغلالها وأمر الطبجية بوالاة الكور والبنب والحجارة عليها الليل والنهار ففعلوا ودام ذلك الى ان عمها الخراب وتهدم الكثير من دورها وهلك عدد وافر من رجالها بعضهم في القتال وبعضهم بالهدم والحجارة واستمر الحصار نحو خمسة أشهر فضاق بهم الحال وضعفوا عن القتال وقلت الاقوات وارتفعت الاسعار فأذعنوا للطاعة وصالحوا المولى أحمد على اسلام أخيه المولى عبد الملك اليه وتمكينه منه على الامان فبعث

السلطان

السلطان المولى أحمد الى أخيه المولى عبد الملك يخيره بين التغريب الى سجلماسة والمقام بالحرم الادريسى فاختار المقام بالحرم ثم ان السلطان تقدم الى أهل فاس فى أن لا يجتمع أحد منهم بأخيه ولا يجالسه ولا يكلمه ولا يبيع من أحد من أصحابه شيأ ولا يشترى منه ومن فعل شيأ من ذلك فانه يعاقب فلما رأى المولى عبد الملك ما عامله به أخوه من التضييق بعث ولده الى العبيد يطلب منهم أن يؤمنوه ويخرج معهم الى حيث شاؤا فقدم عليه الباشا سالم الدكالى فى خمسين من القواد وعاهدوه بالحرم الادريسى أن لا يصيبه مكروه فخرجوا به حتى قدموا به على أخيه فلما مثل بين يديه أمر به أن يحمل الى مكناسة مقبوضا عليه فوصل الى مكناسة وسجن بدار الباشا ساهل ثم رحل السلطان المولى أحمد عن فاس قافلا الى مكناسة وعند حلوله بها مرض مرض موته ولما أحس من نفسه بالموت أمر بخنق أخيه المولى عبد الملك فخنق ليلة الثلاثاء أول يوم من شعبان ثم توفى السلطان المولى أحمد يوم السبت رابع شعبان المذكور سنة احدى وأربعين ومائة وألف فكان بين وفاتهما ثلاثة أيام رحمهما الله ﴿واعلم﴾ أن ما ذكرناه من هذه الاخبار هو الذى عند صاحب البستان وقلده أبو عبد الله أكنسوس حذو النعل بالنعل ورأيت بخط جدنا من قبل الام وهو الفقيه الاستاذ أبو عبد الله محمد بن قاسم الادريسى اليحيوى الجبارى عرف بابن زروق وكان حيا فى هذه المدة ما نصه بويع المولى أحمد بن اسمعيل المعروف بالذهبى يوم وفاة والده رحمه الله بعد ان ثار بالمغرب والقصر وحوزه فساد كبير بين القبائل وأصحاب الخزن وهلك فى ذلك بشر كثير وبعد مكثه فى الملك سنة واحدة وثمانية أشهر خلع وبويع أخوه المولى عبد الملك فى الآخر من رجب سنة احدى وأربعين ومائة وألف وهو بالسوس الاقصى بمدينة تارودانت ثم ورد على دار المملكة بالحضرة المكناسية ليلة السابع والعشرين من رمضان المعظم من السنة المذكورة ثم ثار عليه أخوه المولى أحمد المخلوع فى عاشر المحرم فاتح سنة اثنتين وأربعين ومائة وألف واقتحم عليه دار الملك من مكناسة عنوة ووقع فساد كبير بالمدينة المذكورة وهلك بشر كثير فى الحرب ومنهم من قتل صبرا وفر المولى عبد الملك ناجيا بنفسه الى فاس ثم حاصره بها المولى أحمد نحوا من أربعة أشهر حتى خرج اليه على الامان فأمر بسجنه بمكناسة ثم قتل المولى عبد الملك صبرا مخنوقا فى أواخر رجب المذكور رأيضا اهـ كلامه والله تعالى أعلم بحقيقة الامر قالوا وكان المولى أحمد رحمه الله أشبه الناس بالامين بن الرشيد العباسى فى زيه ولهوه واكبابه على شهواته وتضييع الحزم والجد حتى فسدت الاحوال وتراكمت الاهوال وذكر معاصروه أنه لم يكن شهد حرباقط قبل خلافته وكان مع ذلك جوادا متلافا فآلت به الامور الى ما ذكرنا ولله الامر من قبل ومن بعد

﴿الخبر عن دولة أمير المؤمنين المولى عبد الله بن اسمعيل رحمه الله﴾

كان المولى عبد الله بن اسمعيل وهو ولد الحرة خناثى بنت بكار المغفرى أيام خلافة أخيه المولى أحمد منحاشا الى أخيه المولى عبد الملك ومقيما معه ببلاد السوس فلما خلع المولى أحمد وبويع المولى عبد الملك وقدم مكناسة قدم المولى عبد الله فى ركابه واستمر مقيما بها الى ان ثار العبيد بالمولى عبد الملك وفر الى الحرم الادريسى فخرج المولى عبد الله من مكناسة الى سجلماسة وأقام بداره بها الى ان توفى السلطان المولى أحمد فى التاريخ المتقدم فاجتمع أعيان الدولة من العبيد والودايا وسائر القواد والرؤساء واتفقوا على بيعة المولى عبد الله بن اسمعيل وهو يومئذ بسجلماسة فنادوا باسمه وأعلنوا بنصره فى المحلة ومكناسة وبعثوا جريدة من الخيل لتأتى به وكتبوا مع ذلك الى أهل فاس يعزونهم عمن هلك من اخوانهم أيام الحصار ويحضونهم على الموافقة على بيعة المولى عبد الله بن اسمعيل ولما وصل الكتاب الى فاس قرئ على منبر جامع القرويين فأجابوا بالموافقة ان حضر ولما وصلت الخيل الى المولى عبد الله وأعلموه بما اتفق عليه الناس فى شأنه أقبل مسرعا حتى نزل بظاهر فاس بالموضع المسمى بالمهراس فخرج أعيان فاس من العلماء

والاشراف وغيرهم للاقاته فسلموا عليه واستبشر وابقدومه فسرّبهم والآن لهم القول ووعدهم بالجميل وأعلمهم بانه من الغد يدخل لحضرتهم لزيارة المولى ادريس رضى الله عنه فرجعوا مسرورين مغتبطين ومن الغد أخذوا زينتهم ولبسوا أسلحتهم ونشروا ألويتهم وخرجوا للميعاد فركب السلطان فرسه وركب معه خاصته وأهل موكبه وفى جملتهم حمدون الروسى عدوّ أهل فاس وتقدم السلطان فدخل على باب الفتوح وتوسط المدينة فرأى بعض سماسرة الفتن من أولاد ابن يوسف حمدون الروسى وكان قد قتل أباهم حسبما مر فصمدوا اليه فلما رآهم تنحى عنهم قليلا فتبعوه فعلم أنهم عزموا على اغتياله فركض فرسه الى السلطان وهو على قنطرة الرصيف وأخبره خبر أولاد ابن يوسف وخص وعم بالارجاف فى حق أهل فاس فعدل السلطان عن قصده ورجع على طريق جامع الحوت ثم على جزاء ابن عامر وخرج على باب الحديد الى فاس الجديد ولم يزر ولم يعلم الناس موجب الرجوع عن الزيارة الى ان شاع الخبر بذلك فمشى علماء فاس وأشرافها الى السلطان ورفعوا اليه بيعتهم واعتذر اليه بعض الفقهاء بان ماوقع فى جانب حمدون انما هو من بعض السفهاء فأعرض السلطان عن ذلك وصم عن سماعه وكانت البيعة التى رفعها أهل فاس من انشاء الفقيه العالم الوجيه أبى العلاء ادريس بن المهدى المشاط المنافى نسبة الى عبد مناف بن قصى وهذا الفقيه هو الذى كان السلطان المولى اسمعيل رحمه الله بعثه قاضيا على تادلا مع ابنه المولى أحمد الذهبى حين ولاه عليها كما مر ونصها الحمد لله الذى جعل العدل صلاحا للملك والرعية والعباد كما جعل الجور هلاكا للحرث والماشية والبلاد وسدّد العادل بعنايته وأعدّ للجائر ماهو معلوم له يوم المعاد وجعل المقسطين على منابر من نور يوم القيامة كما جعل القاسطين فى العذاب والحسرات والانكاد فأسعد الملوك يوم القيامة من سلك مع الرعية سبيل السداد وأصلح ما أظهره الجائر فى الارض من الفساد نحمده ان تفضل علينا بامام عادل ونشكره ان حكم فينا من لا يصغى فى الحق لقول عاذل فولى علينا الخليفة من نسل الشفيع يوم التناد ونشهد أن لا اله الا الله وحده لا شريك له لا يسئل عما يفعل يؤتى الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء فى أى وقت شاء وأراد ونشهد أن سيدنا ونبينا ومولانا محمدا عبده ورسوله الشفيع فى أمته يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ولا يقبل من القاسطين فداء بطريف ولا تلاد صلى الله عليه وعلى آله الذين أظهروا الشريعة ومحوا الظلم محو المداد أما بعد حمد الله الذى أمر بطاعة أولى الامر ووعد من نصر دينه بالظفر والنصر فقال عليه السلام ومن مات وليس فى عنقه بيعة مات ميتة جاهلية * وفى صحيح مسلم عنه صلى الله عليه وسلم قال من أراد أن يفرق أمر هذه الامة وهو جميع فاضربوا عنقه بالسيف كائنا من كان * وفى صحيح مسلم أيضا عنه صلى الله عليه وسلم قال من أتاكم وأمركم جميع على رجل واحد وأراد أن يفرق جماعتكم فاقتلوه * وفى صحيح البخارى عن ابن عباس رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من كره من أميره شيأ فليصبر فان من خرج عن السلطان شبرا مات ميتة جاهلية * وفيه أيضا عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من أطاعنى فقد أطاع الله ومن عصانى فقد عصى الله ومن طاع أميرى فقد أطاعنى ومن عصى أميرى فقد عصانى * وقال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه لابن عقبة لعلك لا تلقانى بعد اليوم فعليك بتقوى الله تعالى والسمع والطاعة للامير وان عبدا حبشيا واتفق أئمة الدين على ان نصب الامام واجب على المسلمين وان كان من فروض الكفاية كما ان القيام بذلك من الواجبات كما دلت عليه نصوص الاحاديث والآيات وقال الشاعر

لا يصلح الناس فوضى لا سراة لهم * ولا سراة اذا جهالهم سادوا

ولما كان من أمر الله سبحانه ما أراده وقدره فقبض اليه خليفته وأقبره دهش المسلمون وخافوا من توالى الشرور والفتن فتوجهوا اليه سبحانه فى أن يغمد عنهم السيوف وطلبوا من فضله المعهود

أن يصرف عنهم ضروب المحن والحتوف فأجاب الكريم الدعوات ونفس الهموم والكربات ونشر رحمته وأزاح نقمته فصارت القلوب ناعمة بعد بوسها والوجوه ضاحكة بعد عبوسها والشرور والفتن قد أدبرت وأعلام الأمن والعافية قد أقبلت فوفق الله جيوش المسلمين للأعمال المرضية وألهمهم لما فيه صلاح الدنيا والدين والراعي والرعية فاقتضى نظرهم السديد ورأيهم الموفق الرشيد بيعة من في أفق السعادة قد طلع وظهر في سماء المعالي بدره وارتفع الامام الهمام العلوي الهاشمي العدل في الاحكام الموصوف بالكرم والشجاعة والشهامة والحزم والنجدة والزعامة المتواضع لله المتوكل في جميع أموره على الله أمير المؤمنين مولانا عبد الله بن الشريف الجليل الماجد الاصيل أمير المؤمنين مولانا اسمعيل بن مولانا الشريف فبايعوه أعزه الله على كتاب الله وسنة الرسول واقامة العدل الذي هو غاية المأمول بيعة التزمتها القلوب والالسنة وسعت اليها الاقدام والرؤس خاضعة مذعنة لا يخرجون له من طاعة ولا ينحرفون عن منهيع الجماعة أشهدوا على أنفسهم عالم الطويات المطلع على جميع الخفيات قائلين انا بايعناك وقلدناك لتسير فينا بالعدل والرفق والوفاء والصدق وتحكم بيننا بالحق كما قال تعالى لنبيه في محكم وحيه يا داود انا جعلناك خليفة في الارض فاحكم بين الناس بالحق وقال تعالى وقوله الحق ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسنؤتيه أجرا عظيما وقال تعالى ولا تكن للخائنين خصيما وهذه الرعية تطلب من ربها أن يعين مالكها ويساعده ويقذف الرعب في قلب من يريد أن يعانده وأن يفتح عليه ما عسر على غيره ويمده بعزيز نصره انه على ما يشاء قدير وبالاجابة جدير وبيده القوة والحول نعم المولى ونعم النصير شهد بذلك على نفسه ومن معه العبد الفقير المذنب الحقير عليها وكاتبها ادريس بن المهدي المشاط بحضرة فلان وفلان وجمهور الفقهاء والاعيان في يوم الاثنين سابع رمضان سنة احدى وأربعين ومائة وألف ثم سافر السلطان في الحين الى مكناسة كما نذكره

﴿حدوث النفرة بين أمير المؤمنين المولى عبد الله وأهل فاس والسبب في ذلك﴾

قد قدمنا ما كان من وسوسة حمدون الروسي للسلطان المولى عبد الله في جانب أهل فاس واعتذار بعض الفقهاء لدى السلطان عن ذلك ثم ان السلطان أمر أهل فاس ببعث طائفة منهم تكون معه على العادة فعينوا الخمسمائة التي كانت تغزو مع الملوك قبله فذهبت معه الى مكناسة ولما استقر بالحضرة قدم عليه أعيان الديوان وعمال القبائل ووفود الحواضر والبوادي ففرق المال ولم يحرم أحدا سوى أهل فاس فانه لم يعطهم شيأ ثم حضر عيد الفطر فقدمت وفود الامصار ليشهدوا العيد مع السلطان على العادة وقدم وفد فاس لهذا الغرض وحضر واصلاة العيد مع السلطان بالمصلى ولما قدم الناس هداياهم بعد رجوع السلطان الى منزله قدم أهل فاس هديتهم على العادة فاعطى الناس وحرمهم ثانيا ﴿قلت﴾ ولست أشك في ان شيطانا من شياطين الانس كان موكلا بهذا السلطان يغريه باهل فاس ويوغر صدره عليهم ويفسد ما بينه وبينهم والافكيف تقتضي السياسة أن يعمد ملك كبير الى أخص رعيته ولبها وصميمها فيفسد ضمائرها عليه ويزرع بغضه في قلوبها وهب انهم أساؤا الأدب أليس التغافل مطلوبا في مثل هذا ما أمكن لا سيما في حق السلطان وقد كان المنافقون يؤذون رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه فيحلم عنهم وقال له بعض أصحابه ألا نقتلهم فقال له صلى الله عليه وسلم كيف يتحدث الناس أن محمدا يقتل أصحابه ومن الحكم المأثورة قولهم التغابي يدفع شرا كثيرا وقال الشاعر

لبس الغبي بسيد في قومه * لكن سيد قومه المتغابي

ومن الغد أمر السلطان باحضار أهل فاس بالمشور ثم خرج عليهم فقاموا اليه وأدوا واجب التحية فقال لهم يا أهل فاس كاتبوا اخوانكم يسلموا الينا البساتين والقصبات فانها للمخزن ومن وظائفه فان

أبوا فانى آتيهم وأهدم عليهم تلك القرية فأجابوا بالسمع والطاعة وعادوا الى رحالهم ولما كان المساء اتخذوا الليل جملا وأسروا ليلتهم كلها ولم يصبحوا الا بباب فاس فاجتمعوا باخوانهم وقرروا لهم مقالة السلطان وما عزم عليه فى حقهم فاجتمع أعيانهم وتفاوضوا فى شأنهم وشأن السلطان وأحضروا نسخة البيعة وتصفحوا اشرو طها رقالوا انا لم نبايعه على هذا الذى يعاملنا به ثم أعلنوا بخلعه والامر لله وحده

﴿ حصار المولى عبد الله مدينة فاس ﴾

لما أعلن أهل فاس بخلع السلطان المولى عبد الله عزموا على الحرب ووطنوا أنفسهم على الحصار ونادوا فى المدينة من أراد الخروج الى بلده ومأمنه من غير أهل البلد فليتهيأ فى ثلاث ثم أغلقوا أبواب المدينة واستعدوا للقتال ولما سمع السلطان بخبرهم تهيأ لغزوهم فأخذ أهبته وخرج من مكناسة فى الخامس والعشرين من شوال سنة احدى وأربعين ومائة وألف فنزل على فاس ووزع الجنود عليها من كل ناحية وأطلق يد الجيش بالعيث فى أطرافها من تخريب المصانع وقطع الاشجار وافساد المزارع وأمر بطم الوادى فانحبس عنهم ماؤه وزحفت العساكر فكان القتال على كل باب سائر النهار فاذا كان المساء أمر الطبجية والاعلاج بارسال الكور والبنب وحجارة المنجنيق فكان الناس لا يستريحون بالنهار ولا ينامون بالليل واشتد الكرب وريع السرب واستمر الحال الى ان دخلت سنة اثنتين وأربعين ومائة وألف فازداد الامر شدة وارتفعت الاسعار وانعدمت الاقوات وكثر الهرج فبعثوا الى السلطان فى الصلح فقال على تسليم البساتين والقصاب فأبوا وتجلدوا ثم بعد ذلك وقع الصلح على يد القائد أبى عبد الله محمد السلاوى بضريح المولى ادريس رضى الله عنه واستصحب معه جماعة من أشراف فاس وعلمائها الى السلطان وهو بفاس الجديد فأكرم مقدمهم ووصلهم بألف دينار وكساهم وولى عليهم الحاج أبا الحسن عليا السلاوى فدخل الوالى المذكور القصبة ثانى ربيع النبوى سنة اثنتين وأربعين ومائة وألف وشحن البساتين والقصاب بالمقاتلة من أصحابه وافتتح عمله بقتل الشيخ دحمان المنجاد من رؤساء فاس ولما اتصل خبره بالسلطان عزله وولى على فاس أحد أولاد حمدون الروسى المعروف بالبادسى ثم بعد مدة يسيرة عزله وولى عبد النبى بن عبد الله الروسى ثم لما عزم على النهوض الى مكناسة عزله أيضا وولى عليهم عدوهم حمدون الروسى وارتحل فى العشرين من ربيع الاول من السنة وفى هذه السنة بعث السلطان ولده المولى محمدا مع أمه السيدة خناثى الى الحجاز بقصد حج البيت والمولى محمد يومئذ دون بلوغ ﴿ وفى نشر المثانى ﴾ أن هذه الحجة كانت سنة ثلاث بعدها قال ان أم السلطان المولى عبد الله وهى السيدة خناثى بنت بكار المغفرية التمست من ولدها المذكور السفر الى المشرق بقصد حج بيت الله الحرام فأجابها الى ذلك وهيأ لها جميع ما تحتاج اليه ووجه معها ولده الذى أيد الله به الدنيا والدين بعده سيدى محمد بن عبد الله فحج معها فى هذه السنة يعنى سنة ثلاث وأربعين ومائة وألف

﴿ نهوض السلطان المولى عبد الله الى قتال البربر وايقاعه بهم ﴾

لما استقر السلطان المولى عبد الله بمكناسة وتفقد حال البربر وجدها قد عادت الى حالها الاول من ركوب الخيل واقتناء السلاح والعيث فى الطرقات فأمر العبيد بالاستعداد لغزوهم وتمهيد البلاد والتقصير من باأوهم فخرج الى تادلا وصمد الى آيت عور الذين كانوا قد نزلوا بها وأضروا بأهلها حين نفتهم آيت ومالوا عن رأس ملوية وغلبوهم عليه فنزلوا تادلا وأوقدوا هانارا فكثر شاكيهم بباب السلطان فنهض اليهم على ما سبق ولما أحسوا بدنوه منهم فروا أمامه ودخلوا بلاد آيت يسرى فتبعهم الى أن أوقع بهم على وادى لعبيد وقتل منهم آلافا وانتهبهم وعاد الى تادلا ظافرا والله غالب على أمره

﴿ ذكر ما صدر من السلطان المولى عبد الله من العسف المخل بالسياسة والتناقض المغير فى وجه الرياسة ﴾

لما عاد السلطان المولى عبد الله الى تادلا قتل عشرين رجلا من أعيان رماة أهل فاس وكتب الى اخوانهم يعتذر عن قتل من قتل منهم ويأمرهم بتجديد بعث آخر وتوجيهه اليه فعينوا طائفة من رماتهم ووجهوها بعد ان عرضها القائد حمدون الروسي برأس الماء ثم من الغد قتل القائد حمدون المذكور عبد الواحد تبير ومحمد بن الاشهب من أهل فاس بباب السجن وأمر بجرهما في سكك المدينة ثم أصبح غاديا على أبواب فاس فتتبعها بالهدم فهدم باب المحروق وباب الفتوح وباب الجيسة وباب بني مسافر وباب الحديد وحمل مصاريعها كلها الى فاس الجديد وفي أول يوم من المحرم من سنة ثلاث وأربعين ومائة وألف شرع حمدون الروسي في هدم سور مدينة فاس وجر الانقاض التي بها الى فاس الجديد وفي أثناء ذلك ورد كتاب من السلطان يتضمن العفو عن أهل فاس والرضا عنهم فارتاب حمدون الروسي وفر الى زرهون ثم قفل السلطان من تادلا فأقام بمكناسة مدة يسيرة وخرج غازيا بلاد السوس فقدمها ومهدها وعاد مؤيدا منصورا وفي هذه السنة أمر ببناء باب منصور العلج بمكناسة فجاء في غاية الضخامة والفراهة وأكمل سور القصبة فجاء على ما ينبغي والله أعلم

﴿هدم السلطان المولى عبد الله مدينة الرياض من حضرة مكناسة وما اتصل بذلك﴾

كانت مدينة الرياض زينة مكناسة وبهجتها اذ كان بها آثار أكابر دولة أمير المؤمنين المولى اسمعيل رحمه الله وبها دور العمال والقواد والكتاب وسائر أعيان الحضرة الاسماعيلية بل كل من كان له وظيف في خدمتها السلطانية بني داره بها وتنافس الاكابر والرؤساء في تشييد الدور وتجديد القصور وتناهوا في ذلك حتى كان بدار علي بن يشي القبلي أربع وعشرون حلقة يجمعها باب واحد وكانت دار القائد عبد الله الروسي وأولاده على ذلك المنوال بل أعظم ضخامة وأكمل حضارة حتى كأنها حومة مستقلة وكان لامثالهما من القواد مثل ذلك أو قريب منه فخلدوا بها الآثار العظيمة والمعالم الفخيمة وبنى كل عامل مسجدا في حومته وكان بوسطها المسجد الاعظم الاسماعيلي ومدرسته وحمامه وفنادقه وأسواقه الموقوفة عليه وكانت تنفق بها البضائع التي لا تنفق في غيرها فأتى عليها من أيام النحوس يوم ركب السلطان المولى عبد الله عند فجره ووقف على تل عال يشرف منه عليها وأمر النصارى والشعابنية بهدمها فتسارعوا اليها وشرعوا في هدمها من كل ناحية والناس نيام فلم يرعهم الا بيوتهم تتساقط عليهم فمن أسرع وخف بحمل متاعه وأثاثه نجا ومن لا معين له أو تراخى في حمل متاعه ضاع تحت التراب وكان بها طائفة كبيرة من أخواله الودايا وغيرهم فارتحل الودايا الى فاس الجديد وانضموا الى اخوانهم الذين بها وتفرق غيرهم بمدينة مكناسة ولم تمض عشرة أيام حتى صارت مدينة الرياض كدية من تراب ولم يبق بها الا الاسوار قائمة الاشخاص والجدران مائلة للعيان والامر لله وحده قالوا وفي هذه السنة بعث السلطان المولى عبد الله بعثا مع القائد أبي عمران موسى الجراري الى بعض الجهات وكانوا نحو ثلاثمائة فلما قدموا عليه قتله وقتل أصحابه معه وقدم عليه أيضا وفد من عند الباشا أحمد بن علي الريفي في مثل هذا العدد من طنجة ومعهم هدية الباشا المذكور فقتلهم فكان قتلهم بسبب نفرة أحمد بن علي عنه وسعيه في افساد دولته وقتل أيضا من قبيلة حجاوة مائتي رجل على دعوى قطع الطريق ببلادهم ولما أمر بقتلهم وأخرجوا الى المحل المعد لذلك خرج النظارة والبطالون من أهل البلد للفرجة عليهم بباب البطيوي فبينما هم كذلك اذا بالسلطان قد برز من الباب ولما رأى اجتماع الناس قصد نحوهم فلما رأوه فروا الى كهف هنالك قريب فاختفوا فيه فأتى السلطان حتى وقف على باب الكهف وكان من قربه أكوام من حجر أعدت للبناء بها فأمر الاعوان من المسخرين بوضع أسلحتهم وردم باب الكهف بذلك الحجر مع التراب ففعلوا وهلك ذلك الجمع الكثير غما ولم يوقف لهم بعد على خبر ولا عرف لهم عدد ولما صدرت منه هذه الافعال الشنيعة عفا الله عنه كتب اليه أهل الديوان من مشرع الرملة ينكرون عليه قتله للمسلمين دون موجب

فبعث اليهم بالراتب وأمرهم بالتهيئ لغزو أهل فازاز فشغلهم بذلك وفى هذه السنة بعث محمد بن على بن يشى الزمورى القبلى والياً على فاس وقال له خذ منهم المال واطرحه فى وادى أبى الخراريب ولا تتركه لهم فما أطغاهم الا المال حتى استخفوا بامر الملك فقدم محمد بن على المذكور فاساً ونزل بدار أبى على الروسى بالمعادى وعين من كل حومة نقيباً عارفاً باهل اليسار فجمعوهم له حتى كانوا بين يديه فامر بسجنهم ثم وظف عليهم أولاً خمسمائة ألف مثقال وزعها على التجار وأهل اليسار دون غيرهم من العشرة آلاف الى الالف ثم شرع فى قبض المال الموزع ومن تراخى منهم فى الدفع ضرب وسجن ومن تغيب من أهل اليسار حبس ولده أو أخوه أو زوجته الى ان استوفى العدد المذكور ثم عطف على أهل الصنائع والحرف وأرباب الاصول من الفلاحين وغيرهم فوزع عليهم قدراً وافراً من الالف الى المائة ومادون ذلك حتى لم يبق فى المدينة أحد الا وقد غرم ففر الناس الى البوادى والقرى والجبال ومنهم من وصل الى السودان وتونس ومصر والشام حتى لم يبق بفاس الا النساء والذرية ومن لا عبرة به من الرجال حتى ان الذين كانوا بالسجن فبنفس خروجهم منه فروا بانفسهم ولم يعرجوا على أهل ولا ولد وأقام محمد بن على على هذا العمل بفاس ثلاثة عشر شهراً وكلما اجتنى مالا بعث به الى السلطان بمكناسة وكانت هذه الخطوب كلها فيما بين سنة ثلاث وأربعين الى سنة خمس وأربعين ومائة وألف

﴿بعث السلطان المولى عبد الله جيش العبيد الى فازاز وايقاع أهله بهم﴾

﴿وفى سنة ست وأربعين ومائة وألف﴾ جهز السلطان المولى عبد الله جيشاً من العبيد يشتمل على خمسة عشر ألفاً من الخيل وعقد عليهم الباشا قاسم بن ريسون وأضاف اليهم ثلاثة آلاف من جيش الودايا وعقد عليهم القائد عبد الملك بن أبى شفرة ووجههم الى جبال آيت ومالو فلما عبر الجيش وادى أم الربيع على قنطرة البروج ونزلوا ابسيط آدخسان كادهم البربر بأن أظهروا الفرار أمامهم وتوغلوا فى الجبال فتبعهم العبيد الى أن توغلوا فى تلك الجبال ونشبوا فى أوعارها والبربر تفر منهم فى كل وجه وهم يتبعونهم الى أن حان وقت المساء فبعث البربر ليلاً طائفة منهم لسد الثنايا والانقاب التى دخل منها جيش السلطان فأحكموا سدها بشجر الارز والحجارة ولما أصبحوا هجموا على الجيش من كل ناحية وصدقوهم القتال الى أن ردوهم على أعقابهم فلما انتهى العبيد الى الثنايا التى دخلوا منها وألفوها مسدودة دهشوا وخشعت نفوسهم وازدحموا عليها بعدان ترجلوا وتركوا الخيل والسلاح والابنية فيها من الاثاث فنهب البربر جميع ذلك ثم جردوا باقى العسكر من الثياب ولم يقتلوا أحداً ورجع العبيد الى مكناسة راجلين متجردين من المخيط والمحيط فكان ذلك من أقوى الاسباب التى بغضت السلطان المولى عبد الله للعبيد لان ذلك كان باشارته بزعمهم مع اسرافه فى قتل رؤسائهم كما سيأتى ومع ذلك فقد أنعم عليهم بالمال والكسى ووعدهم باخلاف جميع ماضاع لهم ورجعوا الى مشرع الرملة متعضين لتلك الفعلة

﴿ثورة العبيد على السلطان المولى عبد الله وفراره الى وادى نول ومانشأ عن ذلك﴾

﴿ولما كانت سنة سبع وأربعين ومائة وألف﴾ فسد مابين السلطان المولى عبد الله رحمه الله وبين العبيد لاسرافه فى قتلهم حتى كاد يأتى على عظمائهم وكان ذلك منه جزاء لهم على قتلهم لاخيه المولى عبد الملك حسبما سبق اذ كان مابينه وبينه صالحاً كما مر فقتل منهم كل من سعى فى قتله أو شارك فيه أو وافق عليه حتى بلغ عدد من قتل منهم أزيد من عشرة آلاف فأجمعوا على خلعه وقتله ودس اليه بعضهم بما عزموا عليه فى شأنه ففر ليلاً من مكناسة ولم يصبح الا بحلة آيت أدراسن فاجلوا مقدمه وتباروا فى اكرامه ولما عزم على النهوض عنهم ركبوا معه وصحبوه الى تادلا ثم ودعوه وعادوا الى بلادهم ومضى هو الى مراكش ومنها ذهب الى السوس فنزل بوادى نول على أخواله المغافرة وكان معه يومئذ ولداه المولى أحمد فى سن

البلوغ والمولى محمد السلطان بعده صغيرا وأقام عند المغافرة نحو ثلاث سنين وأما والى فاس محمد بن على ابن يشى فانه لما اتصل به فرار السلطان من مكناسة فرّ هو أيضا عن فاس ليلا ولم يصبح الا بزرهون فاطمأن بها جنبه وكان ما نذكره

﴿الخبر عن دولة أمير المؤمنين المولى أبى الحسن على بن اسمعيل المعروف بالاعرج رحمه الله﴾

لما فرّ أمير المؤمنين المولى عبد الله بن اسمعيل من مكناسة الى وادى نول اجتمع عبيد الديوان واتفقوا على بيعة المولى أبى الحسن على بن اسمعيل المعروف بالاعرج وكان يومئذ بسجلماسة فكتبوا اليه بذلك وبعثوا بالكتاب مع جريدة من الخيل اتأتى به فأقبل مسرعا ولما وصل الى مدينة صفرو لقيه بها أعيان فاس وأشرافها وعلماؤها فبايعوه ففرح بهم وأكرمهم وعادوا فى صحبته الى فاس الجديد فولى عليهم مسعودا الروسى وذلك فى ربيع الثانى سنة سبع وأربعين ومائة وألف وأمره أن لا يقبض منهم الا الزكوات والاعشار الشرعية وما جرت به العادة من الهدايا الخفيفة وكان رحمه الله موصوفا بالحلم والعقل متوقفا فى الدماء فستره الله فى آخر أمره وأجمل خلاصه ثم نهض الى مكناسة ولما قدمها بايعه الجيش بها البيعة العامّة هكذا فى البستان ﴿ورأيت﴾ بخط جدّنا للام الفقيه الاستاذ أبى عبد الله محمد بن قاسم بن زروق الحسنى الادريسى ما نصه وفى اليوم الاوّل من جمادى الاولى من سنة سبع وأربعين ومائة وألف ثار عبيد الرمل على أمير المؤمنين المولى عبد الله بن اسمعيل ونقضوا بيعته وأعلنوا بنصر أخيه المولى على ولد عائشة مباركة وخرج لهم المولى عبد الله عن دار الملك بمكناسة بعد أن أخذ ما كان بها مما أعجبه من خيل وعدّة ومال من غير قتال ولا محاربة ودخل أخوه المولى على دار الملك بمكناسة يوم الجمعة فاتح جمادى الثانية من السنة المذكورة وكتبه فى الثانى عشر من الشهر المذكور محمد بن زروق كان الله له بعنه اهـ كلامه بحروفه ولما استقر السلطان المولى أبو الحسن بمكناسة قدمت عليه الوفود ببيعاتهم وهداياهم من جميع البلدان فأجازهم وفرّق المال على الجيش الى أن نفد ما عنده واحتاج فقبض على الحرّة خناثى بنت بكار أم السلطان المولى عبد الله فاستصفى ما عندها ثم امتحنها بالتقريع عسى أن تكون قد أخفته فلم يحصل على طائل وكانت هذه الفعلة معدودة من هناته عفا الله عنه ﴿قال أبو عبد الله اكنسوس﴾ وخناثى هذه هى أم السلاطين أعزهم الله وكانت صالحة عابدة عالمة حصلت العلوم فى كفالة والدها الشيخ بكار وقال رأيت خطها على هامش نسخة من الاصابة لابن حجر وعرّف به بعضهم فقال هذا خط السيدة خناثى أم السلطان المولى عبد الله بلا شك اهـ

﴿ثورة أهل فاس بعاملهم مسعود الروسى وانتقاضهم على السلطان أبى الحسن رحمه الله﴾

ثم ان مسعودا الروسى عامل فاس عدا على الحاج أحمد بودى رئيس اللمطيين فقتله وأمر بجرّه الى باب الفتوح اذ كان هو الذى سعى فى قتل أخيه أبى على الروسى عقب وفاة السلطان المولى اسمعيل كما مر فلما ارتكب مسعود هذه الفعلة اجتمع أهل فاس وأخذوا أسلحتهم وتقدموا الى القائد مسعود ليقتلوه بصاحبهم ففرّ مسعود ولم يدركوه فعطفوا على السجن فكسروه وقتلوا الحرس والاعوان الذين به وسرّحوا المساجين الى حال سبيلهم ولما اتصل خبرهم بالسلطان المولى أبى الحسن غض الطرف عنهم وبعث اليهم أخاه المولى المهتدى ومعه القائد غانم الحاجى وكتب اليهم يقول انى قد عزلت عنكم مسعودا الروسى ووليت عليكم غانما الحاجى فلم يقبلوه ورجع من الغد الى مكناسة ثم راجعوا بصائرهم باشارة أهل المروءة منهم وبعثوا جماعة من العلماء والاشراف بهدية كبيرة مع المولى المهتدى الى السلطان تلافيا لما فرط منهم ولما دخلوا على السلطان قبض هديتهم وعدّد عليهم ذنوبهم ثم أمر بهم الى السجن ولما انتهى الخبر الى أهل فاس قامت قيامتهم وأغلقوا أبواب المدينة وأعلنوا بالخلاف ثم عطفوا على أصحاب مسعود

الروسي وكل من كان له به اتصال فقتلوهم في كل وجه وأنشبوا الحرب مع الودايا في كل ناحية وفي رمضان من السنة المذكورة قدم من عند السلطان القائد أبو محمد عبد الله الجرى من قواد العبيد فاجتمع باهل فاس واعتذر اليهم عن السلطان وطلب منهم أن يبعثوا معه جماعة منهم الى السلطان لرتق هذا الفتق فاسعفوه وبعثوا طائفة من علمائهم وأشرافهم وأصحبوهم هدية نفيسة الى السلطان وكتب عبد الله الجرى الى السلطان يعتذر اليه عنهم ويشفع لهم عنده فدخلوا على السلطان وعاتبهم ثم عفا عنهم وسرح لهم اخوانهم الذين كانوا في السجن وولى عليهم عبد الله الجرى ثم لما دخلت سنة ثمان وأربعين ومائة وألف عزله وولى عليهم عبد الله بن الاشقر وسكنت الهيعة واستقام الامر بعض الشئ

﴿غزو السلطان أبي الحسن أهل جبل فازاز في جيش العبيد وهزيمتهم اياه﴾

لما كانت أواخر سنة ثمان وأربعين ومائة وألف أخذ السلطان أبو الحسن في الاستعداد وتجهيز العساكر لا ستيت ومالوا وكان ذلك منه اسعافا للعبيد ليأخذوا بثارهم من البربر في الوقعة السابقة أيام السلطان المولى عبد الله فخرج اليهم في المحرم فاتح سنة تسع وأربعين ومائة وألف في جيش كثيف من العبيد فلما نذروا باقباله اليهم ودنوه منهم أظهروا الفرار أمامهم مثل الفعلة الاولى فصاروا ينأخرون ويتبع آثارهم فينزل منازلهم الى أن عبروا وادي أم الربيع ودخلوا في الجبال فعبر السلطان خلفهم وتقدم العبيد الى الجبال والاوعار فاقتحموها عليهم فلما توسطوها كرت البربر عليهم وانقضوا عليهم من الثنايا انقضاض العقبان وأحاطوا بهم من كل وجه فولوا منهزمين وازدحموا على الثنايا وسلكوا سبيلهم في المرة الاولى من ترك الخيل والسلاح والابنية والاثاث والنجاة بمجرد أعناقهم وسلبهم البربر حتى من الثياب ولم يتعرضوا للسلطان في موكبه وخاصته الى أن عبر وادي أم الربيع فرجعوا عنه ولما دخل مكناسة طالبه العبيد بالكسوة والسلاح والراتب فلم يكن عنده ما يعطيهم فشغبوا عليه ومرضوا في طاعته وقد أجمل صاحب نشر المثاني هذه الاخبار فقال وفي هذه السنة يعني سنة تسع وأربعين ومائة وألف أهلك الله كل من خرج على السلطان مولاي عبد الله وقويت الفتن وارتفعت الاسعار واحتبست الامطار وقاسى الناس الشدائد من الغلاء وقل الادام وانقطع اللحم وهلكت رقاب كثيرة ولم يزل الامر في شدة وفر الناس كل فرار

﴿تحرك السلطان المولى عبد الله من السوس وفرار السلطان أبي الحسن الى الاحلاف وما كان من أمره الى وفاته﴾

لما كان شهر ذي الحجة من سنة تسع وأربعين ومائة وألف ورد الخبر بان السلطان المولى عبد الله قد أقبل من وادي نول ووصل الى تادلا فاهتز العبيد له وتحدثت فرقة منهم بردّه الى الملك وخالفهم سالم الدكالي في جماعة من شيعته وقالوا الانخلع طاعة مولانا علي اذ كان سالم هذا وأصحابه هم الذين تسببوا في خلع المولى عبد الله وتولية أخيه المولى علي ثم ان شيعة المولى عبد الله قويت وكثروا أصحاب سالم وأعلنوا ببيعته ففر سالم فيمن معه من القواد الى زاوية زرهون مستجيرا بها ولما سمع بذلك السلطان المولى أبو الحسن فر من مكناسة الى فاس الجديد فصده الودايا عن الدخول اليها فعدل الى قنطرة وادي سبو فانزل هنالك يوما أو بعض يوم الى ان قضى بعض أربه ثم أصبح غاديا الى تازا فاحتلها ثم انتقل عنها الى عرب الاحلاف فأناخ بديارهم ففرحوا به وأكرموه وصاهروه وأقام بين أظهرهم عدة سنين معرضا عن الملك وأسبابه الى أن رجع الى مكناسة فاستوطنها باشارة أخيه السلطان المولى عبد الله حين وفد عليه بدار الدبيبغ من فاس سنة تسع وستين ومائة وألف فاعطاه مالا وجنات ومزارع مما كان لجانب المخزن بمكناسة وبعثه الى داره بها فاقام يسيرا ثم وثب عليه العبيد فقبضوا عليه وبعثوا به الى أخيه السلطان المولى

عبد

عبد الله وقالوا ان هذا قد أفسد علينا بلادنا فاخذه وسرحه الى تافيلالت فاستقر بها الى ان مات رحمه الله كما سيأتي

﴿الخبر عن الدولة الثانية لامير المؤمنين المولى عبد الله بن اسمعيل رحمه الله﴾

لما فر السلطان المولى أبو الحسن من مكناسة الى الاحلاف اجتمعت كلمة العبيد والودايا على بيعة السلطان المولى عبد الله فبايعوه وهو بتادلا وتبعهم على ذلك أهل فاس وسائر القبائل ثم ان سالما الدكالى الذي بزرهون كتب الى أهل فاس يقول لهم ان الديوان قد اتفق على خلع المولى عبد الله وبيعة سيدى محمد ابن اسمعيل المعروف بابن عربية والمشورة لعلمائكم فأجابوه بان قالوا نحن تبع لكم فلما سمع أهل الديوان بما فعله سالم الدكالى وما تقوله عليهم خرجوا من المحلة الى زرهون وقبضوا على سالم الدكالى ومن معه من القواد وبعثوا بهم الى السلطان المولى عبد الله بتادلا فاستفتى فيهم القاضي أبا عنان وكان يومئذ معه فأفتاه بقتلهم فقتلهم ثم غبت مقالة سالم الدكالى الى المولى محمد بن عربية وهو بتافيلالت فظن ان الامر صحيح فأقبل مسرعا الى ان وصل الى مدينة صفرو فوجد الناس قد بايعوا السلطان المولى عبد الله وراجعوا طاعته فسقط في يده ثم دخل فاسا مستخفيا وأقام بدار الشيخ أبي زيد عبد الرحمن الشامي وكان صديقه معتقداله وكان أبو زيد يعده بالملك ولما أقبل السلطان المولى عبد الله من تادلا خرج للقائه أهل فاس وفيهم الاشراف والعلماء وكذلك أهل مكناسة فوافوه بقصبة أبي فكران ولما مثلوا بين يديه عاتبهم وعدد ما سلف منهم ثم أمر باعيانهم فقتلوا وفعل مثل ذلك بأعيان مكناسة واستباحهم وعزل قاضيهم أبا القاسم العميرى ورجع أشراف فاس وعلماؤها مذعورين عما نابهم بعد ان ولى السلطان عليهم محمد ابن على بن يشي واستمر هو مقيما بقصبة أبي فكران ولم يتقدم الى فاس لعدم ثقته بهم

﴿الخبر عن دولة أمير المؤمنين المولى محمد بن اسمعيل المعروف بابن عربية والسبب فيها﴾

لما فعل المولى عبد الله بأعيان فاس ومكناسة ما فعل من القتل والاستباحة وأقام منكمشا بقصبة أبي فكران نبغت رؤس الفتنة من الودايا بفاس الجديد وأخذوا في نهب الطرقات ثم أغاروا في يوم خميس على سرح فاس وأجلاب سوقها فاستاقوها حتى لم يتركوا لهم بقرة ولا شاة ولا بهيمة غيرها ولما رأى أهل فاس ما نزل بهم اجتمعوا وتحالفوا على خلع السلطان المولى عبد الله وبيعة أخيه المولى محمد بن عربية فمشوا اليه وهو بدار الشيخ أبي زيد الشامي فأخرجوه وأخذوا عليه العهود ثم بايعوه في عاشر جمادى الاولى سنة خمسين ومائة وألف وهيؤاله كل ما يحتاج اليه من خيل وسلاح وآلة حرب وتبار وافى طاعته وخدمته وكتبت بيعته في خامس عشر الشهر المذكور وكتب عليها الفقهاء خطوطهم وامتنع بعضهم من ذلك وقالوا بيعة السلطان المولى عبد الله في أعناقنا فلا نخلعها فعزلوا عن الخطط وامتحنوا ثم كتب أهل فاس الى عبيد الديوان يعرفونهم ما صنعوا ويطلبون منهم موافقتهم فاجابوهم الى ذلك وبايعوا السلطان المولى محمد بن عربية وتم أمره ولما رأى السلطان المولى عبد الله ان أمر أخيه قد تم فر الى جبال البربر وأقام هنالك ثم فتحت أبواب فاس وانتقل السلطان المولى محمد الى فاس الجديد ومن الغد نهض الى مكناسة فاحتل بها وبايعه العبيد البيعة العامة وقدمت عليه الوفود من سائر الاقطار بهداياهم فاجازهم وفرق ما كان عنده من المال على العبيد وكان ما نذكره

﴿بدء اختلال أمر السلطان المولى محمد بن عربية وما تسبب عن ذلك﴾

لما فرق السلطان المولى محمد بن عربية على العبيد ما عنده من المال لم يقنعهم ذلك واستزادوه فأطلق عفا الله عنه أيدى النهب في أموال المسلمين وأخذهوفى استخراج الحبوب والاقوات من دور أهل مكناسة غصبا وبحث عنها في الاهراء والمطامير وكل من ذكر له ان عنده قمحا أو شعيرا قبض عليه وصادره الى

ان يظهر ماعنده وكل من جلب من أهل البادية حبا أخذ منه كرها فكثر الهرج وعمت الفتنة وفر الناس من مدينتهم وعم النهب خارجها وانقطعت السبل ووقع الناس في حيص بيص والامر لله وحده

﴿اغارة السلطان المولى عبد الله على الاصطبل من مكناسة وما نشأ عن ذلك﴾

ثم ان السلطان المولى عبد الله الذي كان مقيما عند البربر قدم ذات ليلة في جماعة من أصحابه حتى دخل الاصطبل وقتل من وجد به من العبيد وحرق أخصاصهم ورجع عوده على بدئه ولما انذر به السلطان المولى محمد بن عربية نادى في الناس بالنفير وركب في خيله ورجله وقصد السلطان المولى عبد الله وهو بالموضع المعروف بالحاجب ولما رأى العساكر مقبلة اليه والخيل تتعادى خلفه فر بنفسه وترك أبنيته بما فيها فانتهبها العبيد وتبعوه الى ان بلغوا وادى ملوية فتوغل في الجبال ولم يقفوا له على أثر ولما قفلوا راجعين اعترضهم البربر وتسايلوا عليهم من المخارم والشعاب فصدقوهم القتال وهزموهم واستلبوا مامعهم من الاثقال ورجعوا بخفي حنين ﴿قال في البستان﴾ ولما انتهوا الى أحواز صفرو ابعث المولى محمد بن عربية جماعة من جيشه الى من هنالك من المستضعفين من أهل المزارع وغيرها من القرى وأمر بقطع رؤسهم وبعثها الى فاس موهما انها رؤس البربر اه والله أعلم

﴿بقية أخبار السلطان المولى محمد بن عربية وما تخللها من الهرج والشدة﴾

لما قفل السلطان المولى محمد بن عربية من خرجته في أثر أخيه المولى عبد الله وكان حيث ذكرنا بعث أخاه المولى الوليد بن اسمعيل الى فاس وأمره بضرب البعث عليهم توصلا الى ما في أيديهم من المال بحيث ان من أعطى المال منهم يقيم بداره ومن أبى يخرج في البعث فتحير الناس وقدم المولى الوليد حضرة فاس وقبض على الحاج أبي جيدة بردادة وكان مثريا فقتله وأخذ أمواله وباع أصوله وقبض على الحاج عبد الخالق عديل فاخذ أمواله ثم تسلط على أهل الزوايا وكل من ذكر له انه من أهل اليسار الى ان استوفى غرضه ثم سار الى مكناسة ففعل باهلها مثل ذلك حتى لم يسلم منهم الا القليل هذا والناس في محنة عظيمة من المجاعة والفتنة ونهب الدور بالليل بحيث كان أهل اليسار لا ينامون وصار جل الناس لصوصا والوداية يعيشون في الجنات خارج المدينة ويغيرون على القصارين بوادى فاس وبعد ان صار الناس يقصرون كتانهم بمصمودة انتهبوه منهم بها بل تناولوا القفل من الفنادق والسلطان معرض عن جميع ذلك لا يلتفت اليه ولقد هلك في هذه المدة من الجوع جم غفير أخبر صاحب المارستان انه كفن في رجب وشعبان ورمضان ثمانين ألفا وزيادة سوى الذين كفنهم أهلهم وعشيرتهم وبالجملة فقد كانت أيام المولى محمد بن عربية هذا أيام نحس ووبال على المسلمين وكذا أيام أخيه المولى المستضيء الذي اليه يساق الحديث وكل ذلك والله تعالى أعلم من استيلاء العبيد على الدولة وشؤم افتياتهم عليها وتحكمهم في أعياصها طوع أهوائهم وحسب أغراضهم اذ معلوم انه لا ينشأ عن كثرة الخلع والتولية الا هذا وشبهه نسأل الله تعالى اللطف والحفظ في الاهل والدين والمال في الحال والمآل وقد تكلم صاحب نشر المثاني على هذه السنة أعني سنة خمسين ومائة وألف فقال وفي هذه السنة هزم جيش الثائر على مولاى عبد الله يعني العبيد هزيمة عظيمة بعد ان صدر منهم فساد كبير وذلك على يد البربر وارتفعت الاسعار جدا وجعل اللصوص يهجمون على الناس في دورهم ليلا ويقتلونهم وهم يستغيثون فلا يغاثون وبلغ الخوف الى أبواب الدور والمتطرفة بفاس نهارا فلا يستطيع أحد أن يخرج عن باب مصمودة في العدوة ولا عن باب القصبة القديمة في الطالعة ولا عن حومة الحفارين بباب عجيسة وكثر الهدم في الدور لاخذ خشبها وكثر الخراب وخلت الحارات فتجد الدرب مشتملا على عشرين دارا أو أكثر وكلها خالية وفي هذه المدة قتل الفقيه العلامة أبو البقاء يعيش الشاوى بداره بالدوح وقتله كان سبب خلاء الدوح وافتضح أهل

المروءة من الناس ومن يظن به الدين وكل من قدر على الفرار فر من فاس وقل من سلم منهم بعد خروجه عن البلد وخرج جماعة وافرة من أهل فاس الى تطاوين وماواها الا جلب الميرة اذ كان الله تعالى قد سخر العدو الكافر يحمل الطعام الى بلاد المسلمين فاشترى أهل فاس منه شيأ كثيرا لكن امتنع الجالون من حمله لهم وماطلوهم فشكوهم لوالى تلك البلاد ورئيسها حينئذ الباشا أحمد بن على الريفي فأظهر لهم النصح وأبطن الغش لانحرافه عن السلطان ومن يتعلق به فثبط الجالين وهم قبيلة بداوة فازدادوا امتناعا وتعاصيا حتى بقى أهل فاس معطلين عيرتهم نحو ستة أشهر فهلك بسبب ذلك خلائق لا يحصون جوعا وكلهم فى عهدة أحمد بن على الريفي وما أغنى مال ولا متاع فى طلب القوت ولولا ان الله سخر العدو الكافر بجلب الميرة للمغرب لهلك أهله جميعا فيما أظن وذلك كله من شؤم الفتن والخروج على الملوك وأما الاصول والسلع فلم يكن شئ منها يبلغ عشر ثمنه المعتاد ولم يقيض الله لهذا المغرب راحة حتى من برجوع السلطان مولاى عبد الله هذا كلام صاحب نشر المثانى وهو الفقيه المؤرخ سيدى محمد بن الطيب بن عبد السلام القادرى وقد حكى هذه الاخبار عن معاينة لانه كان يومئذ حاضرها وشاهدها ثم دخلت سنة احدى وخمسين ومائة وألف والناس فى شدة وفى الرابع والعشرين من صفر منها ثار العبيد على السلطان المولى محمد بن عربية فقبضوا عليه وعلى قائده على فاس الشريف أبى محمد عبد المجيد الشامرى ووضعوا فى رجلى كل واحد منهما قيدا وأخرجوا ابن عربية وعياله من دار الملك الى داره التى على وادى ويسلن بجنان حمرية ووكلوا به جماعة من العبيد يحرسونه وكتبوا الى أخيه المولى المستضىء بن اسمعيل بتافيلالت يستدعونه للقدوم عليهم ليملكوه

﴿الخبر عن دولة أمير المؤمنين المولى المستضىء بن اسمعيل رحمه الله﴾

لما قبض العبيد على السلطان المولى محمد بن عربية أعلنوا ببيعة أخيه المولى المستضىء بن اسمعيل وكتبوا بذلك الى الآفاق فساعدهم الناس عليها وبعثوا جريدة من الخيل على عادتهم لتأتى به فأقبل مسرعا ولما انتهى الى مدينة صفرو القيه أهل فاس بها فى أشرافهم وعلمائهم وأدوا بيعتهم ورجعوا امامه الى فاس الجديد فاراح به وولى عليهم القائد أبا العباس أحمد الكعيدى فاستناب الكعيدى عليهم من قبله شعشوع اليازغى والحال ما حال والظلم ما زال ثم ارتحل السلطان المولى المستضىء الى مكناسة فاحتل بها وبايعه العبيد البيعة العامة وقدمت عليه وفود القبائل والامصار بهداياهم فقابلهم بما يجب واستتب أمره

﴿ذكر ما صدر من السلطان المولى المستضىء من العسف والاضطراب﴾

لما استقر السلطان المولى المستضىء بمكناسة كان أول ما بدأ به ان بعث باخيه المولى محمد بن عربية مقيدا الى فاس ومنها الى سجلماسة فسجن بها وبعث بقائده السيد عبد المجيد الشامرى والشيخ أبى زيد عبد الرحمن الشامى يسجنان بفاس الجديد ونهبت دار الشامرى وصودر الى ان مات تحت العذاب ومثل به ثم بعث السلطان كتابه الى أهل فاس ولكن رسم أن يقرأ بفاس الجديد ويحضر أعيان أهل فاس لاستماعه فارتابوا وتغيبوا ولم يحضر منهم الا نحو العشرين فقبض عليهم وسجنوا هنالك ثم وظف عليهم مالا ثقيلا لم يقوموا به وافتقرت الدولة فى أيام هذا السلطان واحتاج الى المال ليقطع عنه لسان العبيد فأخذ فى البحث عما فى المخازن الاسماعيلية التى لم يلتفت اليها الملوك قبله فوقع على خزين من الحديد فاستخرجه وباعه ووقع على الخزين الكبير وفيه آلاف من قناطير الكبريت فباعها أيضا ووجد شيأ كثيرا من ملح البارود والشب والبقام وغير ذلك مما كان يجلب الى الحضرة من غنائم أجناس الفرنج فباع ذلك كله ثم اقتلع شراجب القبة الشطرنجية وكانت من نحاس مذهب واقتلع الدرابيز التى عن يمينها

وشمالها من الحديد المنتخب من باب الرخام الى قصر المولى يوسف ودفعها لاهل الذمة وألزمهم أداءثمنها فأجحف بهم ثم أنزل المدافع النحاسية التى كانت بأبراج الحضرة فكسرها وضرب بها فلوسا فما أغنى ذلك شيأ وقتل فى هذه المدة نيفا وثمانين رجلا من عرب بنى حسن وسلط العذاب على مساجين أهل فاس ليغرموا المال فغرموا ماقدروا عليه ثم أمر بالقبض على تجار أهل فاس ليشترو أصول مساجينهم فعذبوا الى ان أدوا بعض المال وعجزوا وأفتى العلماء ان هذا البيع الواقع فى هذه الاصول صحيح تقديما لخلاص الانفس على الاموال ثم قبض هذا السلطان على شريف من الاشراف العراقيين من أهل حومة كرنيز اتهمه بان الحرة خناثى بنت بكار استودعته مالا فضرب وامتحن ثم ولى على فاس المولى أبا حفص عمر المدنى وكان رفيقه وجليسه فاستناب المولى أبو حفص على فاس رجلا يقال له ابن زيان الاعور وتقدم اليه فى مصادرة أشراف فاس واستصفاء أموالهم فامتثل ابن زيان أمره وماقصر وكان الحامل لابى حفص على هذا ان داره بفاس كانت قد نهبت أيام المولى محمد بن عريبة ولم ينكر ذلك أحد من أهل فاس فحقدها أبو حفص عليهم الى ان أدالته الايام منهم فى هذه المرة ففعل ابن زيان مافعل فأمر السلطان المولى المستضىء بالقبض على ابن زيان وأن يطاف به على حمار والسياط فى ظهره وهو يقول هذا جزاء من يؤذى الاشراف فطيف به ثم أزيل رأسه وعلق على باب المحروق هذا والاشراف لازالوا فى العذاب ثم أمر بمساجين أهل فاس فحملوا اليه فى السلاسل والاغلال ثم قتلوا بباب القصبة من عند آخرهم وأمر باخراج ولد مامى من الحرم الادريسى فلما وصل اليه قتله وأسرف المولى المستضىء فى القتل والعسف وأراد أن يتشبه باخيه المولى عبد الله الذى جرد السيف وبسط الكف فغطى سخاؤه عيبه وهيهات فقد كان المولى المستضىء مسيكا مهزوم الراية على ماقيل تغمدنا الله واياه والمسلمين بالرحمة والعفو والغفران ثم قتل القائد غاغا الحاجى وولى مكناسة القائد سعدون وستة من أولاد الزيانى أصحاب السجن ثم ان السلطان المولى عبد الله أغرى البربر الذين كان مقيما فيهم بشن الغارات على الودايا والعيث فى طرقاتهم ففعلوا وانقطعت السبل وتعذر المعاش وكان المولى زين العابدين بن اسمعيل محبوسا عند أخيه السلطان المولى المستضىء فأمر باخراجه واحضاره بين يديه فاحضر وضرب ضرب التلف وبعث به مقيدا الى تافيلالت ليسجن مع بعض أشرافها فبعث العبيد جماعة منهم فانتزعوه من يد حامليه وبعثوا به الى القائد أبى العباس أحمد الكعيدى ببنى يازغة وتقدموا اليه فى الاحتفاظ به والاعتناء بشأنه

﴿ايقاع الباشا أبى العباس أحمد بن على الريفى باهل تطاوين﴾

قد قدمنا ما كان من غارة الباشا أبى العباس أحمد بن على الريفى صاحب طنجة على أهل تطاوين وهزيمة أبى حفص الوقاش له وفتكه باصحابه فاستحكمت العداوة بين الريفى والوقاش من يومئذ وبقى الريفى يتربص به الدوائر ويترصد له الغوائل الى ان بويع السلطان المولى المستضىء فى هذه المدة فلم يقدم عليه أحد من أهل تطاوين ولا دخلوا فى بيعته فوجد أبو العباس الريفى السبيل بذلك اليهم وأغرى بهم السلطان المذكور ودس اليه انهم شقوا العصا وخالفوا الامر مع ما كان قد نقل عن الفقيه أبى حفص فى تلك القصيدة من التصريح بطلب الملك فنجح ذلك فى المولى المستضىء وكتب اليه يأمره بالايقاع باهل تطاوين فاغتنمها أبو العباس الريفى واقتحم تطاوين فى جموعه على حين غفلة من أهلها وانتهبها وقتل من أعيانها نحو الثمانمائة ووظف على من بقى منهم مالا ثقيلا وهدم أسوارها ونظمها فى سلك ما كان مستوليا عليه وبنى بها دار الامارة الموجودة الآن

﴿شغب العبيد على السلطان المولى المستضىء وفراره الى مراكش﴾

لما كان منتصف ذى القعدة من سنة اثنتين وخمسين ومائة وألف شغب العبيد بمكناسة على السلطان

المولى المستضيء وتآمروا في عزله ومراجعة طاعة أخيه المولى عبد الله ولما أحس المولى المستضيء بما أجمعوا عليه خرج من مكناسة في شيعته وأنصاره قاصدا ضريح الشيخ أبي محمد عبد السلام بن مشيش رضي الله عنه فتبعه المولى عبد الله في جمع من العبيد فأدركوه ببعض الطريق فكرّ عليهم وقاتلهم حتى رجعوا عنه ومضى لوجهه الى ان وصل الى طنجة فأقام بها نحو الشهرين عند أحمد بن علي الريفي ومنها توجه الى مراكش فانهم كانوا قد بايعوه وكان أخوه المولى الناصر تابعا له بها ولما استقر بمراكش كاتب قبائل الحوز يستصرخهم على أخيه المولى عبد الله ويستنفرهم للخروج معه اليه فتقاعدوا عنه لان عبدة والرحامنة وأهل السوس كانوا شيعة للمولى عبد الله ولم يبق في حزب المولى المستضيء الا أهل دكالة أخواله وبنو حسن عرب الغرب ولما رأى المولى المستضيء تقاعد قبائل الحوز عنه أقام بمراكش يزجي الايام الى سنة خمس وخمسين ومائة وألف والباشا أبو العباس الريفي صاحب طنجة يقتل العبيد في الذروة والغارب الى أن بايعوه ثانية بعد أخيه المولى زين العابدين وبعد خلع السلطان المولى عبد الله حسبما نذكره بعد ان شاء الله

﴿مراجعة العبيد طاعة السلطان المولى عبد الله ودخولهم في دعوته﴾

قد قدمنا ان السلطان المولى عبد الله كان مقيما في هذه المدة عند البربر وانه تبع المولى المستضيء عند خروجه من مكناسة ثم رجع عنه ولما بلغه خبر مسيره الى مراكش سار في اعتراضه الى ان بلغ قصبة وادي آلزم فلم يقف له على خبر فأقام يتجسس أخباره الى أن اتفق العبيد على بيعته وهو بآلزم فبايعوه أوائل سنة ثلاث وخمسين ومائة وألف وكتبوا بيعتهم وبعثوا بها اليه مع بعض خاصتهم وكتبوا مع ذلك الى أهل فاس والودايا في الموافقة فوافقهم وبايعوا السلطان المولى عبد الله وخطبوا به على منابرهم وزينت فاس ولما انتهى الحال الى هذا الحد فر الوزير أبو الحسن علي العميري من مكناسة اذ كان وزير المولى المستضيء واحترم أخوه القاضي أبو القاسم العميري بضريح بعض صلحاء مكناسة وبعث أهل فاس جماعة من أشرافهم وعلمائهم ببيعتهم الى السلطان المولى عبد الله ومعهم جماعة من التجار وحجاج الركب الحجازي بهدايا هم هذا كله والسلطان لا زال مقيما بقصبة آلزم وتولى العبيد بمكناسة النقض والابرام لتأخر مجيء السلطان وظهر منهم الادلال والاستبداد على الدولة وبعثوا من قبلهم القائد أبا محمد عبد الله الحمري واليا على فاس وقالوا عن أمر الديوان وكثر القطاع بالطرقات واللصوص بالمدينة وعادت هيف الى أديانها

﴿مجيء السلطان المولى عبد الله الى مكناسة وما ارتكبه من أهلها﴾

وفي خامس عشر رجب سنة ثلاث وخمسين ومائة وألف تحرك السلطان المولى عبد الله من آلزم وقدم مكناسة فقبض على قاضيها الفقيه أبي القاسم العميري والسيد أبي العباس أحمد الشدادي والعباس ابن رحال والفقيه المليتي وأزال عمائمهم وفضحهم وقال لهم كيف تزوجون حرمي من أخي وأنا حي ونكل بهم النكال الشديد ثم أمر بسحبهم الى السجن وأعطى دار القاضي العميري أحد العبيد وقال لهم من أراد منكم دارا بمكناسة فليأخذها فامتدت أيدي العبيد في الناس حتى صاروا يقفون بالابواب ويقول العبد لصاحب الدار ان سيدي قد أعطاني دارك أو أعطاني ابنتك فيفتدي منه بالمال ولحقهم من العبيد فوق ما يوصف ومن شكى منهم عوقب وسجن والسلطان مقيم بباب الريح لم يدخل القصبة التي كان بها المولى المستضيء وولى في هذه المدة على فاس شيخ الركب الحاج عبد الخالق عديل وولى على قضائها الفقيه أبا يعقوب يوسف بن أبي عنان وتقدم اليه في أن يعزل القضاة والخطباء الذين خطبوا بالمولى المستضيء في سائر البلدان وأما الودايا فانه لم يقدم على المولى عبد الله منهم أحد ولا بايعوه وكذا الباشا أحمد بن علي

الريفي وأهل الريف والفحص وقبائل الجبل فاغتم المولى عبد الله لذلك ثم شفعت الحرة خناثى أم السلطان في قومها الودايا وبعثت اليه جماعة منهم فقبلهم وعفا عنهم

﴿ايقاع أبي العباس أحمد بن علي الريفي بقبائل الغرب وما تخلل ذلك﴾

وعلى اثر ما تقدم بلغ السلطان المولى عبد الله أن القائد أبا العباس أحمد بن علي الريفي قد أغار على أعمال القصر الكبير وانتهب أموالا كثيرة لاهل الغرب وشيعتهم ممن ليس على رأيه في الخروج عن طاعة السلطان فبعث المولى عبد الله جيشا كثيفا من عبيد مشرع الرملة ينزلون بالقصر الكبير لحراسته وحراسة أعماله فلما سمع بذلك الريفي فرق العطاء على جيشه وتهيأ للنهوض الى العبيد فوردت عليه شرذمة من الودايا وأخرى من عبيد مكناسة وأخبروه بان ذلك الجيش قد رجع لان ذلك الوقت لم تجتمع فيه كلمة لاحد لا من الرعية ولا من الجيش وكان السلطان المولى عبد الله قد وجه عامله القائد أبا العباس أحمد الكعيدي عاملا على عرب الحياينة وأهل جبل الزبيب لجباية الزكوات والاعشار فلما توسط بلاد الحياينة عدوا عليه فقتلوه ولما اتصل خبره بالسلطان المولى عبد الله اغتم لذلك غما شديدا لانه كان عماد دولته فانحل نظامها بموته وفسدت الطرقات وكثر النهب في كل موضع ثم ان السلطان أمر المسخرين الذين معه بنهب زروع أهل مكناسة فوقع من ذلك شر عظيم وذلك أوائل سنة أربع وخمسين ومائة وألف ثم وظف عليهم وظائف كثيرة من دفع المؤنة له ولاصحابه واعطاء العملة للبناء بباب الريح وغير ذلك فتشفعوا اليه مرارا فلم يقبل والله تعالى أعلم

﴿شغب العبيد على السلطان المولى عبد الله وفراره ثانية الى البربر﴾

لما كان شهر ربيع الاول من سنة أربع وخمسين ومائة وألف شغب العبيد على السلطان المولى عبد الله وهموا بخلعه والايقاع به فنذرت بذلك أمه الحرة خناثى بنت بكار ففرت من مكناسة الى فاس الجديد ومن الغد تبعها ابنها السلطان المولى عبد الله ونزل برأس الماء فخرج اليه الودايا وأهل فاس وأجلوا مقدمه واهتزوا له فاستعطفهم السلطان وقال لهم أنتم جيشي وعدتي ويميني وشمالي وأريد منكم أن تكونوا معي على كلمة واحدة وعاهدهم وعاهدوه ورجعوا وفي أثناء ذلك بلغه ان أحمد بن علي الريفي قد كاتب عبيد مشرع الرملة وكاتبوه واتفق معهم على خلع السلطان المولى عبد الله وبيعة أخيه المولى زين العابدين وكان يومئذ عنده بطنجة وانهم وافقوه فوجهوا لها السلطان المولى عبد الله ثم استعجل أمر المولى زين العابدين ففر المولى عبد الله الى بلاد البربر كما سيأتي ان شاء الله

﴿الخبر عن دولة أمير المؤمنين المولى زين العابدين بن اسمعيل رحمه الله﴾

كان ابتداء أمر السلطان المولى زين العابدين انه قدم مكناسة في أيام أخيه المولى المستضيء فلما سمع به أمر بسجنه قبل أن يجتمع به فسجن مدة ثم أمر يوما باخراجه وضربه فضرب وهو في قيده ضربا وجيعا أشرف منه على الموت كما مر ومع ذلك فلم ينطق بكلمة ثم رده الى السجن ثم أمر ببعثه مقيدا الى سجلماسة كي يسجن بها مع بعض الاشراف المسجونين هنالك فلما سمع بذلك قواد رؤسهم من العبيد بعثوا من رده من صفرو الى فاس ومن هنالك بعثوا به الى القائد أبي العباس أحمد الكعيدي ببني يازغة وأمروه أن يحتفظ به مكرما مبجلا ثم لما فر المولى المستضيء عن مكناسة وراجع العبيد طاعة السلطان المولى عبد الله دخل المولى زين العابدين مدينة فاس فاطمأن بها وسر بولاية المولى عبد الله وخلع المولى المستضيء ثم ذهب الى مكناسة فاقام بها مدة ثم سار الى طنجة فقدم على صاحبها الباشا أحمد بن علي الريفي فأكرم وفادته وأحسن مثواه واستمر مقيما عنده الى أن كاتب عبيد الديوان في شأنه ووافقوه في بيعته فبايعه الباشا أحمد وبايعه أهل طنجة وتطاوين والفحص والجبال وخطبوا به على منابرهم ثم هيأ له الباشا

أحد كتيبة من الخيل من عبيد الديوان وغيرهم وبعثهم معه الى مكناسة فدخلها فى ربيع سنة أربع وخمسين ومائة وألف وبويع بها البيعة العامة وقدمت عليه وفود القبائل والامصار فقابلهم بما يجب وتم أمره وفر السلطان المولى عبد الله من رأس الماء ودخل بلاد البربر ولم يقدم على المولى زين العابدين أحد من الودايا ولا من أهل فاس وكان فيه اناة وحلم لم يظهر منه عسف ولا امتدت يده الى مال أحد الا انه لقلة ذات يده نقص العبيد من رواتبهم فكان ذلك سبب انحرافهم عنه كما سيأتى

﴿بقية أخبار المولى زين العابدين وانقراض أمره﴾

لما استقر السلطان المولى زين العابدين بحضرة مكناسة وتم أمره أقام بها نحو الشهرين ثم تهيأ لغزو الودايا وأهل فاس الذين تخلفوا عن بيعته فنهض اليهم فى جيش العبيد منتصف جمادى الاولى سنة أربع وخمسين ومائة وألف ولما بات جيشهم بسيدى عميرة بقصد حصار فاس اختلفت كلمة العبيد ومن الغد قوضوا أبنيتهم وارتحلوا الى مكناسة وكفى الله الودايا وأهل فاس شرهم الا انهم حرقوا بيادر الزرع التى كانت للودايا بالخميس ولما وصلوا الى مكناسة نهبوا ثمار جناتها وأفسدوا ما قدروا عليه منها وانصرف جمهورهم الى مشرع الرملة والذين دخلوا مكناسة مع السلطان طالبوه فى الراتب وشددوا فى اقتضائه فلم يكن عنده ما يرضيهم به فشغبوا عليه وتمرضوا فى طاعته هذا والسلطان المولى عبد الله مقيم بجبال البربر مطل على الحضرة ومتحفز للوثبة فلما علم بما المولى زين العابدين فيه من الاضطراب نزل من الجبل وتقدم حتى دخل فاسا الجديد وذلك فى سادس عشر جمادى الآخرة من السنة فلقيه الودايا وأهل فاس واهتز والمقدمه وطار وابه سرورا ثم خرج من يومه الى دار الدبيبغ فاحتل بها ولما اتصل خبره بأخيه المولى زين العابدين ضاق ذرعه وخشعت نفسه وأصبح غاديا من مكناسة الى حيث يأمن على نفسه معرضا عن الملك وأسبابه فكان ذلك آخر العهد به الى ان توفى رحمه الله

﴿الخبر عن الدولة الثالثة لامير المؤمنين المولى عبد الله رحمه الله﴾

لما فر السلطان المولى زين العابدين عن مكناسة اجتمع العبيد واتفقوا على أن يراجعوا طاعة السلطان المولى عبد الله فبعثوا طائفة من قوادهم ووجوهها اليه فقدموا عليه منتصف رمضان من السنة المذكورة وهو بدار الدبيبغ فحيوه وأخبروه بان اخوانهم قد خلعوا المولى زين العابدين وبايعوه فسر المولى عبد الله بقدومهم وخرج الودايا الى العبيد فاختلطوا بهم وسروا بقدومهم وأجروا الخيل فى ميدان المسابقة واللعب بالبارود وزينت مدينة فاس وجددت البيعة العامة من الودايا وأهل فاس وقبائل العرب والبربر واستمر الحال على ذلك الى آخر ذى القعدة من السنة فكان ما نذكره

﴿مجىء المولى المستضىء من مراكش ومحاربته لاخيه المولى عبد الله وما يتبع ذلك﴾

لما اجتمعت كلمة العبيد والودايا وسائر أهل بلاد الغرب على طاعة السلطان المولى عبد الله أقام رحمه الله بدار الدبيبغ واستمر الحال على ذلك الى آخر ذى القعدة من سنة أربع وخمسين ومائة وألف فارتاب العبيد بمقامه هنالك ورفضه المقام بين أظهرهم بمكناسة التى هى دار الملك يومئذ فقلبوا له ظهر المجن على عادتهم واستدعوا المولى المستضىء من مراكش ليبايعوه واتصل خبرهم بالمولى عبد الله وانهم قد بعثوا الخيل الى المولى المستضىء لتأتى به فاخذ السلطان من ذلك المقعد المقيم وشمر عن ساعد الجد وأخذ فى تأليف قبائل العرب والبربر ووصل يد بعضهم ببعض ثم ألف بينهم وبين الودايا وأهل فاس وآخى بين الجميع فاعطوه صفقة أيمانهم بانهم يموتون دونه فتم له منهم ما أراده وفى أثناء ذلك قدم الحاج أحمد السوسى من مراكش ودخل فاسا فتحدث عنه بانه قد دس الى أهل فاس فى مراجعة طاعة المولى المستضىء والتمسك بدعوته ونمى ذلك الى السلطان المولى عبد الله فامر بقتله فقتل ﴿ثم دخلت سنة خمس

وخمسين ومائة وألف ﴿ففى المحرم منها زحف المولى المستضىء من مراكش الى بلاد الغرب ودخل مكناسة في جيش العبيد وبنى حسن وغيرهم وقدم فى ركابه الوزير أبو الحسن العميرى وأخوه القاضي أبو القاسم وفى آخر المحرم المذكور ورد كتاب من عند القائد أبي العباس أحمد الريفى الى أهل فاس يدعوهم الى بيعة مخدومه المولى المستضىء والدخول فى طاعته فصموا عن ذلك ونبذوه وفى ربيع الاول من السنة المذكورة زحف المولى المستضىء فى جيش العبيد الى فاس وعسكر بظهر الزاوية خارجها ففر السلطان المولى عبد الله من دار الدبيبغ الى آيت أدراسن ومن الغد هاجت الحرب بين العبيد وبين الوداية وأهل فاس والحياينة وشراقة وأولاد جامع وهلك فيها من الفريقين عدد كثير وفى رابع ربيع الثانى قدم السلطان المولى عبد الله يجر أمم البربر خلفه من زمور وبنى حكم وجروان وآيت ادراسن وآيت ومالو فى عدد لا يحصيهم الا خالقهم وفى شارة من اللباس وشكة من السلاح تسر الصديق وتسوء العدو ولما عاين المولى المستضىء وعبيده تلك الجموع وعلموا أنهم لا طاقة لهم بحربهم اتخذوا الليل جملا وأسروا الى مأمنهم ونجوا بانفسهم وأصبحت الديار منهم بلاقع فسر الناس بذلك وشكروا الله على انفضاض تلك الجموع بلا قتال وفى سادس جمادى الاولى من السنة توفيت أم السلطان الحرة خناثى بنت بكار المغفرية رحمها الله وكانت فقيهة أديبة ودفنت بقبور الاشراف من فاس الجديد وفى جمادى الثانية منها حدثت فتنة بفاس بين الحاج عبد الخالق عديل والشريف المولى أبي عبد الله محمد الغالى الادريسى فشكاه عديل الى السلطان فامر بالقبض عليه فعاذ الشريف بضريح جده رضى الله عنه فألزم السلطان أهل فاس اخراجه فضيقوا عليه الى أن طلب الامان فأمنوه وساقوه الى السلطان فوبخه ثم ضربه وسجنه ثم أمر أهل فاس بقتل أصحابه فقتلوهم

﴿هدية السلطان المولى عبد الله رحمه الله الى الحرم النبوى على مشرفه أفضل الصلاة والسلام﴾

﴿وفى هذه السنة﴾ أعنى سنة خمس وخمسين ومائة وألف سافر الركب المغربى الى الحرمين الشريفين فبعث معه أمير المؤمنين المولى عبد الله رحمه الله هدية نفيسة فيها ثلاثة وعشرون مصحفا بين كبير وصغير محلاة بالذهب مرصعة بالدر والياقوت ومن جملتها المصحف الكبير العقبانى الذى كان الملوك يتوارثونه بعد المصحف العثمانى الذى كان عند بنى أمية بالاندلس وانتقل الى هذه العدوة المغربية على يد عبد المؤمن ابن على حسبما الكلام عليه مستوفى وأما هذا المصحف العقبانى فهو مصحف عقبة بن نافع الفهرى الصحابى المشهور فاتح المغرب كان نسخه بالقيروان من المصحف العثمانى على ما قيل وبقى متداولا بين أهل المغرب الى ان وقع بيد الاشراف السعديين وأخذ فيه المنصور ومنهم العهد لولده الشيخ على اخوته كما مر ولما وصل الى هذا السلطان رحمه الله غربه من المغرب الى الحرم الشريف فعاد به الدر الى وطنه والابريز الى معدنه ﴿قال الشيخ أبو عبد الله المسناوى رحمه الله﴾ قد وقفت على هذا المصحف حين أمر السلطان المولى عبد الله رحمه الله باخراجه وبعثه الى الحجرة الشريفة فظهر لى أن تاريخ كتبه بالقيروان فيه نظر لبعد ما بينهما اهـ وبعث السلطان رحمه الله معه ألفين وسبعمائة حصاة من الياقوت المختلف الالوان للحجرة النبوية على الحال بها أفضل الصلاة وأزكى التحية وتقبل الله من السلطان عمله وأجزل ثوابه آمين

﴿مشايعة الباشا أبى العباس الريفى للمولى المستضىء على المولى عبد الله وزحفه الى فاس وما يتصل بذلك﴾

لما دخلت سنة ست وخمسين ومائة وألف أقبل الباشا أبو العباس أحمد بن على الريفى فى جموع الفحص والجبل والريف قاصدا فاسا وأعمالها حتى نزل بالعسال من مزارع فاس وذلك فى الثانى والعشرين من المحرم منها وراود أهل فاس على الانحراف عن طاعة مولاى عبد الله فأبوا وأقبل المولى المستضىء فى جموع العبيد وعليهم القائد فاتح بن النوينى حتى نزل قريبا منه فى الثانى والعشرين من صفر

ولما زحف هذان الجيشان الى فاس اضطربت نواحيها ودهش الناس من هول هذا الريفي لانه جاء في استعداد لم يعهد مثله وأرز الحياينة وشراقة وأولاد جامع الى أسوار فاس ونزلت حللهم داخلها وخارجها وبعثروا مزارعها وجناتها وانتهبوا مواشيها وهلك الكثير منها جوعا وهزالا وماجت الفتنة موج البحر وارتفعت الاسعار ولقي الناس كل شدة وفي كل صباح ومساء ترعد المدافع وتقرع الطبول بمحلتي المولى المستضيء والريفي فاستعد الناس للحرب وركب السلطان المولى عبد الله من دار الدبيبغ في نحو عشرة من الخيل وأسرع الى آيت أدراسن وهم بسهب عشار فدخل حلة عبد الله بن يشي منهم وقلب سرجه وسط جموعهم فالتف عليه من حضر منهم وقالوا اما الذي ناب مولانا فقال جئتكم لتنصروني على هذا الجبلي الذي كان خديمنا وعبدنا وأطغاه ما جمع من المال في خدمتنا ثم أراد أن يفضحنا وجرأه علينا أخونا المستضيء وأراد الاستيلاء على بلادنا وهي في الحقيقة بلادكم وما قصد الا اهانتكم وأنتم أحق من ينصر أهل البيت ولا يتحمل العار وعليكم السلام ثم ركب فرسه ورجع عوده على بدئه فلم يبت الا بدار الدبيبغ ومن الغد زحف أحمد الريفي الى بلاد الحياينة ظنا منه انهم لازالوا مقيمين بها فلم يجد بها أحدا رجع الى محله الذي كان به ومن الغد كانت حرب خفيفة بينه وبين الودايا ومن لا فهم من الحياينة وشراقة وأولاد جامع ثم من الغد ركب أحمد الريفي في رماته وتقدم حتى وقف على كدية تامزريت فوق القنطرة وعبرت جموعه لاروروات ثم عبر المولى المستضيء في جموع العبيد وخلفوا رماتهم ومدافعهم وأثقالهم بالمحلة وكتب المولى المستضيء كتائبه وصف جنوده بذلك البسيط وزحف الودايا وأهل فاس والحياينة وشراقة وأولاد جامع وجاءت البربر بجموعها فأشرفوا عليهم بالعين المقبوة الى دار ابن عمرو ولما وقعت عينهم على جموع المولى المستضيء ووزيره الريفي بذلك البسيط صاحوا بهم وشدوا عليهم شدة رجل واحد فكانت الهزيمة واستحر فيهم القتل والسلب وازدحموا على القنطرة وتساقطوا في الوادي فهلك الكثير منهم والبربر في أثرهم يقتلون ويسلبون وأما الريفي فانه لما رأى الهزيمة عليه لم يزد على ان ركب فرسه ونجا برأس طمرة ولجام على الحالة التي وصفها أبو الطيب اذ قال

لا يأمل النفس الاقصى فيدركه * فيسرق النفس الادنى ويغتنم

ولم يعرج هو ولا أحد من المنهزمة على المحلة حتى انتهى اليها البربر فتركوا اتباع المنهزمة واشتغلوا بنهبها فأتوا على ما فيها من الاخبية والكراع والاثاث الفاخر ولم يتركوا بها الا المدافع والمهاريس وآلتها من كور وبنب وبارود فان القائد أبا عزة صاحب الشربيل وقف على ذلك حتى حازه وعاد الناس وقد امتلأت أيديهم من الغنائم فلقيهم طوائف من البربر لم يكونوا قد شهدوا الوقعة فاستلبوا ما بايديهم ﴿قال صاحب البستان﴾ حدثني السلطان المرحوم سيدي محمد بن عبد الله عن هذه الوقعة وكان قد شهدها وهو في سن البلوغ قال بعثني والدي مع أخوالنا الودايا فلما هبت رياح النصر وانهزم العدو في ساعة واحدة وكنت يومئذ في خمسين فارسا بين ودايا وأصحاب تقدمنا الى المحلة فوقفنا على قبة الباشا أحمد وأحرزناها ثم أمرت الجارة فحملوا لنا من صناديق الريال على عشرين بغلة ومن الملف والكتان على ثلاثين جملا لعرب بداوة أصحاب الابل وحملوا الناقتين احداهما لاحمد الريفي والاخرى أظنها للمولى المستضيء وأما العرب والبربر والودايا وأهل فاس فقد أخذت كل طائفة بناحية تحمل ما قدرت عليه ثم لما انفصلنا عن المحلة قافلين لقيتنا كتائب من البربر الذين لم يحضروا الوقعة وبنفس ما خالطونا طاروا بما في أيدينا حتى لم ندر أين البغال ولا الابل وانفرد بكل بغلة وجمل جماعة من الخيل خمسون أوستون أو أكثر ولم يجتمع منا اثنان وعدنا كما جئنا وهكذا وقع لكل من انتهب شيأ من حزبنا الا من دخل مع البربر في حصتهم ولما فرغ الناس من النهب اشتغل عبيد السلطان بجمع الرؤس فكان عددها ما بين أبيض وأسود نحو التسعمائة فيها رأس الباشا فاتح بن النويني ثم بعث السلطان المولى عبد الله البغال

بلجزتلك المدافع والمهاريس وحمل الكور والبنب فسيق ذلك كله الى دار الدبيبغ ثم بعث بغالا أخرى لحمل البارود وكان ثلاثمائة برميل فى كل واحد قنطار من البارود الجيد فادخل ذلك كله لمخزن فاس قال السلطان المرحوم سيدى محمد بن عبد الله فى حديثه وكان هذا أول بعث بعثنى فيه والدى وأول حرب شهدتها وأنا يومئذ فى سن البلوغ وكان لى ولوع باللعب بالرمح والمطاعنة به الى أن مهرت فيه اه كلامه ولما اجتاز المنهزمة بجبل الزبيب اعترضهم أهله وقاتلوهم فقتلوا فى جملتهم سيدى محمد بن المستضىء يظنونه من أهل الريف ثم خلص الريفى وأصحابه الى طنجة بعد غصب الريق وكان أمر هذه الوقعة فتحا عظيما على أمير المؤمنين المولى عبد الله وشيعته ﴿قال فى نشر المثانى﴾ فراجع طائفة من العبيد طاعة مولاى عبد الله وجاءته قبائل المغرب بالهدايا من كل ناحية فتألفهم والان لهم القول وأمر العبيد بالمسير الى طنجة لحرب الريفى فساروا ثم رجعوا ولم يلقوا كيدا

﴿معاودة أحمد الريفى غزو فاس وما كان من أمره مع السلطان المولى عبد الله الى حين مقتله﴾

لما وصل أحمد الريفى الى طنجة أخذ فى اخلاف ما ضاع له ولقومه من خيل وسلاح وأخبية ونحوها وجدد لجيش العبيد من ذلك ما جدده لاهل الريف وأخذ فى الاستعداد لمعاودة غزو فاس وأقسم أن لا يأكل لحما ولا يشرب لبنا حتى يدخل فاسا وينهبها كما انتهبوا محلته وبعث الى سلطانه المولى المستضىء بمائتى فرس ومائتى خباء وألف مكحلة وخمسين ألف مثقال يفرقها على العبيد يتقوون بها وضرب له موعدا يجتمعون فيه على حرب السلطان المولى عبد الله وشيعته من الودايا وأهل فاس فكان أمر الريفى فيما أنفقه كما قال تعالى فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون ولما كان شهر جمادى الاولى من سنة ست وخمسين ومائة وألف خرج أحمد الريفى من طنجة قاصدا حضرة فاس فى أكمل شكة وأحسن استعداد ولما انتهى خبره الى السلطان المولى عبد الله لم يسعه التخلف عن لقائه فكتب الى عرب الحياينة وشراقة وأولاد جامع وكتب الى عرب الغرب من سفيان وبنى مالك وسائر شيعته يستنفرهم ويحضهم على نصرته وفرق الراتب على العبيد والودايا وزرارة وأخرج أهل فاس بعثهم الذى عينوه على العادة وكتب السلطان الى آيت أدراسن وجروان يخبرهم بعزمه على مصادمة الريفى وجمعه ويقول لهم ان أردتم المال والغنيمة فتأهبوا للنهوض الى طنجة فخف ناس منهم وقدم عليه منهم ألفان من الخيل وأكثر منهار ماة ثم خرج السلطان من فاس أواخر جمادى الاولى ونزل على وادى سبو وأقام به الى أن عرض عساكره ورتبها فجعل رماة عبيده ورماة أهل فاس رحى واحدة وعقد عليهم للقائد أبى عزة صاحب الشربيل وجعل الودايا وزرارة وأهل السوس خيلهم ورماتهم رحى واحدة وعقد عليهم لحاجبه القائد عبد الوهاب اليمورى وسار على هذه التعبية فلقيه شراقة وأولاد جامع وأولاد عيسى فجعلهم رحى واحدة وعقد عليهم للشيخ أبى العباس أحمد بن موسى الشرقى ولما عبر وادى ورغة لقيه أهل الغرب فى جموعهم ينتظرونه هنالك فباتوا معه تلك الليلة بعين قرواش ومن الغد جعل بنى مالك فى رحى وعقد عليهم لقائدهم أبى سلهام الحمادى وجعل سفيان فى رحى وعقد عليهم لقائدهم عبد الله السفيانى وسار على هذه التعبية فى ظل النصر والسعادة وأما المولى المستضىء فى العبيد وبنى حسن فانه لما بلغه نهوض السلطان المولى عبد الله من فاس خالفه الى مكناسة دار الملك فدخلها على حين غفلة من أهلها وعاث وانتهب وفعل فيها بنو حسن الافاعيل من سبى النساء والذرية وغير ذلك ثم تدارك أهل مكناسة أمرهم وتجمعوا لحرب عدوهم فقاتلوا بنى حسن فى وسط المدينة وردوهم على أعقابهم وقتلوا منهم ما لا يحصى ورجعوا منهزمين وأما أحمد الريفى فانه زحف الى القصر فى جموع لا تحصى من أهل الريف والفحص والجبل وأهل العرائش والقصر والخلط وطليق وبداوة وغيرهم وأقام ينتظر سلطانه المولى المستضىء وجمعه ولما أبطأوا عليه واتصل به خبر زحف السلطان المولى عبد الله اليه ارتحل من القصر عامدا نحوه فالتقى

الجمان عشية ذلك اليوم بدار العباس على وادى لكس ﴿وقال فى نشر المثانى﴾ كان اللقاء بالموضع المسمى بالمنزه من أحواز القصر فى رابع جمادى الآخرة سنة ست وخمسين ومائة وألف ولما رأى الجمان هم جيش السلطان المولى عبد الله بالنزول فقال السلطان رحمه الله لا نزول الا على الغنيمة أو الهزيمة ثم عبر اليهم فى جنوده وأعجلهم عن النزول وصمد اليهم فى كتيبة من أخواله وعبيده فخالط مقدمتهم ففضها وكان فيها أهل الفحص وبداوة وطليق والخلط ثم ظهرت كتيبة أهل الريف التى فيها قلب العسكر وحده وفيها الباشا أحمد بن على فحمل عليها السلطان حملة ثانية ألحقها بالمقدمة وتقوضت جموع الريفى من كل جانب وانهزموا اللحين ومروا على وجوههم لا يلوى حميم على حميم ومضى جيش السلطان فى أثرهم يقتلون ويسلبون الى أن جنهم الليل وقتل الريفى فى المعركة وبقيت الأبنية والاثقال بيد السلطان كما هى فنزل بها بدار العباس وعادت العساكر مساء بالغنائم وبرأس الباشا أحمد بن على الريفى عرفه بعضهم بين القتلى فازال رأسه وأتى به السلطان فسر به وبعث به الى فاس فعلق بباب المحروق وانقضى أمر أحمد الريفى وذهبت أيامه وكل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاكرام وقد خلف هذا الريفى آثارا كثيرة بطنجة وتطاوين وأعمالها من أبنية وغيرها تشهد بعلو همته رحمه الله

﴿زحف السلطان المولى عبد الله الى طنجة واستيلاؤه عليها﴾

لما فرغ السلطان المولى عبد الله رحمه الله من أمر الريفى أصبح غاديا يؤم طنجة ولما شارفها خرج اليه رجالها يحملون المصاحف على رؤسهم والصبيان يحملون الالواح بين أيديهم مستشفعين تائبين فعفا عنهم الا من كان من بطانة أحمد الريفى ودخل السلطان طنجة واستولى عليها وأمر بالاحتياط على دار الريفى ومتاعه ثم أمر الخوا جا عديلا فى جماعة من تجار فاس باحصاء ما بدار الريفى فدخلوها وتطوفوا اخزائنها واستخرجوا ما فيها من مال وسلاح وسروج وكسى وملف وكتان وفرش وخرثى وأثاث يفوق الحصر فأحصى ذلك كله وأحصى العبيد والاماء والخيل والبغال وجميع الماشية من ابل وبقر وغنم فجيء من ذلك بشئ كثير فأعطى الماشية كلها للبربر ثم أطلق يد الجيش على الاهراس فانتشلوا ما فيها من قمح وشعير فأتوا عليه ثم تتبع حاشية الريفى من عمال وكتاب وغيرهم ممن كان له به اتصال فاستصفى ما عندهم من المال والذخيرة الى ان استوفى غرضه وكان هذا الريفى قد رسخ مجده بطنجة وأعمالها وعظمت ثروته لامتداد الدولة له ولابيه بها منذ الفتح فكان ظفر السلطان المولى عبد الله بخزائنه من باب الظفر بالكنوز القارونية وقدمت عليه فى أثناء ذلك وفود القبائل التى هنالك فعفا عنهم وأمنهم وأقام رحمه الله بطنجة أربعين يوما وانقلب راجعا الى فاس مؤيدا منصورا وبالله التوفيق

﴿اعتراض المولى المستضىء السلطان المولى عبد الله وعود الكرة عليه ومقتل بنى حسن﴾

لما انهزم المولى المستضىء من مكناسة بعد ايقاعه باهلها خرج الى حلة بنى حسن وأقام بين أظهرهم فاتصل به خبر مقتل ناصره ووزيره على أمره أحمد الريفى ففت ذلك فى عضده وهد أركانه ثم لما بلغه فتح طنجة واستيلاء السلطان عليها استأنف جده وأرهف حده وأخذ فى تحريض العبيد وبنى حسن على تجديد البعث والنهوض لاعتراض أخيه السلطان المولى عبد الله مرجعه من طنجة فخرج كبير بنى حسن يومئذ وهو قاسم أبو عريف يطوف فى أحيائها ويستنفر جموعها وخرج المولى المستضىء فى ثلة من وجوه العبيد الى مشرع الرملة فجهز بها عشرة آلاف فارس من عبيده ووافاه قاسم أبو عريف بمثلها من بنى حسن فكان مجموع الجيشين عشرين ألفا سوى من انضاف اليهم ثم سار والاعتراض السلطان ولا علم له بهم وقدم المولى المستضىء أمامه الطلائع والعيون فعادوا اليه بخبر السلطان وانه بائت تلك الليلة بدار العباس فصبحه المولى المستضىء فى جموعه على حين غفلة منه فلم يرع السلطان المولى عبد الله

الانواصي الخيل مقبلة اليه فعبأ جيشه على عجل وأقام الرماة حوالى المحلة ثم صمد اليهم في الخيل وأنشب القتال فلم تكن الا ساعة حتى انهزم بنو حسن وولوا الادبار وكانوا ميمنة الجيش وثبت المولى المستضيء والعبيد في الميسرة فصمد اليه السلطان وصدقه القتال فهبت ريح النصر وتمت الهزيمة على المولى المستضيء وعبيده ومروا على وجوههم لا يلوون على شيء فجرد السلطان مع القائد أبي عزة صاحب الشربيل كتيبة من الخيل في آثرهم وتقدم اليهم أن لا يقتلوا أحدا من العبيد وانما يجردونهم لا غير فلم يقتل أحد من العبيد في هذه الوقعة واستحر القتل في بني حسن فهلك منهم ما ينيف على الالف وانتهب منهم أكثر من خمسة آلاف فرس ومن السلاح مثل ذلك وهذه الوقعة هي التي خضدت شوكة بني حسن وفلت من غربهم ونجا المولى المستضيء في فلهم وأقام بحلتهم ينتظر أن تدول له دولة لانهم كانوا شيعته كأهل دكالة وأهل مراكش وكان أخوه المولى الناصر خليفته على مراكش كامر وقفل السلطان المولى عبد الله الى فاس الجديد فاحتل بها وفرق المال على أخواله وعبيده وأسهم لاهل فاس وأقام بدار الدبيبغ الى أن دخلت سنة سبع وخمسين ومائة وألف فقدم عليه في شهر ربيع الثاني منها جماعة من قواد العبيد تائبين خاضعين متنصلين مما فرط منهم فعاتبهم وقال لهم لا كلام اليوم بيني وبينكم حتى أقطع دابر بني حسن ومن معهم من شيعة المستضيء ثم عفا عنهم وأعطاهم الراتب وأمرهم بالقدوم عليه الى مكناسة بقصد غزو بني حسن فعادوا الى مشرع الرملة عازمين على ذلك وأخذوا في الاستعداد أيضا ونهض من فاس في جيش العبيد والودايا وأهل فاس والحياينة وشراقة وأولاد جامع وعرب الغرب ولما انتهى الى مكناسة وافاه بها عبيد مشرع الرملة في وجوههم وأهل الحل والعقد منهم فجددوا التوبة واستأنفوا البيعة بحضر القضاة والعلماء وأعطوا صفقة الطاعة من عند آخرهم والله غالب على أمره

﴿نهوض السلطان المولى عبد الله الى بلاد الحوز وتدويخه اياها واجفال المولى المستضيء عنها﴾

كان المولى المستضيء في هذه المدة مقيما عند بني حسن كما قلنا ولما بايع العبيد السلطان المولى عبد الله واجتمعت كلمتهم عليه خرج في طلبه وطلب شيعته من بني حسن فسلك طريق الفج ليحول بين بني حسن والشعاب فصبحهم ببسيط زبيدة وهم غارون والمولى المستضيء بين أظهرهم فلم يرعهم الا الخيل تجوس خلال بيوتهم وتسوق أنعامهم وشاءهم وتنتهب أثاثهم ومتاعهم فانفضوا في كل وجه وتفرقوا شذر مذر وأفلت المولى المستضيء رحمه الله بجريعة الذقن وتوزعت العساكر السبي وجاء بنو حسن يهرعون الى السلطان طالبين عفوه فأمر بالكف عنهم ورد عليهم سبيهم وترك لهم خيلهم ومضى الى قبائل دكالة اذ اتصل به أن المولى المستضيء قد فر اليها فلما نزل قصبة أبي الاعوان ونزلت عساكره أمامه بذلك البسيط من دكالة فر أهلها مع المولى المستضيء الى التلول ونزلوا قرب دمنات وشرعت عساكر السلطان في انتشال الحبوب من الامراس واستخراج الدفائن من الحميل وتخريب القرى وتقطيع الاشجار وكلما فرغت من ناحية انتقلت الى غيرها متقلبة في ذلك البسيط نحو السنة والسلطان مقيم بالقصبة الى ان اكتسح أرض دكالة وتركها أنقى من الراحة ليس بها ما يأكله الطائر أو يتظلل الحائر ثم انتقل الى بلاد السراغنة ولما توسطها قدمت عليه وفودها ووفود سائر قبائل تلك الجبال بمؤناتهم وهداياهم فقبلهم وعفا عنهم ثم انتقل الى ناحية دمنات ففر أهل دكالة والمولى المستضيء أمامه الى جبال مسفيوة فتحصنوا بها وكانت مسفيوة قد بايعته ودخلت في دعوته فتقدم السلطان المولى عبد الله حتى نزل بوادي الزات فقدمت عليه هنالك عرب الرحامنة وزمران وسائر أهل الحوز وكانوا متمسكين بطاعته فنزلوا معه بالوادي المذكور وعاثت العساكر في بلاد مسفيوة وأوسعوها نهبا وتخريبا والحرب في ذلك كله قائمة مع المولى المستضيء على ساق الى ان صار وادي الزات أخرب من جوف حمار ثم انتقل السلطان الى وادي نكجي فعاثت فيه العساكر على عادتها وعجز أهل الدفاع فهدمت حصونهم وحرقت قراهم وقطعت

أشجارهم

أشجارهم وصار وادي كجي أوحش من وادي الزات فطلبوا الأمان وأعلنوا بالطاعة وجاؤا مستشفعين بصبيانهم فقال لهم السلطان على شرط أن تأتوا بالمستضيء فقالوا انه قد فر بالامس ولو كان عندنا لاتيناك به فقبلهم وعفا عنهم ثم جاء أهل دكالة بنسائهم وذراريهم وقالوا هذه نساؤنا وأولادنا لك وأما المال فقد ذهب وما عندنا ما نقتاته فافعل بنا ما بدا لك فعفا عنهم وأذن لهم في الرجوع الى بلادهم وكان ذلك أواخر سنة سبع وخمسين ومائة وألف ولما دخلت سنة ثمان وخمسين بعدها ارتحل عن بلاد مسفيوة ونزل بقصبة آلصم باشمام الصادزايا وبها قدم عليه وفد مراكش كما يأتي وأما المولى المستضيء فانه لما فر من مسفيوة قدم مراكش وحاول الدخول اليها فصده أهلها عنها ورفضوا دعوته وأعلنوا بنصر السلطان المولى عبد الله بمرءى منه ومسمع فلم يبق له حينئذ بمراكش مطمع وكان أخوه المولى الناصر قدمات يومئذ فاخرجوا اليه أثاثه فتسلمه منهم وكر راجعا الى بلاد الفحص فلم يزل تلفظه أرض الى أرض الى ان احتل بطنجة فانعامن الغيبة بسلامة المهجة وسيأتي تمام خبره بعد ان شاء الله

وفادة أهل مراكش على السلطان المولى عبد الله بآلصم واستخلافه ولده سيدي محمدا عليهم

لما طرد أهل مراكش المولى المستضيء عن بلادهم تآمروا فيما بينهم وأجمعوا الدخول في طاعة السلطان المولى عبد الله وعينوا جماعة من وجوههم وأوفدوها عليه وهو بقصبة آلصم فانتهوا اليه وقدموا بيعتهم وأخبروه بما كان من المولى المستضيء وما عاملوه به من الصد والابعاد فقبلهم وعفا عنهم بعد العتاب ثم طلبوا منه هم وقبائل الحوز أجمع أن يطأ بلادهم ويدخل مصرهم فوعدهم بذلك ولم يبرح من مكانه الى ان وفدت عليه قبائل الدير كله فلما تفقد الجيش الذي خرج به من مكناسة وجد أكثره قد فر ولم يبق معه من العسكر المخزني الا النصف وأما القبائل فلم يبق معه منهم الا أعيانهم في الاخبية لطول الغيبة وكثرة الحروب وقلة الزاد فلم يمكنه التقدم الى مراكش على تلك الحال واغتاظ فهم بان دفع لهم ولده المولى محمدا رحمه الله وقال لهم اني استخلفته عليكم فرضوا به وقرت أعينهم فكان ذلك أول ما انغرست شجرة الدولة العلوية بمراكش حتى صارت حضرتها ودار ملكها بعدان كانوا لا يبغون بمكناسة بدلا ثم بعث السلطان ولده المولى أحمد وكان أسن من المولى محمد خليفة عنه برباط الفتح وأضاف اليه قبائل الشاوية وبني حسن ثم أذن السلطان لعامل فاس عبد الخالق عديل في الرجوع الى فاس فمرض بالطريق ومات بعد ان دخل فاسا ودفن بزاوية سيدي عبد القادر الفاسي ثم رجع السلطان الى مكناسة على طريق تادلا بعد ان أقام ببلاد الحوز سنة كاملة فقدمها في شهر ربيع الثاني سنة ثمان وخمسين ومائة وألف ولما شارف مكناسة لم يدخلها ونزل بقصبة أبي فكران فقدم عليه بها جماعة من المجاهدين أهل الريف من طنجة فوق المائة ومعهم زوجة الباشا أحمد الريفي وولداها منه فقدمت هدية عظيمة فقبض السلطان الهدية وقتل الولدين ومن معهما من أهل الريف ثم قتل معهم ثلاثمائة من بني حسن كانوا قدموا عليه للتهنئة فكان ذلك سبب نفرة الناس عنه فساءت عنه الاحدوثة وكثرت القالة من الجيش والرعايا حتى في الاسواق وانقبض الناس عنه حتى أهل فاس فضلا عن غيرهم

مكر السلطان المولى عبد الله بأعيان البربر واخفار ذمة محمد واعزيز فيهم ثم اطلاقهم بعد ذلك

لما صدر من السلطان المولى عبد الله ما صدر من قتل أهل الريف وبني حسن وانقبض الناس عنه انقبض في جملتهم البربر فلم يأته منهم أحد وكانوا قد حوزوا بأحواز مكناسة فلما أدرك زرعهم أمر السلطان العبيد بانتهابه فعمدوا اليه وحصدوه ودرسوه وأكلوه فازدادت نية البربر فيه فسادا ولما رأى انقباضهم عنه كاتب كبيرهم محمدا واعزيز وكانت بينهما مخالة ومصافاة حتى كان يقول له أنت أبي اذ كان محمد واعزيز هذا هو الذي حشد له جموع البربر وشايعه على عدوه أحمد الريفي حتى قتله فكتب اليه يلومه على

انقباضه عنه وتخلف قبيله عن الحضور ببابه مع انهم شيعته ومواليه فلما ورد عليه كتاب السلطان لم يسعه التخلف عن اجابته واستشار في ذلك قومه فلم يوافقوه فراجعهم فقالوا ألا ترى الى ما وقع بمن وفد عليه من غيرنا فقال لا ترون الا الخير ولم يزل بهم حتى غلبهم على رأيهم وتفرقوا عنه لجمع الهدية وتعيين الوفد فجمعوا من ذلك ما قدروا عليه ثم أتوه فاعادوا عليه القول وحذروه الغدر فقال هذا لا يكون ولستم مثل أولئك فما وسعهم الا اجابته وأقبلوا معه حتى انتهوا الى قصبة أبي فكران حيث هو السلطان فاجتمعوا بالحاجب أبي محمد عبد الوهاب اليموري فلما رآهم بهت وتحركت منه الرحم البربرية لكنه لم يمكنه ردّهم بعد بلوغهم الى ذلك المحل وكانوا نحو المائة كلهم أعيان فترجلوا عن خيولهم ووضعوا أسلحتهم ثم دخلوا على السلطان المولى عبد الله فوجدوه جالسا على كرسيه بوسط القلعة فادّوا واجب التحية فاجابهم وأمرهم بالجلوس فجلسوا بين يديه ثم دخل الحرس والزبانية فوقفوا على رؤسهم وأحاطوا بهم وأخذ السلطان في معاتبتهم على ما يرتكبونه في الطرقات والغارات على المستضعفين من الاعراب وغيرهم وانتهاب بضائع التجار وما كانوا يعاملون به عساكر الملوك من النهب والسلب وعدد عليهم الحسائف القديمة والافعال الذميمة ثم أمر الحرس بالقبض عليهم فانقضوا عليهم انقضاض العقبان ولم يكن بأسرع من ان ألقوا بين يديه مقرنين في الحبال ولم يقبض على محمد واعزيز من بينهم فقال له يا مولانا أغدرا بعد أمان ولست من أهله فقال له ان هؤلاء القوم قد حادوا عن الدين وحل مالهم ودمهم لخروجهم عن الطاعة وشقهم عصا الجماعة وقد أعياني أمرهم وما عدت الى هذا الامر بعد خروجي منه الا من أجلهم أردت أن أقابل هذا التيس الاسود يعني العبيد بهذا الكبش الابيض يعني البربر وأستريح من غصة من هلك منهما وأتمسك بالآخر ولولا انك بمنزلة والدي ما أطلعتك على ما في ضميري فقم في حفظ الله ولا بأس عليك فقال محمد واعزيز والله لا أقوم ولا أكون الامع اخواني حيثما كانوا فان هلكوا اهلكت معهم ويكون لك غدرك وان سلموا اسلمت معهم ولا يتحدث الناس أني سقتهم الى الذبح ورجعت أنا سالما فبأي وجه أسير الى أولادهم وأي أرض تحميني من عشيرتهم والى أين أقصد فان كان لا بد من القتل فقتلك لي معهم أجمل بي ولا اثم عليك في ذلك ولا عار لاني أنا الذي سقتهم اليك وأرحتهم عليك بعد ان عرضوا علي هذا كله فلم أقبل منهم فلما سمع السلطان هذا الكلام العالي وتمكنت منه صولته الحقة جعل يتدبره ثم التفت الى الحاجب عبد الوهاب وقال يا عبد الوهاب لا خير في الرجل يقول للرجل أبه ثم لا يشفعه في جماعة من قبيله خلوا عنهم فسرّحوهم وخرجوا كأنما نشروا من القبور فركبوا خيلهم وساروا الى حلتهم ولسان حالهم ينشد ما قاله الاعرابي الذي بال بواسط فضربه الحجاج وسجنه ثم أطلقه

اذا نحن جاوزنا مدينة واسط * خرئنا وبلنا لا نخاف عقابا

زحف البربر الى السلطان المولى عبد الله بأبي فكران وفراره الى مكناسة

لما خلص جماعة البربر الى حلتهم أقبلوا على محمد واعزيز وعاتبوه على ما جاءهم عليه من الوفادة على السلطان والقرب منه حتى جرى عليهم ما جرى مع انهم كانوا في غنى عن ذلك كله وقالوا والله نحن متنا وبعثنا ولا بد لنا من الاخذ بالثار فقال شأنكم وما تريدون نخلصوا نجيا وتفاوضوا في شأنهم الى ان أجمع رأيهم على غزو السلطان لمضي ثلاث ومن تخلف عنها أحرقت خيمته فقال لهم محمد واعزيز اياكم والطرقات ثم افعلوا ما بدا لكم فتفرقوا لحللهم واستعدوا للحرب وأقبلوا في اليوم الرابع يجرون الشوك والمدر فلم يرع السلطان وهو بأبي فكران الا الرايات قد أطلت عليه من الحاجب والخيل تسيل بها الاودية والشعاب فلم يسعه الا ان حمل أثقاله وأركب عياله وجعلهم أمامه مع رحى من رماة المسخرين وأردفهم رحى أخرى من الخيل ثم تلاهم هو في موكبه وردفته رحى ثالثة من خيل العبيد جاءت من خلفه وانحدر في بطن الوادي وتفرق الجند عن يمين الوادي ويساره وسار السلطان على هذه التعبية وكلما دفعت خيل البربر

على المسخرين من الجند أطلقوا عليهم شؤبوبا من الرصاص فيسقط منهم الاربعون والخمسون واذا دفعت خيلهم على رحى الخيل فكذلك وعلى موكب السلطان فكذلك وهكذا الى أن دخل باب القزدير فاحتمل بمكناسة وهلك من العبيد في هذه الوقعة نحو الثلاثمائة ومن البربر على ما قيل نحو الخمسمائة وجمعوا قتلاهم فكفنوهم في أخبية العبيد اذ كانت بايديهم ولم يرجعوا بسوى ذلك وكانت هذه الوقعة أواسط سنة تسع وخمسين ومائة وألف ﴿واعلم﴾ انه قد وقع هنا لفظ الرحى ولفظ المسخرين وغير ذلك وهي ألقاب لطوائف من جيش هذه الدولة السعيدة فلابد من بيان الاصطلاح في ذلك تتميما للفائدة فنقول ان الجيش السلطاني اليوم بهذه الدولة الشريفة ينقسم أولا الى ثلاثة أقسام أصحاب ومسخرون وجيش فاما الاصحاب فهم طائفة من الجند تلازم السلطان حضرا وسفرا لا يفارقونه بحال وهم أرباب الوظائف المخزنية منهم الكتاب الذين هم الى نظر الوزير الاعظم ومنهم أرباب الفراش ومنهم القهارمة القائمون على طعام السلطان وشرابه ومنهم أرباب الوضوء وغير هؤلاء ممن يطول ذكرهم وكل طائفة برئيسها وأما المسخرون فهم ملازمون للسلطان حضرا وسفرا أيضا وشأنهم أن يكونوا فرسانا في الغالب وقد يكون فيهم الرماة وهم أهل الشوكة والغناء وهم الموجهون في المهمات لان عليهم المدار في الامور المخزنية كما يقتضيه تسميتهم بالمسخرين واذا ركب السلطان في سفر أو نحوه انقسموا قسمين فالعبيد منهم يكونون خلفه لانهم الموالي والودايا وشراقة يكونون أمامه وأما الجيش فهو أصل الجميع كما يقتضيه لفظه ومنه تنتخب الطوائف السابقة وهو عسكر السلطان الذي يحويه ديوانه الا ان معظمه يكون متفرقا في حلله وبلاده الا اذا أراد السلطان غزوا فيوجه على ما يحتاج اليه منه اما الجميع أو البعض ويكون ذلك مناوبة على ما هو معروف عندهم وأما الرحى فهي عبارة عن ألف من الجيش خيلا أو رماة وربما زادت أو نقصت بحسب ما يتفق والله أعلم

﴿شغب العبيد على السلطان المولى عبد الله وانتقاله الى فاس
وانتقال عبيد الديوان من مشرع الرملة الى مكناسة﴾

لما وصل العبيد الذين كانوا مع السلطان المولى عبد الله بابي فكران الى مكناسة واجتمعوا باخوانهم الذين كانوا هنالك تكلموا بما في أنفسهم على السلطان من الغيظ ونفثوا بما في صدورهم عليه من الاحنة وقالوا انه قد قال لحمدوا عزيز أردت أن أصدم هذا التيس الاسود بهذا الكبش الابيض ودارت بينهم هذه الكلمة وأخذت منهم كل مأخذ وقالوا لم يبق لنا شك في ان هذا الرجل لا غرض له الا في هلاكنا فانظروا لانفسكم أو دعوا ثم كتبوا الى عبيد الديوان يخبرونهم بما صدر من السلطان في جانبهم ويستشيرونهم في أمره فجاء بعض عيون السلطان من عبيد مكناسة اليه وأخبره بما دار بين العبيد وبما كتبوا به الى أهل الديوان فطير السلطان بالكتابة الى ودايا فاس الجديد يقول لهم ان كانت لكم حاجة بابن أختكم عبد الله فاقدموا عليه الساعة ثم أخذ في جمع أثاثه وتنضيده وحمل ماله وشده واسراج خيله وانهاض رجله وقال لخاصته غدا ان شاء الله نرجع الى أبي فكران فلما كان وقت العشاء وصل الى باب القزدير من جيش الودايا أربعمائة فارس فاخرج اليهم السلطان أثاثه وماله وعياله ثم ركب في خاصته وأسروا ليلتهم ولم يصبحوا الا بفاس الجديد فدخل السلطان داره وأمن على نفسه وأما عبيد الديوان فانه لما بلغهم كتاب اخوانهم الذين بمكناسة وقرؤه قالوا انه لا يجمل بنا المقام في وسط بني حسن لا تنفع اخواننا ولا ينفعوننا فأجمعوا الرحيل والانتقال الى مكناسة وبعد ثلاث انتقلوا اليها وأعمروا مشرع الرملة واستراحت تلك البلاد من عيثهم لاسيما سلا وأحوازها فانهم كانوا قد أشجوا أهلها ولاقوا منهم عرق القربة ولما وصلوا الى مكناسة نزلوا بالمدينة وبالقصبة وبالاصطبل وبترعة وبهدراش وبالرحاب المتسعة فملؤها واجتمعوا باخوانهم واطمأن جنبهم ولما كان عيد الفطر من سنة تسع وخمسين ومائة

وألف قدم على السلطان بفاس جماعة من قوادهم مع القاضي والفقهاء والاشراف من أهل مكناسة لحضر وامعه العبيد على العادة وطلبوا منه أن يرجع الى مكناسة وتنصلوا مما بلغه عنهم واعتذروا اليه فوعدهم الرجوع وأعطاهم مالا وانصرفوا الى منازلهم ولما كانوا بالجديدة قرب مكناسة اعترضهم البربر وجردوهم وأخذوا ما معهم ولم يتركوا الا القاضي أبا القاسم العميري على بغلته وأصبح الوفد على باب مكناسة عراة ينظر بعضهم الى بعض

﴿اجلاب محمد واعزيز على السلطان المولى عبد الله وانتقاض أهل فاس والقبائل عليه﴾

لما رجع البربر الى بلادهم من وقعة أبي فكران كتب كبيرهم محمد واعزيز الى أهل فاس يتظلم من السلطان المولى عبد الله ويخبرهم بما اتفق له معه من اخفار ذمته وعزمه على الفتك باخوانه ويدعوهم مع ذلك الى ان يكونوا معه يدا واحدة فاجابوه الى ذلك ودخلوا في حزب البربر ثم كتب واعزيز بمثل ذلك الى عرب الغرب من سفيان وبني مالك وكبيرهم يومئذ حبيب المالكي فقالوا نحن لكم تبع وحرب لمن حاربكم وسلم لمن سالمكم وانتقضت الفتوق على السلطان من كل جهة وهاجت الحرب بين الودايا وأهل فاس وبعد أيام ورد الخبر بان ركب الحاج قد وصل الى تازا وهو محصور بها فاستغاث أهل فاس بالبربر ليأتوهم باخوانهم فجردوا منهم خمسمائة من الخيل الى تازا فتروا في طريقهم بعرب الحياينة فانضموا اليهم ودخلوا في حزبهم وصاروا يدا جميعهم الى تازا فخلصوا الركب الذي بها وقدموا بهم الى فاس فدخلوا على باب الفتوح ونزل البربر والحياينة بالزيتون ودخل جماعة منهم المدينة لقضاء أغراضهم وفي أثناء ذلك أغار عليهم الودايا فغضوهم وقتلوا منهم كثيرا فامرهم السلطان أن يعلقوا رؤسهم على سور قصبة شراقة ففعلوا ثم بدا لاهل فاس في مراجعة طاعة السلطان فبعثوا اليه في ذلك فأجابهم بان يقدموا عليه فخرج اليه العلماء والاشراف والاعيان فلما مثلوا بين يديه عدد عليهم أفعالهم ووبخهم وشرط عليهم شروطا منها أن يعطوه زرع أهل الغرب المخزون عندهم وأن يهدموا دورهم ويبنوا بأنقاضها دار الدبيبغ ويختاروا احدى خصلتين اما ان يكونوا جيشا واما ان يكونوا نائبة فقالوا نجتمع على هذا الامر مع اخواننا ويقع الجواب ولما رجعوا من عنده أغلقوا أبواب مدينتهم وقالوا لا نقبل شيأ من ذلك كله وعادت الحرب جذعة وارتفعت الاسعار وعظمت الاخطار وفي سابع ذي الحجة من سنة تسع وخمسين ومائة وألف نهب عامة فاس قفاطين المخزن التي كانت بفندق النجارين على يد الامين الحاج الخياط عديل وأرادوا مصادرته على مال المخزن الذي عنده فافتدى منهم بثلاثة آلاف مثقال فاطلقوه بعد القبض عليه وكانت القفاطين ثلاثة آلاف قفطان فرقوها على رماتهم يعيدوا بها عيد الاضحى واستمرت الحرب بينهم وبين الودايا وسائر شيعة السلطان الى ان دخلت سنة ستين ومائة وألف وفي أوائل جمادى الاولى منها قدمت قبائل البربر وقبائل الغرب لمشايعة أهل فاس على حرب السلطان فنزل محمد واعزيز في بربره بجبل الطغات ونزل حبيب المالكي في أهل الغرب وطليق والخلط بدار الاضياف وانحجر الودايا بفاس الجديد والعبيد بقصبة شراقة والسلطان بدار الدبيبغ وضاق الخناق على السلطان وشيعته ومن الغد ركب حبيب في عربه وزحف الى السلطان بدار الدبيبغ والبربر على أثره ولما وصل الى حومتها بلغه ان البربر قد نهبوا محلته فرجع منهزما وعبر الوادي وتوجه الى بلاده . وأما البربر فانهم لما فرغوا من محلة أهل الغرب أجفلوا الى سايس ويقال ان السلطان دس بالليل الى محمد واعزيز بمال على ان يخذل عنه هذه الجموع ويفرقها ففرقها بنهب محلة أهل الغرب وبجبهة العسير بفدى حافر الفرس ولما انفضت هذه الجموع الى بلادها بقي أهل فاس في القتال والحصار سنتين وزيادة كما سيأتي وبعثوا في أثناء ذلك الى المولى المستضيء المقيم باحواز طنجة ليقدم عليهم فيبايعوه وتجتمع كلمتهم عليه فرد رسلهم بمخ العرقوب ووعد عرقوب

﴿ذكر السبب الذي هاج بعث السلطان المولى عبد الله الجيوش الى أهل الغرب ومراجعتهم طاعته﴾

﴿وفي سنة ستين ومائة وألف﴾ أثناء حرب الودايا لاهل فاس قدم جماعة من عرب بني حسن على السلطان المولى عبد الله شاكين اليه عرب الغرب وانهم لما انقلبوا راجعين بجموعهم الى بلادهم مروا بحلة بني حسن فأغاروا عليها وانتهبوها فحركوا من السلطان ما كان كامنا في صدره عليهم وبعث اليهم جيشا كثيفا من العبيد والودايا وأمرهم بالفتك باهل الغرب ونهب أموالهم وأن لا يبقوا لهم على سبد ولا لبد فخرج الجيش يؤم بلاد الغرب فنذروا به وانجفلوا أمامه عن بلادهم وتبعهم طليق والخلط فأرزوا الى مدينة العرائش وتحصنوا بسورها فاتبع الجيش آثارهم حتى نزل عليهم بها وحاصرهم ثلاثة أشهر هلكت فيها ماشيتهم جوعا وبعقب ذلك ورد عليهم جماعة من الودايا بامان السلطان ومصحفه وسبحته فعاهدوهم على ذلك وأفرج الجيش عنهم وخرج جوامع الودايا فقدموا على السلطان بهديتهم فعفا عنهم وولى عليهم كبيرهم حبيبا المالكي وأضاف اليه قبائل الجبل كلها وأما الجيش الذي كان على العرائش فانهم لما قفلوا باتوا بقصر كتامة فضيفهم أهله بما قدروا عليه من الطعام والعلف ومن الغد دخلوا القصر فاستباحوه ونهبوا وسبوا وقتلوا وفعلوا الافاعيل العظيمة واستمروا على ذلك ستة أيام وكان الحادث عظيما وعز ذلك على الناس كلهم وتأسفوا له وكان ذلك في محرم سنة احدى وستين ومائة وألف

﴿زحف البربر الى الودايا ومظاهرة أهل فاس لهم عليهم﴾

لما كان جمادى الثانية من سنة احدى وستين ومائة وألف عزم السلطان المولى عبد الله على غزو البربر فخرج من فاس الجديد حتى أتى أبا فكران فعسكر به ظنا منه ان العساكر ستقدم عليه هنالك كما هي العادة فلم يأته أحد فبعث الى العبيد يستنفرهم لغزو البربر فقالوا حتى يأتي الودايا والقبائل ونأتي نحن أيضا ولما رأى تثاقل الناس عنه عاد الى منزله وأعرض عما كان هم به ولما سمع البربر رجوعه عنه طمعوا فيه وأجمعوا غزوهم فقال لهم محمد واعزيز الرأى ان ننزل بسايس ونحول بينه وبين العبيد حتى لا يصل اليهم ولا يصلوا اليه فاقبلوا حتى نزلوا ببسيط سايس ثم تقدمت جموعهم حتى شارفوا مزارع فاس الجديد فأغاروا على الودايا ونهبوا ماشيتهم وزروعهم وضيقوا عليهم ثم وصلوا أيديهم باهل فاس فدخلوا مدينتهم وتسوقوا بها فباعوا واشتروا عشرة أيام وانقلبوا الى أهلهم فاكهين وفي أول رجب من السنة المذكورة ورد الخبر بان أهل الريف قد قبضوا على المولى المستضيء المقيم ببلادهم ونهبوا خيله وأثاثه وماله وثقفوه حتى يدفعوه لاخيه المولى عبد الله لانه كان قد اشتغل بظلم الناس بالفحص وطنجة وقبض على القائد عبد الكريم بن علي الريفي وهو أخو أحمد بن علي المتقدم الذكر فاخذ ماله وسمل عينيه وأما أهل تطاوين فلم يبايعوه ولا عرجوا عليه وفي شعبان أحرق الودايا باب المحروق ليلا لافتطن لهم الحرس ودافعوهم عن الباب ومن الغد ركبوا به أبوابا جددا

﴿مراجعة أهل فاس طاعة السلطان المولى عبد الله وانعقاد الصلح بينهم وبين الودايا﴾

لما طال الحصار على أهل فاس وأضرت بهم معاداة جيرانهم من الودايا وسئموا الحرب راجعوا بصائرهم وجنحوا للسلم وطاعة السلطان فاتفق ان كان عندهم رجل من أشراف تافيلالت فارسلوه الى السلطان واسطة بينهم وبينه وبعثوا معه كتابا بالاعتذار والتوبة فقبل السلطان ذلك وسر به ووقع منه الموقع وكتب اليهم ينفي ظنونهم ويسل سخائمهم ويقسم لهم انه لم يأمر بحربهم ولا اضرارهم قط وانما فعل ذلك الودايا من قبل أنفسهم فلما وصل اليهم كتاب السلطان بذلك طابت نفوسهم وفرحوا وعينوا جماعة من فقهائهم وأشرافهم وأهل الخير منهم فاوفدوها على السلطان بمكناسة في شوال من السنة المذكورة ففرح بهم وأكرمهم وصرح لهم بالعفو والرضا عنهم فاغتبطوا بذلك وانقلبوا الى أهلهم فرحين

مستبشرين ثم كان الصلح بينهم و بين الودايا بضريح المولى ادريس رضى الله عنه وفتحت أبواب المدينة بعد الحصار ستين وثلاثة أشهر وكان ذلك فى ذى القعدة من سنة احدى وستين ومائة وألف ولما حضر العبيد قدموا على السلطان وهو بمكناسة بالخبر وعادوا به خوفا من البربر

﴿خروج العبيد على السلطان المولى عبد الله و بيعتهم لولده سيدى محمد والسبب فى ذلك﴾

لما راجع أهل فاس طاعة السلطان المولى عبد الله واصطلحوا مع الودايا وهدأت الفتنة ساء البربر ذلك وكرهوه وبلغهم مع ذلك ان السلطان قد استنفر العبيد لغزوهم فاحتالوا فى تفريق الكلمة على السلطان بان أخذوا فى شن الغارات على العبيد بمكناسة والتضييق عليهم واختطاف أولادهم من البحائر والجنات فراسل العبيد البربر فى المسالمة والصلح فقالوا لهم ان السلطان أمرنا بهذا فلما سمع العبيد ذلك منهم لم يشكوا فى صدقهم بسبب ما كانوا أسلفوه من التقاعد عن السلطان والتثاقل عن النهوض معه لغزو البربر حتى عاد الى منزله بعد المعسكرة بابى فكران كما مر ثم اتفق رأى العبيد على الفتك بالسلطان واغتياله ونمى اليه ذلك عنهم فخرج فارا من مكناسة الى دار الدبيبغ فاستقر بها وكان ذلك فى صفر سنة اثنتين وستين ومائة وألف ولما ضاق العبيد ذرعا بفعل البربر كاتبوهم فى الصلح فاجابوهم اليه على شرط أن يبايعوا سيدى محمد بن عبد الله فبايعوه بمكناسة و بعثوا اليه ببيعتهم وهو بمراكش مع جماعة من أعيانهم وخطبوا به بمكناسة وزرهون والسلطان بدار الدبيبغ لا يملك من أمره شيأ ولما قدم وفد العبيد على سيدى محمد بن عبد الله رد بيعتهم وعاتبهم على ما ارتكبوه فى حق والده وتألفهم بشئ من المال وأعرض عن الخوض فى أمر البيعة اذ كان رحمه الله بارا بوالده ساعيا فى مرضاته و بعث اليه فى صفر من هذه السنة بهدية قدرها على ما قيل ثلاثون ألف مثقال فرجع وفد العبيد من عند سيدى محمد وقد أيسوا من اجابته اياهم ومع ذلك استمروا على الخطبة بمكناسة وزرهون ثم ان السلطان المولى عبد الله رحمه الله لما رأى ان القلوب قد نفرت عنه وان العبيد والبربر قد امتدت عيونهم الى ولده سيدى محمد وتعلقت آمالهم به تلافى أمره وأخذ فى استصلاح الرعية وتألفها فامر فى شعبان من السنة المذكورة بان ينادى باسواق فاس على العبيد الذين بها من لم يحضر الى دار الدبيبغ لوقت كذا فلا يلومن الا نفسه فحضر العبيد الذين بفاس كلهم فاعطاهم خمسة دنانير لكل واحد وقال لهم ابعثوا الى اخوانكم الذين بمكناسة فمن أتى منهم الى قبض مثل ما قبضتم فكتبوا اليهم فلم يزدهم ذلك الا نفورا و بعثوا الى البربر الذين بسايس يقولون لهم كل من صادفتموه منا متوجها الى فاس فاقتلوه وأعلنوا بخلع السلطان ثم استدعى السلطان بعد ذلك محمد واعزيز كبير البربر و وعده ومناه فقدم عليه فى اخوانه فى رمضان فاعطاهم عشرة آلاف دينار وحضر العبيد فقدموا عليه أيضا فأعطاهم عشرة آلاف أخرى وأعطى الودايا عشرة آلاف أيضا وأعطى أهل فاس مثل ذلك ولج العبيد فى نفورهم وركبوا رأسهم فى جماحهم عن السلطان والقرب منه

﴿مجىء سيدى محمد بن عبد الله من مراكش الى مكناسة وتوسطه للعبيد فى الصلح مع والده رحمهما الله﴾

ثم دخلت سنة ثلاث وستين ومائة وألف ففى أواخر جمادى الاولى منها قدم المولى محمد ابن السلطان المولى عبد الله من مراكش الى مكناسة فوجد العبيد لا زالوا يخطبون به فعاتبهم على ذلك وقال لهم انى برىء منكم ومن فعلكم هذا وانما أنا خديم والدى فتركوا الخطبة وراجعوا ابصائرهم وجددوا البيعة للسلطان وتلافوا أمرهم فى طاعته وكانت هذه هى البيعة السابعة للعبيد مع السلطان المولى عبد الله لانهم خلعوه قبلها ست مرات حسبما مر الخبر عن ذلك مستوفى ولما تم لسيدى محمد مع العبيد ما أراد من مراجعتهم طاعة والده ارتحل من مكناسة فى جيشه الذى قدم به من الحوز وكان نحو أربعة آلاف واستصحب معه جماعة من أعيان العبيد وقدم على والده بدار الدبيبغ فخرج الودايا وأهل فاس للاقاته

وفرحوا بقدمه ولما دخل على والده أدّى التحية وأهدى اليه هدية نفيسة وشفع للعبيد عنده فشفعه فيهم وقال له لا تبت هنا فقال نعم يا سيدي ولم يبت الا برأس الماء وأصبح غاديا الى مراكش ثم حضر العبيد فقدم على السلطان جماعة من جروان وبني مطير فأعطاهم عشرين ألف مثقال وقدم عليه قوّاد العبيد من مكناسة فلم يعطهم شيأ وفي هذه السنة توفي المولى أحمد ابن السلطان المولى عبد الله بفاس ودفن بقبور الاشراف رحمه الله

﴿انحراف العبيد ثانية عن السلطان المولى عبد الله والتجاؤهم الى ابنه سيدي محمد بمراكش والسبب في ذلك﴾

لما أعطى السلطان المولى عبد الله بني مطير وجروان عشرين ألف مثقال وحرم العبيد قامت قيامتهم وقلبوا للسلطان ظهر المجن واتفقوا على الذهاب الى ابنه سيدي محمد بمراكش فقدموا عليه في ذي القعدة سنة أربع وستين ومائة وألف وقالوا له اما أن تكون سلطاننا واما أن نبايع عمك المولى المستضيء وشكوا اليه اهمال والده جانبهم وقالوا له انه أعطى البربر أعداء الدولة وحرمنا فرضخ لهم بشيء من المال طيب به نفوسهم وكتب لهم كتابا الى والده يستعطفه لهم وانقلبوا من عنده مسرورين وأما السلطان المولى عبد الله فانه لما سمع بذهاب عبيد مكناسة الى مراكش أعطى الودايا عشرة آلاف ريال وأعطى العبيد الذين معه ثلاثة آلاف ريال ولما قدم عبيد مكناسة على السلطان بكتاب ابنه سامحهم وأعطاهم عشرين ألف ريال وتم الصلح بينهم وبينه وعادوا الى مكناسة مغتبطين وفي هذه السنة بعث سيدي محمد من مراكش بهدية الى والده مع جماعة من أصحابه فأثنى عليه خيرا ودعا له به وفيها ورد الخبر بان أهل تطاوين قتلوا عاملهم أبا عبد الله الحاج محمد تميم ثم قدم جماعة منهم على السلطان معتذرين من قتله فقال لهم أنتم وليتموه عليكم وأنتم قتلتموه فاختاروا الآن لأنفسكم فوقع اختيارهم على أبي عبد الله الحاج محمد بن عمر الوقاش فولاه عليهم وانصرفوا الى بلدهم ﴿ثم دخلت سنة خمس وستين ومائة وألف﴾ فيها قدم أهل تطاوين على السلطان المولى عبد الله لحضور عيد المولد الكريم وبيدهم هدية مقدارها ثلاثون ألف مثقال وقدم بصحبتهم باشدور الاصبنيول ومعه مائة ألف ريال وما يناسبها من الحرير والملف والكتان وغير ذلك بقصد فكاك أسرى جنسه فقبض السلطان المال وقال للباشدور حتى تأتوا بأسرى المسلمين وأعطى العبيد من ذلك المال ريالين لكل واحد وأعطى نساءهم مثل ذلك وكانوا ألفين ومائتين ﴿ثم دخلت سنة ست وستين ومائة وألف﴾ فيها قدم عبيد مكناسة على السلطان لحضور العيد فأعطاهم عشرة آلاف ريال وفيها نهض أهل فاس لشراء الخيل والعدة والاكثار منها وفيها انعقدت الشروط بين السلطان وبين جنس الاصطادوس وهم سبع قبائل من الفلامنك وهي اثنان وعشرون شرطا مرجعها الى عقد الامان والصلح بين الايالتين وان يجعل جنس الاصطادوس قنصلا أو أكثر بالبلد الذي يختاره من بلادنا ويكون يعطي خط يده المسمى بالباصبورط لمن يسافر من مراكبنا الى جهة بلادهم وكذلك هم أيضا الى غير ذلك وفي هذه السنة أو ما يقرب منها أغار نصارى الجديدة على آزمور واقتحموا ضريح الشيخ أبي شعيب ليلا وقتلوا به عددا كثيرا من أهل آزمور نحو الخمسين وكانت الليلة ليلة جمعة وعادة أهل آزمور أن يبيتوا ليلة الجمعة بضريح الشيخ المذكور فنمي ذلك الى النصارى الذين بالجديدة فجاؤا مستعدين حتى اقتحموا عليهم على حين غفلة وأطفأوا المصابيح ووقع القتل حتى كان المسلمون يقتل بعضهم بعضا ورجع النصارى عودهم على بدئهم ﴿وذكره لويز ماريه﴾ مؤرخ الجديدة فقال ما ملخصه وفي ليلة الثاني عشر من نونبر سنة اثنتين وخمسين وسبع عشرة مائة مسيحية خرج عشرة من برتقال الجديدة وقصدوا آزمور حتى دخلوا ضريح الشيخ أبي شعيب ليلا وقتلوا هنالك أربعين من المسلمين وقامت الهيعة بالبلد وتسابقوا اليهم على الصعب والذلول فرجع النصارى من حينهم وأدركهم

المسلمون بالطريق فجرحوا بعضهم ونجوا بعد مشقة فادحة هكذا زعم لويزوان النصارى كانوا عشرة فقط وأهل آزمور يزعمون انهم كانوا أكثر من ذلك بكثير والله أعلم ﴿ثم دخلت سنة سبع وستين ومائة وألف﴾ فلم يكن فيها حادث في الدولة ﴿ثم دخلت سنة ثمان وستين بعدها﴾ فيها توفي محمد واعزيز كبير آيت ادراسن ووازعها الذي كانت تقف عند اشارته وتجرى أمورها على مقتضى ادارته .

﴿فتنة آيت ادراسن وجروان وحلف جروان مع الوداياو السبب في ذلك﴾

لما مات محمد واعزيز لم يبق بآيت ادراسن من يقوم فيها مقامه فهاجت الفتنة بينهم وبين جروان فزحفوا الى كروان وأوقعوا بهم فانهزمت كروان أمامهم ولجؤا الى دار الدبيبغ معتصمين بها ومستجيرين بالسلطان الذي بها وضاق بهم رحب الفضاء وعدموا المرعى فشرعوا في بيع مواشيهم فبلغت البقرة بسوق فاس خمس أواق والشاة أوقية فأمر السلطان المولى عبد الله الوداياً بنصرتهم وآخى بينهم وبينهم وعقد لهم حلفا مؤكدا معهم فقاموا الجايتهم والدفاع عنهم وأنشبوا القتال فكانت الهزيمة على آيت ادراسن ففرت خيلهم ومقاتلتهم وانكسرت حلتهم وقتلوا في كل وجه ومن سلم منهم لجأ الى بلاد شراقة فاستجار بها فكان عدد من قتل منهم بتلك الوقعة نحو الخمسمائة وهذا سبب حلف الودايا مع جروان ﴿ثم دخلت سنة تسع وستين ومائة وألف﴾ فيها قدم على السلطان المولى عبد الله عبيد مكناسة ورغبوا اليه في الذهاب معهم اليها الذي دار ملكه وملك أبيه من قبله فقال لهم كيف أذهب معكم وفي وسطكم فلان وفلان لجماعة سماهم منهم كانوا منحرفين عنه فرجع العبيد الى منزلهم ولما جن الليل طرقوا أولئك المسمين وأمثالهم في رحالهم فقتلوهم ارضاء للسلطان وتطييبا لنفسه وكان منهم القائد محمد السلاوى والقائد سليمان بن العسرى والقائد زعبول وغيرهم ولما بلغ السلطان ذلك بعث اليهم باربعين ألف مثقال راتبا وصرفهم الى مكناسة وقال لهم اذا فرغت من عملي أتيتكم وفي هذه السنة أيضا قدم عليه القائد أبو عبد الله محمد الوقاش في أهل تطاوين بهدية فيها ألف ريال وباسارى وسلع من سلع النصارى غنمتها قراصينهم فأكرمه السلطان وأعطاه جاريتين وانقلب الى أهله مسرورا وفيها قدم على السلطان أخوه المولى أبو الحسن المخلوع بدار الدبيبغ فاعطاه مالا وأثاثا قيمته عشرة آلاف مثقال وخيره بين تافيلالت ومكناسة فاختار مكناسة فاعطاه مستفاد مكسها وجنات المخزن التي بها وأرض الحراثة فقدم المولى أبو الحسن مكناسة واستوطنها واغتبط بها ولما جاء وقت ابان الحرث وحرث وثب عليه العبيد فقبضوا عليه وقيدوه وبعثوا به الى السلطان مقيدا وقالوا له ان هذا قد أفسد علينا بلادنا فخل بيننا وبينه فسرحه وبعث به الى سجلماسة وفي هذه السنة أيضا نهب البربر جميع ماشية الودايا وأفسدوا زروعهم ويحائرهم ﴿ثم دخلت سنة سبعين ومائة وألف﴾ فيها كانت بين آيت ادراسن وكروان حرب قطيعة أعان فيها الودايا كروان فهزموا آيت ادراسن ببسيط النخيلة من سايس والله أعلم

﴿وفاة أمير المؤمنين المولى عبد الله بن اسمعيل رحمه الله﴾

كانت وفاة أمير المؤمنين المولى عبد الله بن اسمعيل رحمه الله بدار الدبيبغ يوم الخميس في السابع والعشرين من صفر الخير سنة احدى وسبعين ومائة وألف ودفن بقبور الاشراف من فاس الجديد حيث دفن ولده المولى أحمد رحمهما الله ﴿قال صاحب البستان﴾ كان أمير المؤمنين المولى عبد الله فيه شدة وبطش وبسببهما نفرت قلوب الجند والرعية عنه وبقي مهملا بدار الدبيبغ سنين لا يأتيه أحد وبيعته في أعناق الناس وهم فارون منه لكثرة ماسفك من الدماء بغير سبب ظاهر واستمرت حالته على ذلك مدة من اثنتى عشرة سنة من سنة تسع وخمسين الى سنة احدى وسبعين ومائة وألف رحمه الله وغفر لنا وله ولسائر المسلمين ومما مدح به هذا السلطان قول بعضهم

عليك سلام ياضياء العوالم * ويابهجة الاشراف من آل هاشم
ويامن سما عضبا على كل جاهل * وأصبح مسرورا به كل عالم
وأصبح ظل الله فى الارض ناظرا * الى كل مسكين بمقلة راحم
ويامن كساه الله منه مهابة * تذل لها رغما أنوف الاعاجم
ويامن له حزم وعزم وسطوة * تفتت ارهابا قلوب الضراغم
كفاك افتخارا ان عزك ظاهر * وجودك منسى به جود حاتم
وكون سجاياك التى فاح عرفها * سجايا الملوك الشم أهل المكارم
لعمرى لقد ألقت اليك زمامها * ضروب العلا اذ كنت أحزم حازم
فقمت على الملك المشيد ركنه * تذود لديه بالقنا والصوارم
وأغناك رب الناس عن جمع عسكر * برأى مصيب للعساكر هازم
ونفس علت فوق السما كين همة * وعقل غنى عن هداية عالم
فجئت وسيل الغرب قد بلغ الزبى * وأسواقه معمورة بالجرائم
ونار الشرور فى الفجاج تأججت * فطاب لاهل البغى هتك المحارم
فدوختهم من بعد ما استنسرت به * بغاث وقد طالت رعاة البهائم
فأمنتنا من كل طار وطارق * وحصنتنا من كل داه وداهم

﴿انعطاف الى سياقة الخبر عن آخر أمر المولى المستضىء رحمه الله﴾

قد تقدم لنا أن السلطان المولى عبد الله خرج سنة سبع وخمسين ومائة وألف فى طلب أخيه المولى المستضىء وانه دوخ بلاد الحوز لاجله وشرده عن جبال مسفيوة ولجأ الى مراكش فطرده أهلها ولما لم يجد بالحوز مستقرا رجع ادراجه يقترى البلاد والقرى ويصل حرارة التهجير ببرك السرى فاجتاز ببلاد دكالة ثم بتامسنا ثم ببنى حسن فزهدوا فيه فتقدم الى طنجة وأعمالها فاستقر بالفحص منها وطاب له المقام به وعسف اناسا فى تلك المدة الى ان عدا على القائد عبد الكريم الريفى فسجنه وسمله وأخذ ماله كما مر فوثب عليه أهل الريف وقبضوا عليه ونهبوا خيله ومضاربه وأثاثه وسلبوا أصحابه وامتحنوه وأوثقوه حتى يبعثوا به الى أخيه المولى عبد الله ثم بدا لهم فسرحوه ولما خلص من المحنة كتب الى أخيه المولى عبد الله وهو بفاس يعتذر اليه عما سلف منه ويطلب منه محلا يستقر به فاجابه السلطان المولى عبد الله بانك لم تأت الى ذنبا ولم ترتكب فى حقى عيبا انما كنت تطلب ملك أبيك كما كنت أطلب ملك أبى والآن فان أردت الخمول مثلى فاقم بآصيلا واسكن بها فهى أحسن من دار الدبيغ التى أنا بها وأرح نفسك كما أرحتها وان كنت انما تطلب الملك فشأنك واياه فانى لا أنازعك فيه والسلام فلما وصل اليه كتاب السلطان انتقل الى آصيلا واستوطنها واعتنى بها وأصلح ما يحتاج الى الاصلاح منها وأصلح دار الخضر غيلان التى بقصبتها وسكنها سنة أربع وستين ومائة وألف واجتمع عليه بعض أهل الطمع والشره ممن كان هنالك فدلوه على وسق الزرع للكفار وتوسطوا له فى الكلام مع بعض تجار النصارى الذين بطنجة وتعاقدوا معه على وسقه فانتقل ذلك التاجر الى آصيلا ولما قدم عليه مركبه وسق الزرع وأدى صاكته أى واجبه فظهر للمولى المستضىء الربح فى ذلك فشرهت نفسه ورغب فى شراء الزرع وبيعه ممن يأتيه من التجار وتسامع النصارى بان الزرع يوسق من مرسى آصيلا فلم تمض الا أيام قلائل حتى قدمت مراكبهم من كل وجه وعمرت المرسى وقصد الاعراب البلد بالقمح والشعير من كل فج والمولى المستضىء يشترى منهم ويبيع للنصارى والمراكب تسق ما قدرت عليه فكان يحصل له الربح فى ذلك مضاعفا ربح الثمن وربح الصاكة فحسنت حاله وأثرى وكثر تابعوه وأخذ فى شراء العدة من تطاوين وتسلح

أصحابه وتفرق جمعهم واتصل خبره بالسلطان المولى عبد الله فندم على اذنه له في المقام هنالك وكتب الى القائد أبي محمد عبد الله السفياني يأمره بالزحف الى المولى المستضيء وحصاره بآصيلا حتى ينفيه عنها وكتب الى ولده سيدي محمد بمراكش يأمره أن يبعث اليه من يخرجه منها ويكون معه القائد عبد الله السفياني في خمسمائة من الخيل فبعث اليه سيدي محمد رفيقه وابن عمه المولى ادريس بن المنتصر في مائة فارس وأمره أن يستصحب معه في طريقه عبد الله السفياني في خمسمائة من الخيل كما رسم له والده ويضيقوا على المولى المستضيء بآصيلا حتى يخرجوه منها فمضى المولى ادريس والسفياني حتى نزلا عليه وحاصراه فخرج اليهما وراود ابن أخيه المولى ادريس على الافراج عنه وتركه وشأنه واعتذر اليه بان السلطان أذن له في سكنى آصيلا وأعطاه مستفاد مرساها ينتفع به فلم يقبل المولى ادريس منه ولم يزل به حتى أخرجه واستولى على ما وجد بداره من مال وأثاث وسلاح وبارود وغير ذلك فساقه الى عمه السلطان المولى عبد الله وأما المولى المستضيء فانه لما خرج من آصيلا سار الى فاس فنزل بضريح الشيخ أبي بكر ابن العربي رضي الله عنه وقدم ولده الى السلطان المولى عبد الله يشكو له ما فعل به ولده سيدي محمد من تجهيز العساكر اليه ونفيه عن آصيلا فكان من جواب السلطان ان قال له قل لابيك ذلك لا سبيل لي عليه هو أعظم شوكة مني ومنك فسر الى بلاد أبيك وجدك وأرح نفسك من التعب والموت قريب مني ومنك فلما بلغه كلام السلطان لم يسعه الا التوجه الى مدينة صفرو وبعد ان ترك عياله بدار الشريف المولى التهامي بالجوطيين من فاس ونزل هو بدار الامارة من صفرو ولما قدم المولى ادريس بن المنتصر على السلطان عال المولى المستضيء وأثاثه قبض السلطان البارود والسلاح ورد الباقي وأرسل الى عامل فاس يأمره أن يكتب الى المولى المستضيء ليبعث وكيلا يحوز اليه متاعه فكتب اليه فبعث من حاز ماله وأثاثه ودفعه الى عياله بدار المولى التهامي وكان المولى المستضيء لما اطمأنت به الدار بصفرو ابعث الى أعيان آيت يوسي على ما قيل فقدموا عليه فندبهم الى نصرته والقيام بدعوته فتخاذلوا عنه وقالوا له سر الى آيت ادراسن وكروان فان أجابوك فنحن معهم ولما لم يتم له أمر بصفرو ابعث من حمل اليه عياله وأثاثه من فاس وذهب الى سجلماسة فاستوطنها وذلك سنة ست وستين ومائة وألف وأعرض عن الملك وأسبابه واستمر مقيما بها الى ان توفي سنة ثلاث وسبعين ومائة وألف رحمه الله وغفر له

﴿الانعطاف الى سياقة الخبر عن هؤلاء العبيد الذين جمعهم السلطان المولى اسمعيل من لدن وفاته الى دولة السلطان سيدي محمد بن عبد الله﴾

قد تقدم لنا ان السلطان المولى اسمعيل كان قد اعتنى بجمع العبيد وترتيبهم وتهذيبهم الى ان بلغ عددهم مائة وخمسين ألفا وبلغوا في أيامه من العز والرفاهية وتشييد الدور والقصور وارتباط الجياد وانتخاب السلاح واقتناء الاموال وحسن الشارة والزي ما لم يبلغه غيرهم وكان بالمحلة من مشرع الرملة منهم سبعون ألفا ما بين خيل ورماة وكان عدد البكشارية منهم وهم أصحاب الباشا مساهل خمسة وعشرين ألفا كلهم رماة الا القواد منهم فانهم كانوا أصحاب خيل وكان بمانوت ووجه عروس منهم خمسة آلاف يدعون قوادرؤسهم كلهم أصحاب خيل وباقي العدد وهو خمسون ألفا كانوا متفرقين في قلاع المغرب لعمارتها وحراسة الطريق وحماية الثغور وكانوا في غاية من الكفاية والسعة لان كل قبيلة من قبائل المغرب كانت تدفع أعشارها في قلعتها المبنية بها لمؤنة جيشها وعلف خيلها واستمر ذلك الى ان توفي السلطان المولى اسمعيل رحمه الله فانقطع بوفاته عن جيش القلاع المدد الذي كان به قوامهم ولما ولي بنوه من بعده واتصلت الفتن بينهم أهملوا أمر هؤلاء العبيد ولم يلتفتوا اليهم فضعفت مادتهم وتلاشى أمرهم وانتشروا في القبائل التي كانوا مجاورين لها للتكسب على أنفسهم وأولادهم ولما أعروا تلك القلاع التي كانوا مقيمين بها امتدت اليها أيدي القبائل من العرب والبربر بالنهب والتخريب واقتلعوا أبوابها

وخشبها ومارق منها وتركوها خاوية على عروشها لم يبق بها الا الجدرات قائمة وهكذا كان مآل محلة مشرع الرملة فانه لما ارتحل العبيد عنها الى مكناسة أيام السلطان المولى عبد الله خلفهم بنو حسن فيها بالنهب والتخريب وكل من عثروا عليه متأخرا بها نهبوه واستلبوا ما معه وأخذوا كل ما تركوه مما ثقل عليهم حتى يرجعوا اليه اذ كان العبيد يظنون انهم سيرجعون الى مشرع الرملة ثم تجاوزت بنو حسن ذلك الى تخريب الدور والقصور وحملوا أبوابها وخشبها الى سلا فكانت تباع بها بالبخس فقد كان بهذه المحلة دور وقصور ليست بالحواضر وكان كل قائد منهم يفتخر على نظيره ببناء أعظم من بنائه وتشييد فوق تشييده وتنميق أحسن من تنميقه وتزويق أبدع من تزويقه فأتى بنو حسن على ذلك كله وانتسفوه وطمسوا أعلامه فى أسرع من لحس الكلب أنفه ولم يتركوا الا الجدرات قائمة الى ان خربوها بعد ذلك شيأ فشيأ بل صاروا يبعثرون الارض على الدفائن التى بها فعثروا من ذلك على شئ كثير ثم ان العبيد الذين رحلوا الى مكناسة لم يصل منهم اليها الا الدون النصف اذ تفرقوا فى القبائل وقت رحيلهم فكل من كان أصله من قبيلة قصدها وكل من كان له مدشر عاد اليه ثم الذين وصلوا الى مكناسة لم يستقر بهم قرار لقلة ذات اليد وغلاء الاسعار وكان الوقت وقت مجاعات وفتن فلم يبق بها الا القواد أهل اليسار وأهل الحرف الذين يتعيشون بحرفهم ومع ذلك فقد ضاقت بهم السكنى بها من أجل غلبة البربر الذين كانوا يغيرون عليهم ويختطفون أولادهم من البحائر والجنات المرة بعد المرة فتسلل جلهم للمعاش بالقرى والقبائل ونسوا أمر الجندية والتمرس بالقنا والقنابل وتفرق منهم ذلك الجمهور ولله عاقبة الامور ولما وقعت الزلزلة بمكناسة سنة تسع وستين ومائة وألف حسبما نذكره فى الاحداث هلك من العبيد بحسب نحو خمسة آلاف وهكذا لم يزل الوقت فى تلاش واضمحلال وتناثر واختلال الى ان كانت دولة السلطان الاعظم المولى محمد بن عبد الله رحمه الله فأدرك منهم صبابة يسيرة وعصابة حقيرة فاعتنى بهم وجمعهم من القبائل بعد الانتشار وأحيا رسمهم بعد الاندثار وأظهرهم بعد الخمول وأركبهم المسومة من الخيول ورفع لهم الاعلام والبنود وصيرهم من أعز الجنود وهو الذى جدد هذه الدولة الاسماعيلية بعد تلاشيها وأحياها بعد خمود جمرتها وتغزيق حواشيها بحسن سيرته ويمن نقيبته رحمه الله تعالى ورضى عنه وهنا انتهى بنا الكلام على السادة الاشراف أولاد المولى اسمعيل رحم الله الجميع بمنه ﴿قال اكنسوس﴾ والحق الذى لاشك فيه أن كل من قام منهم بعد بيعة السلطان المولى عبد الله فانما هو ثائر عليه لا امامة له وانما يكون خبره مسوقا من جملة أخبار دولة المولى عبد الله ﴿قلت﴾ ومثله يقال فى السلطان المولى أحمد بن اسمعيل فهو الامام المعتبر والمولى عبد الملك خارج عليه وقد علم من مذهب الاشعرية ان طرو الفسق لا يعزل الامام والله تعالى أعلم وأحكم

﴿انعطاف الى سياقة الخبر عن خلافة سيدى محمد بن عبد الله بمراكش من مبتدئها الى منتهاها﴾

قد تقدم لنا أن السلطان المولى عبد الله كان قد خرج سنة سبع وخمسين وألف فى طلب أخيه المولى المستضىء الى أن شرده عن بلاد مسفيوة وانه قدم عليه هنالك أهل مراكش ورغبوا اليه أن يدخل حضرتهم ولم يساعده الوقت فلما عزم على القفول الى بلاد الغرب بعث ولده الاكبر المولى أحمد الى رباط الفتح نائبا عنه بها وأضاف اليه قبائل الشاوية وبنى حسن وما بينهما وبعث ولده الاصغر سيدى محمد امير أهل مراكش نائبا عنه فيها فكان ذلك أول انغراس شجرة الملك العلوى بمراكش واتخاذها كرسيا لهم ولما وصل سيدى محمد رحمه الله الى مراكش نزل بقصبتها وهى يومئذ خراب ليس بها الا آثار السعديين والموحدين قبلهم قد أخنى عليها الدهر وعشش بها الصدا والبوم فضرب بها مضاربه ثم شرع رحمه الله فى حفر أساس داره بالفضاء البعيد عن القصور الخربة بها من داخل السور ولما رأى عرب الرحامنة ذلك اتفقوا على منعه لانهم كانوا قد ألفوا العيث فى أطراف مراكش فأحبوا أن لا تكون بها دولة

تكبصهم عن ذلك فاجتمع طائفة من غوغائهم وتقدموا الى الخليفة سيدى محمد وجبهوه بالمنع وأخرجوه
عن القصبة بعد ان شرع فى العمل فانتقل سيدى محمد رحمه الله عن مراكش الى آسفى وأما المولى أحمد
صاحب العدوتين فانه قدم رباط الفتح ونزل بالقصبة منها وانضاف اليه عبيد القصبة واستمر خليفة بها الى
ان سمع أهل العدوتين ما عامل به الرحامنة خليفة مراكش فجرى هؤلاء على سننهم واتفقوا على طرد المولى
أحمد بن عبد الله عن بلادهم فتقدموا اليه بالحرب وحاصروه بالقصبة ومعه عبيد فلان الذين كانوا فيها
ادالة من عهد السلطان المولى اسمعيل وقطعوا الميرة والماء الى أن مسهم الجهد وعضهم الحصار فطلبوا
الامان أن يخرجوا بانفسهم فأمنوهم وخرج المولى أحمد فسار الى أخيه سيدى محمد بآسفى فنزل عليه ثم
كان آخر أمره أن توفى بفاس كما مر سنة أربع وستين ومائة وألف ولما خرج المولى أحمد الى آسفى عمد
أهل رباط الفتح الى عبيد القصبة فانزلوهم منها وفرقوهم بالمدينة حتى لا تبقى لهم شوكة ولا عصبية هذا
ما كان من خلافة المولى أحمد وأما خلافة سيدى محمد فانه لما خرج من مراكش قاصدا الى آسفى
اعترضته قبائل عبدة وأحمر وضيفوه ببلادهم وأهدوا اليه وتسابقوا على الخيل ولعبوا بالبارود سرورا
بقدمه وتنويها بشأنه وصحبوه الى آسفى فدخلها ونزل بقصبتها ففرح أهل آسفى بقدمه واغتبطوا به
وكان مبارك الناصية أينما توجه ولما اطمأنت به الدار رفع اليه أهل آسفى هداياهم وتبعهم على ذلك
تجار النصارى واليهود وتبار وافى ذلك وتنافسوا فيه وعمر سوقه عرب عبدة برجالاتهم وأعيانهم وبذلوا له
أولادهم لخدمته وأوصلوه بكل ما قدروا عليه وسرح للتجار وسق السلع بالمرسى فاهرعت اليها
المراكب من بر النصارى بانواع سلعها وقصدها التجار بالبضائع من كل جهة يبيعون بها ويشترون وكثرت
الخيرات ونمت البركات فاستركب واستلحق وعلا أمره وطار صيته فى البلاد الحوزية ودخل الشياظمة
وحاحة فى طاعته وتباروا فى خدمته فلم تمض عليه ستة أشهر حتى كان يركب فى نحو الالف فلما سمع
الرحامنة ما صار اليه أمر عبدة وأحمر واقتبالهم من تشرفهم بولائه وتقدمهم فى خدمته نفسوا ذلك
عليهم وراجعوا بصائرهم فاجتمع طائفة من أعيانهم وقدموا عليه آسفى وقدموا بين يديهم هدية
استرضوه بها ولما دخلوا عليه اعتذروا اليه مما فرط منهم ونسبوا ذلك الى السفهاء وانهم لم يأمروا بشئ
من ذلك ولا رضوه وأقسموا الله أن لا يبرحوا من بابه حتى يسير معهم الى مراكش ولو أقاموا هنالك سنة
وأسعفهم وسار معهم وصحبه من أعيان عبدة نحو ألف فارس وكان فى موكبه من أصحابه وحاشيته نحو
الخمسمائة كلهم بالخيول المسومة والشارة الحسنة والشكة التامة ولما انتهى الى مراكش نزل
بالقصبة وجاءه أهل مراكش بهداياهم وكذا قبائل الحوز ثم تلاهم قبائل الدير كله بهداياهم أيضا وجاء
الرحامنة باولادهم للخدمة السلطانية منافسة لعبدة وأحمر فى ذلك وقفاهم فى ذلك سائر أهل الحوز
وقدم عليه عبيد دكالة الذين كانوا ابسلا فاجتمعوا اليه وحسنت منزلتهم عنده ولما سمع بذلك عبيد مكناسة
تسللوا اليه فرادى وأزواجا فاستعملهم فى خدمة البناء فبنوا بيوتهم وأصلحوا شؤنهم واجتهد هذا الخليفة
فى بناء داره الكبرى بقصبة مراكش الى ان أكملها وسكنها ثم شرع فى بناء ما تلاشى من أسوار القصبة
وركب أبوابها وأفردها عن المدينة ثم غرس بستانا عظيما متصلا بداره الكبرى على جهة الغرب سماه
النيل وأسس قصرا آخر متصلا بغربى هذا البستان سماه القصر الاخضر وسمى أيضا المنصور وجعل
لهذا البستان أربعة أبواب فى زواياه الاربع كذا قيل والموجود اليوم ثلاثة أبواب فقط وجعل له بابين
آخرين أحدهما للدار الكبرى شرقا والآخر للقصر الاخضر غربا وجعل فى وسط هذا البستان قبة
منتخبة يتصل بها من جهاتها الاربع مماشى تفضى الى قباب أخر منتخبة أيضا وطول هذا البستان
ينيف على مائتى خطوة تقريبا وعرضه قريب من ذلك وهذا القدر هو مساحة ما بين القصرين أعنى الدار
الكبرى والقصر الاخضر ثم أصلح هذا الخليفة جامع المنصور الذى بالقصبة اذ كان متهدما يومئذ ثم

اسس

أسس مسجدا آخر للخطبة بجوار قصره وهو المعروف اليوم بمسجد بريعة وهو مسجد حافل بديع وبنى مدرستين لطلبة العلم بالقصبة المذكورة وبنى حماما بريعة وعمر مساجد غير ذلك للاحرار والعبيد وفرق الاموال على من انحاش اليه منهم لعمارة مساكنهم وبناء دورهم بعد ان كانت من الطين والقصب وكتب الكتائب وجند الاجناد فاجتمع لديه من العبيد ألف وخمسمائة كلهم فارس شاكي السلاح ومن عبده وأحمر مثل ذلك ومن الرحامنة وأهل الحوز ألف فارس كذلك ولما خرج العبيد بمكناسة على والده وقدموا عليه بمراكش مبايعين له عاتبهم وقدم مكناسة وأصلح بينهم وبين والده كما مر ﴿ولما كانت سنة تسع وستين ومائة وألف﴾ غزا بلاد السوس ودوخها ومهد أقطارها وجبى أموالها وقرر الحامية بتارودانت منها ثم سار الى آكادير فقبض على الطالب صالح الثائر به والمستبد عال مرساه فسجنه واستصفى أمواله التي استفادها من المرسى ورتب الحامية في آكادير أيضا ثم ان الطالب صالحا المذكور ذبح نفسه في السجن وأفضى الى ماقدم بعد ان ترك في القطر السوسي صيتا وذكرا وهو الذي يوجد طابعه على السلاح السوسي من مكحلة وسكين وخنجر الى الآن وهو سلاح منتخب عندهم وقفل الخليفة سيدي محمد رحمه الله الى مراكش مؤيدا منصورا فمكث فيها أياما يسيرة ثم خرج غازيا بلاد الشاوية في السنة نفسها لما ظهر منهم من الفساد وقطع الطرقات ونهب المارة فقتل من أعيانهم عددا وبعث الباقي في السلاسل الى مراكش ثم تقدم الى أرض سلا فبات برباط الفتح وخرج اليه أهلها بالمؤن والهدايا واستبشروا بمقدمه وأما أهل سلا فلم يخرج اليه منهم أحد بل أغلق صاحبها عبد الحق بن عبد العزيز فنيش أبوابها في وجهه فاعرض عنه سيدي محمد رحمه الله وتنكب المرور بسلا وعبر مشرع الجاز أسفل من العدوتين وسار الى قصر كتامة من بلاد الهبط فقدم عليه به عبيد مكناسة مع كبيرهم الباشا الزياني وفي ذلك اليوم قتل العبيد باشاهم المذكور وقتلوا معه القائد يوسف السلاح لانهما كانا يمنعانهم من القدوم عليه الى مراكش فولى عليهم القائد سعيد بن العياشي ومن الغدارتحل الى تطاوين فتلقاه أهلها مع قائدهم محمد بن عمر الوقاش فقبض عليه وتهدده ثم أطلقه ثم مضى الى جهة سبتة حتى أشرف عليها ثم سار منها الى طنجة ثم كر راجعا فمر بالعرائش ثم بسلا فلم يحفل به عبد الحق أيضا فطوى له سيدي محمد رحمه الله على البت ثم سار الى مراكش فاستقر بها مؤيدا منصورا الى أن وافته الخلافة الكبرى بها بعد وفاة والده رحمه الله

﴿الخبر عن دولة أمير المؤمنين سيدي محمد بن عبد الله رحمه الله﴾

لما توفي أمير المؤمنين المولى عبد الله بن اسمعيل في التاريخ المتقدم أعني السابع والعشرين من صفر الخير سنة احدى وسبعين ومائة وألف كان الناس قد سئموا الهرج والفتن وأعياهم التفاقم والاضطراب وملوا الحرب وملتهم اذ كانت أيامه لاسيما أخرياتها كأيام الفترة التي ليس فيها سلطان وكانت حال الرعية معه مثل الفوضى الذين لا وازع لهم فكان ذلك من أقوى الاسباب التي صرفت وجوه أهل المغرب كله الى بيعة السلطان سيدي محمد رحمه الله وجمعت كلمتهم عليه لاسيما مع ما كان قد ظهر منه أيام خلافته من حسن السياسة وكمال النجدة وجودة الرأي وتمام المعرفة بادارة الامور على وجهها واجرائها على مقتضى صوابها حتى أحبته القلوب وعلقت به الآمال وعرفت له من بين بني أبيه تلك الشنشنة وتظافرت على ولائه ونصره القلوب والالسنة فلما قضى الله بوفاة والده بادر أهل فاس الى عقد البيعة له من غير توقف ولا تربث ﴿قال ولده الفقيه أبو محمد المولى عبد السلام بن محمد بن عبد الله في كتابه المسمى بدرة السلوك﴾ بويع لمولانا الوالد السلطان الاعظم سيدي محمد بن عبد الله البيعة العامة الصحيحة التامة وحضرها جماعة من أعيان العلماء مثل قاضي الجماعة بمكناسة السيد سعيد العميري وقاضي الجماعة بفاس السيد عبد القادر أبي خريص وشيخ الجماعة بها السيد محمد بن قاسم جسوس والامام المحقق حامل لواء المعقول

والمنقول الشيخ أبى حفص عمر الفاسى وابن عمه السيد أبى مدين الفاسى وهو الذى تولى كتابة البيعة بيده وامام جامع الشرفاء بفاس الاستاذ المولى عبد الرحمن المنجرة والشيخ العلامة السيد التاودى بن سودة المرى وامام المسجد الكبير بفاس الجديد السيد عبد الله السوسى والامام الحافظ السيد أبى العلاء ادريس العراقى وغيرهم ممن لا يحصى كثرة وقوله فى قاضى مكناسة السيد سعيد العميرى صوابه ابنه أبو القاسم العميرى ووصل الخبر بموت السلطان المولى عبد الله الى ابنه سيدى محمد وهو بمراكش فأقام مأتمه وازدحم على بيعته أهل مراكش وقبائل الحوز والدير وقدمت عليه وفود السوس وحاحة بهداياهم ثم قدم عليه العبيد والودايا وأهل فاس من العلماء والأشراف وسائر الاعيان وقبائل العرب والبربر والجبال وأهل الثغور كل ببيعته وهديته لم يتخلف عنه أحد من أهل المغرب فجلس للوفود الى ان فرغ من شأنهم وأجازهم وزاد العبيد بان أعطاهم خيلا كثيرة وسلاحا كثيرا عرفوا بها محلهم من الدولة وانقلبوا مسرورين مغتبطين

﴿مجىء السلطان سيدى محمد بن عبد الله عقب البيعة من مراكش الى فاس وما اتفق له فى ذلك﴾

لما فرغ أمير المؤمنين المولى محمد رحمه الله من أمر الوفود أخذ فى الاستعداد للنهوض الى الغرب فخرج من مراكش فى عسكر الحوز ووجوهه حتى انتهى الى مكناسة فدخل دار الملك بها وفرق على العبيد الخيل والسلاح والمال وكانوا على غاية من سوء الحال والاستكانة لغلبة البربر اذ كانوا يختطفون أولادهم من الحائر والجنات ويبيعونهم فى قبائلهم كما قلنا فجبر الله صدعهم بولاية هذا السلطان الجليل ثم لما قضى أربه من مكناسة ارتحل الى فاس ولما نزل فى عساكره بالصفصافة خرج لملاقاته الودايا وأهل فاس فهش للناس وألان جانبه لهم واختلط بهم فكانوا يطوفون به ويقبلون أطرافه ولا يمنعهم أحد وفرق المال والكسوة والسلاح فى الودايا وعبيد الساوقية وأعطى الفقهاء والاشراف وطلبة العلم وأهل المدارس والمكتبيين والائمة والمؤذنين والفقراء والمساكين وأزاح علل الجميع ولم يحرم أحدا ولما حضرت الجمعة جاء من المحلة فى ترتيب حسن وزى عجيب فخرج أهل البلدين لرؤيته وامتلأت الارض من العساكر والنظارة ودخل فاسا الجديد فصلى به الجمعة ثم جلس لفقهاء الوقت وسأل عنهم واحدا واحدا حتى عرفهم ثم خرج الى تربة والده فزارها وأمر بتفريق الصدقات عندها وترتيب القراء بها ثم دخل الى دار الحرم فوقف على من بها من أخواته وعزاهن فى مصاب والدهن وطيب نفوسهن ثم رجع عشية النهار الى المحلة فبات بها ومن الغد جاء الى دار الدبيبغ فدخلها ووقف على مخلف والده من مال وأثاث وسلاح وخيل الى ان عاينه وأحصاه وأبقى ذلك بيد من كان بيده من أصحاب والده وأوصاهم بالاحتفاظ به بعد ان جعل الجميع الى نظر الحاجب أبى محمد عبد الوهاب اليموري وعامل أصحاب أبيه بالجميل وخفض لهم الجناح وألان لهم القول ووصلهم بمال اقتسموه فيما بينهم ثم بعد ذلك حاز منهم ما كان بأيديهم من مال والده فكان أكثره ذهبا من ذلك ألف خرج وتسميه المغاربة السماط من الجلد الفيلالى باقفالها فى كل واحد ألف دينار بالتثنية من ضربه وكانت تكون على سروج خيله فى السفر فاذا نزل الجيش وضربت الاخبية رفعها الموكلون بها كل واحد باسمه وعينه الى القبة السلطانية وعند الرحيل كذلك تدفع لهم بالاحصاء والتقييد ومن ذلك مائة رحى من الذهب الخالص كقرص الشمع فى كل رحى وزن أربعة آلاف ريال وكانت تكون محمولة على البغال فى أعدالها مغطاة بالقطائف المسماة عند المغاربة بالحنابل مشدودا عليها بالحبال أربع أرحاء فى كل عدلين فالمجموع خمس وعشرون بغلة تسير أمامه فاذا نزل الجيش رفعت الى القبة السلطانية كالذى قبلها وكان السلطان المولى عبد الله رحمه الله يرى ذلك من الحزم حيث يحمل ماله معه أينما سار لا يفارقه ومما وجده سيدى محمد من مال والده أيضا ثلاثمائة ألف ريال الاخمسة عشر ألفا ووجد نحو العشرين ألفا من الموزونات الدقيقة من ضرب سكته هذا ما خلفه

رحمه الله من المال الصامت وكان يكون على يد القائد علال بن مسعود من وصفانه فحاز ذلك كله أمير المؤمنين سيدى محمد ونقله الى محلته ووكل به وزعته وتقدّم الى أصحابه بان يعاملوا أصحاب أبيه بالتوقير والاحترام ونظمهم فى سلك خدمته فن ظهرت نجابته أدناه ومن لاعبرة به أقصاه ثم وفد عليه بفاس عامّة قبائل الغرب وازدلفوا اليه بالهدايا والتحف فاكرم كلا بما يناسبه وكان فى ابتداء أمره سهل الحجاب رفيقا لم يعزل أحدا من قوّاد القبائل وعمال الحواضر الذين كانوا فى دولة أبيه فى حكم الاستبداد بل أبقى ما كان على ما كان ولم ينكب أحدا الا بعد الاستبراء والاختبار غير أن أهل تطاوين كان قائدهم أبو عبد الله محمد بن عمر الوقاش منحرفا عنه أيام خلافته بمراكش فكان اذا كتب اليه بامر نبذه وراء ظهره وربما قال للرسول المرأة لاتتزوج برجلين أو كلاما يشبه هذا يعنى انه مجبور لطاعة السلطان المولى عبد الله فلما بويع السلطان سيدى محمد وقدم حضرة فاس انقبض عنه الوقاش المذكور وعاذ بضريح الشيخ عبد السلام بن مشيش بعياله وولده خوفا على نفسه من السلطان لسوء ماقدّم ثم قدم عليه أهل تطاوين طائعين متنصلين من فعل عاملهم المذكور ومخبرين بشأنه فولى السلطان عليهم الفقيه أبا محمد عبد الكريم بن زاكور وأحد كتابه كان بعثه من مراكش الى العرائش والياعليها فلما وفد عليه أهل تطاوين ولاه عليهم لكونه حضريا مثلهم وأقام السلطان سيدى محمد رحمه الله بفاس شهرين وعاد الى مكناسة والله أعلم

﴿احداث المكس بفاس وبسائر أمصار المغرب وماقيل فى ذلك﴾

لما بويع السلطان سيدى محمد بن عبد الله رحمه الله وقدم حضرة فاس رفع اليه أهلها ما كانوا يؤدّونه الى والده المولى عبد الله مما كان موظفا على الموازين كميزان سيدى فرج وميزان قاعة السمن وميزان قاعة الزيت وغير ذلك وقدره ثلاثمائة مثقال فى كل شهر يجب فيها الكل سنة ثلاثة آلاف مثقال وستمائة مثقال فلما حضر فقهاء فاس عند السلطان سيدى محمد كلمهم فى شأنها حتى يكون الامر فيها مسندا الى فتوى الفقهاء فقالوا اذا لم يكن للسلطان مال جازله أن يقبض من الرعية مايستخدم به الجند فامرهم أن يكتبوا له فى ذلك فكتبوا له تأليفا اعتمده السلطان ووظف على الابواب والغلات والسلع وكان ممن كتب له فى ذلك العلامة الشيخ التاودى بن سودة والعلامة الشيخ أبو عبد الله محمد بن قاسم جسوس والامام أبو حفص عمر الفاسى والفقيه الشريف أبو زيد عبد الرحمن المنجرة والفقيه أبو عبد الله محمد بن عبد الصادق الطرابلسى والفقيه القاضى أبو محمد عبد القادر أبو خريص وغيرهم فاعتمد السلطان على فتواهم ووظف ماذكرناه آنفا ﴿واعلم﴾ ان أمر المكس مما عمت به البلوى فى سائر الاقطار والدول منذ الاعصار المتطاولة والسنين الاول فلا بأس أن نذكر ماحرره العلماء فى ذلك فنقول قد تكلم على ذلك الامام حجة الاسلام أبو حامد الغزالى رضى الله عنه فى كتابه شفاء الغليل بما نصه ﴿فان قال قائل﴾ توظيف الخراج على الارض ووجوب الارتفاقات مصلحة ظاهرة لاتنتظم أمور الولاة فى رعاية الجند والاستظهار بكثرتهم وتحصيل شوكة الاسلام الابه ولذلك لم يلف عصر خاليا عنه والملوك على تفاوت سيرهم واختلاف أخلاقهم تطابقوا عليه ولم يستغنوا عنه فلا تنتظم مصلحة الدين والدنيا الا بامام مطاع ووال متبع يجمع شتات الايمان ويحمى حوزة الدين وبيضة الاسلام ويرعى مصلحة المسلمين وغبطة الانام ولايستتب ذلك الا بنجدته وشوكته وجنوده وعدّته فيهم مجاهدة الكفار وحماية الثغور وكف أيدى الطغاة المارقين ومنعهم من مدّ الايدى الى الاموال والحرم والازواج فهم الحراس للدين عن أن تنحل دعائمه وتتخاذل قواه بتوغل الكفار فى بلاد المسلمين وهم الحماة للدنيا عن أن يختل نظامها بالتغالب والتسالب والتواثب من طغام الناس بفضل العرامة والباس ولايخفى عليكم كثرة مؤنهم واستيعاب حاجاتهم فى نفوسهم وعيالهم والمرصد لهم خمس الخمس من الغنائم والفىء وذلك مما يضيق فى غالب الامر عن الوفاء بخراجاتهم والكفاية

لحاجاتهم وليس يعم ذلك الا بتوظيف الخراج على الاغنياء فان كنتم تتبعون المصالح فلا بد من الترخيص في ذلك مع ظهور المصلحة (قلنا) الذي نراه جواز ذلك عند ظهور المصلحة وانما النظر في بيان وجه المصلحة فنقول أولا التوظيف في عصرنا هذا من احجه ومنهاجه ظلم محض لارخصة فيه فان آحاد الجند لو استوفيت جواياتهم وو زعت على الكافة لكفتهم برهة من الدهر وقد اصابهم من الوقت وقد شمخوا بتنعمهم وترفههم في العيش واسرافهم في افاضة الاموال على العيارة ووجوه التجمل على سائر الاكاسرة فكيف يقدر احتياجهم الى توظيف خراج لامدادهم وارفاقهم وكافة أغنياء الدهر فقراء بالاضافة اليهم فأما لو قدرنا اماما مطاعا مفتقرا الى تكثير الجند لسد الثغور وحماية الملك بعد اتساع رقعته وانبساط خطته وقد خلا بيت المال عن المال وأرهقت حاجة الجند الى ما يكفيهم وخلت عن مقدار كفايتهم أيديهم فللامام أن يوظف على الاغنياء ما يراه كافيا لهم في الحال الى ان يظهر مال في بيت المال ثم اليه النظر في توظيف ذلك على وجوه الغلات والارتفاقات بحيث لا يؤدي تخصيص بعض الناس به الى ايغار الصدور وايحاش القلوب ويقع ذلك قليلا من كثير ولا يجحف بهم ويحصل به الغرض ثم استدل الشيخ أبو حامد رضي الله عنه لذلك من النقل والعقل بما يطول جلبه (وقال في كتابه المستصفى ما نصه) فان قيل توظيف الخراج من المصالح فهل اليه من سبيل قلنا لا سبيل اليه مع كثرة الاموال في أيدي الاجناد أما اذا خلت الايدي ولم يكن في بيت المال ما يفي بخراجات العسكر ولو تفرقوا واشتغلوا بالكسب لخيف دخول الكفار بلاد الاسلام فيجوز للامام أن يوظف على الاغنياء مقدار كفاية الجند ثم ان رأى في طريق التوزيع التخصيص بالاراضي فلا حرج لانا نعلم انه اذا تعارض شران وضرران وجب دفع أشد الضررين وأعظم الشرين وما يؤديه كل واحد منهم قليل بالاضافة الى ما يخاطر به من نفسه وماله ولو خلت خطة الاسلام عن ذي شوكة يحفظ نظام الامور ويقطع مادة الشرور لفسدت الارض ومن عليها وقوله على الاغنياء يريد من له قدرة وطاقة على دفع شئ لا يجحف به ووقع في جواب القاضي أبي عمر بن منظور رحمه الله ان لضرب الخراج وتوظيفه على المرافق شروطا الاول منها أن يعجز بيت المال وتتعين حاجة الجند فلو كان في بيت المال ما يقوم به لم يجز أن يفرض على الرعية شئ قال صلى الله عليه وسلم لا يدخل الجنة صاحب مكس وهو اغرام المال ظلما ثانيها أن الامام يتصرف فيه بالعدل فلا يجوز له أن يستأثر به دون المسلمين ولا أن ينفقه في سرف ولا أن يعطي من لا يستحق ولا أن يعطي أحدا أكثر مما يستحق ثالثها أن يصرفه في مصرفه بحسب المصلحة والحاجة لا بحسب الشهوة والغرض وهذا يرجع الى الثاني رابعها أن يكون الغرم على من يكون قادرا عليه من غير ضرر ولا اجحاف ومن لا شئ له أوله شئ قليل فلا يغرم شيأ خامسها ان الامام يتفقد هذا في كل وقت فربما جاء وقت لا يفتقر فيه الى زيادة على ما في بيت المال وكذلك اذا تعينت المصلحة في المعونة بالابدان ولم يكف المال فان الناس يجبرون على التعاون بأبدانهم على الامر الداعي للمعونة بشرط القدرة وتعين المصلحة والافتقار الى ذلك انتهى المقصود منه والله تعالى أعلم

(مقتل أبي الصخور الخمسي وما كان من أمره)

لما رجع السلطان محمد بن عبد الله من فاس الى مكناسة أقام بها يسيرا ثم خرج الى جبال غمارة بسبب ما بلغه عن المرابط أبي عبد الله محمد العربي الخمسي المعروف بأبي الصخور وكان له صيت وشهرة بقبائل الجبل وكان يظهر التنسك والعبادة ويزعم أنه يستخدم الجن فكان للعامة فيه اعتقاد كبير ثم صار يقول للناس هذا السلطان لا تطول مدته فأخذه السلطان وقتله وبعث برأسه الى فاس وولى على قبائل غمارة والاخماس وتلك النواحي الباشا العياشي وأنزله بمدينة شفشاون وقفل الى مكناسة فدخلها مريضا فاتح محرم سنة اثنتين وسبعين ومائتين وألف فقال المرجفون ان ما أصابه المرض الا من قتله لابي الصخور وقالوا

انه قد صدق فى قوله لا تطول مدته فعافى الله السلطان وأكذب ظن الشيطان وأقام السلطان بمكناسة
الى ان انسلخ المحرم ودخل صفر فعاد الى مراكش بعد ان أمر بنقل عبيد الساوقية الى مكناسة وضمهم
الى اخوانهم واستصحب معه الى مراكش من رجالتهم ألفا فلما دخلها أعطاهم الخيل والسلاح
والكسى وعادوا الى مكناسة ثم قدم عليه منهم ألف آخر فاركبهم وكساهم واستمر حاله معهم على هذا
الى ان استوفوا خيلهم وسلاحهم وكساهم ولم يسألهم عما كان فى أيديهم أيام الفترة

﴿خروج السلطان سيدى محمد بن عبد الله الى الثغور وتفقده أحوالها﴾

ثم دخلت سنة ثلاث وسبعين ومائة وألف فيها خرج أمير المؤمنين المولى محمد بن عبد الله من مراكش
فقدم مكناسة وفرّق الراتب على العبيد بها وبعث الى الوداياراتبهم وأمرهم بالنهوض معه للتطواف على
الثغور البحرية من بلاد المغرب فخرج من مكناسة حتى أتى مدينة تطاوين فنزل بها وأمر ببناء برج
مرتيل الذى بها وفرّق المال على العبيد المقيمين به منذ أيام السلطان المولى اسمعيل وهم بقية عبيد سبتة
أعنى الذين كانوا يرابطون عليها فانه لما انحل نظام الملك بموت المولى اسمعيل وتفرّق العبيد المرابطون
على سبتة فلحقت كل طائفة منهم بقبيلتها التى جلبت منها بقى هذا الالف الذى لا قبيلة له هنالك فنقلهم
أبو حفص الوقاش الى مرتيل وأحسن اليهم وصار يدفع بهم فى نحر من يريده بمكروه من القبائل
المجاورة له ثم رحل السلطان من تطاوين الى طنجة وجعل طريقه على سبتة فمرّ بها ووقف عليها ونظر
الى حصانتها ومناعتها وتحقق أن لا مطمع فيها الا بالجد وأمر العسكر الذين حوله باخراج دفعة من البارود
وتسميها العامة حاضر ونا ففعلوا وأجابهم النصارى بمثل ذلك بالمدافع والكور حتى تزلزلت الجبال فعجب
السلطان من ذلك وما كان قصده بهذه السفرة الا الوقوف على سبتة واختبار حالها الا انه لم ينظر اليها بعين
التأمل والاختبار فى المرة الاولى فلما تبين له حالها أرجأ أمرها الى يوم ما وأوصى أهل آنجرة بتعيين
حصة من الرماة لحراسة نواحيها والوقوف على حدودها وبذل لهم مالا يستعينون به على ذلك ثم سار الى
طنجة فنزل قريبا منها وخرج اليه أعيانها ورؤساؤها من أهل الريف بقضهم وقضيضهم يقدمهم باشاهم
عبد الصادق بن أحمد بن على الريفى كان قد قدم عليه بمراكش أيام خلافته بها فلما مثلوا بين يدى السلطان
فى هذه المرة أكرمهم وفرّق المال والكسى فيهم وأمر الباشا عبد الصادق أن يبعث أخاه عبد الهادى
للوقوف على انشاء الغلائط بتطاوين ثم سار السلطان رحمه الله الى العرائش فألفاها خالية ليس بها
الا نحو المائتين من أهل الريف تحت كنف أهل الغرب فولى عليها عبد السلام بن على وعدّى ثم أنزل بها
مائة من عبيد مكناسة ثم سار الى سلا فعبر الوادى ونزل برباط الفتح وأقام به أياما وأمر قائده أبا الحسن
عليا مارسيل أن يبنى صقالة أى برجا كبيرا على البحر وأمر قائد سلا عبد الحق فنيش أن يبنى مثلها بسلا
على البحر مقابلتها ثم أمر بانشاء سفينتين احداهما لاهل سلا والاخرى لاهل رباط الفتح وكانت عندهم
سفينة واحدة مشتركة بينهم أنشؤها أيام الفترة وفيها كانوا قد خرجوا الى حصن آكادير ومنه بعثوا
وفدهم الى سيدى محمد بن عبد الله وهو يومئذ خليفة بمراكش فأكرم الرسل وبعث معهم مالا كثيرا
الى المجاهدين بالعدوتين وفى مدة مقامه برباط الفتح هذه المرة صرف جيش العبيد والودايا الى بلادهم
وسار هو الى مراكش ولما احتل بها كتب الى تجار النصارى بآسفى يأمرهم أن يشتروا له آلة اقامة
المراكب القرصانية من صوارى ونطاقات وقنب ومخاطيف وحبال وقلوع وبتاتى وغير ذلك فتنافسوا
فى شراء ذلك وازدلفوا الى السلطان بجلبه وانتخابه ثم استقدم حراطين الصحراء الذين بالرتب وتافيلالت
وهم الجبابرة والمعاركة وأولاد أبى أحمد لما بلغه عنهم من انهم يعينون عمه المولى الحسن على محاربة
الاشراف الذين هنالك فنقلهم الى مكناسة وأعطاهم الكسوة والسلاح وكتبهم فى ديوان الجيش وفى
هذه السنة وصل الخبر بموت المولى المستضىء بن اسمعيل بتافيلالت كامر

﴿ايقاع السلطان سيدي محمد بن عبد الله بالوداياو السبب في ذلك﴾

كان هؤلاء الوداياأحد أركان العسكر الاسماعيلي حسبما تقدم وكان المولى اسمعيل رحمه الله قد اعتنى بشأنهم وأخذ بضبعهم وجمعهم بعد الفرقة وأغناهم بعد العيلة وأسكنهم فاسا الجديد وأعماله فاستوطنوه وألفوه وصاروا هم أهله بين سائر الجند فكان لهم في الدولة الغناء الكبير واتخذوا الدور والقصور وتوالت عليهم بالعز وابابة الضيم السنون والشهور ولما توفي رحمه الله كانوا بفاس الجديد على غاية من تمام الشوكة وكمال العصبية وقد ملكوا أمر أنفسهم على الدولة وغلظت قناتهم على من يريد غمزها من أهلها فكانت أحكام الملوك من أولاد المولى اسمعيل لاتمضي عليهم سيما مع ماحازوه من شرف الخؤولة للسلطان المولى عبد الله الذي هو أكبرهم قدرا وأعظمهم صيتا وكان شأنه معهم أن يستكثر بهم تارة وعليهم أخرى والفتن فيما بين ذلك قائمة حسبما مر شرح ذلك مستوفى فلما كانت أواخر دولة السلطان المولى عبد الله وهلك محمد واعزيز كبير البربر افترق آيت ادراسن وجروان ووقعت الحرب بينهم مرتين أعان فيها الوداياجروان وألحوا على آيت ادراسن بالنهب والقتل حتى أجلوهم من تلك البلاد ثم لما بويع السلطان سيدي محمد انحاز اليه آيت ادراسن اذهم شيعة أبيه أيام محمد واعزيز فولى عليهم ولد محمد واعزيز وأنزلهم بأحواز مكناسة اذكان عالما بمانالة من جروان والودايا وتظاهرهم عليهم واشتغالهم مع ذلك بافساد السابلة وقبض الخفارات عليها وكان رئيسهم لذلك العهد رجلا يقال له جبور الصامبيرا فآخى السلطان سيدي محمد بين آيت ادراسن وآيت عور وحالف بينهم وأوصى عامله على مكناسة بهم وتقدم الى جروان بالكف عن اذايتهم فلم يرجعوا ولم يقلعوا بل تمادوا على حرب آيت ادراسن وظاهرهم الودايا على عادتهم وأرادوا أن يسير وافيهم بالسيرة التي كانوا عليها أيام السلطان المولى عبد الله ظنامنهم أن ذلك يتم لهم مع ابنه سيدي محمد وهيهات

اذا رأيت نيوب الليث بارزة * فلا تظنن أن الليث مبتسم

ولما اتصل الخبر بالسلطان أمر قائد العبيد وقائد آيت عور أن يشدوا عضد آيت ادراسن وينهضوا لنصرتهم على أعدائهم جروان حيث انتصرت لهم الودايا فهاجت الحرب وكشرت عن أنيابها وشمرت عن ساقها فبرز الودايا بجموعهم ونزلوا بوادي فاس في أول يوم من رمضان وأقاموا هنالك مفطرين منتهكين لحرمة الصيام بسفرهم الحرام ثم اجتمعوا هم وجروان وساروا الى جهة مكناسة وأقبل آيت ادراسن نحوهم عن لافهم من العبيد وآيت عور فكان اللقاء على وادي ويسلان فوقعت الحرب فانتصر آيت ادراسن عليهم وهزموهم وانتهبوا حلة جروان ومحلة الودايا وقتلوا منهم نحو الخمسمائة وحزوا رؤس أعيانهم فعلقوها على الباب الجديد من مكناسة ورجع الودايا الى فاس مفلولين لم يتقدم لهم مثلها ولما اتصل خبر ذلك بالسلطان اغتاظ على الودايا بسبب افتياتهم عليه وانتهاكهم حرمة جواره فعزم على المكر بهم وأسرها في نفسه ولم يبدها لهم واستمر مقيما بمراكش الى ان دخلت سنة أربع وسبعين ومائة وألف فخرج من مراكش قاصدا مكناسة ومضمرا الايقاع بالودايا وأحس الودايا بذلك منه فلما وصل الى مكناسة بعثوا اليه بعجائزهم متشفعات ومعتذرات عما فرط منهم فاجتمعن به أثناء الطريق وتوسلن اليه بالرحم والقرابة ففرق لهن وأعطاهن كسي ودراهم ووعدن صحبته الى فاس فنزل بالصفصافة وخيمت بها عساكره وخرج أهل فاس والودايا لملاقاته فألان لهم القول وأظهر البشر ومن الغد أمر بعمارة المشور بدار الدبيبغ وقدم أهل فاس طعام الضيافة على العادة فأمر السلطان بادخاله الى دار الدبيبغ ولما صلى العصر خرج على الناس بالمشور فوقف لهم وقدم الوفود هداياهم على العادة ولما فرغ من ذلك كله أمر العبيد والودايا بالدخول الى دار الدبيبغ لا كل طعام الضيافة وكان قد أعد بها ألفا من المسخرين للقبض على أعيان الودايا أفردهم في ناحية فلما دخلوا وغلقت الابواب وثبوا عليهم وجردوهم

من السلاح وكتفوهم وألقوهم على الارض ولماطم الجيش وسائر الناس أمر السلطان الخيل بالركوب وشن الغارات على حلة الودايا والمغافرة بلمطة فركبت الخيول وتقدمت اليهم وسار السلطان فى موكبه خلفهم ولما أشرق شارق فاسا الجديد وماه الودايا من أبراجه بالكور فلم تغن شيأ وتقدم السلطان حتى وقف بالموضع المعروف بدار الرخاء فلم يكن الا هنيئة حتى أقبلت العساكر بالسبى والاثاث والخيام وانتسفوا الحلة نسفا ولما جن الليل خرج من كان بقى من أعيانهم بفاس الجديد وتفرقوا شذر مذر فذهب بعضهم الى ضريح الشيخ أبى العباس أحمد الشاوى وبعضهم الى زاوية الشيخ اليوسى و بعضهم الى ضريح سيدى أبى سرغين بصفرو وغير ذلك و بقى الضعفاء على الاسوار يطلبون الأمان فعطفته عليهم الرحم ورق لهم فأمنهم وأخرجهم الى فاس القديم وأدال منهم بفاس الجديد بالف كانون من العبيد فنزلوه وعمروه وأقفر من الودايا بعد ان كانوا أهله مدة طويلة كما علمت ثم أمر السلطان رحمه الله باربعة من مساجين الودايا فسرحوا أحدهم القائد قدور بن الخضر الشهير الذكر وأمرهم أن يقفوا على اخوانهم المسجونين حتى يعينوا أهل الفساد من غيرهم ويأتوه بزمامهم و يتحروا الصدق فى ذلك فعينوا له خمسين من عتاتهم أهل زيغ وفساد فامر بان تضرب على أرجلهم الكبول و يقرن كل اثنين منهم فى سلسلة ثم بعث منهم الى مراكش اثنان على الجمل فسجنوا بها وطهرت الارض من شيطنتهم ثم أمر السلطان رحمه الله القائد قدور بن الخضر أن يسرح الباقين من اخوانه و يضم اليهم من الودايا والمغافرة تكملة ألف ويشرد من عداهم الى قبائلهم وحللهم ثم عين السلطان رحمه الله لاولئك الالف اصطبل مكناسة يتزلون به و يكون قصبة لهم فحملوا أولادهم الى مكناسة واستوطنوها مع العبيد غير انهم قد انفردوا بالاصطبل كما قلنا وولى عليهم السلطان القائد قدور بن الخضر وكان أصغرهم سنا وأكملهم عقلا وأصدقهم خدمة وأمره بتأديبهم واجراء الاحكام عليهم حتى رغموا املكة الدولة وسكنوا تحت تصريفها وخضعوا الامر هاونهيها وأخذ السلطان فى دفع الخيل والسلاح والكسى لهم شيأ فشيأ الى ان أركبهم كلهم فصلحت أحوالهم وغت فروعهم واستمروا بمكناسة الى ان ردهم الى فاس الجديد المولى يزيد بن محمد لاول ولايته كما سيأتى ان شاء الله ﴿وفى هذه السنة﴾ أعنى سنة أربع وسبعين ومائة وألف باع السلطان أمكاس فاس لعاملها الحاج محمد الصفار باثنى عشر ألف مثقال فى السنة ثم ارتحل الى مراكش فاحتل بها الى ان كان من أمره ما نذكره

﴿مجىء السلطان سيدى محمد بن عبد الله من مراكش الى الغرب مرة أخرى وما اتفق له فى ذلك﴾

﴿ثم دخلت سنة خمس وسبعين ومائة وألف﴾ فيها خرج السلطان سيدى محمد بن عبد الله رحمه الله من مراكش يريد بلاد الغرب وعرج فى طريقه على جملة من القبائل الذين كانوا مشتغلين بالفساد فاوقع بهم وشرد بهم من خلفهم وذلك انه وصل الى بلاد الشاوية فنهبهم وانتسف أموالهم وقتلهم وقبض على عدد كثير منهم بعثهم فى السلاسل الى مراكش ثم عدل الى جهة تادلا فتر على برابرة شقيرين من آيت وما والو فنهب أموالهم وقتل من ظفر به منهم ثم سار الى بلاد الغرب عازما على الايقاع بعرب الحياينة لافسادهم وتمردهم فابتدأ أولا بنهب آيت سكاتو وثنى بينى ساداذن وثلث بالحياينة ففروا الى جبال غياثة وتحصنوا بها فترك الجيوش ببلادهم تأكل زروعهم وتقدم هو الى تازا ثم اقتحم على الحياينة جبال غياثة فأبادهم قتلا وتشريدا والعساكر ببلادهم تنتسف الزروع وتحرق العمائر وتستخرج الدفائن الى ان تركتها أنقى من الراحة وعاد الى مكناسة وفى مقامه بها قبض على الشيخ محمود الشنكيطى المتصوف النابغ بفاس كان قد قدم من بلاده ونزل بمستودع القرويين وأظهر التنسك فصار يجتمع عليه الاعيان والتجار من أهل فاس و يعتقدونه ﴿قال فى البستان﴾ فلم يقتصر على ما هو شأنه من اقبال الخلق عليه بل صار يتكلم فى الدولة و يكاتب البربر و يزعم أن سلطان الوقت جائر ولم يوافق عليه من الاولياء أحد فنمى ذلك الى السلطان

فأمر بالقبض عليه وبعث به الى مراكش فسجن بها ثم امتحن الى ان مات ولم تبكه أرض ولا سماء ﴿وقال اكنسوس﴾ انه كان يقول ان السلطان يموت الى شهر ففشى ذلك في العامة وتسابقوا الى شراء الفحم والحطب وادخار الاقوات وحصلت فتنة بفاس فانهى ذلك الى السلطان فكتب الى عامل فاس بالقبض عليه وتوجيهه الى مراكش ثم أمر السلطان أيضا وهو بمكناسة بالقبض على الامين الحاج الخياط عديل واخوته فسجنوا في مال كان عليهم بعضه له وبعضه لوالده من قبله وفي تمام السنة أمر بتسريحهم وبعث الحاج الخياط منهم والسيد الطاهر بناني الرباطي سفيرين عنه الى السلطان مصطفى بن أحمد العثماني صاحب القسطنطينية العظمى وفيها أيضا استخلف السلطان رحمه الله ابن عمه المولى ادريس بن المنتصر بفاس وولاه على قبائل الجبل كلها وفيها أمر بتحبيس الكتب الاسماعيلية التي كانت بدويرة الكتب بمكناسة وعددها اثنا عشر ألف مجلد وزيادة فحبسها على مساجد المغرب كله ولا زالت خزائنها مشحونة بها الى الآن مكتوبا عليها رسم التحبيس باسم السلطان المذكور ثم ارتحل الى مراكش وفيها أيضا تولى الحاج محمد الصفار مكس فاس باثنين وعشرين ألف مثقال في السنة

﴿ايقاع السلطان سيدي محمد بن عبد الله بقبيلة مسفيوة والسبب في ذلك﴾

كان هؤلاء مسفيوة شيعة للمولى المستضيء حسبما تقدم ولما زحف السلطان المولى عبد الله الى بلاد الحوز وشرد أخاه المولى المستضيء عن مسفيوة وأوقع بهم الوقعة التي تقدم الخبر عنها أذعنوا الى طاعته في الظاهر وبقيت الحسائف كامنة في صدورهم فكانت تلك الطاعة التي أظهروها له هدنة على دخن واستمر حالهم على ذلك الى أيام السلطان سيدي محمد رحمه الله فشرى فسادهم ﴿وقال في البستان﴾ كان هؤلاء مسفيوة من الطغيان والاستخفاف بالدولة على غاية لم تكن لاحد من يوم استخلف سيدي محمد بمراكش وهو يعالج داءهم فما انفع فيه ترياق الى ان قدم مراكش قدمته هذه فوفد عليه بها مائة وخمسون من أعيانهم فانتهز فيهم الفرصة وقتلهم كلهم سوى القاضي ثم سرب الخيول للغارة على حلتهم فانتسفوها وأبلغوا في النكاية فانخضدت بذلك شوكتهم واستقامت طاعتهم وصلحت أحوالهم فيما بعد ذلك ﴿ثم دخلت سنة ست وسبعين ومائة وألف﴾ فيها جاء السلطان من مراكش الى الغرب ونهب في طريقه آيت سيبر من زمور الشلح وبددهم ولما وصل الى مكناسة أمر القبائل بدفع الزكوات والاعشار فكانت الحياينة وشراقة وسائر الحوزية يدفعون واجبهم بهري فاس وكان أهل الغرب وبنو حسن والبربر يدفعون بهري مكناسة ثم نهض السلطان الى غزو مرموشة فهزمهم ونهب أموالهم واستولى على معاقلهم وقتل منهم عددا وافرا وذلك بعد ان انتصروا على عسكر السلطان أولا وظهروا عليه فتقدم اليهم رحمه الله بنفسه وعبيده المصطفين فاوقع بهم وشردهم ثم سار الى تازا فاصلح شؤونها ونقف أطرافها وعاد سالما مظفرا ﴿وفي هذه السنة﴾ توفي قائد القواد الذي كان من السلطان بمنزلة الوزير أبو عبد الله محمد بن حدو الدكالي الذي كان ولاه على دكالة لاول ولايته ثم أضاف اليه تامسنا وتادلا مكان البوزراوي الجابري عمود الدولة المحمدية رحمه الله ولما توفي ولى السلطان مكانه ابن عمه القائد أبا عبد الله محمد بن أحمد ﴿ثم دخلت سنة سبع وسبعين ومائة وألف﴾ فيها أمر السلطان ببناء قبة الشيخ أبي الحسن علي بن حرزهم بفاس وفيها ثار رجل اسمه أحمد الخضر بصحراء فجيج فكان يزعم أنه المولى عبد الملك ثم صار يزعم أنه داعيته وفتن الناس بتلك الجهات وجرت على يده حروب وخطوب فبعث السلطان الى عرب تلك البلاد فقتلوه وبعثوا برأسه اليه وهو بمكناسة وكان السلطان يومئذ مريضا فعافاه الله وسافر الى مراكش ولما اجتاز برباط الفتح بعث منه الرئيس الحاج التهامي مثنو الرباطي باشدورا الى بلاد السويد ليأتيه باقامة المراكب والبارود وبعث أيضا الرئيس أبا عبد الله محمد العربي المستيري الرباطي باشدورا الى بلاد النجليز ليصلح بها قرصانه ويجعل له اقامة جديدة فقدمها وجدد قرصانه

واستصحب

واستصحب معه اقامة مركبين ومدافع نحاسية وغير ذلك وعاد لتمام السنة ﴿ثم دخلت سنة ثمان وسبعين ومائة وألف﴾ فيها كانت وليمة عرس ولد السلطان المولى علي بن محمد بمراكش على ابنة عمه المولى أحمد ابن عبد الله وعرس ابن أخيه سيدي محمد بن أحمد على ابنة السلطان وكانت وليمة عظيمة حضرها عامة أهل المغرب بهداياهم وأبهاتهم وشاراتهم واستقامت الامور للسلطان رحمه الله

﴿بناء مدينة الصويرة حرسها الله﴾

لما فرغ السلطان سيدي محمد بن عبد الله رحمه الله من وليمة عرس أولاده سار الى ناحية الصويرة بقصد بنائها وعمارتها فوقف على اختطاطها وتأسيسها وترك البنائين والعملة بها وأمر عماله وقواده ببناء دورهم بها وعاد الى مراكش ﴿وقال الكاتب أبو العباس أحمد بن المهدي الغزال في رحلته ما ملخصه﴾ ان السبب في بناء مدينة الصويرة هو ان السلطان سيدي محمد بن عبد الله كان له ولوع بالجهاد في البحر واتخذ لذلك قراصين حربية تكون في غالب الاوقات بمرسى العدوتين ومرسى العرائش وكان سفرها في البحر مقصورا على شهرين في السنة زمان الشتاء لان المراسي متصلة بالاودية وفي غير ابان الشتاء يقل الماء ويعلو الرمل بأفواه المراسي فيمنع من اجتياز القراصين بها ويتعذر السفر ففكر السلطان رحمه الله في حيلة يتأتى بها سفر قراصينه في سائر أيام السنة فبنى ثغر الصويرة واعتنى به لسلامة مرساه من الآفة المذكورة ﴿وذكر غير الغزال﴾ أن الباعث للسلطان المذكور على بناء الصويرة هو ان حصن آكادير كانت تتداوله الثوار من أهل السوس مثل الطالب صالح وغيره ويسرحون وسق السلع منه اقتياتا ويستبدون بأرباحها فرأى أن حسم تلك المادة لا يتأتى الا باحداث مرسى آخر أقرب الى تلك الناحية وأدخل في وسط المملكة من آكادير حتى تتعطل على أولئك الثوار منفعته فلا يتشوف أحد اليه فاختط مدينة الصويرة وأتقن وضعها وتأنق في بنائها وشحن الجزيرتين الدائرتين بمرساها كبرى وصغرى بالمدافع وشيد برجا على صخرة داخل البحر وشحنه كذلك فصار القاصد للمرسى لا يدخلها الا تحت رمي المدافع من البرج والجزيرة معا ولما تم أمرها جلب اليها تجار النصارى بقصد التجارة بها وأسقط عنهم وظيف الاعشار ترغيبا لهم فيها فأهرعوا اليها من كل أوب وانحدروا الى مرساها من كل صوب فعمرت في الحين واستمر الترخيص لهم فيها مدة من السنين ثم رد أمرها الى ما عليه حال المراسي من أداء الصاكة وغيرها من اللوازم وهي الآن بهذا الحال والله تعالى أعلم

﴿هجوم الفرنسيس على ثغر سلا والعرائش ورجوعه عنهما بالخيبة﴾

قد قدمنا ما كان للسلطان سيدي محمد بن عبد الله رحمه الله من الولوع بامر البحر والجهاد فيه فلم تزل قراصينه تتردد في أكناف البحر وتجوس خلال ثغور الكفر فتقتل وتأسر وتغنم وتسبي الى ان ضاق بهم رحب الفضاء وكاد يستأصل جمهورهم حكم القضاء فنهم من فزع الى طلب المهادنة وحسن الجوار ومنهم من كذبته نفسه فتطاول الى الاخذ بالثار ومن هذا القسم الثاني جنس الفرنسيس فان قراصين السلطان رحمه الله كانت قد غنمت منه مركبا ساقته الى مرسى العرائش وغنمت منه غير ذلك في مرات متعددة فدعاه ذلك الى ان هجم على ثغر سلا أواخر سنة ثمان وسبعين ومائة وألف ﴿قال الغزال في رحلته﴾ رمى الفرنسيس بمرسى سلا من الانفاض والبنب ما ظن أنه يحصل به على طائل فاجيب منها بضعف ذلك فلم يلبث الا وأجفانه هاربة تقفو أواخرها الاوائل وفر هاربا مهزوما ساقط الالوية مذموما اه ﴿ورأيت بخط الفقيه العلامة أبي العباس أحمد بن المكي السدراتي السلاوي رحمه الله ما صورته﴾ هجم الفرنسيس على مدينة سلا يوم الجمعة الحادي عشر من ذي الحجة متم سنة ثمان وسبعين ومائة وألف فأقاموا يوم الجمعة ويوم السبت بظاهر البحر لم يفعلوا شيأ وفي يوم الاحد تقدمت سفنهم فرموا من البنب

مائة وسبعا وسبعين وهدمت الدور وفر النساء والصبيان خارج البلد ولم يبق بها الا القليل وكان يوما مشهودا وفى صبيحة يوم الاثنين أرسل الله عليهم الريح ففرقت مراكبهم ونفس الله عن المسلمين وفى يوم السبت الآتى بعده رجعوا فرموا مائة وعشرين وفى يوم الثلاثاء الثالث والعشرين من الشهر المذكور رموا مائة ونيفا وثلاثين ولم يستشهد من المسلمين فى تلك المدة سوى رجل واحد اه ﴿قال الغزال﴾ ثم ان الفرنسيس عالج ما انصدع من أجفانه فى حرب سلا ثم هجم على ثغر العرائش ﴿قال السدراتى﴾ فرمى عليها فيما ذكروا أربعة آلاف نفض ونيفا وثلاثين نفضا وخربوها وهدموا دورها ومسجدها قال وذلك مفتتح سنة تسع وسبعين ومائة وألف وفى يوم الخميس الثانى من المحرم وقيل التاسع منه ليلة عاشوراء اقتحموا المرسى فى خمسة عشر قاربا مشحونة من العسكر بنحو الالف وفيها من الشلطاظ والقبطان عدد كثير وتصاعدوا مع مجرى الوادى الى مراكب السلطان التى كانت هنالك فحرقوا سفينة منها وهى التى غنمها المسلمون منهم وعمدوا الى أخرى فكسروها بالمعاول والفؤس ثم تكاثر عليهم المسلمون وقاتلهم بنو جرفط وأهل الساحل حتى ردوهم على أعقابهم ولما انقلبوا راجعين الى مراكبهم وجدوا عرب الغرب مع قائدهم حبيب المالكى قد أخذوا بمخنقهم على فم المرسى وانبثوا لهم على الحجر الذى هنالك وبعث الله ريحا من جهة البحر عظمت بها أمواجه ومنعتهم من الخروج فكانوا اذا توسطوا الوادى ليخرجوا ردتهم الريح واذا انحازوا الى أحد الشطين رماهم المسلمون بالرصاص حتى استأصلوا جمهورهم ثم سبحوا اليهم حتى خالطوهم فى قواربهم فاستاقوا أحد عشر قاربا ونجا أربعة وتقسمهم المسلمون بين قتيل وأسير وتفرقوا فى الاعراب والبادية أيدى سبا ثم أمر السلطان بجمعهم وأعطى كل من أتى بأسير منهم مالا وكسوة فاجتمع منهم نحو الخمسين فبقوا فى الاسر الى ان توسط فى فدائهم طاغية الاصبنيول ففدوا بمال له بال وأما رؤس القتلى فقد أمر السلطان رحمه الله بتوجيه نحو الثمانين منها الى سلا فعلقت بالصقالة القريبة من ضريح الشيخ ابن عاشر رضى الله عنه وبعد هذا وقع الصلح مع جنس الفرنسيس وانعقدت الشروط معه كما سيأتى ثم ان السلطان رحمه الله قدم العرائش عقب الوقعة وأقام بها أشهرا واعتنى بشأنها فبنى بها الصقائل والابراج حتى صارت من أعمر الثغور وبيد الله تصاريف الامور

﴿مراسلة السلطان سيدى محمد بن عبد الله رحمه الله لطاغية الاصبنيول وما اتفق فى ذلك﴾

كان السبب الذى أوجب مراسلة السلطان سيدى محمد بن عبد الله رحمه الله لطاغية الاصبنيول أن جماعة من أسرى المسلمين الذين كانوا باصبانيا كتبوا مكاتيب عديدة الى السلطان رحمه الله يعلمونه بما هم فيه من ضيق الاسر وثقل الاصر وما نالهم من الكفار من الامتهان والصغار وكان فيهم من ينتمى للعلم ومن يقرأ القرآن وغير ذلك فلما وصلت كتبهم الى السلطان وقرئت عليه تأسر لذلك ووقعت منه موقعا كبيرا وأمر فى الحين بالكتب الى طاغية الاصبنيول يقول له انه لا يسعنا فى ديننا اهمال الاسارى وتركهم فى قيد الاسر ولا حجة فى التغافل عنهم لمن ولاه الله الامر وفيما نظن انه لا يسعكم ذلك فى دينكم أيضا وأوصاه أن يعتنى بخواص المسلمين الذين هنالك من أهل العلم وحملة القرآن وأن لا يسلك بهم مسلك غيرهم من عامة الاسارى قال مثل ما نفعل نحن بأساراكم من الفرايلية فانا لا نكلفهم بخدمة ولا نخفر لهم ذمة فلما وصل هذا الكتاب الى الطاغية أعظمه وكاد يطير سرورا به وللحين أمر باطلاق الاسارى الذين بحضرته وبعثهم الى السلطان ووعده أن يلحق بهم غيرهم من الذين بقوا بسائر اياالته فوقع ذلك من السلطان رحمه الله الموقع وعظم فى عينيه وكان كريم الطبع يحب الفخر ويعنى به فأطلق الطاغية الاصبنيول جميع من كان تحت يده من أسارى جنسه وعززهم بأسرى غير جنسه أيضا لتكون للطاغية بذلك مزية على سائر الاجناس وبعث معهم بهدية فيها عدد من الاسود على يد قائد سبتة فاتصل ذلك كله بالطاغية فطارت نفسه شعاعا من شدة الفرح وشمر عن ساعد الجد وهيأ هدية استوفى فيها غاية مقدوره

و بعثها مع كبراء القسيسين والقسيان وأصحبهم كتابا أفصح به عما بين جنبيه للسلطان من المحبة والاعتراف بالفضل والمنة وطلب منه مع ذلك أن يتفضل عليه ببعث أحد أرباب دولته وكبرائها للتشرف أرضه بقدمه وتشتهر هذه المواصلة والملاطفة عند أجناس الفرنج فيعظم بذلك قدره ويكمل فخره فأسعفه السلطان رحمه الله بذلك وبعث اليه خاليه الرئيسين أبا يعلى عمارة بن موسى وأبا عبد الله محمد بن ناصر وكلاهما من الوداديا ومعهما كاتبه أبو العباس أحمد الغزال بعثه كاتبا لهما لا غير فلما وصلوا الى جبل طارق كتب الغزال الى بعض وزراء السلطان يقول له انى أريد منك أن تعرّف أمير المؤمنين ان هذين الرجلين لا معرفة لهما بقوانين النصارى وانى قد خفت عاقبة الامر فيما ينشأ عن رأيهما فلا يؤاخذنى أمير المؤمنين بشيء من ذلك ان كان فأخبر الوزير السلطان فقال صدق وقد ندمت على تقديمهما عليه وما راعيت الامتزلتهما والآن فاكتب الى الطاغية وقل له انى قد بعثت اليك بكاتبي أحمد الغزال باشدورا وابعث بالكتاب الى الغزال فاذا بلغه فليستمسك به وليحز الكتاب الاول الذى عندهما ويلى الامر دونهما فلما بلغه كتاب السلطان امتثل وقضى الغرض على الوجه المطلوب وأبقى ذكرا جميلا رحمه الله ﴿وفى هذه السنة﴾ أعنى سنة تسع وسبعين ومائة وألف ألزم السلطان أهل فاس ببعث الادالة منهم الى الصويرة وهى خمسون راميا بقائدها وفقيه ومدرّس وموقت ومؤذن وشاهدان وأسقط عنهم البعث الذى كانوا يفرضونه للملوك قبله وهى خمسمائة رام فعينوا الادالة المذكورة بعد التى واللتيا وبعثوهم اليه بمراكش فبعثهم السلطان الى الصويرة ورتب لهم بها المؤن والمرافق فكانوا يقومون على المرسى وينتفعون بمستفادها فحسنت حالهم واغتبطوا بها واستمرّ الحال على ذلك ﴿وفى هذه السنة﴾ بعث أيضا السلطان الرئيس أبا الحسن عليا مارسيل الرباطى الى بلاد الفرنسيس لتقرير الصلح معهم وقبض مال أسارى العرائش وشراء الاقامة منه فبذلوا المال والاقامة معا طائعين وفيها بعث السلطان الفقيهين السيد الطاهر بن عبد السلام السلاوى والسيد الطاهر بنانى الرباطى باشدورين الى صاحب الاصطنبول السلطان مصطفى العثمانى وأصحبهما هدية نفيسة فيها خيل عتاق بسروج مثقلة بالذهب مرصعة بالجوهر والياقوت ونفيس الاحجار وفيها أسياف محلاة بالذهب ومرصعة بالياقوت المختلف الالوان وفيها حلى من عمل المغرب فقبل ذلك السلطان العثمانى وابتهج به ثم كافأ عليه بمركب موسوق من آلة الحرب مدافع ومهاريس وبارود واقامة كثيرة للمراكب القرصانية من كل ما تحتاج اليه ﴿وفى هذه السنة﴾ خرج السلطان الى بلاد الريف فجعل طريقه على تطاوين ثم على بلاد غمارة وانتهى الى جارت وبلاد الريف فهدّ تلك النواحى كلها ورجع على طريق تازا وفيها قدم المولى على ابن السلطان خليفة عن أبيه فنزل فاسا الجديد وأضاف اليه قبائل الجبل والريف وفيها قدمت ربة الدار العالية المولاة فاطمة بنت سليمان من مراكش الى فاس بقصد الزيارة فركبت ذات ليلة الى ضريح المولى ادريس رضى الله عنه وضريح الشيخ أبى الحسن على بن حرزهم وضريح الشيخ أبى عبد الله التاودى فطافت عليهم وتبركت بتربهم وذبحت أكثر من مائة ثور وأخرجت صدقات كثيرة ثم خرجت بعد ذلك الى مدينة صفرو وافزارت ضريح سيدى أبى سرغين وضريح سيدى أبى على وذبحت وتصدقت وعادت الى فاس ثم ذهبت الى زيارة الشيخ عبد السلام بن مشيش رضى الله عنه فصحبها فى ركابها أعيان فاس وأشرافها وعلماؤها ولما كانت بأثناء الطريق اعترضها قواد الغرب بهداياهم وبشاراتهم وزيهم ووافاها قواد الثغور بضريح الشيخ عبد السلام فى مواكبهم وخيلهم ورجلهم وذلك عن أمر من السلطان رحمه الله ﴿قال صاحب البستان﴾ وكنت يومئذ واليا على العرائش فحضرت فى جملتهم ولما قضت أرب الزيارة فرقت الاموال على الاشراف من أهل جبل العلم وغمرت الناس بالعطايا ثم عادت الى القصر ومنه سارت الى العرائش فأقامت بها ثلاثة أيام وانفض قواد الثغور كل الى محله وسافرت المولاة المذكورة الى

مراكش في ألف فارس من العبيد كانوا قد قدموا معها من مراكش عليهم القائد مصباح وكان فعلها هذا من الآثار العظيمة والمناقب الفخيمة رحمها الله

﴿اعتناء السلطان سيدي محمد بن عبد الله بثغر العرائش وشحنه بآلة الجهاد﴾

قد تقدم لنا أن السلطان سيدي محمد بن عبد الله رحمه الله قدم العرائش عقب وقعة الفرنسيس فوقف عليها واعتنى بأمرها وبنى بها الصقائل والابراج وصوّنها ثم كان قدوم ابنه المولى يزيد في هذا التاريخ الى فاس وفي ركابه جماعة من رؤساء البحر والطبجية أهل الاجادة في الرمي وكان قدومه بأمر السلطان لجر المدافع والمهاريس النحاسية التي كانت بفاس الجديد ومكناسة ونقلها الى ثغر العرائش ففعلوا وألزم السلطان القبائل الذين بالطريق أن يتولوا جرّها فكانت كل قبيلة تجرّها الى التي تليها الى ان وصلوا الى مشرع مسيعيدة من نهر سبو ﴿قال صاحب البستان﴾ فورد علينا أمر السلطان بالعرائش أن نخرج الى لقائهم في الجند وقبائل الحوز يعني حوز العرائش قال فوافيناهم على وادي سبو فتولى أهل الغرب جر تلك المدافع والمهاريس الى أن أوصلوها الى وادي الدردار قرب تاجناوت ثم جرّها أهل العرائش وقبائل حوزها الى المدينة وكان يوم دخولها مهرجانا عظيما أخرجت فيه المدافع والمهاريس والبارود وتسابقت القبائل على الخيول ولعبوا بالبارود الى المساء ثم رجع المولى يزيد ومن معه من الرؤساء والبحرية والطبجية الى حضرة السلطان بمكناسة وقد تم الغرض المقصود

﴿ايقاع السلطان سيدي محمد بن عبد الله بآيت عمور أهل تادلا ونقلهم الى سلفات والسبب في ذلك﴾

لما انقضى أمر العرائش تفرغ السلطان لقضاء ما كان قد بقي عليه من أمر الرعية فخرج من مكناسة الى تادلا مضمر الايقاع بآيت عمور لما كان يبلغه عنهم من الفساد في الارض فلما بلغها مكر بهم بان أرسل اليهم يستنفرهم خيلا ورجلا وأراهم أنه يريد أن يذهب بهم في سرية هيأها الآيت ومالوا فلما قدموا عليه أمر بعرض العساكر كلها ووقف رحمه الله بازاء القصبة ثم عرضت عليه عساكر الجند ثم القبائل بعضها اثر بعض وكلما مرت عليه قبيلة أوقفها في ناحية عينها لها وكلما مر به جيش أوقفه كذلك حتى غصت الارض بالخيل والرجل واستدارت من كل الجهات ولم يبق الا آيت عمور فجاؤوا في آخر العرض ولما مثلوا بين يديه أمر أهل رحاه أن يرموهم بالرصاص على زناد واحد فأطلقوا عليهم شؤبوبا منه تساقط له عدد كثير وكان قد تقدم الى العساكر المستديرة بهم أن ينفحوهم بالرصاص كلما قصدوا جهة من جهاتهم فكانوا كلما قصدوا ناحية طالبين الخلاص منها رماهم أهلها فتساقط منهم العصبة الكبيرة الى ان خلصوا من ناحية أهل دكالة بعد أن هلك منهم ما ينيف على الثمانمائة فأمر السلطان برؤسهم فجزت وبعثها الى فاس فعلقت على الاسوار وأمر العساكر بنهب حللهم فانتسفوها وسيقت مواشيهم وخيامهم وأثاثهم وفر من أفلت منهم الى جبل آيت يسري ثم رحل السلطان عنهم الى مراكش فوفدوا عليه بعد أيام خاضعين تائبين فعفا عنهم ونقلهم الى جبل سلفات من أحواز فاس فاوطنوه حينا من الدهر

﴿اغراء السلطان سيدي محمد بن عبد الله بآيت ادراسن والسبب في ذلك﴾

لما كان من السلطان سيدي محمد بن عبد الله رحمه الله لآيت ادراسن من الاحسان ما كان حتى أوقع بالودايا لاجلهم مع انهم صميم الجند وركن الدولة وأطال لهم الرسن في ذلك بما أطغاهم وحملهم على الدالة عليه صدرت منهم هنات اعتدها السلطان عليهم فانتدب لتأديبهم بان كتب وهو بمراكش الى الودايا لقتالهم والى العبيد وجروان بأمرهم أن يجتمعوا على حربهم والايقاع بهم فكان ذلك عند الودايا من أكبر متمناهم فاجتمعوا مع من ذكر ونهدوا اليهم فكبسوهم في ديارهم وجرت بينهم حرب قطيعة انهزم

فى آخرها آيت ادراسن ونهبت حللهم وقتل منهم عدد كثير وأسر مثل ذلك ووجهوا فى السلاسل الى السلطان بمراكش ﴿وفى هذه السنة﴾ أعنى سنة تسع وسبعين ومائة وألف أمر السلطان بجمع جند البكشارية من قبائل الحوز ووكل بجمعهم القائد عبد النبى المنبهى وأن يثبتهم فى ديوان العسكر وان كل من كان عزبا وأراد الدخول فى الجندية فليكتبه فاجتمع له من ذلك أربعة آلاف وخمسمائة فأعطاهم السلطان الكسى والسلاح واستخدمهم مدة ثم كان ما آل لهم ان رجعوا الى اخوانهم وقبائلهم وضرب عليهم المغرم فى جملتهم وفيها مات عامل فاس الحاج محمد الصفار فولى السلطان على فاس ابنه العربى بن محمد الصفار ﴿ثم دخلت سنة ثمانين ومائة وألف﴾ فيها قدم السلطان الى مكناسة وقبض على القائد عبد الصادق بن أحمد الريفى صاحب طنجة وعلى مائة من قرابته وأهل بيته فأودعهم السجن ثم سار الى طنجة فدخلها ونهب دار عبد الصادق المذكور ونقل اخوانه باولادهم الى المهدية وولى عليهم محمد بن عبد الملك من بيتهم ولم يترك بطنجة من أهل الريف الا أهل المروءة والصلاح وأنزل معهم ألفا وخمسمائة من عبيد المهدية بعددهم بحيث لا يطمعون فى قيام ولا يحدثون أنفسهم بثورة ووقع بخط الفقيه أبى العباس أحمد السدراتى ان انتقال أهل الريف الى المهدية كان بعد هذا بنحو أربع سنين والله أعلم

﴿مقتل عبد الحق فنيش السلاوى ونكبة أهل بيته والسبب فى ذلك﴾

قد قدمنا فى آخر دولة السلطان المولى عبد الله ما كان بحواضر المغرب وبواديه من الاضطراب فسما بعض القواد والعمال بالامصار الى مرتبة الاستقلال وطرحوا طاعة السلطان فى زاوية الاهمال فمنهم صاحب سلا عبد الحق بن عبد العزيز فنيش كان قد استحوذ على مدينة سلا وأعمالها واستبد بأمرها بما كان له من العشيرة والعصبية بها ولما اجتاز سيدى محمد بن عبد الله من مراكش الى القصر أيام والده أغلق عبد الحق هذا أبواب سلا فى وجهه ولم يحفل بذهابا ولا ايابا حسبما مر ثم لما ولى الله السلطان أمير المسلمين أعرض عما أسلفه عبد الحق من جريرته وأبقاه فى مدينته على رياسته فاستمر على ذلك برهة من الدهر وكان فظا غليظا فقتل رجلا من أعيان سلا قيل كان هذا الرجل من قرابته وقيل كان من أولاد زنيبر فرفع أولياؤه أمرهم الى السلطان بمكناسة وحضر عبد الحق معهم وثبت أن قتله للرجل كان على وجه الظلم فحرك ذلك من السلطان ما كان كامنا فى صدره عليه فقبض عليه ودفعه الى أولياء المقتول ليتولوا قتله بايديهم فجبنوا عنه لما كان له فى قلوبهم من الهيبة فأمر السلطان الوزعة بقتله لهم بمرأى منهم فقتلوه فيما قيل بايدى الفؤس ثم بعث السلطان من احتاط على أموال عبد الحق والفنانشة أجمع وأمر ببيع أصولهم بعد اعمال الموجبات بأن الفنانشة مستغرقو الذمة وان جميع ما بايديهم اكتسبوه من الغصوبات وغيرها من وجوه الظلم وضرب الاتاوات على الضعفاء والمساكين حتى عند نكاحهم فبيعت أصول عبد الحق وعشيرته لبنى حسن وكانت تنيف على مائة أصل ما بين ربع وعقار وكان ذلك سنة ثمانين ومائة وألف ثم غربهم السلطان الى العرائش فسجنوا بها مدة وغرب بعضهم الى الصويرة ثم عفا عنهم وقربهم وولاهم رياسة الرماية بالمهراس والمدفع المعروفة برياسة الطبجية وفرقهم على الثغور فكان بعضهم بالعرائش وبعضهم بطنجة وبعضهم برباط الفتح وبعضهم بالصويرة وأعطاهم الدور المعتبرة والرباع المغلة ورتب لهم الجرايات العظيمة حتى بلغوا من الثروة والعز والجاه ما لم يبلغه أحد فى دولته رحمه الله كذا فى البستان ومن القواد الذين كانوا فى حكم الاستبداد أيام السلطان المولى عبد الله ثم نكبهم ابنه السلطان سيدى محمد بعد حين القائد أبو الحسن الحاج على بن العروسى الدكالى البوزرارى كان قائد المولى المستضىء بعد أيام ولايته ولما أفضى الامر الى السلطان سيدى محمد قبض عليه وأودعه المطبق عدة أعوام ثم سرحه وولاه مدينة شفشاون وتوارث الرياسة بنوه من بعده ولهم آثار بثغر الجديدة منها مسجدها مكتوبا عليه اسم بانيه الى الآن ومن القواد المستبدين قائد تامسنا المدعو

ولد الجاطية وقائد تادلا الرضى الورديغى فعزلهم السلطان سيدى محمد وولى على تامسنا وتادلا القائد محمد ابن حدو الدكالى المتقدم الذكر ومنهم أبو عريف قائد بنى حسن فعزله السلطان وولى مكانه أبا عبد الله محمد القسطالى ومنهم الباشا حبيب المالكى قائد الغرب كان رأس الامراء أيام أبيه فقبض عليه وأودعه المطبق وأمر بهدم قصره وحمل أنقاضه الى العرائش ونهب ماله وماشيته ولما طرح الباشا حبيب بالمطبق منع نفسه من الطعام والشراب الى ان مات ميتة جاهلية عياذا بالله فهؤلاء أنياب القبائل وأهل العصبية منهم تتبعهم السلطان واحدا بعد واحد الى ان أراح الدولة من ضررهم والله أعلم ﴿وفى هذه السنة أعنى سنة ثمانين ومائة وألف﴾ انعقدت الشروط بين السلطان سيدى محمد بن عبد الله وبين جنس الفرنسيس وهى عشرون شرطا مضمنها ومرجعها الى المهادنة والصلح والمخالطة بالبيع والشراء مع التوقير والاحترام من الجانبين واذا سافرت مراكبهم من مراسيهم الى ايالتنا فتصحب معها الورقة المسماة بالباصبورط من عند أمير البحر المرتب بكل مرسى من مراسيهم فيها اسم المركب ورديسه وبيان ما اشتمل عليه من الوسق ومن أين جاء والى أين يذهب وعليه طابع أمير البحر وهو طابع الجنس واذا سافرت مراكبنا من مراسينا الى ايالتهم فتصحب كذلك خط يد القنصل المرتب بعرسانا من ذلك الجنس باسم المركب ورديسه وما اشتمل عليه مختوما عليه بطابع الجنس أيضا وكان القياس أن مراكبهم تحمل طابعنا وخطنا ليحصل لها التوقير كما نحمل نحن طابعهم وخطهم ليحصل لنا التوقير منهم ولكن لما لم تجر العادة بترتب متأصلنا بمراسيهم اكتفى بطابعهم من الجانبين اذ المقصود حاصل بذلك ولا يلتبس على رؤساء البحر طابع جنس بآخر فاذا التقى مركب بمركب وأخرج كل ورقته عرف من أى جنس هو وعومل على مقتضى ذلك

﴿ورود هدية السلطان مصطفى العثمانى على السلطان سيدى محمد بن عبد الله رحمهما الله﴾

وفى هذه السنة أعنى سنة ثمانين ومائة وألف بعث السلطان سيدى محمد بن عبد الله رحمه الله خديمه الرئيس عبد الكريم راغون التطاونى باشدورا الى السلطان مصطفى العثمانى وأصحبه هدية نفيسة مكافأة له على هديته التى كان أرسلها مع السيد الطاهر بن عبد السلام السلاوى والسيد الطاهر بنانى الرباطى حسبما مر ﴿ثم لما دخلت سنة احدى وثمانين ومائة وألف﴾ قدم الحاج عبد الكريم المذكور من عند السلطان المذكور ومعه هدية عظيمة أعظم من الاولى وهى مركب موسوق بالمدافع والمهاريس النحاسية وآقامتها وآقامة المراكب القرصانية من صوار ومخاطيف وقلوع وقنب وحبال وبراميل وغير ذلك من آلات البحر وفيها ثلاثون من مهرة المعلمين الذين لهم المعرفة بافراغ المدافع والمهاريس والكور والبنب وبصناعة المراكب القرصانية وفيهم معلم مجيد فى الرمى بالمهراس الى الغاية فنزلوا بمرسى العرائش ﴿قال صاحب البستان﴾ وكنت يومئذ واليا بها فورد أمر السلطان بتوجيه المعلمين الى فاس يقيمون بها حتى يقدم السلطان من مراكش الى مكناسة فيجتمعون به هنالك ولما وصل السلطان الى مكناسة وحضروا عنده فاوضهم فى الخدمة وأراد أن يحيى آثار دار الصنعة التى كانت بسلا تصنع بها المراكب الجهادية على عهد الموحدين وبنى مرين فقالوا نحتاج أن تبنى لنا دارا على هيئة كذا ومن نعتها كذا وكذا ورسموا له شكلها فى قرطاس فرأى ان أمرها لا يتم فى عشر سنين ولا أكثر ولا يكفى فى بنائها مال فأعرض عن ذلك وبعث معلمى البنب الى تطاوين فكان أحدهم يفرغ البنبة من قنطارين وبعث معلمى المراكب الى سلا فأنشؤا فيها ثلاث شكظريات وبعث معلم الرمى الى رباط الفتح فكان يعلم بها الطبجية من أهل سلا والرباط وتخرج على يديه نجباء ومن ثم توارث أهل العدوتين هذه الصناعة مدة الى ان لم يبق بها اليوم الا الاسم ورد أصحاب المدافع والمهاريس الى فاس فأقاموا بها الى ان توفوا هنالك رحمهم الله ﴿وفى هذه السنة﴾ انعقدت الشروط بين السلطان سيدى محمد بن عبد الله وبين جنس الدينمرك وهى عشرون شرطا ترجع الى

تمام الصلح والأمن من الجانبين أيضا والأول منها مضمنه خروج أمر المراسي المغربية من يد تجار الدينمرك فلا يتصرفون فيها بشيء لكون الكمبانية التي كانت تدفع من المراسي قد تفرقت بعد التزام فتصلهم بأداء اثني عشر ألف ريال وخمسمائة ريال التي بقيت بذمة تجارهم من ذلك ولا تعود المراسي لأيديهم بحال والآخر منها مضمنه أن يدفع طاغية الدينمرك للسلطان كل سنة خمسة وعشرين مدفعا من مدافع المعدن وزن كورتها من ثمانية عشر رطلا الى أربعة وعشرين ويدفع معها ثلاثين نقنة ومن اللوح الروبلي ألفي لوحة مختلطة ومن الريال ستة آلاف وخمسمائة والكل واصل الى المحل الذي يريده السلطان وان أراد الطاغية أن يدفع بدلا عن جميع ذلك خمسة وعشرين ألف ريال فله ذلك ومثل هذا انعقد مع جنس السويد أيضا الا أن قدر المدفوع من جانبه عشرون ألف ريال فقط في كل سنة ومع أجناس أخر وطائف أخر واستمرت هذه السنة الى ان انقطعت سنة احدى وستين ومائتين وألف في دولة السلطان المولى عبد الرحمن بن هشام رحمه الله حسبما نذكر ذلك في محله ﴿وفي هذه السنة﴾ أعني سنة احدى وثمانين ومائة وألف كانت فتنة الدعي كلخ بمراكش وهو رجل صعلوك اسمه عمر كان ينتسب الى الشيخ أبي العزم سيدي رحال وكان يظهر للعامة الكرامات الكاذبة وتبعه السواد الاعظم من جهلة البادية لأنه وعدهم أن يفتح لهم بيت المال ويهيلون منه الذهب والفضة هيلا من غير ممانع فأهرع الناس اليه وتقدم الى مراكش فدخلها في عالم من الأوباش شعارهم هاتان الكلمتان كلخ شلخ رافعين بها أصواتهم وهم كالسيل المنحدر من عل فوقع الهرج بالمدينة وغلقت الأسواق واتصل الخبر بالسلطان وهو بداره فأمر الوزعة والعبيد فاعترضوهم دون القصبة وقبضوا عليه ولما صار في أيديهم فر من كان معه من الطغام وساقوه الى السلطان فقتله وسكنت جعجعته الحين

﴿انعقاد الصهر بين السلطان سيدي محمد بن عبد الله وبين سلطان مكة الشريف سرور رحمه الله﴾

كان السلطان سيدي محمد بن عبد الله يحب الفخر ويعني به وله رغبة في الخير وأهله ولما كان سلطان مكة الشريف سرور رحمه الله بالمحل الذي أكرمه الله به بلدا ومحتدا رغب السلطان سيدي محمد رحمه الله في مصاهرته وسمحت نفسه الشريفة ببذل كريمته ﴿فلما دخلت سنة اثنتين وثمانين ومائة وألف﴾ وعزم ركب الحاج المغربي على السفر الى الحجاز بعث معهم السلطان المذكور ابنته وزفها على بعلها المذكور وبعث ولده الاكبر وخليفته الاشهر المولى علي بن محمد لاقامة فريضة الحج ومعه شقيقه المولى عبد السلام صغيرا دون بلوغ ليكون مع أخته وكلاهما في صحبة الركب المغربي كما قلنا وأصحبهما هدية لأمير طرابلس وهدية لأمير مصر والشام وهدية عظيمة لأهل الحرمين الشريفين ومالا كثيرا يفرق على أشراف الحجاز واليمن وجوائز سنية للعلماء والنقباء وأرباب الوظائف بمكة والمدينة وبعث معهما من وجوه أهل المغرب وأولاد أمراء القبائل وأشياخهم ومن أكابر خدامه وأصحاب أشغاله بالخيول المسومة والسلاح الشاكي والشارة الحسنة ما تحدث به أهل المشرق دهرا وكان في جهاز ابنة السلطان ما يزيد على مائة ألف دينار من الحلي والياقوت والجوهر وكان يوم دخولها الى مكة يوما مشهودا حضره عامة أهل الموسم الاعظم من الآفاق وتناقلت حديثه الركبان والرفاق

﴿اعتناء السلطان سيدي محمد بن عبد الله بعبيد السوس والقبلة وجلبهم الى أجدال رباط الفتح﴾

﴿وفي هذه السنة﴾ أعني سنة اثنتين وثمانين ومائة وألف بعث السلطان سيدي محمد بن عبد الله ابن عمه المولى علي بن الفضيل وكاتبه أبا عثمان سعيد الشليح الجزولي الى بلاد السوس لجمع عبيد المخزن الذين بها وبعث وصيفه المحجوب ابن قائد رأسه لاقليم طاطا وآقا وتيشيت من بلاد القبلة لجمع العبيد الذين هنالك فجاؤا بألفين من عبيد السوس بأولادهم وألفين من عبيد القبلة بأولادهم كذلك فأنزلهم السلطان بظاهر

أمراكش الى أن أعطاهم السلاح والكسى وولى عليهم القائد المحجوب المذكور ثم لما سار الى رباط الفتح أمر بقطع جنات أجدال الذى بظاهر البلد وأنزل العبيد به وبنى لهم الدور والمسجد والمدرسة والحمام والسوق وزاد عليهم ألفين وخمسمائة من الوداية اجلبها من القبائل وكتب الجميع فى الديوان وجعلهم فى مقابلة عبيد مكناسة والوداية الذين بها وأفاض فيهم العطاء الكثير لسكناهم بثغر من ثغور الاسلام

فتح الجديدة

قد ذكر لويز ماريه خبر هذا الفتح ونحن نلخص ما ذكره من ذلك قال لما ولى السلطان سيدى محمد بن عبد الله سلطنة المغرب كان لا يقر له قرار من أجل مشاركة البرتغال له فى قطعة من أرضه وكان شهما ذا أنفة وآباية فاستشار أهل الرأى من دولته فى غزو الجديدة وفتحها فقالوا له لا يظن سيدنا ان أخذها يكون بأن تحمل المسلمون عليها دفعة واحدة حتى يقتحموها مثلا فان ذلك لا يجدى شيأ ولا يحصلون الا على القتل كما وقع فى أيام السلطان الغالب بالله السعدى وانما يتوصل الى فتحها بالحصار والمطاولة براو بحرا فعمل على ذلك بعد ان كرهه أولا ولما عزم على النهوض اليها جمع جيشا كثيفا من قبائل مراكش والحوز والسوس وغير ذلك زعم لويز انه اجتمع له من المقاتلة نحو سبعين ألفا ويظن أن هذا من مبالغاته على عادته فى ذلك وكان نزوله على الجديدة فى رابع مارس العجمى سنة ثمان وستين وسبعمائة وألف مسيحية وفى تواريخ الاسلام أن نزوله عليها كان فى فاتح رمضان من سنة اثنتين وثمانين ومائة وألف عربية ولما نزل عليها أمر بحفر الاساس لاتخاذ أشبار من جميع جهاتها ونصب عليها خمسة وثلاثين مدفعا بين كبير وصغير ورمى عليها كورا وبنبا كثيرا فى أيام متعددة سقط منه داخلها أكثر من ألفين وهدمت كثيرا من أبنيتها وقتلت عددا وافرا من أهلها وكان من جملة أهلها رجل عسكرى قد أناف على السبعين سنة وعجز عن حضور القتال وله زوجة وأولاد فلما رأى تساقط البنب مثل المطر طلب النجاة لنفسه وعياله ففر الى هرى هنالك كان فوقه خزائن قمح فاختفى تحته واختفى معه أناس آخرون وظنوا أن البنبة لا تنفذ فى خزين القمح وتخرق السقف الذى تحته وتصل الى الهرى الذى هم به فقضى الله تعالى بأن سقطت به بنبة تجاوزت القمح والسقف وسقطت على الشيخ فقتلته ومن معه وكانوا تسعة أنفس وانجرح آخرون ولما طال الحصار على أهل الجديدة كتبوا الى طاغيتهم فأشار عليهم بالخروج ان عجزوا عن المدافعة وكانت هذه المكاتبة من غير علم من العامة وبينما هم كذلك اذ ورد عليهم مركب من أشبونة فظنوه مددا لهم فاذا به قد أتى بكتاب الطاغية يأمرهم بالخروج ويحملوا أولادهم وعيالهم فى مراكبه ويدفعوا البلد للمسلمين ولما علم العامة بذلك امتنعوا وحاصوا حيصة حمر الوحش وسبوا الكتاب ومن أرسله وقالوا لانخرج منها حتى نهلك عن آخرنا اذ هى مأثرة أجدادنا عجنت طينتها بدمائهم وفنيت عليها نفوس أكابرهم وأشرافهم ثم توسط بين عامتهم وكبيرهم القسيسون وسهلوا عليهم الامر حتى انقادوا وبعث كبيرهم الى السلطان سيدى محمد بن عبد الله يطلب منه أن يكف عن القتال ويؤجله ثلاثة أيام ليدفع له البلد فأجابه السلطان الى ذلك واشترط عليه أن لا يخرجوا الا بثيابهم التى على ظهورهم ولا يحمل معهم شيأ غيرها فامتثلوا ﴿قال لويز﴾ حتى ان عسكريا منهم حمل معه كسوة أخرى له لم تسمح بها نفسه فرآها كبيرهم وهو يريد أن يصعد الى المركب فانتزعها منه وألقاها فى البحر ولما أيسوا من حمل شئ معهم أحرقوا الاثاث والفرش وعرقبوا الخيل وقتلوا الماشية وكسروا الاوانى والعدة وفلسوا أكثر من مائة مدفع وآخر الامر انهم دفنوا امينات البارود فى حوماتها كل مينا فيها أكثر من أربعين برميلا وتركوا رجلا حدادا اسمه بطروس فيقال انه الذى أوقد المينا عند دخول المسلمين اليها فهلك فيها نحو خمسة آلاف وتهدم السور والجنوبى منها ولما وصلوا الى أشبونة أسكنهم طاغيتهم ببليدة يقال لها بلين فاصابهم الوخم وهلك منهم أكثر من ثلاثمائة نفس ثم انتقلوا الى بلاد البرازيل فبنوا هنالك مدينة سموها

ماز كان الثانية باسم الجديدة هـذا ملخص ماذكره لويز ومن خط الفقيه العلامة أبي العباس أحمد السدراتي أن فتح الجديدة كان صبيحة يوم السبت الثاني من ذي القعدة سنة اثنتين وثمانين ومائة وألف ووافق ذلك اليوم الثامن والعشرين من فبراير العجمي وهو ثالث أيام الحسوم اهـ وكان ممن شهد هذا الفتح المعلم الحاج سليمان التركي الجيد في صناعة الرمي بالمهراس فابدأ وأعاد وحضرها أيضا جماعة من قنانشة سلا فأبلوا بلاء حسنا وعمرها السلطان بأهل دكالة اذهي في وسط أرضهم وأضاف اليهم حصة من عسكر البكشارية وأعقابهم بها لهذا العهد والله أعلم

﴿سعي السلطان سيدي محمد بن عبد الله في فكاك أسرى المسلمين وما يسر الله على يديه من ذلك﴾

قد تقدم لنا أن السلطان سيدي محمد بن عبد الله كان قد بعث خاليه عمارة بن موسى ومحمد بن ناصر الوديين وكاتبه أبا العباس الغزال الى طاغية الاصبنيول وان الغزال قد أحكم الصلح وقضى الغرض على ما ينبغي وفي تلك السفرة وقع التفادي بين السلطان والطاغية في الاسرى التي كانت بينهما حسبما مر فلما كانت هذه السنة التي هي سنة اثنتين وثمانين ومائة وألف كتب طاغية الاصبنيول الى السلطان يقول انه لم يبق ببلادي أحد من أسرى ايالتكم ولم يبق عندي الا الاسرى أهل الجزائر الذين عندهم أسرانا وطلب منه مع ذلك أن يتوسط له عند صاحب الجزائر في المفاداة بينه وبينه وكانت أسرى الاصبنيول تزيد على أسرى الجزائر بكثير وطلب أن تكون هذه المفاداة على يديه أعني على يد السلطان رحمه الله الرئيس بالرئيس والبلوط بالبلوط والبكانجي بالبكانجي والبحري بالبحري والجندي بالجندي ومن فضلت عنده فضلة فالبحري بخمسمائة ريال والرئيس بالف فاسعفه السلطان في طلبه وانتدب للسعي في انقاذ المسلمين من أيدي الكفار ابتغاء مرضات الله ورجاء ثوابه وكان السلطان قد كتب اليه مع الغزال وصاحبيه فيمن تحت أيديهم من سائر أسرى المسلمين فبعثوا اليه باهل المغرب فقط واعتذروا بأنهم حبسوا أسرى الجزائر ليفكوا بهم أسراهم ولما كاتب السلطان أهل الجزائر وعرض عليهم ما طلبه طاغية الاصبنيول امتنعوا من الفداء فكتب السلطان الى باي الجزائر ثانيا فامتنع ثم أعاد اليهم الكتابة ثالثا وحضهم على فكاك أسرى المسلمين ووعظهم وخوفهم عقاب الله ورغبهم في ثوابه فأذعنوا وامتثلوا وطلبوا منه أن يبعث اليهم رجلا من خاصته يقف على المفاداة بنفسه ويدفعون اليه أسراهم في يده ويتسلم مثل عددهم من اخوانهم فلما ورد على السلطان كتاب أهل الجزائر بالامتثال كتب الى الطاغية يأمره أن يبعث بما عنده من أسرى المسلمين في مركب الى الجزائر وينتظر هنالك الباشدور والذي يوجهه من قبله حتى تكون المفاداة على يده وبعث السلطان لهذا الغرض كاتبه أبا العباس الغزال وصاحبيه وعند وصولهم الى الجزائر أرسى مركب الاصبنيول بظاهر مرساها وأنزل من أسرى المسلمين ألفا وستمائة ونيفا فاخرج أهل الجزائر من أسرى النصارى مثلهم ألفا وستمائة ونيفا أيضا وبقيت عندهم من أسرى النصارى فضلة ففداها الاصبنيول بالمال وانفصلوا ورجع الباشدور ومن معه الى حضرة السلطان وكتب الله أجر ذلك في صحيفته ﴿ثم دخلت سنة ثلاث وثمانين ومائة وألف﴾ فيها غزى السلطان قبائل تادلا لافسادهم ومحاربة بعضهم بعضا فنهب أموالهم وشردهم في كل وجه وولى عليهم القائد صالح بن الرضى الورديغي فاستصفى أموالهم وأفقرهم حتى لم يقدروا على الانتقال من محل الى آخر من قلة الظهر ﴿ثم دخلت سنة أربع وثمانين ومائة وألف﴾ فيها غزى السلطان برابرة جروان لما ظهر منهم من الفساد واغرائهم ابنه المولى يزيد بالانتزاء على الملك واجتماعهم على محمد وناصر المعروف بعهاوش رأس الفتنة وتباريهم في خدمته فقدم من مراكش وطرقهم بوادي كريكرة فاوقع بهم ونهب أموالهم وقتل منهم نحو الخمسمائة وتركهم عالة يتكففون الناس بمكناسة وفاس ثم نقلهم الى بسيط آزغار وأنزلهم وسط العرب فانحسمت مادة فسادهم

﴿حصار السلطان سيدى محمد بن عبد الله مدينة مليلية من ثغور الاصبنيول﴾

لما كانت أواخر سنة أربع وثمانين ومائة وألف غزى السلطان سيدى محمد بن عبد الله مدينة مليلية وفيها نصارى الاصبنيول فاحاطت عساكره بها ونصب عليها المدافع والمهاريس وشرع فى رميها أول يوم من المحرم سنة خمس وثمانين ومائة وألف واستمر على ذلك أياما فكتب اليه طاغية الاصبنيول يعاتبه على حصارها ويذكره المهادنة والصلح الذى انعقد بينه وبينه ويقول له هذا خط كاتبك الغزال الذى كان واسطة بينى وبينك فى عقد الصلح لا زال تحت يدى فأجابه السلطان رحمه الله بان قال انما عقدت معك المهادنة فى البحر فأما المدن التى فى ايالتنا فلا مهادنة فيها ولو كانت فيها مهادنة لخرجتم الينا ودخلنا اليكم فكيف ادّعاء المهادنة مع هذه المداهنة فبعث اليه الطاغية عقد الصلح بعينه فاذا هو عام فى البر والبحر فكف عن حربها وأفرج عنها وترك هنالك جميع آلات الحرب من مدافع ومهاريس وكراريص وبنب وكور وبارود وشرط على الطاغية حملها فى البحر وردّها الى الثغور التى جلبت منها لما فى جرّها فى البر من المشقة على المسلمين فانعم بذلك وبعث مراكبه فحملت بعضها الى تطاوين وبعضها الى الصويرة وذلك محلها الذى سيقت منه وكان ذلك سبب تأخيره الغزال عن كتابته وبقى عاطلا الى ان كف بصره ومات رحمه الله ﴿وسمعت﴾ من بعض فقهاء العصر وقد جرت المذاكرة فى كيفية هذا الصلح فقال ان الغزال رحمه الله لما أعطى خط يده بالصلح والمهادنة كتب فى الصك ما صورته وأن المهادنة بيننا وبينكم بحرا لا برا فلما حازه النصارى بخط يده كشطوا الام الالف وجعلوا مكانها واوا فصار الكلام هكذا بحرا وبرا وان السلطان رحمه الله انما أخره لاختصاره الكلام واجحافه به حتى سهل على النصارى تحريفه وكان من حقه أن يأتى بعبارة مطوّلة مفصلة حتى لا يمكن تحريفها فيقول مثلا والمهادنة بيننا وبينكم انما هى فى البحر وأما البر فلا مهادنة بيننا وبينكم فيه أو نحو هذا من الكلام فيصعب تحريفه وقد نص أهل علم التوثيق على هذا وأن الموثق يجب عليه أن يبسط الكلام ما استطاع ويجتنب الاختصار المجحف وما يؤدّى اليه بوجه من الوجوه والله أعلم

﴿نهوض السلطان سيدى محمد بن عبد الله الى برابرة آيت ومالو والسبب فى ذلك﴾

﴿ثم دخلت سنة ست وثمانين ومائة وألف﴾ فيها خرج السلطان سيدى محمد بن عبد الله رحمه الله الى جبال آيت ومالو وكان ذلك فى غرض قائده بلقاسم الزمورى فانه كان قد ولاه عليهم فلم يقبلوه فطلب من السلطان الاعانة عليهم فأمدّه بثلاثة آلاف فارس مضافة الى من معه من اخوانه زمور وبنى حكم وسار اليهم فلما نزل على وادى أم ربيع من ناحية تادلا زحفوا اليه فولى عنهم مدبرا ولم يعقب واتصل خبر هزيمته بالسلطان فاغتاظ على آيت ومالو وأخذ فى الاستعداد لغزوهم وبرزت العساكر بظاهر مكناسة وبعث السلطان الى أمراء القبائل من العرب والبربر يستنفرهم فوافوه بمكناسة على الصعب والذلول ولما تكاملت الجنود نهض اليهم ﴿قال صاحب البستان﴾ وهو الكاتب أبو القاسم الصيانى بالصاد المشممة زايا كلفظ صراط فى قراءة حمزة وكنت معه فى هذه السفرة وساق الحديث عنها بان قال كنت مع السلطان وأنا يومئذ فى حيز الاهمال أتوقع الموت فى كل وقت بسبب ما كتب اليه فى شأن القائد بلقاسم الزمورى المذكور آنفا وانى أنا الذى أفسدت عليه قومه ولما وصل السلطان الى محلة بلقاسم ونزلت عساكره فى بسيط كريكرة أشار على السلطان بأن يقسم تلك الجيوش على ثلاثة أقسام ثلث منها ينزل بتاسماكت من وراء العدو وثلث ينزل بزاوية أهل الدلاء على طريق بلادهم وثلث يذهب معه على طريق تيقيط ويتقدّم السلطان فى عساكره حتى ينزل بآدخسان وتقصدهم العساكر من كل وجه وقرب على السلطان الامد البعيد باللسان والرأى الذى لا يفيد وكان هو لا يعرف البلاد ومن الغد افترقت

العساكر فتوجه كل الى ناحيته التى عينت له وتقدم السلطان الى آدخسان ولما عبر وادى أم ربيع قدم كروان أمامه للغارة عليهم فسار والى ان بلغوا قصبة آدخسان فلم يجدوا بها نافخ نار فاقاموا هنالك الى ان لحق بهم السلطان فقال أين هؤلاء قالوا ما رأينا أحدا وهذه قصبة آدخسان فامر بنزول الجيوش وبقى هو على فرسه متحيرا فاستدعى أبا القاسم الصيانى قال فأسرعت نحوه فقال لى أتعرف هذه البلاد فقلت نعم أتم المعرفة قال وأين أهلها قلت فى جبلهم قال أوليس هذا جبلهم وهذا آدخسان قلت لا هذه قصبة المخزن والجبل من تلك الثنايا السود فما خلفها وأريته الثنايا فقال وأين الزاوية التى سار اليها الجيش مع قدور بن الخضر ومسرور فقلت هى عن يمين الثنايا فى البسيط قال وأين تاسمكت التى سارت اليها أم البربر مع ولد محمد واعزيز قلت بيننا وبينها مراحل ثلاث من وراء الثنايا قال ومن أين يأتى القائد بلقاسم فأريته الثنية التى يطلع منها وقلت له انه لا يصل الينا الا غدا ان سلم قال وما صنعنا نحن قلت ضربا فى حديد بارد فان الذى بالزاوية لا يجدى والذى بتاسمكت لا يجدى وآيت ومالو متحصنون بالجبل وبلقاسم رجل مشؤم عافى الله مولانا من شؤمه قال فظهر للسلطان خلاف ما سمع من بلقاسم وتحقق فساد رأيه وعلم انه قد أخطأ فيما ارتكبه من التغرير بالمسلمين قال ثم بينت له السبب الذى نفر به آيت ومالو عن بلقاسم حتى عرفه قال اكتب الى قومك صيان يقدموا علينا فانى قد سامحتهم فكتبت اليهم وبعثت بالكتاب من آدخسان مع بعض الاشراف واثنين من أصحاب السلطان فخاضوا اليهم الليل واجتمعوا بهم ومن الغد أصبح عندنا أربعة منهم بهديتهم قد دخلت بهم على السلطان فاكرمهم وقبل هديتهم وقال انى سامحتكم لوجه كاتبى فلان وردهم مبشرين الى اخوانهم وباتت العساكر تلك الليلة بلا علف ولا تبن ومن الغد ظهرت محلة بلقاسم ومعه مختار والعبيد وكانوا قد باتوا على القتال طول ليلتهم ولما وصلوا الى السلطان أمر أن ينزل العبيد بجواره وينزل بلقاسم مع قومه زمور وبنى حكم وأعرض عنه ثم أمره بتسريح اخوانه الى بلادهم وسرح القبائل كلها الى بلادها وفرق ذلك الجمع وارتحل راجعا الى تادلا وأما الذين نزلوا بتاسمكت مع ولد محمد واعزيز فبيتهم آيت ومالو بغارة شعواء شردوهم بها فى كل وجه ونهبوا محلتهم وقتلوا منهم عددا كثيرا ورجعوا الى مكناسة مفلولين ولما بات السلطان بالزهونية ورد عليه أصحاب قدور بن الخضر بكتابه يقول فيه ان البربر قد تألبوا علينا من كل أوب فان لم يدركنا سيدنا هلكنا قال الصيانى فامر فى السلطان بالمسير اليهم والاحتيال فى خلاصهم بكل ما يمكن وبعث معى مائة فارس فوافيت الزاوية الدلائية فوجدت قبائل البربر محيطة بهم فاجتمعت بآيت يسرى ووعدتهم من السلطان بالعطاء الجزيل ان هم فسحوا الجيشه حتى يسلك فى بلادهم فانعموا بذلك ورحل الجيش مع الفجر وعدلنا به من آيت ومالو وعبرنا الوادى الى بلاد آيت يسرى وسار معنا نحو المائة من أعيانهم الى ان أخرجونا الى وادى تاقبالت من تادلا ورجعوا قال وتقدمت الى السلطان فاخبرته بخلاص الجيش ووصوله الى وادى تاقبالت فسره ذلك ودعا لى بخير وقال لا بد أن ترجع اليهم الساعة وأعطانى مالا أفرقه عليهم وأرسم لهم المنازل التى ينزلونها فى مسيرهم الى مكناسة وبها ينتظرون السلطان فرجعت اليهم فى الحين وأخبرتهم برأى السلطان فى المسير الى مكناسة ورسمت لهم المنازل على نحو ما أمر ولما أصبحنا فرقت عليهم المال وارتحلوا الى مكناسة وانقلبت الى السلطان فوجدته قد أصابته حمى أقام لها بقصبة تادلا وكان الطبيب أبو العباس أحمد آدراق يعالجه ولا يدخل عليه الا أنا وهو وصاحب طعامه الحاج عبد الله الى ان عوفى فوصل الطبيب بألف دينار ثم سافر الى مكناسة وبوصوله اليها قبض على بلقاسم الزمورى ونكبه واستصفى أمواله وولى على زمور وبنى حكم ولد محمد واعزيز قال الصيانى ومن ذلك الوقت رفع السلطان منزلتى على أقرانى وصار يقدمنى فى المهمات * ثم دخلت سنة سبع وثمانين ومائة وألف * فيها انعقدت الشروط بين السلطان وبين البرتقال وهى اثنان وعشرون شرطا مضمنها الصلح

والأمان كالشروط المتقدمة

﴿ذكر ما آل اليه أمر اليكشارية الذين استخدمهم السلطان من قبائل الحوز﴾

لما جمع السلطان سيدى محمد بن عبد الله رحمه الله هذا الصنف من رماة الجند وسماهم اليكشارية كالذين من قبلهم وكان جمعهم على يد القائد عبد النبى المنبهى حسبما سبق حصل منهم ضرر كبير للرعية فى المال والحريم وصاروا يعيثون فى غلل جناتهم مما يمرون به أيام أسفارهم حتى صار ذلك الفساد عندهم عادة وما من منزل يبيتون به الا ويكلفون أهله ما لا يطيقون فاذا كلمهم أعيان الرعية فى الرفق بالناس قالوا هذه عادة لا نتركها وهى من قوانين الدولة ولما علم السلطان بما يرتكبونه من العسف أسقطهم من الجندية ونزع منهم السلاح وردهم الى المغرم مع اخوانهم وأراح الناس من شرهم ﴿ثم دخلت سنة ثمان وثمانين ومائة وألف﴾ فيها عزل السلطان القائد محمد بن أحمد البوزرارى عن قبائل تامسنا وتادلا وما اتصل بهما ولم يترك له الا اخوانه من أهل دكالة وولى على السراغنة أبا عبد الله محمد المعروف بالصغير وعلى أهل تادلا صالح بن الرضى الورديغى وعلى أولاد أبى رزك المزابى القائد صاحب الطابع وعلى أولاد أبى عطية عمر بن أبى سلهام المزابى وأمر محمد بن أحمد أن يقبض من اخوانه الذين كانوا عمالا على هذه القبائل ما احتجنوه من الاموال أيام ولايتهم فاستصفى منهم مائة وخمسين ألفا

﴿خروج العبيد على السلطان سيدى محمد بن عبد الله ومبايعتهم لابنه المولى يزيد وما نشأ عن ذلك﴾

﴿ثم دخلت سنة تسع وثمانين ومائة وألف﴾ فيها كانت الفتنة العظمى التى هى خروج العبيد على السلطان سيدى محمد بن عبد الله وبيعتهم لابنه المولى يزيد وكان السبب فى ذلك ان السلطان كتب اليهم وهو بمراكش يأمرهم أن يعينوا منهم ألف كانون ينتقلون باولادهم الى طنجة يكونون بها وبعث اليهم بالكتاب مع القائد الشاهد رأس الفتنة وولاه على ذلك الالف فلما أتاهم بكتاب السلطان قال لهم لا يذهب معى الا الاعيان ومن له دار وأرض وضيعة ولا يذهب معى الا أمثالى فلما سمع اقتراحه أولئك الاجلاف ركبوا رأسهم فى سبيل الخلاف واستفزهم الشيطان حتى صرحوا بخلع السلطان جريا فى ذلك على مذهبهم القديم والتفاتا الى فعل سلفهم الذميم فلما أنهى خبرهم الى السلطان بعث اليهم ابنه المولى يزيد وكان عنده بمراكش كى يستصلحهم به فازداد فسادهم وعظم عنادهم ﴿قال صاحب البستان﴾ وكنت يومئذ برباط الفتح فلما ذهبت الى مراكش لقيت المولى يزيد بالسانية موضع على نحو نصف يوم منها قال فسألنى عن خبر العبيد فقصصته عليه فسره ذلك وجد فى السير ففهمت قصده وعرفت ما يؤول اليه أمره فيهم وزعم انه لما قدم على السلطان لامه فى بعثه المولى يزيد فاعترف بالخطا فى ذلك ولما وصل المولى يزيد الى مكناسة واجتمع بالعبيد لم يقدموا شيأ على بيعته والخطبة به ففتح بيوت الاموال وأعطاهم حتى رضوا ثم فتح مخازن السلاح والبارود ففرقه فيهم ثم دخل فى بيعته من كان قريبا من قبائل العرب والبربر غير الودايا وآيت ادراسن وجروان الذين هم شيعة السلطان فانهم تعصبوا له ﴿قال صاحب البستان﴾ وبعد ثلاث بعثنى السلطان الى الودايا وأحلافهم بمكاتيب فقدمت عليهم بها وأقمت عندهم الى ان زحف اليهم المولى يزيد فى جيش العبيد وهم بالاروى وكان آيت ادراسن وجروان قد دخلوا مع الودايا وظاهروهم على العبيد فوقعت الحرب بالمشتهى داخل القصبة فانهزم العبيد وسلطانهم وقتل منهم نحو الخمسمائة وأما الجرحى فبلا عدد وانقلبوا مفلولين واتصل الخبر بالسلطان فخرج من مراكش فى الجند وقبائل الحوز يريد مكناسة ولما وصل الى سلا وسمع المولى يزيد بقدومه فر الى ضريح الشيخ أبى الحسن على بن حمدوش ثم الى ضريح المولى ادريس الاكبر رضى الله عنه بزرهون فتقدم السلطان الى زرهون ولما دخل الضريح الشريف أتاه أشراف زرهون بابنه المولى يزيد فعفا عنه وسامحه واستصحبه معه الى

مكناسة ولما وجه اليها خرج اليه نحو المائة من العبيد من ذوى أسنانهم ومعهم الاشراف والمرابطون والنساء والصبيان فعفا عنهم وسامحهم على شرط الخروج من مكناسة فأذعنوا وأقام السلطان بمكناسة يدبر أمرهم الى ان فرقهم على الثغور فبعث منهم رحيين الى طنجة ورحيين الى العرائش ورحى الى رباط الفتح وقصد بتفرقتهم دفع غائلتهم وتوهين عصبيتهم ثم عمد الى الذين كانوا برباط الفتح ففرقهم أيضا فبعث ألفين منهم الى السوس وألفا الى مراكش وأبقى ألفين برباط الفتح مع عبيد مكناسة المغربين اليها واستراحت الدولة من شرهم استراحة ما ثم ان العبيد الذين بطنجة وثبوا على قائدهم القائد الشيخ وعلى قائد أهل الريف محمد بن عبد الملك وأرادوا قتلهما فهربا الآن ... صيلا والسلطان يومئذ لا زال بمكناسة ولما أنهى اليه خبرهم كتب الى أعيانهم يتوعدهم فقبضوا على أصحاب الفعلة وبعثوا بهم اليه وتبرؤا منهم فقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف فاستكانوا بعض الشئ ورجع القائدان الى طنجة ثم لما سافر السلطان الى مراكش أخذ معه عبيد مكناسة فانزل أهل القصبة منهم بالمنصورية قرب وادى النفيفخ لانهم كانوا رأس العصاة واستصحب الباقين الى مراكش فأنزلهم بها بعد ان عزل عنهم قوادهم الذين حضروا اقملة المولى يزيد وأبقاهم عاطلين مهملين وولى عليهم اناسا من غيرهم

﴿ذكر ما سلكه السلطان سيدى محمد بن عبد الله فى حق العبيد من التأديب الغريب﴾

ثم ان العبيد الذين بالثغور رعاوا بها وأضروا باهلها فى جناتهم وأموالهم وأعراضهم فانهى خبرهم الى السلطان أيضا ولما أعياه أمرهم ورأى أن تأديبهم بالتفرقة لم يفد فيهم انتقل رحمه الله معهم الى مرتبة أخرى من التأديب لم يسبق اليها كانت ترياقا للقطع دائهم ونار الحسم عرق بلائهم وذلك انه لما بلغه ماهم عليه من الجور والطغيان نهض من مراكش عازما على الايقاع بهم فلما وصل الى رباط الفتح كتب الى أهل طنجة والعرائش منهم يقول انى قد رضيت عنكم وبررت قسمى فى نقلكم من مكناسة الى الثغور والآن اذا وصلتكم الابل والبغال التى أبعثها اليكم فليحمل أهل طنجة باولادهم ومتاعهم وليقدموا الى دار عربى من بلاد سفيان فلينزلوا بها ثم يبعثوا الابل والبغال الى أهل العرائش ليحملوا باولادهم ومتاعهم الى دار عربى كذلك فاذا اجتمعتم أنتم وهم بها فانى أبعث اليكم بغالا تحملون عليها الى مكناسة كلكم فلما وصل اليهم كتاب السلطان بذلك طاروا فرحا وأحبوا الرجوع الى مكناسة ولما وردت عليهم الابل والبغال ارتحلوا من طنجة وفى أثناء ذلك بعث اليهم السلطان قائدهم سعيد بن العياشى الذى خلعوه أيام الفتنة وأوصاه أن يقيم بدار عربى حتى يقدم عليه عبيد طنجة والعرائش فانتهى اليها ووافاه بها عبيد طنجة فنزلوا عليه بعضهم وقضيضهم ووصلت الابل والبغال الى أهل العرائش فجاؤا حتى نزلوا مع اخوانهم كما رسم السلطان ثم ان السلطان رحمه الله نهض من رباط الفتح حتى وافى مشرع مسيعيدة من وادى سبو ثم انتقل منه الى سوق الاربعاء من بلاد سفيان ثم تقدم الى قبائل الغرب وبنى حسن أن يسيروا الى العبيد ويعسكروا عليهم من جميع الجهات فامتثلوا ولما استداروا حولهم وأحاطوا بهم احاطة بياض العين بسوادها قدم السلطان ودعا رؤساء القبائل فحضروا عنده فقال لهم انى قد أعطيتكم هؤلاء العبيد باولادهم وخيلهم وسلاحهم وكل مالهم فاقتسموهم الآن وكل واحد منكم يأخذ عبدا وأمة وأولادهما فالعبد يحرث والامة تطحن والولد يرعى الماشية فخذوهم وتقلدوا سلاحهم واركبوا خيولهم والبسوا كساهم بارك الله لكم فيهم فأنتم عسكرى وجندى دونهم فلما سمعت قبائل الغرب وبنى حسن هذا الكلام من السلطان وثبوا على العبيد من غير أن تكون منهم وقفة واقتسموهم فى أسرع من لحس الكلب أنفه وتوزعوهم شذر مذر وصيروهم عبرة لمن اعتبر وقفل السلطان راجعا الى رباط الفتح ولما دخله نفى العبيد الذين بها الى مراكش فانزلهم بها بعد ان عزل عنهم قوادهم وولى مكانهم غيرهم واستمر عبيد طنجة والعرائش موزعين فى القبائل أربع سنين ثم عفا عنهم

واسترد هم من القبائل الى الجندية وأركبهم وكساهم وسلحهم لكنه ميزهم وجعلهم قبائل في الخلط وطليق منهم أنزلهم بقصر كتامة وسفيان وبنو مالك أنزلهم بسيعيدة وبنو حسن أنزلهم بسيدى قاسم والحياينة وأهل الجبل أنزلهم بتامدرت من أعمال فاس وأقاموا هنالك عدة سنين يوجهون حصتهم في البعوث ويعسكرون مع السلطان متى احتاج اليهم ثم جمعهم رحمه الله بعد ذلك ونقلهم الى مراكش وأقبل عليهم بالعطاء الى ان عادوا أحسن مما كانوا حالا ثم بداله فيهم فبعث عبيد السوس الى تارودانت وعبيد حاحة والشبانات الى الصويرة وعبيد السراغنة وتادلا ودمنات الى تيط الفطر وعبيد كالة الى آزمور وعبيد الشاوية الى آنفى وعبيد زعير والدغماء الى المنصورية وعبيد بنى حسن الى المهدية وأبقى معه بمراكش عبيد سفيان وبنى مالك والخلط وطليق والمصطرين من أصحاب العباس وكان قيام هؤلاء العبيد سببا لافتراق الكلمة وانحلال نظام الملك بالمغرب وسرى فسادهم في القبائل كلها عربا وبربرا وكثر الهرج وانحبس المطر ووقع القحط وعظمت المجاعة واستمر الحال على ذلك نحوا من سبع سنين من سنة تسعين الى سنة ست وتسعين ومائة وألف فكانت هذه المدة كلها مجاعة أكل الناس فيها الميتة والخنزير والآدمى وفنى أكثرهم جوعا والسلطان في ذلك كله يكابد المشاق العظام ويصبر على الجنود الاموال الثقال رواتب بعد رواتب وعطاء بعد عطاء الى ان خلصوا من المجاعة وصلحت أحوال الجماعة وكان رحمه الله قد رتب الخبز في كل مصر يفرق على ضعفائه في كل حومة وأسلف القبائل الاموال الطائلة يقتسمونها على ضعفائهم الى ان يؤدوها زمان الخصب والرخاء ولما عاش الناس وهموا بأدائها سامحهم بها وقال ما أعطيتها بنية الاسترجاع وانما ذكرت السلف لئلا يستبدّ بها الاشياخ والاعيان اذا سمعوا انها هبة فرحم الله تلك الهمة الشريفة ما كان أعلاها وأعظم مهلها وأرأفها وأرجحها وأسقط رحمه الله في تلك المدة جميع الوظائف والمغارم عن قبائل المغرب الى ان عاشوا وتمولوا وكان يعطى التجار الاموال ليجلبوا بها الاقوات من بر النصارى فاذا وصلت أمرهم أن يبيعوها بثمنها الذى اشتريت به رفقا بالمسلمين وشفقة على الضعفاء والمساكين ﴿ولما دخلت سنة سبع وتسعين ومائة وألف﴾ مطر المغرب وعاش الناس وحرثوا وأدرك الزرع ورخصت الاسعار وازدهت الدنيا ودرت الجبايات وأخذ أمير المؤمنين رحمه الله في تمهيد المغرب ثانية واستئناف العمل والجد والله غالب على أمره

﴿ايقاع السلطان سيدى محمد بن عبد الله باولاد أبى السباع وتشريدهم الى الصحراء وما يتبع ذلك﴾

لما كان بالمغرب ما تقدم من الفتنة وشغل السلطان بانعاش الضعفاء عن ضبط الاطراف وقع البغاة بها نبغت نوابغ الفتن ببعض القبائل منها وعادت هيف الى أديانها فمن ذلك قبيلة أولاد أبى السباع باحواز مراكش فلطالما ارتكبوا العظائم واجترحوا وغدوا في الفتنة وراحوا واستطالوا على من بجوارهم وغزوهم في أرضهم وديارهم فلما كانت هذه السنة التى هى سنة سبع وتسعين ومائة وألف جهز اليهم السلطان العساكر فقاتلوهم وقتلوهم وانتهبوا أموالهم وشردوهم الى السوس وقبض السلطان على كثير من أعيانهم فاودعهم سجن مكناسة الى ان هلكوا به وأوعز الى قبائل السوس أن يطردوا بقيتهم وينفوهم الى بلاد القبلة مسقط رأسهم ومنبت شوكتهم وبأسهم ففعلوا ثم نقل قبيلة زمران بعد الايقاع بهم الى بلاد أولاد أبى السباع فعمروها ثم نقل تكنة ومجاط وذوى بلال من شوشاوة الحوز الى الغرب فنزلوا بفاس الجديد وأعماله ثم أعاد آيت عمور من جبل سلفات الى تادلا ثم نقل كطاية وسمكت ومجاط من تادلا الى الغرب ثم أعاد جروان من آزغار الى الجبل ﴿وفى هذه السنة أيضا﴾ كانت فتنة الدعى محمد والحاج اليمورى كان يزعم أنه من الاولياء ويتكلم في المغيبات ويشيع أنه ينتظر صاحب الوقت فسرى فساده في قبيلته وتجاوزها الى غيرها فقصده جهلة البربر من كل قبيل وأغرى آيت عمور بمن جاورهم من قبائل العرب وكانوا يومئذ نزولا بسلفات فتصدى لهم قائد سفيان أبو عبد الله محمد الهاشمى السفيانى وجمع له

الجموع من قبائل الغرب وصعد اليه وهو في قبيلته آيت يمور وفعبر برنهم سبوا وأنشب الحرب معهم فكانت الدبرة عليه وانهزمت جموع الغرب وقتل القائد الهاشمي المذكور وعدد كبير من وجوه قومه وتركوا محلتهم بما فيها للبربر وعظم أمر هذا الدعي وشمخت أنوف قبيلته به وشرى ضلالهم ولما قدم السلطان الى مكناسة بعث من قبض عليه وساقه اليه فقتله وأراح الناس من وساوسه ﴿وفي هذه السنة﴾ بعث السلطان ولده المولى عبد السلام لاداء فريضة الحج لانه لم يكن أدرك الحلم عام حج مع أخيه المولى علي ﴿ثم دخلت سنة ثمان وتسعين ومائة وألف﴾ فيها غزى السلطان برابرة زمور وبني حكم فلما أظلهم قدومه انشمروا الى شعاب تافوديت وتحصنوا بها فاحتال عليهم بان قام عنهم وأوعز الى آيت ادراسن وكروان أن يرصدوهم متى برزوا الى الفضاء فلينهبوهم فلما توجه السلطان قافلا الى مراكش خرجت زمور من شعابها فلم يرعهم الا آيت ادراسن وكروان قد أحاطوا بهم فانتهبوا حللهم وتوزعوا أموالهم وتركوهم عالة يتكففون الناس

﴿ذهاب السلطان سيدي محمد بن عبد الله الى تافيلالت وتمهيده اياها والسبب في ذلك﴾

كان الشريف المولى حسن بن اسمعيل عم السلطان مقيما بتافيلالت وكان آيت عطة وآيت يفلمال من برابرة الصحراء شيعة له فكان اذا حدث بينه وبين أشراف سجلماسة حادث استكثر بهم عليهم وحاربهم وربما قتل منهم وكان السلطان يبلغه بعض ذلك عنه فيسوءه الا انه كان يثقل عليه أن ينال عمه منه مكروه ولانه كان مشغولا بما هو أهم فاستمر الحال الى ان ترددت اليه أشراف سجلماسة بالشكاية منه فلم يسع السلطان الا زجره وقطع عادية برابره عن الاشراف فعزم على المسير بنفسه الى سجلماسة وكان ابنه المولى يزيد يومئذ بالمغرب فلم يرد السلطان أن يتركه خلفه لئلا ينشأ عنه ناشئ فتنة فاحتال في ابعاده بان وجهه الى الحجاز لقضاء فريضة الحج في غير ركب بل أفرده عنه وأصحبه أمينا وصيرا عليه واناسا قليلين يكونون في خدمته دفعا للغائلة ثم سافر السلطان الى سجلماسة برسم زيارة تربة جده المولى علي الشريف رضي الله عنه وحسم داء عمه المولى حسن وشيعته ولما شارف السلطان تافيلالت قدم أمامه أبا القاسم الصياني لاخراج البربر من قصورهم في الامان وان كان عندهم ما يثقلهم من زرع أوتمر يعطيهم غنه لينقطع بذلك عذرهم وان أقاموا حتى أدركهم السلطان بها فاثمهم على أنفسهم فامتثل البربر الامر وخرجوا الى الصحراء ولم يأت السلطان حتى لم يبق منهم أحد بتلك القصور وأفرد المولى حسن وانكسرت شوكته ثم بعث اليه أبا القاسم الصياني أيضا يعرض عليه السكنى بمكناسة وينفذ له ما يكفيه من الظهر لحمل عياله وأثقاله قال الصياني فذهبت اليه وباشرت أمره الى ان أجاب ومن الغد سرت به الى مكناسة وأمرني السلطان أن أعطيه دارا يسكنها ورتب له ثلاثمائة مثقال لكل شهر ينفقها على نفسه وعياله وأمرني مع ذلك اذا فرغت من شأن عمه المذكور أن أصحب معي أولاده الثلاثة المولى سليمان والمولى حسن والمولى حسين وان أصحب معهم قدرا من المال وعددا من المدافع والمهاريس والبنب وطائفة من الطبجية من علوج الالمان وألفا من عسكر الثغور وجالة لجر تلك المدافع والمهاريس قال فقضيت الغرض على ما ينبغي وعدت اليه وهو بسجلماسة بجميع ما أمرني به فبلغنا ونحن أثناء الطريق وفاة ولد السلطان وخليفته بفاس المولى علي بن محمد وكان من سادة العلويين ونجبائهم ومن أهل المروءة والاوصاف المحمودة عقلا وعلما وأدبا وكرما وعلو همة ﴿زاد في البستان﴾ وكان مجلسه مجمع الفضلاء والادباء والنبلاء يتشبه باخلاق المولى محمد العالم ابن المولى اسمعيل في كرمه وأدبه وكان له اعتناء كبير بنسخ كتب العلم الغريبة وكتب الادب وكان كثيرا ما يبعث باشعاره ومخاطباته لاهل عصره وأدباء وقته من الفاسيين والبكريين والقادريين كما كان المولى محمد العالم مشغوفا باشعار أولاد السلطان صلاح الدين بن أيوب الكردي رحم الله الجميع ولما بلغ أولاد السلطان الى أطراف سجلماسة قدموا الاعلام الى السلطان

واستأذنوه فى التقدم نخرج رحمه الله لملاقاتهم وأمر الاشراف وسائر أهل البلد أن يخرجوا للسلام عليهم ويشاهدوا آلة الحروب التى ليست ببلادهم فخرجوا وخرج السلطان فى موكبه وركبت العساكر خلفه فى أحسن زى وأكمل ترتيب فكان ذلك اليوم من أيام الزينة ولما قضى غرضه من سجلماسة وثقف أطرافها ورتب عربها وبربرها وحسم داء آيت عطة وآيت يفلمال ولى عليهم القائد على بن حميدة الزرارى من كبار قواده وأعيان دولته ثم نهض السلطان الى مراكش بعد ان أقام بسجلماسة شهرا وكان سلوكه الى مراكش على طريق الفائجة ﴿قال صاحب البستان﴾ وكان قد ردنى الى الغرب لآتيه بجيش من أولاد عبيد الثغور وألقاه بهم بمراكش ليزيدهم فى جيشه ويقبضوا السلاح والكسوة بها ولما انتهى السلطان فى طريقه الى ثنية الكلاوى نزل عليه الثلج الكبير فسد المسالك وتفرقت العساكر فى كل وجه وحال الثلج بينهم وبين أخبيتهم ورحالهم وبات السلطان منتبذا ناحية عن مضاربه وقبابه معزولا عن طعامه وشرابه ولم تلتق طائفة من العسكر مع صاحبتها الى ان طلعت الشمس فرفع الله عنهم الثلج وأصبح ذلك اليوم عيد الاضحى فخطب السلطان الناس بنفسه ودعا للسلطان عبد الحميد بن أحمد العثمانى ودخل مراكش سالما معافى وسلم الله العسكر من ذلك الثلج فلم يهلك منه أحد والحمد لله

﴿خروج السلطان سيدى محمد بن عبد الله الى الصويرة بقصد النزهة واغتنام الراحة وما اتفق له فى ذلك﴾

لما قدم السلطان سيدى محمد بن عبد الله رحمه الله من سجلماسة الى مراكش أقام بها الى ان دخل فصل الربيع فاعتزم على الخروج الى الصويرة والوقوف عليها ومعاينة مبانيها ومعالمها اذ كان له ولوع بهذه المدينة التى أنشأها واغتباط بها وقصد أيضا زيارة رجال رجراجة بالساحل والتبرك بآثارهم وكانت سفرته هذه سفرة فرجة وجمام نفس واغتنام لذة فأشخص معه جماعة من علماء العصر وأئمته فكان على عليهم الحديث النبوى ويؤلفونه على مقتضى اشارته منهم الفقيه العلامة المشارك أبو عبد الله محمد ابن الامام سيدى عبد الله الغربى الرباطى والفقيه العلامة المحقق أبو عبد الله محمد المير السلاوى والفقيه الدراكة أبو عبد الله محمد الكامل الرشيدى والفقيه العلامة أبو زيد عبد الرحمن أبو خريص هؤلاء أهل مجلسه الذين كانوا يؤلفون له ويسردون ويخوضون فيما يجمعه ويستخرجه من كتب الحديث التى جلبها من المشرق كمسند الامام أحمد ومسند أبى حنيفة وغيرهما وكان معه جماعة وافرة من الكتاب المعتبرين فى الانشاء والترسيل كالسيد المهدى الحكاك المراكشى والسيد عبد الرحمن بن الكامل المراكشى والسيد أحمد بن عثمان المكناسى والسيد أحمد الغزال الفاسى والسيد محمد سكيرج الفاسى والسيد الطاهر بنانى الرباطى والسيد الطاهر بن عبد السلام السلاوى والسيد سعيد الشليح الجزولى والسيد ابراهيم اقبيل السوسى وصاحب البستان أبى القاسم الصيانى وغيرهم وكان خروجه لهذه الفرجة سنة ثمان وتسعين ومائة وألف فى فصل الربيع فضربت قبابه بظاهر مراكش ثم ضرب عليها السياج المحيط بها المسمى بافراك وفى وسط تلك القباب القبة العظمى التى أهداها اليه طاغية الفرنج وكانت مبطنة بالديباج ومحاريبها من الموبر الحر المختلف الالوان وسفائفها من الكالون الابريز وأطنابها من الحرير الصافى زعموا أن مبلغ ما صير عليها الطاغية نحو خمسة وعشرين ألف دينار ومصداق ذلك أن تفافيحها التى تكون فى أعلا العامود وتسميها العامة بالجور كانت من الذهب الخالص وزنها أربعة آلاف مثقال ذهبا وكان السلطان رحمه الله قد أخرجها فى هذه النوبة ابتهاجا بها وخرج معه الخاصة من القواد والكتاب وغيرهم بفازاتهم الرفيعة ومضاربهم البديعة ثم توجه فى ذلك الموكب العجيب يرتاد البلاد النزهة والاماكن البهجة التى تروق الطرف وتستغرق الوصف وتبسط النفس وتجلب الانس فأقام شهرين كاملين يتقلب فى تلك البسائط ويستوفى اللذات ويتقرى المعاهد ويقتنص الطائر والشارد الى ان وصل الى ثغر الصويرة فوقف عليه وقضى غرضه منه على الوجه الاكمل وانقلب راجعا

الى حضرته فاجتاز فى طريقه برباط شاكر وهو من مزارات المغرب المشهورة وكان مجمعا للصالحين من قديم الزمان ووقع فى التشوف أن شاكرا الذى ينسب اليه هذا الرباط من أصحاب عقبة بن نافع الفهرى فاتح المغرب وانه هنالك فلما مر به السلطان سيدى محمد بن عبد الله رحمه الله فى سفرته هذه أمر بتجديد مسجده وحفر أساسه وتشييده وفى قفوله طاح مع وادى نفيس الى ان بلغ مدينة اغمات فزار ضريح الشيخ أبى عبد الله الهزميرى وغيره من صلحائها ونزل بمحلته تحت القرية ولما استقر به المنزل جاءه جماعة من أهلها مع قاضيهم بكبش جيد وآنية فيها شئ من الشهد فدخل القاضى على السلطان ولما مثل أمامه آنسه السلطان بالكلام وسأله عن أشياخه فأجاب بما لا طائل تحته فقال السلطان للحاجب ابعث بالقاضى الى خباء القاضى أبى زيد عبد الرحمن بن الكامل وهو الذى يتوجه قاضيا مع المحلة الى السوس ان شاء الله فانزله عليه وادفع له هذا الكبش وهذا العسل فسار الحاجب بالقاضى وبالكبش والعسل الى خباء قاضى العسكر أبى زيد بن الكامل وأمره أن يكرم القاضى ليلته ومن الغد ارتحل السلطان قافلا الى مراكش فلما تعالى النهار نزل على وادى نفيس وضرب له هنالك صيوان الراضة على شاطئ النهر ثم استدعى القاضى أبا زيد وسائر الكتاب ولما جلسوا بين يديه سأل القاضى على وجه المداعبة وقال له بم أجزت ضيفك على كبشه وعسله فتعلثم فى الجواب وعلم أن السلطان قصد اختباره بذلك وانه لم يصنع شيأ حيث أهمل أمره ولما رأى رحمه الله حالته قال فلعلك لم تجزه فلو مدحته على كبشه وعسله لصادفت المقصود وخرجت من العهدة وما بعثت اليكم الا بسبب هذا الكبش والعسل فانى سهرت ليلتى ولم أنم وذكرت ما اتفق للمنصور السعدى مع كتابه فى مثل هذه القضية وعلمت أنه لم يبق فى وقتنا هذا كتاب ولا أدباء ولا أمراء وسأسمعكم ما اتفق للمنصور فى زيارته هذه القرية الاغماتية ثم أمر كاتبه ابن المبارك أن يقرأ عليهم ما حكاه الفشتالى فى مناهل الصفا عن خروج المنصور السعدى الى أغمات بقصد الزيارة والنزهة وما اتفق للقاضى أبى مالك عبد الواحد الحميدى مع من أهدى له الكبش والعسل من الشعر والذى شايعه عليه جماعة من كتاب الدولة وقد ألممنا بخبر هذه الخرجة للمنصور عند ذكر أخباره حسبما مر وقد ذكر صاحب النزهة أبيات الحميدى ومن قفا نهجه من الكتاب فلتنظر هنالك فقرأ الكاتب المذكور الترجمة كلها على الكتاب حتى سمعوها وعاب السلطان عليهم تقصيرهم فى قضيتهم الموافقة لها وفى ظنى أن السلطان رحمه الله أمرهم بنسخ ذلك ومراجعته تحريكا لهمتهم والله أعلم

﴿ذكر السبب الذى هاج غضب السلطان سيدى محمد بن عبد الله على ابنه المولى يزيد رحمه الله﴾

﴿ثم دخلت سنة تسع وتسعين ومائة وألف﴾ فيها قدم ولد السلطان المولى عبد السلام من الحجاز فولاه السلطان رحمه الله تارودانت والسوس وما اليها ثم لما حضر زمان خروج الركب الحجازى أحضر السلطان صهره وابن عمه المولى عبد الملك بن ادريس وكاتبيه أبا عبد الله محمد بن عثمان المكناسى وأبا حفص عمر الوزيرى وشيخ الركب أبا محمد عبد الكريم بن يحيى وحملهم على وجه الامانة مالا لاشراف مكة والمدينة وسائر الحجاز واليمن وقدره ثلاثمائة ألف ريال وخمسون ألف ريال وبعث معهم صلات أخر لاناس معينين فى حقاق مختوم عليها مكتوب على كل واحد منها اسم صاحبه وأمرهم أن يذهبوا أولا الى القسطنطينية حتى يكون مسيرهم الى الحجاز مع أمين الصرة الذى يوجهه السلطان العثمانى الى الحرمين كل عام وانما ارتكب السلطان هذه المشقة حذرا من ابنه المولى يزيد أن يعترضهم فى الطريق وينتزع منهم المال فبعثهم السلطان فى البحر فى بعض قراصين السلطان عبد الحميد وكتب اليه أن يبعثهم مع أمين صرته فلما وصلوا الى القسطنطينية وجدوا أمين الصرة قد سافر بالركب الى الحجاز فاقاموا بها الى العام القابل وحينئذ سافروا وصحبة الركب ولما وصلوا الى المدينة المنورة فرقوا على أهلها وعلى سائر

شرفاء الحجاز حظهم من المال ولما وصلوا الى مكة وجدوا المولى يزيد بها يترصدهم ففرقوا على أهل مكة حظهم وبقى عندهم حظ أهل اليمن والحقاق التي فيها صلات الذهب فتغفلهم المولى يزيد وقت القيلولة وهجم عليهم في جمع من أصحابه وهم بدار شيخ الركب عبد الكريم بن يحيى فانتزع منهم ما قدر عليه وأخذ الحقاق وذهب فذهب شيخ الركب والمولى عبد الملك والكاتبان الى أمير مكة الشريف سرور وأخبروه الخبر فبعث أعوانه الى المولى يزيد فحضر عنده وألزمه رد المال وتهدده فرد البعض وجحد البعض فبسبب هذا وأمثاله اشتد غضب السلطان عليه وتبرأ منه وكتب بالبراءة منه مناشير بعث بها الى الآفاق فعلق أحدها بالكعبة والآخر بالحجرة النبوية والثالث ببيت المقدس والرابع بضريح الحسنين بمصر والخامس بضريح المولى على الشريف بتافيلالت والسادس بضريح المولى ادريس بزرهون والسابع بضريح المولى ادريس بفاس وكتب الى السلطان عبد الحميد بان لا يقبله اذا أوى اليه واستمر المولى يزيد مقيما بالمشرق ولم يقدر أن يواجه أباه لسوء صنيعه الى سنة ثلاث ومائتين وألف كما سيأتي ان شاء الله * وفي هذه السنة أعني سنة تسع وتسعين ومائة وألف أسر أهل الجزائر نصرانية من قرابة طاغية الاصبنيول كانت متوجهة في مركبها من اصبانيا الى نابل لزيارة ابن عمها الذي هو صاحب نابل فلما عرف أهل الجزائر محلها من قومها امتنعوا من فدائها بكل وجه فكتب طاغية الاصبنيول الى السلطان رحمه الله يسأله أن يشفع له في فدائها بكل ما يطلبون فاسعفه وكتب لصاحب الجزائر في شأنها فاعتذر اليه بان النصرانية في سهم العسكر ولا يمكنه اكراههم على فدائها فلما رد صاحب الجزائر شفاعة السلطان كتب الى السلطان عبد الحميد بذلك فكتب عبد الحميد رحمه الله الى أهل الجزائر يوبخهم على رد شفاعة السلطان ويقول لهم ان الواجب أن تسرحوها له بدون مال وما عسى أن يبلغ ثمن هذه النصرانية ولو طلب مني سلطان المغرب ألف نصرانية لبعثتها اليه وحتى الآن نأمركم أن تبعثوا اليه بهذه النصرانية ولو كانت هي الملكة ولا تقبضوا فيها فداء أو ما رأيتم ما افتكه ملك المغرب من أسرى الترك من كل جنس حتى لم يبق في أسر الكفار مسلم وأنتم تردون شفاعته في نصرانية لا بال لها فلا تعودوا لمثل هذا فيكون سببا لتغير باطننا عليكم والسلام ولما ورد عليهم فرمان السلطان عبد الحميد لم يسعهم الا ارسال النصرانية الى حضرة السلطان رحمه الله وكتبوا اليه بالاعتذار وقالوا انما امتنعنا من فدائها خوف بلوغ خبرها الى ملكها فلم نر أن نفتات عليه وذلك هو الواجب علينا من طريق الخدمة والطاعة فنحب من سيدنا أن يقبل عذرنا ولا يظن بنا خلاف هذا والسلام

ذكر ما كان من السلطان سيدي محمد بن عبد الله الى أهل زاوية أبي الجعد حماها الله

هذه الزاوية من أشهر زوايا المغرب ولها الفضل الذي يفصح عنه لسان الكون ويعرب تداولها منذ أزمان فحول أكابر وورثوا مقام الولاية والرياسة بها كابرا عن كابر قد عرف لهم ذلك السوقة والملوك والغني والصعلوك ولم تزل الملوك من هذه الدولة وغيرها تعاملهم بالاجلال والاعظام والتوقير والاحترام ولما كانت دولة هذا السلطان الجليل الماجد الاصيل نقم على كبيرها لوقته المرابط البركة أبي عبد الله سيدي محمد العربي ابن الشيخ الاكبر سيدي المعطى بن الصالح بعض ما ينقمه الامير على المأمور والانسان غير معصوم والمخلوق ناقص الامن أكمله الله فاتفق ان كان السلطان رحمه الله قافلا في هذه السنة من رباط الفتح الى مراكش فجعل طريقه على تادلا ونزل على زاوية أبي الجعد فامر على ما قيل بهدمها وطرد الغرباء المنتمين على آل الشيخ بها ثم نقل سيدي العربي المذكور وعشيرته الى مراكش فأسكنهم بها واستمروا على ذلك الى ان توفي السلطان سيدي محمد رحمه الله وبويع ابنه المولى هشام بن محمد بمراكش فاذن لهم في الذهاب الى بلادهم فعادوا الى زاويتهم واطمأنوا بها برهة من الدهر ولما كانت دولة السلطان المولى سليمان بن محمد نقم أيضا على سيدي العربي المذكور أمورا نقلها اليه

الوشاة عنه فامر بنقله الى فاس بعد مكاتبات ومعاتبات يطول جلبها فانتقل اليها وأقام بها مدة ثم سرحه الى بلاده ﴿ثم دخلت سنة مائتين وألف﴾ فيها بعث السلطان سيدى محمد رحمه الله كاتبه أبا القاسم الصيانى باشدورا الى السلطان عبد الحميد العثمانى بهدية عظيمة من جلتها احمال من سبائك الذهب الخالص مثل بارات الحديد وكان السلطان رحمه الله يقصد بمثل ذلك الفخر على الملوك واظهار الغنى وكمال الثروة وذلك من غريب السياسة لمن أقدره الله عليها فقدم أبو القاسم القسطنطينية وألفى بها عبد الملك بن ادريس وشيخ الركب والكاتبين لازالوا مقيمين بها ينتظرون الموسم من العام القابل قال فأقمت بالقسطنطينية ثلاثة أشهر وعشرة أيام وقضيت الغرض وانقلبت الى السلطان وبعث معى السلطان عبد الحميد أحد خدامه بهدية الى السلطان رحمه الله قال ولما قدمنا على السلطان نوه بقدرى وقال لا أوجه الهدايا للعثمانى الامعك وكان الرئيس الطاهر بن عبد الحق فنيش السلاوى حاضرا وقال لا أوجه القراصين الحربية الامع الطاهر يسليه بذلك قال وسألنى عن مقدار راتب عسكر الترك الذى يقبضونه فى كل ثلاثة أشهر فقلت له ستون أوقية لكل واحد فاستقل ذلك فقلت له انه لا يكافهم فى أيام الغزو بمؤنة ولا علف خيل كل أمور السفر عليه ثم ذكر الصيانى هنا كلاما طويلا فى وصف القسطنطينية العظمى وحال أهلها خارجا عن موضوع كتابنا هذا والله الموفق

﴿ذكر عدد عسكر الثغور فى دولة السلطان سيدى محمد بن عبد الله وما كان يقبضه من الراتب﴾

كان بثغر الصويرة أيام السلطان سيدى محمد بن عبد الله رحمه الله ما بين جيش وطبجية وبحرية ألفان وخمسمائة وبآسفى مائتان من الطبجية ومائتان من البحرية وبتيط خمسمائة من العبيد وبآزمور خمسمائة منهم كذلك وبآنفى ألفان من العبيد وبالعدوتين ألفان من الطبجية والبحرية وبالمهدية ألفان وخمسمائة من العبيد وبالعرائش ألف وخمسمائة ما بين جيش وطبجية وبحرية وبآصيلا والساحل مائتان ما بين طبجية وبحرية وبطنجة ثلاثة آلاف وستمائة من أهل الريف وبتطاوين ثمانمائة ما بين جيش وطبجية وبحرية فكانت جملة عساكر الثغور ستة عشر ألفا وخمسمائة وراتبهم ثلاثون أوقية لكل واحد فى كل ثلاثة أشهر من حساب مثقال للرأس فى كل شهر وكانوا فى ابتداء الامر يقبضون راتب كل شهر عند انتهائه فلما كانت هذه السنة أعنى سنة مائتين وألف أنعم السلطان رحمه الله على عساكر الثغور بتجميل راتب خمس عشرة سنة بحساب مثقال للرأس فى كل شهر وهذا مال له بال فانه يقارب ثلاثة ملايين فعل ذلك رحمه الله اعانة لهم وتوسعة عليهم ثم أمر أن يجعل فى كل مرسى من مراسى المغرب بيت مال وعند تمام كل ثلاثة أشهر يفتح بيت المال ويعطى لعسكر ذلك الثغر ثلاثون أوقية للرأس حضروا أم غابوا اعانة لهم على عيالهم وأما عطاء الغزو وعطاء عاشوراء والصلات والصدقات فكان يبعث بذلك كله من عنده لا من بيوت الاموال واستمر الحال على ذلك الى ان توفى رحمه الله فوثب عبيد الثغور على بيوت أموالها فنحوها واكتسحوها ثم سار والى مكناسة مسقط رأسهم وكان ذلك باشارة المولى يزيد رحمه الله ﴿ثم دخلت سنة احدى ومائتين وألف﴾ فيها غزى السلطان قبيلة اشراقة باحواز فاس فنهبهم وشردهم فلجؤا الى ضريح الشيخ أبى الشتاء بفشتالة فعفا عنهم ثم سار الى الحياينة فاطلق الجيش فى زروعهم فحصدوها ودرسوها واستصفوها عن آخرها ثم جرد الخيل فى طلبهم فاكتسحوا احلاهم وأثاثهم ﴿قال صاحب البستان﴾ وكنت يومئذ قد توجهت بجيش الى عامل وجدة أبلغه اياه فلما رجعت أدركت السلطان ببلاد الحياينة فقلدنى ولاية تازا وأعمالها فسرت اليها وأقمت بها سنة كاملة وفى هذه السنة قدم ولد السلطان المولى مسلمة بن محمد من المشرق مفارقا لاخيه المولى يزيد ﴿ثم دخلت سنة اثنتين ومائتين وألف﴾ فيها أرسل السلطان رحمه الله الى آيت عطة يأمرهم أن يبعثوا بستمائة رجل منهم وباربعمائة من عبيد تافيلالت فالمجموع ألف ليكسوهم ويسلحهم ويستعملهم فى خدمة البحر

وجندته فبعثوا بهم اليه ﴿قال صاحب البستان﴾ ولما قدموا عليه بمكناسة استدعانى من تازا فقدمت عليه فأمرنى أن أتوجه بهم الى تطاوين كى يقبضوا السلاح والكسوة بها ثم أسير بهم الى طنجة يكونون بها وأمرنى أن أكون أتعاهدهم بركوب الغلائط العشرين التى بمرساها والخروج بها الى البوغاز وسواحل اصبانيا والتردد فيها بينهما ليتدربوا على البحر ويتمرنوا به قال فذهبت بهم الى تطاوين على مارسم السلطان رحمه الله فأخذوا السلاح والكسوة ونفذنا الى طنجة فاقنا بها شهرين وكل يوم يركبون السفن ويتطاردون بها فيما بينهم فتارة يخرجون الى البوغاز وتارة يطرقون سواحل اصبانيا وتارة يرجعون الى ان زالت عنهم دهشة البحر وفارقهم ميده وألفوه ولما أقبل فصل الشتاء كتب الى السلطان بالقدوم بهم فلما حللنا مكناسة أمر رحمه الله بعمارة المشور لدخولنا عليه فلما مثلنا بين يديه دنا منا الى ان كان فى وسطنا وكلم البربر بلسانهم وسألهم عن حالهم فى سفرهم فذكروا خيرا فسر ذلك منهم ونشط ثم قال لهم هذا كاتبى وصاحبى قد وليته عليكم وعلى أولادى وبنى عمى وسائر أهل الصحراء فاسمعوا له وأطيعوا قال ففزعت وخرس لسانى وفهم السلطان عنى الكراهية لذلك ثم دخل بستانه وبعث الى فدخلت عليه فقال لى طب نفسا ولولا انى أحبك ماوليتك على أولادى وأهل بيتى وانى لا أستغنى عنك وهذا ابن حيدة الذى وليناه بسجلماسة لم تظهر له ثمرة وكل يوم يأتينى بشكوى بولدى الحسين وتطاوله على الناس ولا يمنعه من ذلك وماوليتك عليهم الا لهذا الغرض فانهم يهابونك لمحلك منى ثم كتب الى جميع أولاده وأعيان سجلماسة وأمرنى بعمال للصائر والبناء وعينه ثم ودعته وانفصلت فخرجت من مكناسة الى فاس ثم منها الى سجلماسة فدخلتها واستوطنتها وجاء العامل الذى كان بها قبلى حتى قدم على السلطان فقبض عليه ونكبه

﴿قدوم المولى يزيد من المشرق واحترامه بضريح الشيخ عبد السلام ابن مشيش رضى الله عنه والسبب فى ذلك﴾

﴿ولما كانت سنة ثلاث ومائتين وألف﴾ قدم ولد السلطان المولى يزيد بن محمد من المشرق فى ركب الحاج الفيلالى وقصد سجلماسة فلما كان بقرية أبى صمغون لقيه رفقة من أهل سجلماسة فسألهم عن البلاد وأهلها ومن المتولى عليها فقالوا أبو القاسم الصيانى فلما سمع المولى يزيد ذلك سقط فى يده ووجم ثم التفت الى شيخ الركب الشريف المولى عبد الله بن على والى الاشراف الذين معه فقال لهم انى كنت عازما على الوصول معكم الى بلدكم والاستجار بضريح جدى المولى على الشريف وأبعث مع أعيان بنى عمى وذوى أسنانهم من يشفع لى عند أبى والآن حيث كان الوالى بهذه البلدة هو الصيانى فلا يستقيم لى معه أمر ولا يخيط بينى وبين والدى بخيط أبيض وهؤلاء عيالى فخذوهم بارك الله فيكم واذهبوا بهم مع أصحابى ينزلون بدار أخى المولى سليمان ويكونون بها وأما أنا فأسير الى ضريح الشيخ عبد السلام بن مشيش أكون به حتى يقضى الله أمرا كان مفعولا ثم قدم عياله مع أصحابه فى جملة الركب وكتب الى أخيه المولى سليمان يوصيه بعياله خيرا وكتب أيضا الى شقيقته المولاة حبيبة بالرتب والى بنى عمه الذين هنالك وبعث بالمكاتيب مع أصحابه ولما وصل الركب الى بلاد القنادسة تقدم أحد أصحابه بالمكاتيب الى المولى سليمان ولما قرأها توقف ولم يدر مايصنع ثم جاء بها الى أبى القاسم الصيانى وأخبره الخبر وقال ان والدى غاضب عليه وان أنا قبلت عياله فربما ألحقنى به فى العمل فكتب أبو القاسم الى شيخ الركب ينهاه عن استصحاب عيال المولى يزيد معه وحذره غضب السلطان عليه وقال له ان أردت السلامة لنفسك فابعث بالعيال الى المولاة حبيبة بالرتب والسلام ولما وصل كتابه الى شيخ الركب وكانت فيه غفلة تجع فيه كلامه فحبس الركب الى ان وصل أصحاب المولى يزيد بعياله فبعث معهم من يدلهم على طريق الرتب فسلكوا على وادى كثير ونزلوا عند المولاة حبيبة وكتب أبو القاسم الصيانى بالخبر الى السلطان فزعم انه استحسن فعله

ثم أمره أن يهيئ الظهر والزاد ويبعث بهما الى عيال المولى يزيد مع ثلاثين من العبيد ليأتوا بهم الى دار الدبيبغ يكونون بجامع أمه وكان السلطان قد أخرجهما من الدار وأسكنها بدار الدبيبغ ففعل الزياني ذلك كله وبهذه القضية كان المولى يزيد يمتد على الصياني حتى انه لما أفضى اليه الامر قبض عليه وضربه وامتحنه ولما وصل المولى يزيد الى ضريح الشيخ عبد السلام رضى الله عنه بعث جماعة من أشراف العلم للشفاعة فيه فأمرهم السلطان أن يأتوا به فراودوه على الاتيان فامتنع ثم بعث اليه ثانيا فأبى ثم ثالثا فأبى فكتب اليه بالعفو مرارا فلم يقبل وتصدى للخلاف وكشف وجه العصيان وصار يكتب لوالده بما يحفظه هكذا زعم الصياني ولا يخفى أن الرجل كان مناويا له فلا ينبغى أن نسمع منه جميع ما ينسبه اليه والله أعلم بحقيقة الامر ثم ان السلطان بعث اليه شقيقه المولى مسلمة فى عسكر وأمره أن ينزل بقربه ويضيق عليه ويمنعه النزول من الحرم ثم بعث اليه عسكرا آخر مع القائد العباس البخارى فنزلوا بقرب الحرم من الناحية الاخرى وضيقوا عليه حتى منعوه التصرف بكل حال وفى مدة مقامه هنالك أخذ فى تأسيس داره وبناء مسجده ولا زالت جدرانها قائمة أسفل الجبل الى الآن واستمر المولى يزيد محصورا هنالك الى ان بلغه خبر وفاة أبيه رحمه الله فكان من أمره ما نذكره ان شاء الله

﴿وفاة أمير المؤمنين سيدى محمد بن عبد الله رحمه الله﴾

لما اعتصم المولى يزيد بضريح الشيخ عبد السلام بن مشيش رضى الله عنه وراوده السلطان على النزول مرارا فأبى نهض اليه من مراكش وأراد أن يحضر عنده بنفسه لعله تسكن نفسه ويذهب ما بصدره من الجزع والنفرة وكان عند خروجه من مراكش به مرض خفيف فتحمل المشقة وجد السير فتزايد به المرض فى الطريق فوصل الى اعمال رباط الفتح فى ستة أيام فادركته منيته رحمه الله وهو فى محفته على نحو نصف يوم أو أقل من رباط الفتح فأسرعوا به الى داره من يومه ذلك وهو يوم الاحد الرابع والعشرون من رجب سنة أربع ومائتين وألف ومن الغد اجتمع الناس لجنازته وانحشروا من كل وجه فجهز ودفن بقبة من قبب داره وتأسف الناس لفقده خاصة وعامة رحمه الله ورضى عنه

﴿بقية أخبار السلطان سيدى محمد بن عبد الله ومآثره وسيرته﴾

كان السلطان سيدى محمد بن عبد الله رحمه الله محبا للعلماء وأهل الخير مقربا لهم لا يغيبون عن مجلسه فى أكثر الاوقات وكان يحضر عنده جماعة من أعلام الوقت وأئمته منهم الفقيه العلامة المشارك أبو عبد الله محمد ابن الامام سيدى عبد الله الغربى الرباطى والفقيه العلامة المحقق أبو عبد الله سيدى محمد المير السلاوى والفقيه الدراكة أبو عبد الله محمد الكامل الرشيدى والفقيه السيد أبو زيد عبد الرحمن المدعو بابى خريص هؤلاء أهل مجالسه الذين كانوا يسردون له كتب الحديث ويخوضون فى معانيها ويؤلفون له ما يستخرجه منها على مقتضى اشارته وكانت له عناية كبيرة بذلك وجلب من بلاد المشرق كتبا نفيسة من كتب الحديث لم تكن بالمغرب مثل مسند الامام أحمد ومسند أبى حنيفة وغيرهما وألف رحمه الله فى الحديث تآليف باعانة الفقهاء الذين ذكرناهم آنفا منها كتاب مساند الائمة الاربعة وهو كتاب نفيس فى مجلد ضخم التزم فيه أن يخرج من الاحاديث ما اتفق على روايته الائمة الاربعة أو ثلاثة منهم أو اثنان فاذا انفرد بالحديث امام واحد أو رواه غيرهم لم يخرجه وهذا المنوال لم يسبق اليه رحمه الله وكان كثيرا ما يجلس بعد صلاة الجمعة فى مقصورة الجامع بمراكش مع فقهائها ومن يحضره من علماء فاس وغيرهما للمذاكرة فى الحديث الشريف وتفهمه ويحصل له بذلك النشاط التام وكان كثيرا ما يتأسف أثناء ذلك ويقول والله لقد ضيعنا عمرنا فى البطالة ويتحسر على ما فاته من قراءة العلم أيام الشباب ولما فاته الاشتغال بفنون العلم فى حال الصغر اعتكف أولا على سرد كتب التاريخ وأخبار

الناس وأيام العرب ووقائعها الى ان تملى من ذلك وبلغ فيه الغاية القصوى وكاد يحفظ ما فى كتاب الاغانى لابى الفرج الاصبهانى من كلام العرب وشعراء الجاهلية والاسلام ولما ولاه الله أمر المسلمين بعد وفاة والده زهد فى التاريخ والادب بعد التضلع منهما وأقبل على سرد كتب الحديث والبحث عن غريبها وجلبها من أماكنها ومجالسة العلماء والمذاكرة معهم فيها ورتب رحمه الله لذلك أوقاتا مضبوطة لا تنخرم حذا بها حذو المنصور السعدى فى أوقاته المرسومة عند الفشتالى فى مناهل الصفا حتى انه كان اذا خرج لزيارة أو صيد أو نزهة أيام الربيع وأقام الاسبوع ونحوه فاذا حانت الجمعة ودخل تحرّى النزول بمنازل المنصور التى كان ينزل بها وقت خروجه لزيارة اغمات ونحوها ورجوعه ويقول هذه منازل المنصور رحمه الله وهو استاذنا فى مثل هذه الامور ومن عجيب سيرته رحمه الله انه كان يرى ان اشتغال طلبة العلم بقراءة المختصرات فى فن الفقه وغيره واعراضهم عن الامّهات المبسوطة الواضحة تضييع للاعمار فى غير طائل وكان ينهى عن ذلك غاية ولا يترك من يقرأ مختصر خليل ومختصر ابن عرفة وأمثالهما ويبالغ فى التشنيع على من اشتغل بشئ من ذلك حتى كاد الناس يتركون قراءة مختصر خليل وانما كان يحض على كتاب الرسالة والتهذيب وأمثالهما حتى وضع فى ذلك كتابا مبسوطا أعانه عليه أبو عبد الله الغربى وأبو عبد الله المير وغيرهما من أهل مجلسه ولما أفضى الامر الى السلطان العادل المولى سليمان رحمه الله صار يحض الناس على التمسك بالمختصر ويبذل على حفظه وتعاطيه الاموال الطائلة والكل مأجور على نيته وقصده غير انا نقول الرأى ما رأى السلطان سيدى محمد رحمه الله وقد نص جماعة من أكابر الاعلام النقاد مثل الامام الحافظ أبى بكر بن العربى والشيخ النظار أبى اسحق الشاطبى والعلامة الواعية أبى زيد عبد الرحمن بن خلدون وغيرهم ان سبب نضوب ماء العلم فى الاسلام ونقصان ملكة أهله فيه اكباب الناس على تعاطى المختصرات الصعبة الفهم واعراضهم عن كتب الاقدمين المبسوطة المعانى الواضحة الادلة التى تحصل لمطالعها الملكة فى أقرب مدة ولعمرى لا يعلم هذا يقينا الا من جرّبه وذاقه وقد تقدم لنا فى صدر هذا الكتاب أن ملوك بنى عبد المؤمن كانوا يحملون الناس على الرجوع فى الاحكام الى الكتاب والسنة كل ذلك اعتناء بالعلم القديم ومحافظة على أصوله والله يهدى من يشاء الى صراط مستقيم وكان السلطان سيدى محمد بن عبد الله رحمه الله ينهى عن قراءة كتب التوحيد المؤسسة على القواعد الكلامية المحررة على مذهب الاشعرية رضى الله عنهم وكان يحض الناس على مذهب السلف من الاكتفاء بالاعتقاد المأخوذ من ظاهر الكتاب والسنة بلا تأويل وكان يقول عن نفسه حسبما صرح به فى آخر كتابه الموضوع فى الاحاديث المخرجة من الائمة الاربعة انه مالكى مذهبا حنبلى اعتقادا يعنى انه لا يرى الخوض فى علم الكلام على طريقة المتأخرين وله فى ذلك أخبار وماجريات ﴿قلت﴾ وهو مصيب أيضا فى هذا فقد ذكر الامام أبو حامد الغزالى رضى الله عنه فى كتاب الاحياء ان علم الكلام انما هو بمنزلة الدواء لا يحتاج اليه الا عند حدوث المرض فكذلك علم الكلام لا يحتاج اليه الا عند حدوث البدعة فى قطر وقد حرر الناس القدر المحتاج اليه فى حق العامة وغيرهم والمبتدئين والمنتهين والاغبياء والاذكياء بما ليس هذا محل بسطه وكان السلطان سيدى محمد رحمه الله عالى الهمة يحب الفخر ويركب سنامه ويخاطب ملوك الترك مخاطبة الاكفاء ويخاطبونه مخاطبة السادة ويعدهم بالاموال والهدايا حتى علا صيته عندهم وحسبوه أكثرهم مالا ورجالا وكان يعطى عطاء من لا يخاف الفقر ويضع الاشياء مواضعها ويعرف مقادير الرجال ويؤدّى حقوقهم ويتجاوز عن هفواتهم ويراعى لاهل السوابق سوابقهم ويتفقد أحوال خدامه فى الصحة والمرض ولا يغفل عمن كان يعرفه قبل الملك وكان من الشجعان المذكورين فى وقته يباشر الحروب بنفسه ويهزم الجيوش بهيبته وكان يقتنى الرجال ويصطنعهم ويعدّهم لايام الكريهة وينادى كل واحد باسمه وقت اللقاء والحضور عنده ويوجه كل بطل

منهم مع قبيلة أو كتيبة من كتائب الجند ويعمل بقواعد السياسة في الحروب وكان اذا وجه أحدا ممن يعرف نجدته وكفايته ينشد قول ابن دريد

والناس ألف منهم كواحد * وواحد كالالف ان أمر عنا

وبالجملة فقد كان رحمه الله من عظماء الملوك وخلد آثارا كثيرة بالمغرب فمن ذلك بمراكش تجديد ضريح الشيخ أبي العباس السبتي ومسجده ومدرسته وضريح الشيخ التباع ومسجده وضريح الشيخ الجزولي ومسجده وضريح الشيخ الغزواني ومسجده وضريح الشيخ ابن صالح ومسجده وضريح المولى علي الشريف ومسجده الاعظم وضريح الشيخ ميمون الصحراوي ومسجد الملوك ببريمة ومدرستاه وتجديد جامع المنصور والمسجد الاعظم بباب دكالة والمسجد الاعظم بباب هيلانة والمسجد الاعظم بالرحبة ومساجد القصبة ومدارسها الست ومسجد زاوية الشرادي ومسجد رباط شاكر ومدينة الصويرة بمساجدها ومدارسها وصقائلها وأبراجها وكل مافيها ومسجد آسفي ومدرسته ومسجد مدينة تيط ومدينة آنفي ومسجدها ومدرستها وحمامها وصقائلها وأبراجها ومدينة فضالة ومسجدها ومدرستها والمنصورية ومسجدها وجامع السنة برباط الفتح ومساجد أجدال السنة وأبراجه والصقالتين الكبيرتين بسلا ورباط الفتح ومسجد العرائش ومدرسته وصقائلها وأبراجها وسوقها وصقائل طنجة وأبراجها والمسجد الازهر ومدرسته باصطبل مكناسة ومسجد البردعيين بها وضريح الشيخ ابن عيسى وضريح الشيخ أبي عثمان سعيد ومسجده ومدرسة الصهريج ومدرسة الدار البيضاء ومسجد بريمة ومدرسته ومسجد هدراش ومسجد باب مراح وثلاثة أقواس بقنطرة وادي سبو اخارج فاس وضريح الشيخ علي بن حرزهم وضريح الشيخ دراس بن اسمعيل وضريح أبي عبد الله التاودي ومدرسة باب الجيسة ومسجد تازا ومدرسته وضريح المولى علي الشريف بسجلماسة وقصبة الدار البيضاء بها ومسجدها ومدرستها ومسجد الريصاني ومدرسته وأوقافه على المارستان بفاس ومراكش فهذه الآثار كلها سمت الى تخليدها همته الشريفة بعضها أنشأها وبعضها أصلحه وجدده ورتب للاشراف بتافيلالت في كل سنة مائة ألف مثقال سوى ماينعم به عليهم في أيام السنة متفرقا ورتب لاهل الحرمين الشريفين وشرفاء الحجاز واليمن مائة ألف مثقال أيضا في السنة ولشرفاء المغرب مائة ألف مثقال كذلك وأما الطلبة والمؤذنون والقراء وأئمة المساجد فكانت تأتيهم صلاتهم في كل عيد وأما ما كان ينفقه في الجهاد على رؤساء البحر وطبجيته ومايصيره على المراكب الجهادية والآلات الحربية التي ملأ بها بلاد المغرب فشئ لايحصيه الحصر وأما ما أنفقه من الاموال في فكاك أسرى المسلمين فأكثر من ذلك كله حتى لم يبق ببلاد الكفر أسير لا من المغرب ولا من المشرق ولقد بلغ عددهم في سنة مائتين وألف ثمانية وأربعين ألف أسير وزيادة وأوقافه بالحرمين الشريفين وكتبه العلمية المحبسة بهما لازالت قائمة العين والاثر الى الآن وأما اعتناؤه بالمراكب القرصانية فقد بلغ عددها في دولته عشرين كبارا من المربع وثلاثين من الفراكط والغلائط وبلغ رؤساء البحر عنده ستين رئيسا كلها عرابكها وبحريتها وبلغ عسكر البحرية ألفا من المشارقة وثلاثة آلاف من المغاربة ومن الطبجية ألفين وبلغ عسكره من العبيد خمسة عشر ألفا ومن الاحرار سبعة آلاف وأما عسكر القبائل الذي كان يغزو مع الجند فمن الحوز ثمانية آلاف ومن الغرب سبعة آلاف وكانت له هيبة عظيمة في مشوره وموكبه يتحدث الناس بها وهابته ملوك الفرنج وطواغيتهم ووفدت عليه رسلهم بالهدايا والتحف يطلبون مسالمته في البحر بلغ ذلك رحمه الله بسياسته وعلو همته حتى عمت مسالمته أجناس النصارى كلهم الا المسكوب فانه لم يسالمه لمحاربته للسلطان العثماني ولقد وجه رسله وهديته الى طنجة فردها السلطان رحمه الله وأبى من مسالمته ووظف على الاجناس الوظائف فالتزموها وكانوا يؤدونها كل سنة واستمر ذلك من بعده الى ان انقطع في هذه السنين المتأخرة

وكانوا يستجلبون مرضاته بالهدايا والالطاف وكل ما يقدرون عليه ومهما كتب الى طاغية فى أمر سارع اليه ولو كان محرما فى دينه ويحتال فى قضاء الاغراض منهم بكل وجه أحبوا أم كرهوا وكان أعظم طواغيتهم طاغية انجليز وطاغية الفرنسيس فكانوا يأنفون من أداء الضريبة علانية مثل غيرهم من الاجناس فكان رحمه الله يستخرجها منهم وأكثر منها بوجه لطيف وكان له عدة أولاد أكبرهم أبو الحسن علىّ والمأمون وهشام وعبد السلام هؤلاء لربة الدار المولاة فاطمة بنت عمه سليمان بن اسمعيل ثم عبد الرحمن أمه حرة هوارية من هوارة السوس ثم يزيد ومسلمة أمهما علجة من سبى الاصبنيول ثم الحسن وعمر أمهما حرة من الاحلاف ثم عبد الواحد أمه حرة من أهل رباط الفتح ثم سليمان والطيب وموسى لحرة من الاحلاف أيضا ثم الحسن وعبد القادر لحرة من الاحلاف أيضا ثم عبد الله لحرة من عرب بنى حسن ثم ابراهيم لعلجة رومية ومما مدح به السلطان سيدى محمد بن عبد الله رحمه الله من الشعر أرجوزة الاديب البليغ أبى العباس أحمد الونان المعروفة بالشمقمقية التى يقول فى مطلعها

مهلا على رسلك حادى الاينق * ولا تكلفها بما لم تطق

وهذه الارجوزة مشهورة بين الناس وهى من الشعر الفائق والنظم البديع الرائق أبان منشئها عن باع كبير واطلاع غزير على أخبار العرب وأيامها وحكمها وأمثالها بحيث ان من حفظها وعرف مقاصدها أغنته عن غيرها من كتب الادب وقد كنت فى أيام التعاطى اعتنيت بتصحيح ألفاظها والتتبع لاخبارها وأمثالها والتنقير عن تلميحاتها وتلويحاتها حتى فضضت ختامها واستوعبت مبدأها وتمامها ثم شرعت فى كتابة شرح عليها يحيط بمعانيها ويستوعب دقائق مبانيها فكتبت منه نحو أربعة كراريس ثم عاقت الاقدار عن اتمامه نسأله سبحانه وتعالى أن يصرف عنا العوائق فيما ينفعنا فى ديننا ودنيانا ويحفنا بالسعادة الدنيوية والاخروية فى متقلبنا ومثوانا انه ولىّ ذلك والقادر عليه

قال مؤلف هذا الكتاب وقد منّ الله تعالى باتمامه فجاء والحمد لله غاية فى بابه

﴿ومن وزراء السلطان سيدى محمد بن عبد الله رحمه الله﴾ الوزير الشهير أبو عبد الله محمد العربى قادوس المدعو افاندى كان من موالى السلطان وغرس نعمته وربىّ دولته وأصله من أعلاج الاصبنيول وكان شعلة من الذكاء والفطنة وركنا شديدا من أركان الدولة المحمدية فى حسن التدبير والحزم الذى لا يعزب عنه من أمور الحضرة قليل ولا كثير وقد أدرك من فخامة الجاه وضخامة الرياسة غاية تفرد بها فى وقته بحيث كانت الاعاظم من وجوه الدولة تقف ببابه اليومين والثلاثة فلا يتيسر لهم لقاؤه ولما توفى السلطان سيدى محمد رحمه الله امتحن المولى يزيد هذا الوزير فى جملة من امتحنه من أهل مراكش كما سيأتى

﴿الخبر عن دولة أمير المؤمنين المولى يزيد بن محمد وأوليته ونشأته رحمه الله﴾

كان المولى يزيد هذا عند والده رحمه الله بعين العناية ملحوظا ومن النقائص محروسا ومحفوظا وكانت عامة أهل المغرب وخاصتهم من الجند والرعية متشوقين له ومغتبطين به يهتفون باسمه ويلهجون بذكره لما كان عليه من الكرم والشجاعة والتمسك بمذاهب الفتوة والدين والاعتناء بجوائز أهل البيت ومحبة أهل الخير واكرامهم واقام الصلوات لاوقاتها حضرا وسفرا لا يشغله عن ذلك شاغل فأصابته عين الكمال وصار ينتقل من حال الى حال حتى خالطته جماعة من الاغمار كانوا فى خدمته فلزموه وحسنوا له الاستبداد على والده والخروج عليه وأتوه من بين يديه ومن خلفه حتى وقر ذلك فى صدره وارتسم فيه وكان ذلك على حين أوان الشبيبة وأخذها منه مأخذها وكانت همته طماحة لا تقف به عند غاية فاستعجل الامر قبل أوانه وخرج على والده بجيش العبيد حسبما مر ولسان حاله ينشد

فان يك عامر قد قال جهلا * فان مظنة الجهل الشباب

فسقطت منزلته عند أبيه بعد أن بلغ من الحظوة لديه ما بلغ وكان يرشحه للخلافة ويقدمه على كبار اخوته

لما ظهر له من نجدته واقتداره وجوده في محل الجود ورغبته في الجهاد وولوعه بصناعة الرمي بالمهراس فأسند اليه أمر الطبجية والبحرية وصار يوجهه مع الرؤساء والطبجية الى الثغور كل سنة ليقف على اللازمين لصقائلها وأبراجها ويعلمهم ما يحتاجون الى تعلمه ولما رآه والده مغتبطا بذلك وتوسم فيه النجابة أقبل عليه بالعطاء ثم ولاه الكلام مع قناصل الاجناس الذين بالمراسي واستنابه في ذلك وفي سنة اثنتين وثمانين ومائة وألف ولاه السلطان على قبيلة كروان وهم يومئذ أعظم قبائل البربر خيلا ورجالا فأسند اليه أمرهم وتقدم اليه في أن يكفهم عن الحرب مع آيت ادراسن فسار اليهم واغتبطوا به واغتبط بهم وصار أحداثهم وأبناء أعيانه يركبون معه للصيد فغمرهم بالعطاء وأنعم عليهم بالخيل والسلاح والكسى ولزموا مجلسه حتى أفسدوا قلبه وحسنوا له الانتزاء على الملك وقالوا هذا بيت المال الذي بقبة الخياطين هو في يدك وليس دونه مانع وبه يقوم ملكك ومتى استدعيت اخواننا آيت ومالو لم يتوقفوا عنك طرفة عين ولا يقوم لهم شيء من الجند وغيره ولم يزالوا يفتلون له في الذروة والغارب حتى شرهت نفسه وصار لا حديث له الا في ذلك واطلع على ذلك قائد الودايا أبو محمد عبد القادر بن الخضر وكان محبا في جانب السلطان صادق الخدمة والطاعة له فكتب اليه بما عليه ولده مع جروان وانهم يأتون اليه بالمائة والمائتين ويبيتون عنده بالقصبة ونحن خفنا أن يبرز من ولدك أمر فتعاقبنا عليه فاخبرناك بالواقع ولما وصل كتابه الى السلطان بعث للحين قائده العباس البخاري في مائة من الخيل للقبض على المولى يزيد وأصحابه وقد قلنا لك أن الجند والرعية معا كانوا مغتبطين بالمولى يزيد فلما وصل القائد العباس الى سلادس الى المولى يزيد أنه مقبوض فلينج بنفسه فخرج المولى يزيد من مكناسة ليلا في خاصته وأصحابه من جروان وقصدوا آيت ومالوا ولما وصل القائد العباس الى مكناسة ألفاها مقفرة من المولى يزيد وشيعته فاقام بها وكتب الى السلطان يعلمه بالخبر فبعث السلطان الى المولى يزيد كاتبه أبا عثمان سعيد الشليح فقدم عليه بزاوية آيت اسحاق لانه لم يجد من قبائل آيت ومالو الا مهاوش وشقير بن فتجاوزهم الى الزاوية المذكورة ولما أتاه أبو عثمان المذكور بكتاب والده وأمانه سار معه الى مراكش ولما وصل اليها دخل ضريح أبي العباس السبتي فاحترم به ثم عفا عنه السلطان واجتمع به فتنصل مما رمي به ونسب ذلك الى سفهاء جروان وانه لم يوافقهم على ذلك فأضمر السلطان الايقاع بهم ولما قدم من مراكش سنة أربع وثمانين ومائة وألف قصدهم لكربكرة وأوقع بهم وقتل منهم نحو الخمسمائة حسبما مر وأنزل المولى يزيد مع أخويه المولى علي والمولى عبد الرحمن بفاس فاقام بها مدة ثم حدثت حرب بينه وبين أخيه المولى عبد الرحمن بوسط فاس العليا وهلك فيما بينهما عدد وبلغ خبر ذلك الى السلطان فقدم مكناسة وبعث من يقبض عليهما فقبض على المولى عبد الرحمن وأصحابه وفر المولى يزيد الى ضريح المولى ادريس الاكبر بزرهون فاتى به الاشراف الى والده فسامحه ثم سرح المولى عبد الرحمن وسأل عن أحوال أصحاب الاخوين معا ثم عرف صالحهم من طالحهم فاخرجهم من السجن وقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف وكانوا اثلاثين رجلا وسرح الباقين ونقل المولى عبد الرحمن الى مكناسة وترك المولى يزيد بفاس ثم ان المولى عبد الرحمن كان يسابق يوما في الميدان ويلعب بالبارود فقتل رجلا من بني مطير فجاء اخوانه الى قائدهم محمد بن محمد واعزيز فادى ديته من عنده وعفوا وكتب عليهم سجلا بذلك وسكنت الهيعة فاتفق أن وجه السلطان قائده العباس الى مكناسة لقتل أناس كانوا بسجن مكناسة فلما سمع به المولى عبد الرحمن ظن أنه قدم في شأن المطيري المقتول وان خبره قد بلغ السلطان ففر من مكناسة ليلا الى وجدة ثم الى تلمسان واتصل خبر فراره بالسلطان فسأل عن السبب فاخبره القائد العباس بالواقع فبعث اليه الامان فلم يثق ثم سار من تلمسان الى سجلماسة فبعث اليه السلطان من يؤمنه ويأتي به اليه فلم يثق وفر الى السوس فبعث اليه السلطان أمانا الى السوس ففر الى القبلة وأقام يتردد في قبائلها الى أن توفي السلطان رحمه الله

فجاء الى تارودانت فاقام بها وطلب الامر فلم يتم له أمر ومات رحمه الله وأما المولى يزيد فانه أقام بفاس الى ان استدعاه والده للقدوم عليه بمراكش فقدم عليه ثم اتفق قيام العبيد على السلطان بسبب الادالة التى أمرهم بتوجيهها الى طنجة حسبما مر فبعث المولى يزيد لاصلاحهم وردهم عن غيهم فلما وصل اليهم استفزوه بقولهم وحركوا منه ما كان ساكنا واستخرجوا ما كان كامنا فبايعوه وخطبوا به حسبما مر الخبر عن ذلك مستوفى وانحرف قدور بن الخضر بالودايا عنه ولما فتح المولى يزيد بيت المال وأعطى العبيد بعث الى الودايا بعطائهم يستهويهم به وكان شيأ كثيرا فردوه عليه وانضم محمد واعزيز فى بربره الى الودايا فقصدهم المولى يزيد والتقوا بالمشتهى من مكناسة فهزموه وقتل من العبيد ما ينيف على الخمسمائة ثم قدم السلطان فى العساكر وجموع القبائل ففر المولى يزيد الى زرهون فتبعه السلطان وزار المولى ادريس رضى الله عنه فشفع له الاشراف الادارسة فيه فقبل شفاعتهم وعفا عنه حسبما مر ثم بعد هذا بعثه الى المشرق وصدر منه بمكة فى حق شيخ الركب ما صدر فكانت تلك الفعلة هى المخالفة وبها تبرأ السلطان منه ثم قفل من المشرق سنة ثلاث ومائتين وألف والتجأ الى ضريح الشيخ عبد السلام بن مشيش الى أن توفى والده حسبما قصصنا عليك من قبل وبالله التوفيق

بيعة أمير المؤمنين المولى يزيد بن محمد رحمه الله

لما توفى السلطان سيدى محمد رحمه الله فى التاريخ المتقدم وبلغ خبر موته المولى يزيد وهو بالحرم المشيشى بايعه الاشراف هنالك وسائر أهل الجبل وتقدم اليه السابقون من الجند الذين كانوا محاصرين له فبايعوه واستتب أمره فتوجه الى تطاوين اذ هى أقرب الثغور اليه فبايعه أهلها والقبائل المجاورة لها وأطلق الجند على يهود تطاوين فاستباحوهم واصطلموا نعمتهم ثم وفد عليه أهل طنجة والعرائش وآصيلا فقابلهم بما يجب ثم توجه الى طنجة فخرج عسكرها للقائه ففرح بهم وأحسن اليهم وبها قدم عليه وفد أهل فاس من أشرافها وعلمائها وأعيانها فاكرمهم وولى عليهم أبا عبد الله محمد العربى الذيب ثم انتقل الى العرائش فوافاه بها حاشية أبيه وخدمه ووجوه دولته بمخلف والده وقبابه وخيله وبغاله وسائر أثاثه فأحسن اليهم وصار وامعه فى ركابه الى زرهون ولما وصل اليها قدم عليه أخوه المولى سليمان من تافيلالت بقبائل الصحراء عربها وبربرها ومعه بيعة أهل سجلماسة وكان قد استجار به محمد واعزيز فانه كان خائفا على نفسه من المولى يزيد لانحرافه عنه أيام أبيه فسار فى صحبته بقبائله ولما اجتمع بالسلطان سامحه وأبقاه على قومه ولما دخل مكناسة قدمت عليه قبائل الغرب كلها عربها وبربرها حتى عصاة آيت ومالو اودجا لهم مهاوش فاعطى مهاوش وحده عشرة آلاف ريال وأعطى الذين قدموا معه مائة ألف ريال ثم قدمت عليه قبائل الحوز كله من عرب وبربر لم يتخلف عن بيعته أحد وقدم عليه أهل مراكش وأعمالها ببيعتهم ونصها الحمد لله المنفرد بالملك والخلق والتدبير الذى أبدع الاشياء بحكمته واخترع الجليل منها والحقير الغنى عن المعين والمرشد والوزير ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير يؤتى الملك من يشاء ويعز من يشاء وهو المدبر القدير جاعل الملوك كفالة كف العادية وولايتهم مرتعا للعباد فى ظل الامن والعافية وبيعتهم أمانا من الهرج والفساد وقمعا لاهل الشر والعناد فهم ظل الله على الانام وحصن حصين للخاص والعام حسبما أفصح بذلك سيد الانام عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام فتبارك الله ربنا الذى شرف هذا الوجود وزين هذا العالم الموجود بهذه الخلافة المباركة والامامة الحسنية الهاشمية العلوية والطلعة القرشية المحمدية التى انصرفت الوجوه الى قبلتها المشروعة واستبان الحق عند مبايعتها والانقياد لدعوتها المسموعة نحمده تعالى على ما من به علينا من هؤلاء الامامة السعيده ونشكره جل جلاله شكرا نستوجب به من الهنا افضاله ومزيده ونشهد أنه الله الذى لا اله الا هو وحده لا شريك له ليس فى الوجود الا فعله أجرى الاقدار على حسب

ما اقتضاه حكمه وعدله ونشهد أن سيدنا ونبينا ومولانا محمدا عبده ورسوله ومصطفاه من خلقه وخليله سيد المخلوقات كلها من انس وجان المصفى من ذؤابة معد بن عدنان صاحب الشريعة المطهرة التي لا يختلف في فضلها اثنان والدين القويم الذي هو أفضل الاديان الذي اختصه الله ما بين الانبياء بمزية التفضيل والتقديم وافترض على أمته الغراء فريضة الصلاة والتسليم وأثنى عليه في كتابه الحكيم فقال جل ثناؤه وتقدست صفاته وأسماؤه وانك لعلى خلق عظيم صلى الله عليه صلاة متصلة الدوام متعاقبة بتعاقب الليالي والايام وعلى آله الكرام الاطهار وصحابته النجباء البررة الاخيار الذين أوضحوا لنا الحق تبيانا وأسسوا لهذه الملة السمحة قواعد وأركانا وعلى من اقتفى أثرهم القويم واهتدى بهديهم المستقيم الى يوم الدين (أما بعد) فان الله تعالى جعل صلاح هذا العالم وأقطاره المعمورة ببني آدم منوطا بالائمة الاعلام محوطا بالملوك الذين هم ظل الله على الانام فطاعتهم ما داموا على الحق واتقوا الله سعادة والاعتصام بحبلهم اذ ذاك واجب وعبادة قال عز من قائل يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الامر منكم * وقال عليه السلام ان أمر عليكم عبد مجدع أسود يقودكم بكتاب الله فاسمعوا له وأطيعوا * وقال عليه السلام على المرء المسلم السمع والطاعة فيما أحب وكره الا أن يؤمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة * وقال عليه السلام من خرج عن الطاعة وفارق الجماعة فمات مات ميتة جاهلية ومن قاتل تحت راية عمية يغضب لعصبية أو يدعو الى عصبية أو ينصر عصبية فقتل فقتلته جاهلية ومن خرج على أمتي يضرب برها وفاجرها ولا يتحاشى مؤمنها ولا يفي لذي عهد عهدها فليس مني ولست منه أخرجها مسلم كلها * وقال عليه السلام السلطان ظل الله في الارض يأوي اليه الضعيف وبه ينتصر المظلوم ومن أكرم سلطان الله في الدنيا أكرمه الله يوم القيامة أو كما قال * وقال عليه السلام السلطان العدل المتواضع ظل الله ورمحه في الارض يرفع الله له عمل سبعين صديقا ولما كان أهل بيت سيد المرسلين أعظم قريش في قلوب المؤمنين وأكرمهم منزلة عند رب العالمين أنالهم الله تعالى في خلقه فضلا كبيرا ومنحهم اجلالا ورفعة وتعظيما وتكبيرا قال الله تعالى انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا * وقال عليه الصلاة والسلام النجوم أمان لاهل السماء وأهل بيتي أمان لامتي وان ممن امتن الله به علينا من أهل هذا البيت الشريف الذي أولاه الله أشرف التعظيم وأعظم التشريف وقدمه تعالى لسلطانه العزيز ورفعه جل وعلا على منصة التبريز عميد المجد الذي لا يتناهى فخره ووحيد الحسب جل منصبه وقدره الامام الذي ألقت له الامامة زمامها وقدمته الافاضل لفضله أمامها من جاءت له الخلافة تجر أذيالها وأخذها دون بني أبيه ولم تك تصلح الا له ولم يك يصلح الا لها ومن جبلت قلوب الخلائق على محبته وألقى له القبول في الارض لجده ولعلو همته السلطان السعيد الواثق بربه المعين الرشيد أبا المكارم والمفاخر سيدنا ومولانا يزيد ابن مولانا الامام السلطان الهمام المرحوم بالله سيدي محمد ابن أمير المؤمنين سيدنا ومولانا عبد الله ابن السلطان الجليل أمير المؤمنين مولانا اسمعيل ابن موالينا السادة الاشراف ذوي الفضل والكرم والانصاف قدس الله أرواحهم في أعلا الجنان ومنحهم بفضله الرضا والرضوان أيد الله ببقائه الدين وطوق بسيفه الملحدين وكتب تحت لوائه المعتدين وكتب له النصر الى يوم الدين وأعاذ به الارض من لا يدين بدين وأعاد بعدله أيام آبائه الخلفاء الراشدين وأسكن في القلوب سكينته ووقاره ومكن له في الوجود وجمع له أقطاره هو والله ممن فيه استحقاق ميراث آبائه الاعلام وتراث أجداده الكرام المجمع عليه أنه في هذه الايام فرد هو الانام وواحد وهكذا في الوجود الامام الراقي في صحيح سماء هذه الذروة المنيفة الباقي بعد الائمة الماضين نعم الامام ونعم الخليفة سلالة الاخيار وخلاصة أبناء النبي المختار أسمى الله ايالته الشريفة وأنار البسيطة بانوار مملكته الشامخة المنيفة انعقد الاجماع من أهل هذه الحضرة

المراكشية حاطها الله وما حولها من أهل السوس وكافة الرحامنة وغيرهم من قبائل عديدة حسبما تضمنته أسماء من يكتب اسمه منهم عقبه بخط من يكتب منهم أو خطوط العدول الثقات عمن لم يكن يحسن الكتابة وأذنوا لمن يكتب عنهم بيعة تم بمشيئة الله تمامها وعم بالصوب المغدق غمامها سعيدة ميمونه شريفة لها السلامة في الدين والدنيا مضمونه صحيحة شرعيه ملحوظة مرعيه دائبة دائمه لازمة جازمه صحيحة صريحه متعبة مريحه على الأمن والأمانه والعفاف والديانه وعلى ما بويع به مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدون من بعده والائمة المهتدون الموفون بعهده وعلى السمع والطاعه وملازمة السنة والجماعه قرت بها نواظرهم وشهدت بذلك على صفاء بواطنهم ظواهرهم وأعطوا بها صفقة أيديهم وأمضوها امضاء يدينون به في السر والجهر والمنشط والمكره واليسر والعسر أجمع عليها أرباب العقد والحل وأصحاب الكلام فيما قل وجل ومن يوصف بعلم وقضاء ومن يرجع اليه في ردّ وامضاء لم يخالف فيها امام مسجد ولا خطيب ولا ذو فتوى يسئل فيجيب ولا من يجتهد في رأي فيخطئ أو يصيب ولا معروف بدين وصلاح ولا فرسان حرب وكفاح ولا طاعن برمح ولا ضارب بصفاح ولا ولاة الامر والحكام ولا حملة العلم الاعلام ولا حماة السيوف والاقلام ولا أعيان السادة الاشراف ولا أكابر الفقهاء ومن انخفض قدره ومن أناف بيعة تمت بها نعمة من وحد الله قائلين الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله ان الذين يبايعونك انما يبايعون الله الآية فمن حضر خواص من ذكر وعوامهم قيد شهادته بعضمن العقد المنصوص ملتزما لجميع ما اقتضاه من العموم والخصوص باسطا كفه بالدعاء والابتهال والتضرع لذي العزة والجلال قائلا اللهم كما خصصت مولانا أمير المؤمنين يزيد الكرامة وارتضيته لمقام الامامة وانتخبته من أشرف الناس وصنت به وجوههم عن الباس فانصره اللهم نصرا مؤزرا واجعل نصيبه من عنايتك وكفايتك جزيلا موفرا وأنله في كل مرام فتحا مبينا وظفرا ميسرا معينا وأسعدنا اللهم بايامه واكلأه بكلاءتك في ظعنه ومقامه واجعل بيعته المباركة بيعة تخلد بها مآثره تخليدا وتؤيد علوه وتأييده ونصره تأبيدا وأبقه على الانام شفيقا وبجميعهم بارّا رفيقا وأعنه اللهم على ما وليته من أمور عبادك ومهد له أتم التمهيد في أقطار بلادك وكن له فيما يرضيك مؤيدا وظهيرا واجعل له من لدنك وليا وسلطانا نصيرا أجب دعاءنا انك يا مولانا ولي ذلك وبه قدير وأنت نعم المولى ونعم النصير وبالاجابة جدير ولا حول ولا قوة الا بالله العلي الكبير وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين في ثامن عشر شعبان عام أربعة ومائتين وألف انتهت

﴿انتقال الودايا من مكناسة الى فاس وعبيد الثغور منها الى مكناسة﴾

لما كان السلطان المولى يزيد رحمه الله بمكناسة أمر الودايا أن ينتقلوا منها الى فاس الجديد مسقط رؤسهم ومنبت شوكتهم وبأسهم وبذل لهم خمسين ريالا للرأس اعانة لهم على نقلتهم فعادوا الى فاس الجديد واستوطنوه بعد تغريبهم عنه بمكناسة ثلاثين سنة كما سبق ثم أمر عبيد الثغور أن ينتقلوا منها الى مكناسة لتجتمع كلمتهم بها وأنعم على أهل كل ثغر منهم ببيت ماله الذي به فاقتسموه وانقلبوا الى مكناسة مغتبطين

﴿نقض الصلح مع جنس الاصبنيول وحصار سبتة﴾

﴿قال منويل القشتيلي في كتابه الموضوع في أخبار المغرب﴾ لما ولي المولى يزيد بن محمد رحمه الله أظهر معاداة الاصبنيول وصمم على حربهم فتفادى طاغيتهم من حربه بكل وجه وبعث باشدوره اليه بطنجة يهنئه بالملك ويتملق له فأعرض عن ذلك ولم يحفل به ولا بهديته بل عمد الى من كان بعرايشه من نصارى الاصبنيول

تجارا

تجارا وفرايلية وغيرهم وقبض عليهم وسلكهم في السلاسل وساقهم الى طنجة فحبسهم بها قال وكانت قراصين المسلمين الحربية يومئذ ستة عشر قرصانا وفيها من المدافع ثلاثمائة مدفع وستة مدافع ﴿قلت﴾ قد تقدم أن القراصين أكثر من ذلك بكثير واستمر النصارى محبوسين بطنجة الى ان اتفق ان كان قرصان للاصبنيول يطوف بساحل العرائش فظفر بمركب هنالك وأسر بعضهم وكان المولى يزيد يومئذ بالعرائش فنظر اليهم بمرآة الهند وهو على سطح داره اذ أسروهم وبعث الصريخ في أثرهم ففاتوه ثم وقع التفادي بينه وبين الطاغية في أولئك الاسرى بأسرى طنجة اهـ كلام منويل ثم ان السلطان المولى يزيد رحمه الله زحف الى سبتة واستنفر الناس لجهادها والمرابطة عليها واستصحب معه آلة الحرب من المدافع والمهاريس ونصب عليها سبعة أشبارات كان جلها الفنانشة سلا وأهرعت اليه المتطوعة من حاضر وباد ونسلوا اليه من كل حدب وواد وأقام على حصارها مدة ثم أفرج عنها وسار الى ناحية مراكش لامر اقتضى ذلك فلما وصل الى مدينة آنفي بدا له في الرجوع فرجع ونزل عليها واستأنف الجد وأوهف الحد وأرسل الى قبائل الحوز يستنفرهم للجهاد والمرابطة فتقاعدوا عنه بعد ان أشرف على فتحها وكان ما نذكره

﴿انتقاض أهل الحوز على السلطان المولى يزيد بن محمد وبيعتهم لاخيه المولى هشام رحمهما الله﴾

لما قدمت قبائل الحوز على السلطان المولى يزيد بعكناسة ظهر لهم منه بعض التجافي عنهم وأنزلهم في العطاء دون البربر والودايا وغيرهم فساءت ظنونهم به وانفسدت قلوبهم عليه ولما رجعوا الى بلادهم تمشت رجالاتهم بعضها الى بعض وخبت الرحامنة في ذلك ووضعوا واتفقت كلمتهم مع أهل مراكش وعبدة وسائر قبائل الحوز فقدموا المولى هشام بن محمد للقيام بامرهم وآتوه بيعتهم وطاعتهم ولما اتصل خبر ذلك بالمولى يزيد وهو محاصر لسبتة أقلع عنها وسار الى الحوز فشرد قبائله ووصل الى مراكش فدخلها عنوة يقال ان دخوله اليها كان من الباب المعروف بباب يغلي فاستباحها وقتل وسمل وكان الحادث بها عظيما ثم استجاش عليه المولى هشام قبائل دكالة وعبدة وقصده بمراكش فبرز اليه المولى يزيد ولما التقى الجمعان بموضع يقال له تازكورت انهزم جمع المولى هشام وتبعهم المولى يزيد فاصيب برصاصة في خده فرجع الى مراكش يعالج جرحه فكان في ذلك حتفه رحمه الله وذلك أواخر جمادى الثانية سنة ست ومائتين وألف ودفن بقبور الاشراف قبلي جامع المنصور من قصبة مراكش ولقد كان رحمه الله من فتيان آل علي وسمحائهم وأبطالهم له في النجدة والكفاية المحل الذي لا يجهل والسبق الذي لا يلحق والغبار الذي لا يشق ولا يضره تنقيص من نقصه من الحسدة عفا الله عنا وعنهم فان مكان الرجل غير مكانهم وهمته العالية فوق ترو براتهم تغمد الله الجميع بعفوه وغفرانه آمين ﴿ولنذكر﴾ ما كان في هذه المدة من الاحداث ﴿ففي شعبان سنة اثنتين وأربعين ومائة وألف﴾ توفي الفقيه العلامة القاضي بسلا أبو عبد الله محمد السوسي المنصوري ودفن قرب الولي الصالح سيدي مغيث من طالعة سلا وله شرح على مختصر السنوسي في المنطق وآخر على كبراه ﴿وفي ضحى يوم السبت الثامن والعشرين من المحرم فاتح سنة ثلاث وأربعين ومائة وألف﴾ توفي الفقيه المرابط البركة سيدي الحاج الغزواني بن البغدادي من حفدة الولي الاشهر سيدي محمد الشرقي رضي الله عنه ودفن بداره بجوار سيدي مغيث أيضا ﴿وفي يوم الاربعاء الثامن والعشرين من صفر سنة أربع وأربعين ومائة وألف﴾ توفي الفقيه العلامة الامام صاحب التصانيف المفيدة والاجوبة العتيدة أبو عبد الله سيدي محمد بن عبد الرحمن بن زكرى الفاسي رحمه الله ورضي عنه ﴿وفي يوم الجمعة الرابع من رجب سنة ست وأربعين ومائة وألف﴾ كمل بناء قبة ولي الله تعالى أبي العباس سيدي الحاج أحمد بن عاشر رضي الله عنه على يد القائد أبي عبد الله الحواث وفي الشهر نفسه توفي الفقيه القاضي النوازلي أبو العباس سيدي أحمد الشدادي بزاوية زرهون ﴿وفي سنة خمسين ومائة

وألف ❊ ولد الشيخ أبو العباس أحمد التجاني شيخ الطائفة التجانية وسيأتي الكلام عليه ان شاء الله وفيها كانت المجاعة العظيمة بالمغرب و الفتن ونهب الدور بالليل بفاس وغيرها وصار جل الناس لصوصا فكان أهل اليسار لا ينامون لحراسة دورهم وأمتعتهم وهلك من الجوع عدد لا حصر له حتى لقد أخبر صاحب المارستان أنه كفن في رجب وشعبان ورمضان ثمانين ألفا وزيادة سوى من كفنه أهله هذا بفاس وليقس عليها غيرها ❊ وفي زوال يوم الاربعاء الثاني والعشرين من شوال سنة ثمان وخمسين ومائة وألف ❊ توفي قاضي سلا الفقيه العلامة السيد أبو عمرو عثمان التواتي ودفن داخل روضة سيدي الحاج أحمد بن عاشر رضي الله عنه ❊ وفي سنة ثلاث وستين ومائة وألف ❊ كان الوباء بالمغرب وانحباس المطر فلحق الناس من ذلك شدة ثم تداركهم الله بلطفه ❊ وفي سنة تسع وستين ومائة وألف ❊ كانت الزلزلة العظيمة بالمغرب التي هدمت جل مكناسة وزرهون ومات فيها خلق كثير بحيث أحصي من العبيد وحدهم نحو خمسة آلاف وتكلم لوبز مارية على هذه الزلزلة فقال انها مكثت ربع ساعة وتشققت الارض منها واضطرب البحر وفاض حتى ارتفع ماؤه على سور الجديدة وفزع فيها ولما رجع البحر الى مقره ترك عددا كثيرا من السمك بالبلد وفاض على مسارحهم ومزارعهم وأشجارهم فنسف ذلك كله نسفا واضطربت المراكب والفلك بالمرسى فتكسرت كلها وفر نصارى البلد الى الكنيسة وتركوا ديارهم منفتحة ومع ذلك لم يفقد منها شيء لاشتغال الناس بانفسهم وتكلم صاحب نشر المثاني على هذه الزلزلة فقال وفي ضحوة يوم السبت السادس والعشرين من المحرم سنة تسع وستين ومائة وألف زلزلت الارض زلزالها ومادت شرقا وغربا واستمرت كذلك نحو درج زماني وفاض ماء البرك والصهاريج على البيوت وتكدرت العيون ووقف ماء الاودية عن الجرى وسقطت الدور وتصدعت الحيطان وأخذ الناس في هدم ما تصدع خوف سقوطه وفزع الناس وتركوا حوانيتهم وأمتعتهم ووقع بمدينة سلا ان ماء البحر انحسر عنه الى أقصاه فجاء الناس ينظرون اليه فرجع الماء الى جهة البر وتجاوز حده المعتاد بمسافة كبيرة فاغرق جميع من كان خارج المدينة في تلك الجهة وصادف قافلة ذاهبة الى مراكش فيها من الدواب والناس عدد كثير فأتلف الجميع ورمى بالقوارب والزوارق التي في الوادي الى مسافة بعيدة جدا ثم بعد هذه بنحو ستة وعشرين يوما عادت زلزلة أخرى أشد من الاولى بعد صلاة العشاء هي التي أثرت في مكناسة غاية وهلك تحت الهدم بها نحو عشرة آلاف نفس وفعلت بفاس أيضا فعلا شنيعا انظر تمام كلامه فقد أطال في وصفها ❊ وفي يوم الاحد التاسع والعشرين من رمضان سنة سبع وسبعين ومائة وألف ❊ انكسفت الشمس وبقي منها مثل الهلال ثم انجلت بعد حين ❊ وفي فجر يوم الاحد الثامن والعشرين من ربيع الثاني سنة احدى وثمانين ومائة وألف ❊ توفي الشريف البركة مولاي الطيب بن محمد الوزاني وعمره ينيف على الثمانين سنة ❊ وبعد صلاة العصر من يوم الاربعاء الثامن والعشرين من جمادى الاولى سنة اثنتين وتسعين ومائة وألف ❊ انكسفت الشمس وظهرت النجوم لكثرة الظلام ثم انجلت ورجعت لحالها بعد نصف ساعة ونحوها ❊ وفي أعوام تسعين ومائة وألف ❊ كانت المجاعة الكبيرة بالمغرب وانحبس المطر ووقع القحط وكثر الهرج ودام ذلك قريبا من سبع سنين ❊ وفي أواخر ربيع الثاني سنة أربع وتسعين ومائة وألف ❊ توفي الشيخ العلامة الامام المحقق البارع أبو عبد الله محمد بن الحسن بناني الفاسي الفقيه المشهور صاحب التآليف الحسان مثل حاشيته البديعة على شرح الشيخ عبد الباقي الزرقاني على مختصر خليل حكى العلامة الرهوني في حاشيته قال لما أخبر الشيخ التاودي بن سودة بوفاته جاء فزعا وهو يبكي فلقيه بعض الناس فقال له الله يجعل البركة فيكم فقال لم تبق بركة بعد هذا الرجل وذلك لمعرفته بمكانته ❊ وفي ضحى يوم السبت الثامن عشر من صفر سنة ست وتسعين ومائة وألف ❊ توفي الشريف البركة المولى أحمد بن الطيب الوزاني رحمه الله ونفعنا به وبأسلافه آمين

﴿حدوث الفتنة بالمغرب وظهور الملوك الثلاثة من أولاد سيدي محمد بن عبد الله وما نشأ عن ذلك﴾

لما قتل المولى يزيد رحمه الله بمراكش افترقت الكلمة بالمغرب فقام أهل الحوز وأهل مراكش على التمسك بدعوة المولى هشام وشايعه على أمره القائد أبو زيد عبد الرحمن بن ناصر العبدي صاحب آسفي وأعمالها والقائد أبو عبد الله محمد الهاشمي ابن علي بن العروسي الدكالي البوزراري وكان المولى مسلمة ابن محمد شقيق المولى يزيد خليفة عنه ببلاد الهبط والجبل يدبر الامر بثغورها وينظر في أمورها فلما اتصل به خبر وفاة أخيه دعا الى نفسه أهل تلك البلاد فبايعوه واتفقت كلمتهم عليه ووصل خبر موت المولى يزيد الى فاس وأعمالها فبايعوا المولى سليمان بن محمد رحمه الله وكان من أمره ما نذكره

﴿الخبر عن دولة أمير المؤمنين أبي الربيع المولى سليمان بن محمد رحمه الله﴾

كان المولى سليمان بن محمد رحمه الله أعلق بقلب أبيه من سائر اخوته على ما قيل لسعيه فيما يرضي الله ورسوله ويرضي والده واشتغاله بالعلم والعكوف عليه بسجلماسة وغيرها ولم يلتفت قط الى شيء مما كان يتعاطاه اخوته الكبار والصغار من أمور اللهو كالصيد والسماع ومعاقرة الندمان وما يزري بالمروءة ولم يأت فاحشة قط من صغره الى كبره وكان رحمه الله يرى له ذلك ويثيبه عليه بالعطايا العظيمة والذخائر النفيسة والاصول المعتبرة التي تغل الالف وأكثر وينوه بذكره في المحافل ويبعث اليه باعيان الفقهاء والادباء الى سجلماسة ليقرأ عليهم ويأخذ عنهم ويدعو له في كل موقف على رؤس الاشهاد ويقول ان ولدي سليمان رضي الله عنه لم يبلغني عنه قط ما يكدر باطني عليه فاشهدكم اني عنه راض ونشأ رحمه الله نشأة حسنة طيبة وكانت شمائل الملك لائحة عليه الى ان أظفره الله به وكنا قدمنا انه قدم على أخيه المولى يزيد بقبائل الصحراء فاجل مقدمه وأكرم وفادته فاقام المولى سليمان رحمه الله بفاس الى ان كانت وفاة المولى يزيد في التاريخ المتقدم فاتصل خبر موته باهل فاس ومكناسة فقاموا على ساق واتفق العبيد والودايا والبربر وأهل فاس على بيعته لما كان عليه من العلم والدين والفضل وسائر الاوصاف الجيدة التي تفرد بها عن غيره ولما قدم العبيد والبربر من مكناسة الى فاس اجتمعوا باعيان الودايا وأهل فاس ودخلوا ضريح المولى ادريس رضي الله عنه وبايعوا أمير المؤمنين المولى سليمان يوم الاثنين سابع عشر رجب سنة ست ومائتين وألف ولما تمت بيعته انتقل الى فاس الجديد فاستقر بدار الملك منها وقدمت عليه وفود القبائل من العرب والبربر بهداياهم ثم قدم عليه بعدهم قبائل بني حسن وأهل الغرب ثم أهل العدوتين سلا ورباط الفتح وانحرف بعض أهل رباط الفتح عن بيعته كما سيأتي ثم قدم عليه أهل الثغور الهبطية بعد ان توقفوا عن بيعته مدة يسيرة لانهم كانوا قد بايعوا المولى مسلمة كما مر ﴿ونص بيعة أهل فاس﴾ الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه الحمد لله الذي نظم بالخلافة شمل الدين والدنيا وأعلا قدرها على كل قدر فكانت لها الدرجة العليا وأشرق شمسها على العوالم وأنار بنورها المعالم وأصلح بها أمر المعاش والمعاد وألف بها بين قلوب العباد من الحاضر والباد وجعلها صونا للدماء والاموال والاعراض وغل بها أيدي الجبابرة فلم تصل الى مفاسد الاغراض وقام بها أمر الخلق واستقام وأقيمت الشرائع والحدود والاحكام ونصب منارها علما هاديا وأقامه الى الحق داعيا فأوى لظلها الوريف القوي والضعيف والمشروف والشريف فسبحان من قدر فهدى ولم يترك الانسان سدى بل أمره ونهاه وحذره اتباع هواه وطوقه القيام بالنفل والفرض وهو أحكم الحاكمين ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الارض ولكن الله ذو فضل على العالمين فمن رحمته نصب الملوك ومهد الطريق للسير والسلوك ولو ترك الناس فوضا لاكل بعضهم بعضا وآل الامر الى الخراب وأفضا لولا الخلافة لم تؤمن لنا سبل وكان أضعفنا نهبا لاقوانا والصلاة والسلام على المبعوث

رحمة للانام أصل الوجود ومبداه وغاية الكمال ومنتهاه سيد الاولياء وامام الانبياء وقائد الاصفياء وعلى آله أولى المجد العميم والقدر العظيم وأصحابه الخلفاء الراشدين والهداة المهتدين الذين شيدوا أركان الدين ومهدوا قواعده للشدين وأخبروا عنه وأسندوا اليه صلى الله وسلم عليه انه قال ان الله اختص بهذا الامر قريشا وأنزل عليه والله يؤتي ملكه من يشا هذا ولما قضى الله سبحانه وله البقاء والدوام بنزول مالا بد منه من فجاءة الحمام لمن كان قائما بهذا الامر العظيم وانتقاله الى دار عفوه ورضوانه العميم أسكنه الله فسيح الجنان وسقى ثراه سحائب الرحمة والغفران وجب على الناس نصب امام لقوله عليه الصلاة والسلام من مات وليست فى عنقه بيعة مات ميتة جاهلية فجالت أفكارهم وخاضت عقولهم وأنظارهم فيمن يقدمون لهذا المنصب الاعظم ويسلك بهم السبيل الاقوم فهداهم التوفيق والتسديد والرأى الصالح السديد الى من نشأ فى عفة وصيانه ومروءة وديانه وعكوف على تحصيل العلم الشريف ودؤب على التحلى بحلى العمل المنيف مع نجدة ونباهه وذكاء وفطانة ونزاهه وعلو همة وقوة عزمة وتدبير وسياسه وخبرة بالامور وفراسه فتى جمع الله بين الصرامة والحلم وزاده بصطة فى العلم والجسم وألبسه الهيبة والوقار ورقاه أعلى رتب العز والفخار وهو السرى المقدام الشهم الابر الهمام ذو الاخلاق الطاهرة الزكيه والمآثر الطاهرة السنيه عالى القدر والشان فريد العصر ووحيد الاوان أبو الربيع مولانا سليمان ابن مولانا أمير المؤمنين محمد ابن مولانا أمير المؤمنين عبد الله ابن مولانا أمير المؤمنين اسمعيل ابن مولانا الشريف فانعقد الاجماع من أهل هذه الحضرة الادريسية وما حولها من البقاع على تقدمه وامامته واستبشروا بامرته وخلافته وبادروا الى تعيينه وبايعوه بيعة انعقد على ألوية النصر عقدها وطلع فى أفق الهناء سعدها حضرها الصدور والاعيان وأهل الوجاهة فى هذا الزمان وذووا الحل والعقد ومن اليهم القبول والرد من علماء وأعلام وأصحاب الفتاوى والاحكام وعظماء أشراف كرام ورماة كبرا وولاة أمرا ورؤساء أجناد والمتقدمين فى كل ناد من عرب البدو والحضر وجيوش العبيد والبربر فانعقدت بحمد الله مؤسسة على التقوى واشتملها عضد الاسلام وتقوى بيعة تامة محكمة الشروط وفية العهود وثيقة الربوط جارية على سنن السنة والجماعة سالمة من كل كلفة ومشقة وتباعة رضى الكل بها وارتضاها وألزم حكمها بالسمع والطاعة وأمضاها شهد بذلك الحاضرون على أنفسهم طوعا وأدوا اليه تعالى ماوجب عليهم شرعا جعلها الله رحمة على الخلق وأقام بها فى البسيطة العدل والحق وأيد بعونه وتأييده وتوفيقه وتسديده من تلقاها بالقبول وأحيا به سنة سيدنا ومولانا الرسول صلى الله عليه وسلم وشرف وكرم فهنيئا للارض اذ ألقت مقاليدها الى من يحمى حماها ويحقن دماها ويكبت عداها ويدفع رداها وينصر الشريعة ويشيد مبناها ويعلن بحقيقة الحق ويوضح معناها نصره الله ونصر به وأمات البدع والضلالة بسببه ودمر به شيعة الجور والفساد وأبقى الخلافة فى بيته الى يوم التناد وصلى الله على سيدنا محمد خاتم النبيين وعلى آله وأصحابه أجمعين والراوين عنهم والمتلقين منهم آمين وفى ثامن عشر رجب الفرد الحرام من ستة ومائتين وألف من هجرة المصطفى عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام أفقر العبيد الى الله سبحانه عبد الله تعالى محمد التاودى بن الطالب بن سودة المرى كان الله له وليا وبه حفيا أحمد بن التاودى المذكور أخذ الله بيده وكان له فى جميع الامور وأناله الثواب والاجور وعبد الله تعالى محمد بن عبد السلام الفاسى لطف الله به آمين وعبد القادر بن أحمد ابن العربى بن شقرون أمنه الله عنه آمين ومحمد بن أحمد بنيس كان الله له وليا ونصيرا آمين وعبد ربه وأفقر عبيده اليه محمد بن عبد المجيد الفاسى لطف الله به وعبد ربه سبحانه يحيى بن المهدى الشفشاونى الحسنى لطف الله به وعبد ربه على بن ادريس كان الله له ولطف به آمين وعبد ربه تعالى محمد بن ابراهيم

لطف الله به وعبد ربه سبحانه محمد بن مسعود الطرنباطي وفقه الله عنه آمين وعبد ربه سبحانه سليمان ابن أحمد الشهير بالفشتالي كان الله له وأصلح حاله وعبد ربه محمد الهادي بن زين العابدين العراقي الحسيني وفقه الله وعبد ربه سبحانه محمد التهامي طاهر الحسني وفقه الله به آمين وعبد الملك بن الحسن الفضيلي الحسني لطف الله به آمين وعبد ربه ادريس بن هاشم الحسني الجوطي لطف الله به آمين انتهى

﴿حرب السلطان المولى سليمان لاخيه المولى مسلمة وطرده الى بلاد المشرق﴾

لما تمت بيعة السلطان المولى سليمان بن محمد رحمه الله بفاس باتفاق أهل الحل والعقد من الجند والعلماء والاشراف وسائر الاعيان تداعى أمر المولى مسلمة الى الاختلال وكان أول ما ابتدأ به عمله بعد تلك البيعة المستعجلة ان بعث جريدة من الخيل الى نظر القائد أبي عبد الله محمد الزعري الى رباط الفتح وذلك باستدعاء محتسبها أبي الفضل العباس مرينوا وأبي عبد الله محمد المكي بن العربي فرج من أهلها المنحرفين عن المولى سليمان الى التمسك بدعوة المولى مسلمة وكان أهل رباط الفتح يومئذ على فرقتين فرقة دخلت في طاعة السلطان المولى سليمان وفرقة أقامت بالتمسك ببيعة المولى مسلمة ولما اتصل بالمولى سليمان خبر مسير الزعري الى رباط الفتح عقد لاخيه المولى الطيب على بني حسن وبعثه في اعتراضه فتوافى الجيشان معا برباط الفتح ووقعت الحرب فانهزم الزعري وشيعته وقتل العباس مرينوا وفر المكي فرج الى الزاوية التهامية فاستجار بها وقبض المولى الطيب على الزعري وجماعة من أصحابه ثم سرحه بامر السلطان المولى سليمان واجتمعت كلمة أهل العدوتين على طاعته هكذا ساق صاحب البستان هذا الخبر وآل فرج يثبتونه ويقولون ان أصل هذه الفتنة ان آل مرينوا كانت لهم الوجاهة مع المولى يزيد رحمه الله فسعوا عنده بآل فرج وقالوا له انهم تقاعدوا على مال الوزير أبي عبد الله محمد العربي قادوس الذي أمنه عندهم فبطش بهم المولى يزيد وصادرهم واستحكمت العداوة يومئذ بينهم وبين آل مرينوا فلما توفي المولى يزيد بادر آل مرينوا ومن لافهم الى بيعة المولى مسلمة وانحرف عنهم الى بيعة المولى سليمان من لم يكن من حزبهم ولما قتل العباس مرينوا أحمد أوباش رباط الفتح الى شلوه وربطوا في رجله حبلا وجروه في أسواق المدينة وعرضوه على حوانيتها حانوتا حانوتا اذ كان في حياته محتسبا رحمه الله وكان السلطان المولى سليمان في هذه المدة مقيما بفاس لم يتحرك منه ثم ان المولى مسلمة صاحب بلاد الهبط بعث ولده الى آيت يمور وأمرهم أن يشنوا الغارة على أهل زرهون الذين هم في طاعة السلطان ففعلوا وكثر عيثهم في الرعايا فسار السلطان المولى سليمان الى مكناسة واستنفر جيش العبيد وقبائل البربر ثم وافاه الودايا وأهل فاس وشراقة فاجتمع عليه منهم الجم الغفير وصمد بهم الى آيت يمور فألفاهم على نهر سبو بالموضع المعروف بالجر الواقف فصمدت اليهم العساكر وأوقعت بهم وقعة شنعاء وفر ولد المولى مسلمة فلحق بابيه ولجئ آيت يمور بقضهم وقضيضهم الى جبل سلفات وبقيت حللهم بماشيتها وأثاثها بيد السلطان فانتهبتها جيوشه من العبيد والودايا والبربر وبات السلطان هنالك ولما أصبح بعث اليه آيت يمور نساءهم وأولادهم للشفاعة وطلب العفو فعفا عنهم وتابوا اليه وبايعوه فانعم عليهم بماشيتهم وزرعهم وعاد الى فاس ثم بلغه ان المولى مسلمة معسكر ببلاد الحياينة فنهض اليه من فاس فاوقع به فانهزم المولى مسلمة وجيشه ونهب جيش السلطان حلة الحياينة وجاؤا تائبين فعفا عنهم ونظمهم في سلك الجماعة وتفرق عن المولى مسلمة من كان معه من عرب الخلط وأهل الجبل ولم يبق معه الا خاصته وولداه وابن أخيه المولى حسن بن يزيد فسار الى جبل الزبيب فلم يقبلوه ثم انتقل الى الريف فاواه ثم صعد الى جبل بني يزناسن فطردوه ثم توجه الى ندرومة فمنعه صاحبها من الوصول الى الباي صاحب الجزائر وكان ذلك عن أمر منه فتوجه الى تلمسان وأقام بها ﴿قال صاحب البستان﴾ وهنالك اجتمعت به في ضريح الشيخ أبي مدين بالعباد يعني حين قدم تلمسان مفارقا للسلطان المولى سليمان وزعم ان المولى مسلمة لما اجتمع به

لامه على تخذيل الناس عن بيعته وحضه اياهم على بيعة أخيه المولى سليمان قال فبينت له حال المولى سليمان وما هو عليه من اتباع سيرة والده فى العدل والرفق بالرعية وبذلك أحبه الناس فلما سمع كلامى بكى واعترف بالحق وتلا قوله تعالى ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير ثم طلب من صاحب الجزائر أن يأذن له فى الذهاب الى المشرق والمرور بايالته فأبى وبعث من أزعجه من تلمسان الى سجلماسة ولما اتصل خبره بالسلطان المولى سليمان وانه عاد الى سجلماسة أرسل اليه مالا وكسى وعين له قصبة ينزلها ورتب له ما يكفيه فى كل شهر كسائر اخوته فلم يطب له مقام بها وسار الى المشرق فاجتاز فى طريقه بصاحب تونس الامير حمودة باشا ابن على باى ﴿قال صاحب الخلاصة النقية﴾ قدم المولى مسلمة بن محمد على الامير حمودة باشا شريدا اثر خلعه من مملكة فاس فانزله أسنى منزلة وأجرى عليه جراية سلطانية وبالغ فى بره اهـ ثم ان المولى مسلمة سافر الى المشرق فاقام بمصر مدة ثم توجه الى مكة فنزل على سلطانها صهره على أخته فاكرمه ورتب له جراية ثم عاد من مكة الى مصر وساءت حاله فى هذه المدة وضاقت عليه الارض بما رحبت فرجع الى تونس ونزل على حمودة باشا المذكور فعاود اكرامه ثم طلب منه أن يشفع له عند أخيه المولى سليمان فكتب له بذلك فاخذ كتابه وانحدر الى وهران وطلب من أميرها الشفاعة أيضا فكتب له وبعث بمكاتيب الاميرين الى السلطان المولى سليمان فقبله وأمره أن يذهب الى سجلماسة ينزل بها بدار والده ويرتب له ما يكفيه من مؤنة وكسوة ويقاسمه نعمته ويبقى بعيدا عن سماسرة الفتن حتى لا يجدوا سبيلا الى ايقاد نار الفتنة فلما بلغه جواب أخيه لم يرض ذلك وعاد الى المشرق فبقى يتردد به الى ان وافته منيته واستراح من تعب الدنيا رحمه الله

﴿نهب عرب آنقاد لركب حاج المغرب وما نشأ عن ذلك﴾

ثم بلغ السلطان المولى سليمان رحمه الله ان جماعة من التجار والحجاج الذين قدموا من المشرق خرجوا من وجدة متوجهين الى فاس فلما توسطوا أرض آنقاد عدت عليهم عربها فنهبتهم فاستدعى السلطان رحمه الله الكاتب أبا القاسم الصيانى وأمره بالمسير الى وجدة يكون واليا بها ويصلح ما فسد من أعمالها فكره الصيانى ذلك واستقال فلم يقله السلطان وعزم عليه فى المسير اليها وعين له مائة فارس تذهب معه فامتثل راغما وأضمر انه ان فارق السلطان يذهب الى أحد الحرمين الشريفين فيقيم به بقية عمره وجمع موجوده وخرج فخرج معه قفل التجار الذى كان محصورا بفاس ولما توسطوا أرض آنقاد وجدوا العرب فى انتظارهم فثاروا بهم وقاتلوهم فتماسكت خيل السلطان هنيئة ثم كثرهم العرب فهزموهم ولم يبق من تلك الخيل الا قائدها فى عشرة من اخوانه وانتهب العرب ما كان فى ذلك القفل من أمتعة التجار وسلعها ولم ينج من نجا منه الا بنفسه قال الصيانى فلجئنا الى قصبة العيون وتفرق جمعنا وقتل مناسبعة نفر وجرح آخرون فبعثت من أتانا بالقتلى فدفناهم ثم سرحت قائد الخيل الى وجدة مع بعض العرب الذين هنالك وطلعت أنا مع برابرة بنى يزناسن الى جبلهم وليس معى الا مركوبى وفرس آخر كان عليه مملوك لى قتل فى المعركة قال ثم خلصت الى وهران فنزلت عند الباى محمد باشا فأظهر التأسف والتوجع وراودنى على المقام فأبيت ثم ذكر الصيانى انه بعد هذا ذهب الى تلمسان واجتمع هنالك بالمولى مسلمة ابن محمد وتلاوما وتعاتبا حسبما ذكرناه آنفا وكان ذلك أواخر سنة ست ومائتين وألف

﴿بعث السلطان المولى سليمان الجيوش الى الحوز ونهوضه على أثرها الى رباط الفتح وعوده الى فاس﴾

قد قدمنا ان أهل مراكش وقبائل الحوز كانوا متمسكين بدعوة المولى هشام بن محمد من لدن دولة المولى يزيد رحمه الله ولما صفت بلاد الغرب للسلطان المولى سليمان رحمه الله تاقت نفسه الى تمهيد بلاد الحوز والاستيلاء عليها فعقد لاخيه المولى الطيب بن محمد على عشرة آلاف من الخيل وعين معه جماعة

من

من قواد الجيش وبعثهم الى قبائل الشاوية وذلك أواخر سنة سبع ومائتين وألف ثم زحف السلطان على أثرهم الى رباط الفتح فمحا بقية آثار الفتنة التى نشأت بها وأقام ينتظر ما يكون من أمر أخيه وفى سادس شوال من السنة صلى السلطان الجمعة بمسجد القصبة منها وكان هو الامام وخطب خطبة بليغة تشتمل على الامر بالمعروف والنهى عن المنكر والتحذير من الحرام واجتناب الآثام ووعد وأوعد وقال فى آخر خطبته وانصر اللهم جيوش المسلمين وعساكرهم ودعا لكافة الامة وصلى فى الركعة الاولى بسورة الجمعة وفى الثانية بسورة الغاشية الخ ولما قدم المولى الطيب بلاد الشاوية تنافس قواد الجيش الذين معه وتنازعوا الرياسة وصار كل واحد منهم يرى أنه صاحب الامر وكان من أعظمهم تهورا القائد الغنيمي كان من قواد المولى يزيد رحمه الله فابقاه المولى سليمان على رياسته تألفا له فاستبد على سائر القواد فى الرأى اذ كان رديف الخليفة المولى الطيب وصاحب مشورته فلما كان وقت اللقاء تخاذلوا عنه وجرّوا عليه الهزيمة وتركوا أخبيتهم وأثاثهم بيد العدو ورجعوا منفلولين الى السلطان برباط الفتح وهم عشرة آلاف فارس كامر فاوسع السلطان رحمه الله الا الرجوع بهم الى فاس لتجديد آلة السفر والغزو ثانيا واخلاف ماضاع من الاخبية والسلاح والاثاث حسبما نذكر بعد ان شاء الله

﴿ثورة محمد بن عبد السلام الخمسى المعروف بزيطان بالجبل﴾

﴿ولما كانت سنة ثمان ومائتين وألف﴾ ثار بقبيلة الاخماس من جبال غمارة رجل من طلبتها يقال له محمد ابن عبد السلام ويدعى زيطان فاجتمعت عليه سماسرة الفتن من كل قبيلة وكثر تابعوه وكان السبب فى ثورته ان القائد قاسما الصريدى كان واليا بتلك الناحية أيام المولى يزيد رحمه الله فلما بويع المولى سليمان ولى على تلك الناحية القائد الغنيمى المتقدم الذكر وكان عسوفا فيما قيل فقبض على القائد قاسم واستصفى أمواله وبث عليه العذاب كى يظهر ما بقى عنده حتى هلك فى العذاب فثار زيطان واجتمعت عليه الغوغاء من أهل تلك البلاد ولما استشرى داؤه بعث السلطان بجيش الى القائد الغنيمى وأمره أن يقصد زيطان وجمعه فزحف اليه ببلاد غصاوة قرب وازان وأوغل فى طلبه فنهاه من معه من رؤساء الجيش عن التورط بالناس فى تلك الجبال والشعاب فلج واقتحمها بخيله ورماته ولما توسطها سالت عليه الشعاب بالرماة من كل جانب وهاجت الحرب وأحاط العدو بالجيش فقتلوا منهم وسلبوا كيف شاؤوا وردوهم على أعقابهم منهزمين ولما اتصل خبر الهزيمة بالسلطان اغتاظ وقبض على الغنيمى ومكن منه أولاد قاسم الصريدى فباشروا قتله بايديهم واقتصوا منه بابيهم وولى على قبائل الجبل أخاه المولى الطيب وفوض اليه أمر الثغور وأنزله طنجة وبقى المولى الطيب يدبر أمر القبائل الجبلية وثغورها من تطاوين الى طنجة الى العرائش وكلما بدت له فرجة سدها أو فرصة انتهزها وحارب قبائل الفحص الى ان استكانوا وانقادوا الى الطاعة ثم حارب أهل حوز طنجة وآصيلا من بنى يدير والاخماس من أصحاب زيطان فكانت الحرب بينهم سجالا ﴿ثم لما دخلت سنة تسع ومائتين وألف﴾ أمد السلطان أخاه المولى الطيب بجيش وافاه بطنجة فخرج منها ومعه عسكرها وعسكر العرائش وصمد الى بنى حرفط عش الفساد ونزل على بلادهم وقاتلهم فى عقر ديارهم فقتل مقاتلتهم وأحرق مداشرهم وانتهب أموالهم ومزقهم كل ممزق فجاؤوه خاضعين تائبين فعفا عنهم ثم تقدم الى بنى حرشن من بنى يدير على تغيثة ذلك ففر الثائر زيطان الى قبيلته بالاخماس وتسللت عنه القبائل التى كانت ملتفة عليه واستنزله المولى الطيب بالامان فظفر به وبعث به الى السلطان فامضى له أمانه وولاه على قبيلته وصار من جملة خدام الدولة ونصحائها الى ان ملكت زمامها وتعين غيره للقيام بامرها فأخر ونقله السلطان الى تطاوين فسكنها ورتب له بها ما يكفيه وبقى الى أواخر دولة السلطان المولى سليمان ولما خرج عليه المولى ابراهيم بن يزيد ودخل تطاوين كانت لزيطان هذا فى التمسك بدعوة السلطان اليد البيضاء وأغنى غناء جميلا فى تثبيت تلك القبائل وتسكينها ثم وفد على

السلطان بطنجة سنة ست وثلاثين ومائتين وألف وقد طعن فى السن فأحسن اليه غاية الاحسان والى الآن لازال أهل الاخماس يستنصرون بحفدته ويعتقدون فيهم ماتعتقده آيت ومالو فى آل مهاوش والله وارث الارض ومن عليها وهو خير الوارثين ﴿وفى ذى الحجة من هذه السنة أعنى سنة تسع ومائتين وألف﴾ توفى العلامة الامام السيد التاودى بن سودة المرى الفاسى صاحب الحاشية على البخارى والحاشية على شرح الشيخ عبد الباقى الزرقانى على المختصر وشرح العاصمية والزقاقية وغير ذلك من التآليف المفيدة وكان رحمه الله خاتمة الشيوخ بفاس ومناقبه شهيرة

﴿أخبار المولى هشام بن محمد بمراكش والحوز ومايتصل بذلك﴾

قد قدمنا أن أهل مراكش وقبائل الحوز كانوا قد خرجوا على السلطان المولى يزيد وبايعوا أخاه المولى هشام بن محمد ولما قتل المولى يزيد بمراكش استقرت قدم المولى هشام بها وأطاعته قبائل الحوز كلها وكان وزيره القائم بأمره صاحب آسفى القائد عبد الرحمن بن ناصر العبدى وكان غاية فى الجود وبسط الكف وصاحب دكالة والحوز القائد محمد الهاشمى بن العروسى وكان ذا شوكة بعصبيته وقومه فكان هذان القائدان اليهما النقض والابرام فى دولة المولى هشام هذا بكثرة ماله وعطائه وهذا بعصبيته وشدة شوكته فدانت للمولى هشام قبائل دكالة وعبدة وأحمر والشياظمة وحاحة وغير ذلك واستمر الحال على ذلك برهة من الدهر الى أن افترقت عليه كلمة الرحامنة وتجنوا عليه بانه قتل عاملهم القائد أبا محمد عبد الله بن محمد الرحمانى غيلة على انه كان مدبر دولته والقائم بامره ﴿قال اكنسوس﴾ هكذا شاع أن المولى هشاما هو الذى أمر بقتل عبد الله الرحمانى وابن الداودى قال والذى تحدث به السلطان المولى سليمان مع بعض الناس هو ان الفرقة المنحرفة من الرحامنة قتلوه وأظهروا أن المولى هشاما هو الذى دس اليهم بذلك وكذلك أمر ابن الداودى والله أعلم ولما قتل القائد عبد الله خلعت الرحامنة طاعة المولى هشام وبايعت أخاه المولى حسين بن محمد وزحفوا به الى مراكش فلم يرع المولى هشاما الا طبول هم تقرع حول القصبة وأرهقوه وأعجلوه عن ركوب فرسه فخرج يسعى على قدميه الى أن أتى ضريح الشيخ أبى العباس السبتى فعاذ به وثابت اليه نفسه وبعد أيام تسلل وسار فى جماعة من حاشيته الى آسفى ونزل على وزيره القائد عبد الرحمن بن ناصر فأكرم مثواه وأحسن نزله وغدا وراح فى طاعته ومرضاته ودخل المولى حسين قصر الخلافة بمراكش فاستولى على ما فيه من الذخيرة والاثاث من متاع المولى هشام ومخلف المولى يزيد فاضطر أهل مراكش حينئذ الى مبايعة المولى حسين والخطبة به وكان ذلك سنة تسع ومائتين وألف وافترقت الكلمة بالحوز فكان بعضه كعبدة وأحمر ودكالة مع المولى هشام وبعضه مثل الرحامنة وسائر قبائل حوز مراكش مع المولى حسين واتقدت نار الفتنة بين هؤلاء القبائل وتفانوا فى الحروب الى ان بلغ عدد القتلى بينهم أكثر من عشرين ألفا هذا كله والسلطان المولى سليمان مقيم بفاس معرض عن الحوز ومتربص باهله الدوائر الى ان ملوا الحرب وملتهم وكان ذلك من سعادته فصاروا يتسللون اليه ارسالا ويسألونه الذهاب الى بلادهم ليعطوه صفقة بيعتهم فكان يعدهم بذلك ويقول اذا فرغت من أمر الشاوية قدمت عليكم ان شاء الله

﴿ثورة المولى عبد الملك بن ادريس بآنفى والسبب فى ذلك﴾

كانت قبائل الشاوية منذ هزموا جيش المولى الطيب بن محمد وهم حذرون من سطوة السلطان عالمون بانه غير تاركهم فعزموا على تلافى أمرهم عنده وأوفدوا عليه جماعات من أعيانهم المرة بعد المرة يسألونه ان يولى عليهم رجلا يكونون عند نظره ويقفون عند أمره ونهيه فولى عليهم ابن عمه وصهره على أخته المولى عبد الملك بن ادريس بن المنتصر ووجهه معهم فقدم المولى عبد الملك أرض تامسنا ونزل بمدينة

آنفي وهي المسماة اليوم بالدار البيضاء وتولى القيام على مستفادها من مرساها وصار يسهم فيه لأعيان الشاوية الذين معه وكان قصده بذلك أن يتألفهم على الطاعة والخدمة فلما حصل لهم ذلك السهم من المال تطاولوا الى الزيادة عليه وقد قيل في المثل قديما لا تطعم العبد الكراع فيطمع في الذراع فصار المولى عبد الملك يقاسمهم المستفاد شق الابلمة فلما بلغ السلطان ذلك كتب اليه يعاتبه على فعله ثم نهض على تفئة ذلك من فاس يريد تامسنا ادلم يشف المولى عبد الملك الغليل في ضبطها فلما بلغ كتاب السلطان الى المولى عبد الملك أنف من ذلك العتاب وكانت له وجاهة عند السلطان الاعظم سيدي محمد بن عبد الله وكان من كبار بني عمه وخواص قرابته ثم اتصل به الخبر بخروج السلطان من فاس فطارت نفسه شعاعا واستشار بطانته من الشاوية فقال لهم ان هذا الرجل قادم علينا لامحالة وليس له قصد الا أنا وأنتم فما الرأى قالوا الرأى أن نبايعك ونحاربه قال ذلك الذى أريد فبايعوه ولما انفصل السلطان عن رباط الفتح بعث في مقدمته أخاه وخليفته المولى الطيب وعقد له على كتيبة من الخيل وتبعه السلطان على أثره ولما بات بقنطرة الحلاج جاءه الخبر بان قبائل الشاوية قد بايعوا المولى عبد الملك بن ادريس واتصل بالمولى عبد الملك وهو بآنفي أن السلطان بات بالقنطرة فتضاعف خوفه وفر فيمن بايعوه من أهل الشاوية وأخلى مدينة آنفي من خيله ورجله ففرح أهلها بخروجه من بين أظهرهم لئلا يعديهم جربه وبادروا باخراج المدافع ليلا اعلاما للسلطان بفراره ثم أنفذوا اليه رسلهم بجلية الخبر فهش لهم السلطان وبعث معهم كتيبة من الخيل تقيم بآنفي وتقدم هو بالعساكر الى قصبة علي بن الحسن فأغار على حلة مديونة وزناتة فنهبوا وامتلأت أيدى الجيش وأوغل المولى عبد الملك في الفرار الى جهة أم الربيع وعاد السلطان بالنعم والماشية الى رباط الفتح فدخلها مؤيدا منصورا ونقل تجار النصارى الذين كانوا بآنفي الى رباط الفتح وأبطل مرساها واستمرت معطلة الى دولة السلطان المولى عبد الرحمن بن هشام فأحياها كما سيأتي ان شاء الله ثم ارتحل السلطان المولى سليمان الى مكناسة فاحتل بها وقال في ذلك العلامة الاديب أبو محمد عبد القادر بن شقرون

مولاى أنت الذى صفت مشاربه * ان تغز ناحية أوليتها جلدك
هذى البشائر وافت وهى قائلة * أعوذ بالله من شر الذى حسدك
فاصعد على منبر الاقبال معتليا * فالسعد أنجز ما كان به وعدك
وانهض الى غاية الآمال تدركها * فالآن قالت لك العلياء هات يدك
ولا تخف أبدا من سوء عاقبة * فليس يفلح من بالسوء قد قصدك
ألبسك الملك العظيم نائله * من الرضى حللا قوى بها مددك
فضلا من الحكم الترضى حكومته * جعلها كالشجا في حلق من جحدك
فاشكر صنيع الذى أولاك مكرمة * تنل رضاه وتبلغ بالرضى رشدك

﴿قدوم عرب الرحامنة على السلطان المولى سليمان ومسيره الى مراكش واستيلاؤه عليها﴾

قد قدمنا ان أهل الحوز افترقت كلمتهم على قسمين فبعضهم بايع المولى حسين بن محمد وبعضهم أقام على بيعة أخيه المولى هشام وانه نشأ عن ذلك حروب تفانى فيها الخلق ﴿فلما كانت سنة عشر ومائتين وألف﴾ قدم على السلطان بمكناسة جماعة من أعيان الرحامنة مبايعين له وسائلين منه المسير معهم الى بلادهم لتجتمع كلمتهم عليه فوعدهم بانه اذا فرغ من أمر الشاوية ومهد طريقه بها الى الحوز سار اليهم ثم قوى عزمه رحمه الله فخرج في العساكر من مكناسة وقصد تامسنا فلما احتل بها قدم عليه أولاد أبي رزق وفر أولاد أبي عطية وأولاد حريز الذين عندهم المولى عبد الملك بن ادريس ولجؤا الى وادى أم ربيع فقصدهم السلطان هنالك وأوقع بهم وفر المولى عبد الملك الى أخواله بالسوس فأقام عندهم الى ان شفع فيه أخوه

السلطان المولى عبد السلام بن محمد وأخته المولاة صفية وكانت زوجة المولى عبد الملك فقبل السلطان شفاعتهم فعفا عنه وعاد الى فاس واطمأن جنبه وأما الشاوية فانهم قدموا على السلطان تائبين خاضعين فعفا عنهم وولى عليهم الاستاذ الغازي ابن المدني المزمزي فصلحت الاحوال على يده ورجع السلطان الى فاس مظفرا منصورا فاقام بها الى ان دخلت سنة احدى عشرة ومائتين وألف فتهيأ للغزو وخرج الى بلاد دكالة فاستولى عليها وعلى مدينة آزمور وتيط وبايعه أهل تلك الناحية وقدم عليه أعيان دكالة تائبين وخرجوا من زمرة عبدة وسلطانهم المولى هشام وانتظموا في سلك الجماعة وهنالك قدم عليه أعيان الرحامنة ثانية ببيعتهم فاكرم مقدمهم وزحف الى مراكش وهم في ركابه فلما اشارفها فر عنها سلطانها المولى حسين الى زاوية المولى ابراهيم بن أحمد الامغاري بالجبل فدخل السلطان المولى سليمان الى مراكش واستولى عليها وبايعه أهلها وقدم عليه بها قبائل الحوز والدير وقبائل حاحة والسوس بهداياهم مغتبطين فسر بهم وأكرمهم وأصلح بين قبائل الحوز وجمع كلمتهم وأهدر دماءهم ومهد بلادهم ورتب حاميتها وأنزل بقصبة مراكش أهل الحوز الذين كانوا بها أيام والده ورتب لهم الجرايات وأمر بالف من عبيد السوس يأتون لسكنى القصبة واستقامت الامور

﴿دخول آسفي وصاحبها القائد عبد الرحمن بن ناصر العبدي في طاعة السلطان المولى سليمان رحمه الله﴾

كان عبد الرحمن بن ناصر هذا على ما وصفناه قبل من الوجاهة ونفوذ الكلمة بآسفي وأعمالها وكان مستوليا على جباية مرساها وخلد بها آثارا مثل الدار الكبرى التي على شاطئ البحر ومسجد الزاوية وغير ذلك وكان جوادا بالعطاء ولما استولى السلطان المولى سليمان رحمه الله على مراكش بعث اليه كاتبه أبا عبد الله محمد بن عثمان المكناسي ليأتيه به أو يأذن بحربه ولما وصل الكاتب المذكور اليه بآسفي ألفاه مريضا فاعتذر عن القدوم على السلطان بالمرض وكتب بيعته وأدى طاعته وانتقل المولى هشام عنه الى زاوية الشرايبي فاقام بها فبعث اليه السلطان من أمنه وجاء به اليه فلقاه مبرة وتكرمة وقدم اليه المراكب والكسى وأنزله بدار أخيه المولى المأمون ريثما استراح ثم بعثه الى رباط الفتح فاستوطنها ورتب له من الجراية ما يكفيه ولما قدم الكاتب ابن عثمان على السلطان ببيعة عبد الرحمن بن ناصر واعتذر له عنه بالمرض قبل ظاهر عذره وأرجأ أمره الى يوم ما ﴿وحكى صاحب الجيش﴾ أن المولى هشاما لما قدم على السلطان بمراكش ونزل بدار أخيه المولى المأمون أتاه السلطان بعد ثلاث الى منزله راجلا لقرب المسافة ولما التقيا تعانقا وتراحما ثم جاء معه المولى هشام حتى دخلا بستان النيل من باب الرئيس ونصب له السلطان كرسيا جلس عليه وجلس هو أمامه اعظاما له لكونه أسن منه ثم صار يستدعيه صباحا ومساء فيجلسان ويتحدثان ثم يفترقان وكان لا يتغدى ولا يتعشى الا وهو معه وكلما دخل عليه رفع مجلسه وأجله واذا ذكره لا يذكره الا بلفظ الاخوة بان يقول أخي مولاي هشام دون سائر بني أبيه ولما طلب المولى هشام منه السكنى برباط الفتح أجابه اليها وقضى مآربه وأزاح علله ثم عاد الى مراكش فكانت منيته بها كما نذكره

﴿دخول الصويرة وأعمالها في طاعة السلطان المولى سليمان رحمه الله﴾

كان من خبر دخول الصويرة وأعمالها في طاعة السلطان المولى سليمان رحمه الله ان الحاج محمد بن عبد الصادق المسيني وهو من عبيد الصويرة كان قد قدم من الحج عامئذ فمر على السلطان المولى سليمان وهو بالغرب فدخل عليه فولاه على الصويرة وكتب له العهد بذلك وأمره باخفائه حتى يختبر حال أهلها ويعلم أين هواهم اذ كان ذلك قبل أن يطأ السلطان بلاد الحوز ويستولي عليها وكانت الصويرة حينئذ من جملة النواحي التي الى نظر عبد الرحمن بن ناصر ومن في حزبه وتحت غلبة حاحة وعصبيتها وكان الوالي بها

يومئذ

يومئذ القائد أبو مروان عبد الملك بن بيهى الحاحى وكانت له نباهة وذكر فى قبائل حاحة وما اتصل بها
فقدم ابن عبد الصادق الصويرة على انه قدم من حجه لا غير فاراح بمنزله ثلاثا ثم جاء الى باب القائد وأظهر
عبد الملك بن بيهى وأقام من جملة الاعوان فى الخدمة المخزنية اذ تلك هى وظيفته وخف فى خدمة القائد
المذكور واعمل فى مرضاته وأظهر من النصح ما قدر عليه ولازم الباب ليلا ونهارا فكان عبد الملك
لايخرج الا ويجده قائما محترما على الباب كما قال مسلم بن الوليد فى فتى بنى شيبان يزيد بن مزيد بن زائدة

تراه فى الأمن فى درع مضاعفة * لا يأمن الدهر أن يدعى على عجل

فلم يلبث أن حلى بعينيه وعظمت منزلته لديه فقدمه على الاعوان وعلى الحاشية حتى اتخذه صاحب رأيه
وجعله عيبة سره وابن عبد الصادق فى أثناء ذلك يحكم أمره مع اخوانه مسكينة وأهل آكادير سرا وأذنه
صاغية لخبر السلطان متى يطأ بلاد الحوز فلما سمع بوصوله الى دكالة واستيلائه على آزمور وتيط
أفضى بأمر ولايته الى خاصته وشيعته وواعدهم لمظاهرتهم اياه على أمره ليلة معلومة وعبد الملك لا علم له
بما يراد به وكان ابن عبد الصادق فيما قيل قد أخذ عليه انه اذا احدث أمر ولو ليلا يخرج اليه حتى يفاوضه
فيما يكون عليه العمل فجاء فى تلك الليلة وقد هيأ جماعة من عبيد الصويرة الذين أعدهم للقيام معه
وتركهم بحيث يسمعون كلامه اذا تكلم وقال لهم اذا سمعتمونى أكلمه وأراجعه فى القول فبادروه
واقبضوا عليه ثم تقدم واستأذن على عبد الملك فخرج اليه وبينما هو يكلمه أحاط به العبيد وقبضوا عليه
وعلى جماعة من أصحابه من حاحة الذين كانوا يخدمونه ولم يملكوهم من أنفسهم شيأ حتى أخرجوهم عن
البلد فى تلك الساعة ودفعوا العبد الملك فرسه وأغلقوا الباب خلفه وصفا لهم أمر البلد ومن الغد جمع ابن
عبد الصادق أهل الصويرة وقرأ عليهم كتاب السلطان بولايته عليهم فأذعنوا وأجابوا ولم يرق فيها محجمة
دم ثم ورد الخبر عقب ذلك بدخول السلطان الى مراكش واستيلائه عليها وبها تم له أمر المغرب وصفا له
ملكه ولم يبق له فيها منازع وذلك بعد مضى خمس سنين من ولايته رحمه الله ثم انه استخلف أخاه المولى
الطيب نائبا عنه بمراكش وقفل الى فاس من عامه فمر على طريق تادلا وأمر عاملها القائد عبد الملك أن
يغير على بنى زمور وينهب أموالهم ويقبض على مقاتلتهم ويلقاه بهم الى الصخرة فركب القائد عبد الملك
فى الجيش الذى كان معه واحتال عليهم بان أرسل اليهم بالقدوم عليه فرسانا فلما قدموا عليه أمر
بالقبض عليهم وشدهم وثاقا وحاز خيلهم وسلاحهم ثم أغار على حلتهم فنهبها وقدم على السلطان بها لهم
ورقابهم وكانوا ماتى رجل بالتثنية فبعث بهم السلطان الى مكناسة فسجنوا بها حتى صلحت أحوالهم بعد
ذلك وسرحهم

﴿استرجاع السلطان المولى سليمان مدينة وجدة وأعمالها من يد الترك﴾

﴿وفى هذه السنة أعنى سنة احدى عشرة ومائتين وألف﴾ بعث السلطان المولى سليمان بالعساكر من
فاس الى وجدة فعقد على الودايا للقائد أبى السرور عياد بن أبى شفرة وعلى شراقة للقائد محمد بن خدة وعلى
الاحلاف للقائد عبد الله بن الخضر وأمرهم أن يأتوا أرض وجدة ويدوخوها ويقاتلوا الترك الذين
استحوذوا عليها وما نعوا دونها وكتب مع ذلك الى الباى محمد باشا فى أن يتخلى عنها وعن قبائلها التى كان
يتصرف فيها أيام الفترة أو يأذن بالحرب فامتثل الباى محمد ذلك ولم يمانع بل كتب الى نائبه بها أن يتركها
لاربابها ويتخلى عن قبائل بنى يزناسن وسقونة والمهاية وأولاد دز كرى وأولاد على ورأس العين فامتثل
ودخل جيش السلطان لوجدة وجبى عامله زكواتها وأعشارها واستخلف نائبه بها وقفل بالعساكر على
السلطان وهو بفاس وقد تمهد الملك وشحبت عروقه وألقى السعد بجرانه والحمد لله ﴿وفى هذه السنة﴾
قدم الشيخ الفقيه المتصوف أبو العباس أحمد التجانى الى فاس فاستوطنها وكان الباى محمد بن عثمان صاحب
وهران قد أزعجه من تلمسان الى قرية أبى صمغون فاقام بها وأقبل أهلها عليه ثم لما مات الباى المذكور

وولى بعده ابنه عثمان بن محمد سعى عنده بالشيخ التجانى فبعث الى أهل أبى صمغون وتهددهم ليخرجوه ولما سمع بذلك الشيخ المذكور خرج مع بعض تلامذته وأولاده وسلك طريق الصحراء حتى احتل بفاس ولما دخلها بعث رسوله بكتابه الى أمير المؤمنين المولى سليمان يعلمه بانه هاجر اليه من جور الترك وظلمهم واستجارمنهم باهل البيت الكريم فقبله السلطان وأذن له فى الدخول عليه والحضور بمجلسه ولما اجتمع به ورأى سمته ومشاركته فى العلوم أقبل عليه واعتقده وأعطاه دارا معتبرة من دوره كان أنفق فى عمارتها نحوا من عشرين ألف مثقال ورتب له ما يكفيه وأقبل عليه الخلق واشتهر أمره بفاس والمغرب وهو شيخ الطائفة التجانية رحمه الله ونفعنا به ﴿ثم دخلت سنة اثنتى عشرة ومائتين وألف﴾ فيها اخرج السلطان فى العساكر من مكناسة يريد عبد الرحمن بن ناصر بآسفى وعزم على حربه الا أن يؤدى الطاعة هو وقبيله مباشرة طوعا وكرها ولما عبر وادى أم الربيع قدم اليه القائد أبا السرور عياد بن أبى شفرة فى جيش الودايا وقال له اذا قدمت عليه فاز عجه للمجىء فان قدم فاقدم أنت بآسفى وان امتنع من المجىء فاكتب الى وأقم هنالك حتى أقدم عليك فلما وصل اليه القائد عياد لم يسعه الا المجىء لملاقاة السلطان فجاء وهو مريض فى محفته ومعه جموعه وقبائله حتى اجتمع بالسلطان بالموضع المعروف بمائة بير وبير بين عبدة ودكالة فبايعه مباشرة وأدى الطاعة هو واخوانه مباشرة كما اقترح السلطان وتحقق بان تأخره انما كان للمرض الذى به فوفى له السلطان بعهده وزاد فى كرامته بوصوله معه الى آسفى ودخوله الى داره بعد تثبيط رؤساء الجيش له عن الدخول معه ثم عقد له على قبائله وأمره بقبض الواجب منهم زاد صاحب الجيش وشكره على ايوائه لاخيه المولى هشام ثم سار السلطان الى مراكش فدخلها مظفرا منصورا * وفى هذه السنة حدث الوباء ببلاد المغرب وعم حواضره وبواديه ولما فشى بمراكش وأعمالها رجع السلطان الى مكناسة وترك أخاه المولى الطيب نائبا عنه بها فبلغه أثناء الطريق وفاة كاتبه أبى عبد الله محمد بن عثمان تركه بمراكش مصابا بالوباء ﴿قال صاحب البستان﴾ فلما وصل السلطان الى مكناسة استقدمنى من فاس فقدمت عليه وقلدنى كتابته بعد ان أخرنى عنها سنة وفى أثناء ذلك بلغه وفاة اخوته الاربعة خليفته المولى الطيب والمولى هشام والمولى حسين والمولى عبد الرحمن بالوباء الثلاثة الاول بمراكش والرابع بالسوس ودفن المولى هشام والمولى حسين بقبة الى جنب الشيخ الجزولى رضى الله عنه وقبرهما مشهور بمراكش ﴿قال صاحب البستان﴾ فبعثنى السلطان الى مراكش لآتيه بمخلف اخوته الذين هلكوا بها ومخلف الكاتب ابن عثمان وبعث معى خيلا وبغالا لحمل المخلف المذكور والوباء لا زال لم ينقطع قال فوصلت الى مراكش وجمعت المخلف ورجعت به الى فاس وقد ارتفع الوباء وازدهت الدنيا ودرّت ألبان الجباية للسلطان وفى هذه المدة قدم على حضرة السلطان باشدور الاصبنيول فعقد معه شروط المهادنة وكان الذى تولى عقدها معه الكاتب ابن عثمان المكناسى قبل وفاته بيسير وهى ثمانية وثلاثون شرطا مرجعها الى الصلح والامان من الجانبين الا انها أشد بيسير من الشروط التى انعقدت مع السلطان المرحوم سيدى محمد رحمه الله من ذلك أن شروط سيدى محمد كانت تتضمن انه اذا تشاجر مسلم ونصرانى فالذى يفصل بينهما هو الحاكم الا ان القنصل يحضر وقت الفصل عسى أن يدفع عن ابن جنسه بحجة ان كانت وصارت شروط السلطان المولى سليمان تتضمن أن كل واحد منهما يتولى أخذ الحق منه حاكمه ويدفعه لخصمه واذا اقترنصرانى من سبتة أومليلية أو نكور أو بادس وأراد اسلاما فلا بد من حضور القنصل ان كان والا فالعدول يسمعون منه ثم شأنه وما يريد ﴿ثم دخلت سنة ثلاث عشرة ومائتين وألف﴾ فيها وجه السلطان كاتبه أبا عبد الله محمد الزهونى لجمع أموال المنقطعين فجمع منها ما قدر عليه وعاد سالما غانما ﴿ثم دخلت سنة أربع عشرة ومائتين وألف﴾ فيها أرسل السلطان كاتبه المذكور عاملا على السوس ومعه طائفة من الجند فجبى قبائله ورجع وأحبه أهل السوس لحسن سيرته ولين جانبه * وفى هذه السنة

فى

في اليوم الثامن من ربيع الثاني منها توفي الفقيه العلامة الماهر أبو عبد الله محمد المير السلاوي وكان من أهل المشاركة والتحقيق والخط الحسن رحمه الله ﴿ثم دخلت سنة خمس عشرة ومائتين وألف﴾ فيها بعث السلطان العساكر لبرابرة آيت ومالو وعقد عليها للكاتب أبي عبد الله الحكاوي وبعث معه جماعة من قواد الجيش وقواد القبائل فلم يرضوا امارته عليهم اذ كلهم كانوا أسن منه وفيهم من هو أعرف باحوال البربر ومكايدهم فخذلوه وقت اللقاء وجروا عليه الهزيمة واستولى البربر على أثاثهم ومدافعهم وجردوا الكثير منهم وقبضوا على الكاتب حتى أجاره بعض البربر فابقوا عليه الى ان بعثوا به الى السلطان ﴿ثم دخلت سنة ست عشرة ومائتين وألف﴾ فيها بعث السلطان الجيش الى بلاد درعة مع كاتبه أبي العباس أحمد آشقراس فدخلها واستولى على قصورها المغصوبة وأخرج منها العرب والبربر وجبى أموالها ومهد نواحيها وأمن سبلها حتى صار ما بين السوس ودرعة والفائجة مجالا للتجار وممر الابناء السبيل يغدون به ويروحون آمنين على أموالهم وأنفسهم ﴿ثم دخلت سنة سبع عشرة ومائتين وألف﴾ فيها بعث السلطان العساكر الى بلاد الريف مع أخيه المولى عبد القادر والقائد محمد بن خدة الشرقي وقائد العسكر أحمد بن العربي فجبى قبائل الريف من قلعية وكبدانة وغيرهما عن ثلاث سنين سلفت ولما رجعت العساكر أغارت على المطالسة وبني أبي يحيى بكسر الياء الاخيرة فاستاقوا ماشيتهم وسبيهم وقدموا بهما على السلطان فسرح السلطان السبي ﴿ثم دخلت سنة ثمان عشرة ومائتين وألف﴾ فيها أغار آيت ادراسن على رفاق تافيلالت بطريق ملوية ونهبوا بعض القفل وذلك بسبب ان السلطان كان قد قبض على محمد بن محمد واعزيز وسجنه بالجزيرة وولى عليهم أخاه أبا عزة بن محمد واعزيز فلم يقبلوه وجمعوا كلمتهم على ابن عمه أبي عزة بن ناصر وكان منحرفا عن السلطان ومفارقا له فولوه أمرهم ولما رأى السلطان اعوجاجهم سرح لهم محمد واعزيز وولاه عليهم وأمره بالقبض على أبي عزة بن ناصر فابى فغضب السلطان عليه ثانية وهم به ففر محمد واعزيز وكشف وجه العصيان فنهض حينئذ الى آيت ادراسن في العساكر وأرسل الى قبائل آيت ومالو أن يأتوهم من خلفهم وتقدم هو حتى نزل بقرب آعليل ووقعت الحرب فنصر الله السلطان وانهزم آيت ادراسن ونهبت مواشيهم واحتوى البربر على حللهم وفر أولاد واعزيز الثلاثة برؤسهم لآيت ومالو وشرعت العساكر في اخراج زروعهم الى ان استصفوها وأمر السلطان بهدم قصورهم فهدمت وأعطى كروان بلادهم ورجع الى فاس مظفرا منصورا ثم لم يقم بها الا يسيرا حتى خرج الى تازا وترك عامل فاس أبا العباس أحمد اليموري ببلاد الحياينة لقبض خراجهم ولما احتل بتازا جهز العساكر الى وجدة مع الشيخ عبد الله بن الخضر لجباية قبائلها وجهز جيشا آخر مع عامل سجلماسة أبي عبد الله محمد الصريدي فنزل ملوية وجبى قبائلها وطلع الى بلاد الصحراء مع أوديتها الى ناحية فجيج فجبى أموال تلك النواحي ثم توجه الى سجلماسة ففرق الجيش على أقاليم صحرائها درعة والفائجة وتدغة وفركلة وغريس وزيز والخنق ومدغرة والرتب فجبى أموال تلك القبائل كلها وقرر عماله ونوابه بكل اقليم منها ومهد طريق الصحراء ورجعت عساكره منصورة ﴿ثم دخلت سنة تسع عشرة ومائتين وألف﴾ فيها عزل السلطان القائد أبا العباس أحمد اليموري عن فاس وولى عليها صهره المولى حبيب بن عبد الهادي فقام بها أحسن قيام وكان ذا عقل ومروءة وسمت ودهاء وفيها توجه السلطان في العساكر الى مراكش ولما احتل بها بعث جيشا الى السوس لنظر الكاتب أبي عبد الله الرهوني وبعث جيشا آخر الى عامل حاحة لنظر أبي العباس أحمد اليموري ثم خرج السلطان في جيش ثالث الى ثغر الصويرة لمشاهدتها والوقوف على آثار والده بها فانتهى اليها وأقام بها أياما وفرق المال على جندها أحرارا وعبيدا ونظر في أمور مرساها وأمر باصلاح ما لا بد منه فيها وعاد الى الغرب مؤيدا منصورا

﴿فتنة الفقير أبي محمد عبد القادر بن الشريف الفليتي واستحواذه على تلمسان وبيعته للسلطان المولى سليمان والسبب في ذلك﴾

﴿لما كانت سنة عشرين ومائتين وألف﴾ هاجت الفتنة بين عرب تلمسان والترك وكان السبب في ذلك أن باي وهران كان له انحراف عن الفقراء والمنتسبين وسوء اعتقاد فيهم فقتل بعض الطائفة الدرقاوية وأمر بالقبض على مقدمهم أبي محمد عبد القادر بن الشريف الفليتي تلميذ الشيخ الاكبر أبي عبد الله سيدي محمد العربي بن أحمد الدرقاوي شيخ الطائفة المذكورة ففر أبو محمد عبد القادر المذكور الى الصحراء ونزل بحلة الاحرار فاجتمع عليه أهل طائفته وامتعضوا لمن قتل منهم ولنفي مقدمهم عن وطنه وعشيرته وامتعضت لهم عشائرهم من قبائل العرب الذي هنالك وزحفوا الحرب الترك على حين غفلة منهم فقتلوهم في كل وجه ولما دخل فصل الربيع من السنة المذكورة بعث صاحب الجزائر عسكرا الى باي وهران وأمره بغزو العرب فنهض اليهم ووقعت الحرب بينه وبينهم فانهزم الترك ثانية ونهب العرب محلتهم وتبعوهم الى وهران فحاصروهم ولما مني الباي منهم بالداء العضال كتب الى السلطان المولى سليمان يعترفه بما دهاه منهم ويطلب منه أن يبعث اليهم شيخهم أبا عبد الله المذكور ليكفهم عنه ويراجعوا طاعة المخزن فبعث السلطان رحمه الله الشيخ المذكور ومعه الامين الحاج الطاهر بادو المكناسي فانتهى الشيخ الى ابن الشريف وهو في جموعه بظاهر وهران فشكا الى الشيخ ما نال الفقراء والمنتسبين وسائر الرعية من عسف الترك وجورهم وانتهائهم في ذلك الى القتل والطرد عن الوطن فتوقف الشيخ وربما صدر منه بعض تقبيح لفعل الترك وما هم عليه فازدادت العرب بذلك تظاهرا على الترك وتكالبا عليهم فاتهم الباي السلطان بانه الذي يغريهم لانه كان ينتظر الفرج على يده ويرجو رقع الخرق من جهته فاخفق سعيه وحينئذ نصب مدافعه في وجه جموع العرب وفرقهم بالكور والضوبلي فانهزموا عن وهران وأبعدوا المفر ثم تذامروا وتحالفوا وزحفوا الى تلمسان فنزلوا عليها وحاصروها وكان أهل تلمسان خصوصا وقبائلها عموما لهم التفات كبير الى السلطان المولى سليمان رحمه الله لما أكرمه الله به من شرف النسب وطيب المنبت ولما اشتهر عنه من العدل والرفق بالرعية والشفقة عليها فكانوا يحبون الدخول في طاعته والانخراط في سلك رعيته فلما نزلت العرب على تلمسان تمشت الرسل بينهم وبين الحضر من أهلها واتفقوا على خلع طاعة الترك ومبايعة السلطان المولى سليمان ففتحوا باب المدينة ودخل ابن الشريف وطائفته وأخذ البيعة بها للسلطان المولى سليمان وخطب به على منابرها ووجه وفده وهديته الى السلطان مع شيخه أبي عبد الله المذكور ثم نهد في عربه وحضره من أهل تلمسان لحرب الكرغلية الذين بالقصبة فأحجرهم بها وضيق عليهم فلم يبق للترك حينئذ شك في ان ذلك كله بامر السلطان فكتبوا الى الدولاتي وهو باشاهم الاعظم صاحب الجزائر يعلمونه بالواقع واستمرت الحرب بينهم وبين ابن الشريف في وسط المدينة وعظم الخطب واشتد الكرب وقدم الشيخ على السلطان بوفد أهل تلمسان والعرب وهدية ابن الشريف وبيعته وأخبره بان الناس في شدة من أمر الترك وأنهم قد طارحوا على بابه وعلقت آمالهم به وراموا الاستظلال بظل عدله فرأى السلطان رحمه الله أن يسلك في حقهم وحق الترك مسلكا هو أرفق بالجميع فبعث القائد أبا السرور عياد بن أبي شفرة الودي وأمره أن يحجز بين الحضر والترك حتى يقدم الباي الى تلمسان ورد معه الوفد الذين قدموا مع الشيخ وتقدم اليه في القبض على ابن الشريف ان هو لم يرجع عن الحرب الى السلم ثم كتب السلطان الى الباي بما أزال شكه وأبطل وهمه ولما شارف القائد عياد تلمسان فر الشريف الى منجاته ودخل القائد عياد المدينة فحجز بين الفريقين وقدم الباي الى تلمسان فاصلح بينه وبين رعيته ومكنه من بلاده وانقلب الى حال سبيله ومع ذلك فلم يتم للترك ما أرادوا من أجل القحط الذي كان قدم حتى عدمت الاقوات وجلا أهل تلمسان عنها الى بلاد المغرب وكذا عربها

وأهل جبالها كلهم جلوا عن أوطانهم حتى لم يبق لباشا الترك مع من يتكلم فضلا عن ان يتأمر فجعل يكتب الى السلطان ويرغب اليه أن يرد عليه أهل تلمسان وعربها فكلمهم السلطان رحمه الله فى الرجوع فأبوا وقالوا انذهب الى بلاد النصارى ولا نجاور الترك فيجمع علينا الجوع والقتل ففرق لهم السلطان وتركهم بل جبرهم بان صار يعينهم بالعطاء ويتخولهم بالصدقات المرة بعد المرة حتى كان عطاؤه اياهم كالراتب المفروض وعالج داءهم مع الترك الى ان أخصبت بلادهم ورخصت أسعارهم فتراجعوا حينئذ الى أوطانهم وكتب السلطان الى الباى فى شأنهم بالعدل وحسن السيرة فامتثل وكف أيدى الكرغلية عنهم ولم يبق منهم بالمغرب الا من كان عليه دين للترك فلم يقدر على الرجوع لان أرباب الديون لا يقيمون لهم وزنا ولا يعاملون معهم شرعا والله أعلم

﴿ذكر ما اتفق للسلطان المولى سليمان رحمه الله فى وسط دولته من الخصب والأمن والسعادة واليمن﴾

كان هذا السلطان رحمه الله موصوفا بالعدل معروفا بالخير مرفوع الذكر عند الخاصة والعامة قد ألقى الله عليه منه المحبة فاحبته القلوب ولهجت به الالسنة لحسن سيرته وطيب سريرته واتفق له فى أواسط دولته من السعادة والأمن والعافية ورخاء الاسعار وابتهاج الزمان وتبلج أنوار السعد والاقبال ما جعله الناس تاريخا وتحدثوا به دهرا طويلا حتى صارت أيام السلطان المولى سليمان مثلا فى ألسنة العامة ولقد أدركنا الجم الغفير ممن أدرك أواسط دولته فكلهم يثنى عليها بما فيه ويذهب فى اطرائها كل مذهب لولا ما كدر آخرها من فتنة البربر التى جرت معها فتنا أخر كما نذكر بعد ان شاء الله ﴿فمما هيأ الله له﴾ من أسباب الخير والسعادة انه بويع مطلوبا لا طالبا ومرغوبا لا راغبا ثم لما بويع كان ثلاثة من اخوته كلهم يزاحمه فى المنصب ثم لم يزل أمرهم يضعف وأمره يقوى الى ان كفى الجميع من غير ضرب ولا طعن ولا بارز أحدا منهم قط ولا واجهه بسوء ومن ذلك انه لما دخلت سنة احدى وعشرين ومائتين وألف وجه السلطان عامله الى صحراء فجيج وجبى أموالها واسترجع قصر المحزن الذى اغتصبه أهلها من يد العبيد الذين كانوا به أيام السلطان المولى اسمعيل رحمه الله ووجه فى السنة المذكورة جيشا مع عامل فاس باعقيل السوسى ومعه جماعة من قواد القبائل الى ناحية الشرق فنزل العامل مدينة وجدة وجبى تلك القبائل كلها ثم بدا له فنهض الى عرب الاعشاش وكان ذلك خطأ منه فى الرأى اذ كانت لهم شوكة وكان فى غنى عن التعرض لهم بما در عليه من الجبايات الوافرة من تلك القبائل لكن الحرص لا يزال بصاحبه حتى يقطع عنقه فلما علموا بقصده اياهم عدلوا عن لقائه الى المحلة فاغاروا عليها وانتهبوها فرجع أهلها منهزمين من غير قتال وتركوا أثقالهم بيد العدو ولم يجتمعوا الا على وادى ملوية ومن هنالك انفض الاحلاف الى بلادهم ووقف باعقيل بالجيش وأحجم عن القدوم خوفا من السلطان فبعث اليه من قبض عليه وأتاه به فنكبه وعزله عن فاس وولى عليها وصيفه ابن عبد الصادق ثم عزله وولى عليها محمد واعزيز ﴿ثم دخلت سنة اثنتين وعشرين ومائتين وألف﴾ فيها اخرج السلطان المولى سليمان بالعساكر الى تادلا يريد بنى موسى وآيت أعتاب ورفالة وبنى عياط الذين آووا بنى موسى فبث السلطان عليهم العساكر فنهبوا بنى موسى ومن آواهم من رفالة وبنى عياط وأحرقوا مداشرهم وقطعوا أشجارهم وأبلغوا فى النكاية الى ان أذعنوا الى الطاعة وجبوا زكواتهم وأعشارهم وعادوا منصورين وفى السنة المذكورة فتح على السلطان اقليم تيكرارين وتوات من أقاصى الصحراء وجبى عامله خراجهم وعاد سالما معافى وفيها حدثت الحرب بين السلطان مصطفى بن عبد الحميد العثمانى وبين الموسكوب فكتب العثمانى الى السلطان يطلب منه أن يشد عضده بان يقيم قراصينه بباب البوغاز من مرسى طنجة لئلا تدخل قراصين الموسكوب منه وتعيث فى الجزر التى هى فى مملكة العثمانى كما فعلت فى دولة عمه السلطان مصطفى بن أحمد فامر السلطان رحمه الله رؤساء قراصينه بالتهيء والمقام هنالك ففعلوا ولم يظهر شئ حكى هذا الخبر صاحب

عرب الاعشاش

البستان ﴿ثم دخلت سنة ثلاث وعشرين ومائتين وألف﴾ فيها عقد السلطان لوصيفه القائد أحمد بن مبارك صاحب الطابع على جيش كثيف وضم اليه جماعة من قواد الجند والقبائل وسار حتى نزل على حدود بلاد آيت ومالو وأحاطت العساكر السلطانية بهم من كل جهة وكان ذلك في فصل الشتاء فمنعوهم من النزول الى البسيط للرعي وجلب الميرة الى ان ضاعت مواشيهم وأذعنوا الدفع ماوظف عليهم فدفعوا الماشية والكراع وخلى سبيلهم وفيها خرج السلطان من مكناسة لتفقد أحوال الثغور البحرية وكان المتولي على جميعها القائد الشهير أبو زيد عبد الرحمن بن علي اشعاش التطاوني فعزله السلطان في هذه المرة وولى عليها القائد محمد السلاوي البخاري ثم ولاه على قبائل الغرب والجبال كلها وتتبع السلطان رحمه الله الثغور كلها وأحسن الى أهلها ﴿ثم دخلت سنة أربع وعشرين ومائتين وألف﴾ فيها خرج السلطان الى تادلا يريد عرب ورديغة وقبائل البربر الذين هنالك فاغارت عساكر السلطان عليهم ووقعت بينهم حروب قطيعة هلك فيها عدد من الفريقين ثم انتصرت العساكر السلطانية عليهم فهزموهم ونهبوا أموالهم وألجؤهم الى الطاعة فجاؤا تائبين فعفا عنهم ثم أنفذ جيشا كثيفا لآيت يسري بعد ان قبض منهم على عدد معتبر فشنوا الغارة عليهم وقاتلوهم فاذعنوا الاعطاء المال ولما بذلوه سرح لهم اخوانهم المقبوض عليهم وعاد السلطان مظفرا منصورا ﴿ثم دخلت سنة خمس وعشرين ومائتين وألف﴾ فيها غزا السلطان بلاد الريف فنزل عين زورة وسرح الكتائب في قبائل الريف فحاربوها وهزموها وقتلوا مقاتلتها وسبوا ذراريها وحرقوا مداشرها وألجؤهم الى الطاعة فقدموا على السلطان تائبين فعفا عنهم على ان يدفعوا ما ترتب عليهم ثم عين السلطان الامناء الذين استوفوه منهم على التمام وعاد مظفرا منصورا وفي هذه السنين كلها كانت الرعية في غاية الطمأنينة والعافية والأمن والخصب والرخاء وكمال السرور والهناء حتى كانت هذه المدة غرة في جبهة ذلك العصر ودمية في محراب ذلك القصر ثم انعكست الاحوال وتراكمت الاهوال وعظمت الاوجال واتسع في الفتنة المجال وتم على هذا السلطان الجليل العالم النبيل في آخر عمره مالم يتم على أحد من ملوك بني أبيه ولله الامر من قبل ومن بعد

﴿بدء هيجان فتنة البربر وما نشأ عنها من التفاقم الاكبر﴾

﴿لما دخلت سنة ست وعشرين ومائتين وألف﴾ قامت الفتنة بين قبائل البربر وكان ابتداؤها أولا بين آيت أدراسن وكروان وبين أعدائهم آيت ومالو وأهل جبل فازاز ثم لما انتشبوا الحرب غدرت كروان باخوانهم آيت ادراسن وانحاز والى آيت ومالو فانهزمت آيت ادراسن ووضع آيت ومالو فيهم السيف ونهبوا احلالهم بما فيها وتركوهم بالقاع مدقعين ولعصا الذل مهطعين ولم يفلت منهم الا أصحاب الخيل الذين نجوا بنواصيها وقدموا على السلطان شاكين باكين فقام وقعد لذلك لما أوجب الله عليه من النظر لهم اذهم رعيته وشيعته وشيعة والده من قبله فجهز العساكر لنصرتهم وعادوا الى حرب كروان فظاهرهم آيت ومالو عليهم وهزموهم مرة أخرى ثم بعد هذا اتفقت البربر على حرب آيت ادراسن مناواة للسلطان وبغضا في قائدهم محمد واعزيز الذي كان يوليه عليهم وبعثوا الى دجالهم مهاوش المعد عندهم لامثالها وتحالفوا عنده على معصية السلطان وطاعة الشيطان وعاثوا في الطرقات والرعايا واتسع الخرق وعظم الفتق فساورت اليهم العساكر من باب السلطان حتى نزلت باحواز صفروا وكانت لنظر القائد محمد الصريدي الذي يبغضه البربر كبغض محمد واعزيز أو أكثر فكشفوا القناع في العصيان وزحفوا الى الجيش وهو نازل حول صفروا فاحاطوا به وانتهبوه ففر من أفلت منه وتحصن الباقي بمدينة صفروا ونهبت القرى المجاورة لها وعاثوا في طرقات الصحراء فنهبوا من وجدوا بها مقبلا أو مدبرا وأعضل الداء واعوز الدواء والسلطان مقيم بمكناسة يعالج داءهم فما نفع فيه ترياق وشمخت أنوف البربر وكلما بعث اليهم جيشا هزموه أوسرية انتهبوها قيل ان منشأ ذلك كان من أجل تمسك السلطان رحمه الله بمحمد

واعزيز

واعز بز وجبرهم على طاعته وكانوا قد نفروا عنه لسوء سيرته فيهم والمعروف من حال السلطان المولى سليمان رحمه الله خلاف هذا فانه كان قلما تشكو الرعية اليه بعاملها الا ويعزله عنها تحريا للعدل واتهاما للعمال حتى لقد عيب عليه ذلك فى بعض الاحوال من جهة السياسة ولما أعيا السلطان أمرهم تركهم فوضى ووكل القائد عياد بن أبى شفرة بتدبير أمرهم وتوجه الى مراكش فكان عياد عن أمرهم أعجز وبسياستهم أجهل وصار يتألفهم بالعطاء ويجرى المؤن على كل من يقدم عليه منهم من طعام وعلف ونحو ذلك فكان ذلك مما زاد فى طغيانهم حتى كانوا ينهبون أموال الناس ومتاعهم بباب فاس ويدخلون لقبض الخفارة وأخذ الميرة واذا تكلم أحد من أهل البلد قال القائد المذكور ان السلطان قد أمرنى بذلك وربما عاقب من يعترض عليه وانما أمره السلطان أن يسوسهم على الوجه الذى لا ضرر فيه على الدولة ولا على الرعية والله أعلم

﴿اجلاب السلطان المولى سليمان على برابرة كروان ورجوعه عنهم من آصرو وما نشأ عن ذلك﴾

لما وصل السلطان الى مراكش استنفر قبائل الحوز كلها وقدم بهم الى مكناسة واستنفر قبائل الغرب من الاحلاف والحياينة وأهل الفحص وأهل الغرب وبنى حسن وأهل الثغور وضرب البعث على جيش العبيد والوداية وشراقة وأولاد جامع واستصحب معه البربر الذين هم فى طاعته حتى لم يبق أحد بالمغرب وخرج فى هذا الجمع العظيم قاصدا كروان وهم يومئذ بتاسماكت ولما وصل الى الموضع المعروف بآصرو وبقى بينهم وبينه نصف مرحلة بحيث صار يرى محلتهم ويرون محلته بدا له فرجع بريد آيت يوسى فكان ذلك الرجوع سبب الخذلان ولما رأته عيون كروان واجعاظنوا به جبنا فجروا على الجيش وتبعوه من خلفه الى ان خالطوا أخريات الناس فاوقعوا بهم وقتلوا ونهبوا وأين أوله بينهما مرحلة ولا علم للسابق بما جرى على اللاحق ثم نزل السلطان على آيت يوسى بقرب آعليل وصار وابنو مكيلد أمامه وكروان من خلفه ولم يكن علم بما وقع فى العسكر من النهب والقتل الى ان ورد عليه منهزمة العبيد ليلا فاخبروه بما وقع وان قائد عسكره أبا عبد الله محمد بن الشاهد قد قتل فى جماعة من القواد وغيرهم ففت ذلك فى عضده وتجلد رحمه الله ليلته تلك ولما أصبح ركبت العساكر وقصدت آيت ومالو الذين كانوا مع آيت يوسى ولما وقعت الحرب انهزم عسكر السلطان وألجأهم البربر الى شعب لا منفذ له فترجلوا وتركوا الخيل ونجوا باعناقهم وحجتهم آيت يمور وآيت ادراسن حتى خلصوهم وكانت حلتهم قريبا من العسكر فلو تبعوهم لوقعوا عليها ولما حصلت هذه المزية لهؤلاء البربر الذين هم شيعة السلطان ولم تظهر للعرب مزية حقدوا ذلك عليهم وصار واكل من دنا من المحلة منهم قبضوا عليه وقتلوه وقالوا ان البربر كلهم سواء فلما وقع ذلك بشيعة السلطان امتعضوا ورفعوا أمرهم اليه فامر كاتبه وعامله محمدا السلاوى أن ينظر فى أمرهم فبعث القائد المذكور حتى اطلع على حقيقة الامر وعلم فساد نية البربر لما وقع بهم من القتل وسط المحلة ورأى ان القصاص فى ذلك الوقت متعذر وان عاقبته غير مأمونة فاشار على السلطان بالرجوع قبل أن يتسع الخرق على الراقع فرجع وكان رجوعه أكبر غنيمة وكثرة هذه الجموع بلا ترتيب سبب تلك الهزيمة والامر كله لله وهذه الوقعة تعرف عند الناس بوقعة آصرو اضافة الى الموضع الذى انتهى اليه السلطان من بلاد البربر ثم رجع عنه وقد جعلها العامة تاريخا يقولون كان ذلك عام وقعة آصرو والله تعالى أعلم

﴿مراسلة صاحب تونس حموده باشا ابن على باى السلطان المولى سليمان رحمه الله وما اتفق فى ذلك﴾

وفى هذه المدة أو ما يقرب منها بعث صاحب تونس وهو الرئيس حموده باشا ابن على باى العالم الاديب الطائر الصيت الشيخ أبا اسحق ابراهيم بن عبد القادر الرياحى الى السلطان المولى سليمان رحمه الله فقدم عليه

حضرة فاس ومعه هدية وكتاب يتضمن طلب الامداد بالميرة لحدوث المسغبة بالبلاد التونسية فاعظم السلطان رحمه الله مقدم هذا الشيخ واهتزت له فاس وامتدح السلطان بقصيدة من جيد شعره يقول في أولها

ان عزمن خير الانام مزار ＊ فلنا بزورة نجله استبشار

ومن جملتها قوله

هذا الخليفة وابن أكرم مرسل ＊ وسليل من تمطى له الاكوار
وخلاصة الاشراف والخلفاء من ＊ بيت البتول وحبذا الاطهار
وأجل وارث ملك اسمعيل من ＊ بطل شذا أخباره معطار
وأعز سلطان وأشرف مالك ＊ شرفت بملك يمينه الاحرار
وأحق من تحت السماء بان يرى ＊ ملك البسيطة والورى أنصار
لكن اذا كل القلوب تحبه ＊ فلغيره الاجسام وهي نفار
هذا سليمان الرضي ابن محمد ＊ من أشرقت بجبينه الانوار
هذا الذي ردّ الخلافة غضة ＊ وسما به للمسلمين منار
وأعز دين الله فهو بشكره ＊ في أيكها تترنم الاطيار

فاعجب السلطان ومن حضرها وأمده بطلبه من الميرة وبهدية جليلة وآب الشيخ من سفارته بخير مآب

﴿وصول كتاب صاحب الحجاز عبد الله بن سعود الوهابي الى فاس وما قاله العلماء في ذلك﴾

أصل الوهابية

وفي هذه المدة أيضا وصل كتاب عبد الله بن سعود الوهابي النابغ بجزيرة العرب المتغلب على الحرمين الشريفين المطهر لمذهبه بهما الى فاس المحروسة وأصل هذه الطائفة الوهابية كما عند صاحب التعريبات الشافية وغيره ان فقيرا من عرب نجد يقال له سليمان رأى في المنام كأن شعلة من نار خرجت من بدنه وانتشرت وصارت تأكل ما قابلها فقص رؤياه على بعض المعبرين ففسرها له بان أحد أولاده يجدد دولة قوية فتحققت الرؤيا في ابن ابنه الشيخ محمد بن عبد الوهاب بن سليمان فالمؤسس للمذهب هو محمد بن عبد الوهاب ولكن نسب الى عبد الوهاب فلما كبر محمد احترمه أهل بلاده ثم أخبر بانه قرشي ومن أهل بيت النبي صلى الله عليه وسلم وألف لهم قواعد وعقائد وهي عبادة الله واحد قديم قادر حق رحمن يثيب المطيع ويعاقب العاصي وان القرآن قديم يجب اتباعه دون الفروع المستنبطة وأن محمدا رسول الله وحبيبه ولكن لا ينبغي وصفه باوصاف المدح والتعظيم اذ لا يليق ذلك الا بالقديم وان الله تعالى حيث لم يرض بهذا الاشراك سخره ليهدي الناس الى سواء الطريق فمن امتثل فبها ونعمت وان أبى فهو جدير بالقتل فهذه أصول مذهبه وكان قد بثه أولا سرا فقلده أناس ثم سافر الى الشام لهذا الامر فلما لم يجد به مراده رجع الى بلاد العرب بعد غيبته عنها ثلاث سنين فاتصل بشيخ من أشياخ عرب نجد يقال له عبد الله بن سعود وكان شهما كريم النفس فقلده وقام بنصرة مذهبه وقاتل عليه حتى أظهره واقتسم الرياسة هو ومحمد بن عبد الوهاب فابن عبد الوهاب صاحب الاجتهاد في مسائل الدين وابن سعود أمير الوهابية وصاحب حربهم ولا زال أمر هؤلاء الوهابية يظهر شيأ فشيأ الى أن تغلبوا على الحجاز والحرمين الشريفين وسائر بلاد العرب ثم قال صاحب التعريبات الشافية أن مساجد الوهابية خالية عن المنارات والقباب وغيرها من البدع المستحسنة لا يعظمون الأئمة ولا الاولياء ويدفنون موتاهم من غير مشهد واحتفال يأكلون خبز الشعير والتمر والجراد والسمك ولا يأكلون اللحم والارز الا نادرا ولا يشربون القهوة وملابسهم ومساكنهم غير مزينة اهـ ولما استولى ابن سعود على الحرمين الشريفين بعث كتبه الى الآفاق كالعراق والشام ومصر والمغرب يدعو الناس الى اتباع مذهبه والتمسك بدعوته ولما وصل كتابه الى تونس بعث مفتيها نسخة منه الى علماء فاس فتصدى للجواب عنه الشيخ العلامة الاديب أبو

الفيض حمدون بن الحاج ﴿قال صاحب الجيش﴾ كان تصدي الشيخ أبي الفيض لذلك الجواب بأمر السلطان وعلى لسانه وذهب بجوابه ولده المولى ابراهيم بن سليمان حين سافر للحج ﴿قلت﴾ وهذا يقتضي ان كتاب ابن سعود ورد على السلطان المولى سليمان بالقصد الاول لا ان نسخة منه وردت بواسطة علماء تونس والله تعالى أعلم

﴿حج المولى أبي اسحق ابراهيم ابن السلطان المولى سليمان رحمه الله﴾

﴿وفي هذه السنة﴾ أعني سنة ست وعشرين ومائتين وألف وجه السلطان المولى سليمان رحمه الله ولده الاستاذ الافضل المولى أبا اسحق ابراهيم بن سليمان الى الحجاز لاداء فريضة الحج مع الركب النبوي الذي جرت العادة بخروجه من فاس على هيئة بديعة من الاحتفال وابراز الاخبية لظاهر البلد وقرع الطبول واظهار الزينة وكانت الملوك تعتني بذلك وتختار له أصناف الناس من العلماء والاعيان والتجار والقاضي وشيخ الركب وغير ذلك مما يضاهي ركب مصر والشام وغيرهما فوجه السلطان ولده المذكور في جماعة من علماء المغرب وأعيانه مثل الفقيه العلامة القاضي أبي الفضل العباس بن كيران والفقيه الشريف البركة المولى الامين بن جعفر الحسني الرتبي والفقيه العلامة الشهير أبي عبد الله محمد العربي الساحلي وغيرهم من علماء المغرب وشيوخه فوصلوا الى الحجاز وقضوا المناسك وزاروا الروضة المشرفة على حين تعذر ذلك وعدم استيفائه على ما ينبغي لاشتداد شوكة الوهابيين بالحجاز يومئذ ومضايقتهم لحجاج الآفاق في أمور حجهم وزيارتهم الا على مقتضى مذهبهم ﴿حكى صاحب الجيش﴾ أن المولى ابراهيم ذهب الى الحج واستصحب معه جواب السلطان فكان سببا لتسهيل الامر عليهم وعلى كل من تعلق بهم من الحجاج شرقا وغربا حتى قضوا مناسكهم وزيارتهم على الأمن والأمان والبر والاحسان قال حدثنا جماعة وافرة ممن حج مع المولى ابراهيم في تلك السنة انهم ما رأوا من ذلك السلطان يعني ابن سعود ما يخالف ما عرفوه من ظاهر الشريعة وانما شاهدوا منه ومن أتباعه غاية الاستقامة والقيام بشعائر الاسلام من صلاة وطهارة وصيام ونهي عن المنكر الحرام وتنقية الحرمين الشريفين من القاذورات والآثام التي كانت تفعل بهما جهارا من غير نكير وذكروا ان حاله كحال آحاد الناس لا يتميز عن غيره بزي ولا مركوب ولا لباس وانه لما اجتمع بالشريف المولى ابراهيم أظهر له التعظيم الواجب لاهل البيت الكريم وجلس معه كجلوس أحد أصحابه وحاشيته وكان الذي تولى الكلام معه هو الفقيه القاضي أبو اسحق ابراهيم الزداغي فكان من جملة ما قال ابن سعود لهم ان الناس يزعمون اننا مخالفون للسنة المحمدية فأي شيء رأيتمونا خالفنا من السنة وأي شيء سمعتموه عنا قبل اجتماعكم بنا فقال له القاضي بلغنا انكم تقولون بالاستواء الذاتي المستلزم لجسمية المستوى فقال لهم معاذ الله انما نقول كما قال مالك الاستواء معلوم والكيف مجهول والسؤال عنه بدعة فهل في هذا من مخالفة قالوا لا وبمثل هذا نقول نحن أيضا ثم قال له القاضي وبلغنا عنكم انكم تقولون بعدم حياة النبي صلى الله عليه وسلم وحياة اخوانه من الانبياء عليهم الصلاة والسلام في قبورهم فلما سمع ذكر النبي صلى الله عليه وسلم ارتعد ورفع صوته بالصلاة عليه وقال معاذ الله انما نقول انه صلى الله عليه وسلم حي في قبره وكذا غيره من الانبياء حياة فوق حياة الشهداء ثم قال له القاضي وبلغنا انكم تمنعون من زيارته صلى الله عليه وسلم وزيارة سائر الاموات مع ثبوتها في الصحاح التي لا يمكن انكارها فقال معاذ الله أن ننكر ما ثبت في شرعنا وهل منعنا كم أنتم لما عرفنا انكم تعرفون كيفيتها وآدابها وانما نمنع منها العامة الذين يشركون العبودية بالالوهية ويطلبون من الاموات أن تقضي لهم أغراضهم التي لا تقضيها الا الربوبية وانما سبيل الزيارة الاعتبار بحال الموتى وتذكر مصير الزائر الى ما صار اليه المزور ثم يدعو له بالمغفرة ويستشفع به الى الله تعالى ويسأل الله تعالى المنفرد بالاعطاء والمنع بجاه ذلك الميت ان كان ممن يليق أن يستشفع به هذا قول امامنا أحمد بن حنبل

رضي الله عنه ولما كان العوام في غاية البعد عن ادراك هذا المعنى منعناهم سدا للذريعة فأى مخالفة للسنة في هذا القدر اهـ ثم قال صاحب الجيش هذا ما حدث به أولئك المذكورون سمعنا ذلك من بعضهم جماعة ثم سألنا الباقي افرادا فاتفق خبرهم على ذلك اهـ ﴿قلت﴾ مسئلة زيارة قبور الانبياء والاولياء مشهورة في كتب الائمة وهي من القرب المرغب فيها عند الجمهور ومنعها قوم من الحنابلة وشدد تقي الدين بن تيمية منهم فيها محتجا بقوله عليه الصلاة والسلام لا تشد الرحال الا الى ثلاثة مساجد مسجدي هذا والمسجد الحرام والمسجد الاقصى وهو عند الجمهور مؤول بان المعنى لا تشد الرحال لصلاة في مسجد الا الى ثلاثة مساجد اهـ وقد بسط القول في هذا صاحب المواهب اللدنية والقول الفصل أن التبرك بآثار الانبياء عليهم الصلاة والسلام والاولياء رضي الله عنهم وزيارة مشاهدهم من الامر المعروف عند أمة محمد صلى الله عليه وسلم المجمع عليه خلفا وسلفا لا يسع انكاره غير ان للزيارة آدابا تجب المحافظة عليها وشروطا لا بد من مراعاتها والوقوف لديها ثم القول بمنعها مطلقا سدا للذريعة في حق العامة اذهم أكثر الناس وغولا في ذلك فيه نظر أما الانبياء فلا ينبغي لعاقل أن يحرم نفسه من الوقوف على مشاهدهم والتبرك بتربهم والاحتماء بحماهم ولا أن يقول بذلك لمزيد ارتفاع درجتهم عند الله تعالى ولندور اتفاق زيارتهم لأكثر الغرباء وأما الاولياء فالقول بمنع زيارتهم سدا للذريعة مع بيان العلة واشهارها بين الناس حتى لا يلتبس عليهم المقصود قول وجيه لا تأباه قواعد الشريعة بل تقتضيه والله أعلم وهذا القول هو الذي رآه الشيخ الفقيه الصوفي أبو العباس أحمد التجاني رحمه الله حتى نهى أصحابه عن زيارة الاولياء ﴿وأقول﴾ أن السلطان المولى سليمان رحمه الله كان يرى شيأ من ذلك ولاجله كتب رسالته المشهورة التي تكلم فيها على حال متفقرة الوقت وحذر فيها رضي الله عنه من الخروج عن السنة والتغالي في البدعة وبين فيها بعض آداب زيارة الاولياء وحذر من تغالي العوام في ذلك وأغلظ فيها مبالغة في النصح للمسلمين جزاه الله خيرا ﴿ومن كلامه فيها ما نصه﴾ تنبيه من الغلو البعيد ابتهال أهل مراكش بهذه الكلمة سبعة رجال فهل كان لسبعة رجال شيعة يطوفون عليهم الى ان قال فعلينا أن نقتدي بسبعة رجال ولا نتخذهم آلهة لئلا يئول الحال فيهم الى ما آل اليه في يغوث ويعوق ونسرا الى آخر كلامه وصدق رحمه الله فكم من ضلالة وكفر أصلها الغلو في التعظيم وما ضلت النصارى الا من غلوهم في عيسى وأمه عليهما السلام قال الله تعالى يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم ولا تقولوا على الله الا الحق الآية ومن ذلك قصة يغوث ويعوق ونسر المشار اليها وهي مذكورة في الصحيح وفي كتب التفسير ﴿وحكى ابن اسحق في السيرة﴾ ان أصل حدوث عبادة الحجر في بلاد العرب ان آل اسمعيل عليه السلام لما كثروا حول الحرم وضاقت بهم فجاج مكة تفرقوا في النواحي وأخذوا معهم أحجارا من الحرم تبركا بها فكان أحدهم يضع الحجر في بيته فيطوف ويتمسح به ويعظمه ثم توالت السنون وخلفت الخلوف فعبدوا تلك الاحجار ثم عبدوا غيرها وذهبت منهم ديانة ابراهيم واسمعيل عليهما السلام الا يسيرا جدا بقي فيهم الى أن صبحهم الاسلام هذا معنى ما ذكره ابن اسحق وقد تكلم الشاطبي وغيره من العلماء فيما يقرب من هذا وذكروا ان الغلو في التعظيم أصل من أصول الضلال ولو لم يكن في ذلك الا قضية الشيعة لكان كافيا فالحاصل ان خير الامور الوسط ومن هنا أيضا كان السلطان المولى سليمان رحمه الله قد أبطل بدعة المواسم بالمغرب وهي لعمري جديرة بالابطال فسقى الله ثراه وجعل في عليين مثواه ﴿ولما كان رمضان من سنة سبع وعشرين ومائتين وألف﴾ قدم المولى ابراهيم ابن السلطان المذكور من الحجاز ونزل بطنجة وكان قدومه في قرصان النجليز لان والده رحمه الله كان قد وجهه اليه مع بعض قراصينه الى الاسكندرية فصادفوه قد انحدر الى جزيرة مالطة فركب المولى المذكور فيما خف من حاشيته في قرصان النجليز وسبق الى طنجة فاحتمل بها ثم سار الى حضرة والده بمكناسة فأقام عنده ثلاثا ريثما استراح ثم انفصل عنه الى داره بفاس فخرج للاقاته

جيش الودايا وأشراف فاس وأعلامها وسائر عامتها بفرح وسرور وكان يوم دخوله يوما مشهودا ولما وصل القوم الذين كانوا معه نشر واحماسنه وفضائله ومكارمه المحمودة وفواضله وما فعله من البر في طريق الحج خصوصا في مفاوز الحجاز فقد أنفق فيها على الضعفاء والمساكين مالا يحصى وشاع ذكره في الحرمين الشريفين وتجاوزهما الى مصر والشام والعراقين ولما انفد ما عنده استسلف من التجار الذين كانوا معه أموالا طائلة أنفقها في سبيل الله ولما قدم أربابها على السلطان عرّفوه بما استسلفه منهم ولده وأطلعوه على حسباناتهم فعرف أن ما فعله ولده صواب فامر رحمه الله لاولئك التجار بقضاء ما أسلفوه وأن يزاد لهم مقدار ربحه تطييبا لنفوسهم وقال انما تتعاطون التجارة لتنمو أموالكم وتربحوا فلا ينبغي أن ننقصكم من ربحكم شيأ فأما نحن فربحنا هو ما أنفقه ولدنا في سبيل الله * وقد مدح هذا النجل الارضى جماعة من أدباء مصر وغيرها بقصائد نفيسة ومن جملة من مدحه الفقيه العلامة الاديب أبو اسحق ابراهيم بن عبد القادر الرياحي التونسي فانه بعث بقصيدة رائقة الى والده السلطان المرحوم يمدح النجل المذكور ويهنئه بالقدوم وألمّ فيها بذكر السلطان فاعجبته وهزت من عطفه وأمر كتاب دولته أن يأخذوا منها نسخا وشرحها بعضهم ونصها

هذي المنى فانعم بطيب وصال * فلطالما أضناك طول مطال

ماذا وكم أوليتني يا مخبري * بقدومه من منة ونوال

بشرتني بحياتي العظمى التي * قد كنت أحسبها حديث خيال

بشرتني بابن الرسول لو انما * روحي ملكت بذلتها في الحال

بشرتني بسلالة الخلفاء من * أمداحهم تثني بكل مقال

من حبهم فرض الكتاب أما ترى * الا المودة حين يتلو التالي

من ضمهم شمل العباء وأذهبوا * رجسا فيالك من مقام عالي

من قوموا أود المكارم بعد ما * شادوا الهدى بمعارف ونصال

لولاهم كان الورى في ظلمة * مدت غياهبها بكل ضلال

آباءك الاطهار فاقصد يا أبا * اسحق يا نجل المليك العالي

يا حبه وصفيه من قومه * وخياره من سائر الانجال

لو لم تكن أهلا لصفو وداده * لم يستنبك لجدك المفضال

لكن توسم فيك كل فضيلة * تحيي بيمنك راية الاقبال

وأقام جودك بل وجودك زادمن * يبغي بيت الله حط رحال

أنت استطاعتهم فما عذر الذي * ترك الزيارة خيفة الاقلال

وبك المشاعر أطربت طرب التي * وجدت على وله فقيد فصال

ووصلتها رحما هناك قطيعة * دهرا ولم تبلل به ببلال

وتأنس الحرمان منك بطلعة * أغنتهما عن وابل هطال

كرم لكم أدريه يوم أفاضه * عني سليمان باي سجال

وهب الالوف وكان أكرم منزل * يسلي الغريب ببره المتوالي

يوم التشرف لي بلثم يمينه * وتمتعي من وجهه بجمال

وتلذذي بخطابه المعسول اذ * حفت به للدرس أي رجال

لم أنسه يوما حسبت نعيمه * بلذائذ الجنات ضرب مثال

عجبا له يحيي القلوب بعلمه * ويميت جند الفقر منه بمال

وإذا تقلد للوغى صمصامه * دعنوا الرقاب له بدون قتال
تتلوه بالفتح المبين عساكر * قد أرهفت بالنصر حد نصال
تخشى الملوك مقامه ولذكره * رعبا تطير فرائص الابطال
وينال آمله بخفض جناحه * ماليس يخطر قط منه ببال
حتى سعى لصفى منهله الذى * يسعى لمروته ذو والاثقال
وأتت لمغربه الشريف مشارق * والشمس تغرب لاقتضاء كمال
لما تكدر صفوها بضلالة * جاءته كيما ترتوى بزلال
ومتى تخاف عاجز فبقلبه * يسعى لفعل شعائر الاجلال
أمنية وقعت أشرت لذكرها * فى مدحه قدما بصدق مقال
تهوى المشارق أن تكون مغاربا * لتنال من جدواه كل منال
يا نفرد بن الله منه بناصر * وسعادة الدنيا به من وال
لا تفخر فاس ولا مراكش * بولائه كل الانام موالى
أوليس فى كل البقاع ثناؤه * ورد البكور وسحة الآصال
أولم يشد للدين والعلماء وال * أشراف والصلحاء أى جلال
أولم يعم بجوده أقطارها * لا فرق بين جنوبها وشمال
أولم يسر وكبانها بمحاسن * ضاءت لها سرج بجنح ليال
أوليس أحيا سنة العمرين فى * زمن الى بدع الهوى ميال
شيم يهز الراسيات سماعها * ويجن فى أنف الزمان غوال
أوصاف والدك الامام المرتضى * للدين والدنيا بحسن خلال
ذاك الربيع أبو الربيع ومن به * حى الهدى وشرائع الافضال
كل الكمال له وأنت مقره * والفرع عين الاصل عند مآل
يا ابن المليك ابن المليك ابن المليـ * ـك ابن المليك سلالة الاقيال
أنسيتم ذكر العبابسة الالى * زالوا وما زالوا بعين جلال
لكم الفخار بذاته وسواكم * مستمسك من فخركم بظلال
ولى الفخار بأن نسجت مديحكم * حللا تجدد وكل شئ بالى
أملى معانيها على ودادكم * فجرى به طبع كالسلسال
ولوانني حاولت مدح سواكم * عقل القريحة عنه أى عقال
فكأنما طبعى شريف حيثما * لا يهتدى لسوى مديح الآل
أوقد درى أن المديح تعرض * وسواكم لا يرتضى لسؤال
أبقاكم كهفا بلاذ بجدكم * مختاركم لانالة الآمال
وأدام للاسلام والدك الذى * هو رحمة وسعت بغير جدال
وعليكم وعلى الذى يهواكم * أزكى الرضا من حضرة المتعالى
مادام ذكركم بكل صحيفة * تبعا لاحمد سيد الارسال
صلى عليه مسلما رب الورى * وعلى مقدم حزبه والتالى

وعزز هذه القصيدة بمثلها بحرا وقافية ورويا الفقيه العلامة الاديب أبو الفيض حمدون بن الحاج الفاسى يقول فى مطلعها بشراك ابراهيم بالاقبال * اقبال عزلم يكن بالبال

وهى

وهي طويلة تركناها اختصارا وفي هذه السنة توفي الشريف البركة المولى علي ابن المولى أحمد الوزاني وذلك يوم الثلاثاء آخر يوم ربيع الأول سنة ست وعشرين ومائتين وألف

﴿غزو السلطان المولى سليمان بلاد الريف والسبب في ذلك﴾

﴿ولما كانت سنة سبع وعشرين ومائتين وألف﴾ بلغ السلطان أن قبائل الريف من قلعية وغيرهم صاروا يبيعون الزرع للنصارى ويسوقونه من بلادهم فعقد لعامله على الثغور أبي عبد الله محمد السلاوي على جيش كثيف وأنفذه اليهم فسار العامل المذكور وقصد قلعية عش الفساد ولما أشار فيها سرب اليهم العساكر فنهبوا أموالهم وحرقوا مداشرهم وانتسفوا أرضهم وديارهم وتركوهم أفقر من ابن المدلق ثم بث عماله في تلك القبائل يجبوها واستوفوا زكواتها وأعشارها وعاد ظافرا (وفي هذه السنة) وذلك صباح يوم الجمعة السابع عشر من محرم منها توفي الشيخ العلامة الامام خاتمة المحققين بالمغرب سيدي محمد الطيب ابن عبد المجيد بن عبد السلام بن كيران الفاسي صاحب التآليف البديعة والحواشي المحررة مثل شرح الحكم العطائية وشرح السيرة النبوية وغير ذلك من التآليف المعروفة الموجودة بايدي الناس ﴿ثم لما دخلت سنة ثمان وعشرين ومائتين وألف﴾ بلغ السلطان ثانيا ان أهل الريف لازالوا مقيمين على بيع الزرع للنصارى وانهم أضافوا الى بيع الزرع بيع الماشية وقد كان السلطان منع النصارى من وسق ذلك بالمراسي فافتات هؤلاء القوم على السلطان وأعطوهم من ذلك ما أرادوا وطمعا في الربح وكان السلطان قد تقدم الى القائد محمد السلاوي في كفهم عن ذلك لانه كان قد ولاه عليهم وأضافهم الى من كان الى نظره من أهل الجبل والثغور فكان لا يلتفت اليهم وربما قبض أهل المروءة منهم على سفلتهم ممن يتعاطى ذلك ويبعثون بهم اليه فيسرحهم على طمع فاتسع الخرق وصار كلهم يفعل ذلك ولما تحقق السلطان بفعلهم أمر رؤساء قراصينه أن يذهبوا الى جهة الريف ومراسيها وكل من عثروا عليه بها من مراكب النصارى فليأخذوه فساروا وقبضوا على بعض النصارى فاسروهم ولم يقنعه ذلك حتى أمر بغزو الريف وعزم على النهوض اليهم بنفسه وأذن في الناس بذلك وجهز العساكر مع القائد محمد السلاوي ووجه معه ولده المولى ابراهيم بعساكر الثغور وعرب سفيان وبني مالك فساروا على طريق الجبل وخرج السلطان من فاس في السنة المذكورة ومعه السواد الاعظم فسلك الجادة الى تازا وكارت حتى نفذ الى بلاد الريف فلم يرعهم الا العساكر محيطة بهم من كل وجه فنهبوهم وحرقوا مداشرهم واستخرجوا أمراسهم ودفائنهم وولى السلطان عليهم أحمد بن عبد الصادق الريفي وتركه في بلادهم في حصة من العسكر يستخلص منهم الاموال وعاد السلطان الى دار ملكه مؤيدا منصورا

﴿خروج السلطان المولى سليمان الى بلاد الحوز وتمهيدها ثم دخوله مراكش﴾

كان السلطان المولى سليمان رحمه الله قد ولى على قبائل تامسنا القائد كبران الحريزي فيقال انه أساء السيرة فيهم فنبذوا طاعته وخرجوا عليه فقدم على السلطان مستصرخا عليهم فخرج اليهم في العساكر سنة ثلاثين ومائتين وألف وتقدم الى جيرانهم من القبائل بأن يزحفوا اليهم من خلفهم ففعلوا وهجم هو عليهم من أمامهم وأوقع بهم وقعة شنعاء أتلفت موجودهم وأباحت نساءهم وأولادهم وفر منهم طائفة فعبروا وادي أم ربيع زمان مدة فهلك جلهم ثم ترك فيهم عامله في حصة من الجند وأمره باستخلاص الاموال منهم وتقدم هو الى ناحية مراكش لقمع أهل الفساد من قبائل الحوز مثل دكالة وعبدة والشياظمة الذين خرجوا أيضا على عاملهم الحاج محمد بن عبد الصادق صاحب الصويرة فأصلح من شأنهم وعزله عنهم لما علمه من سوء سيرته فيهم ونقله من الصويرة الى مراكش ثم منها الى فاس فولى أخاه أبا العباس أحمد على عسكر القلعة بمراكش وعاد رحمه الله الى الغرب (وفي هذه السنة)

في الثالث عشر من رمضان منها توفي الشيخ العلامة الفقيه الامام أبو عبد الله محمد بن أحمد بن محمد بن يوسف الحاج الرهوني صاحب الحاشية الكبيرة على مختصر الشيخ خليل وغيرها من التآليف النافعة والخطب البارعة وباعه في العلوم خصوصا الفقه مقرر معلوم رحمه الله ونفعنا به (وفي ليلة الاثنين الخامس عشر من شوال من السنة المذكورة) توفي الشيخ العالم العارف الامام أبو العباس أحمد التجاني شيخ الطائفة التجانية وكانت وفاته بفاس المحروسة وضريحه بها شهير عليه بناء حفيل رحمه الله ونفعنا به

وفاة الشيخ التجاني

﴿غزو السلطان المولى سليمان قبائل الصحراء وايقاعه بآيت عطه والسبب في ذلك﴾

﴿ولما كانت سنة احدى وثلاثين ومائتين وألف﴾ بلغ السلطان المولى سليمان أن بعض قبائل الصحراء كعرب الصباح وبرابرة آيت عطه اشتغلوا بالفساد وعظم ضررهم واستولوا على قصور المخزن التي هنالك من عهد السلطان المولى اسمعيل فعقد لابنه المولى ابراهيم على جيش كثيف ووجهه اليهم فسار ونزل أولا على قصور العرب ونصب عليهم آلة الحرب فبددهم ثم زاد الى قصور آيت عطه فنصب عليهم الآلة كذلك وضيق عليهم الى ان طلبوا الامان فأمنهم فطلبوا أن يفرج بالجيش عنهم قليلا حتى يخرجوا بعيالهم خوفا من معرة الجيش فأشفق لهم وأفرج عنهم وكان ذلك مكيدة منهم فلما انفس عن مخنقهم أدخلوا معهم ماشاؤا من رجال وسلاح وقوت وتمادوا على الحرب فسقط في يد المولى ابراهيم وحمى أنفه وكان معه جماعة وافرة من أعيانهم رهناعنده فقتل طائفة منهم وساق نحو المائة الى فاس فقتلهم بباب المحروق ولما أنهى خبر فعلة البربر الى السلطان عاب على ابنه افراجه عنهم أولا وقتل الرهائن ثانيا ثم انهم أوفدوا جماعة منهم على السلطان راغبين اليه أن يبقيهم بالقصور فردهم بالخيبة وقال لهم لا بدلي من الوصول الى تلك القصور ان شاء الله حتى تكون لي أولكم ولما انسلخ رمضان من السنة وأقام سنة عيد الفطر شرع في تجهيز العساكر الى الصحراء وقطع ظلمة آيت عطه ثم بعث في مقدمته السواد الاعظم من جيش العبيد وعقد عليهم لوصيفه الانجب القائد أحمد بن مبارك صاحب الخاتم وبعث معه الطبجية بالمدافع والمهاريس وآلة الحصار والهدم فخرجوا من فاس في زي فاخر وشوكة تامة وبعد انفصالهم عنها طرأ على السلطان من بعض الثغور البحرية خبر بان عمارة العدو تروج بالبحر وتجتمع عند جبل طارق ولم ندر الى أين تريد فتأخر السلطان عن الخروج حتى يتبين له أمر هذه العمارة ثم ورد الخبر اليقين بانها قد قصدت ثغر الجزائر وأصاب الفرنج من هدم الابراج وتخريب الدور والمساجد وحرق الأشجار شيأ كثيرا لكن لما رجعوا مفلولين مقتولين هان الامر وصغرت المصيبة ولما جاء البشير بانهزام الفرنج عن الجزائر قوي عزم السلطان على متابعة من وجه من عسكره الى الصحراء فخرج في غرة ذي القعدة من السنة المذكورة فيمن تخلف معه من العسكر وقبائل العرب والبربر وجد السير الى ان عبر وادي ملوية فلقيه البشير هنالك بخبر الفتح والاستيلاء على القصور وقتل أهلها وسبيهم ونهب بضائعهم وأمتعتهم فجد السير الى ان خيم بأغريس ومنها كتب الى القائد أحمد أن يوافيه بالجيش لبلاد فركلة للنزول على القصور والخربات التي بها آيت عطه فاجتمعوا مع السلطان بها ونصبوا عليها المدافع والمهاريس ودام الرمي عليها ثلاثة أيام حتى كثر الهدم والقتل وعاينوا الموت الاحمر فارسلوا الى السلطان النساء والصبيان للشفاعة في الخروج برؤسهم فأمنهم ولما جن الليل خرجوا حاملين أولادهم على ظهورهم خوفا من معرة الجيش ولما أصبح السلطان أمر بنهب ما في القصور من القوت والمتاع والكراع وكمل فتح هذه الاماكن التي كانت نقمة لاهل ذلك القطر الصحراوي ولما من الله على السلطان بهذا الفتح الجليل شكر صنع الله له بان فرق على العسكر وقبائل تلك الاقطار ما وسعهم من الخيرات ﴿قال صاحب الجيش﴾ أعطى الشرفاء مائة ألف مثقال غير ما كان يعطيهم في كل سنة وقسم رحمه الله ذلك بخط يده فكتب لدار مولاي عبد الله كذا ولشريفات حوابكة كذا ولشرفاء تافيلالت كذا ولشرفاء تيزيمي وأولاد الزهراء

كذا ولشرفاء الرتب كذا ولشرفاء مدغرة كذا ولشرفاء زين والخنق والقصابى كذا وأعطى الطلبة والعميان والمقعدين والزمنى وزواياتافيلالت مائة ألف مثقال قسم ذلك بخط يده أيضا وجعل للفقيه المدرس أربعة أسهم ولغيره سهمين والسهم من كذا وللطالب الذى يحفظ القرآن برسمه حتى صفالوحه سهمان ولغيره سهم والسهم من كذا ولا فرق بين الاحرار والحراطين ولكل واحد من الضعفاء والعمى والمقعدين كذا الاحرار والحراطين سواء وللزوايا كذا فلزاوية الشيخ سيدى الغازى كذا ولزاوية سيدى أبى بكر بن عمر كذا ولزاوية سيدى أحمد الحبيب كذا ولزاوية سيدى على بن عبد الله كذا ولزاوية ضريح مولانا على الشريف كذا ولمقبرة أخنوس كذا ووجه المال مع الامين السيد المعطى من بنو الرباطى وأمر الشرفاء أن يعينوا أربعين من ثقاتهم وأمنائهم حتى لا تقع زيادة فيما كتبه بيده ولا نقصان وأمر القاضى أن يعين عشرة من الطلبة وعشرة من العوام للقيام على تفرقة ذلك ثم أعطى المدرسين زيادة على ماتقدم وكذا الائمة والمؤذنون ولم ينس أحدا كل ذلك بخط يده رحمه الله ﴿قال صاحب الجيش﴾ ولا زال هذا الزمام عندى ثم بعد قضاء وطره من الزيارة والصلة توجه الى مراكش على طريق الفائجة لتفقد أحوال جيش الحوز الذى كان وجهه من مراكش لاقليم درعة فبلغه أثناء الطريق أن آيت عطه الذين بدرعة لما سمعوا بقربه منهم خرجوا من القصور هاربين وتركوها يبابا وتحصنوا بجبل صاغروا ولما دخل السلطان مراكش سرح العساكر الى السوس لتفقد أحواله وجباية أمواله وتمهيد أطرافه وأخذ هو رحمه الله فى استصلاح قبائل الحوز من دكالة وعبدة والشياظمة فقتل وغزا وسجن وولى من ولى وطهر تلك الاعمال من ولاة السوء الذين كانوا بها وعاد الى حضرته بفاس وكان دخوله اليها سنة اثنتين وثلاثين ومائتين وألف ولما دخلها أخذ فى تجهيز ولديه المولى على والمولى عمر لاداء فريضة الحج الى ان استوفى الغرض فى ذلك وعين من يتوجه معهما من الخدم والتجار وسائر الحاشية وخرج امع الركب النبوى على الهيئة المعهودة فى حفظ الله (وفى هذه السنة) عزل السلطان وصيفه ابن عبد الصادق عن فاس وولى عليها كاتبه أبا العباس أحمد الرفاعى الرباطى المدعو القسطالى كان يعلم أولاده فنقله عن ذلك الى مرتبة الولاية وأوصاه أن يسير بالعدل فى الضعفاء والمساكين ويشتد على الفجرة والمتمردين (وفى هذه السنة) عشية يوم الاثنين سابع ربيع الثانى منها توفى الشيخ العلامة المحقق الاديب البليغ أبو الفيض حمدون بن عبد الرحمن بن حمدون بن عبد الرحمن السلمى المرداسى الشهير بابن الحاج صاحب التآليف الحسنة والفوائد المستحسنة والخطب النافعة والحكم الجامعة رحمه الله ونفعنا به ﴿وفى سنة ثلاث وثلاثين ومائتين وألف﴾ عزل السلطان الفقيه أبا العباس عن فاس لعجزه عن القيام بالخطة وولى على فاس خديمه الحاج أبا عبد الله محمد الصفار من بيت رياسة وفى هذه السنة أبطل السلطان الجهاد فى البحر ومنع رؤساءه من القرصنة به على الاجناس وفرق بعض قراصينه على الايالات المجاورة له مثل الجزائر وطرابلس ومابقى منها أنزل منها المدافع وغيرها من آلة الحرب وأعرض عن أمر البحر رأسا بعد ان كانت قراصين المغرب أكثر وأحسن من قراصين صاحب الجزائر وتونس قاله منويل (وفى هذه السنة) قدم ولدا السلطان المولى على والمولى عمر من المشرق مع الركب ونزلوا بثغر طنجة وكان السلطان قد بعث اليهما بمركب من مراكب النجليز فانتهى الى الاسكندرية وحملهما ومن معهما من الخدم والتجار وسائر الحاج ولما نزلوا بطنجة حدث الوباء بالمغرب فقال الناس ان ذلك بسببهم فانتشر أولا بتلك السواحل ومنها شاع فى الحواضر والبوادى الى ان بلغ فاسا ومكناسة فى بقية العام ﴿ولما دخلت سنة أربع وثلاثين ومائتين وألف﴾ شاع الوباء وكثر فى بلاد الغرب فتوجه السلطان الى مراكش وكان الامر لا زال محتملا ثم زاد وتفاحش حتى أصاب الناس منه أمر عظيم وفى هذا الوباء توفى الشيخ المرابط البركة سيدى العربى ابن الولى الاشهر سيدى المعطى بن الصالح الشرقاوى وضريحه شهير بابى الجعد رحمه الله ونفعنا به

وأسلافه آمين

﴿وقعة ظيان وما جرى فيها على السلطان المولى سليمان رحمه الله﴾

لما وصل السلطان رحمه الله الى مراكش سنة أربع وثلاثين ومائتين وألف أقام بها الى رجب منها
ثم أخذ في الاستعداد لغزو برابرة فازاز وهم آيت ومالو بطن من صنهاجة وعرفت الوقعة بوقعة ظيان
فحشد السلطان رحمه الله عرب الحوز كلهم وكتب الى العبيد بمكناسة يأمرهم أن يوافوه بتادلا
وكتب الى ولده وخليفته بفاس المولى ابراهيم أن يوافيه بها بجيش الودايا وشراقة وعرب الغرب وبرابرته
وعسكر الثغور وكان الناس يومئذ في شدة من هذا الوباء الذي عم الحواضر والبوادي وكان السلطان
لما أخذ في استنفار هذه القبائل لا علم له بتفاحش الوباء بالغرب وكان الواجب على ابن السلطان أن يعلم
أباه بما الناس فيه من فتنة الوباء فيعفيهم من الغزو أو يؤخره الى يوم ما فجمع ولد السلطان الجموع وحملهم
كارهين وسار لميعاد أبيه فوافاه بتادلا فاجتمع للسلطان فيما يقال من الجيوش نحو ستين ألفا وزحف الى
البربر فانتهى الى بسيط آدخسان وبها مزارع البربر وفدنهم فأرسل السلطان الجيوش في تلك الزروع
وكانت شيأ كثيرا فأتوا عليها وبعث البربر اليه بنسائهم وولدانهم للشفاعة وأن يدفعوا للسلطان كل
ما يأمرهم به من المال وينصرف عنهم فأبى وزحف اليهم فقاتلهم يوما الى الليل ولقد أخبرني من حضر
الوقعة ان المقاتلة كانت في هذا اليوم من عرب الغرب ومن برابرة زمور وجروان وآيت ادراسن الا أن
القتل استحر في العرب دون البربر وذلك ان كبير زمور الحاج محمد بن الغازي دس الى ظيان بأنا نحن
وأنتم واحد فاذا كان اللقاء فلا ترمونا ولا نرميكم الا بالبارود وحده وذلك ان السلطان لما قدمهم
للقتال في أول يوم منه وأخر عرب الحوز استراب وأبانه انما أراد أن يصدم بعضهم ببعض وتسلم له العرب
ففعل ابن الغازي ما فعل ولما راح مقاتلة العرب مع العشى أخبروا السلطان بان هؤلاء البربر الذين
معنا لا أمان فيهم وانما ظلوا يترامون بالبارود لا غير ولاجل ذلك قد هلك من اخواننا كثير ولم يهلك منهم
أحد فأسرها السلطان في نفسه ولم يبدها لهم ولما كان الغد وركب الناس للقتال أرسل الى البربر
أن لا يركب منهم أحد وقال لهم اني أردت أن أجرب العرب اليوم وأختبر فائدتهم فاظهروا الطاعة وتقدم
العرب الى القتال وأقام البربر في أخبيتهم الى منتصف النهار ثم ركبوا خيولهم وتسابقوا اليها عن آخرهم
قال المخبر بهذا الخبر شاهدتهم ساعة ركبوا فكنت لا ألتفت الى جهة الا رأيتها حمراء من كثرة سروجهم
التي كانت على ظهور الخيل اذ ذاك ثم تصايحت البربر فيما بينها وتقدمت براياتها الى الجهة التي فيها القتال
وأتوا من خلف العرب الذين كانوا في نحر العدو وهم يتصايحون فلم يردهم الا صياح البربر من خلفهم
وراياتهم قد أطلت عليهم من كل جهة وكانت شيأ كثيرا فظنوا ان ظيان قد التحفتهم من خلفهم فخشعت
نفوسهم وفشلوا ورجعوا منهزمين لا يلوي حميم على حميم فأخذتهم البربر من بين أيديهم ومن خلفهم
يقتلون ويسلبون وحصل انزعاج كبير في المحلة وتمت الهزيمة عليها ولم يبق بها الا جيش الودايا والعبيد
هكذا أخبرني من شاهد هذه الوقعة ممن يوثق به ﴿وساق صاحب الجيش الخبر عنها بان قال﴾ كان انخذال
برابرة زمور برأى كبيرهم الحاج محمد بن الغازي وكانت له وجاهة في الدولة وكان الحسن بن حمو واعزيز
كبير آيت ادراسن يساميه في المنزلة ولما خرج المولى ابراهيم ابن السلطان في هذه الغزوة كان ابن
واعزيز قد حظي لديه حتى صار من أخص ندمائه فنفس ابن الغازي عليه ذلك ودبر بان جر الهزيمة على
الجيش أجمع فانه أظهر الفرار وقت اللقاء حتى سرى الفشل في الناس وانهزموا ثم عطفت البرابر مع
العشى على محلة السلطان فشرعوا في نهبها وأحاط عسكر العبيد بها من كل جهة وصاروا يقاتلون البربر
على أطراف الاخبية ولما أقبل المساء ترك العبيد الاخبية وأرزوا الى أفراك السلطان وصار القتال
على أفراك الى وقت العشاء فهلك من العبيد خلق كثير وصار القتال بالسيوف والرماح ومازال

أصحاب السلطان يترّسون عليه بانفسهم حتى عجزوا عن الدفاع وخلص البربر الى السلطان وأراد رجل منهم يقال انه من بني مكيلد أن يجرّده فاعلمه بانه السلطان فاستحلفه البربري فحلف له فنزل عن فرسه وأركبه وطار به الى خيمته وكان البربر يلقونه وهو ذاهب به فيقولون من هذا الذي معك فيقول أخي أصابته جراحة ولما وصل به الى خيمته أعلن بانه السلطان فاقبلت نساء الحي من كل جهة يفرحن ويضربن بالدفوف ثم جعلن يتمسحن باطرافه تبركا به وينظرن اليه اعجابا به حتى أضجرنه ولما جاء رجال الحي أعظموا حلوله بين أظهرهم وأجلوه ووسعوا فيما يرضيه ويلائمه من وطاء ومطعم ومشرب بكل ماقدروا عليه فلم يقرّ له قرار معهم ويقال انه بقي عندهم ثلاثا لا يأكل ولا يشرب أسفا على ما أصابه الا انه كان يستد رمقه بشيء من الحليب والتمر وتنصل البربر له مما شجر بينهم وبينه وأظهروا له غاية الخضوع والاستكانة حتى انهم كتفوا نساءهم وقدموهن اليه مستشفعين بهن على عادتهم في ذلك وبعد ثلاث أركبوه وقدموا به في جماعة من الخيل الى قصبة آكراي فنزلوا به قريبا منها وبعث رحمه الله الى مكناسة يعلم الجيش بمكانه فجاؤه مسرعين ودخل مكناسة بعد أن أحسن الى ذلك الفتى البربري والى جميع أهل حيه غاية الاحسان وأمر رحمه الله أن يعطى لكل من أتى سليما من المنهزمة مائة وثلاثون أوقية ففرق من ذلك شيأ كثيرا بباب منصور العلج من مكناسة وأصيب المولى ابراهيم ابن السلطان في هذه الوقعة بجراحات معظمها في رأسه فحمل جريحا الى فاس فمات بها وكانت مصيبته على السلطان أعظم مما أصابه في نفسه والامر لله وحده ﴿قال صاحب الجيش﴾ كان السلطان الحازم سيدي محمد بن عبد الله لا يرد الشفاعة في مثل هذا المقام ويعادي الى من يظهر ذلك صورة حتى يكون نهوضه عن عزو ذلك من حسن سياسته وكانت هذه الوقعة الفادحة سبب سقوط هيبة السلطان المولى سليمان من قلوب الرعية فلم يمتثل له بعدها أمر في عصاتها حتى لقي الله تعالى ﴿ولما دخلت سنة خمس وثلاثين ومائتين وألف﴾ كثر عيث البربر وافسادهم السابلة واستحوذوا على مزارع مكناسة ومسارحها فنصب لهم السلطان رحمه الله حبالة الطمع وكادهم بها بان صار كلما وفد عليه جماعة منهم كساها وأحسن اليها فتسامعوا بذلك فقادهم الطمع الى ان وفد عليه منهم في مرة واحدة سبعمائة فارس من أعيانهم فقبض عليهم وجرّدهم من الخيل والسلاح وأودعهم السجن ثم أمر بالقبض على كل من وجد منهم بسوق مكناسة وصفرو فقبض بصفرو على نحو الثلاثمائة من آيت يوسي وقامت بسبب ذلك فتنة البربر على ساق فانهم امتعضوا لمن قبض عليه من اخوانهم وزحفوا الى مكناسة وحاصروها وجاؤا معهم بدجالهم أبي بكر مهاوش وتحزبوا وصاروا يدا واحدة على كل من يتكلم بالعربية بالمغرب وكان مهاوش في هذه الايام قد أمر أمره لانه لما عزم السلطان على غزوهم كان يعدهم بان الظهور يكون لهم فلما صدق عليهم ظنه اعتقدوه وافتتنوا به وزحفوا الى مكناسة فضيقوا على السلطان بها فجعل رحمه الله يعالج أمرهم بالحرب تارة والسلم أخرى الى ان طلبوا منه أن يسرح لهم اخوانهم ويرجعوا الى الطاعة والدخول في الجماعة فسرحهم له على يد المرابط أبي محمد عبد الله بن حمزة العياشي فلما ظفروا باخوانهم نقضوا العهد الذي أخذ عليهم المرابط المذكور وعادوا الى العيث وافساد السابلة ثم تبعهم على ذلك قبائل العرب واختلط الحابل بالنابل واشتد الامر وبلغ الحزام الطبيين ولله در العلامة أبي مروان عبد الملك التاجموعتي اذ يقول

هم البرابر لا ترجو نوالهم * وسل من الله تعجيل النوى لهم

لا بلغ الله قلبا منهم أملا * و بلغ الله قلبي ما نوى لهم

ثم لما سقطت هيبة السلطان وزال وقعه من القلوب سرى فساد القبائل الى الجند فان العبيد عدوا على كبيرهم القائد أحمد بن مبارك صاحب الخاتم فقتلوه افتياتا على السلطان مع انه كان من أخص دولته

لنجابته وكفايته وديانته واعتماد السلطان عليه فى سائر مهماته ولما قتلوه اعتذر والسلطان بأعذار كاذبة فقبل ظاهر عذرهم وطوى لهم على البت ﴿قال اكنسوس﴾ كان القائد أحمد وأبواه واخوته قد أعطاهم السلطان سيدى محمد بن عبد الله لابنه المولى سليمان فنشأ القائد أحمد فى كفالته وتخلق باخلاقه من زمن الصبا الى مماته وكانت حياته مقرونة بسعادة السلطان العادل المولى سليمان فانه من يوم قتل رحمه الله سنة خمس وثلاثين ومائتين وألف لم يلتئم شمل المملكة حتى توفى السلطان المذكور

﴿ذكر آل مهاوش وأوليتهم وما آل اليه أمرهم﴾

أما الذى كان منهم فى دولة السلطان سيدى محمد بن عبد الله فاسمه محمد وناصر والواو فى لغة البربر بمعنى ابن وكان والده مرابطا من آيت مهاوش فرقة من آيت سخمان منهم وكان جده أبو بكر من أتباع الشيخ أبى العباس سيدى أحمد بن ناصر الدرعى رحمه الله وكان الشيخ المذكور قد جرى فى مجلسه يوما ذكر الدجال فقال الشيخ لا يخرج الدجال حتى تخرج دجاجيل من جملتهم مهاوش ومعناه من جملتهم ولد هذا الرجل فكان الامر كذلك فانه لما شب محمد وناصر قرأ القرآن والعربية والفقه وحصل على طرف من علم الشريعة ثم تنسك وتزهد ولبس الخشن فيقال انه حصل له نوع من الكشف شاع به خبره عند البربر وأكبوا عليه واشتهر أمره أيام السلطان سيدى محمد بن عبد الله ولما انهى اليه أمره نهض الى قبيلة جروان الذين كانوا يخدمونه فنهبهم بسببه وفر مهاوش الى رؤس الجبال وبقى مختفيا الى ان بويع السلطان المولى يزيد رحمه الله وكان قد اتصل بمهاوش قبل ولايته وذلك حين فر من والده ولجأ اليه حسبما مر فآواه مهاوش وأحسن اليه ولما بويع السلطان المذكور وفد عليه مهاوش فى جماعة من قومه ففرح بهم المولى يزيد وأعطى مهاوش عشرة آلاف ريال وأعطى الذين قدموا معه مائة ألف ريال ولما هلك محمد وناصر هذا ترك عدة أولاد أكبرهم أبو بكر ومحمد والحسن الا انهم تبعوا سيرة أبيهم فى مجرد التدجيل والتمويه على جهلة البربر وتثبيطهم على طاعة السلطان ولم يكن معهم ما كان مع والدهم من التظاهر بالخير والدين فامر أمرهم عند أهل جبل فازاز واعتقدوهم ووقفوا عند اشارتهم ثم لما جاءت دولة السلطان المولى سليمان رحمه الله واتفقت له الهزيمة التى مر ذكرها وامتلأت أيدى البربر من خيل المخزن وسلاحه وأثاث الجند وفرشه بطروا وظهر لهم ان ذلك انما نالوه ببركة مهاوش لانه كان بعدهم بشئ من ذلك فتمكن ناموسه من قلوبهم واستحكمت طاعتهم له وتمردوا على السلطان بسبب ما كانوا يسمعون منه الا ان كيده كان قاصرا على أهل لسانه ووطنه لا يتعداهم الى غيرهم ثم بعد ذلك بزمان انطفأ ذباله ولم يزل فى انتقاص الى الآن والله غالب على أمره

﴿حدوث الفتنة بفاس وقيامهم على عاملهم الصفار﴾

لما توالت هذه الفتن على السلطان رحمه الله وانفتق عليه الفتوق وصار الناس كأنهم فوضى لا سلطان لهم قام عامة أهل فاس على عاملهم الحاج محمد الصفار فارادوا عزله وتعصبت له طائفة من أهل عدوته وافترقت الكلمة بفاس حتى أدى ذلك الى الحرب وسفك الدماء ونهب الدكاكين وتراموا بالرصاص من أعلا منار مسجد الرصيف وبلغ ذلك السلطان وهو يومئذ بمكناسة يعالج داء البربر فزاده ذلك وهنا على وهن فكتب الى أهل فاس كتابا شحنه بالوعظ والعتب وأمر ابنه المولى عليا أن يقرأه عليهم فجمعهم وقرأه عليهم حتى سمعوه وفهموه ونص الكتاب المذكور ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم الى أهل فاس السلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته (وبعد) فان العثمانى باصطنبول وأمره ممتثل بتلمسان والهند واليمن وما رأوه قط ولكن أمر الله يمتثلون يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الامر منكم وكان صلى الله عليه وسلم لا يجزى بالسيئة السيئة ولكن يعفو ويصفح

واعلموا أن العمال ثلاثة عامل أكل السحت وأطعمه الغوغاء والسفلة وعامل لم يأكل ولم يطعم غيره انتصف من الظالم وعامل أكل وحده ولم يطعم غيره فالاول تحبه العامة والسفلة ويبغضه الله والسلطان والصالحون والثاني يحبه الله ويكفيه ما أهمه من أمر السلطان والثالث كعمال اليوم يأكل وحده ويمنع رفده ولا ينصر المظلوم فهذا يبغضه الله ورسوله والسلطان والناس أجمعون وهذا معنى حديث ازهد فيما في أيدي الناس يحبك الناس الخ وحديث العمال ثلاثة الخ فلو كان الصفار مائدة خبز وطعام يأخذه من الاسواق ويتغدى عنده ويتعشى السفلة والفساق ويدعو اليوم ابن كيران وغدا ابن شقرون وبعده بنيس وابن جلون ويفرق عليهم من الذعائر لاحبوه وماقاموا عليه ولو أردتم النصيحة لله ولرسوله ولاميره لقدم علينا ثلاثة منكم أوذكرتم ذلك لولد نا مولاي علي أصلحه الله فاخبرنا بذلك وقل للصفار الكلاب لاتتهارش الاعلى الطعام والجيف فاذا رأت كلبا بباب داره سيده ولا شيء أمامه لم تعرج عليه وان رأته يأكل فان هو تعامى وأشركهم فيما يأكل أكلوا معه وسكتوا وان هو قطب وجهه وكشر عن أنيابه تراموا عليه وغلبوه على ما في يده وهذا الصفار لم يتق الله ويزهد الزهد الذي ينصره الله به ولم يلاق الناس بوجه طلق ويطرف مما يأكله فسلطهم الله عليه ولما رأى يوسف بن تاشفين النعمة التي فيها ابن عباد قال أكل أصحابه وأعوانه مثله فقالوا لا فقال انهم يبغضونه ويسلمونه للمكاره لاستبداده دونهم ولتغيير المنكر شروط وما يعقلها الا العالمون وكم من مرة قلنا لكم العلماء هم ينكرون ماينكر ويعلمونا بما كان ولكن الجلوس بلا شغل والفراغ وعدم الجدة حملكم على مايحرم عليكم الكلام فيه

ان الشباب والفراغ والجده * مفسدة للمرء أي مفسده

وأما بيت مال الله والاحباس فالله حسيب من بدل وقد كنتم تتكلمون على المكس والحرير والقشينية وغير ذلك فأرى حكم الله من ذلك وانظروا الى من تعرفونه من العمال وأما الفسق فهو عادة وديدن كل من قام في الفتنة وكم مرة رمت قطعه فلم أجد اليه سبيلا لانحلال كبرائكم بالمصاري والعرصات وانما أولى عليكم البراني لانكم لاتحسدونه وان أكل وحده والحاسد يريد زوال النعمة عن محسوده والتجار لان التاجر لايطمع في مال أحد ويكفيه الرفعة والجاه لنماء ماله وانظروا ما أجبتكم به وما كتبتم لنا به واعرضوه على فقهائكم فمن قال الحق منا ومن قال الباطل أخذتم بحظكم من الفتن اه وهذه الرسالة قد شرحها الفقيه أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن عبد الكريم اليازغي وكان أهل فاس قد كتبوا الى السلطان رحمه الله في شأن عاملهم الصفار المذكور واعتذروا عن خروجهم عليه بانه اشتغل بما لا يرضي الله من الفسق ومد اليد الى الحريم فأنكروا عليه فاجاب السلطان رحمه الله بالرسالة المذكورة

﴿خروج السلطان المولى سليمان من مكناسة الى فاس وما لقي من سفهاء البربر في طريقه اليها﴾

قد تقدم لنا أن البربر طلبوا من السلطان تسريح اخوانهم وانه بذلك تصلح أحوالهم ويراجعون الطاعة ولما سرحهم نكثوا العهد وازدادوا وتمردا فلما أعيا السلطان أمرهم وكل أمرهم الى الله وعزم على الخروج من مكناسة الى فاس لما حدث بها من الشغب أيضا فولى على مكناسة وجند العبيد ولده المولى الحسن وكان له علم وحزم ثم خرج السلطان رحمه الله من مكناسة ليلا على خطر عظيم وأسرى ليلته ولم يعلم البربر بخروجه حتى أصبح وقد جاوز المهدومة وشارف وادي النجاة فتبعوه على الصعب والذلول ونهبوا كل من تخلف من الجيش واستولوا على كثير من رواحل السلطان وكان مع السلطان في تلك الليلة المرابط البركة أبو محمد عبد الله بن حمزة العياشي فجعل يكف البربر عن الجيش فلم يغن شيأ لانه كان كلما كفهم من ناحية أغاروا من ناحية أخرى وخلص السلطان الى فاس وقد ازداد حنقه على البربر فلما دخلها أمر بنهب دوار البربر القاطنين بفاس فنهبوا كل من فيه وأخذت البربرية ولو قد عاف كان ذلك فتنة في الارض وفسادا كبيرا وأقام السلطان بفاس الى رجب من السنة المذكورة أعني سنة خمس وثلاثين

ومائتين وألف ثم خرج لاصلاح نواحي بلاد الهبط فوصل في خرجته هذه الى قصر كتامة فمهد تلك البلاد وأمن سبلها ورجع الى رباط الفتح فقدم عليه بها قبائل الحوز على بكرة أبيهم من حاحة والشياظمة وعبدة والرحامنة وأهل السوس والسراغنة وزمران وأهل دكالة وقبائل الشاوية وتادلا وقدم عليه أيضا قبائل بني حسن وعبيد الديوان وقبض في هذه المرة على نحو المائة من زعير وأودعهم السجن ودخل شهر رمضان ففرق عمال القبائل كلا الى عمله وأمرهم بالقدوم عليه لعيد الفطر ويستصحبوا زكواتهم وأعشارهم وكان قد عزم على المقام برباط الفتح الى أن يقيم سنة العيد به وتجتمع عليه العساكر فيتوجه بها للغزو البربر ثم بدا له رحمه الله فسافر مع قبائل الحوز الى مراكش في عاشر رمضان المذكور

﴿ذكر ما حدث من الفتن بفاس وأعمالها بعد سفر السلطان المولى سليمان الى مراكش﴾

لما عزم السلطان المولى سليمان رحمه الله على السفر الى مراكش ندب جند العبيد الى السفر معه فتثاقلوا عليه وظهر منهم قلة المبالاة به وأحس منهم بذلك فاعرض عنهم وبعد يوم أو يومين انسل من بين أظهرهم وقصد محلة أهل الحوز فدخل قبة القائد محمد بن الجيلاني ولد محمد الصغير السرغيني وكان السلطان يطمئن اليه منذ كان رفيقه في نكبته عند ظيان اذ كان ابن الجيلاني المذكور مأسورا عندهم وسرحوه للسلطان فرافقه الى مكناسة حسبما مر ولما احتل السلطان بمحلة أهل الحوز ازداد فساد نية العبيد وسافر السلطان الى مراكش وترك مضاربه وأثاثه بيدهم فتوزعوها وعادوا الى مكناسة وسمع الناس بما ارتكبه هؤلاء العبيد في حق السلطان فعاد شباب الفتنة الى عنفوانه وسرى في الحواضر والبوادي سم افعوانه نخب عبيد مكناسة بعد قدوم اخوانهم عليهم في الفتنة ووضعوا وامتنع عمال الغرب وبني حسن من دفع الزكوات والاعشار وطردوا واجبات السلطان وعمد الودايا بفاس الى حارة اليهود التي بين أظهرهم بفاس الجديد فانتهبوها واستصفوا موجودها وأخذوا ما كان تحت أيدي اليهود من كتان وحرير وفضة وذهب لتجار أهل فاس اذ كانوا يخيطون لهم ويصنعون ما تدعو الحاجة الى خياطته وصنعته فضاعت في ذلك أموال لا يحصيها قلم حاسب ثم جردوهم رجالا ونساء وسبوا نساءهم وافتضوا أبكارهم وسفكوا دماءهم وشربوا الخمور في نهار رمضان وقتلوا الاطفال ازدحاما على النهب ثم تجاوزوا هذا كله الى حفر البيوت على الدفائن فوقعوا بسبب ذلك على أموال طائلة ولما رأوا ذلك قبضوا على أعيانهم وتجارهم وصادروهم بالضرب والنكال ليدلوهم على ما دفنوه من المال ومن عنده يهودية حسناء حالوا بينه وبينها حتى يفتديها بالمال وكان هذا الحادث العظيم في الثالث عشر من رمضان سنة خمس وثلاثين ومائتين وألف ولما فرغوا من اليهود التفتوا الى أهل فاس فاستاقوا السرح وبهائم الحرث والجنات ومنعوا الداخل والخارج فقام بفاس هرج عظيم وغلقوا الابواب ومالوا على من وجدوه من الودايا داخل البلد فاوقعوا بهم ونهبوهم وحمل الناس السلاح ونقلت البضائع والسلع من الاسواق الى الدور وخوفا عليها واجتمع أهل الحل والعقد منهم فعينوا من يقوم بامرهم فقدم اللمطيون رجلا منهم يقال له الحاج أحمد الحارثي وقدم أهل العدوة رجلا منهم يقال له قدور المقرف وقدم أهل الاندلس رجلا منهم يقال له عبد الرحمن بن فارس فضبطوا البلد وبينما هم كذلك قدم عليهم جماعة من أعيان الودايا وتلافوا أمرهم معهم والتزموا رد ما نهبوه لهم من السرح وما نهب في جملة أموال اليهود مما كان يصنع عندهم فخمدت بذلك نار الفتنة بعض الشيء وقد قال أدباء الوقت في هذا الخطب الذي اتفق في هذه المدة جملة من الاشعار من ذلك قول الكاتب البارع أبي عبد الله محمد بن ادريس الفاسي

أعين العين للمحبين داء * والدوا في شفاهها والشفاء
فاذا ما رمين بسهم الصب * فالهوى قد هوى به والهواء
كيف يعدل نحو رأي عذول * من رمته ظبي اللحاظ الظباء

سعد ساعد أخا الغرام بقرب * من سعاد فقد عناه العناء
زار في ضيف طيفها فشجاني * وسرى الطيف للمحب حباء
هب شوقي اذ هب نشر كباها * وعرتني من ذكرها العرواء
فسقى عهدها العهاد وحيا * الملك العادل الحياء الحياء
ليس الا أبا الربيع ربيع * خلقه الجود والجدى والوفاء
بسليمان قد سلمنا وسدنا * فالعلى منزل له والعلاء
ملك ملك العلى والمعالى * وسما فله الفخار سماء
غرة المجد درة العقد من قد * راق من فضله السنا والسناء
نجل خير الورى وأفضل من قد * نبأت بظهوره الانبياء
من اذا ما رجاه راج لنول * قبل حل الحبى أتاه الحباء
خلق دمث وخلق بهى * من ذكى نوره تغار ذكاء
كفه كفت الفساد وكفت * كل عاد فما لها أكفاء
راحة راحة لكل فقير * بحياء تحيا به الاحياء
روضة راضت العلوم ولكن * عرفها العرف والثراء الثناء
قد روى فضله الافاضل طرا * فعلى الفضل والرواة رواء
لابى القاسم الطيانى لديهم * فضل سبق له علا وعلاء
جمع الوصف أحكم الرصف صدقا * وأتاه الانشاء كيف يشاء
صالح ناصح أمين رصين * قد ثناه الى علاك السناء
كيف لا يحسن السناء ويسمو * في امام له المعالى رداء
انما هو مجز مستقل * يقتدى بفعاله العقلاء
بسط العدل في البسيطة فالدين * له بسطة به وارتقاء
وغدا باقامة الدين فالغر * ب غريبا أنصاره الغرباء
لم يجد في البرابر الغلف برا * شأنه البر في البدا والبراء
نقضوا العهد خالفوا الامر والنهـ * ـى الا انهم هم السفهاء
خالفوا منتقى الخلائق جهلا * بعد ما هم فلا عداهم عماء
عادة في جدودهم جددوها * لهم الدهر الارتداد رداء
قد دعاهم مهاوش لضلال * فعلهم وبالهم والوباء
شق جهلا عصا الامام شقاقا * وعصى الله لا هناه الهناء
واقتفى اثرهم الغواة ضلالا * فغباهم ما ان عليه غباء
واذا خبثت أصول فروع * لاح من فعلهم عليه لواء
وكذا العرب أعربوا عن مساو * فهم في سوى الخروج سواء
نافقوا ارافقوا الخبيثين كفرا * همزوا لمزوا فليس براء
والودايا جاؤا بادوء عيب * داؤهم ماله الزمان دواء
قتلوا سلبوا أخافوا وخافوا * ما ثناهم عن القبيح ثناء
ما رعوا ذمة ولا فعل ذم * بل عراهم من الحياء عراء
وامام الانام يحلم عنهم * ويوالى وما يفيد الولاء

نهبوا حارة اليهود وهدّوا * دورهم وعرى النساء سباء
لو تراهم بين الرعايا عراة * يحتذيهم رجالهم والنساء
خفروا ذمة النبي فذموا * لعماء فلا سقاهم عماء
يا امام الهدى عليك بقوم * ملأ الغرب بغيهم والبغاء
قد طم ظلمهم وعم أذاهم * وانجلى عنهم لحق الجلاء
كم سدلت عليهم أي ستر * ووهبت فما أفاد العطاء
وحدوت الى الرشاد فحادوا * ودعوت فما أفاد الدعاء
تلت رشدا برشدهم وجهادا * فأبى منهم الرشاد اباء
واذا خذل الاله اناسا * من محياهم يزول الحياء
فعبيد الاله خير عبيد * قد كفى منهم الامام كفاء
حاربوا اضاربوا على الحق راعوا * ذمة الله لا عداهم علاء
فاتخذهم مواليا وجنودا * واصطفيهم فانهم أصفياء
قد أصاب الاعادي منهم عذاب * ودهى منهم الدهاة دهاء
واذا اصطفى الاله اناسا * لسعيد فانهم سعداء
يا اله الانام خذ بيديه * وأعنه فقد عناه العناء
فينام الانام في ظل أمن * ورداه للمارين رداء
وعليه السلام ما سار سار * وشدت فوق ورقها الورقاء

ثم حدث على تفئة ذلك فتنة أخرى بفاس بسبب نزاع جرى بين قاضيها الفقيه أبي الفضل عباس بن أحمد التاودي وبين مفتيها الفقيه أبي عبد الله محمد بن ابراهيم الدكالي في قضية الشريفين الشفشاوني والعراقي من أهل فاس وهي معلومة فانهى الامر الى السلطان فأخر الفقيه أبا عبد الله عن الفتوى فغضب للمفتي جماعة من المدرسين وطلبة العلم وتعصبوا له وتحزبوا على القاضي فكتبوا رسما يتضمن الشهادة بجوره وجهله ووضعوا خطوطهم وناطوا به قصيدة تتضمن الشكوى به وشرح حاله للسلطان ووجهوا بهما اليه ونص القصيدة

يا أيها الملك الذي عدلته * أحييت ما نشرها الصديق أو عمرا
يا أيها الملك الذي مناقبه * في غرة الدهر قد لاحت لنا قمرا
أنت الذي وضع الاشياء موضعها * وفي العلوم الذي أحيا الذي اندثرا
أنت الذي صير الدين القويم كما * أوصى به من سما الاملاك والبشرا
ولم يزل بك في عز وفي حرم * يجني ذووا العلم من رياضه ثمرا
تذب عنه بأسياف وآونة * بفكرة تحكم الاحكام والصورا
ومن يرم هدمه تأخذه صاعقة * من راحتيك فلا تبقي له أثرا
وقد شكا الدين من هضم ومن كمد * أصابه فهو يبكي الدمع منهمرا
سطت عليه يد القاضي الذي غمرت * أقضية الجور منه البدو والحضرا
أعني مراسمه جورا وأبدله * جهلا بما يذهب الالباب والفكرا
جاء الولاية وهو من شبيبته * يرى القضا حرفة يجني بها وطرا
فلم يكن همه فيه سوى قنص * أو نخوة تترك الضعيف منكسرا
أما حقوق الورى فانها عدم * مجهولة جعلت منبوذة بعرا

فاستنفذت

فاستنقذت ملة المختار جدك من * هذا الذى مادرى وردا ولا صدرا
يأتى الحكومة عباسا ومنقبضا * مما به من سقام يجلب الكدرا
فلا يرى أرسم الخصمين من ملل * لكن يحكم أوهاما بها جهرا
ويستبد برأيه وحيث بدت * فتوى تبصره ألقى بها حجرا
ولا يمكن خصما قد دعاه الى * تسجيله ما رأى فى الحكم معتبرا
ملت قلوب الورى منه وليس لهم * الا لك يا من به الاسلام قد نصرا
ضجوا العزتكم يشكون سيرته * بعبرة تترك الفؤاد منفطرا
فأدركن يا عماد الدين صارمه * وعية ترتجى من حلمكم مطرا
فانزلنه لقد طغى بعزته * ولم يخف فى غد لظى ولا سقرا
واصرفه عنهم كصرفه ضعيفهم * واعزله عزلا فان الامر قد أمرا
فانت غيثهم ان أزمة أزمت * وأنت كهفهم ان حادث ظهرا

ولما وصل الرسم والقصيدة الى السلطان رأى أن ذلك من التعصب الذى يحدث بين الاقران فرفضه لكمال اناته وعقله ولم يقبل شهادة عالم على مثله فلما رأوا أن السلطان لم يساعدهم هجموا على القاضى وهو بمجلس حكمه وأرادوا قتله وستدنحوه الشريف أبو عبد الله محمد الطاهر الكتانى كابوسا أخرجه فيه فاخطأه فانزعج القاضى ولزم بيته وقدموا مكانه الفقيه أبا عبد الله محمد بن عبد الرحمن الدلائى ثم عزلوه وولوا مكانه الفقيه أبا عبد الله محمد العربى ابن أحمد الزرهونى فكانت عاقبة أمره انه لما أفضى الامر الى السلطان المولى عبد الرحمن بن هشام رحمه الله نفاه الى الصويرة والله تعالى أعلم

﴿خروج أهل فاس على السلطان المولى سليمان وبيعتهم للمولى ابراهيم بن يزيد والسبب فى ذلك﴾

لما استقر السلطان المولى سليمان رحمه الله مقيما بمراكش والفتن بفاس وسائر بلاد الغرب قد تجاوزت مداها وعم أذاها ورفعت الشكايات اليه من فاس وغيرها بما الناس فيه من الكرب العظيم والخطب الجسيم كتب رحمه الله بخط يده كتابا الى أهل فاس يرشدهم الى ما فيه صلاحهم من حلف البربر والاعتماد عليهم فى حراسة بلادهم وسائر مرافقهم كما كانوا معهم قديما أيام الفترة فى دولة السلطان المولى عبد الله الى أن يفرغ من شأن الحوز ويقدم عليهم هكذا زعم صاحب البستان ﴿قال اكنسوس﴾ كان مراد السلطان بذلك الكتاب تهييج أهل فاس على التمسك بطاعته وترغيبهم فى محبته ونصرته وقد فعل مثل ذلك بمراكش فانه جمع أعيانها وأعيان الرحامنة عقب صلاة الجمعة وقال لهم قد رأيتم ما جرت به الاقدار من فساد قلوب الرعية وتمادى القبائل على البغى والفساد ومن يوم وجعنا من وقعة ظيان ونحن نعالج أمر الناس فلم يزدادوا الا فسادا وقد جرى على الملوك المتقدمين أكثر من هذا فلم ينقصهم ذلك عند رعيتهم بل قاموا معهم وأعانوهم على أهل الفساد حتى أصلحوهم وأنى قد عجزت بشهادة الله لانى ما وجدت معينا على الحق وكم مرة تحدثنى نفسى أن أترك هذا الامر وأتجرد لعبادة ربى حتى أموت فقال من حضر من أعيان الرحامنة وغيرهم يا مولانا بارك الله لنا فى عمرك وجعلنا فداءك ونحن أمامك ووراءك فرنا بما تشاء فقولك مطاع وأمرك ممتثل وما رأينا منك الا الخير فسر السلطان بمقالتهم ودعا لهم بخير ولما فعل مع أهل مراكش هذا الامر أراد أن يسلك مثله مع أهل فاس فوقع ما وقع ولما بعث السلطان بالكتاب المذكور الى ابنه المولى على بفاس أمره أن يقرأه على أهلها بمحضر الفقيه المفتى السيد محمد بن ابراهيم الدكالى والفقيه الشريف السيد محمد بن الطاهر الفيلالى والفقيه الكاتب السيد أبى القاسم الظيانى والامين السيد الحاج الطالب بن جلون الفاسى فجمعهم المولى على فى المسجد الذى بباب داره بزقاق الحجر وقرأ عليهم الكتاب المذكور وكان المسجد غاصا بالخاصة والعامة فازدحموا عليه ليروا الكتاب باعينهم

وأكثروا عليه فضجر وقام ودخل داره وأغلقها عليه فقال بعض الناس ان السلطان قد خلع نفسه وقال لكم قدموا من ترضونه وقال آخرون انه لم يخلع نفسه وجعل آخرون يقرعون باب المولى علي ويقولون أخرج الينا كتاب السلطان حتى نقرأه ونعلم ما فيه فقال لهم اني أحرقته فازدادوا ريبة وصدقوا بأن السلطان قد خلع نفسه واجتمع رؤساء أهل فاس منهم الحاج محمد بن عبد الرزيق والسيد محمد بن سليمان وعلال العافية وقدور بن عامر الجامعي ولم يكن من أهل فاس وانما كان قاطنا بالطالعة وهؤلاء من أهل عدوة الاندلس وكذلك غيرهم من أهل عدوة القرويين واللمطيين ثم جمعوا الطلبة الذين حضروا قراءة الكتاب وألزموهم أن يكتب كل واحد منهم ما سمع فكتب كل واحد ما ظهر له ثم حازوا خطوطهم وخلصوا منها ما هو مرادهم وهو ان السلطان عجز وعزل نفسه وأمر الناس أن ينظروا لانفسهم هذا والحروب قائمة بين أهل فاس والودايا فكتب أهل فاس الى قواد البربر يستنصرونهم على الودايا ويستقدمونهم للنظر والخوض معهم فيمن يتولى أمر الناس فقدم الحسن بن حمو واعزيز المطيري كبير آيت ادراسن في وجوه قومه وقدم الحاج محمد بن الغازي كبير زمور وبني حكم في وجوه قومه فاجتمعوا باهل فاس وتفاوضوا في أمر البيعة فوقع اختيارهم على المولى ابراهيم بن يزيد وكان ذا سمت وانقباض وصهر السلطان على ابنته وكان يسكن بدرب ابن زيان قرب المدرسة العنانية فكان لا يخرج الا من الجمعة الى الجمعة يصلي بالمدرسة ثم يعود الى داره فاختاروه لذلك من غير اختبار ولا تمحيص ثم قالوا ان السلطان لا بد له من مال ورجال فتكفل ابن واعزيز بالرجال وقال عندنا من الخيل والرجال ما لن يغلب من قلة وتكفل الحاج الطالب بن جلون بالمال وأحال على جماعة من التجار وسماهم وذكر أن السلطان لما عزم على السفر الى مراكش ودع عندهم بواسطته مالا له بال ولما تم لهم ما أرادوا غدوا على المولى ابراهيم بن يزيد فاحضروه وشرطوا عليه شروطا منها اخراج الودايا من فاس الجديد وكانوا كلما شرطوا عليه شرطا حرك لهم رأسه أي نعم ثم بايعوه صبيحة الرابع والعشرين من محرم سنة ست وثلاثين ومائتين وألف ويقال انهم لما خاطبوه أولا امتنع فقالوا والله ان لم نبايعك بايعنا رجلا من آل المولى ادريس رضي الله عنه فخاف خروج الامر من بيتهم وأجاب والله أعلم وحضر هذه البيعة الشريف سيدي الحاج العربي بن علي الوازاني والشيخ أبو عبد الله سيدي محمد العربي الدرقاوي وكان ابن الغازي الزموري من أخص أتباعه وهو رئيس البربر في ذلك الوقت وعليه وعلى ابن واعزيز كانت تدور هذه الامور وحضرها أيضا أبو بكر مهاوش كبير آيت ومالوا ولما أحكموا أمرهم كتبوا الى العبيد بمكناسة ليساعدوهم فامتنعوا الا من كان يبغض السلطان منهم وعدهم سرا ثم كتبوا الى الودايا بمثل ما كتبوا به الى العبيد فكانوا عنها أبعد فبعث أهل فاس الشيخ أبا عبد الله الدرقاوي الى الودايا ليأتي ببيعتهم وكان له فيهم أتباع فقبضوا عليه وأودعوه السجن وكتبوا بذلك الى السلطان فاسخط ولا رضي واستمر المولى ابراهيم والبربر مقيمين بفاس الى أن نفد ما عندهم من المال الذي أظهره لهم الحاج الطالب ابن جلون فاتفق رأيهم على الخروج من فاس وكان من أمرهم ما نذكره

﴿مسير المولى ابراهيم بن يزيد الى تطاوين ووفاته بها﴾

لما نفد ما كان عند المولى ابراهيم بن يزيد وشيعته من المال واستهلكوه في غير فائدة تفاوضوا فيما يصنعون فأجمع رأيهم على أن يسيروا الى المراسي بقصد فتحها والاستيلاء على مالها فخرجوا بالمولى ابراهيم مستبدين عليه ضاربين على يده وانما المتصرف والآمر والناهي هو أبو عبد الله محمد بن سليمان وأما ابن عبد الرزيق وجماعة من أصحابه الذين أسسوا هذا الامر فانهم هلكوا في حرب الودايا في عشية واحدة في وقعة ظهر المهراس وحزت رؤسهم وبعث بها الى السلطان بمراكش ولما برزوا من فاس مروا بآيت يمور ونزلوا بالولجة الطويلة وراودوا من هنالك من عرب بني حسن وأهل الغرب ودخيسة وأولاد نصير على

الانخراط فى سلكهم فأبوا عليهم وعزم القائد محمد بن يشوا على أن يبيتهم بغارة شعواء تفرق جمعهم فدس اليهم محمد بن قاسم السفيانى اللوشى وكان منحرفا عن السلطان بما عزم عليه ابن يشوا وأشار عليهم أن يعبروا النهر الى ناحيته ليحميهم ممن أرادهم فعبروا اليه وانضم اليهم فيمن معه وساروا الى قصر كتامة فنزلوا بالكدية الاسماعيلية ومنها كتبوا الى أهل الثغور العرائش وطنجة وتطاوين يدعونهم الى بيعة سلطانهم والدخول فى حزبهم فأما أهل العرائش وطنجة فاجابوا بالمنع وقيل ان أهل العرائش بايعوا ووفد عليه بعضهم ولعل ذلك كان فى ثانى حال وأما أهل تطاوين فامتثلوا وكان قاضى طنجة أبو العباس أحمد الفلوس قد عزم على بيعة المولى ابراهيم فنذر به عاملها أبو عبد الله محمد العربى السعيدى فنفاه وقدم للقضاء مكانه الفقيه الاديب أبا البقاء خالدا الطنجى ولما ورد على المولى ابراهيم وحزبه جواب أهل تطاوين بالقبول ساروا اليها فدخلوها واستولوا على مال المرسى وعلى مخازن السلطان وما فيها من سلاح وكتان وملف وغير ذلك فتوزعته البربر ثم انتهبوا ملاح اليهود وأكتسحوه فعثروا فيه على أموال طائلة يقال انهم وجدوا به عددا كثيرا من قنانى الضبلون والبندقى فكان ابن الغازى الزمورى وغيره من رؤساء ذلك الجمع لا يعطون أصحابهم الا البندقى فكثر جمعهم لذلك ولما مضت لهم من قدومهم تطاوين سبعة وأربعون يوما توفى المولى ابراهيم رحمه الله وكان قد دخلها مريضا بقادبه فى المحفة فأخفوا موته ودفنوه بداره وكان من أمرهم ما نذكره

﴿بيعة المولى السعيد بن يزيد بتطاوين ورجوعه الى فاس﴾

لما توفى المولى ابراهيم بن يزيد أخفى رؤساء دولته موته ليلتين أو ثلاثا ثم دعوا أهل تطاوين الى بيعة أخيه المولى السعيد بن يزيد فافترقت كلمتهم فنهم من أبى ومنهم من أجاب فاحضر ابن سليمان وابن الغازى وأشياعهما من أبى من أهل تطاوين وألزموهم البيعة فالتزموها وكتبوها وأحكموا اعقادها وكان المتولى يومئذ بتطاوين الحاج عبد الرحمن بن على اشعاش فأخروه وولوا مكانه أبا عبد الله محمدا العربى ابن يوسف المسلمانى وكان داهية شهما وبينما هم فى ذلك ورد عليهم الخبر بمجيء السلطان من مراكش وانه قد وصل الى قصر كتامة ففت ذلك فى عضدهم وخرجوا مبادرين الى فاس على طريق الجبل وكان من أمرهم ما نذكره

﴿مجيء السلطان المولى سليمان من مراكش الى القصر ثم مسيره الى فاس وحصاره اياها﴾

كان السلطان المولى سليمان رحمه الله فى هذه المدة مقيما بمراكش وكان العبيد قد ندموا على ما فرط منهم برباط الفتح من التخلف عن السلطان ونهب أثاثه حسبما مر فجعلوا يتسللون اليه من مكناسة مثنى وفرادى حتى اجتمع عنده جلهم لاسيما من كان منهم معروفا بعينه مثل القواد وأرباب الوظائف ولما بلغه ما كان من بيعة المولى ابراهيم بن يزيد تربص قليلا حتى اذا بلغه خروجه الى المراسى قلق وخرج من مراكش فى جيش العبيد وبعض قبائل الحوز يبادره اليها ولما وصل الى رباط الفتح عبر الى سلا ونزل برأس الماء ولما حضرت الجمعة دخل المدينة فصلى بالجامع الاعظم منها ودخل دار الحاج محمد ابن عبد الله معنينو من أعيان أهل سلا واستصحب معه الفقيه المؤقت أبا العباس أحمد بن المكى الزواوى من أهل سلا أيضا بقصد القيام بوظيفة التوقيت ولما وصل السلطان الى قصر كتامة أتاه الخبر بدخول المولى ابراهيم الى تطاوين فأقام هنالك وكتب الى الودايا والى من بقى بمكناسة يحضهم على التمسك بالطاعة وكتب الى ولده المولى الطيب بفاس الجديد يأمره أن يبعث اليه بالفقيه الاديب أبى عبد الله محمد اكنسوس وهو صاحب كتاب الجيش ﴿قال اكنسوس﴾ فقدمنا على السلطان بريصانة على مرحلتين من القصر قاصدا تطاوين ومحاصرة المولى ابراهيم بن يزيد بها قال فورد عليه كتاب

من عند القائد أبي عبد الله العربي السعيدي صاحب طنجة بوفاة المولى ابراهيم وبيعة أخيه المولى السعيد وانهم قدعادوابه الى فاس ولما تحقق بذلك رجع على طريق القصر يؤم فاسا وسابق السعيد اليها فوافياها في يوم واحد فنزل السعيد بجموعه بقنطرة سبوا ودخل السلطان دار الامارة بفاس الجديد مع الودايا ولما كان فجر الغد من تلك الليلة أغارت خيل الودايا على محلة المولى السعيد بالقنطرة فانتسفوها عافيها وقتلوا من البربر وأهل فاس وغيرهم خلقا كثيرا واحتووا على أموال طائلة مما كانت البربر قد نهبته من ملاح تطاوين وأفلت المولى السعيد وبطانته بجريعة الذقن ودخلوا فاسا فاغلقوها عليهم وثابت اليهم نفوسهم وفي هذه الايام قتل المعلم الاكبر أبو العباس أحمد عنيقيد التطاوني وكان عجبا في صناعة الرمي بالمهراس وكان المولى السعيد قد أتى به من تطاوين ليحاصر به على فاس الجديد فدس اليه السلطان من قتله ناداه رجل وهو في محلة أصحابه ليلا يافلان أجب مولانا السلطان فظن أنه دعى الى المولى السعيد فقال ها أناذا وبرز من خبائه فرماه المنادي برصاصة كان فيها حتفه ثم عزم السلطان على محاصرة فاس حتى يفيئوا الى أمر الله ولكن اكتفى من الحصار بمنعهم من الدخول والخروج وكان الودايا قد ألحوا عليه في أن يرميهم بالبنب فأبى رحمه الله وقال لو كانت البنبة التي نرميها تذهب حتى تقع بدار ابن سليمان أو بدار الطيب البياز أو غيرهما من رؤس الفتنة لفعلنا ولكن انما تقع في دار أرملة أو يتيم أو ضعيف حبسه العجز معهم ثم ان أهل فاس بدؤا بالرمي وكان معهم سعيد العلج عارفا بالرمي فجعلوا يقصدون دار السلطان فوقعت بنبة بالموضع الذي كان يجلس فيه للقراءة ووقعت أخرى بالمدرسة التي بباب داره وكان بها جماعة من طبجية سلا ورباط الفتح فقتلت منهم أربعة نفر منهم الباش أبو عبد الله محمد بن محمد بن حسين فنيش السلاوي فعند ذلك حنق السلطان وأمر أن يؤتى بالمهاريس الكبار من طنجة من فرمة ثمانين الى فرمة مائة فجيء بها ونصبها عليهم فكان القتال لا يفتر ليلا ونهارا والكور والبنب تختلف بين أهل البلدين في كل وقت واستمر الحال على ذلك قريبا من عشرة أشهر ولا يدخل أحد الى فاس ولا يخرج منها الا على خطر وفي أثناء هذه المدة نهض السلطان الى طنجة للنظر في أمر تطاوين الخارجة عليه بعد ان تقدم الى الودايا في الحصار والتضييق على فاس الى أن يعود اليهم ولما استقر بطنجة بعث الى أهل تطاوين وراودهم على الرجوع الى الطاعة فأبوا ولجوا في عصيانهم فبعث اليهم جيشا كثيفا مع القائد جان الصريدي البخاري فنزل بوادي أبي صفيحة وحاصرهم مدة فكانت الحرب بينه وبينهم سجالا مرة له ومرة عليه وهلكت نفوس من أعيان تطاوين وغيرهم

﴿مجيء المولى عبد الرحمن بن هشام من الصويرة الى الغرب واستخلافه بفاس وما تخلل ذلك﴾

كان المولى عبد الرحمن بن هشام في ابتداء أمره بتافيلالت ولما توسم فيه عمه المولى سليمان مخايل الخير والنجابة استقدمه منها وولاه على الصويرة وأعمالها فكفاه أمرها وقام بشأنها ثم لما كان المولى سليمان بطنجة في هذه المرة واستعصى عليه أمر فاس وتطاوين وانصرم فصل الشتاء وأقبل فصل الربيع كتب الى ابن أخيه المولى عبد الرحمن المذكور يأمره بالقدوم عليه في قبائل الحوز ويلقاه بهم برباط الفتح وكان غرض السلطان أن يزحف بهم الى فاس الآن السياسة اقتضت أن يكون الامر هكذا فجمع المولى عبد الرحمن قبائل الحوز وقواده وقدم بهم الى رباط الفتح ولما لم يجدوا السلطان به تثاقلوا عن العبور مع المولى عبد الرحمن الى بلاد الغرب لان السلطان انما وعدهم أن يلقوه برباط الفتح فكتب المولى عبد الرحمن الى عمه يعلمه بصورة الحال وكان السلطان رحمه الله قد استوزر في هذه المدة الفقيه أبا عبد الله اكنسوس فبعثه الى المولى عبد الرحمن وأصحبه مالا يفرقه على جيشه لينشطوا للقدوم وكان قدر المال خمسين أوقية لكل فارس وأمره اذا قدم أرض سلا أن ينزل عند عاملها أبي عبد الله محمد بن أبي عزة المعروف بابي جمعة وبعث للمولى عبد الرحمن ليعبر اليه في وجوه الجيش لقبض الصلة ولا يذكر لهم سفرا

فاذا قبضوها فليقرأ عليهم كتابه وكان مضمنه انه يأمرهم بالقدوم عليه لقصر كتامة لقبض الكسوة التي أتى بها من طنجة وحينئذ يذهب معهم السلطان الى الحوز ففعل الوزير ذلك كله وتقدم المولى عبد الرحمن في جيشه الى قصر كتامة ﴿قال الوزير المذكور﴾ فلما جئنا القصر وجدنا السلطان لا زال مقيما بطنجة فتقدمت اليه وأعلمته بوصول المولى عبد الرحمن وجيشه الى القصر فخرج السلطان من طنجة وجعل طريقه على آصيلا ولما بات بسوق الاحد بالغربية بعث اليه المولى المجذوب سيدي محمد ابن مرزوق يدعوه للقدوم عليه والمبيت عنده فاجاب دعوته ودخل عليه وتبرك به ومن هنالك كتب الى ابن أخيه المولى عبد الرحمن أن يتقدم بالجيش الى العرائش ويلقاه به هنالك ففعل المولى عبد الرحمن وهنالك اجتمع بعمه السلطان المولى سليمان فسر بقدومه ودعا له بخير وأثنى عليه بحضر أولئك الملا من الناس ثم دعا السلطان قواد الحوز فيهم القائد عبد الملك بن بيهي والقائد علي بن محمد الشيظمي والسيد محمد بن الغنيمي نائبا عن الحاج حمان العبدي وكان في ركابه ابنه فضول بن حمان صغيرا والقائد بلعباس ابن المزوار الدكالي البوزراري والحاج العربي بن رقية البوزراري والقائد محمد بن حديدة البوعزيزي والقائد المعطي الجرى والقائد الصديق ابن الفقيه العمراني ولم يكن فيهم من الرحامنة الا الحاج المعطي ابن محمد الحاج ولم يكن فيهم من السراغنة ولا من الشاوية أحد ولما اجتمعوا خرج عليهم السلطان وجلس على طنفسة ثم دعا بالقائد عبد الملك بن بيهي فأجلسه الى جنبه ودعا له بخير ثم قال انكم تعبتم في سبيل الله ونحن أتعب منكم ونسأل الله أن لا يضيع أجرنا وأجركم واعلموا انكم في طاعة الله وطاعة رسوله ولكم المزية التامة وقد وجب علينا الاحسان اليكم وقد ظهر لي انكم حين وصلتم الى هذا المحل لا ينبغي لكم أن ترجعوا بدون زيارة مولانا ادريس وكنت أردت أن أوجهكم الى بلادكم من هنا ولكن أنا لا يمكنني أن أرجع الا بعد أن يحكم الله بيني وبين هؤلاء الخارجين عن الحق وأنتم لا يجمل بكم أن ترجعوا بغير سلطان فاصبروا قليلا وتمموا أعمالكم حتى تذهبوا ان شاء الله بسلطانكم فرحين مستبشرين فقالوا كلهم سمعا وطاعة لا نفارقك حتى نرجع بك ولو مكثنا عشر سنين وعلى اثر هذا عقد السلطان لقائد خيل الجيش البخاري الحاج ابراهيم بن رزوق على مائتين من الخيل مفروضة من الحوزية والعبيد وأمره أن يسير الى تطاوين ويقيم بمرتيل ويمنع أهلها من الوصول الى المرسى ففعل وارتحل السلطان من العرائش يريد فاسا في قبائل الحوز فتربص بلاد سفيان ونزل بسوق الاربعاء منها قرب ضريح سيدي عيسى ابن الحسن المصباحي فاصابه مرض هنالك وورد عليه الخبر بان ابراهيم بن رزوق قد كاده صاحب تطاوين العربي بن يوسف حتى قبض عليه وعلى أصحابه وسلبهم وسجنهم فالم هذا الخبر السلطان وزاده الى ما به من المرض ثم أبل منه بعد أيام فنهض الى فاس وعرج على طريق تازا ولما بات بسوق الخميس بالكور من بلاد الحياينة أغارت عليه غياثة ومن شايعهم من أهل تلك النواحي وكانوا قد دخلوا في بيعة ابي يزيد فداروا بالمحلة ونضحوها بالرصاص فقام السلطان وجعل يسكن الناس بنفسه ونهاهم عن الركوب والاضطراب فحفظ الله المحلة في تلك الليلة ولم يصب أحد من الناس ولا من الدواب وأصبحت قتلى العدو مصرعة حول المحلة ثم دخل السلطان مدينة تازا فوفد عليه بها أهل الريف وعرب آنقاد والصحراء وجعلوا يزدحمون عليه ليروا وجهه ويقولون انه والله للسلطان لان أهل فاس كانوا يشيعون موته ويكتبون بذلك الى القبائل ثم تقدم السلطان الى فاس فنزل بقنطرة وادي سبو وذلك أواخر رجب سنة سبع وثلاثين ومائتين وألف وكان أهل فاس قد سئموا الحرب وعضهم الحصار وملوا دولة ابي يزيد فاختلفت كلمتهم عندما قدم السلطان وهاجت الحرب داخل البلد بين شيعة السلطان وشيعة السعيد فكثرهم شيعة السلطان وفتحوا الباب وخرجوا اليه بالاشراف والصبيان والمصاحف وتهافتوا على فسطاطه تائبين خاضعين وجاء السعيد في جوار المولى عبد الرحمن بن هشام ومعه الامين الحاج الطالب

ابن جاوين فكان جواب السلطان لهم أن قال لاتثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين وكان رحمه الله قد رأى وهو سائر الى فاس رؤيا وهى انه دخل فاسا وزار تربة المولى ادريس رضى الله عنه وقلده سيفا وصعد المنار وأذن فكان من عجيب صنع الله ان فتح عليه فاسا ودخلها وزار المولى ادريس وأذن بمناره على الهيئة التى رأى وجاء رجل من أولاد البقال فقلده سيفا تصديقا للرؤيا ولما دخل ضريح المولى ادريس وجد الشريف البركة سيدى الحاج العربى بن على الوازانى هنالك فعاتبه السلطان عتابا خفيفا وزال ما بصدره عليه وانقطعت أسباب الفتن والحمد لله ﴿واعلم﴾ أن ما صدر من أهل فاس ومن وافقهم على هذه البيعة لالوم عليهم فيه وما كان من حق السلطان رحمه الله أن يبعث اليهم بذلك الكتاب الذى أوقعهم فى حيص بيص وكان سببا لهذه الفتن وقول اكنسوس ان السلطان أراد تهييجهم على التمسك بطاعته كما فعل مع أهل مراكش ليس بشئ أوما علم السلطان رحمه الله أن كلام الكبراء خصوصا الملوك مما تتوفر الدواعى على نقله وان العامة اذا نقلته وضعته غالبا فى غير محله ﴿وفى الصحيح﴾ أن عمر رضى الله عنه بلغه وهو بمنى أن رجلا قال والله لو قدمات عمر لبايعنا فلانا يريد رجلا من غير قريش فقال عمر رضى الله عنه لأقومن العشية فاحذر هؤلاء الرهط الذين يريدون أن يغصبوهم فقال عبد الرحمن ابن عوف رضى الله عنه لاتفعل ياأمير المؤمنين فان الموسم يجمع رعاع الناس يغلبون على مجالسك فاخاف أن يسمعوا منك كلمة فلا ينزلوها على وجهها ويطير وابها عنك كل مطير فامهل حتى تقدم المدينة دار الهجرة ودار السنة فتخلص باصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من المهاجرين والانصار فيحفظوا مقالتك وينزلوها على وجهها فقال عمر والله لأقومن به فى أول مقام أقومه بالمدينة الحديث فانظر كيف منع عبد الرحمن عمر رضى الله عنه من الكلام بالموسم وبحضر العامة خوفا من وقوع الفتنة وانقاد له عمر حيث علم أن ذلك هو الصواب وكان وقافا عند الحق هذا والناس ناس والزمان زمان وفى خير القرون فكيف فى زمان قل علمه وكثر جهله وغاض خيره وفاض شره وأمر السلطان متداع مختل والفتنة قائمة على ساق كما رأيت فلهذا قلنا ما كان من حق السلطان أن يبعث بذلك الكتاب الموجه بقصد ين المحتمل احتمالين ولكن قضاء الله غالب ولما افتتح السلطان رحمه الله فاسا وصفا له أمرها عزم على النهوض الى تطاوين فاستخلف على فاس وأعمالها ابن أخيه الفارس الانجد السرى الاسعد المولى عبد الرحمن بن هشام لعدالته وكفايته وحسن سياسته وأخذ معه المولى السعيد بن يزيد وخرج فى جيش الوداياو العبيد وقبائل الحوز أوائل شعبان سنة سبع وثلاثين ومائتين وألف فجعل طريقه على بلاد سفيان ولما وصل الى الموضع المعروف بالحجر الواقف بين نهرى سبو وورغة قدم عليه هنالك القائد أبو عبد الله محمد بن العامرى اليحياوى فى قومه بنى حسن والقائد أبو عبد الله محمد المعتوجى السفيانى وقاسم بن الخضر فى قومهما سفيان وبنى مالك وقدم عليه هنالك أولاد الشيخ أبى عبد الله سيدى العربى الدرقاوى صبية صغارا يشفعون فى أبيهم ليسرحه لهم فوصلهم وكساهم وقال لهم والله ما سجنته ولا أمرت بسجنه ولكن اتركوه فسيسرحه الله الذى سجنه فكان الامر كذلك فانه بقى فى السجن حتى توفى السلطان المولى سليمان وبويع المولى عبد الرحمن بن هشام فافتتح عمله بتسريحه ولما نزل السلطان رحمه الله بشرع مسيعيدة من نهر سبو اوفد عليه أهل تطاوين تائبين ومعهم قائدهم العربى بن يوسف المسلمانى وكان الناس يظنون انه ينكل به وبمن قام معه فى الفتنة فلم يقل لهم الاخيرا حتى لقد قال له ابن يوسف يامولانا ان أهل تطاوين لم يفعلوا شيأ وانى أنا الذى فعلت يريدان يبرئهم ويفديهم بنفسه فقال له السلطان رحمه الله ما عندك ماتفعل أنت ولاهم وانما الفاعل هو الله تعالى وصفح عنهم وأحسن اليهم ولما صفا أمر تطاوين ولم يبق ببلاد الغرب منازع انقلب السلطان راجعا الى الحوز وجد السير الى مراكش فدخلها فى رمضان من السنة المذكورة

(وقعة

﴿وقعة زاوية الشرادي وماجرى فيها على السلطان المولى سليمان رحمه الله﴾

هؤلاء الشراردة أصلهم من عرب معقل من الصحراء وهم طوائف زرارة والشبانات وهم الخلص منهم ويضاف لهم بعض أولاد دليم وتكنة وذو وبلال وغيرهم وكانت منازلهم في دولة السلطان الاعظم سيدي محمد بن عبد الله غربي مراكش على بعض يوم منها فنشأ فيهم الشيخ أبو العباس الشرادي من أهل الصلاح ومن أصحاب الشيخ سيدي أحمد بن ناصر الدرعي فاعتقدوه ورعاناله بعض الاحسان من السلطان المذكور ثم نشأ ابنه السيد أبي محمد بن العباس فجرى مجرى أبيه وبنى الزاوية المنسوبة اليهم واعتقده قومه أيضا بل وغيرهم فقد ذكر صاحب نشر المثاني أن السيد محمدا هذا لما قدم من الحج سنة سبع وسبعين ومائة وألف اجتاز بمدينة فاس فاجتمع عليه ناس منها وتلمذوا له وبنوا له زاوية بدرب الدوج من عدوة الاندلس وأثنى عليه وعلى أبيه فانظره ثم جاء ابنه المهدي بن محمد فسلك ذلك المسلك أيضا ونشأ في دولة السلطان المولى سليمان رحمه الله واتخذ شيأ من كتب العلم من غير أن يكون له فيه يد تعتبر ثم تظاهر بمعرفة السيميا والحدثان فازداد ناموسه وتمكن من جهلة قومه ورعا لى شيء من أمره الى السلطان فتغافل عنه ثم لما قدم السلطان رحمه الله مراكش هذه المرة وجد أمره قد زاد واستفحل وكان الشراردة يومئذ قد حسنت حالهم فأثروا وكثروا وكان السلطان قد ولى عليهم رجلا منهم اسمه قاسم الشرادي فحدث بينه وبين المهدي ما يحدث بين المرابطين وأرباب الولاية وكان رعاالتجأجان الى زاوية المهدي فيقبض عليه القائد ويخرجه منها فاستحكمت العداوة بين القائد وبين المهدي ثم جرى شنآن بين المهدي وبين بعض قرابته ففر ذلك القريب الى مراكش وكان القائد قاسم بها فشكا اليه عمه المهدي فاغتنمها القائد ودخل على السلطان فشرح له حال المهدي وما هو عليه من التهور والسمو بنفسه الى المحل الذي لا يبلغه وانه لا يستقيم أمر المخزن بتلك القبيلة معه ولم يزل به حتى أعطاه السلطان مائتين من الخيل أغار بها على الزاوية فانتهبوها على حين غفلة من أهلها وجلهم غائب في أعماله فتسامعوا بان الخيل قد عاثت في ديارهم وجاؤا على الصعب والذلول وأوقعوا بخيل المخزن واستلبوهم من خيلهم وسلاحهم وعادوا الى مراكش راجلين فعظم ذلك على السلطان واغتاظ واتفق ان كان مع السلطان عامل مراكش أبو حفص عمر بن أبي ستة وعامل الرحامنة القائد قاسم الرحماني وكلاهما عدو للشراردة لاسيما الرحماني فشنعوا في ذلك بحضر السلطان وأسدوا وألحوا في غزو الشراردة وتأديبهم حتى لا يعودوا لمثلها وفي أثناء ذلك ندم الشراردة على ما كان منهم وبعثوا الى السلطان بالشفاعات وذبحوا عليه وعلى صلحاء مراكش فلم يقبل منهم ويقال ان ذلك لم يكن يبلغ السلطان لان النقض والابرام انما كان لعمر بن أبي ستة وقاسم الرحماني وكان السلطان رحمه الله كالمغلوب على أمره معهما فلم يزالوا به حتى بعث الى قبائل الحوز يستنفرهم لغزو الشراردة فاجتمعوا عليه وكان معه جيش الوداية وكبارهم مثل الطاهر ابن مسعود الحساني والحاج محمد بن الطاهر وغيرهما ومعه القائد محمد بن العامري في بني حسن وغيرهم من قبائل الغرب ولما أجمع السلطان الخروج اليهم قدم أمامه قاسما الرحماني اذ كان قد تكفل له بان يكفيه أمر الشراردة وحده فكان متسرعا اليهم قبل كل أحد فرابط بعين دادة ثمانية عشر يوما والوسائط تتردد بين السلطان وبين الشراردة وكادت كلمتهم تختلف اذ قام فيهم رجل مرابط اسمه الحبيب من أولاد سيدي أحمد الزاوية وبعث نحو الاربعين من الشراردة الى السلطان سعيا في الصلح فأشار الرحماني وابن أبي ستة فيما قيل على السلطان بالقبض عليهم فقبض عليهم وحيزت خيلهم وسلاحهم فشرى الداء وأعوز الدواء ثم زحف السلطان وانتشبت الحرب أول النهار ولما اشتد الحر وكان الزمان زمان مصيف تحاجزوا ثم عاد قاسم الرحماني فانشب الحرب مع العشي فكانت الدبرة عليه وقتل وحمل رأسه على رمح وانهزم جيش المخزن ووقع الفشل في المحلة فتفرقت القبائل وباتوا يرحلون لا يلوون على شيء

ولما طلع النهار لم يبق مع السلطان الا جيش المخزن فزحف الشراردة الى المحلة ورأوا السلطان قد بقي في قلة فطمعوا فيه وأنشبوا الحرب فانهزم الجيش الذين كانوا مع السلطان وتركوا المحلة بما فيها فانتزعتها الشراردة شذر مذر وانحاز السلطان في حاشيته وقصد مراكش فلقيتهم في طريقهم ساقية ماء حبستهم عن المرور وخالط الشراردة القوم الذين كانوا مع السلطان وجعلوا يستلبون من ظفروا به منهم وتراكم المنهزمة على السلطان ولجؤا اليه وقتل الشراردة عمر بن أبي ستة خلف ظهره ولما رأى السلطان رحمه الله ذلك نادى في الناس أن لا يقتل أحد نفسه علي ولا على هذه الاسلاب اعطوهم منها ما شاؤا واجتمع نحو العشرين من كبار الشراردة وتقدموا الى السلطان فقالوا اياما مولانا تحيز الينا لئلا تصيبك العامة فانحاز اليهم وكان راكبا على بغلته فالتفوا عليه وسار وابه الى زاويتهم وأنزلوه بالدار المعروفة عندهم بدار الموسم واحترموه وغدوا وراحوا في خدمته وكان معه وصيفه فرجي صبيا صغيرا وهو الذي ولي امارة فاس الجديد في دولة السلطان المولى عبد الرحمن بن هشام وكان معه أيضا عبد الخالق بن كبران الحريزي شابا كما بقل عذاره وبقي عندهم ثلاثة أيام وحضرت الجمعة فصلاها عندهم وخطبوا به ومن الغد ركبوا معه وصحبوه الى مراكش الى ان وصلوا الى عين أبي عكاز فودعوه ورجعوا ومما قال لهم عند الوداع ان الذين أرادوا أن يفتحوا باب الفتنة على الناس قد سد الله أبوابها برؤسهم يعني الرحامنة وبعد وصول السلطان الى مراكش بيوم أو نحوه عدا الرحامنة على محمد بن أبي ستة فقتلوه بسبب ان الشراردة كانوا قد أسروه ثم استحيوه واتخذوا عنده عهدا ويدا بأنه اذا أفضت اليه ولاية مراكش بعد أخيه عمر المقتول يحسن في ادارة أمرهم عند السلطان فسمع الرحامنة بذلك فقتلوه ﴿قال صاحب الجيش﴾ لما عزم السلطان على الخروج الى زاوية الشرادي بعثني قبل ذلك بثلاث الى السوس في شأن ابن أخيه المولى ناصر بن عبد الرحمن وكان عاملا عليها فكثرت الشكايات به الى السلطان فبعثني في شأنه قال فلما جئت تارودانت تربصت قليلا فلم يفجأنا الا خبر الهزيمة على السلطان بالروايات المختلفة فقائل يقول انه قد قتل وآخر يقول انه مات حتف أنفه وآخر يقول لا بأس عليه ثم ورد علينا كتابان من عند السلطان أحدهما بخط الكاتب مطبوعا والآخر بخط يده تحقيقا السلامته يقول فيه ان هذه الحركة ما وقعت الا لهلاك الظلمة والملبسين علينا المظهرين للمحبة لنا وهم في الباطن أعدى الاعادي مثل قاسم الرحماني وفلان وفلان وأما أولاد أبي ستة فقد قتل زرارة عمر على رائحة الرحامنة وقتل الرحامنة محمدا على رائحة أهل السوس والشريف سيدي محمد بن عبد الجليل الوازاني أصابته رصاصة رعاية رحمة الله عليه والحاصل هان علينا كسر الخابية بموت الفار وقد أحسنت في التربص فاترك الامر على طيته واصحب معك أشياخ السوس وعدهم منا بالاحسان ومساعدتهم على ما يطلبونه منا والسلام اهـ ولما دخل السلطان مراكش راجع القوم الذين انهزموا عنه بصائرهم وأقبلوا اليه خاضعين تائبين وعلى أبوابه في العفو راغبين فما وسعه الا الاعراض عن أفعالهم الذميمة وطاعتهم السقيمة ولا حول ولا قوة الا بالله ثم أمرهم بالتهيئ لغزو برابرة الغرب فتوجهوا الى بلادهم ليأتوا بحصصهم الى عيد المولد الكريم فانقضى أجله رحمه الله

﴿وفاة أمير المؤمنين المولى سليمان بن محمد رحمه الله﴾

كان أمير المؤمنين المولى سليمان رحمه الله في هذه المدة قد سئم الحياة ومل العيش وأراد أن يترك أمر الناس لابن أخيه المولى عبد الرحمن بن هشام ويتخلى هو لعبادة ربه الى أن يأتيه اليقين قال ذلك غير مرة وتعددت فيه رسائله ومكاتيبه فمما كتبه في ذلك هذه الوصية التي يقول فيها الحمد لله لما رأيت ما وقع من الالحاد في الدين واستيلاء الفسقة والجهلة على أمر المسلمين وقد قال عمران تابعناهم تابعناهم على ما لا نرضى والا وقع الخلاف وأولئك عدول وهؤلاء كلهم فساق وقال عمر فبايعنا أبا بكر فكان والله خير

*وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم في حق أبي بكر يأبى الله ويدفع المسلمون ورشحه بتقديمه للصلاة اذ هي عماد الدين وقال أبو بكر للمسلمين بايعوا عمر وأخذ له البيعة في حياته فلزمت وصحت بعد موته وقال عمر هؤلاء الستة أفضل المسلمين*وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم نعم العبد صهيب وقال أبو عبيدة أمين هذه الامة وقال ما أظلت الخضراء ولا أقلت الغبراء أصدق لهجة من أبي ذر وقال في أبي بكر وعمر أ كثر من هذا فصار المدح للتعريف واجبا ولا ظهار حال الرجل لينتفع به فاقول جعله الله خالصا لوجهه الكريم ما أظن في أولاد مولانا الجد عبد الله ولا في أولاد سيدي محمد والدي رحمه الله ولا أولاد أولاده أفضل من مولاي عبد الرحمن بن هشام ولا أصلح لهذا الامر منه لانه ان شاء الله حفظه الله لا يشرب الخمر ولا يزني ولا يكذب ولا يخون ولا يقدم على الدماء والاموال بلا موجب ولو ملك ملك المشرقين لانها عبادة صهيبية ويصوم الفرض والنفل ويصلي الفرض والنفل وانما أتيت به من الصويرة ليراه الناس ويعرفوه وأخرجته من تافيلالت لاظهره لهم لان الدين النصيحة فان اتبعه أهل الحق صلح أمرهم كما صلح سيدي محمد جده وأبوه حي ولا يحتاجون الى "أبدا ويغبطه أهل المغرب ويتبعونه ان شاء الله وكان من اتبعه اتبع الهدى والنور ومن اتبع غيره اتبع الفتنة والضلال وأحذر الناس أولاد يزيد كما حذر والدي وقد رأى من اتبعه أو اتبع أولاده كيف خاض الظلمة ونالته دعوة والده وخرج على الامة وأما أنا فقد خفت قواي ووهن العظم مني واشتعل الرأس شيبا حفظني الله في أولادي والمسلمين آمين نصيحة وصية سليمان بن محمد لطف الله به اهـ وفي أثناء هذه المدة وقعت غدرة ذوي بلال في انتهابهم الصاكة الواردة من مرسى الصويرة وكان انتهابهم اياها باتفاق من الشباظمة الذين جاؤا معها وقائدهم علي بن محمد الشيظمي هو الذي انتهب أ كثرها وكان فيها من الذخائر النفيسة والاموال الثقيلة شئ كثير وهذه الوقعة هي التي هدت أركان السلطان المولى سليمان رحمه الله فاعتراه مرضه الذي كان سبب وفاته ولما أثقله المرض أعاد العهد للمولى عبد الرحمن بن هشام وبعث به الى فاس اذ كان خليفة بها كما مر فدعا رحمه الله بصحيفة بيضاء ودعا بالطابع الكبير فجيء به ولم يحضره الا أهله من النساء فطبع الصحيفة بيده وكتب بعض الكتاب وأكملته بعض حظاياه ممن كانت تحسن الكتابة ثم طواه وختم عليه ودعا القائد الجيلاني الرحماني الحويوي وكان قائد المشور وقال له ادع لي فارسين يذهبان بهذا الكتاب الى فاس وقد عينت لهما سخرة كبيرة يقبضانها هنالك اذا أسرعا السير فكان ذلك الكتاب هو العهد الذي قرئ بفاس ونصه الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم أخوالنا الودايا ورماة فاس وأعيانها ورؤساءها سلام عليكم ورحمة الله وبركاته وعلى ابن عمنا الفقيه القاضي مولاي أحمد والفقيهين ابن ابراهيم والآزمي وبعد فقد وجدت من نفسي ماليس بتارك أحدا في الدنيا وهذه وصية أقدمها بين يدي أجلي والله ما بقي في قلبي مثقال ذرة على أحد من خلق الله لان ذلك أمر قد قدره الله وسبق علمه به واست فيه باوحد وما وقع لمن قبلي أشنع وأفظع واني قد عقدت بين أخوالي وأهل فاس اخوة بحول الله لا تنفصم يرثها الابناء عن الآباء وأوصى الجميع بما أوصى الله به الاولين ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم واياكم ان اتقوا الله وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا واتقوا الله وبسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين من بعدي عضوا عليها بالنواجذ ولن تزال هذه الامة بخير ما أخذوا بكتاب الله وقد عهدت لابن أخي مولاي عبد الرحمن بن هشام ورجوت الله أن يكون لي في هذا الامر مثل ما لسليمان بن عبد الملك في عهده لعمر بن عبد العزيز انا نحن نحيي الموتى ونكتب ما قدموا وآثارهم من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها الى يوم القيامة وقد انعقد الاجماع على عقد البيعة بالعهد والقاضي والفقيهان يبينون لكم هذا فان تنازعتم في شئ فردوه الى الله والرسول واني أشهد الله أني مقر بالسمع والطاعة لعبد الله عبد الرحمن بن هشام وببيعته ألقاه وقد أديت لامة

رسول الله صلى الله عليه وسلم ما علىّ من النصيحة وأرجو الله أن يثيبنى بهذه النية الصحيحة وهو المطلع على ما فى الضمائر والعالم بالسرائر والسلام وفى رابع ربيع النبوى عام ثمانية وثلاثين ومائتين وألف اه ثم تمادى بالسلطان رحمه الله مرضه الى أن توفى ثالث عشر ربيع الاول وهو الثانى من عيد المولد الكريم من السنة المذكورة ومات رحمه الله وهو ثابت الذهن صحيح الميز على غاية من اليقين والفرح بلقاء ربه ودفن بضريح جده المولى على الشريف بباب آيلان من مراكش وقد رثاه جماعة من أدباء العصر من ذلك قول الفقيه الاديب الكاتب البليغ أبى عبد الله محمد بن ادريس الفاسى

نبأ عرا أوهى عرى الايمان * وأبان حسن الصبر عن امكان
شقت لموقعه القلوب وزلزلت * أرض النفوس ورج كل مكان
فقد الامام أبى الربيع المرتضى * جزعت لعظم مصابه الثقلان
وبكت عيون الدين ما جفونها * وجدا عليه وكل ذى ايمان
لما نعى الناعون خير خليفة * وعرا الفؤاد طوارق الاحزان
مزقت ثوب تجلدى من فقده * ونثرت درّ الدمع من أجفانى
عجبا لموت غاله اذ لم يخف * فتك الملوك وسطوة السلطان
وسما لمنصبه المنيف ولم يهب * غضب الجنود وغيرة الاعوان
لو كان ينفع خاض فرسان الوغا * حرصا عليه مواقد النيران
وجوه بالنفس النفيسة انما * يحمون روح العدل والاحسان
لكن قضاء الله حتم فلا يرى * للمرء فى دفع القضاء يدان
والموت مورد كل حى كاسه * وسوى المهيمن فى الحقيقة فان
ان غاب عنا شخصه فلقد ثوى * فينا الثناء له بكل لسان
ومناقب ومفاخر ومآثر * شاعت له فى سائر الاوطان
ومعارف وعوارف ووسائل * ومسائل قد أوضحت ومعانى
وبدور أولاد وآل قد قفوا * آثاره فى العلم والعرفان
تخذوا الديانة والصيانة شرعة * وتقلدوا بصوارم الايقان
أخلاقهم ووجوههم وأكفهم * كالزهر والازهار والامزان
ان حاربوا أبدوا شجاعة جدهم * أو خاطبوا أزروا على سحبان
من كل من جعل القران سميره * وسما بوصف العلم والتبيان
كم آية ظهرت له وكرامة * دامت دلائلها مدى الازمان
قد كان أوحد دهره ولذاته * فى العدل والتمكين والاحسان
قد كان عالم عصره وفريده * فى الفهم والتحقيق والاتقان
قد كان فردا فى البلاغة ان جرت * أقلامه بهرت بسحر بيان
من للعلى من بعده من للنهى * من للتقى وتلاوة القرآن
يارمسه ماذا حويت من العلى * وطويت من علم ومن عرفان
يارمس كم واريت من كرم ومن * جود ومن فضل ومن احسان
يارمس كم حجبت عنا شمسه * وضياؤها فى سائر البلدان
ووسعت بحر علومه وسخائه * فطمى بضيق بطنك البحران
فلو استطعت جعلت قلبى قبره * جبا وأحشائى من الاكفان

ولوان عمرى فى يدى لوهبتـه * وفديتـه بالاهـل والاخوان
لكن يخفف بعض أثقال الاسى * علمى به فى جنـة الرضـوان
فسـقى ثراه من المواهب ديمـة * وهمت عليه سحائب الغفران
ورد الرسول بموت خير خليفة * وولاية العهـد الرفيع الشان
فجزعت من حزن لما قد نابنى * وطربت من فـرح بما أولانى
ما مات من ترك الخليفة بعـده * مثـل المؤيد عابد الرحمان
ملك تسربل بالتقى حتى ارتقى * من نهجـه الاتقى على كيوان
ياواحدا فى الفضل غير مشارك * أقسـمت مالك فى البرية ثان
لله بيعتـك التى قد أشـبهت * فيما تواتر بيعـة الرضـوان
قد أحكمتها يد الشريعة والتقى * بعرى النصوص وواضح البرهان
سـعد الذى أضحى بها متمسكا * وهوى العنيـد بهوة الخسران
وجرى على التيسير أمرك فاستوى * ملك الورى لك فى أقـل زمان
وأتت لنصرتك المغارب كلهـا * فبعيدها لك فى الحقيقـة دانى
عقدوا على النصح القلوب وانما * عقـدوا بنصرك راية الايمان
لوشئت من أهل المشارق طاعة * لاتوك من يمن ومن بغـدان
هابتك أصناف الطغاة بزعمهم * لما وثقت بنصرة الرحمان
وبسطت عدلك فى الورى فكأنما * قد عاش فى أيامـك العمران
ياأهل بيت المصطفى أوصافكم * جلت عن الاحصـاء والحسبان
طاب المديح مع الرثاء بذكركم * فنظمته كقلائد العقيان

﴿بقية أخبار السلطان المولى سليمان رحمه الله وما ثره وسيرته﴾

لما بويع أمير المؤمنين المولى سليمان رحمه الله ردّ الفروع الى أصولها وأجرى الخلافة على قوانينها باقامته العدل والرفق بالرعية والضعفاء والمساكين ومن وفور عقله وعدله اسقاط المكوس التى كانت موظفة على حواضر المغرب فى الابواب والاسواق وعلى السلع والغلل وعلى الجلد وعشبة الدخان فقد كان يقبض فى ذلك أيام والده رحمه الله خمسمائة ألف مثقال معلومة مثبتة فى الدفاتر مبيعة فى ذمم عمال البلدان وقواد القبائل كل مدينة وما عليها ومن ذلك المكس كان صائر العسكر فى الكسوة والسروج والسلاح والعدة والاقامة والخياطة والتنافيذ لوفود القبائل والعفاة والمؤنة للعسكر ولدور السلطان وسائر تعلقاته فكان ذلك المكس كافيا الصوائر الدولة كلها ولا يدخل بيت المال الا مال المراسى وأعشار القبائل وزكواتهم وكان مستفاد هذا المكس يعادل مال المراسى وأعشار القبائل فزهد فيه هذا السلطان العادل فعوضه الله أكثر منه من الحلال المحض الذى هو الزكوات والاعشار من القبائل وزكوات أموال التجار والعشر المأخوذ من تجار النصارى وأهل الذمة بالمراسى وأما المسلمون فقد منعهم من التجارة بارض العدو لئلا يؤدى ذلك الى تعشير ما بايديهم أو المشاجرة مع الاجناس هكذا بلغنا والله أعلم وكانت القبائل فى دولته قد تمولت وغت مواشيها وكثرت الخيرات لديها من عدله وحسن سيرته فصارت القبيلة التى كانت تعطى عشرة آلاف مثقال مضاربة أيام والده يستخرج منها على النصاب الشرعى عشرون وثلاثون ألف مثقال وذلك من توفيق الله له وتمسكه بالعدل والحلم والجود والحياء وجميل الصبر وحسن السياسة والتأنى فى الامور واجتنابه لما هو بضد ذلك * فأما الحلم فهو دأبه وطبعه وقد اتفق أهل عصره على انه كان أحلم الناس فى زمانه وأملك لنفسه عند الغضب من أن يقع فى الخطا ومذهبه

دره الحدود بالشبهات والتماس التأويل وقبول العذر حتى لقد حكي عنه انه ما اعتمد البطش باحد وتصدى لنكبته لغرض نفساني أو لحظ دنيوي وحسبك من حلمه ما قابل به الخارجين عليه * قال صاحب الجيش * لما عزمت على الخروج من فاس أيام الفتنة لملاقاة السلطان المولى سليمان بقصر كتامة جئت الى القاضي أبي الفضل عباس بن أحمد التاودي لاودعه فكان من جملة ما أوصاني به قال قل لمولانا السلطان يقول لك عباس انا نخاف اذا ظفرت بهؤلاء الظلمة أن تصفح عنهم فلما اجتمعت بالسلطان أبلغته مقالة القاضي فقال كيف أصفح عنهم وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم لابي عزيز لأتركنك تمسح سبلتك بمكة وتقول خدعت محمدا مرتين فلما فتح الله عليه فما كان جوابه أن قال لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين بل تعجل بالخروج منها مخافة أن يغريه بعض بطانته باحد منهم فلعمري لقد صدق من قال ان التخلق يأتي دونه الخلق * وأما الدين والتقوى فذلك شعاره الذي يمتاز به ومذهبه الذي يدين الله به من أداء الفريضة لوقتها المختار حضرا وسفرا وقيام رمضان واحياء لياليه بالاشفاع ينتقي لذلك الاساتيذ ومشايخ القراء ويجمع أعيان العلماء لسرد الحديث الشريف وتفهمه والمذاكرة فيه على مر الليالي والايام ويتأكد ذلك عنده في رمضان ويشاركهم بغزارة علمه وحسن ملكته ويتناول راية السبق في فهم المسائل التي يعجز عنها غيره فيصيب المفصل ويواظب على صيام الايام المستحبة من كل شهر ويعظم العلماء الذين هم ورثة الانبياء ويرفع مناصبهم على سائر رجال دولته ويجري عليهم الارزاق ويعطيهم الدور المعتبرة والضياع المغلة ويحسن مع ذلك الى من دونهم في المرتبة من المدرسين وطلبة العلم ويؤثر المعتنين منهم وذوي الفهم بمزيد البر وتضعيف الجراية حتى لقد تنافس الناس في أيامه في اقتناء العلوم وانتحال صناعتها لاعتزاز العلم وأهله في دولته وسعة أرزاقهم * وأما صبره عند الشدائد واحتمال العظائم وتجلده عند حلول الخطب ونزول المقدور فحدث عن البحر ولا حرج وعن الجبل سكونا ورسوخ قدم * قال صاحب البستان * ولو حدثتنا بما شهدناه منه لكان عجبا * وأما العدل فانه ما رئي في ملوك عصره أعدل منه ومن عجيب سيرته انه كان يلزم العمال رد ما يقبضونه من الرعايا على وجه الظلم من غير اقامة بينة عليهم على ما جرى به عمل الفقهاء من قلب الحكم في الدعوى على الظلمة وأهل الجور حسبما ذكره الونشريسي وغيره ومن عدله واقتصاده ما حكاه لنا الفقيه أبو العباس أحمد بن المكي الزواوي المؤقت بالمسجد الاعظم من سلا قال مر السلطان المولى سليمان بسلا سنة ست وثلاثين ومائتين وألف فنزل برأس الماء واستدعاني للقيام بوظيفة التوقيت عنده قال فدخلت عليه فاذا هو رجل طويل أبيض جميل الصورة فقاوضني في مسائل من التوقيت وكان يحسنه فاجبته عنها فاعجبه ذلك ثم وصلني بضبلونين وأخرج مجانته من جيبه ليحققها فرأيت مجدولها من صوف ثم حضرت صلاة العصر فتقدم وصلى بنا فرأيت سراويله مرقعة وكان امام صلاته الراتب هو الفقيه السيد الحاج العربي الساحلي لكنه صلى بنا تلك الصلاة ولما فرغنا من الصلاة وانقلبنا الى منازلنا جيء بالطعام وهو قصيعة من الكسكس عليها شيء من اللحم والخضرة وليس معها غيرها قال وكانت عادة المولى سليمان في السفر أن لا يتخذ كشينة أي مطبخا انما هو طعام يسير يصنع له ولبعض الخواص مما يكفي من غير اسراف حتى ان الكتاب كانوا يقبضون ست موزونات ويعولون أنفسهم وكانت أقواتهم وأزوادهم خفيفة اهـ * وأما سياسته الخاصة في جبر القلوب واستئلاف الشارد وتسكين المرتاب وارضاء الولي ومداجاة العدو والدفاع بالتي هي أحسن عند اشتباه الامور ومعاناة الرجال بوجوه المكائد والحيل في الامور التي لا ينفع فيها حرب ولا قوة فشيء لا يبلغ فيه شأوه ولا يشق غباره * وأما عادته في الحرب فقد أخذ فيها بسيرة العجم بحيث لا يباشر الحروب بنفسه ويعمل بعمل أهل الصدر الاول فيقف في قلب الجيش كالجبل الراسي وأمراؤه يباشرون الحروب بانفسهم في الميمنة والميسرة وهو يمدهم كلما رأى فرجة سدها أو خللا

أصلحه وهو كالصقر مطل على حومة الوغا فاذا أمكنته فرصة انتهزها ومن شدة ثباته وعدم تزوجه أنه كان لا يركب وقت الحرب الا البغلة وبذلك جرى عليه في وقعة ظيان والشراردة ماجرى فكان حماته يفرون عنه بلا حياء ويبقى هو ثابتا رحمه الله * وأما جمعه لأشتات العلوم فلقد كان وارثا من ورثة الانبياء حاملا للواء الشريعة جامعا مانعا اذا بوحث في الاخبار كان كجامع سفيان أو في الاشعار فكنابغة ذبيان أو في الفطنة والفراسة فكاياس أو في النجدة والرأى فكالمهلب واذا خاض في السنة والكتاب أبدى ملكة مالك وابن شهاب ولو تصدى في الفقه للفتيا والتدريس لم يشك سامعه أنه ابن القاسم أو ابن ادريس واذا تكلم في علوم القرآن انهل بما يغمر مورد الظمآن * قال صاحب البستان * ولا يعرف مقدار هذا السلطان الا من تغرب عن الاوطان وحمل عصا التسيار ورمت به في الاقطار الاسفار وشاهد سيرة الملوك في العباد وما عمت به البلوى في سائر البلاد ولا يتحقق أهل المغرب بعدله الا بعد مغيبه وفقده

المرء مادام حيا يستهان به * ويعظم الرزء فيه حين يفتقد

ومن آثاره الباقية وبناآته العادية فبفاس المسجد الاعظم بالرصيف الذى لا نظير له كان حفر أساسه المولى يزيد واشتغل عنه وتركه فافتتح هو عمله ببنائه وتشييده وأبقاه دينا على الملوك وبنى مسجد الديوان كان صغيرا فهدمه وزاد فيه أملاكا وجعله مسجدا جامعا تقام فيه الجمعة وبنى مسجد الشرابليين زاد فيه ووسعه وجعله مسجدا جامعا كذلك وبنى مسجد الشيخ أبي الحسن بن غالب وضريحه وبنى ضريح الشيخ أبي محمد عبد الوهاب التازى وهدم مدرسة الوادى ومسجدها لتلاشيهما وجددهما على شكل آخر وجدد المدرسة العنانية وأصلح مسجد القصبة البالية وبيضه بالجص وزلجه وبنى باب الفتوح على هيئة ضخمة وباب بنى مسافر والباب الجديد على براح أبي الجلود وبنى القنطرة على الوادى بينهما وجدد قنطرة الرصيف مرتين وأصلح قنطرة وادى سبوا وأصلح طرقات فاس الجديد كلها من داخل وخارج ورصفها بالحجارة وأصلح أبواب فاس الجديد كلها ورمم ماتثلم منها وجدد قصور الملك الخربة بها وزاد غيرها وأمر بتبييض مساجد الخطب وتبليط أرضها وبنى مسجد صفرو وجدد أسواره وبنى لاهله حماما به وبنى مسجد المنزل ببنى يازغة وبنى مسجد وجدة وحمامها وأصلح قلعتها ودار امارتها وبنى مسجد وازان ومسجد تطاوين وأخرج أهل الذمة من جواره وبنى لهم حارة بطريق المدينة وبنى الصقائل والابراج بطنجة وجدد مسجد آصيلا وأسوارها وجدد قصور الملك بمكناسة بعد تلاشيها وأصلح القناطر التى بين فاس ومكناسة وبنى قنطرة على وادى سيدى حازم بخولان وبنى مسجد الجزائر بن بسلا ووقف عليه أوقافا تقوم بمصلحته وأخرج يهودها من وسط البلد من حومة باب حسين وبنى لهم حارة على حدتها غربي البلد وبنى المسجد الاعظم بحومة السويقة من رباط الفتح وبنى دار البحر لنزوله وبنى قنطرة وادى حصار بتامسنا وبنى مسجد أبي الجعد بتادلا وبنى قنطرة وادى أم الربيع وقنطرة تانسيفت بمراكش بعد سقوطها وبنى المسجد الاعظم الذى كان أسسه على بن يوسف اللمتونى بمراكش وبناه بناء ضخما وأزال منارته التى كانت به قديما وشيد منارة أخرى بديعة الحسن رائقة الصنعة وأكمل مسجد الرحبة الذى كان أسسه والده رحمه الله ومات قبل تمامه وجدد قصور والده بمراكش وأصلحها وصان القصبة وعمرها ثم ختم رحمه الله ديوانه بالحسنة العظيمة والمنقبة الفخيمة وهى عهده بالخلافة لابن أخيه المولى عبد الرحمن بن هشام على كثرة أولاده ووجود بعض اخوته ولعمرى ان هذا العهد لمنقبة جليلة للعاهد والمعهود اليه أما العاهد فانا لم نسمع بعد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه باحد من خلفاء الاسلام وملوكه عدل بولاية العهد عن ولده المستحق لها الى غيره حتى كان هذا الامام الجليل الذى أحيا سيرة العمرين نعم قد عهد سليمان بن عبد الملك لابن عمه عمر بن عبد العزيز رحمهما الله لكن حكى ابن الاثير أن سليمان لما حضرته الوفاة عزم أن يعهد لابن له صغير

فوعظه رجاء بن حيوة فرجع عن ذلك وشاوره فى ابنه داود وكان غازيا بالقسطنطينية فقال له رجاء لا تدرى أحى هو أم ميت فحينئذ رجع الى عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه وأما المعهود اليه فان فى العهد اليه دون الابناء والاخوة شاهدا عدلا على كمال فضله واحرازه لخلال الخير وتبريزه فيها على من عداه من بنى أبيه وعشيرته ولعمرى ان ذلك لكذلك فان المولى عبد الرحمن بن هشام رحمه الله قد اشتهرت ديانته وأمانته عند القاصى والدان حتى صار لا يختلف فى عدالته اثنان

﴿الخبر عن دولة أمير المؤمنين المولى عبد الرحمن بن هشام وأوليته ونشأته﴾

كان المولى عبد الرحمن بن هشام رحمه الله منذ نشأ وهو متمسك بالتقوى والعفاف متصف بالصيانة وجميل الاوصاف من الانقباض عن الخلق وملازمة العبادة والصوم وقيام الليل وترك ما لا يعنى والجد فى الامور كلها حتى عرفت له هذه الشنشنة وتطابقت على حبه ومدحه القلوب والالسنة ولما نشأ هذه النشأة الطيبة أقبل عليه عمه السلطان المولى سليمان رحمه الله وضمه اليه واعتنى بشأنه ورفع منزلته حتى على أولاده ولما بعث أولاده الى الحرمين الشريفين بقصد أداء فريضة الحج بعثه فى جملتهم فظهر له فى تلك السفرة من الورع والدين والتمسك باسباب اليقين ما رفع قدره وأشاع بالصلاح ذكره وكان السلطان رحمه الله قد أعطاه بضاعة ينفقها فى سفرته تلك ويستعين بها على حجه فلما آب من سفره أتى بالبضاعة الى عمه وقال له ياسيدى هذه البضاعة التى أعطيتنى انما أخذتها لانفق منها اذا نفد ما عندى وكانت معى بضاعة جمتها بقصد انفاقها فى هذه الوجهة ولم أرد أن أخلطها بغيرها وقد حصلت الكفاية بها والحمد لله فعجب عمه من شأنه وازداد محبة وغبطة فيه ورد له البضاعة وطيبها له ودعا له بخير وكان فى أول أمره مقيما بتافيلالت ثم استقدمه السلطان المولى سليمان فى آخر عمره وولاه بثغر الصويرة وأعمالها فقام بذلك أحسن قيام ثم استقدمه منها فى فتنة ابنى يزيد كما مر واستخلفه على حاضرة المغرب وأم أمصاره مدينة فاس فقرت بولايته العيون وطابت الانفاس كل ذلك فعله به ترشيحا للامر وتقديما له فيه على زيد وعمرو

﴿بيعة أمير المؤمنين المولى عبد الرحمن بن هشام رحمه الله﴾

قد تقدم لنا أن السلطان المولى سليمان لما حضرته الوفاة جدد العهد لابن أخيه المولى عبد الرحمن بن هشام وبعث به الى فاس ثم كانت وفاة السلطان عقب ذلك فوصل خبر وفاته الى فاس فى السادس والعشرين من ربيع الاول سنة ثمان وثلاثين ومائتين وألف فحضر القاضى الشريف المولى أحمد بن عبد الملك والعلامة المفتى أبو عبد الله محمد بن ابراهيم والتاجر الامين الحاج الطالب بن جلون وسائر أعيان فاس من العلماء والاشراف وغيرهم وحضر أعيان الودايا وقوادهم ولما قرئ العهد ترحموا على السلطان المولى سليمان وبايعوا السلطان المولى عبد الرحمن وسلموا عليه بالخلافة وتم أمره وسر الناس بذلك خاصة وعامة ثم ترادفت على حضرته بيعة أهل الديوان وسائر الجنود وحل من الملك العزيز فى فلك السعود وكتبت البشائر بذلك الى البلدان فوفدت بيعات أهل الامصار وهداياهم ولم يتوقف عن هذه البيعة الشرعية أحد منهم واستبشر أهل المغرب بولايته وبان لهم مصداق يمنه وسعادته بتوالى الامطار ورخص الاسعار والعافية آناء الليل وأطراف النهار ولما تمت هذه البيعة المباركة وحصل ما ذكرنا من الأمن والعافية وحسن الحال والرفاهية استوزر السلطان رحمه الله الفقيه العلامة الاديب أبا عبد الله محمد بن ادريس الفاسى فقال

مولاى بشراك بالتأييد بشراكا * قد أكمل الله بالتوفيق مسراكا
الفتح والنصر قد وافاك جيشهما * والسعد واليمن قد حيا محياكا

الله ألبسك الاقبال تكرمة * وبالتقى والنهى والعلم حلاكا
فراسة الملك المرحوم قد صدقت * لما تفرس فيك حين ولاكا
أعدت للدين والدنيا جمالهما * فأصبحا في حلى من حسن معناكا
وزادك الغيث غوثا في سحائبه * فجاد بالقطر قطرا فيه مأواكا

ثم وردت على السلطان تهنئة عالم افريقية ومفتيها وأديبها الشيخ أبي اسحق ابراهيم بن عبد القادر الرياحي بقصيدة يقول فيها

نصر من الرحمن جل لعبده * أيروم خلق نقض مبرم عقده
وعدت به الاقدار وهي نوافذ * لا تحسبن الله مخلف وعده
والله أعلم حيث يجعل نصره * في الشاكرين له سوابغ رفده
فلتبسم ثغر الهنا مستبشرا * فالوقت ينطق عن سعادة جده
ان عض مولانا سليمان الرضا * وعليه تبكي الباكيات لفقده
العلم والتقوى وكل فضيلة * منشورة طويت به في لحده
فلقد أقام لنا أبا زيد هدى * نور امبيناد يستضاء برشده
لولم يكن كفأ لما أوصى به * وبنوه ترفل في ملابس مجده
سعدت به الايام ثم أراد أن * تبقى السعادة للورى من بعده
أعظم به نصرا يدوم سروره * للخافقين سرى تضوع رنده
أهدى الى الاعداء أقتل غصة * والاوليا متنعمون بشهده
فاستبشروا بالبمين من مرضاته * واستمطروا نيل المنى من وده
ماهو الا ابن الرسول وهل فتى * في الناس يعدل عن مكارم جده
وتناسقت أسلافه كرما كما * راق النواظر لؤلؤ في عقده
لا غرو أن جمع المحاسن كلها * منهم فارث الجمع حق لفرده
لا يأفك الخراص حيث يقول قد * ذهب الزمان بعمره وبزيده
فبسيف ما تنسخ بقد أديه * حتى ولو وفى العيان برده
فلكم وكم من آخر زمناله * فضل عظيم لا يحاط بسرده
يا أهل فاس والمغارب كلها * والشرق من مصر لغاية حده
يهنيكم هذا الزمان فان في * أيامه للدين مطلع سعده
والعلم والتقوى وكل معظم * عند الشريعة فهو بالغ قصده
النور أوقد منهم آراهم * يرضون الاباستدامة وقده
الله يبقي نوره متوقدا * يفني الزمان ولا فناء لخلده
ويخص مولانا الامير بنعمة * لا تنقضي وعناية من عنده
ويديمه ظلا وريفا كلما * حمي الورى هرعوا لجنة برده
وحسام فتح كلما نهضت به * عزماته فالنصر شاحذ حده
وتمام بدر كلما اقتعد السرى * لم يسر الا في منازل سعده
وعليه تسليم تأرج نده * لكنه في الفضل عادم نده
ثم الصلاة على النبي وآله * والحمد في بدء الكلام وعوده

اجتماع البربر على بيعة السلطان المولى عبد الرحمن بن هشام والسبب في ذلك

قد تقدم لنا أن البربر بعد وقعة ظيان اتفقوا على مناواة السلطان ومنابذته وانهم صاروا يدا واحدة عليه

وعلى كل من يتكلم بالعربية بالمغرب فلما توفي السلطان المولى سليمان وبويع السلطان المولى عبد الرحمن زاد البربر ذلك الخلاف توكيدا وشدة وأعدوا العصيانهم واعوجاجهم أكمل عدة لاسيما رئيسهم الحاج محمد بن الغازي الزموري فانه لما فعل فعلته في وقعة ظيان من جوه المتزعة على المولى سليمان ثم عززها باخذها من بيعته للمولى ابراهيم بن يزيد والاجلاب فيها بالقريب والبعيد خاف أن يأخذه بذلك من يأتي بعده من بني أبيه وعشيرته فجدّ في صرف وجوه البربر عن السلطان واستعان في ذلك بابي بكر مهاوش فروض له رؤساء البربر حتى اجتمعت كلمتهم على أن لا يتركوا بارض المغرب ذكر السلطان وحزبه وربما شايعهم على ذلك بعض غواة العرب مثل الصفافعة والتوازيط من بني حسن وزعير وجل عرب تادلا فلما أراد الله سبحانه نقض ما أبرموا ونثر ما جمعوا من ذلك ونظموا جعل لذلك سببا وهو ان الشيخ أبا عبد الله الدرقاوي كان مسجونا عند الوداية كما تقدم في أخبار فتنة ابني يزيد واستمر في السجن الى أن بويع المولى عبد الرحمن وكان ابن الغازي من أصحاب الشيخ المذكور وممن له فيه اعتقاد كبير فوفد عليه أولاد الشيخ ونزلوا عليه لكي يسعى في تسريح والدهم وألحوا عليه فلم يجد بدا من اظهار الطاعة للسلطان والدخول في الجماعة فوفد على السلطان في جمع من وجوه قومه بهديتهم وبيعتهم فلما رأى باقي البربر الذين حالفوه من آيت ادراسن وجروان أنه قدم على السلطان ظهر لهم خيانته فنبذوا ذلك العهد وسارعوا الى بيعة السلطان وخدمته بأموالهم وأنفسهم فقدم عليه الحسن بن حمو واعزيز كبير آيت ادراسن في وجوه قومه وأدى الطاعة ودخل في حزب الجماعة وعليه وعلى ابن الغازي كان يدور أمر البربر في ذلك الوقت فخذل الله فيما بينهم وجمع كلمتهم على السلطان من غير ضرب ولا طعن ولا ايجاف بخيل ولا رجل فقابلهم السلطان بغاية الاحسان لاسيما ابن الغازي فانه استخلصه وجعله عمدة رأيه وعيبة سره حتى كان لا يقطع أمرا دونه بعد ان سرح له الشيخ أبا عبد الله الدرقاوي رحمه الله ثم ان السلطان زوج ابن الغازي باحدى حظايا عمه السلطان المرحوم وهي ابنة القائد عمر بن أبي ستة فعلا قدر ابن الغازي في الدولة بذلك واطمأن الى السلطان بعد ان كان يسايره على أوفاز وذهب معه الى مراكش مرتين حسبما نذكره بعد ان شاء الله

﴿نهوض السلطان المولى عبد الرحمن لتفقد أحوال الرعية ووصوله الى رباط الفتح﴾

لما فرغ السلطان المولى عبد الرحمن رحمه الله من أمر الوفود والتهاني بحضرة فاس التفت الى النظر في أحوال الرعية وتثقيف أطراف المملكة فولى على فاس وصيفه أبا جمعة بن سالم الذي كان بوأبا على الدار الكبرى بفاس الجديد ثم لما عزم على السفر عزله وولى مكانه ابن عمه سيدي محمد بن الطيب ثم نهض من فاس الجديد بقصد تفقد الممالك فجعل طريقه على بلاد سفيان وسار حتى وصل الى قصر كتامة وعسكر هنالك بالكدية الاسماعيلية وبها وفد عليه المولى عبد السلام ابن السلطان المولى سليمان رحمه الله في جماعة من الاشراف والكتاب فيهم أبو عبد الله اكنسوس وكان المولى عبد السلام المذكور قد قدم من تافيلالت الى مراكش عقب وفاة والده بقصد أخذ البيعة على أهل مراكش لاخيه المولى عبد الواحد بن سليمان وكان قد بويع بتافيلالت وأعطوه صفقة أيمانهم فلما صادف المولى عبد السلام الامر قد تم للسلطان المولى عبد الرحمن واجتمعت كلمة أهل المغرب عليه سقط في يده فاعرض عما جاء لاجله وتدارك أمره عند السلطان بالوفادة عليه والدخول في بيعته ﴿قال اكنسوس﴾ لما قدمنا على السلطان المولى عبد الرحمن من مراكش الى قصر كتامة أمر بادخالي عليه لشدة تشوقه الى أخبار السلطان المرحوم المولى سليمان فدخلت عليه وجلست بين يديه نحو ساعتين وسألني عن كل شاذة وفاذة قال ثم دخلت عليه بعد صلاة المغرب وسألني عن بقية الاخبار ثم ذكر أولاد عمه السلطان المرحوم وقال والله لا يرون مني الا الخير ثم بعد يومين أو ثلاثة نهض الى رباط الفتح فاستقر بها ثم وفدت عليه قبائل الحوز ورؤساؤها فعيد هنالك عيد الفطر من سنة ثمان وثلاثين ومائتين وألف ثم رجع الى فاس ومعه

اعيان

أعيان قبائل الحوز الذين وفدوا عليه ولما احتل بفاس قدم عليه عمه المولى موسى بن محمد مع جماعة من أهل مراكش وفيهم المولى عبد الواحد بن سليمان المبايع بسجلماسة فأكرمهم وأجلهم ولم يلم أحدا من شيعة المولى عبد الواحد ولكن عفا وصفح وقابل بالاحسان ثم ولى على مراكش ابن عمه المولى مبارك بن علي بن محمد وبعثه في صحبتهم فقدمها وتصرف في أمرها الى ان كان منه ما نذكره ثم أمر السلطان رحمه الله بشراء دار أبي محمد عبد السلام شقشاق الفاسي وكانت مجاورة لقبة المولى ادريس رضي الله عنه بينها وبين القيسارية ثم أمر بهدمها وزيادتها في مسجد المولى ادريس رضي الله عنه وجمع الصناع والعملة على ذلك فتأنقوا فيه ما شاؤا حتى جاء أحسن من المسجد القديم وكان الذي تولى القيام على ذلك الشريف المولى الهاشمي بن ملوك البلغيثي فكمل ذلك في مدة يسيرة على غاية من الابداع والاتقان وكتب الله أجر ذلك في صحيفة السلطان وفي هذه المدة توفي الشيخ الاكبر العارف الاشهر أبو عبد الله سيدي محمد العربي بن أحمد الدرقاوي رضي الله عنه وكانت وفاته ليلة الثلاثاء الثالث والعشرين من صفر سنة تسع وثلاثين ومائتين وألف ودفن يوم الثلاثاء بابي بريح من بلاد غمارة وقبره شهير وكان رضي الله عنه عجيب الحال كبير الشأن ورسائله موجودة في أيدي الناس وله فيها نفس مبارك نفعنا الله به وبأمثاله

خروج السلطان المولى عبد الرحمن الى مكناسة ونقله آيت عمور الى الحوز ومسيره الى مراكش

لما سافر السلطان المولى عبد الرحمن السفرة الاولى الى رباط الفتح كان قصده أن ينظر في أحوال الرعايا وما هي عليه حتى يكون على بصيرة فيما يأتي ويذر من أمرها ثم لما عاد الى فاس استعد الاستعداد التام بقصد تدويخ المغرب وتمهيد أقطاره ولم شعثه وتدارك رمقه اذ كانت الفتنة أيام الفترة قد أحالت حاله وكسفت باله وكان المولى مبارك بن علي صاحب مراكش قد استولت عليه بطانة السوء وكثرت به الشكايات الى السلطان فعزم السلطان رحمه الله على اعمال السفر الى مراكش فخرج من فاس وقصد أولا مكناسة فلما دنا منها خرج العبيد الى لقائه بالأعلام مرفوعة على العصي وكانوا جماعة يسيرة فقال لهم السلطان رحمه الله أين جند عبيد البخاري فقالوا هذه البركة التي أشارتها الفتنة وعلى الله ثم عليك الخلف فدخل السلطان رحمه الله مكناسة وتفقد بيت مالها فألفاه أنقى من الراحة ووجد العبيد على غاية من القلة والخصاصة حتى لقد باعوا الخيل والسلاح وأكلوا أثمانها فانعشهم وجدد رسمهم وقواهم بالخيل والسلاح والجرايات حتى صلح أمرهم وذهب فقرهم ﴿قال صاحب الجيش﴾ وحاصل الامر ان هذا السلطان رحمه الله وجد الدولة قد ترادفت عليها الهزاهز وصارت بعد حسن الشبيبة الى قبح العجائز قد تفانت رجالها وضاق مجالها وذلك من وقعة ظيان الى موت السلطان المولى سليمان فلما جاء الله بهذا السلطان المؤيد لم يجد بها الا رمقا قليلا وخيالا عليلا قد وهت دعائمها وأشرفت على الانهدام المفضي الى حالة الانعدام فأمده الله بضروب السعادة الخارقة للعادة فقام باعبائها بالمال والرجال والعناية من الله تساعده والفشل يباعده حتى أقام بناء الملك الاسماعيلي على أساسه ورد روحه الى الجسد بعد خمود أنفاسه ولما قضى رحمه الله أربه من مكناسة صرف عزمه الى آيت عمور وكانوا نازلين بجبل سلفات وبالولجة الطويلة من عهد السلطان سيدي محمد رحمه الله فعفوا وكثروا وأطغاهم نزولهم بتلك الارض العجيبة ذات المزارع الخصيبة فأضروا بجيرانهم من أهل زرهون وأهل الغرب وغيرهم فامر السلطان رحمه الله القائد أبا عبد الله محمد بن يشو المالكي العروي أن يحتال في كيادهم والايقاع بهم ففعل وقبض على نحو الاربعمائة منهم وبعثهم الى السلطان ثم نقلهم السلطان الى حوز مراكش وسار الى رباط الفتح فاحتل به وعقد لاخيه المولى المأمون بن هشام على مراكش ولاه عليها مكان المولى مبارك بن علي ثم خرج السلطان من رباط الفتح قاصدا مراكش فمر بقبائل الشاوية وساس أمرهم

عـالاقتضاه الحال وقتـل الهـاسمي بن عباس الزياني وكان هذا قد قتـل قائد الشـاوية أبااسحق ابراهيم الوراوى احتال عليه بان دعاه للاصطياد فلما خلا به رماه برصاصة فقتله بالموضع المعروف بتادارت قرب مدونة فأمر السلطان رحمه الله الهاشمي أن تضرب عنقه بذلك الموضع وذلك بعد ان ولاه على قبيلته مدة ثم مر بقبائل دكالة فاوقع بالعونات وتقـدم الى مراكش فلما دخلها بعث من جاء بمحمد بن سليمان الفاسي موقد نار فتنـة ابراهيم بن يزيد فاتى به من سجن الجزيرة فضربت عنقـه ونصب رأسـه على باب الخميس من مراكش وكان مسجونا معه أبو عبـد الله محمد الطيب البياز الفاسي فأخرجه السـلطان من السجن ومن عليـه اذ لم يكن على مذهب ابن سليمان بل كان صاحب مروءة وجـد في الامور ولذلك استخدمه السلطان رحمه الله فجعله أمينا على مرسى طنجة أولا ثم ولاه على فاس ثانيا والله تعالى أعلم

نكبة ابن الغازي الزموري وما آل اليه أمره

قد قدمنا أن الحاج محمـد بن الغازي الزموري كان قد بايـع السـلطان المولى عبـد الرحمن وسعى في سراح الشيخ أبي عبـد الله الدرقاوى رضي الله عنـه وان السـلطان استخلصه وصاهره باحدى حظايا عمه المولى سليمان رحمه الله لما وصـل معه الى مراكش ثم اضطرب كلام اكنسوس في ان السلطان قبض على ابن الغازي في أول قدمة قدمها معـه الى مراكش أو بعدها وكان السبب في ذلك ان ابن الغازي المذكور كانت له دالة على السلطان قد جاوزت الحد الذي ينبغي أن تسير به الرعية مع الملوك وكانت عادته أن يحضر بالغـداة والعشي الى باب السلطان كغيره من كبار الدولة ووجوهها على العـادة في ذلك فلما كان في بعض الليالي وهو راجع الى منزله رصـده بعض العبيد بالطريق فرماه برصاصـة فأخطأه فوصـل الى منزله وقد ارتاب بالسلطان فمن دونه من أهل الدولة وحملته دالته على ان أطلق اسانه وأبرق وأرعد وتألى وأوعد وبلغ ذلك السلطان فأغضى له عنها ثم أفضى به التهور الى ان انقطع عن الحضور ببـاب السـلطان غضبا على الدولة فأطال له السلطان الرسن كي يرجع فلم يرجع وبلغ السلطان انه يحتال في الفرار فعاجله بالقبض عليه وبعث به الى جزيرة الصويرة التي هي سجن أهـل الجرائم العظام فسجن بها مدة ثم أصبح ذات يوم ميتا وذلك في سنة أربعين ومائتين وألف على ماقيل وفي هذه السـنة انعقدت الشروط بين السلطان رحمه الله وبين جنس الصاردو وهي ثمانية وعشرون شرطا كلها ترجع الى تمام الصلح ودوام الأمن والمجاملة في التجارات وسائر أنواع المخالطات والثالث عشر منها يتضمن لزوم مراكب المسلمين أن تعمل الكرنتينة ان تعين موجبها عند دخول مرسى من مراسى الصاردو وكذلك هم أيضا

ولاية الشريف سيدي محمد بن الطيب على تامسنا ودكالة وأعمالها

كان السلطان المولى عبد الرحمن رحمه الله قد ولى ابن عمه الشريف سيدي محمد بن الطيب بن محمد بن عبد الله على فاس فاقام بها مدة ثم ولاه على قبائل تامسنا ودكالة بأسرها وفوض اليه النظر في أمرها وكان سيدي محمد هذا ذا شدة وشكيمة على العصاة دوسرى البطش حاجي السيف وكان قد اتخذ كلابا ضخاما تسميها العامة القناجر يوهم الناس انه اذا غضب على أحد ألقاه اليها فتفترسه وكان ربما جيء اليه بالجاني فيقوم اليه ويباشر ذبحه بيده حتى لقد جز أصبعه في ذبحه لبعض الجناة فقدم سـيدي محمد هذا تامسـنا وأوقع باولاد حريز وقعة شنعاء فقبض على جماعة كبيرة منهم وضرب منهم نحو مائتي رقبة وهدم قصبة كريران الحريزي المسماة بعرجانة فتسامعت القبائل بسطوته فذعروا واقشـعرت جلودهم لهيبته ثم زحف الى دكالة ومعـه بعض مساجين أهل تامسـنا فلما وصـل الى شاطئ وادي آزمور أحضر أولئك المساجين فقطع البعض وقتل البعض ثم عـبر الوادي ونزل بآزمور فازداد الناس رعبا منه وخشعت له قبائل دكالة بأسرها ثم تقـدم الى الجـديدة فاحتل بها وكانت يومئـذ خربة لا زالت على الهيئـة التي فتحت عليها أيام

السلطان سيدى محمد رحمه الله وكانت تسمى قبل الفتح بالبريجة فلما فتحت وتهدم سورها المبنى صار الناس يسمونها المهدومة فامر سيدى محمد بن الطيب ببناء سورها وترميم ماتثلم منها وسماها الجديدة وتهدد من يسميها بغير ذلك فسميت الجديدة من يومئذ وهو الذى بنى القبيبة الصغرى المقابلة لباب المسجد الجامع بها ثم لما صفا للسلطان أمر هذه البلاد بسبب ابن الطيب وبسبب ماحدث فى المغرب من الجوع الذى أهلك الناس وكاد يأتى عليهم بعثه الى الصحراء لتدويخ أهلها وجباية زكواتها وأعشارها فذهب اليها وعاد مخففا فولاه السلطان على وجدة فاقام بها يسيرا ورجع بلاطائل

﴿شروع السلطان المولى عبد الرحمن رحمه الله فى غرس آجدال بحضرة مراكش﴾

لما صفا للسلطان رحمه الله أمر المغرب شرع فى غرس آجدال غربى مراكش وهو بستان عظيم جدا يشتمل على جنات كثيرة معروفة بحدودها وأسمائها وأكرتها وتشتمل كل واحدة منها على نوع أو أنواع من الاشجار المثمرة النفاعة من زيتون ورمان وتفاح وليمون وعنب وتين وجوز ولوز وغير ذلك وكل نوع منها يغل ألوفا فى السنة بحيث ان غلة الليمون وحده تباع بخمسين ألفا وأكثر اذا كانت صالحة وفى خلال هذه الجنات من قطع الازهار والرياحين والبقول المختلفة اللون والطعم والرائحة والخاصية مالا يأتى عليه الحصر حتى ان منها مالا يعرفه جل أهل المغرب ولارأوه قط لكونه جاب من أقطار أخرى وفى وسطه برك عظام تسير فيها القوارب والفلك وتصب فيه العيون كأمثال الانهار لسقى تلك الجنات وعليه من الارحاء شئ كثير وتلك البرك منها ماضلعها الواحد يكون مائتين خطوة وأقل وأكثر وفى داخله أيضا من المنتزهات الكسروية والقباب القيصرية والمقاعد المروانية ما يستوقف الطرف ويستغرق الوصف مثل دار الهناء والدار البيضاء والصالحة والزاهرة وغير ذلك ويتصل به جنان رضوان الفائق بحسنه وقبابه ومقاعده البهية على ذلك كله والحاصل ان هذا البستان جنة من جنان الدنيا يزرى بشعب بوان وينسى ذكر غمدان الى جنة المنارة والعافية وغير ذلك من منتزهات مراكش العجيبة التى أنشأتها هذه الدولة فى ابان الاقبال والشبيبة ولما شرع السلطان رحمه الله فى غرس هذا البستان جلب له العين الآتية من بلاد مسفيوة المسماة بتاسلطانت وهى من أعذب العيون ماء وأخفها وأنفعها للبدن وكانت مسفيوة متغلبة على هذه العين من لدن دولة السلطان سيدى محمد بن عبد الله يعمدون اليها بالليل فيفرقونها سواقى على جناتهم ومزارعهم فكان ذلك دأبهم الى ان جاء السلطان المولى سليمان فأعياه أمرهم فيها فاقطعهم اياها على ألف مثقال يؤدونه كل سنة فلما جاء السلطان المولى عبد الرحمن انتزعها منهم رغما عليهم وجاء بها تشق الوهاد والربى حتى ألقت جرانها بآجدال السعيد وعم نفعها وريها القريب منه والبعيد وفى ذلك يقول الوزير أبو عبد الله محمد بن ادريس رحمه الله

وردت وكان لها السعود مواجها * والحسن مقصور على مواجها
وبدت طلائع بشرها من قبلها * كالشمس طالعة لدى أبراجها
وتسير ما بين الاباطح والربى * ترمى فريد الدر من أمواجها
وتصوغ من صافى النضار سبائكا * حلت بها الاعطاف من أثباجها
هبطت اليك من الجبال وطالما * تعبت ملوك الارض فى اخراجها
وأتتك راغبة تجر ذيولها * وتفيض غمر النيل من أفواجها
تنساب مثل الافعوان وتنثنى * كالغصن بين وهادها وفجاجها
خطب الملوك نكاحها فتمنعت * وأتتك واهبة حلال زواجها
فلتهنك الخود الرفيع نجارها * وليهنها ان صرت من أزواجها
حسناء عباسية بدوية * نشرت ذوائبها على ديباجها

واقتك وافدة وقد صبغ الحيا * وجناتها وجرى على أدراجها
فكأنها بلقيس جاءت صرحها * لكنه صرح بغير زجاجها
عرفت أناملك الشريفة أبحرا * غرقت بحار الارض فى عجاجها
فأتتك طالبة الامان لنفسها * لتنال بعض الطيب من تجاجها
لبتك اذ سمعت نداك وأقبلت * مرهوبة تستن من ازعاجها
ونزعتها بالقهر من غصابها * والسابقون رضوا ببعض خراجها

واعلم أن هذه الاخبار التى سردناها من أول هذه الدولة السعيدة الى هنا تبعنا فى جلها أبا عبد الله أكنسوس وقد ساقها رحمه الله مجردة عن التاريخ الذى هو المقصود بالذات من الفن ونحن لما لم نعثر فى الوقت على ما يحقق لنا تواريخها رتبناها بحسب ما أدى اليه الفكر والروية وأثبتناها لئلا تذهب فائدتها بالكلية وعلى كل حال فهى فى حدود الاربعين من مائة التاريخ والله أعلم

﴿ولاية القائد أبى العلاء ادريس بن حمان الجرارى على وجدة وأعمالها﴾

قد قدمنا أن السلطان المولى عبد الرحمن رحمه الله كان قد ولى ابن عمه سيدى محمد بن الطيب على وجدة ورجع عنها بلا طائل وكانت ولاية هذا الثغر عند السلطان من أهم الولايات وأخصها بمزيد الاعتناء لبعدها عن دار الملك ومتاخمتها المملكة الترك فكانت ثغرا من الثغور ولكثرة قبائلها واختلاف آراء أهلها وتمدد عصبياتهم فى العرب والبربر ففكر السلطان رحمه الله فيمن يكفيه هذا المهم ويسد له هذا المسد فوقع اختياره على القائد الانجد أبى العلاء ادريس بن حمان العربى الودينى الجرارى فرماه به وجعل أمرها اليه وعول فى شأنها عليه وكان هذا الرجل نسيج وحده وفريد دهره فى جودة الرأى وادارة الامور على وجهها واجرائها على مقتضى صوابها ومحبة السلطان ونصحه فولاه عليها فى أوائل سنة ثلاث وأربعين ومائتين وألف فقام بامرها أحسن قيام واستوفى جباية أهل المداشر منها والخيام ثم حمله نصحه وصدق خدمته على أن يستأذن السلطان فى أن يكون يكاتبه بجميع ما يحدث فى تلك البلاد من الامور الداخلة فى الدولة والخارجة عنها ليكون السلطان على بال من ذلك الثغر فاستأذن فى ذلك بواسطة الوزير أبى عبد الله بن ادريس فكان من جواب الوزير له ان قال حسبما وقفت عليه بخطه انى أخبرت سيدنا المنصور بالله بما كتبت فى شأنه فأعجبه ذلك وقال لا بأس به ولكن خفيا من غير شعور أحد ليطلع سيدنا على الامور ويكون على بصيرة فيها فلا تقصر فى ذلك واجتهد فى اصلاح ما ولاك وأعظم ذلك وأهمه أمان الطريق وخمود الفتنة حتى لا يصل من تلك الناحية الا الخير فانت من فضل الله ذو رأى وبصيرة بالامور وخصوصا تلك النواحى والله يوفقك ويسددك وهذه النواحى بخير وعافيه وفى نعم من الله وافيه قد نزل فيها المطر الغزير وكثر الخصب وحرث الناس الحرث الكثير وسيدنا بمكناسة الزيتون ولا مايشوش البال غير أن والدته المقدسة صارت الى عفو الله ورحمته وذلك قبل تاريخه بشهر ونحن على المحبة والسلام فى الخامس والعشرين من جمادى الثانية سنة ثلاث وأربعين ومائتين وألف محمد بن ادريس لطف الله به انتهى لفظ الكتاب المذكور * وفى هذه المدة كان السلطان رحمه الله قد استعمل الشيخ أبا زيان بن الشاوى الاحلافى على تازا وأعمالها وأوصاه بالتعاون على أمر الخدمة السلطانية بالقائد ادريس فكانا فى ادارة الامور بتلك النواحى كفرسى رهان ولكن التبريز اغا هو للقائد ادريس ولما دخل رمضان من السنة المذكورة عزم السلطان رحمه الله على المسير الى بلاد الشرق وجدة وأعمالها للوقوف على تلك التخوم بنفسه والنظر فى أمورها برأيه اذ لم يكن وطئها قبل ذلك فاستنفر القبائل لحضور عيد الفطر والنهوض اليها ولما حضر العيد وفد على السلطان جماعة من بنى يزناسن وعرب أنقاد فباحثهم رحمه الله عن حال بلادهم فشكوا قلة الخصب فصده ذلك عن المسير اليهم ووعدهم

بأنسيطا أرضهم من العام القابل في أوّل يناير ثم صرف رحمه الله وجهته تلك الى التطواف على مراسي المغرب والنظر في أمورها واحياء مراسم الجهاد بها فخرج من مكناسة منتصف شوّال من السنة أعني سنة ثلاث وأربعين ومائتين وألف فتربارضات من أعمال وازان وصار الى تطاوين ثم الى طنجة ثم آصيلا وزار وليها أبا عبد الله محمد بن مرزوق وتبرك به ثم مر بالعرائش وهكذا تتبع الثغور ثغرا ثغرا الى آسفي وفي أثناء ذلك ورد عليه الخبر بانتقاض الشراردة على المولى المأمون صاحب مراكش وخروجهم عن الطاعة وافسادهم السابلة ونهبهم الرفاق وأبدوا في ذلك وأعادوا حتى كانوا يصلون الى جنات مراكش فسدد السلطان رحمه الله قصده نحوهم وكان من أمره معهم ما نذكره

﴿فتح زاوية الشرادي والسبب الداعي الى غزوها﴾

قد قدمنا ما كان من أمر المهدي بن محمد الشرادي الزراري مع السلطان المولى سليمان رحمه الله بما فيه كفاية ثم لما بويع السلطان المولى عبد الرحمن بايعه المهدي في جملة الناس ولما قدم السلطان مراكش قدمته الاولى لقيه الشراردة في خمسمائة فارس بشرع ابن حمي مؤذنين الطاعة ففرح السلطان بهم وأكرم وفادتهم ولما عزموا على الرجوع كان في جملة ما قال لهم السلطان رحمه الله ان ما فات قد مات وما نهب في أيام الفتنة فهو هدر ومن الآن من فعل شيأ يخاف على نفسه فرجع الشراردة الى بلادهم وعيد السلطان بمراكش عيد المولد فحضرت الوفود وحضر الشراردة في جملتهم وساقوا للسلطان خمسة عشر جملا من الكتان وخمسة أحمال من الملف وأربعة آلاف مثقال عينا مما كانوا انتهبوه من صاكة الصويرة قبيل وفاة السلطان المولى سليمان رحمه الله حسبما أشرنا اليه قبل فكان من تمام احسان السلطان اليهم وتألفه اياهم أن قال لهم افرضوا الى مائتي فارس منكم تذهب الى درعة وهذا الكتان والملف هو كسوتهم والمال صائرهم ففعلوا وكساهم السلطان وأنعم عليهم ثم لما ولى أخاه المولى المأمون على مراكش مرضوا في طاعته ودعا المهدي تهوره الى أن شكاه الى السلطان وهو بمكناسة يومئذ يعتد عليه بأنه يأخذ منهم الزكوات والاعشار على غير وجهها الشرعي وأنه ولى عليهم أربعة عمال أو خمسة عوض عامل واحد كان يتولى عليهم فاغضى السلطان عن ذلك وبالغ في الاناة القول له في كتابه ووعده بأنه اذا وصل الى مراكش يشكيه من أخيه وفي أثناء ذلك وقبل وصول كتاب السلطان اليه أغرى اخوانه بالخروج عن طاعة السلطان والاشتغال بما يسخط الله ويرضي الشيطان فانبثت خيولهم في الطرقات وخربوها مخرا وانتسفوها نسفا وعمدوا الى قوادهم الذين ولاهم المولى المأمون عليهم فقبضوا عليهم وأودعوهم السجن وانتهبوا دورهم ووصلت المسافرون والتجار الى باب السلطان مجردين عراة يشكون مادهمهم من أمر الشراردة وتكاثر عليه شذاذهم فحينئذ استأنف السلطان جده وأرهف حده وكتب الى أخيه المولى المأمون باستنفار قبائل الحوز وجمعها عليه حتى يقدم عليه وسار السلطان في جيش العبيد والودايا وآيت ادراسن وزمور وعرب بني حسن وبني مالك وسفيان وكتب الى الشاوية ودكالة أن تكون خيلهم معدة حين عزبهم وكان المهدي قد عظم ناموسه وتمكن من جهلة قومه وكاد يتجاوزهم الى غيرهم حتى صار يمرض أو يصرح بأنه المهدي المنتظر وكان السبب الاقوى في طغيانه وطغيان قومه ما اتفق له في هزيعة السلطان المولى سليمان رحمه الله فظن المهدي وشراردته أن لا غالب لهم من الله ولما برز السلطان رحمه الله من رباط الفتح لقيه ركب الحاج الذين انتهبهم هشتوكة والشياظمة الذين بأحواز آزمور وكانت العادة يومئذ بالمغرب أن ركاب الحاج تأتي من آفاق المغرب فتجتمع بفاس ومنها يخرج الركب على الهيئة المعهودة في ذلك الزمان فلما وصل هؤلاء الحاج من أهل السوس وغيرهم الى الشياظمة وهشتوكة انتهبوهم وجردوهم من المخيط والمحيط فسمع السلطان رحمه الله شكواهم وامتعض لانتهاك حرمتهم وزحف الى هؤلاء المفسدين فأوقع بهم وقعة

شنماء بالموضع المعروف بفرقالة من أعمال آزمور حتى كانوا يلقون أنفسهم في البحر طلبا للنجاة بعد ان
أثروا في المحلة أول النهار ثم كانت الكثرة عليهم وحكم السلطان السيف في رقابهم وامتلأت أيدى العسكر
من أثاثهم وماشيتهم وكانت هذه الوقعة طليعة الفتح ومقدمة الظفر ثم عبر الى آزمور ومنها الى
الجديدة ثم سار مع الساحل حتى وصل الى آسفى فزار الشيخ أبا محمد صالح رضى الله عنه وعطف الى الزاوية
الشرادية فبغتها وطلعت عليها راياته المنصورة بالله مع الصباح ولم يعرج على مراكش وقبل نزول
الجيش وضرب الاخبية أنشب الحرب معهم فتقاتلوا وتحاجزوا مع الظهر وكان الزمان زمان مصيف
ودامت الحرب سبعة أيام ونصب عليهم السلطان المدافع والمهاريس العظام وفى اليوم الخامس من
تلك الايام كان عيد المولد الكريم يوم الاربعاء من سنة أربع وأربعين ومائتين وألف فاراد السلطان
رحمه الله أن يعفى الناس من الحرب ذلك اليوم فحمل الشراردة طغيانهم وبغيهم على ان تقدموا للجيش
وأنشبوا الحرب فامر السلطان بالزحف اليهم والنكاية فيهم وكان المعلم الاكبر أبو عبد الله محمد بن عبد
الله ملاح السلاوى حاضرا في هذه الوقعة فتقدم اليه السلطان بالوصاة بالجد والاجتهاد في الرمى فرمى
عليهم في ذلك اليوم مائتين وثمانين بنبة كلها في وسط الزاوية تتفرقع عند نزولها فتأتى على ما جاورها
من جدار وغيره حتى شاهدوا في ذلك اليوم الموت الاحمر وكانوا هم أيضا يرمون بالكور والبنب من
المدافع والمهاريس التى استولوا عليها في محلة السلطان المولى سليمان ثم لما كان عشى الجمعة السابع
من أيام الحرب افترقت كلمتهم وعزم المهدى على الفرار فقال له أصحابه كيف تفر وتتركنا وأين ما كنت
تعدنا فقال لهم أما أنتم فالذى أورثكم أسلافكم هو الخدمة مع السلطان فلا تستنكفوا منها وأما أنا فالذى
عندى وسمعته من آبائى ان الحرب تدوم على هذه القرية سبعة أيام ثم يستولى عليها السلطان الذى يجىء
من ناحية البحر وهو هذا في كلام آخر تكهن لهم فيه واعتقد الجهلة صدقه بعد ان أتلفوا عليه نفوسهم
وأموالهم ومن يضلل الله فما له من هاد ولما جن الليل ركب فيما قيل على حمار وركب معه شرذمة
من أصحابه نحو العشرين فارسا فشيعوه الى الموضع المعروف بتيزكى فودعهم وذهب الى السوس بعد
ان سفك الدم الحرام وانتهب المال الحرام وملأ صحيفته من الآثام نسأل الله العفو والعافية ولما فر
المهدى عنهم تفرقوا شذر مذر وباتوا يحملون بنسائهم وأولادهم الى منجاتهم والذين صعب عليهم
الخروج اجتمعوا وساروا الى القواد الاربعة فسرحوهم ورغبوا اليهم في الوساطة عند السلطان
فاصبحوا على أطراف المحلة يستأذنون على المولى المأمون فأذن لهم ودخلوا عليه وشفعوا فيمن بقى منهم
وطلبوا الأمان فأمنهم ثم تقدموا الى السلطان فاستأذنوا فأذن لهم ودخلوا وأخبروا بما عقد لهم المولى
المأمون من الأمان فامضاه لهم ثم أمر السلطان بجمع الشراردة الذين بقوا بالقصبة فجمع له منهم نحو
الالفين وعاثت الجيوش في بيوتهم وأمتعتهم ﴿وقيل﴾ أن السلطان رحمه الله لم يؤمنهم ولما قبض
عليهم عزم على تحكيم السيف في رقابهم فاستفتى العلماء فيهم فتحاموا الافتاء باراقة الدم حتى ان منهم
من أفتى وهو الفقيه أبو عبد الله محمد بن المرابط المراكشى بانهم تابوا قبل القدرة عليهم فتوقف السلطان
رحمه الله عن قتلهم وكان وقافا عند الحق دائرا مع الشرع حيث دار ثم أمر رحمه الله بالاحتياط على عيال
المهدى وأولاده فاحتيط عليهم فجىء بهم اليه وبعثهم الى مكناسة فانزلوا بدار القائد محمد بن الشاهد
البخارى الذى هلك في وقعة آعليل مع السلطان المولى سليمان وأمر السلطان بسور القصبة فهدم
ابرارا لقسمه وحيزت المدافع والمهاريس التى كانت منصوبة عليه ولما انقضى أمر الحرب وتم الفتح
هلك المعلم محمد ملاح نفطت فيه بنبة فقتلته وقتلت جماعة معه فوقف السلطان عليه بنفسه حتى قبر
وأحسن الى أولاده بعد ذلك ورأيت بخط الوزير ابن ادريس في بعض مكاتيبه ما نصه واعلم ان الله سبحانه
قد فتح علينا الزاوية الشرادية وأهلك أهلها الظالمين ولم تبق لهم باقية ولا زالت العساكر مقيمة على هدمها

وتخريبها وقد قبض منهم على أكثر من ستمائة رجل وربحت الناس بما وجدت فيها من الأثاث والذخائر والانعام اهـ ثم ان السلطان رحمه الله فرق مساجين الشراردة فسجن بعضهم برباط الفتح وبعضهم بمكناسة وبعضهم بفاس ثم بعد مضي نحو السنة سرحهم ونقلهم الى بسيط آزغار وجمع اخوانهم من القبائل فضمهم اليهم ولا زالوا موطنين به الى الآن وأما المهدي فانه ذهب الى السوس وانتهى الى آيت باعمران من ولتيتة فنزل على مرابطها أبي عبد الله محمد آجلي الباعمراني واستمر عنده ثلاث سنين وضاقت عليه الارض بما رحبت ثم بعث من شفع له عند أمير المؤمنين فقبل السلطان شفاعته وجاء المهدي في قيده الى أن دخل على السلطان بمراكش وبكى أمامه وتضرع فسامحه السلطان ثم بعثه الى مكناسة فاجتمع باولاده وبعد مدة يسيرة ولاه السلطان على اخوانه ﴿قال اكنسوس﴾ عاملهم بالاساءة فعادت محبتهم له عداوة وضجوا الى السلطان منه فعزله ثم حج المهدي باذن السلطان ورجع فولاه أيضا فلم يقبلوه ثم سجن ثم سرح وتقلبت به الاحوال وتأخرت وفاته الى أوائل شوال من سنة ثلاث وتسعين ومائتين وألف في أول دولة سلطان العصر وامام النصر أمير المؤمنين المولى الحسن بن محمد رضي الله عنه ولما تم فتح الزاوية المذكورة قال شعراء العصر في ذلك فمنهم الفقيه الاديب أبو عبد الله اكنسوس قال

بشائر لا تحيط بها الشروح * كأن سميعها فتن مروح
سقى ربع البشير بها غمام * يباكرها هتون أو يروح
تفديه المحافل وهو يشدو * فتوح في مضمنها فتوح
وتأمل أن تقبله الغواني * تذيل له المباسم أو تبيح
بشائر كاد يسمعها دفين * ويسري في الجماد بهن روح
شفى المولى المؤيد كل صدر * به من قبل وقعتها جروح
وأدرك ثار عصبته وأضحى * لعزة قدره شرف صريح
لقد حسم الفساد بكل أرض * فساد به لنا الدين السميح
وزر على زرارة كل خزي * تشق له المجاسد اذ تنوح
وقد كانت تصر على ازورار * وكانت لا ينهنهها قبيح
ومن كانت مراكبه جماحا * فسحقا حين يصرعه الجموح
أتيح لهم لحينهم جهول * غوي للضلال له جنوح
يقودهم الى العصيان سرا * ويظهر انه البر النصوح
يحدثهم اذا ما حم خطب * حديثا كان مصدره سطيح
هو الدجال في سمت وفعل * فمن يدعوه مهديا وقوح
فاهلكه الامام فكان عيسى * كذا الدجال يهلكه المسيح
فصير دارمنعته فلاتا * على اطلالها البوم السنيح
وفر عن الذمار على حمار * عليل العرض جؤجؤه صحيح
فيا لؤم الذليل فلا وهين * فيعذر بالفرار ولا جريح
وخير من حياة في هوان * يبوء به الفتى موت صريح
أيطمع في النجاة فلا نجاة * سيدركه الهزبر المستبيح
اذا كان الشراب له بحارا * تخوض اليه سلهبة سبوح
ستدركه العزائم من امام * تدك له المعاقل والصروح
امام قد أعاد لنا سرورا * وجاد لنا به الزمن الشحيح

أعز الله ملك بني علي * بصولته وتم له الوضوح
وجرد من جلالته حساما * يزيل به الضلالة أو يزيح
وقد كان الخلائق في ظلام * فلاح على الخلائق منه يوح
وأصبحت الاباطح باسمات * وكان على مناظرها كلوح
أعز معود للنصر ساع * الى العلياء مسعاه نجيح
يخاطر في منال العز دأبا * برأي كل مدركه رجيح
فرايات السعود عليه نشر * وساحات الفخار لديه جوح
أبا زيد فأنت لنا ملاذ * وجاهك في المهم لنا فسيح
فقد زانت ما ثرك الليالي * ولاح لعدلك الوجه المليح
وهذا الدهر كالطوفان موجا * وطاعتك السفين وأنت نوح
وأنت خليفة الرحمن من لا * تؤمنه فشربه نشوح
كأن الشيعة حين زاغت * وهب لها من الطغيان ريح
عصفت عليهم بالبأس تزجي * كتائب كالسحاب اذا تلوح
فألقيت الجران على ذراهم * بجيش كلهم بطل مشيح
فجاء العفو منك وهم ثلاث * أسير أو كسير أو ذبيح
وقد قسمت بلادهم بعدل * ودورهم كما قسم الوطيح
وقد نظمت مكايدهم قديما * بني سعدون يدان نطيح
فظنوا آل اسمعيل برنو * لغير الحزم طرفهم الطموح
وما علموا اباتكم سيوف * لدكم نجيعهم سفوح
أبا زيد اذا تبقى عليهم * بصفح ربما ندم الصفوح
فلا تحلم فان الجرح يكوى * طريا بالمحاور أو يقيح
فلا زالت بك الدنيا عروسا * ومجدك من مفارقها يفوح

ومن ذلك قول بعضهم وله الفقيه أبو محمد عبد الله الدبعاني قال

بشرى تقر بها عين الاعيان * كالوصل ينسخ دولة الهجران
جاد الزمان بها على مقداركم * فتقاصرت عنها خطا الاذهان
أين المفر لمن عتا عن أمركم * أترى البغاث تفوت ما العقبان
الامر أمر الله غير منازع * لاح الصباح لمن له عينان
يا من يطالب أمرهم بدلائل * أتطالب البرهان بالبرهان
ان كنت تجهل فالحسام معلم * يشفي البرىء به ويشقى الجاني
كم من غوي قد عتا عن أمرهم * كزرارة فمضى الى الخسران
أين المفر لكل من شق العصا * يوم الكفاح اذا التقى الجمعان
لم يمنع الاعداء منهم معقل * لو انهم صعدوا الى كيوان
لكنهم باؤا بأخسر صفقة * فكأنهم غصبوا أباغبشان
جيش تسد وفوده مسرى الصبا * وتهد وطأته ذرى ثهلان
يا ما لكا ملأ الوجود محاسنا * لا تختفي عن أعين العميان
أجريت بين المتهمين مكارما * يسلو الغريب بها عن الاوطان

لو قيل للغيث اعترف لم يعترف * الا بفضل نداكم الهتان
انسان عين الدهر أنت وانما * تكميل شكل العين بالانسان
ذكراك بالافواه تعذب كالما * وتخف كالبشرى على الآذان
أيقظت جفن الحق من اغفائه * وأقمت ميلة عطفه الكسلان
ألقى لك الزمن العصى زمامه * وعنا لطاعة أمرك الثقلان
فالدهر دونك دافع ومدافع * وصروفه لكم من العبدان
فاذا أشرتم في الزمان لقصد * كان القضاء لكم من الاعوان
أخلصت للرحمن في طاعاته * فلذا دعيت بعابد الرحمان
ألقيت رحلى في ذراك مخيما * فجريت في الآمال طوع عنان
وتركت أوطاني وجئت وانما * من فرط حبك غبت عن أوطاني
ياليت قومى يعلمون بانني * من جودكم أرد الفرات الثاني
لازلتم في أسعد مبسوطة * مقبوضة عنها يد الحدثان

واستمر السلطان مقيما بمراكش مدة طويلة وبعث أخاه المولى المأمون بن هشام لقطر السوس لجباه

﴿ثم دخلت سنة خمس وأربعين ومائتين وألف﴾ ففى شعبان منها عقد السلطان الصلح مع جنس النابريال ويقال له استريالك وهى اثنا عشر شرطا مضمنها المخالطة بالبيع والشراء وغير ذلك مع الأمان والاحترام من الجانبين والآخر منها مضمنه الصلح الدائم على هذه الشروط لا يفسده أمر يحدث بعده ولا يقع فيه زيادة ولا نقصان ثم حدثت الفتنة عقب هذا بيسير على ما نذكره

﴿هجوم جنس النابريال على ثغر العرائش والسبب في ذلك﴾

قد قدمنا أن السلطان المولى عبد الرحمن رحمه الله قد طاف في آخر سنة ثلاث وأربعين ومائتين والف على ثغور المغرب ومراسيه وانه أراد احياء سنة الجهاد في البحر التى كان أغفلها السلطان المولى سليمان رحمه الله وأمر أعنى المولى عبد الرحمن بانشاء أساطيل تضم الى ما كان قد بقى من آثار جده سيدى محمد ابن عبد الله وأذن لرؤساء البحر من أهل العدوتين سلا ورباط الفتح أن يخرجوا في القراصين الجهادية للتطواف بسواحل المغرب وما جاورها فخرج الرئيسان الحاج عبد الرحمن باركاش والحاج عبد الرحمن بريطل فصادفوا بعض مراكب النابريال فاستاقوها غنيمة اذ لم يجدوا معها ورقة الباصبورط المعهودة عندهم وعثروا فيها على شئ كثير من الزيت وغيرها وكان بعضها قد جئ به الى مرسى العدوتين وبعضها الى مرسى العرائش فهجم النابريال على مرسى العرائش بستة قراصين يوم الاربعاء الثالث من ذى القعدة سنة خمس وأربعين ومائتين وألف ورمى عليها من الكور شيأ كثيرا من الضحى الى الاصفرار وعمد في أثناء ذلك الى سبعة قوارب فشحنها بنحو خمسمائة من العسكر ونزلوا الى البر من جهة الموضع المعروف بالمقصرة وتقدموا صفوفا قد انتشب بعضهم في بعض بمخاطيف من حديد لئلا يفروا ومشوا الى مراكب السلطان التى كانت مرساة بداخل الوادى وهم يقرعون طنابيرهم ويصفرون ومراكبهم التى في البحر ترمى بالضوبلى مع امتداد الوادى لتمنع من يريد العبور اليهم فانتهوا الى المراكب وأوقدوا فيها النار وقصدوا بذلك أخذ ثارهم فيما انتزع منهم فلم يكن الا كلا ولاحتى انثال عليهم المسلمون من كل جهة من أهل الساحل وغيرهم وعبر اليهم أهل العرائش وأحوازها سجاتى الوادى وعلى ظهر الفلاك الى ان خالطوهم وفتكوا فيهم فتكة بكرا وكان هنالك جملة من الحصادة يحصدون الزروع في الفدن فشهدوا الوقعة وأبلوا بلاء حسنا حتى كانوا يحتزون رؤس النابريال بمناجلهم وقد ذكر منويل هذه الوقعة وبسطها وقال ان النابريال قتل منهم ثلاثة وأربعون سوى الاسرى وتركوا مدفعا واحدا

وشيأ كثيرا من العدة وأفلت الباقي منهم الى مراكبهم وذهبوا يلتفتون وراءهم ﴿واعلم﴾ أن هذه الوقعة هي التي كانت سببا في اعراض السلطان المولى عبد الرحمن عن الغزو في البحر والاعتناء بشأنه فانه رحمه الله لما أراد احياء هذه السنة صادف ابان قيام شوكة التبريغ ووفور عددهم وأدواتهم البحرية وصار الغزو في البحر يثير الخصومة والدفاع والتجادل والنزاع ويهيج الضغن بين الدولة العلية ودول الاجناس الموالية لها حتى كاد عقد المهادنة ينفصم وأكد ذلك اتفاق استيلاء الفرنسيس على ثغر الجزائر وهو ما هو فوجم السلطان رحمه الله وأعمل فكره ورويته فظهر له التوقف عن أمر البحر رعيا للمصلحة الوقتية ولقلة المنفعة العائدة من غزو المراكب الاسلامية وانضم الى ذلك اعلان الدول الكبار من الفرنج مثل انجليز والفرنسيس بان لا تكون المراكب الا لمن يقوم بضبط قوانين البحر التي يستقيم بها أمره وتحمد معها العاقبة وتدوم بحفظها المودة على مقتضى الشروط ومن مهمات ذلك ترتيب القناصل بالمراسي التي تريد الدولة دخول مراكبها اليها وتجارتها فيها أي دولة كانت ومن هذه المهمات ما قد لا يساعد عليه الشرع أو الطبع مثل الكرنتينات وما يترتب عليها الى غير ذلك مما فيه هوس كبير فاشتد عزم السلطان رحمه الله على ترك ما يفضي الى ذلك وتأكد لديه اعماله لتوفر هذه الاسباب ولعمري أن في تركه لمصلحة كبيرة لمن أمعن النظر فيها وما يعقلها الا العالمون وأما فتنة النابريال هذه فانها تفاصلت بواسطة انجليز حيث وجه باشدوره مع باشدور النابريال فقدما على السلطان رحمه الله بمكناسة في شهر ربيع الاول سنة ست وأربعين ومائتين وألف

﴿استيلاء الفرنسيس على ثغر الجزائر وما ترتب على ذلك من دخول أهل تلمسان في بيعة السلطان المولى عبد الرحمن رحمه الله﴾

كان استيلاء طاغية الفرنسيس على ثغر الجزائر في آخر المحرم فاتح سنة ست وأربعين ومائتين وألف وكان السبب في ذلك أن ترك الجزائر كانوا يومئذ مع الفرنسيس على طرفي نقيض قد تعددت بينهم الوقعات برا وبحرا وكثرت بينهم الذحول والترات وكان الترك يؤذونهم أشد الاذاية وأمير الجزائر يومئذ واسمه أحمد باشا قد أمر أمره وأراد الاستبداد على الدولة العثمانية ورعا شكا طاغية الفرنسيس الى السلطان محمود العثماني فقال له شأنك واياه فهجم الفرنسيس في العدد والعدد على ثغر الجزائر فاستولى عليه بعد مقاتلات ومحاولات في التاريخ المتقدم وكان السلطان المولى عبد الرحمن يومئذ بمراكش فاتصل به خبر الجزائر في أوائل صفر فنهض الى مكناسة في التاريخ المذكور ولما وقع بأهل الجزائر ما وقع اجتمع أهل تلمسان وتفاوضوا في شأنهم واتفقوا على أن يدخلوا في بيعة السلطان المولى عبد الرحمن رحمه الله فجاؤا الى عامله بوجدة القائد أبي العلاء ادريس بن حمان الجراري وعرضوا عليه أن يتوسط لهم عند السلطان في قبول بيعتهم والنظر لهم بما يصلح شأنهم ويحفظ من العدو جانبهم ثم عينوا جماعة منهم للوفادة على السلطان تأكيدا للطلب واستعجالا لحصول هذا الارب فقدموا على السلطان بمكناسة غرة ربيع الاول من السنة المذكورة فأكرم السلطان وفادتهم وأجل مقدمهم ولما صرح واله عن مرادهم توقف في ذلك رحمه الله وكان هواه الى قبولهم أميل الا أنه أراد أن يبني ذلك على صريح الشرع كما هي عادته فاستفتى علماء فاس فافتى جلهم بنقيض المقصود ورخص له بعضهم في ذلك فاخذ السلطان رحمه الله بقول المرخص مع ان أهل تلمسان لما بلغهم فتوى أهل فاس كتبوا الى السلطان في الرد عليهم ما نصه ليعلم سيدنا قطب المجد ومركزه ومحل الفخر ومحرزه أساس الشرف الباذخ ومنبعه وبساط الفضل الشامخ ومجمعه السلطان الاعظم الامجد الافخم نجل الملوك العظام سيدنا ومولانا عبد الرحمن بن هشام أبقى الله سيدنا للمسلمين ذخرا ومنحه مودة وأجرا ان فتوى سادتنا علماء فاس مبنية على غير أساس لانهم اعتقدوا أن في عنقنا للامام العثماني بيعة وهذا الوصف لو كان علينا حجة وليس الامر

كذلك واغاله مجرد الاسم هنالك وعامل الجزائر انما كان متغلبا وبالدين متلاعبا فأهلكه الله بظلمه وتطاوله على عباد الله وجوره وفسقه ان الله يمهل على الظالم حتى يأخذه فاذا أخذه لم يفلته ويدل على تغلبه واستقلاله عدم وقوفه عند أمر العثماني وامتثاله بل لا يكترث به أصلا ولا يتبع له قولا ولا فعلا كيف وقد أمره أن يعقد مع النصارى صلحا فلم يقبل له قولا ولا نصحا وطلب منه بعض الاموال ليستعين بها على ما حل به مع النصارى من الاهوال فامتنع غاية الامتناع ولم يمكنه من شبر منها فضلا عن الباع حتى أخذها العدو الكافر وهذا جزاء كل فاسق فاجر مال جمع من حرام سلط الله عليه الاعداء اللئام وهذا كله من هذا المتغلب متواتر مشاهد بالعيان مستغن عن اقامة الدليل والبرهان الناس كلهم عبيد الله واماؤه والسلطان واحد منهم ملكه الله أمرهم ابتلاء وامتحانا فان قام فيهم بالعدل والرحمة والانصاف والصلاح مثل سيدنا نصره الله فهو خليفة الله فى أرضه وظل الله على عبيده وله الدرجة عند الله تعالى وان قام فيهم بالجور والعسف والطغيان والفساد مثل هذا المتغلب فهو متجاسر على الله فى مملكته ومتسلط ومتكبر فى الارض بغير الحق ومتعرض لعقوبة الله الشديدة وسخطه هذا وعلى فرض تسليم أن للعثماني فى عنقنا بيعة فلا تكون علينا حجة لانه تباعد علينا قطره فلم يغن عنا شيأ ملكه لما بيننا وبينه من المفاوز والقفار والبحار والقرى والمدن والامصار وربما قرب محله من جهة البحر لكن منعه الآن من ركوبه الكفار على أنه ثبت بتواتر الاخبار البالغة حد الكثرة والانتشار أنه مشتغل لنفسه ومقره عاجز عن الدفع عن ايالته القريبة من محله حتى انه هادن النصارى خمس سنين على عدد كثير من المئين وأعطى فيه منهم ضامنا ليكون فى المدة المذكورة على نفسه وحشمه آمنا فكيف يمكنه مع هذا الدفاع عن قطرنا وناحيتنا وبلدنا وأدل دليل على بعده عن هذا المرام خبر مصر ونواحي الشام فقد استولى عليها أعداء الدين مدة تزيد على الخمس سنين فلم يجد لهم نفعا ولا ملك عنهم دفعا حتى استعان بالعدو الكافر والله تعالى قد يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر هذا ونص الابي فى شرح مسلم مفصح عن مثل قضيتنا ومعلم على ان الامام اذا لم ينفذ فى ناحية أمره جاز اقامة غيره فيها ونصره فانتظار نصرته يؤدي الى الهلاك كيف وقد تطاولت اليها الاعناق وتشوفت اليها من كل جانب العيون والاحداق فأعرضنا عن الكل صفحا وطوينا عنه الجوانب كشحا مقبلين الى عتبة باب سيدنا نصره الله وسدته داخلين تحت طاعته ملتزمين لخدمته متوافقين مع القبائل والامصار وأهل الرأي والاستبصار لعلمنا أن سيدنا نصره الله المتأهل فى هذا الامر العريق الجدير بالامامة الحقيق كيف وقد ورثها كابرا عن كابر واليهم انتهت المآثر والمفاخر فنطلب من سيدنا نصره الله أن يلتزم لنا بفضله من هذه البيعة القبول مستشفعين بجاه جده الرسول صلى الله عليه وعلى آله الطيبين وصحابته المنتخبين وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين اه ولما وقف السلطان رحمه الله على هذا الكلام قبل بيعتهم والتزمها وعقد عليهم لابن عمه المولى على بن سليمان وأضاف اليه كتيبة من الجند من أعيان الوداية والعبيد ووجه الجميع مع أهل تلمسان بعد اكرامهم وتمام الاحسان اليهم وكتب الى عامله القائد ادريس يستوصيه بالجميع خيرا ويكون بصيرة عليهم وأشركه فى النظر والرأي مع المولى علي بل الاعتماد فى الحقيقة انما كان عليه وقد وقفت على كتاب الوزير أبي عبد الله بن ادريس بخط يده للقائد المذكور فى هذه القضية يقول فيه ما نصه الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد وآله محبنا وخال سيدنا الارضى السيد ادريس بن حمان الجراري سلام عليك ورحمة الله تعالى وبركاته عن خير سيدنا أيده الله وبعد فقد وصلنا كتابك صحبة أعيان تلمسان وقبائل أحوازها فوقفنا معهم كل الوقوف وبذلنا المجهود فوق الطاقة وقبلهم مولانا وقابلهم بالاحسان والاكرام كما هو شأنه ذهابا وايابا وهاهم وجههم مولانا مكرمين ورشح ابن عمه مولاي علياً للخلافة عليهم

لما يعلم من عقله ودرايته وسياسته وأنه ذونفس أبية لكون تلك النواحي لا يصلح لها الا من اتصف بهذه الاوصاف ليميز واحالة الساعة مع ما كانوا فيه وكان شيخ مولانا ابن عمه المذكور رشحك لتكون واسطة بينهم و بينه لكون الاوصاف المذكورة موجودة فيك فكن عند الظن بك واياك والطمع وازهدوا فيما في أيدي الناس وكل ما تحتاجون اليه مما لا بد منه أخبر ونا به يصلكم ولا تكتموا عنا شاذة ولا فاذة واعلم أن مولانا انتخبك من وسط أبناء جنسك وقربك منه ولا زلت لديه في الترقي فالله الله فكن عند الظن بك بارك الله فيك آمين وقد أكرم سيدنا كل واحد بما يناسبه من الكسوة وصنع لهم في كل بلد دخلوه مهرجانا وأدخلهم سيدنا الوسط داره وجميع جناته وأماكن المملكة التي لا يدخلها الا الخاصة غايته أنهم نالوا من العناية فوق الظن ووقفنا معهم فوق ما تحب وفيهم الكفاية ولم يبق الا ما عندك فكن عند الظن بك فان سيدنا نصره الله جرب غيرك وطرحه وهذا معيارك نسأل الله أن يكون معيار التبر الخالص وما وعدك به سيدنا سيرد عليك حين تستقر بالبلد ويحسن تصرفك على عين الحاضر والبادي وفي وصية سيدنا في كتابه الشريف مقنع وعلى المحبة والسلام في ثالث عشر ربيع الثاني عام ستة وأربعين ومائتين وألف محمد بن ادريس لطف الله به اهـ نص الكتاب بحروفه ولما وصل المولى علي الى تلمسان وجه السلطان في اثره خمسمائة فارس ومائة رام وجماعة وافرة من حذاق الطبجية من أهل سلا ورباط الفتح فيهم ولد عامل سلا محمد ابن الحاج محمد أبي جميعة وكان من النجباء ثم لما دخل المولى علي تلمسان واستقر بها فرح به الحضر من أهل تلمسان واغتبطوا به وقدمت عليه الوفود من كل ناحية وأخذ عليهم البيعة للسلطان هو والقائد ادريس وانحرف عنه الكرغلية من الترك الذين كانوا ادالة بقصبة تلمسان من لدن قديم وحاصرهم المولى علي وقاتلهم مدة الى أن ظفر بهم واستولى على ما في أيديهم وانحرف عنه أيضا قبيلتا الدوائر والزمالة من عرب تلك الناحية ويقال ان أصلهم من جند كان للمولى اسمعيل رحمه الله بعثه ادالة بتلك الناحية واستمر واهنالك وتناسلوا الى هذا التاريخ فأظفر الله المولى عليا بهم وانتهب الجيش متاعهم ومتاع الكرغلية من قبلهم ونشأ عن ذلك من الفساد ما نذكره بعد هذا ان شاء الله * وفي أوائل رمضان من السنة المذكورة خرج القائد ادريس من تلمسان في جماعة من الجيش الذين معه بقصد تدويخ القبائل الذين هنالك وأخذ البيعة على من لم يكن بايع منهم وكان الذين بايعوا هم أهل معسكر والحشم والمشاشيل منهم وبنو شقران والمرابطون أهل غريس وورغية وتحليت وحميان وغير هؤلاء ونص بيعتهم الحمد لله الذي أنار الخلافة وجه الزمان وأطلع في صحيفة غرته طوالع السعد واليمن والأمان وهدى من ارتضاه من الانام للدخول تحت ظل راية مولانا الامام والصلاة والسلام على سيدنا محمد المبعوث رحمة للعالمين وعلى آله وصحبه الطيبين وبعد فلما وفد على حضرة مولانا الخليفة أبي الحسن مولانا علي ابن أمير المؤمنين مولانا سليمان أعلى الله ثراه في عليين جميع القبائل المسطرة عنته وقرأ عليهم كتاب مولانا المنصور ذي اللواء المنشور والسيف المشهور أمير المؤمنين مولانا عبد الرحمن ابن مولانا هشام أدام الله رعيه وجعل فيما يرضيه سعيه بمحضر خليفته الطالب الارشد الماجد الاسعد القائد السيد ادريس الجراري وتلقوه بالاجلال والتعظيم والتبجيل والتكريم أشهدوا على أنفسهم انهم عقدوا البيعة لمولانا الامام أيده الله وأدام عزه وعلاه والتزموها بالسمع والطاعة وفي جيدهم انتظموها بيعة تامة مستوفية الشروط وافية العهود وثيقة الربوط قبلها الكل وارتضاها وأوجب العمل بمقتضاها فمن سمع ما ذكر ممن ذكر قيده في مهل جمادى الثانية عام ستة وأربعين ومائتين وألف وبعده علامة العدلين المتلقيين من رؤساء القبائل المذكورة فهؤلاء الذين بايعوا ومن لم يكن بايع بعد فهم الذين خرج القائد ادريس المذكور لاخذ البيعة عليهم كما قلنا * والحاصل * أن السلطان رحمه الله كان قد اعتنى بأمر هذه الناحية غاية الاعتناء وبذل المجهود في

امدادها بالعدد والعدد والمال مرة بعد أخرى وبعث الشريف البركة سيدى الحاج العربى بن على الوازانى الى أهل تلك البلاد يدعوهم الى الطاعة ويحضهم على الدخول فى أمر الجماعة لكونهم كان لهم فيه وفى سلفه اعتقاد كبير وبعث الشريف الاخير أبا محمد عبد السلام البوعنانى فولاه خطة الحسبة بتلمسان وبعث من الكسى والرايات والاعلام والمدافع والمهاريس والبارود والرصاص شيأ كثيرا لكن لم يكن الا ما أراده الله تعالى فافترقت كلمة العرب الذين هنالك لضعف ايمانهم وقلة همتهم فجلهم مال الى الدخول فى حزب النصارى عندما استولوا على مدينة وهران فى هذه الايام ثم سرى ذلك الاختلاف فى قواد جيش السلطان فتنافسوا وتحاسدوا وكثر القيل والقال منهم على السلطان ثم ختموا عملهم بانتهاب أثاث الكرغلية وتقاعدهم عليه ثم بانتهاب مال الزمالة والدوائر ومشيتهم فى جوار الشريف سيدى الحاج العربى بن على الوازانى وفسد العمل وخاب الامل فحينئذ رأى السلطان رحمه الله استرجاع تلك الجيوش التى لم يبق طمع فى صلاحها بعد ان أمر بالقبض على القائد ادريس لكونه سعى به عنده وانه شارك فى نهب الكرغلية والزمالة والدوائر وتقاعد على النفيس من أثاثهم فرجعت المحلة وكان رجوعها فى آخر رمضان من السنة المذكورة وفى هذه السنة منتصف جمادى الثانية منها حدثت زلزلة بقرية من قرى تلمسان تسمى البليدة فجعلت عاليها سافلها وهلك أهلها والامر لله كيف شاء فعل

﴿خروج جيش الودايا على السلطان المولى عبد الرحمن والسبب فى ذلك﴾

كان خروج جيش الودايا على السلطان المولى عبد الرحمن رحمه الله فى المحرم فاتح سنة سبع وأربعين ومائتين وألف وكان السبب فى ذلك أن الطاهر بن مسعود المغفرى الحسانى والحاج محمد بن الطاهر المغفرى العقيلى والحاج محمد بن فرحون الجرارى كانوا من كبار قواد هذا الجيش وأعيانه وكان السلطان رحمه الله يبعثهم فى المهمات ويستكفى بهم فى الاقطار النائية والجهات وكانوا هم يظهرون للسلطان الطاعة وهم فى الباطن منحرفون عنه بسبب ان الدالة التى كانوا يدلون بها على السلطان المولى سليمان رحمه الله انقطعت عنهم مع السلطان المولى عبد الرحمن وزالت من أيديهم فكانوا يعترضون فى الطاعة بعض الاحيان والسلطان يطويهم على غرهم ويلبسهم على عزهم الى ان كان البعث الى تلمسان فوجههم اليه فيمن وجه من أعيان الجيش ورؤسائه فكانت فوارصهم لا تنقطع عن الدولة وشغبهم لا يفتر من التطاول والصولة ثم كان نهب الزمالة والدوائر فابدوا فى ذلك وأعادوا وشايعهم على فعلهم القائد أحمد بن المجبوب البخارى وأظهر واعدم المبالاة بالسلطان وخليفته وعامله وكانت بينهم وبين القائد ادريس الجرارى منافسة باطنية فخاف من الاعتراض عليهم فيما ارتكبوه من النهب أن يسدوا برأسه هذا الخرق فأسعفهم وانتهب معهم وكان ما قدمناه من استرجاع السلطان لذلك الجيش وبعث من قبض على القائد ادريس بوجدة وجيء به الى تازا فسجن بها ولما وصل جيش تلمسان الى عنق الجمل قرب فاس خرج اليهم القائد الطيب الوديني البخارى وكان واليا على فاس فقيل أراد أن يقبض عليهم باذن من السلطان وقيل أراد أن يحوز منهم أرحلهم وحقائبهم التى ملؤها من النهب وكان الوداياو العبيد لما فعلوا فعلتهم تحالفوا وتعاهدوا على أن يكونوا يدا واحدة على من أرادهم بسوء كائنا من كان فلما خرج اليهم الطيب الوديني تجهموه وهموا به فرجع ادراجه وأنهى ذلك الى السلطان فاغضى عنهم ثم بعد أيام عزم السلطان على القبض على الحاج محمد بن الطاهر العقيلى فأحس هو بذلك فذهب الى الطاهر بن مسعود وتطارح عليه وقال له انى مقبوض لا محالة فان ولاك السلطان من أمرى شيأ فأحسن ولا تؤاخذنى بما كان منى اليك وقد كان الطاهر بن مسعود قبل هذه المدة عاملا بتارودانت فعزله السلطان بابن الطاهر فأساء اليه فبهذا قال له ما قال فقال الطاهر بن مسعود وأنت مقبوض قال نعم قال على وعلى لا جرى عليك أمر تكرهه ما دمت حيا ثم ان السلطان أحضر الحاج محمد بن الطاهر وأحمد بن المجبوب فقرعهما وأمر

بالقبض عليهما فقبض أعوان الودايا على أخيهم وقبض أعوان العبيد على أخيهم وخرجوا بهما الى السجن مع العشى وكان الطاهر بن مسعود قد ترصد بباب دار السلطان للحاج محمد بن الطاهر ليفتكه وصاحبه فلما خرجا قام الطاهر بن مسعود الى الأعوان فراودهم على اطلاق المسجونين فأبوا وقالوا انهما مسجونان عن أمر السلطان فتصام عن ذلك واستل خنجره وضرب ادريس البواب الودي على ترقوته فخدشه وانتزع منه المسجون وتقدم لافتكاك أحمد بن المحجوب فأبى وانتهره وقال لا أخالف أمر السلطان وكان الودايا يظنون قيام العبيد معهم لحلفهم السابق فخذل الله فيما بينهم ثم أسرع الطاهر وابن الطاهر الى فرسيهما فركباهما ونجوا الى ناحية دار الدبيغ وثارت المغافرة بباب دار السلطان وحملوا السلاح وأخرجوا البارود والرصاص وقامت شيعة السلطان لمدافعتهم فكثرهم الودايا وهزموهم حتى أغلقوا عليهم باب المشور وسأل السلطان عن الهيعة فأعلم بالخبر وكان معه الحسن بن حمو واعزيز فقال له يامولانا ان هؤلاء ماجسروا على هذا الفعل ببابك حتى عزموا على ماهو أكثر فدعا السلطان بفرسه وركبه مع الغروب وخرج من باب الجياة ومعه ابن واعزيز وبعض أصحابه خيلا ورجلا ولما علم الودايا بخروج السلطان ركبوا بقضهم وقضيضهم من فاس الجديد ومن قصبة شراقة فادركوا السلطان عند قنطرة عباد فنزلوا الى الارض يقبلون حوافر فرسه ويتشفعون له ويتبرؤن من فعل أولئك السفهاء وكان الحال اذ ذاك حال مطر خفيف والشمس قد غربت أوكادت تغرب فساعدهم رحمه الله على الرجوع وأشار عليه الحاج محمد بن فرحون بان يذهب معه الى قصبة شراقة وكانت يومئذ لاهل السوس فذهب معه الى داره من غير أن يطمئن اليه ولكن ذلك الذى اقتضاه الحال فى تلك الساعة ولما استقر بدار ابن فرحون اجتمع عليه المغافرة والودايا وأهل السوس وأساء عليه المغافرة الادب بل عزموا على الفتك به ولكن الله تعالى وقاه شرهم فاختلفت كلمتهم وتدامر أهل السوس فيما بينهم وقالوا لايبيتن السلطان الليلة الابداره واستنهضوه فنهض رحمه الله وركب فرسه وصحبوه الى داره فى ذلك الليل فاستقر بها وبعد ذلك بايام انتقل السلطان الى بستان أبى الجلود خارج فاس الجديد على حين غفلة من الودايا وانحاز شيعة السلطان اليه من العبيد وغيرهم ونزل جلهم بفاس القديم وبقى الودايا وحدهم بفاس الجديد ثم استدعى السلطان عبيد مكناسة فقدموا عليه ولما علم الودايا بعزم السلطان على الخروج من بين أظهرهم ساءهم ذلك وعلموا أنه ان خرج من بين أظهرهم لا يتركهم حتى يوقع بهم فراودوه على المقام وتنصلوا وأظهروا التوبة وتقدم سفهاؤهم الى العبيد فانشبوا معهم الحرب وهلك من الفريقين عدد ثم تدارك السلطان أمرهم وتلطف وطيب أنفسهم وأجمع على الخروج الى مكناسة فخرج بثقله وأثاثه وأمواله وسلك طريق قبقب وعقبة المساجين كأنه يريد بلاد الغرب وخرج لتشييعه جماعة وافرة من أعيان الودايا ثم انهم ندموا ونكسوا على رؤسهم وربما سمعوا من العبيد بعض كلام فحميت أنوفهم وتحزبوا وأوقعوا بالعبيد فانهزموا عن السلطان وانتهب الودايا ذخيرته وأثاثه وقام عقلاؤهم دون العيال حتى ردوه الى الدار محفوظا مصونا ولم يفعلوا أحسن منها وأما المال والاثاث فقد أتى عليه النهب وكان شيأ كثيرا وتقدم السلطان رحمه الله لطيته وتبعه سفيه من سفهاء الودايا كان أراد الفتك فيه فحماه الله منه ووصل السلطان رحمه الله الى مكناسة فاستقر بها واتصل خبر هذه الفتنة بالقائد ادريس بن حمان الجرارى وهو مسجون بتازا فاحتال على سراح نفسه بان افتعل كتابا على لسان السلطان وبعث به الى عامل تازا فسرحه وكان السلطان رحمه الله قد بعث الى القائد ادريس المذكور وهو بتلمسان أربع ورقات مختوما عليها بالخاتم السلطانى الكبير وأمره السلطان رحمه الله أن يحتفظ بتلك الورقات ولا يستعمل واحدة منهن الا فى أهم المهمات مما يتوقف عليه غرض السلطان والدولة ولا تمكن مشاورته فيه لبعد المسافة بين فاس وتلمسان فعمد القائد ادريس الى واحدة من تلك الورقات فكتب فيها بتسريحه

فسرّح وجاء يجد السير الى فاس و بنفس وصوله كتب الى السلطان يعلمه بما صنع وأنه لازال على ما يعهد
مولانا من بذل النصح والسعي في صلاح السلطان والجيش فاجابه السلطان رحمه الله بما نصه وبعد
فقد وصلنا كتابك وعرفنا ما فيه والحمد لله على سلامتك وما وجهناك الا بقصد أن نسرّحك لاننا تحققنا
أنك كنت مغلوبا عليك فلا عهدة عليك بل من تمام عقلك مساعدتك لمن نهب ولو منعتهم من ذلك
لتفاقم الامر هنالك وأنت عليك الامان ظاهرا و باطنا في الحال والاستقبال فلا تخش من شئ أبدا فانك
ممن نتهمه بالدين والعقل والصدق وقد عاينت وسمعت ما صدر من أخوالنا من النزغة الشيطانية
ولا ينبغي أن نقابلهم بمثل ما قابلنا به من لا عقل له منهم وان قابلناهم به لا نلتقي أبدا وأنت اسع في الخير
والصلاح ما أمكنك وتحمل لهم عنا بالامن من كل ما يخافونه من جانبنا لجسارتهم أولى من صلاح
القبائل فقف على ساق الجدلان يهدي الله بك رجلا واحدا خير لك مما طلعت عليه الشمس والسلام في
السابع عشر من المحرم فاتح عام سبعة وأربعين ومائتين وألف انتهى لفظ الكتاب الشريف ثم ان القائد
ادريس أحسن القيام على عيال السلطان الذين بقوا بفاس الجديد وكان فيهم حظيته المولاة فاطمة بنت
المولى سليمان وتقدم القائد ادريس الى أمين الصائر من قبل وقال له ما كنت تدفع الى دار السلطان
كل يوم من دقيق ولحم وادام وغير ذلك فاكتب لي بقدره وابعث الي به فأحصاه الامين المذكور و بعث
اليه به فصار يبعث بذلك القدر الى دار السلطان كل يوم وانقطع الماء ذات يوم عن دار السلطان فكان
القائد ادريس يحمل قرب الماء اليها كل يوم وأصلح القنوات وجد في ذلك حتى رجع الماء الى مجراه
ثم ان السلطان رحمه الله استنفر قبائل المغرب كلها حوزا وغربا وثغورا فقدموا امكاسة على بكرة أبيهم
وسمع الودايا بذلك فاستدعوا الشريف سيدي محمد بن الطيب من بعض الاعمال والتفوا عليه وبايعوه
فحينئذ تبرّأت منهم القبائل التي كانت تعدهم بالقيام معهم من مجاوريهم لان سيدي محمد بن الطيب
كانت قبائل المغرب قد تناذرته منذ أيام ولايته على تامسنا ودكالة وفعله باهلها الافاعيل فكان مبغضا
عند العامة وزحف السلطان الى فاس الجديد فحاصرهم بها ونصب عليهم المدافع والمهاريس وتعاقب
عليهم الرمي بها من محلة السلطان بعين قادوس ومن بستيون أبي الجلود وبستيون باب الجيسة و بستيون
باب الفتوح ودام الحصار أربعين يوما والحرب لا تنقطع في كل وقت وكان الودايا يرمون أيضا بالكور
والبنب وأبلى بنو حسن في تلك الايام البلاء الحسن ثم ان السلطان عزم على البناء عليهم وجلب
اللواحين فشرعوا في العمل وسئم الودايا الحرب وملوها فأذعنوا الى الصلح وسعى في الوساطة بينهم وبين
السلطان الامين الحاج الطالب بن جلون الفاسي فأمنهم السلطان على شرط الخروج من فاس الجديد
فأذعنوا ثم بعثوا اشفاعاتهم بالمشايخ والصبيان والالواح على رؤسها ومعهم سلطانهم ابن الطيب فسامح
رحمه الله الجميع وقال لهم في جملة ما قال الحمد لله اذ لم أغلبكم ولم تغلبوني لاني لو غلبتكم لذبحت هذه الجيوش
أولادكم ولم أقدر أن أردها عنكم ولو غلبتموني لفعلتم كل ما تقدرون عليه فهذا من لطف الله بي وبكم
﴿قلت﴾ وهذا كلام دال على وفور عقل السلطان رحمه الله وكمال شفقته ورحمته ثم لما عزم السلطان
على النهوض الى مكناسة ولى على جيش الودايا كله القائد ادريس بن حمان الجراري وذلك في الحادي
والعشرين من جمادى الثانية سنة سبع وأربعين ومائتين وألف ثم نهض الى مكناسة فاحتل بها
ولما حضر عيد الفطر قدمت الوفود على السلطان بمكناسة واستقامت الاحوال وكتب رحمه الله الى
القائد ادريس أن يحضر العيد في جماعة وافرة من اخوانه نحو الخمسمائة فحضر وادخلوا على السلطان
ذات عشية بالمشور فوبخهم حتى ظن الناس أنه يقبض عليهم ثم سرّحهم فعادوا الى فاس الجديد
ولما عزم السلطان رحمه الله على النهوض الى مراكش قدم أولا فاسا ونزل خارج البلد ونظر في شأنه
وشأن الجيش والرعية ثم ارتحل يريد مراكش فلما انفصل عن فاس بيوم أو يومين كتب الى القائد

ادريس يأمره أن يبعث اليه بالطاهر بن مسعود والحاج محمد بن الطاهر يذهبان معه الى مراكش
بقصد الخدمة بجامع ولده وخليفته سيدى محمد بن عبد الرحمن فذهبا على فرسيهما مسرحين الا أنهما
كانا حذرين من السلطان لما قدما من الفعل الشنيع الذى كان سبب هذه الفتنة العظيمة فقدما
مراكش وترتبا فى الخدمة مع الخليفة المذكور وانسلخت هذه السنة وفيها عزل السلطان وزيره
الفقيه أبا عبد الله محمد بن ادريس وامتحنه وبقى عاطلا مدة ثم رده الى خطته وكان السلطان فى مدة
تأخيره اياه قد استوزر مكانه الفقيه العلامة الاديب السيد المختار بن عبد الملك الجامعى فقام بأعباء
الخطة وبرز فيها رحمه الله وفيها بنى السلطان رحمه الله المارستان الكبير على ضريح ولى الله تعالى أبى
العباس أحمد بن عاشر بسلا وكان على ضريح الولى المذكور القبة والمسجد فقط فأدار السلطان رحمه الله
على ذلك كله مارستانا كبيرا وبنى به مسجدا آخر وبيوتا للمرضى تنيف على العشرين وأجرى اليه الماء
وجعل ميضاة بازاء المسجد للرجال وأخرى شرقيها للنساء فجاء ذلك من أحسن الاعمال وكتب الله أجره فى
صحيفة السلطان ﴿ثم دخلت سنة ثمان وأربعين ومائتين وألف﴾ ففى صفر منها ورد على القائد ادريس
كتاب من عند السلطان وهو يومئذ لا زال برباط الفتح يأمره أن يبعث اليه بالحاج محمد بن فرحون
الجرارى فوصل اليه مسرحا فقبض عليه وبعثه الى الصويرة وبأثر ذلك ورد على السلطان كتاب من عند
ولده سيدى محمد يعلمه بأنه قبض على الطاهر بن مسعود والحاج محمد بن الطاهر لكونهما لم يقلعا عن
ضلالهما وشيطنتهما حتى انهما عزما على اغتياله بمصلى عيد الاضحى من السنة الفارطة فحماه الله منهما
ولما وصل السلطان الى مراكش صار يكتب الى القائد ادريس برؤس الفتنة والقبض عليهم واحدا
بعد واحد الى ان استوفى جلهم وكان القائد ادريس فى هذه المدة قد أحس بأن باطن السلطان لا زال
متغيرا على الوداية فألح عليه فى البحث والاستكشاف عما هو مضمره لهم وما بيدهم وما الذى يجلب رضاه
عنهم ويصفى باطنه عليهم فكتب اليه السلطان رحمه الله كتابا أفصح فيه عن مراده يقول فيه بعد
الافتتاح والطابع الشريف بينه وبين الخطاب ما نصه خالنا الارضى القائد ادريس الجرارى سلام
عليك ورحمة الله تعالى وبعد فاعلم بأنك طلبت منا مشافهة وكتابة أن نعرب لك عن مرادنا ونطالعك
بغاية قصدنا وأمنيتنا فى الجيش وما يجلب رضانا عنهم وكنا نجيبك عن ذلك جوابا اقناعيا العدم وثوقنا وتشتد
بصدق لهجتك وكان يخيل لنا أنك تباحثنا على جهة الاطلاع على خبيئة أمرنا والآن اتضح ما أنت عليه
من الصدق ووفور المحبة وخلوص النية حتى صرت به كأحد أولادنا

وليس يصح فى الاذهان شئ * اذا احتاج النهار الى دليل

وعليه فأنت أولى من نبثه سرنا ولا ندخر عنه شيأ من دخيلة أمرنا فاعلم أرشدك الله أن من بارزنا
بالسوء قولا وفعلا من ذلك الجيش هم المغافرة كافة واستوى فى ذلك كبيرهم وصغيرهم قويهم
وضعيفهم ولم يلف منهم رجل رشيد ولو ساعدهم الوداية وأهل السوس وخلوا بينهم وبين هواهم
لكان ما أرادوه من تلف مهجتنا ولكن الله سلم ولا يخفى على أحد ما استوجبوه لذلك شرعا وطبعا
ولسالف خدمتهم وكظم الغيظ المرغب فيه ارتكبنا فى جانبهم أخف ما أوجبه الله تعالى على أمثالهم
قال جل علاه انما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الارض فسادا الآية وقد آليت على
نفسى وأشهدت الله وملائكته أن لا يضمنى سور رفاس الجديد والمغافرة به فهذا هو محض الصدق والآن
بين لنا كيف يكون العمل فى ذلك وما نقدم وما نؤخر لان المراد قضاء الغرض من غير مشقة ولا فضيحة
للجيش وهل تقتضى هذا أو تكتمه وعلى تقدير امتثالهم عين لنا أى محل ينتقلون اليه من ثغور ايالتنا
كالرباط وغيره أو قصبة مراكش فان النفس لم تسمح بهم بالكلية بل المراد زجرهم واقامة بعض حق
الله فيهم ويحصل لنا الاطمئنان والسكينة ونبرئ قسمنا فالمؤمن لا يلدغ من جحر مرتين وما ذكرت

من

من اناعاهدناك ووعدناك بالاحسان والتنويه بشأنك فانه وعد صدق لا مرية فيه ان شاء الله وكيف وقد استوجبت منا كل جميل وقدملك لمعالى الامور عقلك وصدقك ولو ألفينا فى الجيش مثلك لضمنا عليه البراجم والرواجب وفعلنا فى جانبه ماهو الواجب وقد اقتصرت حيث طلبت أن تكون بمنزلة القائد قدور بن الخضر عند سيدى الكبير رحمهما الله فانت عندنا بمنزلة أعظم من منزلته واليد التى اتخذت عندنا أعظم وأجل مما اتخذه عند سيدى الكبير قدس الله سره فقد جازاه على الصدق فقط أما أنت فقد شاركته فى هذه المرتبة وفقته بما هو أعظم وهو احسانك لعيالنا وأولادنا ولولا أنت لهلكوا جوعا فلا يكفر هذه الصنيعة الا لئيم وحاشانا الله من ذلك فطب نفسا وقر عينا فالك عندنا من المكانة والحظوة ما لو اطلعت على حقيقته لطربت سرورا ونشاطا وسترى اذا انجلى الغبار ولا زال أهلنا يتذكرون احسانك اليهم بحضرتنا ويلتمسون لك الدعاء الصالح من جانبنا وفى الحديث ما معناه أن امرأة من بنى اسرائيل أبصرت كلبا يلعق الحمئة من شدة العطش فسقته فغفر الله لها فكيف بمن أسدى معروفا لجماعة انقطع رجاؤهم الا من الله والله لن يخزيك الله أبدا والسلام فى ثامن عشر رمضان المعظم عام ثمانية وأربعين ومائتين وألف اه نص الكتاب ثم ان الله تعالى هيأ للسلطان أمره فى الوداية وألهمه رشده فيهم فامر أولا بنقل رحى المغافرة الى قصبة الشرادى من أعمال مراكش وظن الناس أنه يقتصر على ذلك لانه رحمه الله لم يكن يظهر الا أنه يريد نقل المغافرة فقط ثم نقل رحى الوداية الى العرائش وأحوازها ثم ردهم الى جبل سلمات ثم بعد ذلك بمدة يسيرة نقل رحى أهل السوس الى رباط الفتح فانزل حلتهم بالمنصورية على شاطئ وادى التفيفيخ وقوادهم ووجوههم بقصبة رباط الفتح ثم رد الحلة بعد مضى ست سنين الى قصبة تمارة قرب رباط الفتح وكانت منلاشية فامر السلطان بعد سنتين أو ثلاث بترميمها واصلاحها وكان رحمه الله قد أسقط هذا الجند الودى من الجندية وأعرض عنه بالكلية سنين ثم استردهم فى حدود الستين كما سيأتى ولما أخلى السلطان فاسا الجديد من جيش الوداية أسره وكان بمراكش بعث بالطاهر بن مسعود وبالحاج محمد بن الطاهر فسجنا به مدة ثم قدمت عريفة الدار الحاجة زوبيدة بكتاب من عند السلطان على ولده سيدى محمد بفاس يتضمن الامر بقتل الطاهر وابن الطاهر بالمحل الذى اقتك فيه الاول الثانى فاخرجا الى المحل المذكور وحضر الوصيف القائد فرجى وقدم الطاهر ابن مسعود فاخرجت فيه عمارة وحز رأسه ثم قدم الحاج محمد بن الطاهر ففعل به مثل صاحبه فيقال انه زهقت نفسه قبل القتل لانه لم يسل منه دم وأما الطاهر بن مسعود فسال منه دم كثير وأمر سيدى محمد ولد السلطان بمواراته فوورى وأما ابن الطاهر فانه رمى على المزبلة ووكل به الحرس الى ان أكلته الكلاب ولم يبق الا رجلاه بالقيد وكان ذلك فى حدود خمسين ومائتين وألف وأما ابن فرحون وأصحابه فانهم استمروا فى سجن الجزيرة الى ان هلكوا ﴿واعلم﴾ أن هذه الوقعة الهائلة دالة على كمال عقل السلطان ووفور حلمه وفضله حتى انه ماعامل هؤلاء القوم الذين آذوه أشد الاذاية الا ببعض البعض مما استوجبوه كما قال وكما رأيت وعلمت ونسأله سبحانه وتعالى أن يتغمدنا والمسلمين برحمته ويقينا واياهم مصارع السوء وينيلنا الأمن فى الدنيا والفوز فى الآخرة بجنته انه على ذلك قدير وبالاجابة جدير

﴿ظهور الحاج عبد القادر بن محيى الدين المختارى بالمغرب الاوسط وبعض أخباره﴾

لما رجع جيش السلطان من تلمسان مع المولى على بن سليمان حسبما مر بقى أهل تلمسان فوضى ورجعت الحرب بين الحضر من أهلها والكرغلية جذعة وهاجت الفتن بين قبائل العرب الذين هنالك واختلط الحابل بالنابل وكان الفقيه المرابط محيى الدين عبد القادر المختارى نسبة الى أحد أجداده المشهورين بتلك الناحية نازلا وسط حلة الحشم عند المشاشيل منهم وكان متظاهرا بالخير وتدريس العلم واتخذ زاوية لطلبة العلم وقراء القرآن فاشتهر عند أولئك القبائل واعتقدوه فلما ادهم العدو أهل تلك البلاد

وجاشت فيما بينهم الفتن اجتمع الحشم وبعض بني عامر وتفاوضوا فيما نزل بهم فأجمع رأيهم على بيعة الشيخ محيي الدين المذكور وفذهبوا اليه وعرضوا عليه ما في أنفسهم فتجافى عن منصب الرياسة وأظهر الورع واعتذر بانه قد شاخ وذهب منه الاطيبان وانما هو هامة اليوم أوغد فسد كوابه وتطارحوا عليه فأشار عليهم بولده الحاج عبد القادر بن محيي الدين وكان له يومئذ عدة أولاد وليس الحاج عبد القادر أكبرهم ولا أعلمهم ولا أصلحهم وانما كان فيه مضاء واقدام فاستعفوه بشرط أن يكون نظره منصبا عليه ومشيرا بما تدعو الضرورة اليه ولما تم أمر الحاج عبد القادر جمع كتيبة من بني عامر والحشم وزحف الى وهران وكانت يومئذ في ملكة النصارى قد استولوا عليها منذ ستة أشهر أو سبعة فأوقع بهم وقعة شنعاء قتل فيها وأسر وأبلغ في النكاية ورجع مظفرا منصورا فتيمنوا به وأحبوه وتمكن منهم ناموسه واتخذ عسكرا من الحشم وبني عامر لا بأس به ولما سمع به أهل تلمسان وهم أحوج ما كانوا الى من يقوم بامرهم وفدوا عليه وأخبروه بما كان منهم من مبايعة السلطان المولى عبد الرحمن صاحب مراكش وفاس وانهم يبايعونه على بيعته والاعلان بدعوته فأجابهم الحاج عبد القادر الى ذلك وأخذ عليهم البيعة وأظهر الطاعة والانقياد للسلطان المولى عبد الرحمن وخطب به على منابر تلمسان وغيرها وولى على تلمسان وأعمالها وزيره أبا عبد الله محمد البوحميدي الولهاصي وكتب الى السلطان يعلمه بانه بعض خدمه وقائد من قواد جنده واستقام أمر الحاج عبد القادر وثبتت قدمه في تلك الايالة التلمسانية ثم ان قبيلتي الزمالة والدوائر الذين قدمنا ذكرهم انحرفوا عن الحاج عبد القادر لاسباب منها انهم كانوا معادين للحشم ولما قرب الحاج عبد القادر الحشم وجعلهم جنده ازدادت عداوتهم ونفرتهم عن الحاج عبد القادر وساروا الى وهران وأعلنوا بدعوة الفرنسيس فقبلهم وحماهم وحدثت بينه وبين الحاج عبد القادر بسببهم حروب صعبة ﴿حدثني﴾ الامين السيد الحاج عبد الكريم ابن الحاج أحمد الرزيني التطاوني قال ذهبت سنة سبع وأربعين ومائتين وألف الى مدينة وهران بقصد التجارة بها وذلك عقب استيلاء الفرنسيس عليها قال وكنت يومئذ في سن الشباب حين بقل عذاري فأقمت بها مدة وكان الحاج عبد القادر بن محيي الدين اذ ذاك مهادنا للكبير الفرنسيس بوهران والجزائر قد أنزل كل واحد منهما ببلد الآخر قنصله وتجاره على العادة في ذلك أيام الهدنة فلما كان ذات يوم ورد الخبر بان قبيلتي الزمالة والدوائر من ايالة الحاج عبد القادر وهم نحو ألفي كانون قد فروا منه ونزلوا حول مدينة وهران مستجيرين بالفرنسيس وقد رفعوا سنجقه وأعلنوا بانهم تحت حكمه ومن جملة رعيته فبعث اليهم الفرنسيس يعلمهم بانه قد قبلهم ولا يصيبهم مكروه فلما كان من الغد بعث الحاج عبد القادر مع كبير دولته الحاج الحبيب ولد المهر المعسكري كتابا الى الفرنسيس يقول فيه انك قد علمت ان هؤلاء القوم الذين فروا اليك هم رعيتي ومن ايالتي وعليه فلا بد أن تردهم علي والا فالحرب بيني وبينك فامتنع الفرنسيس من ردهم وأجاب الى الحرب واتفقوا أن يخرج كل منهما الى الآخر تجاره الذين في أرضه وان من بقي منهم بعد ثلاث فهو هدر واتفقوا أيضا على أن يكون القنصلان آخر من يخرج وأن يكون خروجهما في ساعة معلومة من الليل بحيث يلتقيان على الحدة التي بين أرض المسلمين وأرض النصارى ففعلوا وخلص كل الى مأمنه ولما انقضى الاجل تزاحفوا للقتال في يوم معلوم فكانت بينهم حرب يشيب لها الوليد ولما كان عشي النهار سمع الناس من داخل البلد ضوضاء وجلبة عظيمة وبارودا كثيرا واذا بالحاج عبد القادر قد هزم الكفار هزيمة شنعاء حتى ألجأهم الى سور البلد وازدحموا على أبوابه وركب بعضهم بعضا وجاءت خيالتهم من خلفهم فركبوهم أيضا ومشوا عليهم ورفسوهم بخيلهم فهلك بهذا الازدحام من الفرنسيس نحو أربعة آلاف بله الذين هلكوا خارج البلد بالكور والرصاص والتوافل والرماح واستولى المسلمون على معسكر النصارى بما فيه من مدافع وعجلات وفساطيط وأخبية وأثاث وكانت فتكة بكرا قال الحاج عبد الكريم

المذكور

المذكور وكنت في تلك المدة مساكنا لبعض كبراء عسكر الفرنسيس في دار واحدة فلما انقضت الوقعة بيوم أو يومين سألته كم تراه يكون هلك من عسكر الفرنسيس في هذه الوقعة قال أقرب لك أم أبعد قلت بل قرب قال أنا كبير من كبراء العسكر وتحت نظري ثمان عشرة مائة بقي منها في هذه الوقعة ثمانية عشر عسكريا انتهى كلام هذا المخبر ﴿ثم ان الزمالة والدوائر﴾ لجوا في موالاة الفرنسيس وأحكموا أمرهم معه وولوا عليهم رجلا منهم يقال له المصطفى بن اسمعيل كان هو السبب الاكبر في تملك الفرنسيس بلاد المغرب الاوسط وجل الحروب التي كانت تكون بين المسلمين والنصارى في تلك المدة على يده الى أن قتل منتصف سنة تسع وخمسين ومائتين وألف ضاعف الله عليه غضبه ونقمته ولما اتصل بالسلطان المولى عبد الرحمن رحمه الله ما عليه الحاج عبد القادر من جهاد عدو الدين وحماية بيضة المسلمين أعجبه حاله وحسنت منزلته عنده لانه رأى أنه قد قام بنصرة الاسلام على حين لا ناصر له فصار السلطان رحمه الله يمده بالخيل والسلاح والمال المرة بعد المرة على يد الامين الحاج الطالب بن جلون الفاسي وغيره وطالت الحرب بينه وبين الفرنسيس واستولى الفرنسيس في بعض الكرات على تلمسان وضايقه الحاج عبد القادر فيها حتى أخرجه منها ثم استردها الفرنسيس بعد معارك شديدة ومواقف صعبة الا أن ضرر الحاج عبد القادر للفرنسيس كان مقصورا على قتل النفوس واستلاب الاموال وأما الفرنسيس فكان ضرره بالمسلمين عائدا على تملك بلادهم وتنقصها من أطرافها ودام ذلك مدة من ست عشرة سنة ﴿وبالجملة﴾ فلقد كان الحاج عبد القادر هذا في أول أمره على ما ينبغي من المثابرة على الجهاد والدرء في نحر العدو ولولا انه انعكس حاله في آخر الامر وخلصت الارض للفرنسيس والله غالب على أمره ﴿وفي سنة خمسين ومائتين وألف﴾ ولد مؤلف هذا الكتاب أحمد بن خالد الناصري السلاوي أخبرتني والدتي الست فاطمة بنت الفقيه السيد محمد بن محمد بن قاسم بن زروق الحسني الادريسي الجباري أني ولدت بعد طلوع الفجر صبيحة يوم السبت الثاني والعشرين من ذي الحجة من السنة المذكورة ﴿وفي محرم فاتح سنة احدى وخمسين ومائتين وألف﴾ توفي الوزير الشهير السيد المختار بن عبد الملك الجامعي بمراكش واستوزر السلطان بعده الفقيه أبا عبد الله محمد بن علي الحاجي النكاتي مدة يسيرة ثم أخره وردّ وزيره الاقدم أبا عبد الله محمد بن ادريس رحم الله الجميع * وفي هذه السنة كان الوباء بالمغرب بالاسهال والقيء وغور العينين وبرودة الاطراف ﴿وفي سنة اثنتين وخمسين ومائتين وألف﴾ ورد سؤال من عند الحاج عبد القادر بن محيي الدين الى علماء فاس يقول فيه ما نصه الحمد لله سادتنا الاعلام أئمة الهدى ومصابيح الظلام فقهاء الحضرة الادريسية ومرمى المطالب ومحط الرحال العديسة أطباء أدواء الدين ومحققين حقه ومبطلين باطله ومنتخبين قضاياه المتحيلة عقيمة وباطله جوابكم أبقاكم الله فيما عظم به الخطب واشتد به الكرب بوطن الجزائر الذي صار لغربال الكفر جزائر وذلك ان العدو الكافر يحاول ملك المسلمين مع استرقاقهم بالسيف وتارة بحيل سياسته ومن المسلمين من يداخلهم ويبايعهم ويجلب الخيل اليهم ولا يخلو من دلالتهم على عورات المسلمين ويطالعهم ومن أحياء العرب المجاورين لهم من يفعل ذلك ويتمالؤون على الجحود والانكار فاذا طولبوا بتعيينه جحدوا والحال انهم يعلمون منهم الاعين والآثار فما حكم الله في الفريقين في أنفسهم وأموالهم فهل لهم من عقاب أم يتركون على حالهم وما الحكم فيمن يتخلف عن المدافعة عن الحريم والاولاد اذا استنفره نائب الامام للدفاع والجلاد فهل يعاقبون وكيف عقابهم ولا يتأتى بغير قتالهم وهل تؤخذ أموالهم وأسلابهم وكيف العمل فيمن يمنع الزكاة أو يمنع بعضها مع التحقق بعمارة ذمته في الحال فهل يصدق مع قلة الدين في هذا الزمان أم يكون للاجتهاد فيه مجال ومن أين يرزق الجيش المدافع عن المسلمين الساد ثغورهم عن المغيرين ولا بيت مال وما يجمع من الزكاة لا يفي بشبعهم فضلا عن كسوتهم وسلاحهم وخيلهم ومؤنتهم ونفقتهم فهل تترك فيستبيح الكافر الوطن أم

ولادة مؤلف هذا الكتاب حفظه الله

يكون ما يلزمهم على جماعة المسلمين واذا كان فهل على العموم أم على الاغنياء فقط ولا يمكن اختصاص الاغنياء لجفوة الاعراب وجهلهم وهل يعد مانع المعونة باغيا أم لا وما حكم أموال البغاة وهل القول بعدم ردها يجوز العمل به أم لا أجيبوا عما ذكرنا وعما يناسب المقام والحال عما لم يحضرنا داووا علنا أبقاكم الله فقد ضاق من هذه الامور والذرع وكاد القائم بأمر المسلمين لضيق الاسباب أن يتخلى عن الامر ويطرح ثوب الامارة والدرع مأجورين والسلام في تاسع عشر من ذي الحجة من السنة المذكورة صدره عن اذن الحاج عبد القادر بن محيي الدين لطف الله به ﴿وقد أجاب عن هذا السؤال﴾ باشارة السلطان الفقيه العلامة أبو الحسن علي بن عبد السلام مديدش التسولي بجواب طويل يشتمل على خمس كراريس وزيادة وهو موجود بأيدي الناس ولاجل ما كان يصل من هذه الامور من جانب الحاج عبد القادر كان السلطان رحمه الله يبذل مجهوده في امداده بالخيل والسلاح والمال وغير ذلك ثم لم يكن الا ما أراده الله ﴿وفي سنة ثلاث وخمسين ومائتين وألف﴾ بعد ظهر يوم السبت العشرين من ربيع الاول منها توفي الفقيه العلامة المتفنن المحدث أبو العباس أحمد ابن الحاج المكي السدراتي السلاوي ودفن صبيحة يوم الاحد في الجبانة التي قرب ضريح ولي الله تعالى سيدي الحاج أحمد بن عاشر وشهد جنازته خلق كثير وأمّهم الفقيه العلامة القاضي أبو عبد الله محمد الهاشمي طوبي وللفقيه أبي العباس المذكور شرح حفيل على موطأ الامام مالك رضي الله عنه وهو موجود بأيدي الناس ﴿وفي سنة أربع وخمسين بعدها﴾ وذلك صبيحة يوم الجمعة السادس والعشرين من رمضان منها توفي الفقيه العلامة القاضي أبو عبد الله طوبي المذكور آنفا وكان رحمه الله من قضاة العدل وأهل العلم بالنوازل والاحكام محمود السيرة ذا سكينة ووقار ﴿وفي سنة ست وخمسين ومائتين وألف﴾ وذلك في سابع جمادى الاولى منها كمل بناء المنار بالمسجد الاعظم من سلا وكان المنار الذي قبله قد أصابته صاعقة تداعت لها أركانه فأمر السلطان رحمه الله بنقضه واعادته جديدا فأعيد على هيئة متقنة أحسن مما كان وأعظم وصير عليه بواسطة أمناء مرسى العدوتين ثلاثة آلاف مثقال وأربعمائة مثقال وأربعة وعشرون مثقالا وست أواق وثلث الاوقية والريال الكبير يومئذ من سعر ست عشرة أوقية وكان جل الصائر من بيت المال وأقله من مال الحبس وكان الذي يتولى النظارة يومئذ والقيام على البناء عامل سلا الابر الاخير السيد الحاج أحمد بن محمد بن الهاشمي عواد ﴿وفي سنة ثمان وخمسين ومائتين وألف﴾ توفي الفقيه العلامة المحقق البارع أبو الحسن علي بن عبد السلام التسولي المدعو مديدش صاحب الشرح الكبير على تحفة ابن عاصم في الاحكام وشرح الشامل وحاشية الزقاقية وغير ذلك من التآليف الحسان رحمه الله ونفعنا به ﴿وفي منتصف سنة تسع وخمسين ومائتين وألف﴾ غزا السلطان المولى عبد الرحمن رحمه الله قبيلة زمور الشلح وكانوا قد تجاوزوا الحد في الافساد واخافة العباد والبلاد فأوقع بهم وقعة شنعاء كسرت من حدهم وفلت من غربهم وكتب السلطان رحمه الله في ذلك الى ولده وخليفته سيدي محمد كتابا من انشاء وزيره أبي عبد الله بن ادريس يقول فيه ما نصه ولدنا الارضى الابر الارشد سيدي محمد أصلحك الله وسلام عليك ورحمة الله تعالى وبركاته وبعد فقد كنا أردنا الابقاء على قبيلة زمور رحمة واشفاقا وحملهم على الاستقامة بالارهاب من الشدة في بعض الامور هداية وارفاقا فلم يرد الله بهم خيرا لفساد نيتهم وخبث طويتهم واتكالهم على حولهم وقوتهم فما رأوا منا لينا وسدادا الا ازدادوا شدة وفسادا ولا أظهرنا لهم عظة وارشادا الا أظهروا تطاولا وعنادا وما أخرنا المحلة المنصورة عن الركوب اليهم ابقاء والفا الا ظنوا ذلك عجزا وضعفا قد طمس الاعجاب منهم بصرا وسمعا ولم يروا أن الله قد أهلك من قبلهم من القرون من هو أشد منهم قوة وأكثر جمعا

اذا أنت أكرمت الكريم ملكته * وان أنت أكرمت اللئيم تمردا

ووضع الندا في موضع السيف بالعلى * مضر كوضع السيف في موضع الندا

فلما رأينا لجاجهم في عماهم وعدم رجوعهم عن هواهم وانهم لم يعتبروا بجلائهم عن بلادهم ولا بما أصابهم من الفتنة في أنفسهم وأولادهم ولم يراعوا ما نهب من زروعهم القائم والحصيد ولا ما استخرج من مخزونهم الكثير العتيد رأينا قتالهم شرعا وجهادهم ذبا عن الدين ودفعا فاعتمدنا على حول الله وقوته وأمرنا بالزيادة عليهم في الاخذ والتضييق والمبالغة في النهب والتحريق وتركهم محصورين في أوعارهم ومقهورين في أوكارهم اذرب مطاولة أبلغ من مصاولة فتوالت عليهم الغارات وتتابعت عليهم النكبات لا يجدون الى الراحة سبيلا أينما ثقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلا ففي كل يوم تثمر العوالي رؤس رؤسائهم وتختطف أيدي المنايا أهل بأسائهم وكلما زادوهم اقداما وطلبا ازدادوا توغلا في الجبال وهربا حتى نهكتهم الحروب وضرستهم موالاة الطعن والضرب وضاع بالحصار الكسب والمال ولحق الضرر الاولاد والعيال فجعلوا يرحلون لقبائل جوارهم طالبين خفهم وجوارهم وبلغ البؤس فيهم غايته وأظهر الله فيهم آيته وهم في خلال هذا كل حين يتشفعون ويتذللون في قبول توبتهم ويتضرعون ونحن نظهر لهم التمنع والاباية لنبني أمرهم على أساس الجد ونجازيهم على ما ارتكبوه من خلف الوعد فلما أنجزت انقهرية فيهم وعدها وبلغت العقوبة فيهم حدها قابلنا اساءتهم بالاحسان وراعينا فيهم وجه المساكين والنساء والصبيان فولينا عليهم منهم ثلاثة عمال ووظفنا عليهم خمسين ألف مثقال وشرطنا عليهم تقويم مائتين من الحراك مثل قبائل الطاعه والتزام الصلاح والخدمة جهد الاستطاعه فقاموا بذلك أحسن قيام وأعطوا الرهاين في أداء المال بعد أيام وكان أخذهم بعد تقديم الاعذار وتكرير الانذار وعفونا عنهم عفو غلب واقتدار ورب عقاب أنتج حسن طاعه وتوبة نصوح تداركت ما سلف من التفريط والاضاعه وفي الناس من لا يصلح الا مع التشديد وربك يخلق ما يشاء ويفعل ما يريد

وما عن رضى منها عطية أسلمت * ولكنها قد قادها للهدى القهر
أردنا بها الابقاء فازداد عجبها * وأدبها التشديد والفتك والاسر

ولو قيدوا النعمة بالشكر لأمنوا الزوال واذا أراد الله بقوم سوأ فلا مرد له وما لهم من دونه من وال والسلام في فاتح رجب الفرد الحرام عام تسعة وخمسين ومائتين وألف اهـ نص الكتاب الشريف

﴿انتقاض الهدنة مع الفرنسيس وتمحيص المسلمين بايسلي قرب وجدة والسبب في ذلك﴾

كانت الهدنة معقودة بين هذه الدولة الشريفة وبين جنس الفرنسيس من لدن دولة السلطان الاعظم سيدي محمد بن عبد الله رحمه الله ولما حدث الشنآن بين ترك الجزائر والفرنسيس واستولى الفرنسيس على ثغورهم جاء أهل تلمسان الى السلطان المولى عبد الرحمن رحمه الله راغبين في بيعته والدخول في طاعته فقبلهم بعد التوقف والمشاورة كما مر ولما أعرى جيش السلطان تلمسان واجتمع أهل ذلك القطر على الحاج عبد القادر بن محيي الدين تحت كلمة السلطان ربه وأحسن اليه وقاوم الفرنسيس بتلك البلاد أشد المقاومة الا أن فائدة حربه كانت تظهر في قتل النفوس واستلاب الاموال وفائدة حرب الفرنسيس كانت تظهر في انتقاص الارض والاستيلاء عليها وشتان ما بينهما ﴿ولما كانت سنة تسع وخمسين ومائتين وألف﴾ تم استيلاء الفرنسيس على جميع بلاد المغرب الاوسط وصار الحاج عبد القادر يتنقل في أطرافها فتارة بالصحراء وتارة ببني يزناسن وتارة بوجدة والريف وغير ذلك وربما استكثر في هذه المدة لاتباعه من هو من رعية السلطان أو جنده فمد الفرنسيس يده الى ايالة السلطان رحمه الله فشن الغارة على بني يزناسن وعلى وجدة وأعمالها المرة بعد المرة ثم اقتحم وجدة على حين غفلة من أهلها وانتهبها واكثر عيثه في الحدود فتكلم من جانب السلطان رحمه الله فيما ارتكبه من اياالته فتعلل بان الهدنة قد انتقضت بامداد الحاج عبد القادر بالخيل والسلاح والمال المرة بعد المرة ومحاربة جيش السلطان

المرابط على الحدود له ومحاربة بني يزناسن له مع الحاج عبد القادر وغير ذلك مما اعتدّ به وكان الحاج عبد القادر في هذه المدة قد فسدت نيته أيضا في السلطان وفي الجهاد مع أنه ما كان لجهاده ثمرة ورام الاستقلال وأخذ في استفساد القبائل الذين هنالك وتحقق السلطان بامره وشرى الشر وتفاقم الامر فصمد السلطان رحمه الله على حرب الفرنسيس وتقدم الى أهل الثغور بالاستعداد والحراسة وارهاف الحد لما عسى أن يحدث ثم عقد لابن عمه المولى المأمون بن الشريف على كتيبة من الجند ووجهها الى ناحية وجدة وعززه بالفقيه أبي الحسن علي بن الجناوي من أعيان رباط الفتح فكانت لهم مناوشة مع رابطة الفرنسيس التي هنالك ثم أخذ السلطان رحمه الله في أسباب الغزو والاستعداد التام وحشد الجنود واتخاذ الرايات والبنود واستنفار القبائل وقال في ذلك الوزير ابن ادريس أشعارا يستنفر بها أهل المغرب ويحضهم على الجهاد وايقاظ العزائم له من ذلك قوله

يا أهل مغربنا حق النفير لكم * الى الجهاد فما في الحق من غلط
فالشرك من جنبات الشرق جاوركم * من بعد ما سام أهل الدين بالشطط
فلا يغرنكم من لين جانبه * ما عاد قبل على الاسلام بالسخط
فعنده من ضروب المكر ما عجزت * عن دركه فكرة الشبان والشمط
فواتح المكر تبدو من خواتمه * فعنده المكر والمكروه في نمط
وأنتم القصد لا تبقوا في دعة * ان السكون الى الاعدا من السقط
من جاور الشر لا يعدم بوائقه * كيف الحياة مع الحيات في سفط
قد يغبط الحر في عز يخلده * وليس حي على ذل بمغتبط

وفي هذا الشعر تضمين بيت ابن العسال وهو مشهور فاجتمع للسلطان رحمه الله في هذا الاستنفار ثلاثون ألف فارس تزيد قليلا أو تنقص قليلا فيها الجند وحصص القبائل في أكمل شكة وأحسن زي ولم يشهدها من الوداية سوى نفر يسير لانهم كانوا في زاوية الاهمال عند السلطان ثم عقد رحمه الله على هذه الجنود لولده وخليفته سيدي محمد بن عبد الرحمن وسار حتى نزل بوادي ايسلي من أعمال وجدة وكان الحاج عبد القادر لا زال جائلا في تلك الناحية ومعه نحو خمسمائة فارس ممن كان قد بقي معه من أهل المغرب الاوسط لان حاله كان قد أخذ في التراجع والانحطاط ولم تبق له هنالك كبير فائدة بل انقلب نفعه ضررا وحزمه خورا بفساد نيته واستفساده لجند السلطان ورعيته ولما احتل الخليفة سيدي محمد بايسلي وعسكر به جاءه الحاج عبد القادر يستأذن عليه في الاجتماع به فأذن له واجتمع به وهو على فرسه فدار بينهما كلام كان من جملته أن قال الحاج عبد القادر ان هذه الفرش والاثاث والشارة التي جئتم بها حتى وضعتموها بباب جيش هذا العدو ليس من الرأي في شيء ومهما نسيتم فلا تنسوا أن لا تلاقوا العدو الا وأنتم متحملون منكمشون بحيث لا يبقى لكم خباء مضروب على الارض والا فان العدو متى رأى الاخبية مضروبة لم ينته دون الوصول اليها ولو أفنى عليها عساكره وبين كيف كان هو يقاتله وكان هذا الكلام منه صوابا الا انه لم ينجع في القوم لانفساد البواطن ولا حول ولا قوة الا بالله وربما انتهره بعض حاشية الخليفة على التفصح بحضره والاشارة عليه قبل استيشاره فرجع الحاج عبد القادر عوده على بدئه وانتبذ ناحية في جيشه ولسان حاله يقول لم آمر بها ولم تسؤني ولما كانت الليلة التي وقعت الحرب صبيحتها جاء رجلان من أعراب تلك الناحية وطلبا الدخول على الحاجب وهو الفقيه السيد الطيب ابن اليماني المدعو بابي عشرين فدخلا عليه وقالا ان العدو عازم على أن يصبحكم غدا ان شاء الله فاستعدوا له واعلموا الامير فيقال ان الحاجب قال ان الامير الآن نائم ولست بالذي أوقظه ثم جاء عقب ذلك أربعة أناس آخرون يعلمون بأمر العدو فكان سبيلهم سبيل الاولين ولما طلع الفجر وصلى الخليفة الصبح جاء

عشرة من الخيل قيل من العرب وقيل من حرس الخليفة فأعلموا بمجيء العدو وانهم تركوه قد أخذ في الرحيل فامر الخليفة رحمه الله الناس بالركوب والاستعداد وأن لا يبقى بالمحلة الا الرماة وكانوا دون الالف وبعث الى بني يزناسن بالركوب فركبوا في ألوف كادت تساوي جيش الخليفة وصارت الخيل نحو العدو مصطفة مد البصر ورايتها تخفق على هيئة عجيبة وترتيب بديع وكان الخليفة سائرا وسطهم ناشرا المظلة على رأسه راكبا على فرس أبيض وعليه طيلسان أرجواني قد تميز بزيه وشارته ولما تقارب الجيشان جعلت الفرسان تبرز من الصفوف كأنما تستعجل القتال فامر الخليفة رحمه الله بالسكينة والوقار والسير بسير الناس ثم لما التقى الجمعان وانتشبت الحرب رصد العدو الخليفة وقصده بالرمي مرات عديدة حتى سقطت بنبة أمام حامل المظلة وجمح فرسه به وكاد يسقط ولما رأى الخليفة ذلك غير زيه بان أسقط المظلة ودعا بفرس كميت فركبه ولبس طيلسانا آخر فاختفى حينئذ وكان المسلمون قد أحسنوا دفاع العدو وصدموه صدمة قوية برقت لهم بها بارقة وكانت خيلهم تنفر من صوت المدافع ولكنهم كانوا يقحمونها اقحاما وثبتوا في نحر العدو مقدار ساعة ولما التفتوا الى جهة الخليفة ولم يروه بسبب تغيير زيه خشعت نفوسهم وقال المرجفون ان الخليفة قد هلك فماج الناس بعضهم في بعض وتسابق الشراردة الى المحلة فعمدوا الى الخباء الذي فيه المال فانتهبوه وتقاتلوا عليه وتبعهم غيرهم ممن كان الرعب قد ملك قلبه وجعل الناس يتسللون حتى ظهر الفشل في الجيش من كل جهة فتقدم بعض الحاشية الى الخليفة وقال له يا مولانا ان الناس قد انهزموا وهم الآن بالمحلة يقتل بعضهم بعضا ويسلب بعضهم بعضا فقال يا سبحان الله والتفت فرأى ما هاله من أمر الناس فرجع عوده على بدئه وانهزم من كان قد بقي معه عن آخرهم وتبعهم العدو يرمي الكور والضوبلي من غير فترة وثبت الله بعض الطبجية بالمحلة ولكن سال الوادي فطم على القرى ونفذ أمر الله ولم يهزم المسلمين الا المسلمون كما رأيت ولما استولى العدو على المحلة فر النهاب الذين كانوا بها وبقيت في يده بما فيها وكانت مصيبة عظيمة وفجيعة كبيرة لم تفجع الدولة الشريفة بمثلها وكان هذا الحادث العظيم في الساعة العاشرة من النهار منتصف شعبان سنة ستين ومائتين وألف ولما رجع المنهزمة تفرقوا شذر مذر وأهلك الناس العطش والجوع والتعب حتى كان نساء عرب آنقاد يستلبنهم كيف شئن وانتهى الخليفة الى تازا فاقام بها أربعة أيام ريثما اجتمع اليه الرماة وضعاف الجيش ثم قدم فاسا وكان السلطان رحمه الله قادما من مراكش الى فاس فاتصل به خبر الوقعة وهو برباط الفتح فنهض الى فاس مجدا واتصل به في أثناء طريقه خبر وقعتين اثنتين أخريين وهما هجوم الفرنسيس على طنجة والصويرة ورميه اياهما بالوف من الكور والبنب ووقع بالصويرة حادث عظيم بسبب الغوغاء الذين بالبلد والشياظمة المجاورين لهم فانهم لما رأوا العدو دخل الجزيرة ظنوا أنه سيدخل البلد ففتقوا أيديهم للنهب وكان ذلك أولا في اليهود ثم عم غيرهم وكان ما كان مما لست أذكره فكان هذا مما زاد غيظ السلطان وكمده فعمد الى جماعة من قواد الجيش وحلق لحاهم تأديبا لهم ﴿وذكر منويل هذه الوقعة﴾ فزعم أن عساكر الفرنسيس كانت يومئذ عشرة آلاف وانه كان غرضه محاربة الذين كانوا يحاربونه على أطراف البلاد حتى لقد أعطى خط يده للنجليز أنه اذا حارب وغلب لا يتملك من أرض المغرب شيأ قال فلذلك لما وقعت الهزيمة بعث بإثرها رسله يطلب الصلح مع ان السلطان المولى عبد الرحمن لم يظهر عجزا ولا قل ذلك من غربه بل استأنف الجد وشرع في جمع العدد والمدد اهـ كلامه ﴿ثم ان السلطان رحمه الله﴾ هادن الفرنسيس على يد الفقيه السيد أبي سلهام بن علي آزطوط عامل طنجة والعرائش على شروط ثمانية من جملتها نفي الحاج عبد القادر من تلك البلاد لما في بقائه هنالك من اثارة الفتنة بين الدولتين بلا فائدة ودعت المصلحة الوقتية السلطان رحمه الله الى ان أسقط عن جنس الدينمرك وجنس السويد ما كانا يؤديانه الى الدولة العلية كل سنة فالاول خمسة وعشرون ألف ريال والثاني عشرون ألف ريال وكذلك

أسقط عن غيرهم وظائف أخر والامر كلها بيد الله لا يسئل عما يفعل وهم يسئلون ﴿وفي سنة احدى وستين ومائتين وألف﴾ أخذت السكة في الارتفاع وكان الريال الكبير ذو المدفع بست عشرة أوقية والريال الصغير الافرنك بخمس عشرة أوقية والبندقي بثلاثين أوقية والدرهم الصغير باربع موزونات والكبير بست موزونات ولما أخذت السكة في الارتفاع أخذت الاسعار في الارتفاع أيضا وحاول السلطان رحمه الله حصرها فلم تنحصر وعلة ذلك والله أعلم أنه لما وقع مع الفرنسيس هذا الصلح وأسقط السلطان عن الاجناس ما كانت تؤديه كثر خطارهم وتجارهم بمراسي المغرب وازدادت مخالطتهم وممازجتهم لاهله وكثرت تجارتهم في السلع التي كانوا ممنوعين منها وانفتح لهم باب كان مسدودا عليهم من قبل فظهر أثر ذلك في السكة وفي السلع أما السكة فلان سكتهم كانت هي الغالبة وهي أكثر رواجا من سكة المغرب فلابد أن يكون الحكم والتأثير لها والتجار يعتبرون فيها من الفضول والارباح الناشئة عن تغاير القطرين ما لا يهتدي اليه غيرهم من العامة وتبعهم على ذلك تجار المسلمين وأما السلع فلان تجار النصارى يغالون في أثمانها أكثر من غيرهم كما هو مشاهد ثم ما دامت بلاد الفرنج مترقية في التمدن وحسن الترتيب واتساع الأمن والعدل الاوسكاكا وأسعارنا دائمة الترقي في الغلاء على نسبة كثرة المخالطة واتساع مادة البيع والشراء معهم فتأمله والله الموفق * وفي هذه السنة ثار أهل رباط الفتح على عاملهم الحاج محمد ابن الحاج محمد السوسي وكان السبب في ذلك ان الحاج محمد ابن الحاج الطاهر الزبدي من أهل الوجاهة بالرباط ومتبوع العقب فيها وكان كثيرا ما يجالس العامل المذكور ويدلي عنده بالصداقة والمودة فيقال أنه تشفع عنده في بعض أهل البلد فرد شفاعته فغضب الزبدي وعظم عليه ذلك وكان أهل البلد قد سئموا ملكة السوسي ومرضوا في طاعته لاسباب تعتدها الرعية على العمال فجاء الزبدي الى منزله وجمع جماعة من أعيان البلد ممن يعلم انحرافهم عن العامل المذكور وأطمعهم وأطلعهم على خبيئة صدره في أمر العامل فوجدهم اليه سراعا فتحالفوا وتعاهدوا على أن لا يبقى متوليا عليهم بحال ثم مشوا اليه وأنذروه وتقدموا اليه بان يلزم بيته ثم أجمع رأيهم على تقديم الزبدي مكانه فقدموه وضبط أمر البلد واتصل الخبر بالسلطان رحمه الله وهو بفاس فقام وقعد وكتب اليهم بالوعظ والتقريع فصموا عن سماعه وتمادوا على شأنهم ثم بعث اليهم القائد الطيب الوديني البخاري يتولى عليهم ويقبض على أهل الفساد منهم فأحشوا عليه وطردوه من البلد مع العشي فعبر الى سلا في مطر غزير ورجع الى السلطان فاعلمه الخبر فاحتال السلطان رحمه الله بان بعث الفقيه الكاتب أبا عبد الله محمد العربي ابن المختار الجامعي فقدم رباط الفتح وجمع أعيانها وخيرهم فيمن يتولى عليهم فاختاروا الزبدي فولاه السلطان عليهم وجددوا سيرته وبعد نحو ستة أشهر قدم السلطان رباط الفتح وتريث بها مدة حتى نفرعن رؤس الفتنة فقبض عليهم وعلى قائدهم الزبدي وبعث بهم الى فاس فسجنوا بها ثم سرحوا بعد حين ﴿وفي سنة اثنتين وستين ومائتين وألف﴾ نهض السلطان من فاس ونهض الخليفة سيدي محمد من مراكش والتقيا بشرع أبي الاعوان من دكالة وعيدا هنالك عيد المولد الكريم ثم سار السلطان الى مراكش وانحدر الخليفة الى فاس وفي هذا العيد بعث أبو عبد الله اكنسوس الى السلطان بالقصيدة ﴿وفي سنة ثلاث وستين ومائتين وألف﴾ تم بناء البرج الكبير بسلا المعروف بالصقالة الجديدة وكان السلطان رحمه الله شرع في بنائه زمان انتقاض الصلح مع الفرنسيس وتم في هذه المدة على أكمل الاحوال وأحسنها

﴿بقية أخبار الحاج عبد القادر وانقراض أمره وما آل اليه حاله﴾

قد قدمنا ما كان من فساد نية الحاج عبد القادر وانه رام الاستبداد بل والتملك على المغرب فلما كانت الهزيمة بايسلي ازداد طمعه فصار يدعو أهل النواحي الى مبايعته والدخول في طاعته وكاتب الخواص من أهل فاس والدولة وكاتبوه على ما قيل ثم احتال بان بعث جماعة وافرة من الحشم وبني عامر شيعته

الى السلطان فقدمهم أمامه فى صورة هراب مستجيرين بالسلطان فقبلهم السلطان وأنزلهم على نهر سبوا
ثم تقدم الحاج عبد القادر حتى وصل الى القعدة الحمراء بين تسول والبرانس وكان قصده أن يجتمع بشيعته
ويصل يدهم بيده ويتم له ما أراد فلما اطلع السلطان على دسيسته بعث الى أولئك الجماعة عسكرا من
الشراردة عليهم القائد ابراهيم بن أحمد الاكحل فاجتاحوهم بعد جهد جهيد وقتال شديد من ذلك انهم
اعتصموا بروة وجعلوا يقاتلون على حريمهم وكانوا رماة لا تسقط لهم رصاصة فى الارض فكانوا كلما
توجهت اليهم طائفة من الجيش استأصلوها بالرصاص وكانوا يجمعون موتاهم فينصبونهم اشبارا
يتترسون به ويقاتلون من خلفه ولما أعيا الجيش أمرهم حملوا عليهم حملة واحدة حتى خالطوهم
فى معتصمهم وجالدوهم بالسيوف وطاعنوهم بالرماح والتوافل وانقطع البارود فكانوا يقتلون أبناءهم
ونساءهم بايديهم فرارا من السبي والعار ثم جعلوا يقتلون أنفسهم حين تحققوا أنهم فى قبضة الاسار
وبعد هذا وجه السلطان ولده سيدى محمدا لحسم دائه فى جيش كثيف وكان رئيس الجيش وكبيره بعد
الخليفة القائد محمد بن عبد الكريم الشرقى المدعو أبا محمد وكان له ذكر فى الشجاعة والرأى ولما وصل
الخليفة الى سلوان بعث اليه الحاج عبد القادر جماعة فيهم وزيره أبو عبد الله البوحميدى يتنصل مما رمى به
وأنه لا زال على الطاعة والخدمة للسلطان وقدموا الى الخليفة هدية ثم وقع الاتفاق على أن يقدموا على
السلطان رحمه الله فينهوا اليه الامر والعمل على ما قال فوجه معهم الخليفة من يصحبهم الى أبيه بفاس
وفى أثناء ذلك عمد الحاج عبد القادر ذات ليلة الى طائفة من جنده نحو الخمس عشرة مائة على ما قيل
كلهم بطل مجرب انتقاهم انتقاء وكان جيش الخليفة منقسما قسمين بعضه معه وبعضه مع أخيه
المولى أحمد فعمد الحاج عبد القادر اليهما

فى ليلة من جمادى ذات أندية * لا يبصر الكلب من ظلمائها الطنبا

بتلك العصبة الذين هم فتيان الكريهة ومساعير الهيجاء وجمرات الحرب طالما شهدتهم الوقائع وخاض
غمرات الموت مع الفرنسيس وغيره فلم يقف بهم الا بين المحلتين وأطلقوا الرصاص مثل المطر وأرسلوا
حراقيات على الجمال وتهاويل مفزعة فماج الناس فى ذلك الظلام الغاسق ونزل بهم من الهول ما يقصر
اللسان عن وصفه وقام الخليفة فجعل يسكن الناس بنفسه ويمنعهم من الركوب خوف الفرار وأمر
العسكر والطبجية بالرمى بالكور والضوبلى فكانوا يرمون الى جهة محلة المولى أحمد ظنا منهم أن العدو
لا زال مقابلهم ومحلة المولى أحمد يرمون الى جهتهم كذلك فهلك من المحلتين بسبب ذلك بشر كثير وأما
الحاج عبد القادر فانه فر فى أصحابه بعد ان حملوا الكثير من موتاهم معهم وكان للقائد محمد فى تلك الليلة
ذكر ولما أصبح الناس وتفقدوا حالهم وجدوا فيهم من الجرحى نحو الالف ومن القتلى ما يقرب ذلك
وأصبح حول المحلة من قتلى أصحاب الحاج عبد القادر الذين أعجلهم القتال عن حملهم نحو الخمسين
وأسروا نفرا أحياء فشاهدوا من طمأنينتهم عند القتل ما قضوا منه العجب ووجدوا عليهم كسى رفيعة
مطرزة بالصقلى والحرير ونحو ذلك ولقد كان للرجل اعتناء بالجيش كما ترى ثم ان الخليفة رحمه الله
أمر باتباع الحاج عبد القادر فتبعته الكتائب المختارة فكان اللقاء ثانيا بمشرع الرحائل من وادى ملوية
قرب البحر عند مسقط ملوية فى البحر فصدمته الجيوش صدمة أخرى فنى فيها كماته وكسرت شوكته
وفل حده وخشعت نفسه وأيس من جبر حاله ففر الى الفرنسيس ولجأ اليه وترك محلته بما فيها فاستولى
جيش الخليفة عليها * حكى من حضر أن الخيل كانوا يطردون الجماعة من أصحاب الحاج عبد القادر وهم
راجلون ليأسروهم فما كانوا يدركونهم الا بعد المسافة البعيدة جدا والحاصل أن مقام هذا الرجل فى
الشجاعة معروف وبصارته بمكائد الحرب معلومة لولا ما ذكرناه من انعكاس حاله وروم الاستبداد
وخلعه طاعة الامام الحق الذى كانت بيعته فى عنقه (واعلم) أنه قد يقف بعض المنتقدين على ما حكيناه من

أخبار هذا الرجل فينسبنا الى تعصب وسوء أدب والجواب انا ما حكينا الا الواقع وأيضا فلقد قال لسان الدين ابن الخطيب رحمه الله حضرت يوما بين يدى السلطان أبى عنان فى بعض وفاداتى عليه لغرض الرسالة وجرى ذكر بعض أعدائه فقلت ما أعتقده فى اطراء ذلك العدوّ وما عرفته من فضله فانكر علىّ بعض الحاضرين ممن لا يحطب الا فى حبل السلطان فصرفت وجهى وقلت أيدكم الله تحقير عدوّ السلطان بين يديه ليس من السياسة فى شئ بل غير ذلك أحق وأولى فان كان السلطان قد غلب عدوه كان قد غلب غير حقير وهو الاولى بفخره وجلالة قدره وان غلبه العدو لم يغلبه حقير فيكون أشد للحسرة وآكد للفضيحة فوافق رحمه الله على ذلك واستحسنه وشكر عليه وخجل المعترض اه ولما كان هذا الفتح كتب السلطان الى البلاد وزينت الاسواق وأعملت المفترجات * ونص ما كتب به السلطان بعد الافتتاح وبعد فان الفاسد الفتان وخليفة الشيطان أبعد فى الجسارة وامتطى مطىّ الخسارة واستوسع سبيل العناد واستضل سبيل الرشاد وقال من أشد منه قوه وسوّلت له نفسه الأماره الاتصاف بالاماره وأراد شق عصا الاسلام وصدع مهيع الانام فاعلن بكل قبيح واستشكل كل صريح واستبطن المكر والخداع وفاق فيه عابدى ود وسواع وشاع فى طرف الايالة ضرره وساء مخبره وهو فى خلال ذلك يظهر مظاهر يستهوى بها أهل الجهاله والعمايه والضلاله فايسنا من رشده وعرفنا مضمر قصده فجهزنا له محلة منصوره ذات أعلام منشوره جعلنا فى وسطها ولدنا الابر سيدى محمد أصلحه الله وأسندنا اليه أمرها وقلدناه تدبيرها وعهدنا اليه أن يسعى فى حقن الدماء جهد الامكان ويحتال على اقامة أودهذا الفتان وأن يعالج داءه بكل دواء وأن لا يتبع فيه الاغراض والاهواء وأن يجعل القتال آخر عمله وعدمه غاية أمله فلما رأى عدوّ نفسه احاطة الجيوش به وجه وفدا من قبله يدعى التوبة فيما مضى والكون على وفق المقتضى فاجبناهم بان أحب الحديث الى الله أصدقه ان صاحبكم هذا ان أراد الخير لنفسه واحتاط لدينه وعمل لرمسه يختار أحد أمرين اما أن يدخل لايالتنا هو ومن معه آمنين على أنفسهم ومالهم لهم ما لنا وعليهم ما علينا أو يهاجر فطلبوا منا الامهال حتى يوجهوا بعضهم يخبرونه بالاقالة ويستدركون الامر قبل الفوات فأجبناهم الى ذلك فما وصلوا حتى ضرب على المحلة ليلا فرده الله بالخيبه وأشوه أوبه وترك قتلاه صرعى بعد ما حل منهم عددا وجعل يدفن منهم فى فقوله ويخفى ما حلّ به فى أفوله فتقدمت اليه المحلة الغالبة بالله وقاتلته قتالا أذاقته فيه الوبال والخبال فكانت الكرة عليه فاجفل اجفال النعام واستدبر المعركة وهام ومات من خاصته ورؤسائه وأهل شدته وذوى بأسائه عدد معتبر ومن هو أدهى وأمر وعادت جموعه جمع تكسير وجيوشه موزعة بين قتيل وأسير وسخريهم بعد ان كانوا ساخرين وغلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين ومن الله أستمد التوفيق والهداية الى أرشد طريق والسلام فى الثانى والعشرين من محرم الحرام فاتح سنة أربع وستين ومائتين وألف اه نص الكتاب الشريف وأما الحاج عبد القادر فانه فر الى الفرنسيس كما قلنا فبقى عنده مدة ﴿قال صاحب قطف الزهور ماصورته﴾ لما فر الحاج عبد القادر الى الفرنسيس بقى عندهم ست سنين ثم أعتقه نابليون الثالث وعين له مرتبا سنويا يدفع اليه من بيت مال الدولة فسكن دمشق الشام ولم يزل قاطنا بها الى هذا اليوم اه ﴿قلت﴾ وهو الآن فى قيد الحياة حسبما بلغنا والله تعالى يتولى أمر المسلمين ويتداركهم بلطفه وفضله آمين ﴿قال أبو عبد الله اكنسوس﴾ وفى ضحى يوم الاثنين الرابع من المحرم فاتح سنة أربع وستين ومائتين وألف توفى الوزير الاعظم الفقيه الاجل الاكرم امام عملة اليراع ومقدم جملة ذلك الشراع مقلد الدولة بقلائد النثار والنظام فى المواقف العظام والمزرى ببدائعه وأوابده وروائعه ببديع الزمان والفتح بن خاقان أبو عبد الله محمد بن ادريس جدد الله عليه ملابس الرضا كما لاح نجم وأضا فولى السلطان مكانه الفقيه النجيب ذا الاخلاق العاطره والانامل

الواكفة الماطره والرأى الاصيل والامر المحبوك والباطن الصافى الذى يحاكيه الذهب المسبوك أبوعبد الله محمد العربى بن المختار الجامعى ثم لما قدم السلطان رحمه الله لحضرة مراكش آخر قدمة قدمها سنة سبعين ومائتين وألف عزله وولى مكانه الفقيه الكاتب البحى النزيه أبا عبد الله محمد بن عبد الله الصفار التطاونى ﴿وفى أوائل رمضان من هذه السنة﴾ أعنى سنة أربع وستين ومائتين وألف خرج السلطان رحمه الله من فاس الى ناحية وجدة فوصل الى عين زوره فوقف على تلك النواحى وأصلح من شأنها وعاد الى فاس ليلة عيد الاضحى من السنة ﴿وفى سنة خمس وستين ومائتين وألف﴾ كانت فتنة عرب عامر باحواز سلا وفتنة عرب زعير باحواز رباط الفتح وكلب هاتان القبيلتان على المدينتين وألحوا عليهما بالغارات والنهب والمبالغة فى العيث والافساد بالطرقات والجنات واستاقوا السرح مرارا وبقى النتاج عند أربابه حتى هلك ضياعا الى غير ذلك ولما تجاوزوا الحد فى الطغيان بعث السلطان وصيفه الباشا فرجى صاحب فاس الجديد فأوقع بعامر وقعة شنعاء رابع يوم النحر من السنة ومزقهم شذر مذر بعد ان تحصنوا بالغراك فيما بين سلا والمهدية ﴿وفى هذه السنة﴾ حج ولدا السلطان المولى الرشيد والمولى سليمان واعتنى بشأنهما صاحب مصر وصاحب الحجاز غاية ورجعا من السنة القابلة ﴿وفى هذه السنة﴾ ظهر الكوكب ذو الذنب كان يطلع فى ناحية المغرب ويغرب بعد العشاء مدة من شهر ونحوه ففزع الناس من ذلك وتخوفوه كما قال أبو تمام

وخوفوا الناس من دهياء مظلمة * اذا بدا الكوكب الغربى ذو الذنب

﴿وفى سنة ست وستين ومائتين وألف﴾ أحدث السلطان المكس بفاس وغيرها من الامصار أحدثه أولا فى الجلد على يد المصطفى الدكالى بن الجيلانى الرباطى والمكى القباج الفاسى ثم أحدثه فى البهائم ثم تفاحش أمره فى دولة ابنه السلطان سيدى محمد بن عبد الرحمن رحمه الله وهلم جرا ﴿وفى هذه السنة﴾ وذلك ليلة السادس والعشرين من رمضان توفى ولى الله أبو عبد الله سيدى عبد القادر العلمى البركة الشهير صاحب الازجال الملحونة وكانت وفاته بمكناسة الزيتون ودفن بحومة سيدى أبى الطيب وعليه بناء حفيل الى الغاية رحمه الله ورضى عنه ﴿وفى هذه السنة﴾ بعث السلطان ولده المولى عبد القادر وهو ابن اثنتى عشرة سنة الى سلا بقصد القراءة بها فنزل بدار قاضيها أبى عبد الله محمد بن حسون عواد وكتب اليه السلطان رحمه الله بان يعود الولد المذكور الخشن من المطعم والملبس وأن لا يمكنه من شرب الاتاى الا مرة أو مرتين فى الجمعة ﴿وفى هذه السنة أيضا﴾ كان الغلاء الكبير والجوع المفرط وكان أكثره بقبائل الحوز من ابن مسكين وعبدة ودكالة وغيرهم فاهرعت هذه القبائل الى بلاد الغرب والفحص وأكلت الناس الجيف والميتة والنبات وصار يعرف عند أهل البادية بعام الخبيزى وعام بونى وكان الرجل يأكل ولا يشبع واذا أمعن فى الاكل وتضلع شبعا لم تغض الاهنيئة حتى تضطرم أحشاؤه جوعا وكان المد بسلا ورباط الفتح وهو مد كبير جدا قد بلغ ثمانية عشر مثقالا فجعله العامة تاريخا يقولون كان ذلك عام ثمانية عشر مثقالا ﴿وفى سنة سبع وستين ومائتين وألف﴾ وذلك ليلة الاربعاء الثالث والعشرين من ربيع الثانى منها توفى الفقيه العلامة القاضى بسلا أبو عبد الله محمد بن حسون عواد ودفن بزاوية الشيخ سيدى أحمد بن عبد القادر التستاوتى من حومة باب احسين من المدينة المذكورة وكان رحمه الله عارفا بالفقه والحديث والنحو وقد أفنى عمره فى جمع الكتب ونسخها وخطه معتمد سالم من التصحيف وكانت فيه شفقة على الضعفاء والاشراف وذوى البيوتات كثير البرور بهم والاحسان اليهم رحمه الله ﴿وفى يوم الاربعاء فاتح هذه السنة﴾ توفى الشريف البركة الافضل أبو عبد الله سيدى الحاج العربى بن على الوازانى وكان جليل القدر شهير الذكر نفعنا الله به وباسلافه ﴿وفى سنة ثمان وستين ومائتين وألف﴾ هجم الفرنسيس على ثغر سلا وذلك بسبب مركبين وردا الى مرسى العدوتين مما وأين قحا وكانت السنة سنة

مسغبة فنشب المركبان بساحل سلا فتسارعت العامة اليهما وانتهبوهما ثم تجاوزوا ذلك الى ألواح المركبين وآلتهما فتوزعوها وكان المركبان لتجار الفرنسيس فتكلموا فى شأنهما مع السلطان رحمه الله فكتب الى عامل سلا أبى عبد الله محمد بن عبد الهادى زنيبر يستكشفه عن الخبر فجعد ذلك ظنا منه أنه يدفع بذلك عن البلد ولما لم يحصل الفرنسيس بالكلام مع السلطان على طائل هجم على سلا يوم الثلاثاء مهل صفر من السنة المذكورة فى خمسة بابورات وقاباق كبير ويقال له النابيوس يشتمل على نحو ستين مدفعا أو أكثر ومن الغد زحف براكبه حتى سامت بها البلد فى الساعة العاشرة من النهار وشرع فى رمى الكور والبنب الا واحدا منها فانه تباعد قليلا وبقى ينظر قيل هو للنجليز وكان ترادف الكور والبنب على البلد على صورة قطيعة مثل الرعد القاصف تكاد تنهد له الجبال وكان فى أول النهار لا يفتر وبعد الزوال صار تتخلله فترات يسيرة واستمر الحال على ذلك الى ان غربت الشمس ومضى نحو نصف ساعة وكانت مدة الرمى ثمانى ساعات ونصفا وبذل الناس مجهودهم فى مقابلتهم بالرمى وفى آخر النهار عجز الناس وبقى يرمى وحده واستشهد من المسلمين نحو سبعة أنفس وكان الكور والبنب الذى رمى به العدو فى ذلك اليوم شيأ كثيرا فالمقلل يقول سبعة آلاف والمكثر يقول اثناعشر ألفا وكان البنب يتفرقع بعد مدة ويقتل اناسا ووقع فى المسجد الاعظم ومناره كور كثير خرق السقوف والحيطان وكذا فى دور أهل البلد فأنعم السلطان على الناس باصلاحها من بيت المال ﴿وقد ساق منويل خبر هذه القصة﴾ وقال انه لما انقضى للفرنسيس الزاد يعنى الكور والبارود أقلع ليلا لانه خاف ان لم يذهب طوعا ذهب كرها ولما اتصل الخبر بالسلطان رحمه الله وهو يومئذ بفاس كتب كتابا يقول فيه ما نصه الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه عبد الرحمن بن هشام الله وليه خديمنا الارضى الطالب محمد بن عبد الهادى زنيبر وفقك الله وسلام عليك ورحمة الله تعالى وبركاته وبعد فقد وصلنا كتابك مخبرا بما صدر من مراكب عدو الله الفرنسيس من استرسال الرمى على المدينة من ضحى النهار الى قرب العشاء ثم أقلعوا بالخيبة والهوان وردهم الله بغيظهم لم ينالوا خيرا ومنح الله المسلمين من الصبر والثبات واليقين ما قرت به عين الدين وكان قذا فى عين أهل الشرك المعتدين واستشهد من المجاهدين من ختم الله له بالسعادة الابديه والحياة السرمديه فالحمد لله على اعزاز دينه ونصر ملة نبيه ولازالت والحمد لله مشكاة الاسلام ساطعة الانوار مشيدة المنار والله متم نوره ولو كره الكافرون ولا يخفى عليكم ما ورد من الآيات القرآنية والاحاديث النبوية فى فضل الجهاد فى سبيل الله والصبر لاعلاء كلمة الله وقد قمتم بالواجب عليكم فى ذلك وكنتم عند الظن بكم وأتيتم بالمطلوب منكم أصلحكم الله ورضى عنكم ومن قتل فقد أكرمه الله بالنعيم الذى لا نفاد له وكل ما تلف يخلفه الله فما كان فى الله تلفه فعليه سبحانه خلفه فزيدوا فى التيقظ والصبر أعانكم الله وقد أمرنا خديمنا أمناء العدوتين بتوجيه معلمين للغاية لقطع الكراريط وكتبنا لخديمنا ابن الحفيان بانزال خيام بقربهم يأوون اليها حسبما طلبت ولا تعدمون شيأ مما يخصكم ان شاء الله وما ذكرت من اجتماع أهل المدينة عندك مع القاضى والامين راغبين فى الكتب لحضرتنا العلية بالانعام عليهم بما يصلحون به صقالتهم ومساجدهم ودورهم وأسوارهم فها نحن كتبنا لأمناء العدوتين بالقدوم عليكم والتطواف على المحال المتهدمة دور وغيرها بحضرتك مع القاضى والعدول وتقويم اصلاح كل محل بالمناسب وأما الجامع الكبير وسيدى ابن عاشر فيسيرون لهما الاقامة وعند تيسيرها يشرعون فى اصلاحهما وأما الصقالة الجديدة والسور فيشرعون الآن فى اصلاحهما اصلاحا متقنا بالطابية الجيدة التى لا يؤثر الكور فيها شيأ ويجعلون لها ساترا على كيفية بحيث يكون الضارب فى أمان ولا تتراخوا فى ذلك ونحن على نية احداث بستيون جيد ان شاء الله عند منتهى السور من جهة الصقالة الجديدة فالعزم العزم والحزم الحزم ويصلك كتاب اقرأه على خدامنا أهل سلا

والسلام

والسلام فى ثامن صفر عام ثمانية وستين ومائتين وألف انتهى نص الكتاب الشريف وقد أحدث السلطان رحمه الله هذا البستيون فجاء فى غاية الجودة والمتانة والحسن وهو أثر من آثار الدول العظام ﴿وفى هذه السنة﴾ ورد كتاب من السلطان فى شأن حصر السكة يقول فيه ما نصه وبعد فقد طالما حاولنا حصر الزيادة فى السكة وحذرنا وأنذرنا وأوعدنا من تعدى فيها حدّا أو مد فيها بغير ما عينا يدا فلم يزد الناس الا تطاولا فيها واقداما عليها فاستخرنا الله فى أمرها فظهر لنا أن تزيد فيها اما تواطأ الناس على زيادته ولم يرجعوا عنه تتميما للاعذار وتكميلا للانذار فمن وقف عندما حددنا ولم يحد عما أبرمنا فقد اختار سلامة نفسه وماله ومن تعدى واقتات فى ذلك بادنى شئ فقد سعى فى هلاك نفسه وينال ه من الوبال والنكال ما يتركه عبرة لمن اعتبر وتذكرة لمن تذكر وقد اعذر من أنذر وها نحن جعلنا للبندقى أربعين أوقية وللصبلون اثنين وثلاثين مثقالا وللريال ذى المدفع عشرين أوقية وللذى لا مدفع فيه تسع عشرة أوقية وللبسيطة التى بالمدفع خمس أواق والتى لا مدفع فيها أربع أواق وللدرهم الرباعى أربع موزونات ونصف موزونة وللدرهم السداسى سبع موزونات فعلى هذا العمل فاعملوا به من الى نظركم وفى ايالتكم ومروهم بالوقوف عنده ومن حاد عنه وشممتم عليه رائحة الخوض والتعدى فيه ازجروه زجرا شديدا واعلمونا والسلام فى رابع عشر ربيع الثانى عام ثمانية وستين ومائتين وألف ﴿وفى سنة تسع وستين ومائتين وألف﴾ غزا السلطان رحمه الله قبيلة زمور الشلح وكان بمكناسة فكتب أوّلا لابنه وخليفته سيدى محمد بمراكش فنهض منها ومر على تادلا فاوقع ببنى موسى وقطع منهم أربعة وستين رأسا وقبض على مائة وخمسين مسجونا وكانوا قد قتلوا عاملهم أبا العباس أحمد بن زبدوح ثم دخل الخليفة رباط الفتح يوم الاثنين الحادى عشر من شوال من السنة المذكورة فأقام به الى يوم السبت السادس عشر منه ثم عبر الوادى ونزل بقرميم من أعمال سلا ثم سافر من الغدو بات بسيدى علال البحراوى فأقام هنالك يومين ثم رحل فنزل بتيفلت وأقام بها أياما ثم تقدم الى دار ابن الغازى وكان السلطان رحمه الله قد خرج من مكناسة فنزل بالخميسات وشن الغارات على زمور فتوغلوا فى الجبال فانتسف السلطان أموالهم وأكل زروعهم حتى أشجاهم ثم ارتحل عنهم الى مراكش وارتحل الخليفة الى فاس وذلك فى السادس والعشرين من ذى القعدة من السنة ومن هذا التاريخ صار السلطان والخليفة رحمهما الله يغزوانهم كل سنة يجتمعان عليهما فتنتسف الجنود زروعهم وأموالهم حتى أضر بهم الحال وأشرفوا على الهلاك وكادت تعدم عندهم الاقوات وأذعنوا الى الطاعة طوعا وكرها ولما نهض السلطان عنهم فى هذه المرة كتب كتابا يقول فيه وبعد فان فساد زمور يعرفه الخاص والعام والجمهور أشد تسوادا من الليل وأقوى مضاهاة بالسيل وطالما ذكرناهم ووعظناهم وحذرناهم وأنذرناهم وغضضنا الطرف عنهم مقابلين شدتهم باللين وتحريكهم بالتسكين فأطغاهم العجب وأبطرهم وغطى الشر سمعهم وبصرهم ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيأ ولما رأينا ضلالهم لم يسفر عنه صبح الاقلاع وشعائر الاسلام استولت عليها يد الضياع استنهضنا اليهم الجيوش المنصوره التى لم تزل ألوية الفتح أمامها بحول الله منشوره واستقدمنا ولدنا الابر سيدى محمدا حفظه الله من مراكش فى جيش يقدمه اليمن والاقبال ويسوقه السعد فى المقام والترحال ونهضنا نحن من مكناسة الزيتون فى جيش تشحن الفضاء وملأ النواحى والارجاء خيلا ورجالا خفافا وثقالا وكنا فيما تقدم نحارب هؤلاء المفسدين فى المحل المشهور بالخميسات فكانت الحال لا تستوعبهم قتلا ونهبا وتشريدا وضربا فرأينا هذه المرة أن ننزل عليهم أوّلا بعين العرمة محل افسدهم على الاطلاق والشمول والاستغراق فخيمنا بها أياما ثم رحلنا منها ونزلنا بحصى ثم رحلنا منه ونزلنا الخميسات وفى خلال مقامنا ورحيلنا رحل ولدنا سيدى محمد حفظه الله من الرباط ونزل بتيفلت محل المفسدين ومحط رحال البغاة المعتدين وتقاربت المحلتان فعظمت على

المفسدين بذلك النكايه وبلغت فيهم الحد والنهايه واشتغلت المحال باكل زروعهم وتبديدها واستخراج خباياهم قديمها وجديدها وهم حيارى ينظرون والى ما حل بهم من البلاء يبصرون وكلما عزموا على المدافعة رجعوا بالهوان وتخطفت رؤس زعمائهم العقبان فعجزوا اذ اوخرجوا من بلادهم وأيقنوا أن الشقاء المكتوب عليهم حكم بطردهم وبعادهم ولم يبق بها أنيس الا اليعافير والا العيس وتحصنوا بأوعارهم المعلومه وصياصيهم المشومه في جبال تنقبت بالغيوم وكادت تصافح النجوم فضاق بهم الحال وهلك العيال وضاعت الاموال جوعا وعطشا وتصرف فيهم البلاء كيف شا ومع تحصنهم بتلك الاوعار وملتف تلك الاشجار كانت الجيوش تود أن تقتحمها عليهم وتهب نفيس أعمارها في أخذهم ونحن قد هبنا الرفق الذي يزين وترك الخرق الذي يشين فامرنا بالامساك عنهم حتى تلفظهم أوعارهم وتحرقهم نارهم فلما طال بهم الامد وتجرعوا حما الكمد استجاروا بولدنا سيدى محمد حفظه الله فشفع عندنا فيهم فقبلنا شفاعته على شروط قبلوها وحقوق التزموها ومثالب نبذوها وجنحنا الى الحلم والعفو اللذين أمر الله بهما وأسندنا أمرهم الى ولدنا المذكور قطعا الاعذارهم ونهضنا عنهم والحمد لله محتسبين والله أسأل توفيق المسلمين أجمعين آمين في السادس والعشرين من ذى القعدة الحرام عام تسعة وستين ومائتين وألف اه نص الكتاب الشريف ﴿وفي هذه السنة﴾ ظهر الكوكب ذو الذنب أيضا وفي أوائلها استوزر السلطان رحمه الله الفقيه العلامة الافضل أبا عبد الله محمد بن عبد الله الصفار التطاوني عقب قدومه الى مراكش وفيها تم بناء البستيون العظيم بسلا الموضوع بالزاوية الشمالية منها على شاطئ البحر وكان الصائر عليه باءمر السلطان من أحباس المسجد الاعظم برباط الفتح خمسون ألف مثقال أو ما يقرب منها وفيها أيضا وقعت نادرة بفاس وهى ان الامام كان يخطب يوم الجمعة بمسجد القرويين فسقط بالصف الثالث منه قطعة من الجبص المبنى به السقف تزن نحو ربع قنطار ففر الناس الذين كانوا بذلك الصف فرآهم الذين من خلفهم ففروا والفرار هم فرآهم غيرهم ففعلوا مثلهم حتى تقوضت صفوف المسجد كلها وخرجوا يتسابقون الى الابواب ووقع عليها ازدحام شديد وجازت مقدمتهم سوق الشماعين وتركوا نعالهم ولبدهم وطيالسهم بل وقلانسهم وضاع من المصاحف والاجزاء ودلائل الخيرات ما لا يحصى كل ذلك وهم لا يدرون ما وقع وما تراجعوا الا بعد حين

﴿ثورة ابراهيم بسمور البزدكى بالصحراء﴾

﴿لما كانت أواسط احدى وسبعين ومائتين وألف﴾ ظهر ابراهيم بسمور البزدكى بصحراء تافيلالت وكان السبب في ذلك أن برابرة الصحراء يومئذ كانوا حزبين حزب آيت عطة ولهم العزة والكثرة بذلك القطر وحزب آيت يفلمال وهم دون ذلك وكانت آيت عطة تؤذى الاشراف بتلك الناحيه وتسئ جوارهم فقام ابراهيم هذا في آيت يفلمال وجنح الى الاشراف وبالغ في اكرامهم والاحسان اليهم وصار يأمر قومه بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويذكر السلطان بخير ويحض قومه على طاعته حتى اشتهر بذلك القطر وكثر الثناء عليه واتفق أن حدث في أثناء ذلك بينهم وبين آيت عطة شنآن فزحف اليهم ابراهيم وأوقع بهم وقعة بعد العهد بمثلها فازداد قومه فيه محبة وغبطة وعلقت به آمال الاشراف وأحبوه لان غلبة آيت عطة يومئذ كانت من الامر الغريب وانضم الى ذلك بسط يده بالعطاء للبعيد والقريب واتصل خبره بالسلطان وكان من طبعه رحمه الله محبة أهل الخير والجنوح لهم فأقبل عليه ورفع من قدره وولاه على تلك الناحية فاشتد أمره وطار ذكره وسرت فيه نخوة الرياسة فاراد الاستبداد واستحال حاله الى الفساد حتى صار يرد على السلطان أوامره ثم تدنى قليلا قليلا من أطراف المملكة وقوى حسه بالمغرب فكتب اليه السلطان رحمه الله الكتائب وبعث البعوث فقاتلوه برهة ثم قيض الله بعض قرابته فاغتاله واحتز رأسه وجاء به متقربا الى السلطان وهو يومئذ بمراكش فامر السلطان باعمال المفرحات

واستدعى أهل مراكش على طبقاتهم فأفاض عليهم النعم وغمرهم بالاحسان غمر الديم ﴿نادرة﴾ كان ممن استدعاه السلطان رحمه الله فى هذا الصنيع أهل المدارس من طلبة العلم المتغربين بها فجلسوا ناحية من القوم ولما خرج الطعام من دار السلطان وفرق على طبقات الناس اتفق تأخيره عن هؤلاء الطلبة واتفق أيضا أن سأل بعض الحاشية بعض الاعوان القائمين على الطعام فقال له من الذى بقى بدون الطعام فقال لم يبق الا الطلبة والطحانون وكان كذلك فسمعه أحد الطلبة فقال لاصحابه ألا تسمعون الى ما يقول هذا فقالوا وما قال قال انه لم يبق الا أنتم والطحانون فقد شوركتم معهم بالعطف بالواو والله لا جلستم هنا وقاموا مغضبين فتبعهم بعض حاشية السلطان واستعطفهم فلم يرجعوا واتصل الخبر بالسلطان فقال دعهم فسنصلح شأنهم ومن الغد دعاهم الى بستان الوزير ابن ادريس داخل باب الرب من مراكش وأفاض عليهم من النعم ما غمرهم ثلاثة أيام حتى رضوا ثم عمدوا الى ثمار البستان فاستلبوها عن آخرها وهذه القصة تدل على كرم طبع السلطان رحمه الله وسعة أخلاقه وتعظيمه للعلم وأهله وقد ذكرت بهذه النادرة قول القائل

اذا شوركت فى أمر بدون * فلا يلحقك منك فى هذا نفور
ففى الحيوان يجتمع اضطرارا * أرسطاليس والكلب العقور

وتحقيق مسئلة هذا العطف مذكور فى باب الفصل والوصل من علم المعانى وبستان ابن ادريس هذا هو الذى يقول فيه أبو عبد الله اكنسوس رحمه الله

ألمم بمغنى اليمن من ذا المجلس * وأدر بساحته نجوم الاكؤس
واسعد فان الدهر أسعد أهله * وأحلهم فيه حلول المعرس
واشرب هنىء البال فى جنباته * يغنيك عن جيرون أهل المقدس
واصرف عن الزهراء ذكرك ساليا * وعن الخورنق والرسوم الدرس
لو قلت ما نالت بدائع حسنه * غرف البديع وحق مجدك لم تس
نصر تحف به المحاسن كلها * وتحار فى مرآه عين الاكيس
فاذا أردت اصابة الاغراض من * كل المنى أو كل معنى أنفس
أرسل سهام اللحظ فى أكنافه * ان الحنايا الحدب فيه كالقسى
لا شئ أهنى من تفيئ ظله الـ * مخضل أو من زهره المتنفس
تتمثل الازهار فى أنهاره * مثل المجرة والنجوم الكنس
وترى الجداول تلتوى بغصونه * تحكى البرين عن الغوانى الميس
طابت حسى الكاسات تحت ظلاله * وتسابقوا اللذات نحو المحتس
يا منزلا قد خصصته سعادة * واستبدلته أنعما من أبؤس
أصبحت مأوى للوزير محمد * نجل الادارسة الكرام المغرس
انسان عين الكون من لبست به * رتب العلى أبهى وأبهج ملبس
يا أيها البحر الذى من فيضه * كل الامانى والغنى للمفلس
يهنيك ذا القصر الذى أنشأته * بالسعد فى عام انشراح الانفس
قابل قدود الدوح فى جنباته * بالغيد ترفل فى بهى السندس
ومتى شربت زلاله فامزج به * راح المراشف من أغن ألعس
لا زلت تشرف من مطالع سعده * كالبدر يظهر من خلال الحندس
والدهر يخدم جانبيك ويحتمى * بجلالك العالى الاعز الاقعس

﴿وفى هذه السنة أعنى سنة احدى وسبعين ومائتين وألف﴾ كان الوباء بالمغرب وهو اسهال مفرط يعترى الشخص ويصحبه وجع حاد فى البطن والساقين ويعقبه تشنج وبرودة واسوداد لون فاذا تمادى بالشخص حتى جاوز أربعا وعشرين ساعة فالغالب السلامة والا فهو الحتف وفى هذا الوباء مات شيخ الطريقة أبا عبد الله سيدى محمد الحراق التطاونى وبموته أقلع الوباء من تلك البلدة ومات به بسلا منتصف ذى القعدة من السنة مائة وعشرون نفسا وفى هذا اليوم توفى عامل سلا أبو عبد الله محمد بن عبد الهادى زنيبر ﴿وفى سنة اثنتين وسبعين ومائتين وألف﴾ التفت الخليفة سيدى محمد بن عبد الرحمن الى عرب الخلط فاستعملهم فى الجندية بعد ان كانوا فى عداد القبائل الغارمة من لدن المنصور السعدى فاعتنى بهم الخليفة المذكور ونقلهم من بلاد سفيان وبنى مالك وأحواز العرائش وأنزلهم بزقوطه ووادى مكس من أعمال مكناسة وكساهم وأجرى عليهم الجرايات ثم اختل أمرهم بعد سنتين أو ثلاث ﴿وفى سنة ثلاث وسبعين ومائتين وألف﴾ ورد كتاب من السلطان رحمه الله يقول فيه بعد الافتتاح مانصه خديمنا الارضى الطالب عبد العزيز محبوبة وفقك الله وسلام عليك ورحمة الله تعالى وبركاته وبعد فبوصول كتابنا هذا اليك عين عشرين من الولدان النجباء لتعلم علم تاطبجيت وانظر لهم معلما ماهرا أو معلمين من طبجية البلد يعلمهم ويشرعون فى التعلم الآن فيبدؤن بعقد مائه ثم يتدربون منها الى الاخذ فى تعلم رماية المدفع والمهراس وهكذا حتى ينجبوا ويمهروا فى الصنعة ويصيروا قادرين على الخدمة ونطلب الله أن يعينهم ويفتح بصائرهم وهؤلاء العشرون يكونون زائدين على من هنالك من الطبجية ونأمر الامناء أن يرتبوا لهم اعانة على ذلك خمس عشرة أوقية فى كل شهر للواحد ثم من ظهرت نجابته منهم وفاق غيره فانا نزيده فى المرتب كما نأمرهم أن يرتبوا المعلمهم واحدا أو اثنين ثلاثين أوقية للواحد فى كل شهر زيادة على راتبهم المعلوم واعتن بامرهم غاية الاعتناء وقد كتبنا لغيركم من المراسى مثل هذا وسننظر من تظهر غرته واعتناؤه والسلام فى عشرين من ذى القعدة عام ثلاث وسبعين ومائتين وألف اهـ نص الكتاب الشريف ﴿وفى هذه السنة﴾ انعقدت الشروط بين السلطان وبين النجليز وهى قسمان قسم فى أمور التجارة وبيان الصاكة والاعشار وأن لاتعطى من أعيان السلع الا اذا أراد التاجر ذلك عن طيب نفسه وهى خمسة عشر شرطا وقسم فى أمور الهدنة بشمول الامن والاحترام لرعيتى الجانبين فى أى موضع كانوا وهى ثمانية وثلاثون شرطا وكان المباشر لعقدها أبو عبد الله محمد الخطيب التطاونى بطنجة

﴿بعث السلطان المولى عبد الرحمن أولاده الى الحجاز وما اتفق لهم فى ذلك﴾

﴿وفى سنة أربع وسبعين ومائتين وألف﴾ بعث السلطان رحمه الله أولاده الى الحجاز بقصد أداء فريضة الحج وهم المولى على والمولى ابراهيم والمولى عبد الله والمولى جعفر وابن عمهم المولى أبو بكر بن عبد الواحد بن محمد بن عبد الله وبالغ السلطان رحمه الله فى حسن تجهيزهم بما لم يتقدم مثله لاخوتهم الذين حجوا قبلهم لامن الاموال ولامن الرجال ولامن الادوات والمراكب الفارهة والمرافق العديدة وبعث معهم من الاموال شيأ كثيرا لاشراف الحرمين ولخواص معينين من الفقهاء والمجاورين ووجه أكابر التجار والامناء العارفين بعوائد البلاد والاقاليم والامم مثل الحاج محمد ابن الحاج أحمد الرزينى التطاونى والحاج محمد أبى جنان البارودى التلمسانى وبعث معهم قاضى مكناسة الفقيه العلامة السيد المهدى بن الطالب بن سودة المرى الفاسى وأخاه الفقيه العلامة السيد احمد بن سودة فى جملة من الفقهاء يقرؤن عليهم ﴿أخبرنى﴾ الحاج عبد الكريم ابن الحاج أحمد الرزينى وهو أخو الحاج محمد المذكور آنفا أن السلطان المولى عبد الرحمن رحمه الله لما عزم على بعث أولاده الى الحجاز استدعى الامين الحاج محمد المذكور فدخل عليه فأوصاه بما تنبغى الوصاة به وأخبره ان المال الذى عينه للنفقة على الاولاد المذكورين هى نفقة جمعت من حلال بعضها من أصول بتافيلالت وبعضها من غيرها مما هو حلال وقال له احتفظ بذلك

المال

المال واجعل السخاء فيه بمنزلة الملح في الطعام اهـ ولما عزم الاولاد المذكورون على الانفصال الى وجهتهم أصحبهم السلطان رحمه الله وصية كافية شافية يقول فيها ما نصه الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه أولادنا عبد الله وابراهيم وعليا وأبا بكر وجعفرا وفقنا الله وإياكم للعمل بطاعته وحفظكم وأرشدكم وتولاكم وكان لكم في سائر أحوالكم والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته وبعد فانه لما كانت الاولاد قطع الاكباد وعماد الظهور وثمار القلوب وشفاء الصدور وجب أن يكون لهم الآباء السماء الظليله والسحابة المنيله وخير الآباء للابناء ما لم يدعه المودة للتفريط في الحقوق وخير الابناء للآباء ما لم يدعه التقصير الى المخالفة والعقوق قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الاولاد من رياحين الجنة وقال القائل

وانما أولادنا بيننا * أكبادنا تمشي على الارض ان هبت الريح على بعضهم * تمتنع العين من الغمض

هذا وان أولى ما تزوده الوالد لولده وصية يتخذها في سفره أمامه ومعتمده فاعلموا انا وجهنا كم لحج بيت الله الحرام وزيارة قبر نبيه عليه الصلاة والسلام واستودعنا كم الله الذي لا تضيع ودائعه فاقدروا قدر هذه الوجهة التي قصدتموها واعرفوا حق هذه العبادة التي يممتموها فتوجهوا لها بحسن النيه راجين من الله سبحانه بلوغ القصد والامنيه وأوصيكم بتقوى الله في السر والعلانيه فان خير الزاد التقوى وبما أوصى به ابراهيم بنيه يابني ان الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن الا وأنتم مسلمون وبما قال لقمان لابنه وهو يعظه يابني لا تشرك بالله ان الشرك لظلم عظيم يابني أقم الصلاة وامر بالمعروف وانه عن المنكر الآية واستوصوا ببعضكم بعضا خيرا وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة وأخوكم مولاي عبد الله أكبركم فكونوا عند اشارته فان للسن حقا في التقدم وفي الحديث الشريف كبر كبر ومنذ نوينا توجيهكم لهذه الوجهة السعيدة ونحن نجيل الفكر فيمن نوجهه معكم حتى وقع اختيارنا على خديمنا الحاج محمد الزريبي لكونه نعم الرجل واجتمع فيه من الاوصاف المحمودة ما افترق في غيره فكونوا له بمنزلة الاولاد البررة وليكن لكم بمنزلة الوالد الشفيق كما قال القائل

وكان لها أبو حسن علي * أبا برا ونحن له بنين

وآزرناه بالحاج أبي جنان البارودي لمروآته وحسن هديه وسمته وكلاهما خير والحمد لله وآثرناكم على أنفسنا بالفقيه الاوحد المشارك السيد المهدي بن سودة وتوجه معه أخوه وهو أيضا ممن يشفع بعلمه فأوفوا كل واحد منهم قسطه ومستحقه مما أرشد اليه الرسول فهذب وأدب اذ قال ليس منا من لم يوقر كبيرنا ويرحم صغيرنا ويعرف لعالمنا حقه وحافظوا على دينكم واشتغلوا بما يعنيكم واتركوا ما لا يعنيكم * ففي الحديث الشريف من حسن اسلام المرء تركه ما لا يعنيه واعكفوا على قراءتكم ولا تضيعوا الاوقات في البطالة خصوصا ما يتعلق بالعبادة التي أنتم بصددها فمن الآن اصرفوا كليتكم لقراءة المناسك وابدؤا بأسهلها وأقربها مناسك المرشد المعين ثم منها الى ما هو أوسع فروعا وأكثر مسائل وعلى الفقيه السيد المهدي المذكور أن لا يألو اجتهادا ونصيحة في تعليمكم والقراءة معكم واجعلوا أيضا وقتا مع أخيه فانه من طلبة الوقت المدرسين فلم يبق لكم عذر في التقصير والبطالة وكل من توجه معكم من الاصحاب والاتباع والدايات فهو في رعايتكم * وفي الحديث كلكم راع وكلكم مسؤل عن رعيته فعلموهم أمر دينهم ومناسك حجهم وخاطبوهم في ذلك على قدر ما يفهمون ليكون عملهم في صحيفتكم * وفي الحديث خيركم من تعلم وعلم * وفيه أيضا لان يهدي الله بك رجلا واحدا خير لك مما طلعت عليه الشمس وتحلوا بحلية أهل الفضل والكمال وكونوا على ما ينبغي من الادب مع الخلق ومع الخالق وهذبوا أخلاقكم وهشوا وبشوا الملاقاة الناس وعاملوا كل واحد بما يستحقه ولا زال الناس يذكرون هنالك أخاكم مولاي سليمان أصلحه الله ويدعون له في تلك الاماكن الشريفة لما رأوا من سعة أخلاقه وحسن بشره وبشاشته مع الناس وتعهد

اليكم أن لا تتركونا من الدعاء في أي موطن حللتموه من تلك المواطن الشريفة خصوصا عند الملتزم والمقام وغيرهما من الاماكن التي ترجى اجابة الدعاء عندها ونوبوا عنا في استلام الحجر الاسعد وفي زيارة قبر النبي صلى الله عليه وسلم والتسليم عليه وعلى صاحبيه أبي بكر وعمر رضي الله عنهما وعليكم بالاستقامة في جميع أموركم وسلوك سبيل الموافقة والائتلاف وترك المشاجرة والاختلاف ومخالفة الهوى والنفس والشيطان فان له مزيد تسلط بالشر في طرق الخيرفكونوا في جميعها على حذر قال تعالى ان الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا نسأل الله لكم الحفظ والسلامة والأمن والعافية ذهابا وايابا في أنفسكم ودينكم ودنياكم ونستودع الله دينكم وأمانتكم وخواتم عملكم فتوجهوا في حفظ الله على مهل حتى تصلوا الى القصر وأقيموا به في جوار أبي الحسن بن غالب نفعنا الله واياكم ببركاته كما فعل اخوانكم قبل فان المقام بالقصر خير من المقام بطنجة حتى يقدم البابور ويكتب لكم الخطيب بالاعلام وحينئذ توجهوا اليها راشدين وقد كتبنا بذلك الطالب محمد الخطيب وطالعوا الحاج محمد الرزيني على كتابنا هذا حين تتلاقوا معه ان شاء الله واعلموا اننا عينا عشرين ألف ريال بقصد أن يشترى بها حبس في سبيل الله عشرة آلاف ريال يشترى بها ما يكون حبسا بمكة وعشرة آلاف ريال يشترى بها ما يكون حبسا في سبيل الله بالمدينة المنورة وهي من جملة ما حاز الحاج محمد الرزيني ورفيقه فيما حازا من الصائر رجاء أن يبقى أجر ذلك جاريا منتفعا به ان شاء الله والسلام في السادس من رمضان المعظم عام أربعة وسبعين ومائتين وألف ﴿قال اكنسوس﴾ وكان ركوبهم من طنجة في قرصان النجليز فلما بلغوا الى الاسكندرية تلقاهم صاحب مصر بغاية الفرح والسرور وفوق ما يوصف من الاكرام والبرور وأنزلهم في أعز مساكنه وأبهاها وأبهجها وأشهاها وأعد فيها كل ما يحتاج اليه من أواني الفضة والذهب وفرش الحرير والديباج والنفائس الغريبة ورتب لهم الرواتب العالية من أنواع الاطعمة والاشربة الفاخرة الملوكية التي تناسب أقدارهم وأباح لهم الدخول الى كل محل أرادوا رؤيته من الابنية والمصانع والرياض والبساتين الملوكية التي يتعجب من رؤيتها وتنقل أخبارها فشاهدوا من ذلك ما لا يكشف حقيقته اللسان وما لا يظن أن تناله قدرة الانسان ثم ركبوا في بحر القلزم الى جدة فقضوا مناسكهم وشفوا غلاتهم من مباشرة شعائر الشريعة المطهرة من الطواف والسعي والوقوف وزيارة المشاهد المباركة وتوجهوا الى أعظم المقاصد وأسناها التي هي لنفوس المؤمنين غاية مناها زيارة شفيع الامم في الموقف الاعظم وكانوا صادفوا بمكة وخما وفساد هواء مات منه كثير من الحجاج الافاقيين فمات من أصحابهم جملة ومات من أولاد السلطان المولى ابراهيم والمولى جعفر الاول بمكة والثاني بالمدينة وسلم الله الباقي وأكرمه وأعلى مقامه وعظمه وجمع له بين شرف الحياة وثواب احتساب مصيبته لمن مات ولما فازوا بزيارة سيد الارضين والسموات ووافقتهم السعادة في ذلك المقام الذي تتضاءل دونه جميع المقامات وأدركوا ما أملوه من لثم تراب أشرف البقاع وأكرم الحجر وانفجر عليهم من كرم الله ما انفجر ونال كل واحد ما كان يؤمله ويرجوه خرجوا من المدينة راجعين بكل خير وغسلوا بالدموع ما كانوا عفروه في تلك الاماكن من الوجوه ولكن نالتهم مشقة فادحة من عتاة الاعراب في المسافة التي بين المدينة وينبع لانهم انفردوا عن الركب عند الرجوع لولا لطف الله لاستؤصلوا عن آخرهم ولقد كانت نجاتهم من تلك الشدة من أعجب العجاب وفي خلوصهم منها عبرة لاولي الالباب فانهم كمن بعث بعد مماته واقباره وانقطاع أنفاسه وأخباره والحمد لله الذي لا تخفر ذمته ولا تنتهك حرمته فلما بلغوا ينبع وجدوا المراكب التي تحملهم في انتظارهم فركبوا قافلين ورياح السلامة تسوقهم وأرباح التجارة والسعادة قد تكفل بها سوقهم فلما وردوا حضرة مراكش تحت ظلال السلامه وقد نشر عليهم القبول بنوده وأعلامه باتوا بقنطرة تانسيفت وفي الغد ركبت الخيول والعساكر السلطانية لتلقيهم وخرج أهل مراكش في زيهم وزينتهم وكان يوم

لقائهم

لقائهم يوما مشهودا وموسما من المواسم المعظمة معدودا اهـ ﴿وفي سنة خمس وسبعين ومائتين وألف﴾ وذلك يوم الجمعة السابع عشر من محرم منها توفي عالم فاس والمغرب والمجيد في صناعة التدريس والتحرير لا سيما مختصر الشيخ خليل الفقيه العلامة الاوحد أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن الفيلالي الفاسي وكان المصاب به خصوصا عند طلبة العلم عظيما ولم يترك بعده في اجادة تحرير المسائل الفقهية مثله رحمه الله ونفعنا به وفي ليلة السادس من شعبان منها بعد العشاء الاخيرة زلزلت الارض زلزالا يسيرا وفي رابع شوال من هذه السنة ورد المجاهد أبو محمد عبد الله بن محمد بن العربي فنيش السلاوي من مدينة لوندرة الى ثغر سلا ومعه مركب موسوق فيه سبعة عشر مدفعا ومهراسان عظيمان من المعدن وأشياء أخر من آلة الحرب وكان جلبه لذلك بامر السلطان المولى عبد الرحمن لعمارة البستيون الجديد بسلا الذي قدمنا ذكره قبل والله تعالى أعلم ﴿وفي هذه السنة﴾ ظهر الكوكب ذو الذنب أيضا وهي المرة الثالثة في هذه المدة

﴿وفاة أمير المؤمنين المولى عبد الرحمن بن هشام رحمه الله﴾

كان أمير المؤمنين المولى عبد الرحمن رحمه الله قد قدم مراكش فاتح سنة سبعين ومائتين وألف ولاول دخوله عزل الوزير أبا عبد الله الجامعي ورتب مكانه الفقيه أبا عبد الله غريط أياما يسيرة ثم استوزر الفقيه أبا عبد الله الصفار التطاوني واستمر السلطان مقيما بمراكش الى آخر سنة ثلاث وسبعين ومائتين وألف فغزى زمور والشلح واجتمع عليها هو والخليفة سيدي محمد على العادة ثم صار الخليفة الى مراكش وانحدر السلطان الى مكناسة فاستمر مقيما بها يغزو زمور الشلح ويعود اليها ويذهب في بعض الاحيان الى فاس الى ان دخلت سنة ست وسبعين ومائتين وألف فرض مرض موته وقد كان ابتدأ به وهو منازل لزمور فنهض عنها الى مكناسة وتمادى به مرضه الى ان توفي يوم الاثنين التاسع والعشرين من محرم فاتح سنة ست وسبعين ومائتين وألف ودفن بين العشاءين أول ليلة من صفر بضريح السلطان الاعظم المولى اسمعيل رحم الله الجميع بمنه وقد كنت رثيته بقصيدة شذت عني الآن وأولها

أمن طيف ذات الخال قلبك هائم * ودمعك هام واكتئابك دائم
وهل أذكرتك النائبات عشائرا * عفت منهم بعد المعالي معالم

ورثاه الفقيه أبو عبد الله اكنسوس بقوله

هذي الحياة شبيهة الاحلام * ما الناس ان حققت غير نيام
حسب الفتى ان كان يعقل أن يرى * منه لآدم رؤية استعلام
فيرى بداية كل حي تنتهي * أبدا وان طال المدا لتمام
والنفس من حجب الهوى في غفلة * عما يراد بها من الاحكام
أو ليس يكفي ما يرى متعاقبا * بين الورى من سطوة الايام
من لم يصب في نفسه فصابه * بحبيبه حكما على الزام
بعد الشبيبة شيبة يخشى لها * ذو صحة أن يبتلى بسقام
دار أريد بها العبور لغيرها * ويظنها المغرور دار مقام
منع البقاء بها تخالف حالها * وتكرر الاشراق والاظلام
لو كان ينجو من رداها مالك * في كثرة الانصار والخدام
لنجا أمير المؤمنين ومن غدا * أعلى ملوك الارض نجل هشام
خير السلاطين الذين تقدموا * في الغرب أو في الشرق أو في الشام
سر الاله ورحمة منشورة * كانت سرادق ملة الاسلام

قصدته عادية الحمام فاعدت * ان هددت علما من الأعلام
لم تحجب الحجاب منها طارقا * كلا ولا دفعت يد الاقوام
والملك فى عز مهيب شامخ * وامامه فى جرءة الضرغام
عجبا لها لم تخش من فتكاته * والاسد تزأر حوله وتحامى
عجبا لها لم تستحى من وجهه * والوجه أبهج من بدور غمام
عجبا لها لم ترع طول قيامه * متهجدا لله خير قيام
تبا لها لم تدر من فجعت به * من معتق وأرامل الايتام
أسفا على ذات الجلال وانه * لاجل من أسف وفرط هيام
يا مالكا كانت لنا أيامه * ظلا ظليلا دائم الانعام
لا ضير انك قد رحلت منعما * دار الهناء وجنة الاكرام
فى حضرة تغدو عليك بشائر * من حورها بتحية وسلام
ضاجعت فى تلك القصور كواعبا * درية الالوان والاجسام
تسقيك صرف السلسبيل مروقا * وتدير كاسا من مدام مدام
فلك الرضى فانعم بما أعطيته * ولك الهناء بنيل كل مرام

﴿بقية أخبار أمير المؤمنين المولى عبد الرحمن وسيرته ومآثره﴾

يكفيك أيها الواقف على أخبار هذا الامام الجليل السرى النبيل من مناقبه خصلتان احداهما شهادة عمه السلطان المولى سليمان له بالتقوى والعدالة والمحافظة على خصال الخير ونوافله حتى قدمه على بنيه حسبما مر ذلك كله مستوفى والثانية اقامته صلب هذه الدولة الشريفة بعد اشرافها على الاختلال وردها الى شبابها بعد أن حان منها الزوال والارتحال كما رأيته أيضا فعلى التحقيق أن المولى عبد الرحمن رحمه الله هو المولى اسمعيل الثانى وأما حزمه وضبطه وكمال عقله وتأنيه فى الامور ووضعه الاشياء مواضعها وتبصره فى مبادئها وعواقبها واجراؤها على قوانينها فما أظنك تجهل منه شيأ بعد ان قصصنا عليك ما مضى من أخباره رحمه الله وقد رأيت كيف نزلت به النوازل وترادفت عليه الهزاهز من غير معين يذكر أو وزير يعتبر الا فى القليل النادر فقام رحمه الله بأعباء ذلك كله وعالج حلوه ومره حتى رد النصاب الملكى الى أصله وأحل عزه فى محله وأما ورعه وصبره وحياؤه وتوقفه فى الدماء توقفا تاما الا اذا خصص الحق وصرح الشرع فكل ذلك أمر معلوم يعلمه الخصوص والعموم وأما آثاره بالمغرب فشئ كثير من ذلك ما افتتح به ولايته من بناء ما تهدم من مرسى طنجة وصير عليه مالا عظيما حتى أعاده أحسن وأحصن مما كان ومن ذلك تجديد الحرم الادريسى بفاس وبناء مسجده وتوسعته وتنميقه حسبما مر ومن ذلك البرجان العظيمان بسلا وأشبار الكبير المواجه للبحر منها والمارستان الكبير بضريح الشيخ ابن عاشر والمنار الشهير بالمسجد الاعظم منها ومخزن البارود بالقليعة وغير ذلك وأشبار الكبير برباط الفتح وبنى بأعمالها لحفظها وتأمين طرقها قصبتين كبيرتين احداهما الصخيرات والاخرى قصبة أبى زنيقة فأمن الناس بهما وارتفقوا بالتردد اليهما وجدد ما تهدم من أبراج الصويرة واعتنى بها وصير عليها أموالا ثقالا فجاءت فى غاية الاتقان والحصانة ومن آثاره بمراكش أجدال الشهير وتجديد جامع المنصور بالقصبة بعد ان لم يبق منه الا الاسم فأعاده الى حالته الاولى على ضخامته وانفساحه وعلو بنائه وتجديد جامع الكتبيين مرتين واصلاح قبة الشيخ أبى العباس السبتى رضى الله عنه والزيادة فى جامع الشيخ أبى اسحق البلغيقى بسوق الدقاقين منها وهدم جامع الوسطى واعادته على شكل بديع وهيئة حسنة وبناء جامع أبى حسون واقامة الجمعة به كما كانت أولا وبناء جامع القنارية والزيادة فيه

ومن

ومن آثاره بحضرة فاس العليا تجديد بستان آمنة المرينية ﴿قال اكنسوس﴾ وكان هذا البستان خرابا تألفه الوحوش مع انه بباب دار السلطان وفي سرة الحضرة وقد كان في الدولة المرينية على هيئة بهية فيه ظهرت زينة تلك الدولة وضخامتها وفيه مقاعدهم ومنازههم العالية ومجالسهم المشرفة على بساتين المستقى الى أن قال وبالجملة فقد كانت تلك العرصة منية من زينة الحياة الدنيا وجنة حائزة من البهجة المرتبة العليا ثم أخنت عليها الايام بصروفها ومحت من تلك الرسوم جميع حروفها فرآها الملوك قبل مولانا المؤيد فلم يرقوا لحالها ولا أنقذوها من أوحالها مع انها في جوارهم وعقر ديارهم فعطف الله عليها هذا السلطان المبارك فأعاد بعد الممات محياها وأبرز من ظلمات العدم جميل محياها

﴿الخبر عن دولة أمير المؤمنين سيدي محمد بن عبد الرحمن رحمه الله﴾

كان سيدي محمد بن عبد الرحمن بن هشام رحمه الله بعين الرضى من والده منذ نشأ وشب وكان متميزا عن سائر اخوته بشدة البرور بابيه ومتصفا بالسكينة والوقار والصلاح والتقوى وسائر خصال الخير واستخلفه أبوه صغيرا لجرى على السنن الاقوم وحمدت سيرته ولما رأى منه السلطان رحمه الله مخايل النجابة والصلاح فوض اليه وألقى بزمام مملكته بيديه ولم يدخر عنه شيأ من أمور الملك ووظائفه فاستلحق في أيام أبيه واستركب واتخذ العساكر وجند الاجناد وقدم وأخر وخفض ورفع وأعطى ومنع حتى كأنه ملك مستقل وكانت العادة انه اذا كان السلطان بمراكش كان سيدي محمد هذا بفاس أو بمكناسة وبالعكس فلما مرض السلطان رحمه الله مرض موته بمكناسة كان سيدي محمد بمراكش فلم يرعه الا ورود الكتب عليه من أخيه المولى العباس ومن الوزير أبي عبد الله الصفار ان السلطان قد أشرف ووقع اليأس منه فنهض سيدي محمد من مراكش متزعجا وجد السير لعله يدرك حياة أبيه فلما كان ببلاد السراغنة على مرحلتين من مراكش اتصل به الخبر بوفاة السلطان رحمه الله ثم قدمت عليه بيعة أهل الحضرتين فاس ومكناسة وجميع الجيش البخاري وسائر أهل الحل والعقد من أعيان القبائل والبربر فاسترجع السلطان لمصابه وشكر الله اذ أبقى أمر المسلمين في نصابه وكتب بالخبر الى مراكش وبعث بالبيعة الواردة عليه فاجتمع أهل مراكش على طبقاتهم بجامع الكتبيين وحضر عامل البلد يومئذ أبو العباس أحمد بن عمر بن أبي ستة وقائد الجيش السوسي بالقصبة أبو اسحق ابراهيم بن سعيد الجراوي وقواد الحوز من الرحامنة وغيرهم فقرئ كتاب السلطان سيدي محمد بن عبد الرحمن بالاخبار بموت والده واجتماع الناس على بيعته فارتفعت الاصوات بالترحم على السلطان الصائر الى عالم الرضى والرحمة وبالنصر لهذا الذي اختاره الله لحماية الامة وكتب أهل مراكش بيعتهم من انشاء أبي عبد الله اكنسوس وكذا الجيش السوسي وأهل الحوز وقدموا على السلطان سيدي محمد بمكناسة مؤدين الطاعة داخلين فيما دخلت فيه الجماعة فأكرم وفادتهم وأجل مقدمهم وأفاض عليهم من الاحسان ما غمرهم وكان مما قيل في تهنئته بالملك قول أبي عبد الله اكنسوس

وجوه الاماني حسنها متجدد * ومنظرها يحكيه خد مورد
قضى الحب في كل القلوب بأنها * ممالك أرباب الجمال وأعبد
وكم من عصي للهوى متعفف * يفتن من السود العيون ويبعد
تصيده ظبي على حين غفلة * مهفهف مستن الوشاحين أغيد
فاصبح مفقود الفؤاد مخبلا * وأي فؤاد عاشق ليس يفقد
ولله في أسر الغرام ونهره * نفوس ضعاف ليلهن مسهد
اذا الليل أضواها تكنفها الهوى * وليس لها غير الكواكب منجد
وذي ظما بين الضلوع يجنه * الى رشفات للصبابة تبرد

تراآه من منحنى الجـزع برقه * فظلت بان الجزع ثغر منضـد
وتذكـره تلك البروق مباسما * عليهن مرفض الجفان معقد
يراقب أسراب النجوم بمقـلة * تقسمها شطرين نسر وفرقد
ويهفو لايام العـقيق فتنثنى * مدامعـه مثل العقيق تبـدد
وهل يتناهى عهد من سكن اللوى * اذا العيش غض والحبائب تسعد
ومازالت الايام تغرى بنا النوى * وتنفى الذى نهواه عنا وتبعـد
ولست أبالى الـزمان صروفه * وكهفى ﴿أمير المؤمنين محمد﴾
خليفة رب العالمين بأرضـــه * وصارمه الشاكى الشبات المهند
امام تولى الله تشييـد ملكه * وناهيك ملكا بالاله يشـيد
وصفوة هذا الخلق من آل هاشم * وأعلى ذوى التيجان فخرا وأمجد
وأرحبهم فى العز باعا وفى العـلى * وأكثرهم فى الفضل حظا وأزيد
أتتـه عـروس الملك عاشـقة له * وكم عاشـق عنها يذاد ويطـرد
وألقت على شوق اليـه زمامها * فطاب لها منـه الجناب الممهد
فاصبحت الايام تزهو بعـدله * وتنعم فى ظل الهناء وتسـعد
ففى بابه مأوى المكارم والنـدى * وفى بابه الخـيرات تولى وتوجد
ودولتـه للعـز والنصر مألف * وحضرته للأمن واليمن موعد
تذل ملوك العالمين لبأســه * وتركع مهما أبصرته وتسجد
له راحة فى الجود ما الغيث عندها * وما البحر والدر النفيس المقلد
له أنعم تأوى الى ظلها المـنى * وتسحب أذيال السماح وترفد
وعزم على الخـيرات ليس بسامع * مقالة من فى المكرمات يزهـد
ورأى ينير الخطب عند اعتكاره * ويفسخ ما أيدى النوائب تعقد
ووجـه اذا ما لاح أيقنت انه * محياه وقت السعادة مولد
حيى كثير الابتسام مبارك * يكبر ربى ان بدا ويوحـد
أهز بهذا المدح منـه معاطفا * تجرذيول الفخر ان هو يحمد
له العسكر الجرار تبرق فى الوغا * صوارم منـه والمدافع ترعـد
يعـد الى الاعداء كل كتيبة * من الرعد يحدوها الوشيج المسدد
وكل كمى كالغضنفر مغضبا * وكل صـقيل وهو ماض مجرد
يبـد العدا قبـل اللقاء مهابة * فصارمه يفرى الطلى وهو مغمد
هو الملك المشهور بالحـلم والدها * وبالعلم والشهب الدرارى تشهد
تشـد لادراك الغـنى عنـد بابه * ركائب أنضاها الذوب المشـدد
يحدث عنه الوفد عند صـدوره * أحاديث من بحر اذا البحر يزبد
الى مجـده آمالنا قد تطاولت * وليس لها الاجـاه المـؤيد
فيا ملكا يحمى الرعيـة بأسـه * ويحييهم بالبذل والبذل أرغد
يدبر فيهـم كل يوم مصالحا * تعود بما يرضون والعود أحمد
ويشملهم بالعدل والفضل والندا * ويصلح بالصمصام من هو مفسد
هنيئا لك الملك الجـديد فانه * يدوم بحـمد الله وهو مسرمد

هنيئاً لنا نحن العبيد فانتا * بسودد مولانا الامام نسود
ودونك يا خير السلاطين كاعبا * بديعة حسن للنهى تتودد
تدير كؤس الراح دون تأثم * اذا هي أثناء المحافل تنشد
فلا زلت ما بين الملوك مخيرا * كما اختير ما بين المعادن عسجد

﴿وفي هذه الايام﴾ ظهر المولى عبد الرحمن بن سليمان بن محمد وقرب من فاس طالبا للملك قيل ان بعض أبناء عمه بفاس ومكناسة لما توفي السلطان رحمه الله كاتبوه واستحثوه للقدوم وواطأهم على ذلك بعض عبيد البخاري وبعض البربر الذين بأحواز مكناسة ولما قرب من فاس كان الفقيه أبو عبد الله محمد العربي بن المختار الجامعي يومئذ يلي أمر شراقة بها فقام في ذلك أحسن قيام وحمل الناس على الثبات والتمسك بطاعة أمير المؤمنين سيدي محمد بن عبد الرحمن فكان ذلك سببا في سكون هذه الفتنة وانحسام مادتها فرجع المولى عبد الرحمن بن سليمان عوده على بدئه وأيس من بلوغ قصده وأقام بزاوية العياشي عند البربر الى ان اضمحل أمره ولما قدم السلطان سيدي محمد رحمه الله من مراكش الى مكناسة اجتاز بمدينة سلا ونزل برأس الماء في الثالث والعشرين من صفر سنة ست وسبعين ومائتين وألف وبعد الزوال دخل في جماعة من حاشيته وزار الشيخ أبا محمد عبد الله بن حسون والشيخ أبا العباس أحمد بن عاشر رضي الله عنهما ودخل البستيون الكبير ورأى مدافعه منصوبة على عجلات الحديد وكانت تغوص في الارض اذا جرت من شدة ثقل المدافع فأشار بان يفرش لها بساط من العود الجيد المحكم الصنعة والتركيب حتى يتأتى جريانها عليه بلا كلفة فصنعت لها كما أشار رحمه الله وقد كنت مدحته بقصيدة لم يبق على ذكري الآن منها الا بيتان وهما

حوى العلويون المعالي كلها * وما منهم الا ذرى المجد صاعد
ولكن أمير المؤمنين محمد * هو البدر في العلياء وهي الفراقد

﴿انتقاض الصلح مع الاصبنيول واستيلاؤه على تطاوين ورجوعه عنها والسبب في ذلك﴾

كان السبب في انتقاض الصلح مع جنس الاصبنيول أن العادة كانت جارية مع أهل سبتة من النصارى وأهل اللانجرة من المسلمين أن يتخذ كل من الفريقين محلا للحراسة على الحدة التي بينهما وكان النصارى يتخذون هنالك بيوتا صغارا من اللوح والمسلمون يتخذون أخصاصا من البردي ونحوه فلما كان آخر دولة السلطان المولى عبد الرحمن رحمه الله بنى نصارى سبتة على الحدة بيتا من حجر وطين وجعلوا فيه علامة طاغيتهم المسماة عندهم بالكرونة فتقدم اليهم أهل الانجرة وقالوا لهم لا بد أن تهدموا هذا البيت الذي لم تجر العادة ببنائه وترجعوا الى حالتكم الاولى من اتخاذ بيوت الخشب فامتنع النصارى من ذلك فعمد أهل اللانجرة الى ذلك البيت فهدموه والى تلك الكرونة فنجسوها بالعذرة وقتلوا منهم أناسا وضيقوا على أهل سبتة بالغارات حتى كانوا يصلون الى السور فرفع أهل سبتة أمرهم الى كبيرهم بطنجة فتكلم كبيرهم نائب السلطان بها وهو يومئذ أبو عبد الله محمد ابن الحاج عبد الله الخطيب التطاوني وشكا اليه ما نال أهل سبتة من عيث أهل اللانجرة فدافعه الخطيب فلم يندفع وقال لا بد من حضور اثني عشر رجلا منهم بطنجة وسماهم بأسمائهم ولا بد من قتلهم جزاء على فعلهم فعظم الامر على الخطيب وربما كلم في ذلك باشدور النجليز فقال له احضر هؤلاء المطلوبين على عين الاجناس واذا حضروا وظهر حق الاصبنيول فأنا ضامن أن لا يصيبهم شئ فأعجب الخطيب ذلك وعزم عليه فاتصل الخبر باهل اللانجرة وأن الخطيب عازم على أن يكتب الى السلطان في شأن اثني عشر رجلا منهم بأعيانهم فمشوا الى الشريف سيدي الحاج عبد السلام بن العربي الوزاني وقالوا له ان الخطيب لا ينصح السلطان ولا المسلمين وان كل ما قاله النصارى يساعدهم عليه حتى جسرهم علينا ونحن جئناك لتعلم السلطان بامرنا وتسأله أن يمدنا بالقبائل المجاورة لنا ونحن نكفيه هذا المهم وفي أثناء هذه المدة توفي السلطان المولى عبد الرحمن رحمه

الله وولى ابنه سيدى محمد وقدم مكناسة واجتمعت كلمة أهل المغرب عليه فكتب له الشريف سيدى الحاج
عبد السلام بأمر أهل اللانجرة وقرر له مطالبهم فشاور السلطان فى ذلك بعض حاشيته فمال الى الحرب
وذلك كان الراجح عند السلطان لانه عظم عليه أن يمكن العدو من اثنى عشر رجلا من المسلمين وفق اقتراحه
واختياره يقتلهم بمحضر الملاء من تواب الاجناس ورأى رحمه الله أن لا يمكنه من مطلبه حتى يعذر فيه
فاستخار الله تعالى وبعث خديمه الحاج محمد ابن الحاج الطاهر الزبدى الرباطى الى الخطيب بطنجة وأمره
أن ينظر فى القضية ويستكشف الحال وأن لا يجنح الى الصلح الا اذا لم يجد عنه محيصا وكثر المتنصحون لدى
السلطان وهونوا عليه أمر العدو جدا مع انه ليس من السياسة تهوين أمر العدو وتحقيره ولو كان هينا
حقيرا فوصل الزبدى الى طنجة واجتمع بالخطيب وفاوضه فى القضية فوجد الخطيب جانحا الى السلم
فأبى أن يساعده على ذلك وأظهر كتاب السلطان بتفويض النظر اليه فى النازلة فتأخر الخطيب عنها وترك
الخوض والكلام فيها وآخر الامر أن الزبدى انفصل مع نائب الاصبنيول على الحرب وذهب الى حال
سبيله وأزال الاصبنيول سنجقه من طنجة وركب الى بلاده فى الحين وكتب الزبدى الى السلطان بالخبر
فكتب السلطان الى الثغور يخبرهم بما عقده مع الاصبنيول من الحرب وأمرهم أن يكونوا على حذر
وأن يأخذوا أهبتهم للجهاد وفتح السلطان بيت المال وأبدأ وأعاد فى تفريق المال والسلاح والكسى
وقدم أولا القائد المأمون الزرارى الى تطاوين فى نحو مائة فارس وخمسمائة من رماة العسكر فرابطوا
خارج تطاوين الى جهة سبتة ثم برز جيش الاصبنيول من سبتة فى نحو عشرين ألفا من العسكر فى غاية
الاستعداد وكمال الشوكة ونزل على طرف الحدة داخل أرضه وكان خروجه يوم السبت أواسط ربيع الاول
سنة ست وسبعين ومائتين وألف فنهض اليه أهل اللانجرة ومن جاورهم من قبائل الجبل وتسامع
الناس بذلك فقدموا من كل جهة حتى اجتمع منهم نحو الخمسة آلاف وزحفوا الى العدو وقاتلوه نحو
نصف شهر وكل يوم يقتل منه ضعف ما يقتل من المسلمين لان حربه كان زحفا بالصف وحربهم كان مطاردة
بالكر والفر فلا بد أن يهلك منه أكثر مما يهلك من المسلمين غير انهم لم يتمكنوا من مخالطته فى معسكره
ولا من هزيمته لانه كان يحصن على نفسه بأشبارات والمتاريزات بخناشى الرمل وغيرها غاية التحصين
ثم بعث السلطان رحمه الله أخاه الفقيه العلامة المولى العباس فى كتيبة من الخيل نحو الخمسمائة فارس
فنزل بموضع يعرف بعين الدالية قرب طنجة ثم بعد أيام زحف الى العدو فنزل بعد شر يقال له البيوت
باللانجرة واستمر القتال بين المسلمين والنصارى على نحو ما سبق نحو العشرة أيام ثم انتقل المسلمون
الى موضع آخر يعرف بابى كذان خوفا من كثرة العدو ودهمه اياهم فكان ذلك مما جرأ العدو عليهم
وأظهر الفشل فيهم وقاتلوا هنالك نحو الخمسة عشر يوما ثم ان العدو اجتمع يوما وتحمل بخيله ورجله
وزحف الى المسلمين فصدمهم بجميع قوته وشوكته فصبروا له وصدقوه اللقاء فردوه على عقبه
ولما لم يستقم له ذلك جمع نفسه ذات ليلة من غير شعور من المسلمين وركب البحر ونزل بمحل يعرف بالفنيدق
لانه كان هنالك فندق قديم وكان العدو فى تنقلاته هذه لا يفارق الساحل ليحمى ظهره بمراكبه البحرية
وكان بين الفندق ومحلة المسلمين نحو ساعة ونصف فأشار أهل الرأى على المولى العباس بان يتأخر قليلا
لكون العدو قد ضايقه فتأخر المولى العباس بالجيش الى موضع يعرف بمجاز الحصا فازداد طمع العدو
فى المسلمين وظهر له ضعف رأيهم فى مكائد الحرب وعدم ثباتهم لدى الطعن والضرب وكان قائد عسكر
الاصبنيول يسمى أردنيل ووزيره المشير عليه يسمى بريم ورينتهم يومئذ ايسابيلا الثانية ثم عاد المسلمون
الى مطاردة العدو ومقاتلته على نحو ما أسلفنا فكانوا يذهبون اليه وهو بالفنيدق فيقاتلونه من الصباح
الى المساء فكانوا ينالون منه وينال منهم وفى أثناء هذه المدة وفد جماعة من أهل تطاوين على السلطان
رحمه الله بمكناسة فاعظموا أمر العدو وتخوفوا معرته فى مالهم وأولادهم لانهم كانوا قد أحسوا بشدة

شوكته

شوكته فوعدهم السلطان رحمه الله بان يمدهم ويحامي عنهم ولا ينتزع عنهم شيأ من العدد والعدد حتى يعذر فيهم وفي غيرهم ثم ان العدو ارتحل من الفنيدق بعد نحو عشرة أيام وتقدم نحو تطاوين وكان الناس قبل هذا لا يدرون أين هو قاصد ولما ارتحل من الفنيدق عرفوا أنه قاصد تطاوين فنزل بموضع يقال له النيكرو فاقام هنالك نحو ثمانية أيام والقتال على حاله المتقدم غير أن العدو كان في مادة قوية من البر والبحر يصل اليه من سبتة وغيرها كل ما يحتاج اليه من طعام وعلف وأرز وشعير وبقسماط وغير ذلك حتى انه كان اذا ارتحل ترك من ذلك فضلة كثيرة يتعيش فيها ضعفاء أهل تلك الناحية وكان ذلك مكيدة مقصودة عنده يظهر بها القوة والرفاهية وكان شذاذ المتطوعة من أهل البادية يهجمون على معسكره بالليل ويجلبون منه البغال والثيران ويصبحون بها في تطاوين وغيرها وكان ضعفاء العقول من العامة يستحسنون ذلك وينشطون له ويرون أنهم قد صنعوا شيأ مع ان ذلك لا عبرة به في جنب ما كان يستولي عليه العدو من الارض ويتقدم به في نحر المسلمين وهم يتأخرون والحاصل ان المسلمين لم يكونوا يقاتلونه على ترتيب مخصوص وهيئة منضبطة انما كانوا يقاتلونه وهم متفرقون أيدي سبا فاذا حان المساء تفرقوا الى محالهم في غير وقت معلوم وعلى غير تعبية فكان قتالهم على هذا الوجه لا يجدي شيأ وكان العدو يقاتل بالصف وعلى ترتيب محكم وكانت عنايته بما يستولي عليه من الارض ويرى تقدمه الى أمام وتأخر المسلمين بين يديه الى خلف هزيمة عليهم ﴿وقد ذكر ابن خلدون﴾ في فصل الحروب قتال أهل المغرب الذي هو المطاردة بالكر والفر وعابه فقال وصفة الحروب الواقعة بين أهل الخليفة منذ أول وجودهم على نوعين نوع بالزحف صفوفا ونوع بالكر والفر أما الذي بالزحف فهو قتال العجم كلهم على تعاقب أجيالهم وأما الذي بالكر والفر فهو قتال العرب والبربر من أهل المغرب وقتال الزحف أوثق وأشد من قتال الكر والفر وذلك لان قتال الزحف ترتب فيه الصفوف وتسوى كما تسوى القداح أو صفوف الصلاة ويمشون بصفوفهم الى العدو قدما فلذلك تكون أثبت عند المصارع وأصدق في القتال وأرهب للعدو لانه كالحائط الممتد والقصر المشيد لا يطمع في ازالته ﴿وفي التنزيل﴾ ان الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص اه ولا زال العدو هكذا ينتقل شيأ فشيأ حتى وصل الى وادي يعرف بوادي آسمير وكان يتحرى في تنقلاته يوم السبت معتمدا في ذلك حكما نجوميا على ما قيل فلما احتل بآسمير صادفه ريح شرقية هاج من أجلها البحر حتى لم تقدر مراكبه أن تحاذيه قرب الساحل فانقطعت عنه مادة البحر وطلع ماء البحر في وادي النيكرو من خلفه فافعمه وقطع عنه المادة من سبتة كما طلع أيضا في وادي آسمير من أمامه فحبسه عن العبور وصار العدو متوسطا بين الواديين والبحر عن يساره وانقطعت عنه المواد حتى حكى بعض عسكره بعد ذلك اليوم أن الكايطة وهي خبزة صغيرة تشبه البقسماط كانت أول النهار تباع بسيطة وفي آخره بيعت بريال ولا وجود لها وأيقنوا بالهلاك لو وجدوا من ينتهز الفرصة فيهم ولكن أين اليد الباطشة وبقوا على تلك الحال يومين أو ثلاثة ثم سكن البحر وانفش الواديان وجاءه المدد ولما رأى المسلمون أن العدو وصل الى ذلك المحل تقهقروا ونزلوا بعدشر القلالين بينه وبين تطاوين نحو نصف ساعة ثم ان العدو عبر الوادي من آخر الليل وأصبح بموضع يقال له المضيق وكان متطوعة الاعراب في هذه المدة على قسمين الحازمون وأهل الغيرة منهم يقولون لولا انه بين الجبال ومتحصن بالمتارزات لفعلنا وفعلنا والآخرون يقول أحدهم ما لي وللتقدم الى هذه الشرشمة وانما أهل تطاوين يقاتلون عن تطاوينهم وأما أنا فحتى يصل الى بخيمتي في عبدة أو دكالة أو كلاما هذا معناه كأنه يعتقد انه لا تجب عليه نصرة المسلمين نعم الذين قاتلوا قتالا شديدا وأحسنوا الدفاع وقاموا بالنصرة بنية خالصة وهمة صادقة هم طائفة من شبان أهل فاس وطائفة من أهل زرهون والبعض من آيت يمور وخصوصا الحسين المعروف بابي ريالة منهم فانه أبدأ وأعاد وأتى بما لم يسمع الا في زمان الصحابة رضي الله عنهم ﴿حكى﴾ من

حضر وتواتر عنه أنه كان معلما براية صفراء وكان يضمها الى صدره ويسددها نحو العدو ثم يحمل على صفهم فيخرقه حتى يأتى من خلفه ويفتك فيهم أشد الفتك ثم يعود ويستلب خيل العدو ويقودها بارسانها ويأتى بها حتى يدفعها لمن بازائه وكان اذا تقدم نحو العدو يقول لمن حوله تقدموا فأنا درقتكم وأناسوركم تكرر ذلك منه المرة بعد المرة ولما أصبح العدو بالمضيق فارق البحر وصمد الى تطاوين فدخل بين جبلين وكان فى انتهاء ذلك المضيق الذى بين الجبلين من جهة تطاوين ويسمى فم العليق بعض أخبية أهل فاس وغيرهم فصمد العدو نحوهم وبغتهم بالكور والضوبلى وهو يقرع طبوله حتى أعجل البعض منهم عن حمل أثقاله ولما وصل الى هذا الموضع حصل بتطاوين انزعاج كبير واستأنف الناس الجد والاجتهاد والقتال وتذامر جيش المسلمين وكان اليوم شديد المطر وقاتلوا قتالا شديدا وأبدأ أبو ريالة وأعاد فى هذا اليوم هلك تحته فرسان وأرسل له المولى العباس فرسه وكان يعتنى به وينوه بقدره ويبعث الطبل يقرع على خبائه وأصابته فى هذا اليوم جراحة خفيفة وهلك من المسلمين والنصارى عدد كثير قيل هلك من أهل تطاوين فقط نحو الخمسمائة وكان الظهور فى ذلك اليوم للعدو ومن الغد ارتحل من فم العليق وعدل يسارا الى المرسى فنزل بها ليتمكن من مدد البحر واستولى على برج مرتيل وماوالاه كدار مرتيل التى هى الديوانة وبمجرد وصوله اليها حصنها باشبارات الرمل والمدافع وغير ذلك واتخذ بها دورا من اللوح وحوانيت منه وأقام مطمئنا وصارت المراكب تتردد له فى البحر بالاقوات والعدة والعسكر وجميع ما يحتاج اليه حتى استراح ثلاثة عشر يوما ولم يكن فى هذه المدة قتال ولا أنشبه العدو وفى هذه الايام ورد المولى أحمد بن عبد الرحمن فى جيش بعث به السلطان من مكناسة ونزل بموضع يقال له فم الجزيرة بالتصغير وكان المولى العباس نازلا بعد شر القلالين بمحل مرتفع يشرف على ما حوله ولما استراح العدو وصلحت أحوال جيشه أنشب القتال فكان يخرج فيحوم حول المحلتين فيقاتل ويرجع فكان يريم دائما يكون فى أول المقدمة على فرس أبيض مشهورا عندهم موصوفا بالشجاعة وجودة الرأى ثم ان العدو عزم على مصادمة المسلمين والهجوم على تطاوين فارتحل يوم السبت الحادى عشر من رجب سنة ست وسبعين ومائتين وألف وانكمش واجتمع وتقدم للقتال وأرسل جناحا من الخيل طالعا مع الوادى الى جهة المدينة وجناحا من العسكر الرجالة طالعا مع الغابة الى جهتها أيضا وزحف بعسكره شيأ فشيأ وهو فى ذلك يرمى الكور والضوبلى والبغال تجر المدافع والجناحان ممتدان يكتنفان محلة المولى أحمد ولما قربا منها وكادا ينطبقان عليها فر من كان بها وتركوا الاخبية والاثاث بيد العدو فاستولى عليها ونزل هنالك بعسكره وحصن عليه وتقهقر المولى العباس بجيشه حتى نزل خلف تطاوين وبقيت بينه وبين العدو وكان فى تقهقره هذا قد دخل المدينة ومر فى وسطها واضعا منديلا على عينيه وهو يبكى أسفا على الدين وقلة ناصره ولما استقر بالمحلة مع العشى خرج اليه أهل تطاوين وشكوا اليه ما نزل بهم من أمر العدو واستأذنوه فى تحويل أثاثهم وأمتعتهم وحريمهم الى مداشر الجبل وحيث يأمنون على أنفسهم قبل حلول معرة العدو بهم فاذن لهم وعذرهم وكان قبل ذلك قد منع الناس من نقل أمتعتهم وحريمهم لئلا يفتتنوا المسلمين ويجترؤا عليهم الهزيمة ولكى يقاتلوا عليها بالقالب والقالب فلما كان هذا اليوم وشكوا اليه أمر العدو الذى قد أطل عليهم ولم يبق الا أن يثب وثبة أخرى فيصير بها فى وسط البلد عذرهم وكان العدو حين نزل بفم الجزيرة عشية ذلك اليوم قد أرسل أربع كورات على تطاوين فوقعت فى وسط المدينة كأنه يعلمهم بانه قد أشرف عليهم ولم يبق دون أخذهم قليل ولا كثير ولما سمع الناس كلام المولى العباس انطلقوا مسرعين الى نقل أمتعتهم وقام الضجيج فى المدينة واختلط المرعى بالهمل وامتدت أيدى الغوغاء الى النهب وخلع الناس جلباب الحياء وانهار من كان هنالك من أهل الجبل والاعراب والاوباش ينقبون ويكسرون أبواب الدور والحوانيت والداخل للمدينة أكثر من الخارج وباتوا ليلتهم كذلك الى

الصباح

الصباح ولما طلع النهار وتراءت الوجوه انتقلوا من نهب الامتعة الى المقاتلة عليها فهلك داخل المدينة نحو العشرين نفسا وعظمت الفتنة وتخوف من بقي بتطاوين عاجزا عن الفرار فاجتمع جماعة منهم على الحاج أحمد بن على آبعير أصله من طنجة وسكن تطاوين وتشاوروا فيما نزل بهم فأجمع رأيهم على أن يكتبوا كتابا الى كبير محلة العدوّ أردنيل يطلبون منه أن يقدم عليهم لتحسم مادة الفتنة التي هم فيها فكتبوا الكتاب ووجهوه مع جماعة منهم فلما انفصلوا عن المدينة غير بعيد حتى عثروا على طلائع العدوّ يطوفون حول المدينة ويحرسون محلتهم فتسابقوا اليهم وهشوا وبشوا وسألوهم ما الذي أقدمكم فقالوا جئنا بكتاب الى أردنيل فابلغوهم اليه فاظهر أيضا البشر والفرح وقدم اليهم طعاما من الحلواء وقال لهم في جملة كلامه انى أفعل معكم مالم يفعله الفرنسيس مع أهل الجزائر وتلمسان يعني من الاحسان وكذب خذله الله فان ذلك من حيله التي يستهوى بها الاغمار ويفسد بها الدين والافأى احسان فعله الفرنسيس مع أهل الجزائر وتلمسان ألسنا نرى أن دينهم قد ذهب وان الفساد قد عم فيهم وغلب وان ذراريهم قد نشؤا على الزندقة والكفر الا قليلا وعما قريب يلحق التالى بالمقدم والله تعالى يحوط ملة الاسلام ويكسر بقوته شوكة الزنادقة وعبدة الاصنام ولما عرضوا على العدوّ الدخول الى بلدهم قال لهم أما اليوم فيوم الاحد وهو عيد النصارى ولا يحل لى التحرك والانتقال وأما غدا فانتظرونى في الساعة العاشرة من النهار فرجعوا الى أهلهم وأصحابهم وأعلموهم بمقالة العدوّ والحال ماحال والقتال لا زال وأبواب الحوانيت تكسر والدور تخرب والقوى يأكل الضعيف وباتوا ليلة الاثنين كذلك وأصبحوا من الغد كذلك ثم ان العدوّ استمدوا أخذ أهبته وتقدم الى تطاوين بعد ان فرق عسكره على جهتين فرقة مرت مع أردنيل على الجبانة قاصدة الباب الذي يفضي اليها وفرقة ذهبت مستعلية الى جهة القصبة والبرج ولما وصل أردنيل الى الباب وصل الآخرون الى القصبة فاما أردنيل فوجد الباب مغلقا وكلمه المسلمون من داخل المدينة فامرهم بالفتح فقالوا ان المفاتيح قد ذهبت في الفتنة فقال اكسروا الاقفال فكسروها ودخل ودخل معه كبراء عسكره فتوجه هو الى دار الحزن فنزل بها وافترق كبراء العسكر في المدينة بايديهم ورقات مكتوب فيها أسماء الدور التي ينزلون بها كل واحد بداره مكتوبة في ورقته فكان أحدهم يسأل عن دار الرزيني وآخر يسأل عن دار اللبادى وآخر يسأل عن دار ابن المفتي وهكذا بحيث دخلوا على بصيرة بامر البلد ودوركبارها فاستقر كل واحد منهم في داره التي عينت له وأما الذين ذهبوا نحو القصبة فانهم لما وصلوا الى السور أنشبوا فيه سلاليم من فن غلاظ برؤسها الخاطيف معوجة وتسلقوا فيها بسرعة ولما صاروا في أعلا البرج رفعوا أسنجقهم في أعلى الصارى وأخرحوا عليها مدفعا ولما سمع المشتغلون بالنهب والقتل حس المدفع رفعوا رؤسهم الى البرج وبجرد ماوقع بصرهم على بندرة العدوّ تلوح خرجوا على وجوههم فارين كالنعم الشارد فلا امر لله ولا حول ولا قوة الا بالله وأسفى على الدين وأهله ولما استقر العدوّ بالبلد رتب حكامها وكف اليد العادية عنها وولى على المسلمين الحاج محمد آبعير المذكور آنفا وكان دخوله الى تطاوين واستيلاؤه عليها ضحوة يوم الاثنين الثالث عشر من رجب سنة ست وسبعين ومائتين وألف ورثاها الاديب الشريف السيد المفضل أفيلال بقصيدة يقول فيها

يا دهر قل لى على مه * كسرت جمع السلامه
نصبته للدواهى * ولم تخف من ملامه
خفضت قدر مقام * للرفع كان علامه
ملكته لاعاد * ليست تساوى قلامه
فالدين يبكي بدمع * يحكيه صوب الغمامه
على مساجد أضحت * تباع فيها المدامه
كم من ضريح ولى * تلوح منه الكرامه
عاق فيه رهيب * صليبه ولجامه
ومنزل لشريف * وعالم ذى استقامه
صار كنيفا العلج * ولم يراع احترامه
وكم وكم من أمور * للدين فيها اهتضامه
تبكي عليها عيون * كآبة وندامه

تطوان ما كنت الا * بين البلاد حمامه أو كخطيب ترذى * من بعد لبس العمامه
بل كنت روضا بهيجا * زهرك أبدى ابتسامه أو كحياء عروس * علاه فى الخدّ شامه
فقت بهاء وحسنا * فاسا ومصر وشامه ومك بالعين دهر * ولا كزرقا اليمامه
ففرق الاهل حتى * لم يبق الا ارتسامه ما كان أحلى زمانا * وما ألذ غرامه
مضى لنا مع بدور * ذوى نهى وفخامه ما بين انشاد شعر * وبين انشا مقامه
وشملنا فى التئام * والبسط يهوى التئامه حتى السرور اليه * شوقا ورام التثامه
ساعده السعد حتى * نال المنى ومرامه يا حسنها من ليال * لو لم تصر كالمنامه
تطوان يا دار أنس * وخيس أهل الزعامه هل للوصال سبيل * فالهجر أكمل عامه
والقلب ذاب اشتياقا * وحسرة واستهامه والوجد أضعف جسما * وكاد يبرى عظامه
يا أهل تطوان صبرا * فما الخطب ادامه دوام حال محال * وهل لظل اقامه
ان غاب نجم سعود * ولاح نجم شآمه فسوف يطلع بدر * يمحو سناه ظلامه
فاعتصموا برجاء * وارعوا بصدق ذمامه وحسنوا الظن تنجوا * دنيا ويوم القيامه
وفوّضوا الامر لله * يكف عنا انتقامه مافاز الا ذكى * قدّم خيرا أمامه
حيث أقامه يرضى * ولو بقصر كنامه ولا يزل ذا انتظار * فى كل وقت ختامه
براقب الله سرّا * وجهرة باستدامه يطلب حسن ختام * وحلّ دار المقامه

ثم ان أردنيل بعد ان رتب الحكام بتطاوين عاد الى محلته وقسم عسكره قسمين وأنزله مكتنفا للبلد شرقا وغربا واختار منه عشرة آلاف فأدخلها المدينة وبقى هو خارجا باحدى المحلتين يقال أن جيشه كان يوم دخل تطاوين سبعين ألفا كلها مقاتلة فى غاية الاستعداد وكمال الشوكة ثم أمر بالنداء فى البلد أن من أوقد نارا تلزمه العقوبة الشديدة حذرا من أن تكون هنالك مينا للمسلمين أو ما أشبهها فبقى الناس على ذلك نحو أربعة أيام لم يوقدوا فيها نارا ونادى أيضا بأمان من فر من أهل البلد ولم يأت الى متاعه وأصله الى سبعة أيام فلا شئ له بعد ولم يقدم شيأ على نقل البارود والمدفع الذى كان للمسلمين بالمدينة فأما المدفع فحمله الى اصبانيا وأما البارود فجعله بضريح ولى الله تعالى سيدى السعيدى وكذا فعل بجميع آلات الجهاد ثم عمد الى ضريح سيدى عبد الله البقال فجعله كنيسة وجعل مسجد الباشا مختزنا للارز والشعير ومسجد القصبة مختزنا للكايط ثم سار فى المسلمين بالتوقير والاحترام ولم يسمهم خسفا ولا كلفهم شغلا ولا اقتضى منهم مغرما كان يتألفهم بذلك ومن باع منهم شيأ أضعف له فى الثمن وأربحه وكذا فعل مع أهل المداشر الذين حول البلد حتى اتخذ الناس سوقا بموضع يعرف بكدية المدفع خارج تطاوين وشاع خبره فى قبائل الجبل فانهار واعليه من كل جانب وربحت الناس فيه ثم كتب أردنيل كتبا وبعث بها الى قبائل الجبل يعدهم ويمنيهم ان هم قدموا عليه وخالطوه بالبيع والشراء ويتوعدهم ان لم يفعلوا فقدموا من كل أوب وارتفعت الاسعار فزادت ضعف ما كانت عليه وأكثر واستمرت كذلك فلم ترجع بعد ثم أخذ فى ترتيب بناء المدينة وتبديل شكلها حسبما جرت به عادة النصارى فى مدنهم فهدم مالم يوافق نظره وفرز الدور من سور البلد وكل دار كانت ملتصقة بالسور فصلها عنه واستمر على هذا الحال نحو العشرين يوما ثم دار الكلام بينه وبين المولى العباس فى الصلح وتسامع الناس به ففرح المسلمون والنصارى معا أما المسلمون ففرحهم ظاهر وأما النصارى فانهم وان كان لهم الظهور فهم لا يدركونه سهلا بل مع القتل العظيم والجرح الكثير والمشقة الفادحة قال تعالى ان تكونوا تألمون فانهم يألمون كما تألمون وترجون من الله مالا يرجون هذا الى مفارقة بلادهم التى ألفوها وعوائدهم التى ربوا عليها الاسيما عامة جيشهم الذين الغلبة فى ضمن هلاكهم فدماؤهم هى ثمنها كما قيل * بجبهة العير يفدى حافر الفرس * (حكى من حضر

أن عسكر النصارى لما سمعوا بتناول الصلح حصل لهم من الفرح أضعاف ما حصل للمسلمين وصاروا يترددون اليهم ويبحثونهم عما تجدد من الاخبار وكلما سمعوا بشئ من أمر الصلح طاروا فرحا وذلك لان قتال النصارى كله على الاكراه اذ لا يمكن عسكريا منهم أن يفر من الزحف حال القتال لان الخيالة والسيافة من ورائهم يذمرونهم الى أمام ومهما رجع أحد منهم الى خلف وترك فى الصف فرجة ضربت عنقه فى الحين فالموت عندهم فى الفرار محقق وفى التقدم مظنون فيختارون المظنون على المحقق اللهم الا اذا اشتدت الحرب وحمى الوطيس واختلط الرجال بالرجال أمكن الفرار حينئذ لاشتغال الرئيس والمرؤس كل بنفسه وبهذا الضبط لم تتفق لهم هزيمة منذ خرجوا من سبتة ومن عادة العدو فى الحرب انه اذا نهد للقتال ارتحل بجميع ما فى عسكره كأنه مسافر فترى العسكرى منهم اذا تقدم للقتال حاملا معه جميع ما يحتاج اليه من ماء وطعام وبارود ورصاص حتى الموسى والمقص والمرآة والصابون وغير ذلك قد اتخذ لجميع ذلك أوعية لطافا وعلقها عليه فلا يؤوده حملها الا انه اقتصر من كل على قدر الحاجة وأما الاخبية فيحمل كل ثلاثة رجال خباء ولا تلحقهم كلفة فى حمله لان أخبيتهم فى غاية اللطافة والصفاقة وأعمدتها لطاف صلبة فهى مع كفايتها على الوجه الاتم فى غاية الخفة بحيث اذا ألف الخباء بما فيه كان كلا شئ ولو أراد أن يحمله واحد لفعل لكنه يقسمه ثلاثة أشخاص زيادة فى الرفق ولئلا يحصل الضجر اذا طال السفر وأما المدافع فقد اتخذوا لها عجلات أفرغت افراغا وركبت عليها على وجه محكم واتخذوا للعجلات بغالا أخصية تجرها فى غاية الفراهة والارتياض ويجعلون فوق تلك العجلات صناديق الاقامة من بارود ورصاص وضوبلى وغير ذلك وتجلس الطبجية على تلك الصناديق ويقوم آخرون حولهم قد أخذوا أهبتهم للقتال بكل ما يمكن ثم تندفع العساكر على هذا الترتيب صفوفا صفوفا وتتقدم شيأ فشيأ يخالف بعضها بعضا كأنها أمواج البحر تبرق الشمس على طوس رؤسها وتلمع على عددها المصقولة وآلاتها وهو فى هذه الحالة لا يفتر من رمى الكور والضوبلى والشرشم على كل جهة هكذا قتاله أبدا واذا أدركه المساء أو وقعت محاجزة أثناء النهار وكان قصده الثبات ثبت بمحله ذلك ولا يتزحزح عنه بحال الا اذا فنى كل عسكره أو جله فبمثل هذا الضبط كان له الاستيلاء والظهور وأما مقاتلة المسلمين له فكانت غير منضبطة وانما قاتله من قاتله منهم باختياره ومن قبل نفسه وان كان هنالك ضبط من أمير الجيش فكلا ضبط ومتى ظهر له أن يذهب ذهب مع ان الله تعالى يقول واذا كانوا معه على أمر جامع لم يذهبوا حتى يستأذنوه ولكن المقاتل من المسلمين يأتى القتال وليس معه ما يأكل ولا ما يشرب فبالضرورة اذا جاع أو عطش ذهب يبحث عما يقيم به صلبه ثم هم يقاتلون على غير صف ولا تعبية بل يتفرقون فى الشعاب ومخارم الاودية وحول الاشجار فيقاتلون من ورائها واذا دفعوا فى نحر العدو دفعوا زرافات ووحدانا ثم اذا أدركهم المساء ووقعت المحاجزة ذهب كل الى خبائه الذى تركه وراءه بمسافة بعيدة وهم فى هذا كله ليس لهم وازع يحملهم على ما يراد منهم ﴿فالحاصل﴾ أن جيش مغربنا اذا حضروا القتال وكانوا على ظهور خيولهم فهم فى تلك الحال مساوون فى الاستبداد لامير الجيش لا يملك من أمرهم شيأ وانما يقاتلون هداية من الله لهم وحياء من الامير وقليل ما هم وقد جربنا ذلك فصح ففروا عن السلطان المولى سليمان فى وقعة ظيان أولا وفى وقعة الشراردة ثانيا وكان السلطان المولى عبد الرحمن أهيب فى نفوسهم منه فكانوا يلازمون غرزه لكنه لما بعثهم الى تلمسان فعلوا فعلاتهم وسلكوا عاداتهم ولما شهدوا مع الخليفة سيدى محمد بن عبد الرحمن وقعة ايسلى جاؤا بها شنعاء غريبة فى القبح ولولا انه قام بنفسه ليلة الحاج عبد القادر ومنع الناس من الركوب لرجعوا الى فعلهم وأحسن ما كانت حالهم فى هذا الحرب فانهم قاوموا العدو وترقوا اصفوفه غير مرة لكنهم أتوا من عدم الضبط الذى هو كضبطه فعدم ملاقاتهم للعدو فى الكيفية القتالية هو الذى أضر بهم وأوجب لعدوهم الظهور عليهم اذ الشئ كاملت

انما يقاوم بمثله والشر انما يدفع بضده فالتنافي انما يحصل بين الضدين أو المثلين وحروبنا وحروب الاصبنيول
كان من باب الخلافين ولا تنافي بين الخلافين كما هو مقرر في علم الحكمة والتوفيق انما هو بيد الله
﴿ولنرجع﴾ الى الكلام على الصلح المتناول فنقول لما دار الكلام بين المولى العباس رحمه الله وبين أردنيل
في الصلح اتعدوا للاجتماع في يوم معلوم بمكان سوى بين المحلتين فلما كان ذلك اليوم ضرب بالمحل المعين
خباء وجاء المولى العباس ومعه جماعة من وجوه جيشه وفيهم أبو عبد الله الخطيب التطاوني وخرج أردنيل
ومعه جماعة من وجوه عسكره وخرج معه مقدم المسلمين بتطاوين الحاج أحمد أبعير رجاء أن يكون هو
الترجمان بين الاميرين فيفوز بذكر ذلك الجمع ونخره فاخفق رجاؤه لانه لما توافى الجمعان الى الخباء بقي
الناس كلهم قائمين على بعد منه ولم يدخله الا المولى العباس وأردنيل والخطيب لا رابع لهم فيما قيل وأبدى
أردنيل من الادب والخضوع للمولى العباس ما جاوز الحد وتفاوضوا ساعة ثم انفض المجلس وتناقل الناس
ان حاصل ما دار بينهما أن أردنيل رغب في الصلح وتأكيد الوصلة بينهم وبين المسلمين على شروط ذكرها
وان المولى العباس توقف فيها وأحال ذلك على مشورة أخيه السلطان سيدي محمد وذهب كل الى سبيله
وبقي الناس ينتظرون الجواب بأي شئ يأتي من عند السلطان وبعد أيام ورد الخبر بان السلطان لم يقبل
ذلك الصلح فاستمر الناس على حالتهم الاولى من كون محلة العدو بتطاوين وبعضها خارجها شرقا وغربا
ومحلة مولاي العباس على بعد من البلد مقدار نصف يوم ثم ان المسلمين اجتمعوا ذات يوم وبيتوا محلة
العدو النازلة خارج البلد في ليلة معلومة فتقدموا اليها وذلك في أواخر شعبان سنة ست وسبعين ومائتين
وألف وهجموا عليها في ليلة مظلمة والنصارى غارون وفتكوا فيهم فتكة بكرا ثم بقوا يقتتلون الليل كله
ومن الغد كذلك الى المساء وقاتل النصارى ذلك اليوم أيضا ولكن الظهور كان للمسلمين ولولا قوة نفوس
العدو باستنادهم الى البلد وتحصن كبيرهم بها لكانوا انكسروا كسرة شنيعة وكان عدد القتلى من
النصارى في هذه الوقعة نحو الخمسمائة والجرحى أكثر من ألف وأما المسلمون فكان القتل فيهم ضعيفا
ولما أصبح أردنيل ورأى ما حل بعسكره ساءت أخلاقه وقلب لاهل تطاوين ظهر المجن وأبدل تلك الشفقة
التي كان يعاملهم بها بالغلظة والبشاشة بالاكفهرار وعمد الى مسجد الشيخ أبي الحسن علي بركة رحمه الله
فاتخذه مارستانا للجرحى فطالت الجرحى تنقل اليه وفرض على أهل تطاوين اللحف والقطائف فجمع
من ذلك شيأ كثيرا فرشه بالمسجد المذكور لجرحاه وصار عامة عسكر النصارى بتطاوين كلما لقوا أحدا
من المسلمين عيروه بالغدر وقبحوه ثم ان أردنيل أقام بعد هذه الوقعة نحو عشرة أيام ريثما استجم جيشه
وأبلت جرحاه وخرج في تمام الشوكة وكمال الاستعداد يريد أن يضرب في محلة المسلمين فجعل تطاوين خلفه
وتقدم حتى كان بوادي أبي صفيحة فلما شعر به الناس من أهل المداشر والمتطوعة تسابقوا اليه من كل
جانب ووافق ذلك اليوم قدوم عرب الحياينة جاؤا في جد كبير وحنق شديد فقويت قلوب الناس بهم
واشتد أزرهم وتقدموا الى العدو فانتشبوا معه الحرب بأبي صفيحة قبل أن يصل الى محلة المسلمين وكثروه
فاوقعوا به وقعة أنست ما قبلها فقتلوا منه ما خرج عن الحصر وأما الجرحى فقل ما شئت وكست قتلاه
الارض ولما أعياه الدفن جعل يجمع الجماعة من الثمانية الى العشرة ويهيل عليها التراب ومع ذلك بقي منه
عدد كبير بلا دفن حتى أنتن موضع المعركة من شدة نتن الجيف ونال المسلمون من عدوهم في هذا اليوم
ما لم ينالوا قبله مثله ولا ما يقاربه وكان الذكر فيه لعرب الحياينة ثم للمتطوعة غيرهم وأما محلة المولى
العباس فكانت بعيدة عن المعركة بمسافة كبيرة ﴿وقد ذكر منويل﴾ خبر هذا اليوم فاقر بانه أهرق
منهم دم كثير وخسروا فيه عددا كبيرا من نفوس العسكر والخيل ولما بلغ المولى العباس أن العدو قد
برز من تطاوين وان المسلمين يقاتلونه الآن في أبي صفيحة قلب رأيه واستأنف النظر في عاقبة أمره ورأى
أن المسلمين وان نالوا من العدو في هذه المرة وأبلغوا في نكايته لكن الثمرة ضعيفة من جهة ان نكايتنا له

اغناهي في القتل والجرح ونكايته في أخذ الارض والاستيلاء عليها كما قلنا غير مرة فجنح رحمه الله الى
الصلح واختاره على الحرب حتى تدور للمسلمين سعود ان شاء الله ﴿أخبرني﴾ صاحبنا القائد الاجل أبو عبد
الله محمد بن ادريس بن حمان الجراري حفظه الله قال لما طالت الحرب بين المسلمين والنصارى على تطاوين
استدعاني السلطان سيدي محمد بن عبد الرحمن رحمه الله وأعطاني ستين ألف مثقال أذهب بها الى جيش
المسلمين المرابط على تطاوين بقصد المؤنة والصائر وقال لي مع ذلك اذا وصلت الى محلة المسلمين فانظر حالهم
وتبصر في جميع أمورهم وما هم عليه في قتال عدوهم من الضبط وعدمه وهل هم مكفيون في جميع
ما تدعو الحاجة اليه أم لا واستوعب ذلك وائتني بالامر على وجهه قال فذهبت فوصلت الى المحلة
يوم الخميس وفي صبيحة اليوم الذي يليه كان حرب أبي صفيحة فجاء النذير الى المولى العباس وأخبره بان
المسلمين الآن يقاتلون العدو قال فركبت في جماعة من الناس وذهبت لانظر حال المسلمين وحال عدوهم
كما أمرني السلطان رحمه الله فوصلت الى مقاتلة المسلمين فاذا هم يرتادون موضعا ينزلون به أثقالهم
ويضربون به أخبيتهم ليتفرغوا القتال عدوهم فاذا هم عزموا على النزول بوادي آكراز فأجهضهم العدو
عنه بالرمي بالكور والضوبلي وهو متقدم أمام لا يثنيه شئ فتأخروا عن ذلك المحل ونزلوا بمحل أمنوا به
على أخبيتهم وأثاثهم ثم تقدموا اليه وقاتلوه قتالا شديدا حتى ردوه على عقبه بالموضع المعروف بآمصال
مرتين أو ثلاثا وقتلوا منه ما جاوز الحصر وفي ذلك اليوم استشهد عامل سفيان وبني مالك أبو محمد
عبد السلام بن عبد الكريم بن عودة الحارثي وبات العدو تلك الليلة بوادي آكراز الذي كان المسلمون
أرادوا أن ينزلوا به وباتت محلة المسلمين بالفنيديق وتفرق جل متطوعتها كل الى حال سبيله على عادتهم
وكان الوقت وقت شتاء وبرد غاية قال فلم يعجبني ذلك ومن الغد وهو يوم السبت أصبح العدو مقيما
والمسلمون مقيمين كذلك وكان الرأي أن يعاجلوه بوقعة أخرى ويلحوا عليه كي يكسروا شوكته ويهضموا
ما دام متألما ولا يتركوه حتى يجم ويستريح لكنهم لم يفعلوا ودار الكلام في ذلك اليوم في الصلح فأذعن
كل من الاميرين أمير المسلمين وأمير النصارى وجنحوا اليه لانهم كانوا معا قد سئموا الحرب وملوا القتال
ثم من الغد وهو يوم الاحد تداعوا للاجتماع بعد ان نهض العدو من محله الذي كان نازلا به واجتمع
وانكمش وأظهر القوة بالتهيء للحرب والتعبية للقتال حتى انه اذا كان صلح فذاك والا فالقتال فعل ذلك
مكيدة والحاصل أن المولى العباس تقدم في جماعة من وجوه الجيش وتدنى أردنيل في جماعة من أصحابه
كذلك بعد ان أمر بضرب خباء صغير يجتمعان به وتقدم أردنيل على الخباء بكثير لملاقاة المولى العباس
واظهار اللادب معه فتلاقى به وعادا معا الى الخباء وحضر معهم الترجمان ورجلان آخران وأبرموا الصلح
وأعطى كل خط يده بذلك وانفصلوا وذهب كل الى محله وكان ذلك آخر حرب بين المسلمين والاصبنيول
ولما وصل الخبر بانعقاد الصلح الى عسكر النصارى فرحوا فرحا لم يعهد مثله وجعلوا ينادون الباص
الباص أي الصلح الصلح ودخلوا تطاوين وهم رافعون بها أصواتهم ومهما لقوا مسلما هشوا له كأنهم
يهنؤنه بالصلح وكان الصلح قد انعقد بين المسلمين والاصبنيول على شروط منها أن يدفع السلطان اليهم
عشرين مليونا من الريال ويخرجوا من تطاوين وما استولوا عليه من الارض التي بينها وبين سبتة
الاشيأ يسيرا زادلهم في الحدة على سبيل التوسعة وكان انعقاد هذا الصلح في أواخر شعبان سنة ست وسبعين
ومائتين وألف وتراخى السلطان رحمه الله في دفع هذا المال فاستقر العدو مقيما بتطاوين حتى يستوفيه
وبعد سنة من يوم هذا الصلح استوفى عشرة ملايين منه وبقيت عشرة وقع الاتفاق فيها على أن يقتضيها
العدو من مستفاد مراسي المغرب فأقام أمناءه بها لاقتضاء نصف داخل كل شهر منها وهم الآن بهذا
الحال والله تعالى يكفي المسلمين شرهم وشر كل شر وبعد ما وقع هذا الاتفاق أسلم النصارى تطاوين الى
المسلمين وكان خروجهم منها ضحوة يوم الجمعة الثاني من ذي القعدة سنة ثمان وسبعين ومائتين وألف

بعد ان مكثوا فيها سنتين وثلاثة أشهر ونصفا ووقعة تطاوين هذه هي التي أزالت حجاب الهيبة عن بلاد المغرب واستطال النصارى بها وانكسر المسلمون انكسارا لم يعهد لهم مثله وكثرت الجنايات ونشأ عن ذلك ضرر كبير نسأل الله تعالى العفو والعافية في الدين والدنيا والآخرة ولما فرغ السلطان رحمه الله من أمر تطاوين جد في جمع العسكر المرتب على الترتيب المعهود اليوم وكان هذا السلطان أول من أحدثه من ملوك المغرب وكان احداثه اياه في دولة أبيه رحمه الله بعد رجوعه من وقعة ايسلي مع الفرنسيس ثم جد فيه في هذه الايام فجمع منه ما تيسر جمعه ثم رتب المكوس على الابواب والمبيعات وكتب في ذلك كتاب الآفاق فمما كتبه لامناء مرسى الدار البيضاء في ذلك ما نصه وبعد فاننا لما أخذنا في جمع النظام للمصلحة المتعينة الواضحة البينة المقرر أمرها الذي الخاص والعام واجتمع منه عدد يسير واختبرنا ما صبر عليه في شهر واحد فاجتمع فيه عدد كثير فكيف ان جمعنا منه عددا معتبرا يحصل به المراد ويكون قذى في أعين أهل العناد اقتضى الحال ذكر ذلك لكبراء التجار لينظروا فيما يستعان به على أمرهم اذ لا بد من كفايتهم والا انحل نظام جمعهم وفي ذلك ما لا يجهله من له أدنى عقل ومحبة في الدين فاشار وابفرض اعانة لا ضرر فيها على الرعية وسطروها في ورقة وهي كلا شئ بالنسبة لما ارتكبه الملوك في مثل هذا للاستعانة به على المصالح المرعية وللضرورة أحكام تخصها كما هو معلوم مقرر ومسطر في غير ما ديوان محرر ثم اقتضى نظرنا أن نسند الامر في ذلك لاهل العلم ليقرر والناس حكمه تقريرا تنشرح له الصدور ويعمل بمقتضاه في الورود والصدور وان كان جاهم يعلم هذا اذ من المعلوم أن الرعية لا يستقيم أمرها الا بجند قوي بالله ولا جند الا بمال وهو لا يكون الا من الرعية على وجه لا ضرر فيه وقد أخذ الناس هذه مدة بحضرتنا العالية بالله وبمكناسة وتازا والعدوتين ومراكش في ذلك وسلكوا في ترتيبه أحسن المسالك ولا نشك أن بركة ذلك تعود عليهم في أموالهم وأولادهم وأنفسهم فبوصول هذا اليكم قوموا على ساق الجد في القبض من الناس بالباب على نحو ما في الورقة المشار اليها ولا دخل للنصارى في ذلك والله أسأل أن يبارك للمسلمين في مالهم ويعوضهم خلفا آمين والسلام في الثاني والعشرين من رجب الفرد الحرام عام سبعة وسبعين ومائتين وألف واذ انجر بنا الكلام على اتخاذ العسكر وترتيبه فلا بد من تتميم الفائدة بذكر كلام نافع

القول في اتخاذ الجند وترتيبه وبعض آدابه

اعلم أنه واجب على الامام حماية بيضة الاسلام وحياطة الرعية وكف اليد العادية عنها والنصح لها والنظر فيما يصلحها ويعود عليها نفعه في الدين والدنيا ولا يمكنه ذلك الا بجند قوي وشوكة تامة بحيث تكون يده غالبة على الكافة وقاهرة لهم فاتخاذ الجند اذا واجب وعليه فينبدب له أن يتخذ لهم ديوانا يجمع أسماءهم ويحصي عددهم ليحصل الضبط وينتفي اللبس وأول من اتخذ الديوان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه أمر عقيل بن أبي طالب ومخرمة بن نوفل وجبير بن مطعم وكانوا من كتاب قريش فكتبوا ديوان العساكر الاسلامية على ترتيب الانساب مبتدأ من قرابة رسول الله صلى الله عليه وسلم فما بعدها الاقرب فالاقرب فهكذا ينبغي للامام أن يرتب جنوده في ديوان يحفظها ودستور يجمعها ثم ينبغي أن يكون عنده أولا ديوان كبير هو الام يجمع أسماء العساكر كلها الحاضرة والغائبة والخاصة والعامة ثم يجعل دواوين صغارا يشتمل كل واحد منها على طائفة مخصوصة مثل عسكر الامام الذي يلازمه حضرا وسفرا وعساكر الثغور والقلاع ونحو ذلك وتكون هذه الدواوين الصغار بمنزلة الفروع للكبير تجدد كلما تجددت الطوائف كما سيأتي وكل ديوان منها يشتمل على أرحاء مثلا وكل رحى على مئين وكل مائة بضباطها وطبيبها وعالمها الذي يعلمها أمر دينها وغير ذلك ﴿قال صاحب مصباح الساري ما ملخصه﴾ كانت الدولة العثمانية في أول أمرها اذا استخدمت طائفة من الجند بقيت في الخدمة طول عمرها ولما كان

هذا

هذا الامر صعبا يعني وغير مقتض للتسوية بين الرعية في هذا الحق العظيم اقتضى نظرهم أن يعملوا القرعة بين أبناء الرعايا عند انتهاء كل خمس سنين فمن استكمل مدة خدمته وتبصر بما يلزمه من حرب عدوه وقدر على المطالبة والمدافعة ذهب الى حال سبيله لطلب معيشته فذو الحرفة يرجع الى حرفته والتاجر الى تجارته وهكذا ويؤتى بطائفة أخرى بدلها حتى تصير الرعية كلها جندا قادرة على المطالبة والمدافعة متى احتاجت الى ذلك ثم من استوفى مدة خدمته بقي معدودا في صنف الرديف سبع سنين أخرى ومعنى الرديف انهم يكونون عدة للدولة متى احتاجت اليهم في نازلة عظيمة أو حرب عامة مثل ما يكون بين الاجناس فاذا انسلخت السبع سنين فهو حر دائما وأبدا فلا يضرب عليه بعث ولا يكلف بغزو الا أن يشاء فجملة مدة الخدمة العسكرية بين أصلية ورديفية اثنتا عشرة سنة وشرط المستخدمين في العسكر أن يكونوا في سن العشرين الى خمس وعشرين سنة فمن زاد على ذلك أو نقص لا تقبله الدولة لينضبط الامر وان اصطلح على أقل من ذلك أو أكثر فلا بأس فاذا أريد اعمال القرعة بينهم وذلك عند رأس خمس سنين كما قلنا اجتمع كل من هو في ذلك السن من أهل الناحية مثل مراكش وأعمالها وفاس وأعمالها والعدوتين وأعمالهما في يوم معلوم من السنة لا يتقدم ولا يتأخر فيحضر نائب السلطان ويحضر القاضي والشهود وتكتب بطائق على عدد رؤس الحاضرين فلان بن فلان الفلاني سنة كذا فاذا اجتمع لنا من البطائق مائة ونحن غرضنا استخدام خمسين مثلا أخذنا تلك البطائق واحدة واحدة حتى نستوفي الخمسين ثم نفحصها فمن عثرنا عليه فيها فهو عسكري في تلك المدة ومن أخطأته القرعة ذهب الى حال سبيله لكنه ان جاوز سن العسكرية الذي هو خمس وعشرون سنة ولم تصبه القرعة فهو في صنف الرديف الى سبع سنين كما قلنا والذين أصابتهم القرعة وأثبتوا في الديوان يرخص لهم في الذهاب الى محالهم عشرين يوما لقضاء أوطارهم ثم يحضرون بعدها الى القشلة ومن تخلف عن حضور هذا الجمع بدون عذر مقبول يثبت في الديوان بلا قرعة ويسقط من أصل العدد المطلوب ولا تقبل فيه شفاعة ولا فداء ومن ليس له الا ابن واحد من رجل كبير أو امرأة أرملة أو نحو ذلك ولا كافي له سواه فانه يسرح له لئلا يضيع لكن بعد حضور الجمع واثبات ما ادعاه ومن له ولدان وأصابتهما معا القرعة فيمسك واحد ويسرح له الآخر ومن له أربعة أو خمسة وأصابت القرعة منهم ثلاثة فأكثر أمسك اثنان وسرح الباقي ويعفى عن كل من كان مفردا في بيته وعن كل أعور وأشل وأعرج وأحدب وعن كل مبتلى بداء مزمن أو علة معدية أو ضعيف الجسم نحيف البنية لا يقدر على الاعمال الجندية وغير سالم المزاج وهكذا ويعفى عن طلبة العلم لكن بعد حضورهم وامتحانهم فمن ظهرت نجابته خلى سبيله لانه قد قام بوظيفة هي من أهم الوظائف ومن كان قليل الفهم أو مقسم البال أو طائش الفكرة لا ترجى فائدته وانما تستر بطلب العلم دخل في القرعة واذا كان لرجل ولدان وأصابت القرعة أحدهما وأراد ابداله بالآخر فذلك له اذا توفرت فيه شروط الخدمة واذا أراد أن يبدله بغير أخيه من عبد أو أجيرة لا بد من زيادة قدر معلوم من المال لا يجحف به ولا يؤدي الى تعطيل تجارته ولا بيع أصله ولهذا البدل شروط الاول أن يكون سالما من الآفات المتقدمة الثاني أن لا يكون ممن استوفى مدة الخدمة التي هي خمس سنين ودخل في صنف الرديف اللهم الا اذا لم تكن القرعة أصابته حتى جاوز السن المعلوم وصار في صنف الرديف فهذا يقبل الثالث أن يكون من أهل تلك الناحية فلا يقبل مراكشي عن فاسي مثلا وبالعكس الرابع أن لا يكون من العبيد السود اللهم الا اذا كان في الجند صنف منهم فيقبل في صنفه ولا بأس اذا كان مملوكا أبيض الخامس أن لا يكون من الذين استعملوا في الجندية وأخرجوا منها لعارض خلقي أو خلقي مثل آفة بدنية أو فعل قبيح من سرقة ونحوها السادس أن لا يكون البدل قد جيء به بعد ثلاثة أشهر ثم اذا فر البدل فينتظر مجيئه الى شهر فان جاء والا أخذ به صاحبه الذي جاء به ثم اذا انتظم هذا الجمع العسكري فأول ما يعلمونهم أمر دينهم مما لا بد منه على

سبيل الاختصار بان يلقنوا كيفية اللفظ بالشهادتين ويبين لهم معناها بوجه اجمالى فان جل العوام سيما أهل البادية والقرى النائية لا يفقهون ضروريات دينهم ويعلمون كيفية الوضوء والصلاة ويلزمون بالمحافظة عليها حتى ان من لم يحضر منهم وقت النداء لها يعاقب عقابا شديدا والاقلم يحضر عند سماعه الطرنبيطة ولا يحضر اذا سمع داعى الله فهذا أول ما يتعلمونه لتعود عليهم بركة الدين وينجح سعيهم فى حماية المسلمين فانا لم نرد بجمع هذا الجند الا حفظ الدين فاذا كان الجند مضيعا له فكيف يحفظه على غيره ويعود على المسلمين نفعه ثم بعد هذا يعلمون الامور التى تدل على كمال المروءة وعلو الهمة من الحياء والحشمة والايثار وترك الكلام الفحش وتوقير الكبير ورحمة الصغير ويلقون أن من أفضل الخصال عند الله وعند العباد الغيرة على الدين والوطن ومحبة السلطان ونصحه ويقال له مثلا اذا كان العجمى الزنديق يغضب لدينه الباطل ووطنه فكيف لا يغضب العربى المؤمن لدينه ودولته ووطنه ولا بد من ترتيب مجالس يومى يسمعون فيه سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم ومغازيه ومغازى الخلفاء الراشدين وسلف الامة وأخبار رؤساء العرب وحكمائها وشعرائها ومحاسنهم وسياساتهم وليتخير لهم من الكتب الموضوعة فى ذلك أنفعها مثل كتاب الاكتفاء لابى الربيع الكلاعى وكتاب ابن النحاس فى الجهاد وكتاب سراج الملوك ونحوها فان ذلك مما يقوى ايمانهم ويحرك هممهم ويؤكد محبتهم فى الدين وأهله وينهون على التحافظ على ثيابهم وأطرافهم من الاوساخ والاوضار التى تدل على دناءة الهمة ونقصان الانسانية وعدم النخوة ويلزمون بترك استعمال الدخان فانه مناف لنظافة الدين ومذهب للمروءة والمال بلا فائدة ثم اذا رسخت فيهم هذه الآداب فى ستة أشهر أو عشرة أو أكثر أخذوا فى تعلم الثقافة وأمور الحرب ثم من أهم ما يعتنى به فى شأنهم أن لا يتخلقوا بأخلاق العجم ولا يسلكوا سبيلهم فى اصطلاحاتهم ومحاوراتهم وكلامهم وسلامهم وغير ذلك فقد عمت المصيبة فى عسكر المسلمين بالتخلق بخلق العجم فيريدون تعلم الحرب ليحفظوا الدين فيضيعون الدين فى نفس ذلك التعلم فلا تمضى على أولاد المسلمين سنتان أو ثلاث حتى يصير واعجما متخلقين بأخلاقهم متأدبين بآدابهم حتى انهم تركوا السلام المشروع فى القرآن وأبدلوه بوضع اليد خلف الاذن فيجب على معلمهم فى حال تعليمه اياهم أن يعدل عن الاصطلاح العجمى الى العربى ويعبر عن الالفاظ العجمية بالعربية وان كان أصل العمل مأخوذا عن العجم فليجتهد المعلم الحاذق فى تعريبه وليس ذلك بعسير على من وفقه الله اليه وليس فيه الا ابدال لفظ عجمى بلفظ عربى بان يقول مثلا أمام خلف دائرة نصف دائرة وهكذا فاذا مرنوا عليه شهرا أو شهرين كان أسهل شئ عليهم وأحبه اليهم لان تلك هى لغتهم التى فيها نشؤا وعليها ربوا فالعمل عجمى والكلام الذى ينبهون به على ذلك العمل عربى فأى كلفة فى هذا وبه يندفع عنهم التشبه بالعجم المنهى عنه شرعا فان التربى بزيهم لا يأتى بخير أبدا وهو والله من أفسد الاشياء للدين الذى نريد أن نحوطه بهم ﴿قال عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه﴾ من لم تصلحه السنة فلا أصلحه الله ثم عمود هذا كله وصلبه العقيم له وروحه الذى به حياته هو الكفاية فى المطعم والملبس وليختر لهم من الاغذية أطيبها وأنفعها للبدن وليجعل لهم كسوتان كسوة الشتاء وكسوة الصيف وليتخير لهم من المساكن والمنازل أطيبها وأصحها هواء وأبعدها عن محل الوخم وليلزمهم الاعتناء بتنظيف مساكنهم وتبريدها وتطييبها حتى لا ينشأ عنها داء واذا تراخوا فى مثل ذلك عوقبوا عليه لانه دال على دناءة الهمة ودنىء الهمة لا يأتى منه شئ وليرتب لهم الاطباء العارفون حتى اذا أصاب أحدا منهم مرض عالجه الطبيب فى الحال فان هذا الجند هو سور الاسلام وسياج الدين فحفظه يحفظ الدين وبسلامته يسلم فاذا اتخذ الجند على هذه الكيفية التى ذكرنا سهل على الناس الدخول فى الجندية وتنافسوا فيها ومن كان عنده من الرعية درهم طابت نفسه بان يقتسمه معهم ويكون الجند حينئذ فى مرتبة هى أشرف من مرتبة الرعية بكثير لان الجند يحفظهم والرعية تكسب وتبذل لهم ثم اذا ظهر من آحاد الجند نجابة أو

شجاعة أو نصيحة في الخدمة السلطانية ترفع قدره وتنوه باسمه ليغتبط هو بمنزلته ويزداد في خدمته ويغبطه غيره وينافسه في خصاله التي أكسبته تلك المنزلة وليقس ما لم يقل والله الهادي الى التوفيق بمنه ولنرجع الى التاريخ فنقول ﴿وفي سنة سبع وسبعين ومائتين وألف﴾ وذلك في يوم الثلاثاء الثاني عشر من ذي القعدة منها توفي والدنا الفقيه المرابط الاخير أبو البقاء خالد بن حماد بن محمد الكبير الناصري بقبيلة سفيان ودفن بتربة الشيخ أبي سلهام رضي الله عنه وكان رحمه الله من الورع والتحري في أكل الحلال على جانب عظيم بحيث فاق أكثر أهل زمانه في ذلك وكان دنساوقورا كثيرا الاوراد ذا سمت وجد وله المام بالفقه والسيرة النبوية مرجو البركة عند العامة رحمنا الله واياه والمسلمين

وفاة والد المؤلف رحمه

﴿ثورة الجيلاني الروكي ومقتله﴾

كان الجيلاني الروكي من عرب سفيان رجلا خامل الذكر ساقط القدر حرفته رعي البهائم ونحو ذلك من عمل أهل البادية فوكل به جني أو شيطان ففاه بالمخاريق وتبعته العامة فثار ببلاد كورت وتقدم الى دار القائد عبد الكريم بن عبد السلام بن عودة الحارثي السفياني في أخلاط من الاوباش بالعصي والمقاليع فحاصر القائد المذكور في داره من الظهر الى الغروب ثم اقتحم العامة عليه داره فقتلوه وقتلوا جماعة من اخوته وبني عمه ونهبوا ماوجدوا بداره وكان شيأ كثيرا من المال والاثاث وبقي أولئك القتلى مصرعين بفناء الدار ثلاثة أيام لم يدفنوا وافتتنت العامة بهذا الروكي ونسبوا اليه الخوارق والكرامات من غير استناد الى دليل ووعدهم بانه يستولي على الملك ويحكم المتمسكين بدعوته في الاموال كيف شاؤا وضاعت نفوس في تلك الفتنة ونهبت أموال واختلط المرعي بالهمل وكنت حاضر الهذا الخطب العظيم فكان من افتتان العامة بهذا المعتوه واعتقادهم فيه وجهلهم المركب في أمره ما لا يكاد يصدق به اذا حكي وكان السلطان سيدي محمد رحمه الله يومئذ برباط الفتح فاهتز لهذا الخطب لان الشيطان كان قد نفخ في أباطيل الروكي وشاعت في العالم حتى اهتز لها النصارى الذين كانوا بتطاوين وحدثوا أنفسهم بالفرار ثم ان السلطان رحمه الله أغزاه أخاه المولى الرشيد فلما سمع الروكي بمجيئه وعد أوباشه بانه سينتصر عليه وان خيل السلطان تكون غنيمة له وقال لهم اتخذوا الشكائم أي الارسان من الدوم وأعدوها لتقودوا بها خيل السلطان فاتخذ جمع عظيم من العامة الحبال والارسان وتوشحوا بها تحت الثياب وجعلوا يتبعون الروكي أينما ذهب انتظار الوعده ولما قرب المولى الرشيد منه أخذ أمره في النقصان وناموسه في البطلان ولما كان المولى الرشيد قرب سوق الاربعاء من بلاد سفيان جعل الشكائمية يقربون من المحلة ويتطوفون حولها مختفين بالاودية والشعاب والكدى ينتظرون هزيمتها بخارق من خوارق دجالهم فاعلم المولى الرشيد بمكانهم فبعث الخيل فالتقطوهم في ساعة واحدة ولم يفلت منهم الا القليل وسيقوا الى رباط الفتح فسجنوا به مدة وأما الروكي فانه قصد جبل زرهون ودخل روضة المولى ادريس الاكبر رضي الله عنه فاجتمع عليه جماعة من الاشراف الادارسة والعلويين وغلقوا أبواب القبة وتقدم اليه شريف علوي فمتك فيه وأراح الناس من شره واحتز وارأسه ويده وحملوهما الى السلطان فبعث بهما الى مراكش فعلقا بجامع الفناء مدة وكان جهلة العوام لا يصدقون بموته وبقوا ينتظرون رجعته سنتين أو ثلاثا ومن يضلل الله فماله من هاد وكان مقتل الروكي في أواسط شعبان سنة ثمان وسبعين ومائتين وألف ولم تجاوز مدته أربعين يوما وكان مما كتبه السلطان في شأنه ما نصه وبعد فان قتانا من سفيان مرق من الدين وفتن بامور شيطنته من اغتر به من المسلمين وجمع عليه أوباشا من أمثاله وأضرابه وأشكاله وتقدم بهم لدار خديمنا ابن عودة فقتلوه ثم تقدم بهم للشراردة فقاتلوه ثم تقدم بهم لزاوية مولانا ادريس فقاتله أهلها قتالا يرضي الله ورسوله ولم يحصل لهم من قتاله ضجر ثم قبضوا عليه وقتلوه وعلقوا رأسه بباب الزاوية المسمى بباب الحجر وأغلقوا الابواب بعد ذلك على من دخل معه من

أتباعه وأنصاره وأشياعه فقبضوا عليهم وجعلوهم في السلاسل والاغلال ونحن على نية اقامة الحد عليهم ان شاء الله جزاء وفاقا على ما ارتكبوه من الفساد وقبح الاعمال ومن كان منهم حينئذ خارجا عن الباب تخطفته الايدى وجنوا ثمار ما سعوا فيه من البغى والتمدى وقطع دابر جميعهم فالحمد لله حق حمده وما كل نعمة الامن عنده وأعلمنا كم لتكونوا على بصيرة اذر بما يبلغ المرجفون على عادتهم النازلة على غير وجهها والسلام في ثامن عشر شعبان المعظم عام ثمانية وسبعين ومائتين وألف

﴿ايقاع السلطان سيدى محمد بن عبد الرحمن رحمه الله بعرب الرحامنة﴾

لما كان السلطان سيدى محمد بن عبد الرحمن رحمه الله ببلاد الغرب مشتغلا بامر الاصبنيول وحربه على تطاوين ثار عرب الرحامنة بالحوز وعمدوا الى سوق الخميس بمراكش فأغاروا عليه وانتهبوه وسلبوا المارة وأرباب الجنات وضايقوا أهل مراكش حتى منعوهم من الارتفاق حول المدينة فانقطعت السبل وارتفعت الاسعار وقطع الرحامنة ما حول الاسوار من الاشجار واحتطبوها وحصدوا الزروع في الفدن واغتصبوها واشتد الحصار وتخاذلت الانصار ودام الحال الى ان فرغ السلطان رحمه الله من حرب الاصبنيول وفتنة الروكى فوجه وجهته الى مراكش فلما قرب منها تحزب الرحامنة وأجمعوا على حربه فانحازوا الى ناحية الرميلة والاودية وزاوية ابن ساسى ليحولوا بينه وبين الدخول الى مراكش فهجم عليهم وأوقع بهم وقعة سيقوا بها بعد ساعة الى مراكش مقرنين في الحبال حتى ضاقت بهم السجون ولولا انه رحمه الله كف أيدى الجيش عنهم لاستأصلوهم ثم عفا عنهم بعد ان انتزع منهم بلاد آيت سعادة وغواطم والاودية وهى من أخصب البلاد وأزكاها وكتب السلطان في هذه الوقعة لاخيه المولى الرشيد بكتاب مختوم عليه بالخاتم الكبير بين الافتتاح والخطاب وبداخل الخاتم محمد بن عبد الرحمن غفر الله له وبدائرته ومن تكن برسول الله نصرته * ان تلقه الاسد في آجامها تجم وما توفيقى الا بالله عليه توكلت واليه أنيب وبأركان الخاتم الله محمد أبو بكر عمر عثمان على ونص الافتتاح الحمد لله الذى تدارك الامة باللطف الكفيل بتمهيد أقطارها وتيسير أوطارها وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه الذين نصروا الدين بالصفاح والاسنة وأوضحوا أحكام السنة أخانا الاعز الارضى مولاى الرشيد أصلحك الله وأعانك وسلام عليك ورحمة الله تعالى وبركاته وبعد فانه لما تواترت الانباء المحققة بعد التباسها وتواردت الاخبار التى يغنى نصها عن قياسها بما ارتكبه ظالموا أنفسهم الرحامنة من أنواع الفساد التى أذاعوها وأظهروها وأشاعوها وقد كانت في صدورهم كامنه صرفنا الوجهة اليهم وطوينا المراحل من أجلهم ولما حللنا بلادهم أرسلنا عليهم سيل العرم من العساكر المنصوره والجيوش الموفوره فما كان غير بعيد حتى أتى برؤس منهم كثيرة محمولة على أسنة الرماح وأسارى من مقاتلتهم مجردين من الثياب والسلاح ومن نجى منهم رجع مجردا الا من خيبة سعيه وما سقى الا بكأس بغيه واستولت العساكر والاجناد على جميع ما كان عند أهل الفساد ومن المعلوم أن من سل سيف البغى يعود الى نحره ومن ركب متن الشقاق يغرق في بحره وان الفتنة نار تحرق من أوقدها والمخالفة صفقة تعود بالخسارة على من عقدها ولما أردنا معاودتهم لقطع دابرهم وتشتيت ما بقى من رماد أثرهم تعلقوا بالمرابطين من ذوى الوجاهات وأكثروا من الذبائح على المحال وتوجيه العارات وقاموا بواجب السمع والطاعه في كل ما أمرناهم به جهد الاستطاعه فأبقينا عليهم وان عادت العقرب عدنا بحول الله لها وكانت النعل لها حاضرة فالحمد لله الذى خيب آمالهم وأبطل أعمالهم وخذل أنصارهم وأركد أعصارهم لما أعمى أبصارهم وردهم ناكصين على الاعقاب بعد سلب الاموال وقطع الرقاب ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله ومن يشاقق الله ورسوله فان الله شديد العقاب ونعوذ بالله من الآراء المعكوسه والحظوظ المنكوسه وسوء الفعل الذى يورد المهالك والحرمان الذى يجعل

البصر

البصير كالاعمى فى دجنة الليل الحالك هذا ويصلكم ماقطع من روس قتلاهم لتعلق بباب المدينة ويعتبر بها المعتبرون ويتذكر بها المتذكرون والله أسأل أن لا يكلنا الى أنفسنا طرفة عين ولا أقل من ذلك وأن يكون لنا وللمسلمين عما كان لاوليائه وأحبائه وأصفيائه وأن يوفقنا واياهم لما يحبه ويرضاه ويختم للجميع بخير والسلام فى ذى الحجة الحرام عام ثمانية وسبعين ومائتين وألف ومن تمامه وان علقت يوما واحدا فادفعها الحلتها ولابد ليتوجه وابها الى مكاسة صح به اه نص الكتاب الشريف ﴿وفى سنة تسع وسبعين ومائتين وألف﴾ سافر شيخنا الفقيه العلامة البارع أبو عبد الله محمد بن عبد العزيز محبوبة السلاوى الى الحجاز لاداء فريضة الحج فوافته منيته بمكة المشرفة بعد الفراغ من الحج والعمرة ودفن بالمعلاة وكان رحمه الله واعية دراكة نفاعة كثير الدرس والتقييد والنسخ للكتب المعتبرة فصيح العبارة حسن النغمة والصوت عارفا بالحديث دؤبا على سرده عارفا بالنحو والفقه وعلوم الآلة لازمناه وانتفعنا به وعادت علينا بركاته رحمه الله ونفعنا به وكنت رثيته بقصيدة ذهبت فى جملة ماذهب من شعرى اذلم يكن لى اعتناء بتقييده ومطلعها

ملازمة التذكار تذهب باللب * وتغرى قديم الوجد بالهائم الصب

﴿وفى سنة ثمانين ومائتين وألف﴾ وذلك يوم السبت الرابع عشر من شعبان منها كانت هدة البارود بمراكش وذلك انه كان بجامع الفناء منها فندق فى بعض بيوته نحو أربعمائة قنطار من البارود وبه أيضا شئ من فحم الريش المتخذ للبارود فوقعت فيه نار وسرت منه الى البارود فنفض وقت الغروب من اليوم المذكور والناس كثيرون حول الفندق فطار الفندق عافيه وكانت حيطانه عادية وطار من كان حوله من الناس قيل نحو الثلاثمائة فنهم من لم يوجد أصلا ومنهم من وجد بعضه من يد أو رجل ونحو ذلك وتهدمت كل دار كانت متلاشية بمراكش وانخلعت الاقفال من الابواب وصرصرت السقوف والحيطان وكان الحادث عظيما ﴿وفى هذه السنة﴾ ورد يهودى من اللوندرة على السلطان بمراكش يطلب منه الحرية ليهود المغرب وذلك لانه لما كانت وقعة تطاوين ودهم الناس مادهمهم من أمر الحمايات وأكثر من تعلق بها اليهود لم يقتصروا على ذلك وراموا الحرية تشبها بيهود مصر ونحوها فكتبوا الى يهود من كبار تجارهم باللوندرة اسمه روشاييل وكان هذا اليهودى قارون زمانه وكانت له وجاهة كبيرة فى دولة النجليز لانها كانت تحتاج اليه فيسلفها الاموال الطائلة وله فى ذلك أخبار مشهورة فكتب يهود المغرب اليه أو بعضهم يشكون اليه ماهم فيه من الذلة والصغار ويطلبون منه الوساطة لهم عند السلطان رحمه الله فى الانعام عليهم بالحرية فعين هذا اليهودى صهراله للوفادة على السلطان رحمه الله فى هذا الغرض وفى غيره وأصحبه هدايا نفيسة وسأل من دولة النجليز أن يشفعوا له عند السلطان ويكتبوا له فى قضاء غرضه ففعلوا وقدم على السلطان بمراكش وقدم هداياه وسأل تنفيذ مطلبه فتجافى السلطان رحمه الله عن رده مخفقا وأعطاه ظهيرا فتمسك به اليهودى يتضمن صريح الشرع وما أوجب الله لهم من حفظ الذمة وعدم الظلم والعسف ولم يعطهم فيه حرية كحرية النصارى ونص الظهير المذكور بالطابع الكبير ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم نأمر من يقف على كتابنا هذا أسماه الله وأعز أمره وأطلع فى سماء المعالى شمسه المنيرة وبدره من سائر خدامنا وعمالنا والقائمين بوظائف أعمالنا أن يعاملوا اليهود الذين بسائر ايالتنا بما أوجبه الله تعالى من نصب ميزان الحق والتسوية بينهم وبين غيرهم فى الاحكام حتى لا يلحق أحدا منهم مثقال ذرة من الظلم ولا يضام ولا ينالهم مكروه ولا اهتضام وأن لا يتعدوا هم ولا غيرهم على أحد منهم لا فى أنفسهم ولا فى أموالهم وأن لا يستعملوا أهل الحرف منهم الا عن طيب أنفسهم وعلى شرط توفيتهم بما يستحقونه على عملهم لان الظلم ظلمات يوم القيامة ونحن لا نوافق عليه لا فى حقهم ولا فى حق

غيرهم ولا نرضاه لان الناس كلهم عندنا في الحق سواء ومن ظلم أحدا منهم أو تعدى عليه فانا نعاقبه بحول الله وهذا الامر الذي قررناه وأوضحناه وبيناه كان مقررا ومعروفا محررا لكن زدنا هذا المسطور تقريرا وتأكيدا ووعيدا في حق من يريد ظلمهم وتشديدا ليزيد اليهود أمنا الى أمنهم ومن يريد التعدي عليهم خوفا الى خوفهم صدر به أمرنا المعتز بالله في السادس والعشرين من شعبان المبارك عام ثمانين ومائتين وألف ولما مكنهم السلطان من هذا الظهير أخذوا منه نسخا وفرقوها في جميع يهود المغرب وظهر منهم تطاول وطيش وأرادوا أن يختصوا في الاحكام فيما بينهم لا سيما يهود المراسي فانهم تحالفوا وتعاهدوا على ذلك ثم أبطل الله كيدهم وخيب سعيهم على ان السلطان رحمه الله لما أحس بطيش اليهود عقب ذلك الظهير بكتاب آخر بين فيه المراد وان ذلك الايصاء انما هو في حق أهل المروءة والمساكين منهم المشتغلين بما يعنيهم وأما صعاليكهم المعروفون بالفجور والتطاول على الناس والخوض فيما لا يعني فيعاملون بما يستحقونه من الادب ﴿واعلم﴾ أن هذه الحرية التي أحدثها الفرنج في هذه السنين هي من وضع الزنادقة قطعا لانها تستلزم اسقاط حقوق الله وحقوق الوالدين وحقوق الانسانية رأسا أما اسقاطها لحقوق الله فان الله تعالى أوجب على تارك الصلاة والصيام وعلى شارب الخمر وعلى الزاني طائعا حدودا معلومة والحرية تقتضي اسقاط ذلك كما لا يخفى وأما اسقاطها لحقوق الوالدين فلانهم خذلهم الله يقولون ان الولد الحدث اذا وصل الى حد البلوغ والبنت البكر اذا بلغت سن العشرين مثلا يفعلان بانفسهما ما شاآ ولا كلام للوالدين فضلا عن الاقارب فضلا عن الحاكم ونحن نعلم أن الاب يسخطه ما يرى من ولده أو بنته من الامور التي تهتك المروءة وتزري بالعرض سيما اذا كان من ذوي البيوتات فارتكاب ذلك على عينه مع منعه من الكلام فيه موجب للعقوق ومسقط لحقه من البرور وأما اسقاطها لحقوق الانسانية فان الله تعالى لما خلق الانسان كرمه وشرفه بالعقل الذي يعقله عن الوقوع في الرذائل ويبعثه على الاتصاف بالفضائل وبذلك تميز عما عداه من الحيوان وضابط الحرية عندهم لا يوجب مراعاة هذه الامور بل يبيح للانسان أن يتعاطى ما ينفر عنه الطبع وتأباه الغريزة الانسانية من التظاهر بالفحش والزنا وغير ذلك ان شاء لانه مالك أمر نفسه فلا يلزم أن يتقيد بقيد ولا فرق بينه وبين البهيمة المرسلة الا في شيء واحد وهو اعطاء الحق لانسان آخر مثله فلا يجوز له أن يظلمه وما عدا ذلك فلا سبيل لاحد على الزامه اياه وهذا واضح البطلان لان الله تعالى حكيم وما ميز الانسان بالعقل الا ليحمله هذه التكاليف الشرعية من معرفة خالقه وبارئه والخضوع له لتكون له بها المنزلة عند الله في العقبى انا عرضنا الامانة على السموات والارض الآية ﴿واعلم﴾ أن الحرية الشرعية هي التي ذكرها الله في كتابه وبينها رسول الله صلى الله عليه وسلم لامته وحررها الفقهاء رضي الله عنهم في باب الحجر من كتبهم فراجع ذلك وتفهمه ترشد وبالله التوفيق ﴿وفي سنة احدى وثمانين ومائتين وألف﴾ كمل بناء الدار الفيحاء التي أنشأها السلطان سيدي محمد رحمه الله بآجدال من ظاهر رباط الفتح بجوار ضريح جده سيدي محمد بن عبد الله وهي دار كبيرة حسنة البناء واسعة المقاعد والفناء يقال أنها من أخوات بديع المنصور ولما كمل بناؤها أمر السلطان رحمه الله أن يختم فيها فقهاء رباط الفتح صحيح البخاري أولا وفقهاء سلا ثانيا فدخلناها في جلتهم وتقصينا منازلها ومقاعدها فرأينا ما ملأ الأبصار نحسنا واتقانا وعجيب صنعة ﴿وفي سنة اثنتين وثمانين ومائتين وألف﴾ حدثت فتنة بفاس وذلك ان الناس كانوا في صلاة الجمعة بمسجد القرويين خامس ربيع الاول وكان فيهم التاجر الامجد أبو عبد الله حبيب ابن هاشم بن جلون الفاسي فلما سجد مع الناس شدخ بعض اللصوص رأسه بحجر كبير من أحجار التيمم التي تكون بالمسجد ثم أنحى عليه بخنجر كان بيده فقطع به صفاق بطنه وساوره التاجر المذكور وما بالعهد من قصاص ولما وقعت الضجة قطع الناس صلاتهم وخرجوا فارين من المسجد وتركوا نعالهم ونعالهم

ومصاحفهم وغير ذلك فقائل يقول ان الامام المهدي قد خرج وآخر يقول ان الناس يذبح بعضهم بعضا في الجامع واهتزت المدينة ثم تراجع الناس بعد حين وأما اللص فانه خرج شاهرا سلاحه حتى وصل الى باب المسجد فكثره الناس وقبضوا عليه وانتزعوا السلاح من يده وكشفوه فاذا به قد أدار حبالا كثيرة من تحت الثياب على بدنه وقاية له فقتلوه هنالك وبقي التاجر ابن جلون يعالج جراحاته الى أن مات من آخر الليل واتهم أولياؤه ناسا من أعيان فاس بانهم أغروا بقتله ولم يثبت ذلك ﴿وفي هذه السنة﴾ أعني سنة اثنتين وثمانين ومائتين وألف وجه السلطان رحمه الله قائد جيشه أبا عبد الله محمد بن عبد الكريم الشرقي وعامل سلا أبا عبد الله محمد بن سعيد السلاوي باشدور الى دولة فرانسا بباريس وكان السبب في ذلك ما أخبرني به القائد أبو عبد الله بن سعيد المذكور قال كان سيدنا أمير المؤمنين سيدي محمد بن عبد الرحمن رحمه الله قد أصحبنا كتابا الى طاغية الفرنسيس وأمرنا بالكلام معه في شأن هؤلاء النواب الذين يبعثهم الى المغرب وأن يكون ينتخبهم من بيوت الاعيان وممن يتصف بالتأني وحسن السيرة والوقوف عند ما حد لهم ولما وصلنا الى باريس شرحنا ذلك للطاغية المذكور كتابه ففرح وقابلنا بالامر يد عليه من البرور الذي لا نقدر على شرحه مع ان اكرامنا والحمد لله لهم يفوق ذلك في الصوائر وكنا توجهنا ومعنا خيول وغيرها وأقمنا بباريس شهرا وكان قد أعد لنا دارا كثيرة الفرش والاثاث من الفضة والمعدن وكل بنا أمين بصير علينا حسب نظرنا وقومة يباشرون فرش المنزل وتنظيفه وغير ذلك ومعنا أصحابنا وطباخنا الا أنهم منعزلون بمحل يخصهم وفي كل يوم تستدعينا الدولة للفرجة ليلا بمحل يسمى التياترو فيه مواعظ وحكم لمن تبصر ومتعة للنفس لمن كان حظه النظر وقد أكرمنا الطاغية بمنزله وأكرمنا الوزراء وعامل البلد والاعيان ليلا وكل واحد يجمع علينا أعيان الدولة وأهل البلد نساء ورجالا وعادتهم عند دخولك المنزل أن تحيي الزوجة ومن معها بالسلام أولا ثم بعد ذلك تحيي الرجل ورأينا من الطاغية ووزيره على الامور البرانية من البرور والبشاشة ما جاوز الحد وطلب منا هذا الطاغية أن نبحث له في كتب التاريخ بالمغرب هل نعثر على تاريخ بناء رومة وفي أي وقت بنيت واسم بانيها ونبعث به اليه اهـ كلام العامل المذكور وهو حفظه الله من أمثل الناس وأعدلهم وأتقاهم وله المنزلة الكبيرة عند السلطان وعند الناس حرس الله مجادته وأدام بمنه عافيته وسلامته ونص الكتاب الذي وجههم به السلطان رحمه الله مكتوبا فيه اسم السلطان بداخل الطابع الشريف ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم من عبد الله المتوكل على الله المفوض أمره الى الله أمير المؤمنين ابن أمير المؤمنين ابن أمير المؤمنين ابن أمير المؤمنين بالمغرب الاقصى وهو محمد بن عبد الرحمن وفقه الله أدام الله نصره وزين بالخيرات عصره الى المحب الذي حل من مراتب الرياسة أسناها وحاز من خصال التقدم أقصاها وأدناها فاصبحت ألسن الرؤساء لهجة بذكره مفصحة بتسليم نتائج فكره ملك الممالك الفرنساوية السلطان نابليون الثالث بونابارتي أما بعد فوجب تحرير هذا المسطور اليكم اعلامكم بما تضمنه الفؤاد من خالص المحبة وحفظ الوداد واننا مسرورون بما يتجدد لدينا كل وقت من عقد أسبابها وما يظهر كل حين من تشييد أركانها وفتح أبوابها فان محبتنا معكم الشخصية زادت ما كانت عليه في عهد الاسلاف وذلك لما جبلتم عليه من صفاء الطوية وحسن الائتلاف فان القلوب في الوداد تتضاهى وما بني على أصل وثيق كان جديرا بان يعظم ويتناهى وبموجب ذلك عينا للسفارة اليكم خالنا الارضى الانجد القائد محمد بن عبد الكريم الشرقي وهو أحد باشات جيشنا ومن كبراء رجال دولتنا مع ما تشرف به من قرابة الرحم لدينا ومعه خديمنا الارضى الامين الحاج محمد بن سعيد قائد سلا وهو عندنا أيضا بالمكان المكين لما تخلق به من الادب والعقل الرصين والغرض من توجيههما تجديد العهد بكم والحرص على موالاة المواصلة معكم لما في ذلك من تأكيد أسباب المحبة بين الدولتين وتمهيد

طريق الخير بين الايالتين والظن بشيمتكم مقابلتهم بحسن القبول وتبليغهم في وجهتهم غاية المأمول جريا على عادتكم القديمه وسلوكا على طريقتكم القويمه وقد حملناهم ما في خاطرنا من أمور السياسة الجالبة لمصالح الجانبين ما يقررونه لديكم ويعرضونه عليكم ففي اخبارهم كفاية وأوصيناهم بحسن الاستماع لما تلقونه اليهم والادب في تلقي ما تعرضونه عليهم كما اننا نتحقق انكم لحسن معاملتكم ومزيد محبتكم توصون نوابكم الذين توجهونهم للخدمة بابالتنا السعيدة بحسن المعاملة والتقصي في ترحيب الصدر والمجاملة والوقوف عند الشروط والعمل بمقتضاها والتمام في الثاني والعشرين من ربيع الاول سنة اثنتين وثمانين ومائتين وألف اه ﴿واعلم﴾ أن هذا الكتاب بديع في بابه غريب في منواله قد اشتمل من التوريات والنكات ومقتضيات الاحوال على ما يشهد لمنشئه بالمعرفة والمهارة والبصيرة والبصارة رحمه الله وفي شوال من هذه السنة مرض السلطان رحمه الله مرضا شديدا أشرف منه على الهلاك بل أشاع المرجفون أنه قد هلك واضطربت أحوال الرعية وعاد أعراب البادية الى العيث في الطرقات واستلاب الناس بها من المارة وغيرهم وحاصر عرب عامر مدينة سلا وعاثوا في جناتها ومنعوا الداخل اليها والخارج منها وغلقت الابواب واستمر ذلك الى عيد الاضحى ثم ورد الخبر اليقين بابلال السلطان وافاقته من علته وكانت علته الداء المعروف بالخوانق بلغ به الى حد اليأس والاشراف ثم تدارك الله المسلمين بلطفه ومن على امامهم بعافيته فاعملت المفرحات والولائم في جميع الامصار ﴿قال أبو عبد الله اكنسوس ما ملخصه﴾ لما أفاق السلطان رحمه الله من علته هذه كتب حجاب الحضرة ووزراؤها الابنه الخليفة المنتصر بالله أبي علي المولى حسن بن محمد يهنئونه بعافية السلطان فامر هذا الخليفة أعزه الله باخراج المدافع والانفاض حتى اهتزت الجبال ثم دعا أيده الله الناس الدعوة الجفلا فلم يتخلف ممن كان عبرا كش أحد من العقلاء فامر أيده الله بتهيئة جنان رضوان ففتحت أبوابه وفرشت قصوره وقبابه وجرت أنهاره حتى تفتقت أزهاره وحضر وجوه الدولة وأعيانها ورؤساء القبائل وأقيالها وكان ذلك باثر عيد الاضحى قبل انفصال وفود العيد عن الحضرة ثم اندفع عليهم من الدار المولوية من سيول موائد الطعام الفاخر ما عم الاول منهم والآخر هذا للعامة المطلقة والاوزاع الملفقة وأما الخواص والوجوه فلهم الحظ الاوفر من العنايه والخطاب بصريح الترحيب دون كنايه بالقعود على الفرش الحريرية المذهبه والمقاعد العالية المطنبه والرش بمياه الازهار ومباخر الطيب وكل معنى لطيف ومنظر عجيب وقد أحضر كل واحد ما شاء من آلات اللهو والفرح على حسب ما اشتهى واقترح فلا تكاد تسمع في تلك المجالس والمغاني الا أصوات المثالث والمثاني وضروب الالحان والاغاني واستمر الناس في ذلك ثلاثة أيام والمولى الخليفة أعزه الله مع اخوته وبني عمه في القبة المحمدية الصويرية المشرفة على مجاري الخيل وملاعبها ومطاردها ومتاعبها وكل عشية يركب من بالحضرة من الوجوه والاكابر على عتاق الخيل والجياد الضوامر ويبدي ما عنده من الثقافة والفروسية مع اظهار الشارة المخزنية والابهة الملوكية ثم بعد هذا شرع كبار الدولة ووجوهها ورؤساؤها وقوادها في انتخاب الصنائع والولائم كل على حسب ما أداه اليه اختياره واعتناؤه ثم تتابع الناس في نزهاتهم واظهار أبهاتهم وانتخاب دواعي الافراح ومقتضيات الازدهاء والانشراح فما ترى أحدا ببستان الا ويجد به جماعة زاهية وطائفة منبسطة لاهية اه ﴿وفي سنة ثلاث وثمانين ومائتين وألف﴾ كان بالمغرب جراد سد الافق وذلك في ربيع الاول الموافق لشهر مارس العجمي فاكل النجم والشجر ثم عقبه فرخه المعروف بآمردفا كل كل خضراء على وجه الارض واستلب الاعواد من أوراقها وقشرها من لحائها وفاض في الامصار حتى دخل على الناس في بيوتهم ﴿وفي سنة أربع وثمانين ومائتين وألف﴾ كان الغلاء المفرط بالمغرب الذي لم يتقدم مثله بلغ فيه الربيع وهو ربع ثمن المد بسلا

ورباط

ورباط الفتح ستين أوقية وباع الناس أثاثهم وحليهم بالبخس وكان الامر شديدا على الضعفاء ﴿وفى ذى القعدة من هذه السنة﴾ توفى القائد الاجل أبو محمد عبد الله بن عبد الملك بن بيهى الحاحى وكان من كبار قواد المغرب وأهل البذل والايثار والمعروف له فى ذلك أخبار مذكورة رحمه الله ﴿وفى سنة خمس وثمانين ومائتين وألف﴾ كان الوباء بالمغرب بالقىء والاسهال المفرطين على نحو ما وصفناه فى السنين الماضية وفى زوال يوم الاحد الحادى عشر من جمادى الاولى من السنة المذكورة توفى قاضى سلا الفقيه العلامة الورع أبو عبد الله محمد العربى بن أحمد بن منصور ودفن بالجبانة المتصلة بضريح الشيخ أبى العباس ابن عاشر رضى الله عنه وكانت لهذا القاضى سيرة حسنة وعدل فى الاحكام وتأن فيها مع سمت ومروءة وانقباض رحمه الله وبقيت سلا بلا قاض أربعين يوما حتى وقع اختيار السلطان على شيخنا الفقيه العلامة القاضى سيدى أبى بكر ابن الفقيه العلامة القاضى سيدى محمد عواد رحم الله الجميع ﴿وفى هذه السنة﴾ أمر السلطان رحمه الله بضرب الدرهم الشرعى وحاول ضبط السكة به وحمل الناس على أن لا يذكروا فى معاملاتهم وأنكحتهم وسائر عقودهم الا الدرهم الشرعى وشدد فى ذلك وكتب فيه الى ولاة الامصار يقول فى كتابه ما نصه وبعد فان أمر السكة من الامور الواجبة المتعين رد البال اليها والاهتمام بشأنها والنظر فيما يصدر بسببها من النفع والضرر للمسلمين وبيت مالهم وقد كان أسلافنا رحمهم الله اعتنوا كثيرا بشأنها وبضبط مصالحها ودفع مفاسدها وجعلوها على قدر شرعى معلوم لضبط أمرها والتبرك بتلك النسبة اذ بذلك يعلم المسلم علم يقين كمال النصاب عنده فتجب عليه فيه الزكاة التى هى من دعائم الاسلام أو عدم كماله فلا يكون مخاطبا فيه بشىء ولما رأينا ما حدث فيها من التغير وعدم الضبط ونشأ عن ذلك من الضرر للمسلمين وبيت مالهم ما لم يخف على أحد اقتضى نظرنا السديد ردها لاصلها الاصيل الذى أسسه أسلافنا الكرام سنة ثمانين ومائة وألف اذ لنا فيهم أسوة حسنة فى الاجمال والتفصيل فرددنا الدرهم الكبير المسلوك على وزن الدرهم الشرعى والمنهاج المرعى كما كان على عهد جدنا سيدى الكبير قدسه الله وجدد عليه وابل رحماه بحيث تكون عشرة دراهم منه هى المثقال كما هو معلوم ان عشرة دراهم من الدراهم التى كانت تروج قبل على عهد أسلافنا رحمهم الله هى المثقال وبهذا العدد الذى هو عشرة منه فى المثقال تكون جميع المعاملات والمخالطات فى البيع والابتياع وغيرهما بين جميع رعيتنا السعيدة فى كل البوادى والحواضر وبه أمرنا جميع العمال ومن هو مكلف بعمل من الاعمال واشاعته ليبلغ الشاهد الغائب وبه يقبل لجانب بيت المال وأمرناهم بالعمل بهذا الامر الذى أصدرناه وأبرمناه بحول الله وأمضيناه وأن يعاقبوا كل من عثروا عليه ارتكب خلاف ذلك وبأن يسلكوا به أضيق المسالك جزاء وفاقا على مخالفته وتعديه الحد وافتياته نعم ما سلف من المعاملات بجميع أنواعها فيما تقدم قبل تاريخ هذا الكتاب فحكمه حكم ما تقدم فى السكة فلا يكلف أحد بزيادة ومن كان بذمته شىء فيما سلف يؤديه بحساب ما كانت تروج به السكة فى الريال والدرهم والعمل بهذا الذى أمرنا به هو من الآن لما يستقبل ان شاء الله وبهذا يزول الاشكال فيما تقدم بين الناس فى المعاملات ونسأل الله أن يخلص العمل فى سبيله ومرضاته ويجازى من فضله وكرمه على قصده وصلاح نيته والسلام فى ثامن شوال عام خمسة وثمانين ومائتين وألف اهـ وفى يوم الجمعة السادس عشر من شوال المذكور توفى البركة الخير المنتسب سيدى الحاج محمد بن العربى الدلائى الرباطى بالدار البيضاء ودفن يوم الجمعة بالزاوية المنسوبة اليه بها رحمه الله ونفعنا به ﴿وفى هذه السنة﴾ كان سوق دار البلار بباريس من أرض افرانسا وذلك أن الطاغية نابليون الثالث لما بلغ من ضخامة الدولة ونفوذ الكلمة ما قل اتفاقه لغيره من الاجناس حاول أن يتجاوز ذلك الى أن يجلب الى رعيته ودار ملكه كل أمر غريب فى العالم حتى يجتمع عنده ما افترق عند غيره فكتب الى ملوك الآفاق يقول انه قد عزم

على اقامة سوق بباريس فى وقت معلوم وطلب منهم أن يبعثوا بتجارهم لحضوره واجلب سلعهم وغرائبهم اليها وقصده بذلك عموم النفع وتعدى الصنائع والحرف من أمة الى أخرى فأجاب الملوك داعيه بمقتضى العرف الجارى بين الدول والعادة المقررة من عهد الملوك الاول ولم يبق الامن بعث تجاره ونفائسه وغرائبه من الجليل الى الحقير وكان السلطان سيدى محمد رحمه الله قد بعث تاجره الحاج محمد ابن العربى القباج الفاسى المعروف بالفرنساوى وهذا الرجل من العارفين باللسان الفرنجى البصيرين بعوائد ذلك الجيل ولذا لقب بالفرنساوى وبعث معه السلطان رحمه الله كل شئ غريب مما اختص به قطر المغرب من سروج مذهبة ومناطق مزخوفة وقطائف منمقة وغير ذلك من الاعلى الى الادنى حتى الزليج الفاسى والمعلمين الذين يباشرون ترصيعه فى محاله وحضر هذا السوق الملوك فمن دونهم من كل اقليم حتى السلطان عبد العزيز العثمانى رحمه الله فكان الحال كما قال أبو الطيب المتنبى

تجمع فيه كل لسن وأمة * فما تفهم الحداث الا التراجم

وأقامت عمارتها ثلاثة أشهر ثم انفض الناس الى بلادهم ولما بلغ ناپليون الثالث الى هذه الغاية فجئته وقعة البروس التى كسرت من شوكته وفلت من غربه وقبض عليه باليد وحوصرت دار ملكه باريس مدة طويلة فبلغ فيها لحم الحمار أربعة ريالات افرنك لكل رطل على ما قيل ولم تغب عنهم محنة ووقع الصلح على شروط منها ألف مليون من الريال تدفعها دولة افرانسا للدولة البروس ﴿وفى سنة ست وثمانين ومائتين وألف﴾ وذلك عشية يوم الخميس الرابع عشر من شعبان منها توفى الوزير أبو عبد الله محمد الطيب ابن اليمانى المدعو بابى عشرين وكان سبب وفاته انه كان به داء الحصر فدخل الميضأة التى بعشور أبى الخصيصات من دار السلطان بحضرة مراكش فيقال ان مثانته تمزقت فمات رحمه الله وحمل الى داره وصلى عليه بعد الجمعة بمسجد المواسين وحضر جنازته الجم الغفير ودفن بضريح الشيخ أبى محمد الغزوانى من حومة القصور وكان رحمه الله ذا جد فى الامور ونصح للسلطان والمسلمين ﴿وفى سنة سبع وثمانين ومائتين وألف﴾ وذلك ليلة الخميس الرابع عشر من ربيع الثانى منها خسف القمر خسوفا كليا بعد الغروب الى نصف الليل وفى فجر يوم الجمعة الثامن من جمادى الاولى من السنة المذكورة توفى الولى الصالح الناسك السنى أبو عبد الله محمد الطيب ابن الشيخ الاشهر مولاى العربى الدرقاوى ودفن بمحل زاويته بامجوط من بلاد بنى زروال وكان من خيار عباد الله على غاية من التقوى والورع والتواضع مع الناس يركب الحمار ويلبس الجبة ولا يتميز عن أصحابه بشئ مع السكينة والوقار وعدم الخوض فيما لا يعنى والاعراض عن زهرة الدنيا وأهلها رحمه الله ونفعنا به وفى التاسع والعشرين من رمضان من السنة المذكورة انكسفت الشمس وكان ابتداء الكسوف على ما أعطاه التعديل بعد الزوال بنحو نصف ساعة وكاد يكون كليا حتى أظلم الجو وبقى من الشمس حلقة نورانية يسيرة ولم يمكن تحقيق وقت التجلى لتراكم السحاب وفى هذه الايام ظهرت حمرة فى السماء غريبة أرجوانية مع غاية الصحو وكان ظهورها يكون فيما بين العشاءين معظمها فى جهة الشمال ودامت كذلك نحو سبعة أيام وانقطعت وفى ليلة السبت الثامن من شوال من السنة وذلك فى الساعة الثالثة منها زلزلت الارض ولم يشعر بها كثير من الناس لكونهم نياما ﴿وفى سنة تسع وثمانين ومائتين وألف﴾ غزا السلطان سيدى محمد رحمه الله قبائل تادلا فترعلى السماعلة منتصف رجب ثم منهم لبنى زمور ثم لابى الجعد ثم منه توجه لقصبة تادلا وعبر القنطرة ونزل على بنى عمير ثم زحف لبنى موسى فأوقع بهم لانهم كانوا خارجين على عاملهم الغزوانى بن زيدوح فقطع منهم خمسين رأسا وقبض على أربعين مسجونا وفى أثناء ذلك قدم عليه وفد أهل مراكش وكانوا قد ثاروا على عاملهم أحمد بن داود لكونه كان يسير فيهم سيرة غير حميدة فقدموا على السلطان متنصلين مما فرط منهم فاعرض السلطان عنهم ولم يسمع منهم كلاما ولا قبل لهم عذرا فرجعوا خفقين ثم تقدم

السلطان رحمه الله الى مراكش وهو غضبان على أهلها وكانوا مظلومين فيما قيل الا انه لبس على السلطان في أمرهم فلما شارف المدينة خرجوا اليه بالعلماء والقراء وصبيان المكاتب متشفعين فلم يقف لهم ولا التفت اليهم وكان ابنه وخليفته المولى الحسن حاضرا يومئذ فتقدم الى أهل مراكش ورق لهم وقال لهم قولا جميلا وكان هذا الحادث في رمضان من السنة المذكورة ثم لم يلبث ابن داود بعد ذلك الا مدة يسيرة حتى توفي وتخلصت قاتبة من قوب وعفو الله بعد ذلك مرقوب ﴿وفي سنة تسعين ومائتين وألف﴾ كانت جائحة النار بكثير من بلاد المغرب أحرقت الزروع والثمار وأجيحت الجنات وتراجع الناس في أثمان مايبيع منها بعد اثبات الموجبات وكانت أيام السلطان سيدي محمد رحمه الله في أولها شديدة بسبب ظهور العدو على المسلمين وما عقبه من الغلاء والموت ثم بعد ذلك اتسع الحال وحصل الأمن وانخضدت شوكة قبائل العرب بالمغرب وأمنت الطرقات من عيثهم وازدهت الدنيا ورخصت الاسعار رخصا يسيرا وكان الناس عيشين في أيامه وغلت الدور والاملاك حتى كانت في بعض السنين لاتسعسر ومن يشتري دارا انما يشتريها بالتنقير عنها والطلب من ربها بالثمن الجافي واتخذ الناس ذوو اليسار المراكب الفارهة والكسى الرفيعة والذخائر النفيسة وتأنقوا في البنيان بالزليج والرخام والنقش البديع لاسيما بفاس ورباط الفتح ولاحت على الناس سمة الحضارة الاعجمية وكان السلطان سيدي محمد رحمه الله في كل بلد عيون يكتبون له بما يقع من الولاة فمن دونهم فكانت الرعية كأنها في كف يده وكان يختار أولئك العيون من العوام فكانوا يكتبون له بالغث والسمين فيسمع ذلك كله فينتقي منه الصحيح ويطرح السقيم فاستقامت أحوال الرعية بذلك

﴿وفاة أمير المؤمنين سيدي محمد بن عبد الرحمن رحمه الله﴾

كانت وفاة أمير المؤمنين سيدي محمد بن عبد الرحمن رحمه الله في زوال يوم الخميس الثامن عشر من رجب الفرد الحرام سنة تسعين ومائتين وألف بداره بحضرة مراكش في البستان المسمى بالنيل ولم يمرض الا يوما أو بعض يوم قيل انه شرب دواء مسهلا فكان فيه أجله والله أعلم ودفن ليلا بضريح جده المولى علي الشريف قرب ضريح القاضي عياض وكتب على رخامة قبره أبيات ليست من جيد الشعر وهي

أمستعبرا حولي رويدك انني * ضريح سعيد حل فيه سعيد
هو العلوي الهاشمي محمد * امام له في الملك سعي حميد
أبوه أبو زيد وقدس ذكره * فقد كان يبدي في العلى ويعيد
ترحم عليه واعتبر بمصابه * فعقد نفيس قد أصيب فريد
ومن رام تاريخ الوفاة فقل له * بشعرك أرخ ماعليه مزيد

﴿بقية أخبار السلطان سيدي محمد بن عبد الرحمن رحمه الله ومآثره وسيرته﴾

كان السلطان سيدي محمد بن عبد الرحمن رحمه الله متقيا لله تعالى بانيا أمره على الشرع لايشذ عنه طرفة عين حتى انه لما عزم على بناء داره التي برباط الفتح قام جماعة من أهل البلد يطلبون منه النصفة في جناتهم التي هنالك فأذن رحمه الله لاعمال الشرع معهم واستناب وكيلا عنه واستنابوا هم وكيلهم أيضا وتحاكموا الى قاضي سلا الفقيه أبي عبد الله محمد العربي بن أحمد بن منصور ثم انفصلت القضية عن ضرب من الصلح بان أعطاهم أثمان جناتهم أو بعضها وذهبوا بسلام وكان رحمه الله حازما في أمره عالي الهمة راميا بها الغرض الاقصى الا أن الزمان لم يساعده كل المساعدة فكانت همته أجل من دهره وكان ذا سياسة وسكينة وتأن في الامور وتبصر بالعواقب كثير الحياء بعيد الغضب سريع الرضى مشفقا على الرعية متوقفا في الدماء لايزايل خوف الله قلبه رحمه الله ونفعنا به وبأسلافه وله آثار بالمغرب

منها ما خلده أيام خلافته في حياة والده ومنها ما فعله بعد ولايته ﴿فمن آثاره في أيام أبيه كما قال اكنسوس﴾ اجراء الانهار وتفجير العيون التي عجز الملوك المتقدمون عنها وتكملة غرس آجدال بحضرة مراكش وكان في زمان الصيف ينساله الجدب من قلة الماء لان بركه التي كان يختزن بها الماء كانت قد تعطلت بامتلائها بالتراب والطين الذي تجلبه السيول اليها وأعظمها البركة الكبرى التي بدار الهناء وكان يقال لها البحر الاصغر وطولها اثنتاعشرة مائة قدم وعرضها تسعمائة قدم حسبما أخبر من قاسها وكان تربيعها بمنزلة سور قصبة فجاء من بنى في وسطها قرية بدورها وأزقتها وأسواقها فجاء السلطان سيدي محمد رحمه الله أيام خلافته فأمر باخراج ما في تلك البرك والصهاريج كلها وتنقيتها من الطيون المتحجرة فاجتمع على ذلك عالم من الناس فكنسوها وعادت الى حالها الذي بنيت لاجله وهو اختزان الماء لوقت الصيف وبذلك كمل المراد من آجدال وصار آمنا من العطش والامحال ومن ذلك أيضا احياء عين أبي عكاز خارج باب الطبول من مراكش وكانت لها بركة بائدة على الوصف الذي ذكرنا فعمد اليها سيدي محمد رحمه الله وبجر لها عينا ثرة وماء غدقا وأجراه الى البركة المذكورة بعد ان أمر بتنقيتها واصلاحها فعاد ذلك البسيط الذي حولها مزارع نفاعة تغني الزارعين وتبهج الناظرين وبنى رحمه الله حولها قلعة يأوي اليها الاكرة والحراثون بانعامهم ومواشيهم واتخذ هنالك من اناث الخيل المعدة للنتاج عددا كثيرا ومن ذلك احياء عين المنارة وبركتها العظمى التي تقرب من البحر الاصغر بدار الهناء وكانت قد عطلت منذ زمان فقيض الله لها هذا السلطان فجمع الايدي عليها حتى أخرج ما في جوفها من جبال الطين وأصلح ما تشعث من حيطانها وأجرى اليها العيون والانهار وأمر بغرس ما حولها من الفضاء بانواع الاشجار وضاهى بها جنة آجدال ومن ذلك أيضا اجراء النهر المسمى بتاركي المستمد من وادي نفيس فانه ضاهى به النهر القديم الذي هنالك وهذا النهر الجديد أنفع منه وأوسع أحيى الله به تلك البسائط التي بين مراكش ووادي نفيس ومن ذلك أيضا اجراء النهر الذي جلبه من تاساوت الى البسيط الذي بين بلاد زمران والرحامنة والسراغنة وهو المسمى بفيطوط فصار ذلك كله رياضا مخضرة وبساتين ذات أزهار مفترة وبنى رحمه الله فيها قصبة عامرة يأوي اليها الوكلاء والفلاحون وصارت آهلة عامرة بعد ان كانت بائدة غامرة ﴿ومن آثاره بعد ولايته أمر المؤمنين﴾ داره الكبرى بآجدال رباط الفتح والسور الكبير المحيط ببسيطها وجلب الماء اليها بعد ان صير عليه أموال كثيرة وأحيى جامع السنة قربها وكان بائدا يعشش فيه الصدى والبوم وأقام فيه الصلوات الخمس والخطبة كل جمعة وأحيى المسجد الصغير هنالك المسمى بمسجد أهل فاس واعتنى بهو زخرف سقوفه وانتهج الطريق من الدار المذكورة الى الوادي أسفل من حسان تسهيلا على المارة وتقريبا عليهم ومنها انه نقل طائفة من الجيش السوسي الذي بالمنشية وأوطنها حول الدار المذكورة بآجدال فاستطابوا المقام هنالك وحسنت حالهم وانعمرت بهم تلك الناحية وهم الآن بهذا الحال ومنها بالدار البيضاء المسجد الجامع بالسوق وكان الصائر عليه من أحباس المسجد القديم وانما السلطان رحمه الله أذن في بنائه باشارة عاملها بومشد أبي عبد الله محمد بن ادريس الجراري ومنها الحمام القديم الذي بها وكان الصائر عليه من بيت المال وأصلح رحمه الله أسوارا الجديدة وأبراجها واعتنى بشأن الثغور وبعث من نوابه من يتفقد أحوالها ومنها بمراكش دار فابريكة السكر بآجدال منها صير عليها أموالا طائلة وجاءت على عمل متقن وهيئة ضخمة الا انها اليوم معطلة لقلة المادة ومنها دار فابريكة ترديج البارود بالمحل المعروف بالصحينة من مراكش أيضا ومن ذلك برج الفنار الذي على ساحل البحر بأشقار قرب طنجة يسرج فيه ضوء كثير يظهر للسيارة في البحر ليلا من مسافة بعيدة وصار عليه مال له بال وكانت المراكب تنشب بذلك الساحل كثيرا اذ لم يكن لها علامة تهتدي بها في البحر ولما اتخذ السلطان رحمه الله هذا الفنار أمنت من تلك الآفة وله رحمه الله آثار كثيرة يطول ذكرها جعلها الله

في ميزان حسناته ورفع بها في عليين درجاته

الخبر عن دولة ملك الزمن أمير المؤمنين المولى حسن بن محمد بن عبد الرحمن خلد الله ملكه

لما توفي السلطان سيدي محمد بن عبد الرحمن رحمه الله اجتمع أهل الحل والعقد من كبار الدولة وقواد الجيش والقضاة والعلماء والاشراف وأعيان مراكش وأحوازها على بيعة نجله أمير المؤمنين المولى أبي علي حسن بن محمد لما توفر فيه من شروط الامامه وتكامل فيه من النجدة والشهامة والزعامه ولما اتصف به من الفضل والدين وسائر خصال الخير وأسباب اليقين ولان والده رحمه الله كان استخلفه في حياته وألقى عليه بجميع مهماته فنهض بأعبائها وتقلب من مغاني السعادة في ظلالها وأفيائها (قال أبو عبد الله اكنسوس) لما استخلف المولى الحسن حفظه الله لم تشغله شؤون الخلافة المترادفة آناء الليل وأطراف النهار ولا ما في قصوره السلطانية من الحدائق والازهار عن وظائف الدين وأسباب اليقين من نوافل الخير من صلاة وصيام وتلاوه كما حدثني بذلك بعض بطانته وانه يجد لها في خلواته لذة وحلاوه فلما توفي السلطان كما قلنا كان المولى حسن أيده الله غائبا عن الحضرة بالجريديق من بلاد حاحة فكتب اليه رؤساء الدولة بما حدث من موت السلطان واجتماع الناس على بيعته فقدم مراكش في السابع والعشرين من رجب سنة تسعين ومائتين وألف ولما دنا منها خرج للقائه الوزراء والقضاة والاشراف والاعيان وسائر أهل مراكش برجالهم ونسائهم وصبيانهم فملؤا تلك البطاح وضاقت بهم الارض وأخذوا يعزونه ويهنؤنه وهو أيده الله يقف لكل جماعة منهم على حدتها حتى النساء والصبيان اشفاقا عليهم وتطييبا لنفوسهم وكان يوم دخوله لحضرة مراكش يوما مشهودا وموسما من مواسم الخيرات معدودا ولما استقر بدار الملك قدمت عليه الوفود من جميع الامصار ونسلوا اليه من سائر النواحي والاقطار وكل وفد يأتي ببيعته وهديته واغتبط الناس بولايته وتيمنوا بطلعته فقابل أيده الله كلا بما يستحقه من الاكرام وأفاض على الرعية جلائل الانعام وشرع في تجهيز الجيوش وفتح بيوت الاموال فغمر الناس بالعطاء وكسا وأركب ونهض من مراكش يوم الاثنين رابع رمضان من السنة المذكورة قاصدا حضرة فاس والوقوف على الرعايا والنظر فيها بما يصلحها فمر على بلاد السراغنة وخرج منها الى البروج ومنها الى كيسر من بلاد تامسنا فاتصل به هنالك خبر فتنة أهل فاس وايقاعهم بالامين الحاج محمد بن المدني بنيس وكان السبب في ذلك على ما قيل أنه لما وصل خبر وفاة السلطان الى فاس وان الناس اجتمعوا على بيعة أمير المؤمنين المولى حسن أعزه الله واجتمع أهل فاس لعقد البيعة أيضا اشترط عامتهم لا سيما الدباغون أن يزال عنهم المكس فيقال ان بعض من أراد جمع الكلمة من العلماء والاعيان تكفل لهم بذلك عن السلطان ولما تمت البيعة أصبح الامين بنيس غاديا على عمله من ترتيب وكلائه لقبض الوظيف في الاسواق والابواب وغيرها فكلمه بعض أعيان فاس في التأخر عن هذا الامر قليلا حتى تطمئن النفوس ويثبت الحق في نصابه وحينئذ يؤتى الامر من بابه فأبى وأصر على ما هو بصدده فثار به العامة وهدموا داره وانتهبوا أثاثه واستصفوا موجوده وأرادوا قتله فاختفى ببعض الاماكن حتى سكنت الهيعة ثم تسرب الى حرم المولى ادريس رضي الله عنه فاقام به وأمن على نفسه وكانت فتنة عظيمة يطول شرحها واتصل بالسلطان وهو بكيسر أيضا خبر فتنة أهل آزمور وقتلهم لنائب عاملهم وكان عاملهم يومئذ أبو العباس أحمد بن عمر بن أبي ستة المراكشي ونائبه هو أحمد ابن المؤذن الفرجي من سكان آزمور وكان قتلهم له تاسع عشر رمضان من السنة ثم ان أهل فاس كتبوا الى السلطان أعزه الله وهو ببلاد تامسنا رسالة بليغة يتنصلون فيها من فعلة بنيس ويرمون بها العامة والغوغاء ومن لا خلاق لهم (ونصها) الحمد لله وحده الكريم الذي لا يعجل بعقوبة من ارتكب الذنب وتعمده والصلاة والسلام على سيدنا محمد صاحب الشفاعة الكبرى والجاه العظيم المخاطب

بقول مولانا فى كتابه الحكيم وانك لعلى خلق عظيم وعلى آله الذين أوجب الله لهم مودة وحبا وأنزل فيهم قل لا أسئلكم عليه أجرا الا المودة فى القربى وأصحابه الذين كانوا أشداء على الكفار رحماء بينهم فكانت الملائكة يوم حنين نصرهم وعونهم هذا ونخص المقام الذى علا قدره واستنار ضوءه وفجره وجلله الفخار والوقار وعلاه البهاء وكساه وألبسه الرسول من رداء الشرف يوم كان على وفاطمة والحسنان فى داخل كساه من ارتقى وفاق وساد ومهد به للخلافة المهاد والوساد وتزينت بعد ائحه الطروس العاطلة وتجلت لسماحته الغيوث الهاطلة من ضربت المفاخر رواقها بناديه ولم تزل المعالى تدعوه لنفسها وتناديه واتخذت بيمنه جلبابا للاجياد والاعناق وأغضت مهابته الجفون والاحداق عين أعيان الدولة الشريفة المولويه وصدر المملكة العلويه الذين لم تزل سيرتهم فى سجلات الآثار المحمودة مرسومه وما ثرهم فى الدواوين مرقومه وألقى اليه هذا القطر المغربى الرسن وحل منه محل الوسن السلطان المؤيد مولانا الحسن سلالة القوم الذين زكت نفوسهم وأينعت فى حدائق المزايا غروسهم ويسير المجد تحت ألويتهم وتتعطر المجالس بطيب أفنيتهم لا زال السعد يراوحك ويغاديك والعز ناغيا بواديك والطعن فى عين حاسديك والقذى فى عين أعاديك وجملك الله من صروف الزمان فى أمان ولا قطع الله عن جماعة العلماء جميل عادتكم ولا سلب المسلمين ملابس سعادتكم ورفع فى بروج السعادة أعلامك ومكن فى رقاب الاعداء حسامك وجعل الفتح أينما توجهت قبالتك وأمامك وشريعة جدك مقلدك وامامك فى نعمة طويلة الاعمار وروضة حلوة الثمار أما بعد أبعد الله عن ساحة سيدنا كل شر وقرب منها المحسن والبر وأبقاها ملجأ للمحتاج والمضطر فانه لما ورد علينا من حضرة سيدنا العظمى ومكانته الشما كتاب سنى معظم الصفات والاسما بديع المعانى رائق المبانى غمر ببلاغته البلغا ورقى ببراعته أعلى المنابر فن تكلم دونه فقد لغا بادرناه بالتقبيل وأحللناه محل التاج والاكليل فقرئ على الجم الغفير وفرح بوروده الكبير والصغير واطمأنت بنشره النفوس وارتفع به كل كدر وبوس وتشوق الحاضرون اسماع ما فيه وأنصت لقراءته ذو المروءة والسفيه والجامع غاص باهله وكل حال بمحله فلما قرئ الكتاب تبين ان صدره مدح وعجزه لوم وعتاب فاشتمل على بسط وجمال وقبض وجلال وجمع بين ترغيب وترهيب ذ ارتاب منه كل مريب فلما تم وختم وتقرر كل ما فيه وعلم تفرقت الجماعات أفواجا وارتجت المدينة ارتجاجا وحصل للناس بذلك الجزع وعمهم الخوف والفزع والذى أوقع الناس فى ذلك ما فى الكتاب من الامر بتدارك ما وقع ففهموا أن ذلك برد ما ضاع وقد تفرق فى الآفاق وما اجتمع وذلك غير ممكن كما سيتبين والحق أوضح وأبين من أن يبين على أن المقصود بذلك والمراد حسم مادة الفساد لينقطع من جماعة السفهاء عداؤها ولئلا تتقد نار الفتنة فيتعذر اطفاؤها أما ما وقع فى قضية الحاج محمد بنيس حتى أفضى به الحال الى الاحترام بمولانا ادريس وفعل باملكنته الفعل الخسيس ولم بسببه المرؤس والرئيس حتى توجهت الحجة على مجموع الكلمات اذ هى متوجهة من جهات فقد تندفع الحجة بشرح القضية على وجهها وايرادها على مقتضى كنهها من غير قلب للحقيقة ولا خروج عن متن الطريقة وفى كريم علم سيدنا ان للانسان أعذارا يرتفع عنه بها الملام ولا يعاتب معها ولا يلام وذلك ان ما وقع من النهب وقع بغتة فى يوم يستعظم شاهده وصفه ونعته والمدينة وقتئذ عامره بالبادية والحاضره ولا معرفة لنا بابن نهب ولا بابن أتى ولا بابن ذهب أمر أبرزته القدرة لم يمكنا تلافيه ولم يفد فيه نهى سفيه فلو صدر ذلك من آحاد معينين وأفراد مخصوصين لامكن الانتصاف وانتزع منهم ما أخذوه من غير اعتساف لكن الامر برز وصدر من قوم مختلطين من بدو وحضر فيهم الابيض والاسود والاحمر وما منهم الا من استأسد وتنمر وليس فى وجوههم من الحياء علامة ولا أثر

لا يقبلون موعظة اذ ليسوا من أهل الفكر فلا يمكن دفعهم الا بجيش عظيم وعسكر يصاح فيهم بالنهي وهم في طغيانهم يعمهون ولا يلتفتون الى من نهاهم بل لا يشعرون ولا يسمع الصم الدعاء اذا ما ينذرون ثم لما كان اليوم العاشر من شهر تاريخه وقع بالحرم الادريسي ما وصلكم ولا أظنه الا فصل لكم لكن عمتنا ألطاف الله وحماته وحفظ الضريح ورحباته ولم تنتهك حرماته وجنة جناته ورماته فأبوابه قد فتحت وزواره بمشاهدة أنواره قد منحت وبما في الكتاب المذكور ان السفيه اذا لم ينته فهو مأمور ولعمرك انه ليس مناعلم بذلك ولا شعور وكيف يأمر العاقل بالمحظور أم كيف يرضى مسلم بهتك حرمة الاسلام وأهله وما يوجب افتراق الكلمة من قول أحد أو فعله وقد جاء الوعيد بما يلزم من سكت وحضر فكيف بمن باشر أو أمر لكن باب التوبة والحمد لله مفتوح لمن يغدو عليه أو يروح فنسأل الله أن يمن عليهم بالتوبه من ارتكاب هذه الحوبه وقد كتبنا لسيدنا بهذا الكتاب والمدينة بحمد الله آمنه والنفوس مطمئنة ساكنه والايدي على التعدي مكفوفه والطرق مسلوكة غير مخوفه وذلك بعد معاناة في اخماد نار الفتنة ونصب وألطاف الله تتوارد وتصب بعد ان كانت نار الفتنة توقدت وتأججت وبلغت القلوب الحناجر وبالاكدار قد مزجت وكل من له مروءة ودين وعد من المهتدين بذل في صلاح المسلمين جهده وأبدى من الفعل الجميل ما عنده ولقاضينا بارك الله فيه اليد الطولى فلم يقع منه تقصير في القضية الثانية ولا الاولى هذا وكأني علمكم أن الملك من ملك هواه ولم يغتر بهذا العرض الفاني وما أغواه وقهر نفسه عند الغضب وابتكر ما يوصله الى الله واقتضب وأن الكريم اذا حاسب سامح واذا قدر عفا ولو أبدى المسيء اساءته وهفا فليتفضل سيدنا بقبول شفاعة من يضع اسمه في هذا الكتاب من العلماء والاشراف ومنهم بعدم صواب ما صدر من السفهاء اقرار واعتراف ولا يستغرب صدور الخير من معدنه والفضل من موطنه وتحاشي أخلاقك الفاخره وشيمك الطاهره أن تكون شفاعتنا في هؤلاء العصاة مردوده وجماعتنا عن ساحتكم مبعدة مطروده والحسن الظان بكم تحمل لجانبكم الزعيم والكفيل على أن لا ترى منكم الا الجميل فليمن سيدنا على هذه الحضرة الفاسية منا ولا يؤاخذنا بما فعل السفهاء منا وكيف والحلم من داركم برز وخرج وفي أوصافكم الحسان اندرج فاحببنا أن تكون هذه المنقبة في أوصافكم تذكر وفي صحيفتكم تكتب وتسطر فقابلوا بالصفح والاغضا عما سلف ومضى وكلنا من رعيتكم ومقتطفون من ثمار روضكم ومستمدون من مائدتكم والظن الاقوى بكم انكم تقبلون الشفاعة منا وتمنون على المستضعفين من رعيتكم منا وكأنا بكم بضمن ذلك تتحلى وكلماته أشهى من العسل وأحلى والله يتولى أمر الائتلاف بتعود احسانه ويجمع قلوبنا على طاعته وموجبات رضوانه حتى نكون في ذات الله اخوانا وعلى الدين أنصارا وأعوانا والقلوب بيد من له الامر والاختيار وربك يخلق ما يشاء ويختار واذا تعارضت الحظوظ فما عند الله خير للابرار وخير العمل عمل قرب الى الجنة وأبعد من النار فالواجب على كل مسلم أن يدع ما يزري بالاسلام ويهينه ولا يلتفت لدواعي القطيعة فانها تقوي الكفر وتعينه أما علمنا أن من وراءنا عدوا يشتهي مواطئ أقدامنا وتنكيس أعلامنا تقتضي اخوة الاسلام ومناصرته ومعاضدته ومواصلته أن لا يكون لجميعنا طموح الا اليه ولا تمالؤ الا عليه وفقنا الله لما فيه رضاه وجعل سعينا فيما يحبه ويرضاه آمين والسلام في منتصف رمضان المعظم عام تسعين ومائتين وألف اهـ

ثم دخل السلطان المولى الحسن أعزه الله رباط الفتح صبيحة يوم الخميس التاسع والعشرين من رمضان المذكور وكان العيد يوم السبت فاقام السلطان أيده الله سنة العيد برباط الفتح وختم به صحيح الامام البخاري على العادة وكان فقيه المجلس ومدرسه يومئذ الفقيه العلامة السيد المهدي بن الطالب بن سودة الفاسي وحضر ذلك المجلس وفود المغرب وقضاة العدوتين وعلماؤهما وحضرنا في جملتهم ومدح السلطان

بقصائد بليغة واحتفل أعزه الله لهذا الختم بانواع الاطعمة والاشربة والطيب وفرّق الاموال على من حضر ثم وصل أهل العدوتين من علمائهما وقرائهما ومؤذنيهما وطبجيتهما وبحريتهما على العادة وهنالك قدم عليه أهل آزمور متنصلين مما صدر من عامتهم في حق محمد بن المؤذن فقابلهم بالبشر والصفح الى أن يبحث عن رؤس الفتنة بعد ذلك فعاملهم بما يستحقونه وأقام السلطان أعزه الله برباط الفتح الى يوم السبت الثاني والعشرين من شوال من السنة فنهض قاصدا مكناسة فعبر المجاز ومعه من جنود الدولة وعساكر القبائل ما يجل عن الحصر وكان نهوضه عن ازعاج بسبب ما اتصل به من خبر المولى عبد الكبير ابن عبد الرحمن بن سليمان ولد الذى كان ثار لاول بيعة السلطان سيدى محمد بن عبد الرحمن فسلك هذا الولد مسلك أبيه وأطمعه شياطين البربر في الملك حتى أوردوه مورد الردى وحان وسقط العشى به على سرحان ولما كان السلطان أعزه الله ببلاد بنى حسن بلغه خبر القبض عليه فكتب كتابا الى الامصار يقول فيه مانصه وبعد فان عبد الكبير بن عبد الرحمن الذى سوّلت له نفسه ماسوّلت من الرأى المنكوس والحظ المعكوس كان تحزب بشياطين وأوباش من برابرة بنى أمكيلد وأتوا به لآيت عياش قرب فاس فلما سمع بذلك خدامنا أهل فاس وأخو الناشراوة وغيرهم من الجيش السوسى وقبائل الصلاح قاموا على ساق فى طرده وابعاده ونفيه من ساحتهم وتشتيت رماده وقابلوه بالنكاية والوبال ورأى منهم مالم يخطر له ببال ورجع بخفى حنين ثم بعد الطرد والابعاد لم يبال بما هو عليه من سوء الحال ولا أقلع عما طمع فيه من المحال ولا انتبه من نومته ولا أفاق من سكرته وبقى على دورانه عند البربر الى أن ختم مطافه بالوصول لآيت يوسى فحكم الله فيه هنالك وأتى به مقبوضا عليه وذهبت ريحه وسقط فى أيدى من كان آواه من البربر وحصلوا كلهم على الخسران والخزى والخذلان وها الفتان مثقف تحت يد أخينا الارضى مولاى اسمعيل رعاه الله فالحمد لله حق حمده ولا نعمة الا من عنده وهو المسؤل بنبيه صلى الله عليه وسلم ومجد وعظم أن يؤدّى عنا وعن المسلمين شكر نعمته وأن يجرينا على ما عوّدنا من جزيل فضله ومنته هذا وقد كتبنا لكم هذا بعد ما خيمنا بحول الله ببلاد الصفاقعة من بنى حسن ومحلتنا المظفرة بالله محفوفة بالنصر والعز بحمد الله وأعلامنا المنصورة بالله رياح اليمن والسعادة تسوقها والارباح تكفل بها سوقها وقد أعلمناكم لتأخذوا حظكم من الفرح بما خوّل مولانا جل وعلا من عظيم نعمه فلله الحمد وله المنة والسلام فى السادس والعشرين من شوال عام تسعين ومائتين وألف اه ثم تقدم السلطان أعزه الله الى دار ابن العامرى فاوقع باولاد يحيى فرقة من بنى حسن وكانوا قد ثاروا بعاملهم عبد القادر بن أحمد الحروفى فهدموا داره وانتهبوها وعاثوا فى الطرقات وأخافوها فاوقع بهم السلطان المولى الحسن أعزه الله وقعة كادت تستأصلهم وتأتى عليهم فتشفعوا اليه وتطارحوا عليه وأظهروا التوبة والخضوع فقبل توبتهم وولى عليهم ثلاثة عمال ووظف عليهم مالا له بال ونهض أعزه الله الى مكناسة الزيتون فى سابع ذى القعدة من السنة فدخلها مظفرا منصورا ولما احتل بها كتب أيده الله الى الامصار بما نصه وبعد فانا بأثر الفراغ من أمر القبيلة اليحيوية وبناء أمرها على أساس الجد بحول الله وحصول المراد من كمال استقامتها بحمد الله وجهنا الوجهة السعيدة لوطن أسلافنا الكرام قدسهم الله بمكناسة الزيتون وتقدمنا فى محلتنا السعيدة المنصوره التى أرخى اليمن والظفر عليها ستوره فلقينا فى طريقنا أهل هذا القطر المغربى من البرابرة وغيرهم على اختلاف شعوبهم وقبائلهم مظهرين غاية الفرح بمقدمنا ومتبركين بيمن طلعتنا وقائمين بالسمع والطاعة لعلى جانبنا وحللنا حضرتنا السعيدة بمكناسة الزيتون فى يوم كان من الايام السعيدة المشهوده والاوقات المعدوده بل فاق ذلك اليوم السعيد بما وقع فيه من السرور كل موسم وعيد فالحمد لله على ما خوّل وأولى من فضله العميم وخيره الجسيم وهو المسؤل بنبيه صلى الله عليه وسلم ومجد وعظم أن يؤدّى عنا وعن المسلمين شكر نعمته وأن يجرينا على ما عوّدنا من جزيل فضله

ومنته

ومنته آمين والسلام في العشرين من ذي القعدة الحرام عام تسعين ومائتين وألف اه وكان دخوله أعزه الله الى مكناسة بعد زيارته تربة المولى ادريس الاكبر وصلاته الجمعة بها وأطال أيده الله المقام بمكناسة وفي مدة مقامه بها أوقع ببني مطير ومن لافهم من مجاط وبني مكيلد وآيت يوسي وغيرهم بعدان طال قتاله لهم ثم اقتحم عليهم معاقلهم وانتهى الى الموضع المعروف بالحاجب بحبوحة قرارهم ومحل منعتهم وانتصارهم بل تجاوزته عساكره المنصوره وأعلامه المنشوره بمسافة بعيدة الى أن دخلت فم الخنيق الذي هو أول بلاد بني مكيلد فاستباحت هنالك حلاتهم وطارت بروس عتاتهم ومزقتهم في أعز مكانهم كل ممزق وقبضت منهم على عدد وافر من الاسرى بعث به السلطان أعزه الله الى الامصار فكانت عبرة لاولي الابصار وكان ايقاعه ببني مطير منتصف محرم فاتح سنة احدى وتسعين ومائتين وألف واستمر مقيما بمكناسة الى فاتح ربيع الاول منها وفي يوم الاثنين ثالث الشهر المذكور نهض أيده الله الى فاس فدخلها يوم الخميس السادس منه بعد ما تلقاه أشرافها وأعلامها وأعيانها وجميع رماتها حتى النساء والصبيان مع العامل والقاضي واجتمعت به مقدمتهم بوادي النجاة فألان جانبه لهم وتنزل للاقاتهم تطييبا لنفوسهم ولما وصل الى البلد لم يعرج على شيء دون قصد ضريح المولى ادريس رضي الله عنه وزيارته والتبرك به وانهار عليه الضعفاء والنساء والصبيان يقبلون أطرافه ويتمسحون بأذياله وقدم الذبائح للحرم الادريسي وغيره وأفاض من العطايا الى الضعفاء والمساكين ما جاوز الحصر وكان يوم دخوله يوما مشهودا وموسما من مواسم الخيرات معدودا وعيد بفاس عيد المولد الكريم وقدمت عليه الوفود من كل ناحيه واجتمعت ببابه وجوه القبائل من كل قاصية ودانيه وازدان العصر وعم الفتح والنصر واستقامت الامور ونادى منادي السرور في الخاص والجمهور ولما فرغ السلطان أعزه الله من شأن العيد أمر أمينه أبا العباس أحمد بن محمد بن شقرون المراكشي أن يرتب الوظيف المجعول على أبواب فاس وأسواقها على ما كان عليه في حياة السلطان سيدي محمد رحمه الله ففعل وكان ذلك أواخر الشهر المذكور ولما جلست الامناء كل بمحله واستقامت الاحوال وذهبت الاهوال ثقل ذلك على الدباغين وتمرضوا فيه وذهبوا الى الشريف الفقيه المولى عبد الملك الضرير وقالوا والله أنت الذي أوقعتنا في هذا كله بضمانك اسقاط المكس أولا حتى صدر منا في حق بنيس ما صدر والآن أخرجنا مما أوقعتنا فيه اما باسقاط المكس واما باخراج بنيس من بين أظهرنا لئلا تدول له دولة علينا والرجل قد صار عدونا فقام الفقيه المذكور وقدم على السلطان أعزه الله وذكر له ما عزم عليه السفلة من الدباغين فاعرض السلطان أيده الله عن ذلك وقابل بالجميل فقال الفقيه المذكور ان لم يكن شيء مما ذكرت لسيدنا فالاولى بي أن أنتقل الى تافيلالت ولا أبقى بين أظهر هؤلاء القوم فأسعفه السلطان وبعث جملة من الجمال بن لحمله وحمل أولاده ولما رأى الدباغون ذلك نفخ الشيطان فيهم وعمدوا الى الجمال بن فطردوهم وارتجت فاس وماجت الاسواق وقامت الفتنة على ساق واتصل الخبر بالسلطان أيده الله فاستدعى عامل فاس ادريس بن عبد الرحمن السراج وكان متهما بالخوض في وقعة بنيس وما ترتب عليها بعد فاظهر الطاعة والامتثال وركب بغلته يريد القدوم على السلطان بفاس الجديد فقام الدباغون دونه ومنعوه من الذهاب الى السلطان وتهددوه بالقتل ان فعل فقعد ووقع ذلك منه الموقع لانه كان متخوفا على نفسه ولما رأى السلطان أيده الله تمادي هؤلاء الطغام وتحكمهم ولجاجهم بعدان بالغ في الانة الجانب والمقابلة بالجميل ومن ذلك اعراضه أعزه الله عن الكلام في أمر بنيس أمر بحصارهم والتضييق عليهم لعلهم يرجعون ثم لم يكفهم عصيانهم حتى صعدوا على منار المدرسة العنانية وعلى غيرها مما هو مطل على فاس الجديد وأخذوا في الرمي بالرصاص حتى أصابوا بعض من كان بابي الجلود ولما انتهوا من سوء الادب الى هذه الغاية أمر السلطان أيده الله بمقابلتهم على قدر جريمتهم فطافت بهم العساكر ورموهم بالكور من كل ناحية ثم

اقتحمت طائفة من العسكر سور فاس من جهة الطالعة وأخذوا فى النهب والقتل وعظم الخطب واشتد الكرب وفى أثناء ذلك بعث السلطان أعزه الله وزيره أبا عبد الله الصفار يعظهم ويعرض عليهم الامان بشرط التوبة والرجوع الى الطاعة فأذعنوا وامتثلوا وانطفأت نار الفتنة وانحسمت أسباب المحنة فجعل السلطان أيده الله بالكتابة لجميع الآفاق وتلطف واعتذر بانهم الذين بدؤا بالحرب والبادى أظلم ومع ذلك فبمجرد ما أذعنوا الى الطاعة كف عنهم رحمة لهم وأبقاء عليهم وكان هذا الحادث يوم الثلاثاء رابع ربيع الثانى من السنة (ونص كتاب السلطان أعزه الله) وبعد فبعد ما كتبنا لكم فى شأن ما تلقانا به أهل فاس من الفرح والسرور والاحتفال فى جميع الامور اختبرناهم وبلونا أحوالهم فألفينا أفعالهم تصدق أقوالهم فامرناهم حينئذ برد المستفادات لحالها المعتاد كما فعلنا بمكناسة وغيرها من البلاد فامتثلوا طائعين وجدوا فى دفعها مسارعين ومن جملة من أمتنعا عليها ابن شقرون المراكشى الامين فلم تشعر بالدباغين أصحاب فعلة بنيس الا وقد ملؤا رعبا وتخوفوا أن يركبوا فى المؤاخذة بها مركبا صعبا فطلبوا اخراج بنيس من بين أظهرهم وابعاده وهم حينئذ عند السمع والطاعة المعتاده فلم نساعدهم وازدادوا تخوفا وظهر منهم طيش أبان منهم تشوشا وتشوفا فتصدينا بحول الله وقوته لتربيتهم وتأنينا كل التأنى فى مفاجأتهم وأحجمنا حياء من معاجلتهم تأدبا مع حرمهم الاكبر سيدنا ومولانا ادريس الازهر ومراعاة لجماعة أهل الله الاحياء والنائمين واعذارا وانذارا لتكون الحجة عليهم شرعا وطبعا تمه حتى ابتدؤنا وكسروا الحرم فقابلناهم والبادى أظلم فما كان الا كلمح البصر أو هو أقرب حتى ظهر نصر الله فهدمت دور وصوامع وخربت فنادق ومصانع كانوا يضربون منها ويتترسون بها ونهبت حوانيت ودور واستلبت أيدى الجيش أقواما منهم وأسرت أسرى وأخذوا نكالا للآخرة والاولى لكن بمجرد ظهور سطوة الله القاهرة فيهم والفتح أمرنا بالنداء فى الحين بالعفو والصفح وكف أيدى القتل والاسر عنهم ابقاء عليهم وشفقة لهم حتى يظهر ما آل أمرهم ويصفو كدر غمرهم وفى عصر ذلك اليوم ورد العلماء والشرفاء والرؤساء والعرفاء ضارعين صارخين شفعاء على شرط أداء الحقوق والتزام الشروط والبقاء على ما كانوا عليه قيد حياة مولانا المقدس من اللوازم والمغارم فشفعناهم على الشروط المذكوره وقبلناهم على التزام الحدود المحصوره وأعلمناكم لتفرحوا بنصر الله وتكونوا على بال من حقيقة الواقع ولئلا تصيخوا للاخبار الكاذبة مسام المسامع أو تلفتوا الى أقاويل المرجفين الذين لا يدينون لله بدين ولا يريدون الا فتنة المؤمنات والمؤمنين والسلام فى رابع ربيع الثانى سنة احدى وتسعين ومائتين وألف اه ثم ان السلطان أعزه الله قبض على عامل فاس ادريس السراج وعلى ولده واثنين آخرين معه من رؤس الفتنة وغربهم الى مراكش وولى على فاس القائد الجيلانى ابن حمو البخارى أحد قواده واستقامت الاحوال ﴿وكان مما قيل﴾ من الشعر فى هذه الوقعة قول صاحبنا الفقيه الاديب أبى عبد الله محمد بن ناصر حركات السلاوى حفظه الله

لله يا تلك التى تأوى الفنا * لا تنقضى ما كان صبرى قد بنى
كلا وقد هيجت منى لوعة * قد أوشكت فى مهجتى أن تهدنا
وأتيت موطن مصرع العشاق ثم * بكيت حتى كدت تبكى الموطنا
لو كانت الاجبال تعقل لانثنت * تبكى لما بك رأفة وتحننا
فبأى رأى يا حمية غدا * منك البكا عوض الترنم والغنا
وبأى ذنب قد فجعت قلوبنا * وسقيتنا كأس الاسى بدل الهنا
أو ما كفاك من المتيم مهجة * ما شأنها الا معاناة العنا
صب له فى كل يوم عبرة * وتلهف يقتده قد القنا

كيف اصطباري والحبيب مصارمي * والدهر مغـــرا بالوشاية بيننا
دعني فعـــدلك للتيم ضـــلة * شر عليـــه من مقاساة الضـــنا
تالله لا رقأت لعيني عــــبرة * حتى ترى وجــــه المليك الايمنا
السيد الشهم السري الاصيد الـ * فخم النهى الباهي الهمام الصيدنا
الاعظم المستعظم العذب الحلي الـ * مستعذب الحسن الثنا المستحسنا
قد حاز في الاشراف كل فضيلة * ملأ المسامع حسنها والاعينا
ومكارما ومحاســـنا ومفاخرا * لو ذاق لذتها الكفور لا منا
فلذاك ســيدنا المقدس خصه * عبا ثر ما تنتهي فتــــدونا
ورث الخـــلافة كابرا عن كابر * لا كالذي يأتي اليها ضيفنا
عشقته عشق ابن الملوح خدنه * وصبت اليه صبا العيون الى الزنا
وله وقد لبتــه قبـــل دعائه * ألقت أزمتهـا وقالت هاأنا
ملك به الملك الاعز تشـــيدت * أركانه في العز محـــكمة البنا
أضحى به يختال فخـــرا قائلا * لسواك يا ركن الورى لن أركنا
والدهر سلم والحظوظ بواسم * والنصر يقبل من هناك ومن هنا
والسعد قد ألقى عصا تســياره * في قصره متأليا أن يقطنـا
حسنت بطلعتــه الدنا فكأنها * حـــلي به هـــذا الزمان تزينا
ان المــعزايا والعطايا والحجا * أخـــلاق ســـيدنا تناء أودنا
لا لا تقس قيسا به في النبــل أو * في الفضل قعقاعا وأحنف في الاناة
أو في الشجاعة عامرا أو في الندى * معنا وفي الافصاح قس الالسنا
فهـــم لو اطلعوا على خصلاته * لغـــدت ظنونهم بذاك تيقنا
فاستصغروا ما كان يصدر منهم * وأتى جميعهـــم اليــــه مذعنا
ليت الملوك السالفين قد احضروا * فرأوا مليكا ما لـكا حســن الثنا
ولو انهـــم علموا ضخامـــة ملكه * قالوا النـــا ملك ولـــكن قد دنا
ولو انهـــم سمعوا بعظم سماحـــه * تاقوا وقالوا ليتــه في عصرنا
ولو انهـــم قد أبصروا اقدامه * بهتوا وقالوا ليس ذا في طـــوقنا
هذا الامير ابن الامير ابن الامير * ابن الامـــير المالـكي رسن الدنا
هـــذا العصامي العظامي الذي * وسع الاماكن فضـــله والازمنا
مازال يسمح بالجـــوائز واللها * حتى لقـــد تخذ السماحـــة ديدنا
نعم نتيـــه تلذذا بحديثـــــه * حتى نطق الارض قد مادت بنــا
طبع الفـــؤاد على مودته فـــا * ندعـــو له بالنصر الاهيمنا
يا أيها الملك السميــــذع والذي * ما كان مشـــبهه مضى في غيرنا
مازلت تجتاب البـــلاد بسيرة * عمـــرية تذر المعاصي مذعنا
وتبين للناس الرشاد وســـبله * وتريهـــم نهج السواء البينا
وتدمر العـــاتي بابيض صارم * وتقوم المعوج بالسمـــر القنا
لولا البغاة من الانام وجورهم * ما فارقت بيض السيوف الاجفنا
لـكن بحلمك قد حقنت دماءهم * ما أوشكت من بغيهم أن تحقنا

وأغت فى ظل الامان جفونهم * لولاك لم يك لامرئ أن يأمنا
ولقد تركتهم وكل قبيلة * تثنى عليك ثنا القلوب على المنا
حتى أتيت الحضرة الفاسية الـ * ـغراء معتجرا بأثواب السنا
والملك من فرط السرور بك ازدهى * وله فم بجميل ذكرك أعلنا
وأتاك أهلها قوّلا هلل لنا * ياماجدا من عطفة تشفى الضنى
ياطالما اشتاقت اليك قلوبنا * شوق الفقير الى ملاقاة الغنى
ففتحتهم بعد الضراعة عزة * وكسوتهم بعد الاساءة ثوب الهنا
هذا وما صبحتهم بكريهة * حتى جنى جهلا بفضلك من جنا
شربوا كؤس الحتف لولا انها * أبقت عليهم رأفة وتحننا
وأتاك أرباب البصائر قوّلا * يالاتؤاخذنا بزلة غيرنا
فصفحت عنهم صفح مقتدر ولم * تترك جيوشك فيهم أن تثخنا
وحبوتهم بعد الاسى بمسرّة * منعت قلوب الناس أن تتحزنا
فغدى ببغيته المصافى وانثنى * بندامة الكسفى من قد شيطنا
لوكان فى الاحسان شئ يتقى * لنهاك طبع الجود ان لاتحسنا
ان الكريم اذا تمكن من أذى * صاحت به أحلامه فتحننا
مثل الشجاع اذا سطا يوم الوغى * أضحى يرى طعم الردى حلوا الجنا
لا كالجبان فلو تكلف نجدة * صدته خشيته الحمام فأقبنا
وكذا اللئيم اذا أراد تفضلا * جاءته أخلاق اللئام فأشقنا
لو أن جودك فى الورى متفرق * ما كان فيهم من يرى متمسكا
ولو ان بأسك قد تفرق بينهم * ما كان يمكن لامرئ أن يجبنا
لولم تكن مولى لخميس أرعن * لكفتك هيبتك الخميس الارعنا
لو ان من أثنى على هرم رأى * يوما علاك لقال غيرك ماعنا
شهد الانام بان مجدك باهر * لم يجحدنه جاحد فنبرهنا
يدعونك الحسن الرضى طرّا ولو * شوركت فى حسن دعوك الاحسنا
ياأيها الشهم السرى ومن به * أضحى على الاقطار يفخر قطرنا
انى امتدحتك والمحبة شافعى * ومحبة الاشراف نعم المقتنى
وتحصنى أبدا بعزة ركنكم * ومعزز من بالكرام تحصنا
لازالت امداحى لاقعس مجدكم * متواليات أو يصدّنى المنا
تالله لاقمنا بشكركم ولو * أعضاؤنا كانت جميعا ألسنا
فلمجد حنك فى الحياة وان غت * قامت عظامنا بمدحك بعدنا
خذها اليك خريدة فكرية * طلعت بغيظ قلوب أبناء الزنا
بهرت قلوب ذوى النهى بمحاسن * منعت نوائد فكرهم أن تحسنا
فاصرف اليها منة عين الرضى * وامنع بفضلك حسنها أن يغبنا
دامت اليك من المهيمن نصرة * تدع المعاند ضارعا مستهجنا
بمحمد المختار جدك خير من * قد أوضح النهج القديم وبينا
صلى عليه الله ماجن الدجى * وأمالت الريح الجنوب الاغصنا

والآل والصحب الصناديد الذرى * والمانحى قصادهم نيل المنا

ثم شرع السلطان أعزه الله بجمع العسكر وتنظيمه زيادة على ما كان فى حياة والده فألزم أهل فاس بخمسمائة وألزم أهل العدوتين بستمائة وألزم غيرهما من الثغور بمائتين مائتين ولم يتخذ من مراكش ولا أعمالها شيأ فصعب على الناس ذلك وجمعوا منه ما قدروا عليه واعتنى السلطان أعزه الله به فكان يباشر عرضه وترتيبه بنفسه وفى أيام مقامه بفاس نبغ نابغ بأعمال وجدة يقال له أبو عزة الهبرى من هبرة بطن من سويد وسويد من عرب بنى مالك بن زغبة الهلاليين وكان هذا الرجل فيما زعموا يخط فى الرمل ويتعاطى بعض السحريات فتبعه بعض الاوباش الذين لا شغل لهم وتأشبوا عليه ودنا من أطراف الايالة وقوى حسه وكان السلطان أعزه الله عازما على النهوض الى تلك الناحية وتمهيدها ونفى الدجاجلة عنها فاستعد غاية الاستعداد وجدد الفساطيط وكسى الجنود فرسانها ورماتها قديمها وحديثها وعرضها كلها ثم نهض من فاس منتصف رجب سنة احدى وتسعين ومائتين وألف ولما بات فى الليلة الثانية بآيت شغروسن أغار على المحلة ليلا أبو عزة الهبرى ومعه سعيد بن أحمد الشغروسنى ويقال انه ادريسى النسب فماجت المحلة بعض الشئ ثم تراجع الناس وأخذوا مراكزهم وصوبوا المدافع وآلات الحرب نحو عدوهم فشردوهم فكان ذلك آخر العهد بهم وقبض على عدد من أصحابه وقطعت رؤس منهم وتقدم السلطان أعزه الله فى جموع مؤلفة من الجيش السعيد المظفر وأنجاد نظام العسكر وغزاة القبائل الغربية بربرية وعربية الى بنى سادان وآيت شغروسن فاوقع بهم وقتل وأسر وانتسفت الجيوش زروعهم وبعثرت أرضهم وديارهم فلجؤا الى بنى وراين فأمر السلطان أيده الله بقتال الجميع ثم جاء بنو وراين متنصلين متبرئين الى السلطان منهم فقبلهم وولى عليهم رجلا من أعيانهم ثم جاء بنو سادان وآيت شغروسن تائبين خاضعين فعفا عنهم ووظف عليهم مائة ألف مثقال وزيادة أربعمائة من الخيل فأذعنوا لادائها واستوفاها السلطان أعزه الله منهم فى أوائل شعبان من السنة ثم تقدم الى تازا فدخلها فى أوائل الشهر المذكور ولما احتل بها قدمت عليه وفود قبائلها متمسكين بحبل الطاعة داخلين فيما دخلت فيه الجماعة فرحين مغتبطين وبكل ما أمكنهم من الخدمة متقربين وجاءت عرب الاحلاف ومن جاورهم حاملين هواديهم المحلاة باحسن حليهم وشاراتهم التى يستعملونها فى مواسمهم وزيهم فقابل السلطان أعزه الله كلا بما يجب من المجاملة وحسن المعاملة ما عدا ثلاث فرق من غياثة المجاورين لتازا وهم بنو أبى قيطون وأهل الشقة وأهل الدولة فانهم كانوا يضرون باهل تازا ويغيرون عليهم فألزمهم السلطان أيده الله بأداء ما تعلق لهم بذمتهم فأدوه فى الحال ثم وظف عليهم ثلاثين ألف ريال أخرى لبيت المال فأدوها أيضا عن طيب أنفسهم ومن عداهم من أهل غياثة فانما أدوا الزكوات والاعشار وأظهروا حسن الطاعة والامتثال وفى هذه الايام جيء الى السلطان بالهبرى أسيرا فانه لما خرج السلطان أعزه الله فى طلبه وطلب غيره أبعد فى الصحراء ولم تزل تلفظه البلاد وتتداوله الشعاب والوهاد الى أن ساقته خاتمة النكال الى قبيلة بنى كلال وهم على أربع مراحل من تازا فقبضوا عليه وجاؤا به الى السلطان أسيرا حتى أوقفوه بين يديه مصفدا كسيرا فاظهر الهبرى الجزع وتضرع وخضع فحقن السلطان أعزه الله دمه وأمر به فطيف به فى المحلة على جمل ثم أمر ببعثه الى فاس فسجن بها بعدان طيف به فى أسواقها ثم مضى السلطان أعزه الله لوجهه حتى بلغ قصبة سلوان على طرف الايالة المغربية من جهة الشرق فوفدت عليه قبائل تلك النواحى وأهدوا ومانوا وأظهروا غاية الفرح والسرور * حكى من حضر * أنهم كانوا يزدحمون عليه لتقبيل يده وركابه ووضع ثيابه على أعينهم تبركا به وفى أوائل رمضان من هذه السنة فى ليلة الخامس أو السادس وقع تناثر فى الكواكب وتداخل واضطراب عظيم على هيئة مفزعة بعضها مشرق وبعضها مغرب وبعضها الى هيئة أخرى فكان الحال كما وصف الاعمى بقوله

كأن مثار النقع فوق رؤسنا * وأسيافنا ليل تهاوى كواكبه

ودام ذلك الى قرب السحر وأقام السلطان أعزه الله بهذه البلاد حتى عيد بها عيد الفطر وكان المشهد هنالك عظيما والموسم فخيما وحضر بنو يزناسن ومعهم كبيرهم الحاج محمد بن البشير بن مسعود فاهدى هدية كبيرة وولاه السلطان على تلك القبائل من بني يزناسن وغيرها وقفل أعزه الله راجعا فأدركه فصل الشتاء بتلك الجبال والفيافي فاشتد البرد وقلت الاقوات وهلك بسبب ذلك عدد كثير من الجند ولحق الناس مشقة فادحة وأظهر السلطان نصره الله يومئذ من الشفقة والبر وما تناقله الناس وتحدثوا به فانه كان يسير بسير الضعيف و يقف على المرضى حتى يصلح من شأنهم و يأمر بدفن من يدفن وحمل من يحمل واذا سقط لاحد دابته أو رحله وقف عليه بنفسه حتى يعان عليه وهكذا الى أن دخل حضرة فاس بحيث أدرك به عيد الاضحى من السنة فعيد بها وتفرغ للنظر في أمر العسكر يقوم عليه بنفسه و يعرضه على عينه و يتصفح قوائم مؤنه ورواتبه فاطلع أيده الله على ما كان يدلسه القائمون على ذلك من الزيادة الباطلة فعزل من عزل وأدب من يستحق التأديب ثم قبض على كبير العسكر السوسي وهو الحاج منو الحاحي وكانت فيه شجاعة واقدام الا أنه كان مفرطا في التهور والادلال على الدولة وكبرائها فادى ذلك الى الانتقام منه بالضرب والسجن والاحتياط على ماله وضياعه ولا زال مسجونا الى الآن ثم سرح من السجن واستوطن مراكش عام ألف وثلاثمائة وخمسة وفي هذه المدة شرع السلطان أعزه الله في بناء داره العالية بالله العامرة المزرية بمصانع المعتمد وقباب الزهرة وذلك في البستان المعروف ببستان آمنة داخل فاس الجديد عمد أعزه الله الى ناحية من ذلك البستان فقطع ما كان بها من الشجر وبنى فيها قبة فارهة فائقة الحسن بديعة الجمال يقال انه ضاهى بها بعض قباب المعتمد بن عباد باشبيلية ثم بنى الدار الكبرى بازائها وهي من عجائب الدنيا حسنا بلغنا بالغ أيده الله في تجديدها وتنميقها وأودعها من النقش العجيب والتخريم البديع والزليج الرفيع المزري بخمائل الزهر وقطائف الهند وبديع الطوس بحيث جزم كل من رأى ذلك بان مثله لم يتقدم في دولة من دول المغرب وجلب لقبابها الابواب من بلاد الارو ام يقال أن ثمن أحد الابواب خمسة عشر ألف ريال مسامير من الفضة المذهبة وعوده من أفضل أنواع العود لا تعرف له قيمة وفيه من التخريم والنقش ما يدهش الفكر و يحير النظر وباقي الابواب من البلور الصافي المذهب المودع فيه كل نقش غريب وبها خوخات مركبة بهيئة بديعة كل ذلك قد عمه الذهب النضار الذي يدهش الابصار وجلب لذلك من الاثاث الرومي ما قيمته ألوف من الريال وفيها من الفرش والحائطيات المزخرفة ما لا يدرى ثمنه ولا يعرف معدنه وموطنه الى غير ذلك من المقاعد الحسنة والمنازل المستحسنة الرائقة الطرف البديعة الصنعة والرصف وفي مدة مقام السلطان أيده الله بفاس بلغه عن ولد البشير بن مسعود بعض استبداد فاقتضى نظر السلطان أعزه الله أن يبعث من قبله عاملا لجباية تلك النواحي فعقد لاخيه المولى علي على جيش وأضاف اليه القائد أبا زيد عبد الرحمن بن الشليح الزراري بمنزلة الوزير والظهير وبعثهما الى ناحية وجدة وكان ابن الشليح المذكور يومئذ يتولى عمالة تازا وكان أهل وجدة وأعمالها يكرهون ولاية ولد البشير عليهم و يحبون ولاية ابن الشليح اذ كان له ذكر وصيت في تلك الناحية وربما كاتبه عرب آنفاد وكاتبهم ولما أحس ولد البشير بذلك انصبغت العداوة بينه وبين ابن الشليح فلم يكن الا كلا ولا حتى وجه السلطان أيده الله ابن الشليح المذكور واليا على وجدة وأعمالها وجابيا لاموالها وناظرا في شؤنها وأحوالها فقامت قيامة ولد البشير وعلم أنه لا يصفو له عيش معه فعزم على أن يطرده عن تلك البلاد و يرده من حيث جاء وكان ولد البشير هذا حسن الطاعة للسلطان الا أنه انفسد أمره بما ذكرناه ولما قرب ابن الشليح من أرضه خرج اليه في خيله ورجله ولما التقت مقدمة الجيش بهم انتشبت الحرب بينهم وقامت الفتنة على ساق وكان غرض ولد البشير أن يضم اليه أخا

السلطان

السلطان وجيشه ويقوم بخدمتهم ويطرد عنه عدوه فقط فلم يستقم له ذلك وكان رأيه هذا خطأ اذ ليست
هذه بطاعة كما لا يخفى ثم انهزم الجيش وعمدت بنو يزناسن والعرب الى المحلة فانتهبوها وعاد عبد الرحمن
ابن الشليح الى السلطان أعزه الله وهو بفاس فأخبره الخبر وباثر ذلك كتب ابن البشير الى السلطان
يتنصل من أمر ابن الشليح ومحلته وأنه لا زال على الطاعة لم يبدل ولم يغير وانما الذى انتهب المحلة هم
السفهاء من غير اذن لهم ولا موافقة على ذلك وحتى الآن فكل ماضاع من تلك المحلة نؤديه باكثر منه
فطوى له السلطان أيده الله عليها وأرجأ أمره الى وقت آخر وكان قد اتصل به فى ذلك الوقت خبر أبى عبد
الله محمد الكنتافى صاحب جبل تينملل وكان أصل هذا الرجل انه كان من أشياخ قبيلته وكان المتولى
عليهم هو قائد الجيش السوسى أبو اسحق ابراهيم بن سعيد الجراوى وكان الكنتافى هذا أحذر من غراب
وأمنع من عقاب قد اتخذ حصنا فى رأس جبل تينملل حيث كان ظهور مهدى الموحدين حسبما مر فى
أخبارهم وتحصن به وصار يؤدى للقائد الجراوى كل ما يأمره به من غير توقف الا أنه لا ينزل اليه فلما توفى
الجراوى المذكور ولى السلطان على الجيش السوسى وما أضيف له وصيفه القائد أحمد بن مالك
ضايق الكنتافى بعض الشئ وسار معه بغير سيرة الجراوى قبله فانف الكنتافى من ذلك وأعلن أنه فى
طاعة السلطان ومتقلد بيعته يموت عليها ويبعث عليها ولا يقبل ولاية أحمد بن مالك ولو ألقى فى النار
فكتب أحمد بن مالك الى السلطان وهو بفاس يعلمه بان الكنتافى قد خلع الطاعة وفارق الجماعة وأشاع
المرجفون بانه يحاول الاستقلال بالامر التفاتا الى ما كان لسلفه من أهل ذلك الجبل منذ سبعمائة سنة
وربما حق هو الى ذلك أيضا وقد حكى ابن خلدون ان أهل ذلك الجبل كانوا فى زمانه على هذا الاعتقاد

تخرصا وأحاديثا ملفقة * ليست بنبع اذ عدت ولا غرب

واستأذن أحمد بن مالك السلطان أعزه الله فى غزو هذا الكنتافى فاذن له فبعث اليه كتيبة من الجند
ففضها الكنتافى فازداد المرجفون تقولا وتخرصا ثم بعث اليه ابن مالك جيشا آخر أعظم من الاول فهزمه
الكنتافى أيضا وقبض على جماعة منهم بالبيد فمن كان من جيش السلطان سرحه اظهارا للطاعة ومن
كان من القبائل المجاورة له ضرب عنقه وكانوا عددا وافرا فتفاحش أمر الكنتافى فى الحوز وكاد يستحيل
الى فساد فبعث ولده الى حضرة السلطان بفاس وكتب له بشرح قضيته وانه مظلوم من قبل أحمد بن مالك
وما ارتكبه فى حق الجيش انما هو مدافعة عن نفسه وانه لم يقتل جنديا قط وبالغ فى التنصل وتقديم
الشفاعات والذبائح والعارات فارجأ السلطان أعزه الله أمره ونهض من فاس منتصف رمضان سنة
اثنتين وتسعين ومائتين وألف فوصل الى رباط الفتح ليلة عيد الفطر فاتفق أن وقع بها نادرة وهى أن
جماعة من شهود اللفيف اثنى عشر جاؤا الى القاضى أبى عبد الله محمد بن ابراهيم رحمه الله ليلة التاسع
والعشرين من رمضان وشهدوا عنده انهم رأوا هلال شوال بعد الغروب رؤية محققة لم يلحقهم فيها شك
ولا ريبة فسمع القاضى شهادتهم وسجلها وكتب للسلطان بذلك وهو بقرمين فارتحل السلطان فى جوف
الليل ودخل داره وأصبح من الغد معيدا وعيد أهل العدوتين وأعمالهما والجم الغفير من أهل المغرب
الذين حضروا مع السلطان ولما كان ظهر ذلك اليوم وهو التاسع والعشرون من رمضان حقق
الفلكيون من أهل الدولة أن العيد لا يمكن أن يكون فى ذلك اليوم وتكلموا بذلك وفاهوا به فكثر
الكلام بذلك وكان جل الناس على شك أيضا ولما حان وقت الغروب ارتقب الناس الهلال والسماء
مصحية ليس فيها قزعة فلم يروا له أثرا فامر السلطان أعزه الله بالنداء وان الناس يصبحون صياما لان
رمضان لا زال فصام الناس من الغد وبعد ذلك ظهر الهلال ظهورا معتادا وتبين كذب الشهود فسجنوا
ثم سرحوا بعد حين ولما قضى السلطان أعزه الله سنة العيد نهض الى مراكش فلما قرب من زاوية ابن
ساسى بين بلاد الرحامنة وزمران نزل هنالك على الرحامنة وكانوا قد حصل منهم اعوجاج وترض فوظف

عليهم من الاموال ما أثقل ظهورهم وفرض عليهم من العسكر والخيل ما امتحنوا في أدائه ولم يقم عنهم حتى أدوا جميع ذلك وحتى خرج الاشراف والمنتسبون من أهل مراكش الى السلطان للشفاعة فيهم والرغبة اليه في دخوله منزله فقبل السلطان أيده الله شفاعتهم وارتحل عنهم فدخل مراكش آخر ذي القعدة من السنة وكانت مدة مقامه على الرحامنة ستة عشر يوما وكان يوم دخوله الى مراكش يوما مشهودا وفي رابع ذي الحجة بعده قبض على مائتين وثمانين شخصا من أعيان أولاد أبي السباع وكانوا قد عاثوا في ذلك الحوز على عادتهم وعظم ضررهم واستطار شررهم وخرجوا على عاملهم السيد عبد الله بن بلعيد وصالوا على القائد أبي حفص عمر المتوكي وكان القتل بينهم وبين شيعة عاملهم ابن بلعيد المذكور ففر الى السلطان بفاس فارخى أعزه الله لهم الحبل وأطال عليهم الرسن وولى عليهم القائد أبا عبد الله محمد بن زروال الرحماني صورة حتى اطمأنوا بذلك وأنسوا ولما قدم أعزه الله مراكش ضرب البعوث على قبائل الحوز فناب أولاد أبي السباع في ذلك ثلاثمائة فارس فقدمت مراكش بخيلها وأسلحتها وكان السلطان أيده الله يومئذ قد أخذ في عرض بعوث القبائل داخل مشور أبي الخصيصات فجاء أولاد أبي السباع للعرض فلما توسطوا المشور المذكور أغلقت الابواب وقبض عليهم وجردوا من السلاح وحملوا الى السجن وكانوا مائتين وثمانين كما قلنا ثم وجه السلطان أعزه الله الى حللهم القائد العربي الرحماني مع كتيبة من الجيش فنزلوا عليهم وأغرمهم ستين ألف ريال فأدوها في الحال ببيع ماشيتهم بأبخس ثمن وحينئذ بعث السلطان الى عاملهم عبد الله بن بلعيد فاستدعاه من فاس وقدم وولاه عليهم فاطمأنوا وأطاعوا وجد السلطان أيده الله في جمع العساكر والاستعداد الى أواخر صفر من سنة ثلاث وتسعين ومائتين وألف فقدم عليه أبو عبد الله محمد الكتناني صاحب الجبل مستأمنا بالمرابط أبي علي الحسن بن تيمكيلشت فقابله السلطان بالعفو والصفح وأكرم وفادته وولاه على اخوانه وانقلب الى أهله مسرورا ولما حضر عيد المولد الكريم احتفل السلطان أيده الله غاية الاحتفال على عادة أسلافه الكرام قدس الله أرواحهم وجعل في عليين غدوهم ورواحهم وتشنفت الاسماع بالامداح النبوية في الليلة المباركة بالمسجد المعد لذلك وأنشدت قصائد لادباء العصر وبعد العيد كسا السلطان نصره الله جميع الجيش والعسكر والكتاب حتى الامناء والطلبة وفي مهل ربيع الثاني من السنة المذكورة خرج من مراكش يؤم بلاد الغرب فجعل طريقه على ثغر الجديدة فأقام بها أياما بعد ان زار تربة بني آمغار برباط تيط وتفقد أحوال ثغر الجديدة ووقف على أبراجها وأسوارها وباشر في الرماية بالمدفع وكان يرميه صوابا بحيث أصاب الغرض أعزه الله وأهدى له جميع تجارها من المسلمين والنصارى واليهود فقبل ذلك وكافأ عليه وكان أعزه الله حين عزم على النهوض من مراكش قد كتب الى عامله على مدينة آنفى وهو القائد الاجل الانصح أبو عبد الله الحاج محمد بن ادريس بن حمان الجراري أن يتقدم الى ثغر الجديدة ويقيم هنالك حتى يأمره بما يكون عليه عمله فامتثل القائد المذكور ولما قدم السلطان أعزه الله الى الثغر المذكور اجتمع به القائد المذكور وطلب منه أن يجدد له ظهيرا بالتوقير والاحترام حسبما كان عليه هو ووالده من قبله مع السلطان الاعظم المولى عبد الرحمن وابنه السلطان المرحوم سيدي محمد رحمهما الله فاجابه أعزه الله الى ذلك وكتب له ظهيرا يقول فيه ما نصه الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله كتابنا هذا أسماه الله وأعز أمره وجعل في الصالحات طيه ونشره يستقر بيد ماسكه خديمنا الارضى الطالب محمد بن ادريس الجراري ويتعرف منه اننا بحول الله وقوته أنزلناه المنزلة التي كان بها هو ووالده عند أسلافنا الكرام ولحظناه بعين الرعاية والبرور والاحترام هو وأولاده واخوته فلا يرام من جانبنا العالي بالله الا الخير لانهم خدام أبناء خدام ودارهم دار المحبة والنصيحة فلا نسلمهم ولا نفوتهم ولا نضيع لهم سالف خدمتهم ولا نكشف عنهم جلباب حرمتهم بحول الله وقوته

والسلام

والسلام صدر به أمرنا المعتز بالله في تاسع ربيع الثاني عام ثلاثة وتسعين ومائتين وألف ولما قضى السلطان أعزه الله أربه من ثغر الجديدة نهض الى آزمور فتلقاه أهلها بالفرح والسرور والبهجة والحبور فهش لهم وقابلهم بما يناسب ودعا لهم بخير وزار ضريح الشيخ أبي شعيب وأبي عبد الله محمد واعدود رضي الله عنهما وقدم لضريحيهما ذبائح وطاف بأسوار البلد وأبراجه وأمر بتحصين برج هنالك كان مقابلا للمرسى ثم خرج من آزمور وبعد يوم أو يومين فانتهى الى مدينة آنفي فدخلها في الثالث والعشرين من ربيع الثاني المذكور وعزل عنها القائد أبا عبد الله محمد بن ادريس الجراري وولى مكانه الحاج عبد الله بن قاسم حصار السلاوي ثم كتب الى أبي عبد الله الجراري المذكور بولايته على الجديدة وأعمالها ونص كتابه اليه خديمنا الارضى الطالب محمد بن ادريس الجراري وفقك الله وسلام عليك ورحمة الله تعالى وبركاته وبعد فانا أعفيناك من ولاية الدار البيضاء وليناك على الجديدة ولم نعزلك عنها بسخط السيرتك ولا هضما لجانب خدمتك وانما اقتضت المصلحة ذلك تقديما الاهم فالاهم وأنت منا والينا ودار لك دار الخدمة والصلاح فلا نسلمكم ولا نفوتكم ولا نهضم لكم جانبا والسلام في الثالث والعشرين من ربيع الثاني عام ثلاثة وتسعين ومائتين وألف اه ﴿واعلم﴾ أن هذا العامل من أمثل عمال السلطان نصره الله وأعقلهم وأرحمهم وأنصحهم قد استعمله الملوك الثلاثة المولى عبد الرحمن وابنه سيدي محمد وابنه المولى الحسن رضي الله عنهم فظهرت كفايته ونصيحته وحمدت ولايته وسيرته وهو الآن بهذا الحال حفظنا الله واياه والمسلمين آمين ولما احتل السلطان أعزه الله بالدار البيضاء طاف في أبراجها وأمر الطبجية بنصب الاغراض المسماة بالقريبيات في البحر ثم أمر برميها وهو حاضر وربما باشر معهم ثم اجتاز بعد الفراغ على باب المرسى ومحل وضع السلعة للتجار بها فوقف عليه وتأمله كما فعل بثغر الجديدة ووعد باصلاح المون على شاطئ البحر لان البحرية يتعبون فيه وقت انزال السلع ووسقها وأقام بالدار البيضاء بالمحلة خارج البلد يومين وأهدى اليه تجارها من النصارى واليهود والمسلمين وأظهر النصارى الفرح وأكثروا من تعليق الصناجق وايقاد الحراقيات بالليل وارسالها في الجو فقابلهم السلطان أعزه الله بالجميل وحمل النصارى منهم على خيل مكافأة لهم على هديتهم قطار وابلغك فرحا حتى انهم كتبوا بذلك لاهل دولتهم ونشروه في كوازيطهم وأجوبتهم وفي هذه المدة وجه السلطان أعزه الله خديمه الانجد الفاضل أبا عبد الله الحاج محمد ابن الحاج الطاهر الزبدي الرباطي باشدورا وسفيرا عنه الى دول الافرنج مثل دولة افرانسا ودولة النجليز ودولة الطاليان ودولة البلجيك واستصحب معه هدايا نفيسة وأموالا طائلة صيرها في وجهته تلك ورافقه في سفارته هذه الامين الارضى السيد بناصر ابن السيد الحاج أحمد غنام الرباطي برسم القيام بخطة الامانة والقهرمانية وصاحبنا الفقيه الاديب ذكي العصر وحاسبه الشريف أبو العلاء ادريس بن محمد الجعيدي السلاوي برسم القيام بخطة الكتابة فوصلوا الى أهل هذه الدول وقضوا الغرض على أكمل الوجوه وأحسنها وعادوا مسرورين في أواخر شعبان من السنة وفي هذه الوجهة قيد صاحبنا أبو العلاء المذكور رحلته البديعة المسماة بتحفة الاحبار بغرائب الاخبار قد اشتملت على كل نادرة وغريبة وأفصحت عن صنائع الفرنج وحيلها العجيبة وعند قفوله وقدومه على حضرة السلطان أيده الله مدحه بقصيدة جيدة مطلعها

أسالم دهري في المرام وفي القصد * فينقض ما أبرمت للصلح من عقد

وأسأله الرجعى فيبدي ازوراره * وتفترته عني فيا عظم ما يبدي

وكم لي أسترضيه وهو مغاضب * ولا يرعوي عما جناه على عمد

ومنها في آخرها وهذي بنات الفكر مني هدية * الى الملك المنصور ذي الجود والرفد

فان أعملت عدلا فاني مهمل * وان صادفت وقت القبول فيا سعدي

وما كنت في باب القريض مبرزا * شهيرا ولكني تعاطيته جهدي
لاجل امتحاني لذت فيه بربنا * فأصبحت ذا وجد وقد كنت ذا فقد
فها أنا ضيف زائر لجنابكم * وحسبي رضاكم فهو نفس المنى عندي
ويا ربنا اعط الامير مرامه * وظفره بالمطلوب منك وبالقصد

ثم ان السلطان أعزه الله نهض من الدار البيضاء ومعه الجند الوافر والعسكر المجر والجم الغفير من قبائل الحوز وأهل دكالة وتامسنا فأوقع بعرب الزيايدة أهل تامسنا وتقدم الى رباط الفتح فدخله غرة جمادى الاولى من السنة فمكث به نحو سبعة أيام وعبر الى سلا فزار أولياءها ودخل مسجدها الاعظم وصلى الظهر به وأمه في صلاته يومئذ صاحبنا الفقيه العلامة البارع أبو محمد عبد الله بن الهاشمي بن خضراء ودخل السلطان أعزه الله خزانة الكتب العلمية بالمسجد المذكور وتأملها ومعه يومئذ شيخنا الفقيه العلامة القاضي سيدي أبو بكر بن محمد عواد فطلب من السلطان أيده الله أن يزيد في شراء الكتب للخزانة المذكورة فأذن له بان يشتري من ذلك ما ثمنه نحو مائة ريال ففعل وهي يومئذ بالخزانة المذكورة ووصل أيده الله علماء العدوتين ومجاهديها على العادة وقد كنت أنشأت قصيدة في غرض من الاغراض فلما اتفق قدوم السلطان أيده الله هذه المرة حولتها الى مدحه ونصها

قلب كواه من النوى مقباس * فغدا به الوسواس والخناس
ونحول جسم يشتكي ألم الضنى * وجوى به تتصاعد الانفاس
والدمع في الوجنات محمر غدا * ولدى الوشاة به انتفى الالباس
ان الالى يستعذبون ملامه * ما ان لهم بعذابه احساس
قد ماعذلت ذوي الغرام سفاهة * حتى غدوت بجنسه أداس
وحسبته حلو الجنى فأساغني * من بأسه ما لا يسيغ الباس
ان الذين علقتهم قد انجدوا * عمها انخدور ودونهم الحراس
أبدا أؤمل في حياتي وصلهم * واليوم قد غلب الرجاء اليأس
ما كنت أحسب قبل المامي بهم * ان الظباء لها البيوت كناس
تحكي بدور التم يخفي ضوؤها * ضوء الشموس اذا بهن تقاس
من كل خود كاعب يهدي لنا * نشر الخزامى عطفها المياس
تسبي بقد السمهري وباسم * يرمي الشعاع كأنه النبراس
وكأن هاتيك الخدود وفاحما * في ظلها ورد حواه الآس
لله ما عيش تقضي بيننا * فكأنما أيامه الاعراس
طاب السرور لنا به وتأرجت * آصاله وافترت الاغراس
أيام روض اللهو غض نوره * ومنادمي فيه المنى والكاس
بالله يا قلب استفق ودع الهوى * ان الهوى غول النهى افتراس
أو ما رأيت المخلدين الى المنا * سكنوا الثرى وعراهم الافلاس
واعمل ليوم لا تخس شعيرة * فيه اذا ما ينصب القسطاس
وابك الذنوب بكاء خنذف بعلها * لما جلا عن ربعها الياس
واذا حوت كفاك فابن مبادرا * مجدا تخلده لك الانقاس
من غير تبذير لمالك لا تكن * حلو الجنا فتلوكك الاضراس
كم من فتى جاز الحضيض الى الذرى * وبنى على لم تبله الارماس

واذا وعدت فكن لوعدك منجزا * كيما ترى لك في الفخار غراس
فالمنع في جنب الوفاء صنيعة * والتبر في جنب المطال نحاس
واذا حصلت على الرياسة فاذكرن * من كان يجمعه بك الايناس
واحذر مناصبة الدنيّ فربما * خان الحسام وطاشت الاقواس
لم يغن يوما عن كليب مجده * لما حشاه بالقنا جساس
واذا تصاحب فاصحبن مهذبا * راز النهى وله بهن مراس
فالمرء ويحك انما يزرى به * ويزينه الاصحاب والجلاس
واذا البذيّ جفاك يوما فاحتسب * فالجهل بالطبع الكريم يساس
واذا عرتك ملمة فاصبر ولا * تكن الجزوع وهلك الايجاس
واحفظ لسانك واله عن عيب الورى * كل امرئ بفعاله منقاس
وادأب على حفظ العلوم وكن بها * ذا خبرة ومـلاذك الاطراس
فالعلم أنفع للفتى وأجله * ماقد وعاه القلب لا القرطاس
وارو الحديث وكن به متأدبا * والفقه حققه دطعك قياس
وأقم بعلم النحو لفظك ولتكن * فيه المقدم اذ به الايناس
كل العلوم اذا نظرت رأيتها * والنحو مصباح لها وأساس
واكتب من الشعر المهذب نبذة * فالشعر أفضل ماوعاه الراس
ان لم تقله فكن له مستحضرا * ان رمت نطقا يرتضيه الناس
كم من وضيع قد علا بقريضه * رتباً تشرفه وحسبك شاس
اذ خلصته من الاسار وقده * أبيات علقمة الفتى القنعاس
واذا قصدت أخا النوال بمدحة * فاقصد فتى له في الندى آراس
مثل الامام أبي عليّ الرضى * حسن الذي هو في العلى نبراس
الماجد الملك الهمام المرتضى * فخر الملوك سنامها والراس
شملت بلاد الغرب رأفته وقد * بهج الزمان وعمت الارغاس
وحبا الورى من نيله حتى لقد * طاب السرور وطابت الانفاس
سعدت بعقده سلا وتقدست * مراكش الحمراء منه وفاس
أبدا سيوف العزم منه على العدا * برق وغيث نواله بجاس
شهم بصير بالامور مجرّب * يقظان من داء الضلالة ياس
حلب الزمان شطوره فتى اعتصى * داء الخطوب فرأيه النسطاس
راقي الوفود بحشمة وطلاقة * لا يختشى منه أذى وشماس
في الجود كعب والبسالة عامر * والحلم قيس والذكاء اياس
فالله يحفظه ويحفظ ملكه * حتى يصيب عداه منه عماس
ويشيد للاسلام من عزماته * عـزا تطاطئ دونه الاجناس
ويتيله مجدا ينسي ذكره * ماخلدت مروان والعباس
فليعل ملك بني عليّ وليدم * في عزة قعساء ليس تقاس

وقد تبعني صاحبنا شاعر العصر الفقيه الاديب أبو عبد الله محمد بن ناصر حركات في روي هذه القصيدة دون بحرها وهي من صيلادياته قال

أدر كؤوسك فالسرّاء فى الكاس * واشرب على طرب بروضك الكاسى
وقم لتنظر وجه الدهر مبتهجا * مستبشرا بعد تقطيب وتعباس
والافق طلق وذا النسيم منطلق * مسكى نشر خلال الجوّ جوّاس
والارض تضحك من بكى الغمام كما * يشكو الكئيب على مستهزئ قاسى
كأنها وهى بالربيع حالية * عواطل قد تحلت يوم اعراس
والورق من ضحك الازهار نائحة * كنوح صب على أحبابه آسى
والدوح زاهية الافنان زاهرة * تهدى البهاء الى البهار والآس
كأنما الزهر اذ تراه منتثرا * على جداولها الحباب فى الكاس
كأنما طيب نشره شمائل من * قد ساد بالمكرمات سائر الناس
امامنا الحسن المجلى بطلعته * عن الورى كل أزمة وقسقاس
كسا الرعية أثواب المنى جددا * من بعد ما اشتملت بكل ادراس
سبط الرسول وفرع من سلالته * طيب الفروع ترى بطيب اغراس
خليفة الله من دانت لعزته * شم الملوك برغم كل دمناس
أنداهم فى الندى كفا وأشجعهم * قلبا وأسطاهم بكل دعاس
من ذا ينازله عند الجلاد وهل * يهوّل الليث يوما صول ولاس
قد عمه النصر فى ورد وفى صدر * وحفه اليمن من ساق الى راس
مولى تردّى رداء المكرمات فقل * ماشئت فى شيم له وانواس
لم يعض مشبهه على الحقيقة فى * بنى أمية أو أبناء عباس
من ذا يدانيه فى حلم وفى كرم * ومن يضاهيه فى الاقدام والباس
يا كم به قوى الضعيف وامتلأت * كف الفقير وأثرى رب افلاس
سلا كمثل سلا الغرا وضرّتها * أو مثل مرّاكش وحضرتى فاس
فكم بها من مآثر له كرمت * ليست تعد بأقلام وأنقاس
بل كل مصر وقرية له ديم * تهمى لاهلهما بكل ارغاس
قد الامير أدام الله عزته * طول المدى كل أنفس وأنفاس
اليكها أيها الجحاج مائسة * أزرت طلاوتها بكل مياس
خريدة من بنات الفكر غانية * لرقها يتمنى كل قرطاس
جاءتك تطلب لك القبول عائذة * بالله من شر وسواس وخناس
فليهنا أنها اتشرفت بك اذ * حوت معانى من مديحك الراسى
وأنها لك قد وافت مهنئة * بليلة ذات اسفار واهلاس
أكرم بها ليلة غراء قد فضلت * بافضل الرسل كل ذات اغباس
اذ أشرق الكون من أنوار مولده * حتى كفاه سناها كل نبراس
والشرك فى الهون قد أضحت طوائفه * مستيقنين حلول البؤس والباس
اذ هالهم أمر أجدوا وقعهم * فى حيرة عبثت بهم وابلاس
تيقنوا انه ما كان يخبرهم * بشأنه كل قسيس وشماس
وأصبحت جلة الاصنام ساقطة * منكسات الرؤس أى تنكاس
وفى انصداع البناء أصبحت عبر * لهم كذا فى خمود نار أفراس

والجن لا تصل السماء اذ منعت * منها بشهب لرميها وحراس
ومن يرم منهم للسمع مسترقا * ينحط محترقا منها بمقباس
محمد صفوة البارى وخيرته * من خلقه الجن والاملاك والناس
جاءت شريعته البيضاء مطهرة * للدين من كل أدران وأدناس
ولم تزل أمد الاعصار رافعة * عن الهدى كل شبهة وتدلاس
أصل الهدى والندى فليس يشبهه * هطال غيث ولا تيار رجاس
فلا تقسه بشئ فى مكارمه * فما ترام خلاله بمقياس
فانه البحر فى فضل وفى كرم * وفى الشجاعة ضيغم بأخياس
كانوا به يتقون فى الوغا بدلا * عن اتخاذ مغافر وأتراس
أسرى به الملك الاعلى لحضرته * والروح مونسه أتم ايناس
والليل أخرس ليس فيه يسمع من * صياح ديك ولا عواء لواس
حتى دنا فتدلى ثم كلمه * وقد رأى ربه بمقلة الراس
ونال من فضله عزت جلالته * مالا يسام بأوهام وأحداس
فاتب والدين أسست قواعده * على أصول جيدة وأساس
تراه كالقمر المنير فى غسق * من الدجا بين أصحاب وجلاس
غدا يحدث والملا يصدقه * وليس يرتاب غير المائق الماس
دعا على المعتدى عتيبة فغدا * يوما بدعوته قتيل هماس
وردّ عين قتادة فصار بها * بعد العمى ذا تمقل وايناس
والماء من كفه السمحاء سال فكم * من وارد عذبه الروى وكم حاسى
هو الرسول الذى جمت فضائله * فليس تحصر أو تحصى باطراس
مديم ذكر فان تذهل لواحظه * فالقلب ليس بذاهل ولا ناسى
فالارض طاولت السماء قائلة * لخير رسل ببطن خير ارماس
كل النبيين طرا لائذون به * كمثل نوح ويونس والياس
كذاك موسى وعيسى والخليل به * لدفع باس بيوم الحشر اباس
يا أكرم الخلق يا خير الورى شرفا * يا من أتانا بتطهير وتقداس
أشكوك داء أساى فأسه كرما * فالداء الاسى سواك من آسى
قسا الزمان وفى قسم النوائب لم * يعدل فياويحه من قاسم قاسى
لكن قصدتك والكريم قاصده * ما ان يرد بخيبة ولا ياس
وقد توسلت للولى بجاهك أن * يشد بالشرعة البيضاء أمراسى
وأن يحسن أعمالى ومعتقدى * فيه ويكشف بلبالى ووسواسى
وأن يعاملنى بالعفو عن زللى * وأن يبدل اقلالى باقعاس
وأن يهئ أسباب السعادة لى * حتى أنخ بذاك البيت عرماسى
اذ قلت من أتم طيبتى ومات بها * نال الشفاعة فى أهل وفى ناس
صلى عليك اله العرش ما نفحت * نوافح الزهر من دوح وأخياس
صلى عليك اله العرش ما اعتصمت * بك الخلائق من عار ومن كاس
صلى عليك اله العرش ما رمقت * بيض القراطيس يوما سود أنقاس

والا ل ماقال نشوان بحبهم * أدركؤسك فالسراء فى الكاس

ثم نهض السلطان أعزه الله من رباط الفتح فى عاشر جمادى الاولى سنة ثلاث وتسعين ومائتين وألف قاصدا مكناسة وجعل طريقه على زمور والشلح فخرجوا اليه متذللين خاضعين متقربين اليه بالهدايا والضيافات فضرب عليهم الاتاوة والبعث فانقادوا ثم دخل أعزه الله مكناسة ثامن عشر الشهر المذكور فمكث بها أياما يسيرة ثم نهض الى فاس فمكث بها أياما يسيرة كذلك ريثما اجتمعت اليه الجنود وخرج قاصدا بلاد وجدة وبنى يزناسن وكبيرهم الحاج محمد بن البشير بن مسعود وكان خروجه من فاس منتصف جمادى الثانية من السنة فاجتاز بتازا وأناخ على قبيلة غياثة جاء الهضبة المعروفة بذراع اللوز أمامه قبلة ووظف عليهم المؤنة قيل انه وظف عليهم مائة صحفة من القمح والشعير فدفعوا شيأ يسيرا وعجزوا وتعللوا بان هذا الذى جرت العادة أن يدفعوا للملوك من قبل وكانت هذه القبيلة لم يهجها هيج منذ قديم لتحصنهم بجبالهم وأوعارهم واهم استطالة على أهل تازا يركبونهم كل خسف فظهر للسلطان أعزه الله قتالهم فقاتلهم يوم الخميس أواخر الشهر المذكور واقتحم عليهم حصنهم المعروف بالشقة وهو خندق بين جبلين فيه وادوعلى حافتيه بناآت ودور فخرق ذلك كله وهدمه وانتسف مافيه من قمح وشعير وأدام وغير ذلك وقطع منهم رؤسا يسيرة ولما كان الغدو هو يوم الجمعة السادس والعشرون من الشهر المذكور ركب السلطان أيده الله وركب معه أهل المحلة الاولى وقدم المدافع والمهاريس أمامه واقتحم الشقة فتبعه الناس ودخلوا بلاد غياثة وتوسطوها وقاتلوا أهلها فهزموهم والسلطان أمام الجيش فى موكبه فسار حتى بلغ المداشر ورمى عليها من الكور والبنب شيأ يسيرا وكانت غياثة قد وضعت الكمائن على الانقاب وشحنوها بالرماة وتركوا منفذا واحدا يفضى الى مهواة متلفة ذات شقوق غامضة وأشجار شائكة وصخور متراكمة لا يدرك قعرها ولا يبصرها الا من وقف عليها ولما أوغل الجيش فى مزارعهم ومداشرهم خرجت الكمائن من خلفهم ورموهم عن يد واحدة بالرصاص فدهش الناس وتذكروا فعلهم القديم من الانهزام عن الملوك بلا موجب اذلم يكن فى شوكة غياثة هؤلاء وكثرتهم ماينهزم منه ذلك الجيش اللهام ولو تلبثوا يسيرا وقاوموهم لهزموهم فى الحال كما هزموهم أول مرة ولكن العادة العادة فولوا مدبرين لا يلوون على شئ وتكاثر الرصاص على موكب السلطان حتى سقط حامل الراية وجرح المولى عرفة أخو السلطان وقتل سيدى محمد بن الحبيب نقيب الاشراف بالعدوتين وأما الجيش وقواده فانهم لما انهزموا صرفوا وجوههم الى المهواة التى ذكرنا وقصدوها على عمياء وقد ارتفع دخان البارود وغبار الخيل فتهافتوا فيها تهافت الفراش فى النار لايعلم اللاحق ماوقع بالسابق الى ان امتلأت من الخيل والرجال والاثاث وما كادت وكان ذلك قضاء من الله وتمحيصا منه فهلك من الناس والخيل مالا يحصى وبقيت أشلاؤهم ناشبة فى تلك الاوعار تلوح مثل الجزرة وترجل السلطان أعزه الله عن فرسه حتى خلص من تلك الشقوق ثم ركب واجتمع الناس عليه وراجعوا ابصائرهم بعد الكائنة ثم انشمر غياثة بعدها الى رؤس الجبال وتركوا المداشر والجنات فاقتحمها السلطان بعد يومين أو ثلاثة عليهم فلم يقف أمامه منهم أحد فعاث فيها وحرقها وجعلها حصيدا كأن لم تغن بالامس وكتب أيده الله بذلك الى الآفاق وذكر فى كتابه أن الخيل والرماة قد انتسفوا بلادهم انتسافا ودوخوها أماما وخلفا حتى أشرفوا على بلاد جيرانهم وأناخوا فيها بكلكلهم وجرانهم ثم توجه السلطان نصره الله الى نواحى وجدة فانتهى اليها أوائل شعبان من السنة فتلقاه بنو يزناسن خاضعين تائبين فعفا عنهم لكونهم ثغرا من ثغور المسلمين وعصبة تدخر لنصرة الدين الا أنه عزل عنهم ولد البشير وبعث به مسجونا الى فاس وولى عليهم قوادا منهم من أهل الحزم والنجدة ووظف عليهم قدرا صالحا من المال فشرعوا فى دفعه فى الحال والتزموا رد ماتعلق بذممهم من المظالم وصلحت أحوالهم واستقام أمر تلك الناحية

ولما

ولما اقضى السلطان أعزه الله غرضه منها قفل راجعا الى فاس فدخلها ليلة السابع والعشرين من رمضان المعظم وكتب بذلك الى الامصار يقول هذا وقد كتبناه لكم هذا بعد القفول من حركتنا السعيدة وحلولنا بحضرتنا العالية بالله بفاس بالفتوحات الجديدة والانعامات المزيدة حلول عز وظفر وأسعاد ونصر من لدنه لم يكن بحيلة ولا استعداد وذلك بعد الفراغ من ترتيب تلك القبائل وتطهيرها مما تعلق بها من الرذائل ونلنا بفضل الله في هذه الحركة من آثار الخير واليمن والبركة ما أثلج الصدور وحمدنا غبه في الورود والصدور وتركنا أهل تلك النواحي وساكني جبالها والضواحي على أحسن ما يكون صلاحا واطمئنانا وسلوكا للجادة المخزنية بالقلب والقالب سرا واعلانا وأبقينا طائفة من جيشنا السعيد عند قبائل الريف زيادة في الاطمئنان والتأليف بقصد استيفاء ما بذمتهم من الواجب واستخلاص ما تعلق بهم من الحقوق التي ألزموها ضربة لازب وذلك كله من تيسير الله ورفده وفضله على عبده فالنصر الامن عنده فأما نحن فلا حول لنا ولا قوة ولا أنصار مرجوة ولا نعتمد على عدة ولا عدد بل على فضله تعالى المعول والمعتمد عرفنا الله حق النعمة وألهمنا شكرها وحمدها وأجرانا على عوائده الجميلة وفوائده الجليلة التي لا يقدر قلم الواصف أن يدرك حصرها وحدها وقد اقتضى نظرنا العالي بالله اعلامكم بذلك لتأخذوا حظكم من الفرح بتأييد الله ونصره وتخلصوا في حمد نعمه الجزيلة وشكره والسلام في السادس والعشرين من رمضان عام ثلاثة وتسعين ومائتين وألف اهـ ثم استمر السلطان أعزه الله مقيما بفاس وجد في بناء مقاصيره ومنتزهاته ببستان آمنة من فاس الجديد وكتب أيده الله الى وصيفه أحمد بن مالك قائد الجيش السوسي بالمنشية من حضرة مراكش أن يبني له على الباب المعروف بباب الرئيس من الدار الكبرى بالحضرة المراكشية قبة فارهة ويبالغ في رفعها وتنجيدها وتنميقها فشرع فيها في شوال من السنة المذكورة وكنا يومئذ نتولى احصاء صائرها وصائر غيرها من البناآت المراكشية فكان ما صير على القبة وحدها أكثر من مائة ألف مثقال وكذلك بنى بمكناسة القبة العظيمة التي طاولت السماء ترفعا وذهبت في الجو صعدا بحيث أشرفت على ما حولها من بسيط سائس وغيره حتى صارت مثلا في الطول والاشتهار وبنى أعزه الله قبة عظيمة حفيلة على ضريح الشيخ العارف بالله تعالى أبي عبد الله سيدي محمد الصالح ابن المعطي الشرقاوي بابي الجعد فصير عليها أكثر من ثلاثين ألف مثقال تقبل الله منه ﴿وفي عاشر شوال من هذه السنة﴾ أعني سنة ثلاث وتسعين ومائتين وألف توفي الفقيه العلامة الناسك قاضي رباط الفتح أبو زيد عبد الرحمن ابن الفقيه العلامة السيد أحمد بن التهامي البريبري ودفن بزاوية حنصالة من البلد المذكور وكان رحمه الله من أمثل قضاة الوقت ومن المتحرين للعدل ولي القضاء برباط الفتح أكثر من عشرين سنة ثم تخلى عنه من غير عزل ودخل داره فلم يخرج بعد فاحتمل السلطان والناس ذلك واعتقدوه واستمر حاله على ذلك الى ان توفي في التاريخ المذكور رحمنا الله واياه والمسلمين ﴿وفي سنة أربع وتسعين ومائتين وألف﴾ وذلك يوم الثلاثاء التاسع والعشرين من محرم منها توفي الفقيه العلامة الاديب شاعر العصر أبو عبد الله محمد بن أحمد اكنسوس المراكشي ودفن قرب ضريح الامام أبي القاسم السهيلي خارج باب الرب من مراكش وحضر جنازته الجم الغفير من الناس وهو صاحب كتاب الجيش رحمه الله ﴿وفي صبيحة﴾ يوم الاثنين السابع عشر من ربيع الاول من السنة المذكورة ولد لنا ولد سميناه محمد العربي وكان من عجيب صنع الله أنه ولد مختونا ولذا ذكرناه هنا وهو الآن حي أصلحه الله وأنبته نباتا حسنا وجعله من عباد الله الصالحين ومن العلماء العاملين آمين ﴿وفي جمادى الاولى من السنة﴾ أخذ السلطان أعزه الله في الاستعداد بالحضرة الفاسية للحركة استعدادا لم يتقدم له مثله حتى انه كتب الى أخيه وخليفته بمراكش المولى عثمان بن محمد أن يوجه اليه من العقدة الرومية وهي مكاحل مركبة فيها انوافلها ما قدرها ألف وستمائة وعشرون مكحلة تخرج أبخاشها الحبة

الرومية وأن يوجه اليه أربعمائة ألف وعشرة آلاف من الحبة المذكورة وعشرة قناطير من البارود ومائة قنطار من ملحه ومدفعين وكتب أعزه الله الى أمناء الصائر بان يبعثوا اليه بثلاثمائة وستين سرجا وستمائة كسوة من الملف للعسكر وخمسة عشر ألفا من البلغة ومثلها من النعالة وبعث أعزه الله عمه المولى الامين بن عبد الرحمن الى رباط الفتح لجمع عساكر الثغور وحشد قبائل دكالة وتامسنا والغرب وبني حسن وغيرهم ووجه أخاه المولى الحسن الصغير لحشد قبائل الدير والجيش المتفرق بها ثم كان خروج السلطان من فاس الى مكناسة أواخر الشهر المذكور ولما سمعت قبائل البربر بخروجه ارتابت وحذرت وظنت كل قبيلة أنها المقصودة ففرت مجاط وبنو مطير الى رؤس الجبال وفرت عرب عامر من بني حسن الى زمور الشلح وكان الناس يظنون أن السلطان يغزو في هذه السنة برابرة الجبال والصحراء فخرج الامر بخلاف ذلك ﴿وفي هذه المدة﴾ وفد على السلطان أيده الله عدة باشدورات للاجناس مثل باشدور الفرنسيس والاصبنيول والبرتقال وغيرهم وتكلم الفرنسيس في شأن بابور البر والتلغراف واجرائهما بالمغرب كما هما بسائر بلاد المعمور وزعم أن في ذلك نفعا كبيرا للمسلمين والنصارى وهو والله عين الضرر وانما النصارى أجربوا سائر البلاد فارادوا أن يجربوا هذا القطر السعيد الذي طهره الله من دنسهم نسأله سبحانه أن يكبت كيدهم ويحفظ المسلمين من شرهم ثم نهض السلطان نصره الله من مكناسة في أواسط رجب في جمع وافر وعدة كاملة فاجتاز ببلاد زمور الشلح فاظهروا له غاية الطاعة والخضوع وقدمت عليه وفودهم من كل جانب رافعين أعلامهم وشاراتهم وزينتهم التي يستعملونها في مواسمهم وأعيادهم وأدوا له من المال والمؤن والضيافات ما استكثر الناس ذلك وتحدثوا به ثم زحف الى عرب السهول من أعمال سلا فاوقع بهم وشرد بهم من خلفهم وكتب أعزه الله في العشرين من رمضان الى الآفاق يعلمهم بما أتاح الله له من الظهور والنصر والسعادة وخضوع قبائل البربر له وتباريهم في طاعته وخدمته وبذلهم من الجباية مالم يكونوا يبذلون القليل منه لغيره وذكر في كتابه أن ذلك كله بمحض فضل الله ومجاري السعادة وحسن السياسة من غير ضرب ولا طعن ولا سفك دم حتى ان قبيلة بني حكم قد أظهروا بعض الاعوجاج فقام اليهم اخوانهم من زمور فقوموا اعوجاجهم حتى فاؤا الى أمر الله وكفى الله السلطان أمرهم ثم ذكر في كتابه أعزه الله أمر السهول وانه بعد ان أوقع بهم أمر بجمع فلهم ورأى استصلاح كلهم بتأمين جلهم لعمارة بلادهم بهم ورجاء نفع ما تقدم من أدبهم ﴿وفي ليلة الجمعة الرابع عشر من شعبان من السنة﴾ خسف القمر خسوفا كليا بحيث ذهب نوره واختفى شخصه حتى لم ير منه شيء وبقي كذلك نحو ساعتين ثم أخذ في التجلي شيأ فشيأ الى أن عاد الى امتلائه ﴿وفي هذه المدة﴾ قلت فلوس النحاس بمراكش وأعمالها حتى كادت تنعدم وذلك بسبب غلاء الريال الافرنجي بمراكش ورخصه بفاس فكان صرفه بمراكش يومئذ بثلاث وستين أوقية وصرفه بفاس بثلاث وخمسين أوقية فصار التجار يجلبون فلوس النحاس من مراكش الى فاس ويصرفونها بالريال فيربحون في كل ريال نحو مثقال وتمالؤا على ذلك وتوفرت دواعيهم عليه حتى قلت الفلوس بمراكش وتقاعد الناس عليها لما فيها من الربح وتعطل معاش الضعفاء بذلك ولحق الناس ضرر كثير فكان الرجل يطوف بالبسيطة والريال في الاسواق فلا يجد من يصرفه له ولا يتأتى له أن يشتري من ضروريات معاشه ما قيمته أقل من بسيطة واتصل الخبر بالسلطان أعزه الله فكتب الى الآفاق يأمر الناس برد صرف الريال الى ثلاثة مثاقيل وربع مثقال فامتثل الناس ذلك ونودي به في الاسواق فانعكس الحال على التجار وتقاعدوا على الريال والبسيطة وفاضت الفلوس في الاسواق حتى صارت معاملة الناس ليست الا بها وحصل للتجار من الضرر في رخص الريال ما كان حصل للضعفاء في قلة الفلوس لان التجار حينئذ صاروا يبيعون سلعهم التي بذلوا فيها الريال الغالي بالقراريط النحاسية التي

صار صرف الريال فيها على النصف فامسك الناس سلعهم وامتنعوا من بيعها وتعطلت المرافق أو كادت فكتب السلطان ثانيا برد أسعار السلع والاقوات على النصف مما كانت حتى تحصل المساواة بين الاثمان والمثمنات فنشأ بذلك هرج كبير وضرر للناس في معاشهم وأبى الله الا أن تعود السكة الى حالتها التي كانت عليها وقد بينا العلة في ذلك قبل هذا وان السكك والاسعار لا تزال في الزيادة مادامت المخالطة مع الفرنج تكثر بكثرتها وتقل بقلتها ﴿وفي يوم الاربعاء ثالث رمضان من السنة﴾ توفي عالم المغرب السيد المهدي بن الطالب بن سودة الفاسي كان علامة متقنا فصيحا عارفا بصناعة الدرس حسن الايراد فيه بحيث فاق أهل زمانه يقال ان له تآليف لكن لم نقف على شيء منها رحمه الله ثم عيد السلطان عيد الفطر من هذه السنة بزبيدة من بلاد دغير ولم يدخل رباط الفتح على قربه منها ووفدت عليه هنالك قبائل المغرب وأهل الامصار فشهدوا العيد معه وأجازهم وكساهم على العادة ولما فرغ من أمر العيد عين عامل رباط الفتح وهو القائد أبو محمد عبد السلام بن محمد السوسي وعين الحاج عبد الكريم بن أحمد بريشاء التطاوني والحاج محمد بن عبد الرزاق بن شقرون الفاسي للذهاب الى مادريد دار ملك الاصبنيول بقصد السفارة عنه الى دولتهم والمكافأة لهم على مجيء باشدو وهم حسبما مر التنبيه عليه ففعلوا وعادوا بحيث أدركوا عيد الاضحى من السنة مع السلطان أعزه الله بمراكش ثم نهض السلطان بعد عيد الفطر من زبيدة يؤم البلاد المراكشية فاجتاز بتادلا وسكن قبائلها وأوقع ببني عمير وقبض منهم على ما يناهز أربعمائة مسجون سيقت في السلاسل والاغلال الى السجن وفر بنو موسى الى رؤس الجبال حتى استنزلهم السلطان على الامان ودخلوا في الطاعة والتزموا الخدمة ثم نهض السلطان أيده الله الى مراكش فدخلها في عشر ذي الحجة من السنة فكان بها عيد لم يعهد الناس مثله منذ قديم وكتب الى الآفاق يعلم الناس بما من الله به من النصر والتأييد والفتح والعز المديد وأقام السلطان بمراكش في هذه المرة مدة طويلة الى ان كان من أمره ما نذكره ﴿ثم دخلت سنة خمس وتسعين ومائتين وألف﴾ فكانت هذه السنة من أشد السنين على المسلمين قد تعددت فيها المصائب والكروب وتلونت فيها النوائب والخطوب لا أعادها الله عليهم فكان فيها أولا غلاء الاسعار وكان منشؤه وابتداؤه من تثقيف السكة في آخر السنة الماضية ثم عقب ذلك انحباس المطر لم تنزل من السماء قطرة وأجيحت الناس وهلكت الدواب والانعام وعقب ذلك الجوع ثم الوباء على ثلاثة أصناف كانت أولا بالاسهال والقيء في أوساط الناس بادية وحاضرة ثم كان الموت بالجوع في أهل البادية خاصة هلك منهم الجم الغفير وكان اخوانهم يحفرون على من دفن منهم ليلا ويستلبونهم من أكفانهم عثر بسلا على عدد منهم وأمر السلطان أعزه الله عمال الامصار وأمناءها أن يرتبوا للناس من الاقوات ما ينتعشون به ففعلوا وبعد هذا كله حدث الوباء بالحمى في أعيان الناس وأماثلهم فهلك منهم عدد كثير وفي هذه المسغبة مد النصارى أيديهم الى الرقيق فاشتروه وكان ابتداء ذلك انهم كانوا يعاملون ضعفاء المسلمين وصبيانهم بالصدقات والارفاقات ثم تجاوزوا ذلك الى شراء الرقيق منهم والامر لله وحده يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد ﴿ثم دخلت سنة ست وتسعين ومائتين وألف﴾ فكان في أوائلها موت الناس بالحمى كما قلنا فمات في المحرم منها الوزير الاعظم أبو عمران موسى بن أحمد وكان شعلة ذكاء وتمثال فطنة ودهاء غفر الله لنا وله واستوزر السلطان مكانه الفقيه الاخير أبا عبد الله محمد بن العربي بن المختار بن عبد الملك الجامعي من بيت الوزارة وأهل العراقة فيها وبلغنا عنه أنه يحب أهل الخير ويلين جانبه للضعفاء والمساكين ويحب السلطان وينصح له ويغار على جانبه المعظم وحماه المحترم ويتجافى عن الطمع الذي هو أصل كل مفسدة في الدين والدنيا سدده الله ﴿وفي ظهر يوم الاحد عاشر صفر من السنة المذكورة﴾ توفي شيخنا الفقيه العلامة القاضي سيدي أبو بكر ابن الفقيه العلامة القاضي سيدي محمد عواد كان رحمه الله من أهل المشاركة في العلم

والاعتناء به كثير الدرس كثير التقييد ختمنا عليه رحمه الله عدة كتب كبار جعلها الله فى ميزان حسناته منها صحيح البخارى نحو عشر مرات وصحيح مسلم ثلاث مرات وشفاء القاضى عياض مرارا وكتاب الاكتفا لابى الربيع الكلاعى مرة وأخرى الى غزوة خيبر وشمائل الترمذى مرتين بشرح أبى عبد الله محمد بن قاسم جسوس واحياء الغزالى رضى الله عنه وعوارف المعارف للسهروردى وتآليف غيرها من كتب النحو والفقه والبيان والكلام وغير ذلك مما يطول ذكره وبالجملة فقد انتفعنا عليه واستفدنا منه رحمه الله ونفعنا به وولى القضاء بعده الفقيه العالم أبو اسحق ابراهيم بن محمد الجريرى عرف بابن الفقيه من بيت العلم والدين والصون وهو رحمه الله يتحرى المعدلة فى أحكامه وينتهج صريح الشرع فى جميع أموره سدده الله وكلاه وتولى الخطابة بالمسجد بعد شيخنا المذكور شقيقه الفقيه أبو الحسن على بن محمد عواد وهو مجيد فى الخطابة ومن أهل المروءة والدين والعلم وفقنا الله واياه والمسلمين لما يحبه ويرضاه *وفى هذه الايام* استدعى السلطان أيده الله خديمه الامين الارضى السيد محمد ابن الحاج محمد التازى الرباطى الى حضرته العالية بالله بمراكش فقدم عليه الامين المذكور وأجل السلطان مقدمه وأسند اليه أمر خراج المغرب ومراسيه ومستفاداتها وما يتبع ذلك من صوائرها وفوض اليه فى ذلك تفويضا تاما لعلمه بنصحه وأمانته وضبطه وهذا الرجل من أمثل أهل المغرب وأصدقهم وأنصحهم للسلطان وأشدهم غيرة على الدين والوطن حتى لو كان فى الدولة عشرة رجال على شاكلته ومذهبه لكان يظن أن يكون لها بذلك النجاح التام نسأل الله تعالى أن يصلح أمرها ويشيد عزها وفخرها *وفى ربيع الثانى من السنة* ورد أمر السلطان أعزه الله على ولاة العدوتين أن يوجهوا أعدادا من أمنائهم وعدولهم للخدمة السلطانية بالمراسى المغربية فقدموا عليه بمراكش وكان فى جملتهم أخونا فى الله الفقيه العلامة الحافظ أبو محمد عبد الله بن الهاشمى بن خضراء السلاوى فقال قصيدة فى مدح السلطان نصره الله نصها

وكان المؤلف فى جملتهم أيضا

لبيك لبيك يا خير السلاطين * أدامك الله فى عز وتمكين
دعوت عبدك فاستجاب مبتدرا * وقد أناخ على الطير الميامين
يهدى اليك تحية مباركة * أذكى وأطيب من مسك ونسرين
ممترغا وجنتيه فارحا جذلا * اذ فاز منك بتخصيص وتعيين
مؤملا راجيا بلوغ مقصده * مستبشرا برضى بالنجح مقرون
يا نجح سعيى ويا بشراى قد سعدت * حالى وفزت بتقريب وتأمين
من مبلغ معشرى أنى أويت الى * ظل مديد يظلنى ويؤوينى
ظل الاله على عباده وكفى * به كفيلا وذخرا للمساكين
رب السماح فما معن بن زائدة * وأين من راحتيه نهر سيحون
لله من ملك جلت مآثره * عن أن يحيط بها حصر بتدوين
دعا المعالى فانقادت ملبية * يضيق عن وصفها بطن الدواوين
له السعادة قد ألقت أزمتها * والفتح رائده فى كل ماحين
وبشر طلعته يسر ذا حزن * وأين ما حل كان خير ميمون
حامى الشريعة والرحمن ناصره * ماضى العزيمة لا يرضى بتوهين
فى كل قطر ثناء عنه منتشر * أى انتشار يفوق مسك دارين
ساس العباد بتدبير ومعدلة * وأحسن الامر فى الدنيا وفى الدين
وليس يعبؤ بالدنيا وزينتها * لكنه بين مفروض ومسنون
وطبق الارض عدله ونعمته * مجاله بين تسكين وتحسين

بسعده الغرب قد بدت محاسنه * فخر ذيلا على بغداد والصين
وتاه مزدريا بكل مملكة * يميس في حاسل ذوات تلاوين
نعم الامام الهمام المرتضى حسن * فخر الملوك سلالة السلاطين
السيد الملك ابن السيد الملك ا * بن السيد الملك المعروف باللين
بحر خضم مغيث سيد بطل * بذ الليوث وفرسان الميادين
دانت بطاعته العدا باجمعها * مذ ألبست ملبس الصغار والهون
وفاق من قبله حلما وتكرمة * وسطوة بهرت أهل الاواوين
لا غرو ان نال ما فات الالى غبروا * وشاد ما عجزوا عنه بتحصين
قد يدرك الاخر الشأو الذى قصرت * عنه الاوائل فى ماضى الاحايين
تبارك الله ما أسمى مفاخره * كسبا وأوثا من الشم العرانين
ولا ترى الغرس قد زكت أرومته * الا أتى الفرع منه فى أفانين
يا خير من أمه الراجي وأكرم من * يثنى عليه بمعرب وملحون
ويا ابن خير الانام من نبوته * له وآدم بين الماء والطين
ويا ملاذ الورى يا من سما كرما * يا نعمة عظمت يا كنز مسكين
يا منبع الجود يا تاج الفخار ويا * مأوى العفاة ويا سلوان محزون
يا من روى عن أبيه رفع سودده * يا من أوامره اليه تدعونى
وفدت ملتمسا رضاك يا سندى * وليس شئ سوى رضاك يرضينى
فامنن على بعطفة تصاحبنى * مدى الدهور وللعلى ترقينى
بقيت ما شئت فى عز ومقدرة * ودمت فى نعم بحق جبرين

ولما وقف السلطان أعزه الله على هذه القصيدة هزت من عطفه وأمر أن يسئل منشئها عن مطلبه فاقترح أن يؤذن له فى الافتاء وأن يعطى ظهيرا بالتوقير والاحترام وأن ينعم عليه بما يقتضى الاعتناء به فأنعم عليه السلطان أعزه الله بالاذن فى الافتاء وبظهير الاحترام ونفذله راتبا من أحباس جامع ابن يوسف اعانة له على الدرس به ثم كان نهوض السلطان أيده الله من مراكش قاصدا بلاد الغرب غرة جمادى الاولى سنة ست وتسعين ومائتين وألف فاجتاز فى طريقه بتادلا وأناخ على قبيلة آيت أعتاب فاوقع بهم فى أوعارهم وأعزمعاقلهم وأوكارهم وقطع منهم واحدا وعشرين رأسا ثم زحف الى بنى موسى فأدوا الطاعة وقاموا بواجبهم ثم سار محفوفا بالنصر واليمن الى ان دنا من مكناسة الزيتون فزحف الى بنى مطير وكان شررهم قد استطار فى تلك النواحى كل مطير فانه لما سافر السلطان نصره الله عن مكناسة سنة أربع وتسعين كما مر زحف بنو مطير هؤلاء الى عرب دخيسة وأولاد نصير الذين أنزلهم السلطان ببسائس وبوأهم اياه بعوض مجاط وأوقعوا بهم وقعة شنعاء وقد صبرت العرب فى ذلك اليوم صبرا جميلا حتى ان جماعة منهم قد عقلوا أنفسهم فى حومة الحرب لئلا يفروا وقاتل اخوانهم دونهم حتى كثرهم البربر فقبضوا عليهم باليد وضربوا أعناقهم وقتلوا منهم نحو مائتين وهلك من البربر مثل ذلك أو أكثر ولما انهزمت العرب عاد بنو مطير الى مجاط فانزلوهم ببسائس على ما كانوا عليه قبل ثم انطلقوا فى الطرقات بالعيث والافساد فيها والنهب للمارة ولم يدخروا شيأ من الشيطنة ليوم آخر وكثرت الشكايات بهم على السلطان وهو بمراكش فلما قدم أعزه الله قدمته هذه لم يقدم شيأ على تأديبهم فنهض الى رأس بلادهم ومزرعة فسادهم آكراى والحاجب وغيرهما وتقرى آثارهم فى تلك الجهات حتى جاوزت عساكره الحاجب بمسايف كثيرة وترقلت البربر فى قنن الجبال فامر السلطان أدام الله علاه بنى مكيلد

أن يزحفوا اليهم من ناحية قبلة آكراى فزحفوا وانبثوا على حدودهم الى غابة افقفاق التى هى الحد بين بنى مكيلد وآيت شغروسن وآيت يوسى فحصروهم من تلك الجهات ثم نزل بازائهم آيت يوسى وآيت شغروسن وآيت عياش وآيت والان من جهة الشمال وامتدوا الى حدود وادى النجاة وربط حذوهم من جهة الغرب وراء وادى النجاة القائد العربى بن محمد الشرقى المدعو بأبا محمد ووصل جناحه عليهم قبائل الغرب والحوز وصار بنو مطير فى مثل الخوص القطاة وضاق بهم رحب الفضاء وأيقنوا بالهلاك والبوار ولفظتهم السهول والاوعار ونهبت الجنود زروعهم القائم والحصيد واستخرجت من مخزونهم الكثير والعتيد ولما انتهى الحال بهم الى هذه الغاية تطارحوا على السلطان بالشفاعات وأكثروا من التوسل بالذبائح والعارات فرق لهم وأقلع عنهم بعد ان ألزمهم اعطاء خمسمائة مرهون ووظف عليهم مائة وخمسين ألف ريال بعد أداء الحقوق ورد المظالم وشرط عليهم اخراج قبيلة مجاط من بين أظهرهم وضمنهم طريق مكناسة وفاس وجعل العهدة فيها عليهم جريا على عادتهم القديمة من جعلهم النزائل بها والحراس فالتزموا ذلك كله وأدوه وبعد ذلك نهض السلطان عنهم الى مكناسة فدخلها أواخر رجب الفرد من السنة واستمر بها الى ان دخلت سنة سبع وتسعين ومائتين وألف فنهض الى فاس ولما احتل بها فرق الجيوش فى النواحى لجباية الزكوات والاعشار والوظائف المخزنية فانتهت السرايا والبعوث الى آيت يزدق من برابرة الصحراء فاذعنوا وأدوا ما كلفوا به من الزكوات والاعشار وغيرها والى آيت يوسى وغيرهم فاطاعوا واذعنوا الا آيت حلى وهم بطن من آيت يوسى فانهم انحرفوا عن عاملهم وأبوا من أداء ما وظف عليهم فاوقع بهم جيش السلطان وقطعوا منهم عددا من الرؤس وساقوا امثالها من المساجين فعلقت الرؤس باسوار فاس وبعد ذلك أذعن آيت حلى للطاعة فقبلهم السلطان أيده الله وألزمهم ولاية عاملهم الذى كانوا منحرفين عنه وكان ذلك فى أواخر صفر من السنة المذكورة ثم كان عيد المولد الكريم فاحتفل له السلطان على العادة وبعث الى حضرته صاحبنا الفقيه أبو محمد عبد الله ابن خضراء بقصيدة ميلادية يقول فيها

أمل المديح محبرا يا منشد * وأعده تطريبا فذلك أحمد
هذا أوان مسرة وسعادة * هذى الليالى الغر هذا الموعد
أو ما ترى علم البشارة لائحا * أو ما تشاهد نورها يتردد
هذا زمان ظهور طلعة أحمد * فى عالم الاجساد هذا المولد
طوبى لمن يروى غريب حديثه * متأدبا ويعيده ويردد
طوبى لمن يقضى حقوق مديحه * ويجيده نظما بديعا ينشد
فديح خير الخلق أعظم قربة * لكنه فى ذا الاوان مؤكد
يا ليلة ما كان أعظم قدرها * مع فجرها طلع النبى محمد
فاسرد شمائله الحسان وماله * من معجزات بالنبوة تشهد
واذكر عجائب مولد قرت به * عين المحب وضاق منه الاحقد
واجعل دعاءك للامام المرتضى * ان الدعاء له لحق أوكد
واملأ بدر مديحه أسماع من * حضر والديه وضمهم ذا المشهد
ساس الرعية صادقا فمنت له * أمم وقد كانت قديما تمرد
من كفه فاضت مواهب جمة * فالكف منه للعفاة المورد
طود أنافت شامخ ذروة * عليا يقصر عن علاها الفرقد
ما جود حاتم طيئ ما حلم أحـ * ـنف ان ذا الهو الحليم الاجود

أزكى الملوك أرومة وأجلهم * قدراوأسبقهم لامر يحمد
باهى به الغرب الممالك فاغتدى * منه يغار قريبها والابعد

ومن آخرها

مولاى ياتاج الملوك ونخرهم * فليهنك العيد الاغر الاسعد
لله موسم مولدك عائد * بمسرة موصولة تتجدد
لازلت ممنوحا جلائل أنعم * ماهتز فى روض بهى أملد
لازلت محروسا بعين عناية * مارنم الحادى وحبر منشد

﴿وفى ربيع الثانى من سنة سبع وتسعين ومائتين وألف﴾ ورد كتاب السلطان أعزه الله على قاضى سلا بتعيين صاحبنا الشريف الاديب فلكى العصر أبى العلاء ادريس بن محمد الجعيدى السلاوى للذهاب الى مراكش برسم القيام على احصاء صائر السلطان بها بدلا عن الفقيه أبى محمد عبد الله بن خضراء فامتثل الشريف المذكور وسافر فى التاريخ المذكور ومدح جناب السلطان أسماه الله بهذه القصيدة التى يقول فيها

ابيك يامنقذى من لجة العدم * سعيا على الجفن لامشيا على القدم
فذا أوان سعود كنت أرصده * وذى منساى كانى سابق القدم
فهو المرام وكل العز يعقبه * ولا يحال بانى أحقر الخدم
قصدت أعتاب ملك شامخ بهج * يقرى الضيوف ويغنى صاحب العدم
أنزلت رحلى بها وعندها أملى * وهل يخيب نزيل الجود والكرم
شمرت عن ساعدى والاذن واعية * فهاب أهل الحسام سطوة القلم
أرضى بذاك الذى أضاء مغربنا * بعدله فغدا يعيس فى نعم
أزكى الائمة شيمة وأرفعهم * قدرا وأسبقهم لكل مغتنم
أميرنا الحسن المحمود سيرته * تروع صولته الاسود فى الاجم
نجل السلاطين قد أحيا ما ثرهم * ونال ماعجزت عنه ذوو الهمم
قد شاد للدولة الغراء مفخرها * فساد عند ملوك العرب والعجم
تاج الملوك ونخرهم وسيدهم * وخير من قدمضى فى غابر الامم
قد لاحظته السعود وهى فى شرف * وكل نحس عداه وهو عنه عم
النصر سابقه والسعد قائده * والفتح يخدمه من جملة الخدم
والجود سيرته والحلم حليته * والجد عادته فاحذر من الندم
ليث اذا ما أحس الحى سطوته * ألقوا سلاحهم مخافة النقم
غيث اذا الارض يوما مسها عطش * غوث توسل به لبارئ النسم
مدبر عالم مفكر فطن * ومفحم باهر بافصح الكلم
كل الفهوم له ألقت أزمتها * ونوره يهتدى به لدى الظلم
بها يقاوم من بغى ويدمغه * بها يدافع أهل الريب والتهم
كم دبر الروم من مكر ومن حيل * ترجو النجاح بها والنجح فى عقم
يرى بنور حجاه كل عاقبة * وعين تدبيره للامر لم تنم
فصل الخطاب حباه الله مكرمة * وحكمة عظمت من أبدع الحكم
فاطلب رضاه ودم على محبته * مدا الدهور وجانب داعى السأم
فهو المنى لذوى الحاجات بغيتهم * وسيب نعماه مثل الزاخر العرم
يدنى الاصول الى نيل الوصول ويحيينا بنعمته كالارض بالديم

مازال يحيى بهـا بلاد مغـربنا * فاقرع بصدقك باب الجود تغتنم
واسلك سبيل الصفا تنل به شرفا * واقبل نصيحة من حباك واستقم
ياغاية القصـد انى راغب طرب * مستمسـك بجوار منك لم يضم
مولاى يامن مزاياه وأنعـمه * فى الناس أشهر من نار على علم
مولاى أنت الذى تغنى الضعيف اذا * ما الدهر أفضى به لقبضة الهرم
بشراك ان الفرخ سوف يدركها * منكم صغار به تداس بالقـدم
فأنت ذو مـدد وهـم ذوو نكد * وأنت ذو جـذل وهـم ذوو غمم
مولاى جد برضاك لى وخذ بيدى * واحرس جنابى به من سائر الالم
واجعل ثياب الرضى ستراعلىّ ولا * يرى به حبـل عـروتى بنفصم
فها أناذاك عند باب سـيدنا * أرجو قبولا ووصلا غير منصرم
أبقاك ربك فى عـز ومكرمة * بالله أمرك نافذ عـلى الامم
أدامك الله منصور اللواء عـلى * كل الاعادى ولا برحت فى نعم

﴿وفى آخر هذه السنة﴾ ورد كتاب السلطان أيده الله باستدعاء صاحبنا أبى محمد بن خضراء المذكور آنفا لتوليته خطة القضاء بحضرة مراكش فامتثل ووفد على أمير المؤمنين أدام الله علاه بحضرته السعيدة من فاس المحروسة بالله فولاه القضاء بمراكش وسار اليها وهو الآن بها محمود السيرة حسن السريرة سدده الله وكلاه وقال فى وفادته على الحضرة الشريفة قصيدة يمدح بها الجناب المولوى ونصها

لبيك دمت مؤيدا ومظفـرا * ولك الكمال كما تشاء موقـرا
وافى خديمك أمرك العالى الذى * فى ضمنـه اسعاده بين الورى
اذخص دونهـم باشرف دعوة * ياسـعد من أضحى بها مستبشرا
فاجاب مبتـدرا اجابة صادق * لم يلهـه أهـل ولا حب الذرى
وطوى المراحل كى يحل بحضرة * يلقى بها وجـه الامانى مسـفرا
فبـدت له الدار المنيفـة بالحما * دارا أعز حمى وأبهى منظـرا
ونحا الجناب المسـتجار بظـله * وأناخ فيـه خاضعا ومعـفرا
يهـدى اليك تحيـة مختـارة * أذكى من المسك الذكىّ وأعطرا
ويمد كفيه بصـدق داعيـا * لك بالبقـاء مهنئـا ومبشرا
ويجيد شكر مواهب أوليتهـا * كرما وحـق لمثلها أن يشكرا
ويعيد ذكر محاسن أوتيتها * ويصوغ مدحك صوغ تبر أحمرا
ويروم اقبالا عليـه بالرضى * يافوزه ان بالرضى هو بشرا
ان ناله نجحت له آماله * ودنت مناه وارتقى واستبشرا
يامن يؤمـل رفعـة وسـعادة * يمم حمى المولى الهـمام لتظفرا
ملك عظـيم القـدر جـل كماله * عن أن تعـد خصاله أو تحصرا
ملك كريم الطبع عز مثاله * خلقـا كريمـا لم يضاه ومفخرا
ملك جزيل الفضـل عم نواله * كل الانام وفاق غيثا ممطـرا
ملك أفاض على الرعيـة خـيره * وأنامهـم فى ظـله متبصرا
ملك جميـل سـياسة وسريرة * ويدل ظاهـره على ما أضمـرا
ملك ترقى فى سمـاء مكـارم * فغـدا به أفق المكارم مقـمرا

ملك رحيم خاشع متواضع * ويرى اكتساب الحمد أربح متجرا
قرت به عين الخلافة واغتدى * من سعده ذا القطر أنعم أزهرا
من أهل بيت المصطفى أكرم به * نسبا شريفا ما أجل وأطهرا
جمع المفاخر كسبا ووراثة * وحوى ما ثر حقها أن تؤثرا
ماضي العزيمة في الامور مسدد * في رأيه الميمون ليس مقصرا
قل للمحاول شأوه في مجده * أو رفده أو حلمه أطرق كرا
هذا همام لا يشق غباره * هذا همام لن يجارى ان جرى
مولاي يا أزكى الائمة شيمة * وافيت بابك أبتغي منك القرا
لا أبتغي الا الرضى وكفى به * فأنلني الحظ الجزيل الاوفرا
مولاي ما عندي اليك هدية * الا مديحك ها لك منه جوهرا
نظمته فكرة مخلص متودد * خذه اليك منظما ومحبرا
لا زلت في نعم تدوم ونصرة * وسعادة لا زلت أنت الاكبرا
لا زلت في حلل العناية رافلا * لا زلت في ملك كبير أبهرا

﴿واعلم﴾ أن الامداح في جناب هذا الملك الجليل الشريف الاصيل كثيره والقصائد المفصحة عن علو قدره وشموخ مجده وفخره شهيرة خطيره لاسيما الاصحابنا السلاويين ممن ذكرناه منهم وممن لم نذكره ولولا خوف الاطالة لا ثبتنا من ذلك ما يزري بالحبر ويفصح بالذكرى والعبر وفيما ذكرناه كفاية والله يجزي كلا بنيته وخلوص طويته ﴿ثم دخلت سنة ثمان وتسعين ومائتين وألف﴾ فيها تجددت الشروط بين السلطان أعزه الله وبين أجناس الفرنج في سبيل تأكيد المهادنة وجلب نفع التجارة وكان من جملتها أن النصارى وأهل حمايتهم يلزمون بغرامة الوظائف المخزنية المرتبة على الابواب كسائر رعية السلطان وقدر ذلك الوظيف ستة بلايين لكل جمل وفي هذه المدة التي هي أواسط السنة المذكورة أخذ السلطان أعزه الله في التأهب للحركة والنهوض من مكناسة الزيتون قاصدا حضرة مراكش الحمراء فاحتلها في آخر السنة المذكورة وعيد بها عيد الاضحى ﴿ثم دخلت سنة تسع وتسعين ومائتين وألف﴾ فيها تحرك السلطان أعزه الله لغزو بلاد السوس الاقصى فأخذ في التأهب والاستعداد لذلك وأمر قبائل دكالة وتامسنا بحمل القمح والشعير والتبن الى مرسى الجديدة ومرسى الدار البيضاء ليحمل منهما في المراكب الى ساحل السوس الاقصى بقصد ارفاق الجيش واعانته وكان السبب في ذلك ان جنس الاصبنيول كان متشوفا لتملك بعض المراسي السوسية منذ انعقاد الهدنة معه عقب حرب تطاوين وكثيرا ما كانت مراكبه الحربية والتجارية تتردد الى تلك النواحي فيستهوي أهلها بأسباب التجارة ونيل الارباح فربما سكنوا اليه وربما نفروا منه وتكلم السلطان أعزه الله مع كبرائهم في ذلك فاحتجوا بان صلح تطاوين كان منعقدا على فتح بعض المراسي السوسية وأنهم الآن قد عزموا على الاخذ بشرطهم المذكور والا أفضى الحال الى ما لا يليق فرأى السلطان أعزه الله أن من الواجب أن ينهض الى تلك البلاد ليباشر أمرها بنفسه لاسيما وكان أهلها قد بعد عهدهم باجراء الاحكام السلطانية فيما بينهم على مقتضياتها فنهض اليها في رمضان من السنة المذكورة فانتهى منها الى قرب وادي نول ومهد أقطارها وولى على أهلها القضاة والعمال واتخذ هنالك مرسى للوسق والوضع تسمى آسا كاو وكتب في ذلك كتابا للولاة بالمغرب يقول فيه بعد الافتتاح أما بعد فاننا لما نهضنا من مراكش بحول الله وقوته وسطوته الباهرة وصولته وجيوش الله المظفرة موفوره وجنوده سبحانه مقطوره وأعلامها منشورة منصوره نهضة معتمد على مولاه منقاد لما اقذف في قلبه فأبداه متمسك بعروته

الوثقى التى من استمسك بها بلغ مناه وانتهينا بعونة الله لمبدء هذه الاقطار السوسية وامتطينا صهوتها وهى ذلولا فى ربوع اليمن ساعيه وبنود الله خافقة على مفارق الظفر وبذرى المجد ساميه تواردت على حضرتنا العالية بالله الوفود متناسقة متتابعه وانتظمت فى سلك السمع والطاعة والخدمة الجامعه فتسارعوا الى ما اليه دعوا وتلقوه تلقى الظمآن فنهلوا وكرعوا وأوفدوا لوفود كبرائهم وأعيانهم وأشياخهم مصباحا واستضاؤا بضياء نور الله غدوا ورواحا ومدوا أعناق الاذعان وبسطوا أيدى المسالمة والابقاء عليهم والامتنان بعد ما كانت قد بلغت منهم القلوب الحناجر وارتعدت فرائصهم من هيبة الله ثم اطمأن البر وشرق الفاجر وانتبهت أجفان المراسم المخزنية التى عفت بعد نومتها فانظر الى آثار رحمة الله كيف يحيى الارض بعد موتها وصرفنا اليهم عنان الترتيب بعد أن وطأنا لهم كنف الترحيب فبوأنا من توسمنا فيه الاهلية للتولية على اخوانه مهادا وقلدناه أمرهم جمعا وفرادى وضربنا للكل فيها على مقتضى السياسة بعونة الله بسهم مصيب وأرعيناه من مربع خدمتنا الشريفة المرعى الخصيب حتى وقع التمكن من أزمتهم وأجلسنا خاصتهم وعمالهم على أسرتهم فاتصلت بهم المخزنية اتصال الارواح بالاجساد واستنارت هذه الارجاء بنور الله استنارة عمت الحاضر والباد فأدوا من الطرف والهدايا ما فيه غنية لمن ركب متن المزايا مع كون البلاد لم تنكح بالمخزن مدة من السنين تنيف على عدد الستين ولو لم تنل من هذه الفتوح الباهرة بفضل الله الا عشرا لكان فى جنب من قدم عهده بالمخزنية كثيرا ولكن ما عودنا سبحانه الا الجميل اذ هو المتصرف الغنى القاهر القوى الكفيل وهو حسبنا ونعم الوكيل ثم ولينا عليهم من القضاة من فيهم الكفاية لاقامة شرائع الدين ولم نأل جهدا فى انتخابهم من أمثل المقلدين عملا بأن الشرع عليه المبنى وبه يعمر المغنى ويغزر الحس والمعنى ثم تطارح شرفاؤهم ومرابطوهم على أعلى جنابنا باقرارهم على عوائدهم وابقائهم على أعرافهم ومحاتدهم التى عندهم عليها ظهائر أسلافنا المقدسين أئمة المسلمين وأمراء المؤمنين وكذا ظهائر من غيرهم من الملوك المتقدمين رضوان الله عليهم أجمعين فانتهجنا نهجهم وسمكنا بحول الله أوجههم وساعدناهم فأقررنا وجددنا لكل ظهيره وأجريناه على ما أسس له من المجد وجعلناه نجيه وسميره وحيث كان القصد الاهم من هذه الوجهة المباركة هو حماية ذمار هؤلاء المسلمين والدفاع عن بلادهم ورقابهم وأموالهم مما طمحت اليه نفوس المؤمنين وكان ملاك ذلك هو فتح المرسى بوادى نول بمحل يسمى آساكا بأرض قبيلتى تكنة وآيت باعمران اذ بفتحها يستقيم أمر الدفاع ويسهل على أهل ذلك المحل البيع والابتياع يقينا بان سد أبواب الضرر من الامر المحتوم وارشاد الضال فى الشرع من المقرر المعلوم تسابق القبيلتان المذكورتان التى تلقى جنابنا العالى حين عبرنا وادى والغاس وقصدنا بجيوش الله بلادهم قصد طبيب آس فتلقوا ركابنا السعيد بمحل يعرف بآمصا وقرب مرسى تسمى بآكلو اذ هو الطرف الموالى لآيت باعمران المسمى بالساحل واليه شدت هذه المراحل وبين آمصا ومحل المرسى الذى أريد فتحه مرحلتان وبثلاث عشرة ساعة ميقاتية مقدرتان فأتوا بشرفائهم وفقهائهم ومرابطيهم وأعيانهم وأشياخهم المالكين لقيادهم فقبوا بلواء عافو بل به أمثالهم وناسب أن يتصف به حالهم ثم ولينا عليهم عدة من العمال جعلناهم بحول الله عدة فى تلك الاعمال وحينئذ وقع الكلام معهم فى شأن المرسى فامتثلوا ما أمرناهم به من فتحها امتثال من أضحى يتقلب فى رضا الله ورسوله وأمسى ثم وجهنا معهم سرية من أعيان الجيش معتبره ومعهم من الفقهاء والمهندسين من يعتد بهم فى رسم تلك المرسى وتخطيطها على نهج القواعد المقرره والاعمال المحرره اقتضى المقام والحال تسبيقها رفقا بعباد الله واعتبارا بان الله سبحانه قد قضى الغرض ووهبه وأسداه وما تشاؤن الا أن يشاء الله قل ان الفضل بيد الله وما بكم من نعمة فمن الله ثم أقمنا فى المحل المذكور لانتظارهم

في

فى تشييد منارهم فان انقلبوا بالمقصود فالحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات وان لم يشفوا الغليل شدّدنا بحول الله لذلك المرسى عزمات الرحيل وقطعنا تلك المفازات هذا وقد نصبنا نائبا امين قواد جيشنا السعيد مختارا من ذوى الرأى السديد وأقمناه بقصبة تيزنيت محل المخزن فى القديم بقصد أن يكون اعانة لسائر عمال القطر السوسى من وادى والغاس الى منتهى وادى نول وكليميم يتفاوضون معه فيما عسى أن يعرض لهم من المهمات ولاسيما اذا كان المخزن بعيدا عن هذه الشرفات بعد ما عرفناهم بانا أقمناه مشرفا للتفاوض معه وبصيرة على ما قصدنا من فتح ذلك المرسى ايثار للنعمى ودفعا للبؤسى ففرحوا بذلك فرح الظمآن الوارد والضال الواجد ووقع الاشهاد عليهم بكل ما فصلناه وأبرم عقده معهم على نحو ما رسمناه فكان ذلك تمام العمل الذى قصدناه والمورد الذى أردناه وانتحيناه والله تعالى يخلص فى ذاته العمل ويجعل هذه الوجهة المباركة بفضله ومنته من الجهاد المتقبل انه جواد كريم متفضل غنىّ حليم والسلام فى متم شعبان عام تسعة وتسعين ومائتين وألف انتهى كتاب السلطان أيده الله ﴿وفى أواخر صفر سنة اثنتين وثلاثمائة وألف﴾ قام نوّاب الاصبنيول من مراسى المغرب الاقصى بعد ان أقاموا بها نيفا وعشرين سنة لاستيفاء ما وقع الصلح عليه فى حرب تطاوين وكان جملة المال المصالح عليه عشرين مليونا من الريال الكبير وكان السلطان سيدى محمد بن عبد الرحمن رحمه الله قد دفع منه عشرة ملايين معجلة والعشرة الباقية هى التى استوفاها الاصبنيول فى المدة المذكورة أقام أمناءه مع أمناء السلطان بمراسى المغرب فكان كل فريق يستوفى نصف الداخل حتى تم العمل ﴿وفى صبيحة يوم الاثنين ثانى ربيع الثانى من السنة المذكورة﴾ توفى الشيخ المنور الذاكر الخاشع أبو عبد الله محمد الهاشمى الطالبى من صلحاء أهل سلا وكانت وفاته فجأة تعشى تلك الليلة عشاء خفيفا على عادته وصلى العشاء وتلا أوراده منفردا فى بيته كما كان يفعل ثم أصبح ميتا من غير أن يحضره أحد وكان قد ناهز الثمانين وشاخ وابيضت لحيته ورأسه وحضر جنازته الجم الغفير من أهل العدوتين سلا والرباط وازدحموا على نعشه وتناولوه تبركا به وصلى عليه بالمسجد الاعظم من سلا عقب صلاة الظهر ودفن بالبيت القبلى من داره وتردد الطلبة الى قبره مدة لقراءة القرآن والبردة وغيرهما من الامداح وعظم مصاب الناس بموته وكيف لا وقد كان مصباح العدوتين بل وغيرهما فى زمانه مع ما أكرمه الله تعالى به من التواضع وحسن الخلق ولين الجانب مع الناس بحيث لم يعهد ذلك ولم ير الا عن السلف الصالح ومن سلك سبيلهم من أمثالهم رضى الله عنهم وكان مجلسه مجلس علم وحياء ووعظ وذكر للاولياء والصالحين وسيرهم وأخبارهم لا يسمع فى مجلسه لغو ولا خوض فى دنيا انما هو سرد الاحاديث وأخبار الصالحين ونحو ذلك محافظا على الصلوات وقيام الليل والاذكار وبذل المعروف والامر به ما أمكن وبالجملة فقد كان فى سيرته وأخلاقه على مقتضى السنة النبوية وآثار السلف الصالح رضى الله عنهم ونفعنا بمحبتهم ومحبة أمثالهم آمين ﴿وبعد غروب الشمس من ليلة الجمعة فاتح ذى الحجة من السنة المذكورة﴾ توفى الفقيه العلامة البارع أبو عبد الله محمد بن المدنى كنون عالم فاس والمغرب وصلى عليه عقب صلاة الجمعة بجامع الاندلس من فاس حرسها الله ودفن بالموضع المعروف بالقباب وكان رحمه الله فقيها عالما متضلعا قوّالا بالحق صادعا به لا يهاب فى ذلك كبيرا ولا صغيرا ولقد امتحن فى ذلك من قبل السلطان فلم يفل ذلك من غربه ولم يوه من صرامته ولا حده وله عدة تآليف من أحسنها اختصار حاشية الرهونى على مختصر الشيخ خليل جدد الله عليه الرحمات آمين ﴿ثم دخلت سنة ثلاث وثلاثمائة وألف﴾ ففى ليلة العشرين من صفر منها وقع فى النجوم تناثر كبير ورمى شديد تشير بقاو تغريبا وغير ذلك على خلاف المعتاد حتى لقد أذكرت قول بشار بن برد الاعمى فى وصف الحرب

كأن مثار النقع فوق رؤسنا * وأسيافنا ليل تهاوى كواكبه

ودام ذلك من وقت الغروب الى نصف الليل وفى هذه الايام كانت بين جيوش الرجل المنصور القائم ببلاد

الحبشة والنوبة المتسمى بالمهدى وبين جيش النجليز حروب عظيمة بعد العهد بمثلها وكان للمهدى المذكور على النجليز غاية النصر والظهور ولولا ان التعرض لخبره ليس من موضوع الكتاب لشرحت ذلك فان أمره عجيب جدا * وفى أواسط ربيع الاول من السنة المذكورة * ورد أمر السلطان أيده الله بتسريح ما كان موظفا على أبواب المدن والقرى مما كانت تؤديه العامة على احمال السلع والتجارات من المكوس وكتب فى ذلك الى عامل سلا وقته ما نصه بعد الافتتاح والطابع المشتمل على اسم السلطان أيده الله خديمنا الارضى الحاج محمد بن سعيد السلاوى وفقك الله وسلام عليك ورحمة الله وبعد فقد شرح الله صدرنا لرفع العطاء فى سائر الابواب بالمدن والمراسى عن كل مايمر به عليها داخلا وخارجا وأصدرنا أمرنا الشريف لامين المستفادات بثغر سلا المحروس بالله كغيره بانهاض المشترين لابوابه الجالسين للقبض بها والمتصرفين فى شؤنها الحال سبيلهم واعمال الحساب مع مشتريها المذكورين على ماتصرفوا فيه الى يوم الانهاض وتوجيه القائمة بذلك لحضرتنا العالية بالله وغير الابواب من الاماكن المعطى فيها وعليها تبقى على حالها حتى ننظر فى أمرها بحول الله وأعلمناك لتكون على بال والسلام فى ثانى ربيع الاول عام ثلاثة وثلاثمائة وألف ولما ورد هذا الكتاب فرح الناس به ودعوا للسلطان بالنصر والتأييد من خالص نياتهم نطلب الله تعالى أن يتم نعمته على المسلمين بتسريح مابقى موظفا من مبيعات الاسواق ويريح الناس من شؤمه فانه لاشئ أشأم من هذه المكوس على الدول نسأل الله العافية * وفى عاشر جمادى الثانية من السنة المذكورة خرج السلطان مولاى الحسن أيده الله من حضرة مراكش غازيا بلاد السوس الاقصى وماوراءها من عرب معقل وسائر قبائل الصحراء لما بلغه من اضطراب الرعايا بتلك البلاد وخروجهم على ولاتهم وأن بعض تجار النجليز قد تسور على مرسى بتلك السواحل يسمى طرفاية ووصل يده فى البيع والشراء ببعض القبائل الذين هنالك وأراد أن يبنى بالمحل المذكور فنهض السلطان أيده الله لحسم مادة هذا الفساد ولما توسط بلاد السوس وأصلح أحوالها وثقف أطرافها كتب كتابا الى ولاة المغرب يقول فيه بعد الافتتاح مانصه وبعد فانا بحول الله القوى المعين الفاتح لما أغلق كما يشاء فى الحين أو بعد حين المؤيد بعنايته عبده فى كل مصدر ومورد وتحريك وتسكين كتبنا اليكم هذا يوم حلولنا وسط خدامنا قبائل آيت باعمران بحبوحة مجامع قبائل السوس الاقصى ومناخ الاعيان نعلمكم بما واجهنا المولى سبحانه فى هذه الحركة المباركة من تعاقب المنن والايادى وابتسام ثغر الزمان بما أملناه من العلى المنان فى هذا النادى لتعلموا أن الله على كل شئ قدير وبيده مقاليد السموات والارض وهو الولى والنصير والسميع والبصير فكان من أمر هذه القبائل السوسية والقساملة الساحلية ان تقواركابنا السعيد أفواجا أفواجا ناشرين أعلام الفرح تجاه جيوش الله المظفرة سرى وادلاجا حاشدين جموعهم مصحوبة باعيانهم ومن يعتد به من فقهائهم وشرفائهم ومرابطيهم من غير أن يكون جمعهم خداجا مستنجحين للفوز بخاطرنا الشريف مقدمات الامتثال والسمع والطاعة لله ولرسوله استنتاجا مقدمين بين يديهم هداياهم متترسين بابنائهم واخوانهم وسراياهم مادين أعناق الامتثال عاضين بالنواجذ على الخدمة وصالح الاعمال فأتوا بعونتهم على قدر الاستطاعة ومهدوا لسلوك الجيش السعيد ماصعب من طرقهم حتى صارت مسلوكة مشاعه ونحن فى كل ذلك نعاملهم بالبرور ونبسط البشر اليهم ونقابلهم بما ارتسم فيهم من السرور وها نحن بحول الله جادون فى الخلوص الى المقصد الذى لاجله نقلنا هذه الخطوات واستعملنا فيه الفكر وأسهرنا أحداق الاعتبارات من صرف النظر لفتح مرسى آسا كامر كز سواحل وادى نول ومجمع القبائل العربية والبربرية ومنتهى ذلك المسكون ولاسيما من جاءت بينهما كالام والعنصر وهما كالتوأمين لها يستمدان منها ويرضعان خلاصة لبن ثديها وهما القبيلتان الباعمرانية والتكنية ومن تراكم عليهما او ارتدف من قبائل العرب والبربر أو كان على

حكمهما فيما ارتضع وارتشف هذا ان كانت تصلح لذلك وتعود منفعتها على المسلمين والاسلام بعد الاستخارة مرارا فى احتطاطها وتحقق بصلاحيتها كشفا واستبصارا وتتوخى فى الاقدام على ذلك بحول الله الاسد من الانظار والمنهاج القويم الجارى على اعراف هاتيك الاقطار ثم ان كانت موافقة للاصلح أقدمنا وان لم يظهر وجه المصلحة أعرضنا عنها الى غيرها قال الله العظيم ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها وما آل اليه الامر نعلمكم به ونشنف آذانكم بناسخ من سره فانه لكل عمل نتيجة بعد العنوان والله المولى المستعان والهادى الى سواء السبيل وهو نعم المولى ونعم الوكيل والسلام فى تاسع شعبان الابرك عام ثلاثة وثلاثمائة وألف ثم تجاوز السلطان أيده الله قطر السوس الاقصى الى صحراء قليميم فوفدت عليه هنالك أشياخ عرب معقل وكبراؤها خاضعين مطيعين وفرحوا بقدم السلطان ووطئه بلادهم غاية الفرح حتى لقد اتخذوا موضع خبائه الذى كان مضروبا به مزارا يتبركون به الى الآن اذلم يكونوا اهم ولا آباؤهم من قبل رأوا سلطانا بارضهم ولا سمعوا بوصوله اليها وأجروا خيولهم وابلهم بحضرته ولعبوا عليها بالبارود اذ عادة عرب الصحراء أن يسابقوا على الابل كما يسابقون على الخيل ومن هنالك وجه السلطان أيده الله كتيبة من جيشه الى مرسى طرفاية فغيروا ما كان أحدثه أولئك التجار من النجليز بها وطمسوا أعلامه وفر من كان بها من النصارى الى بابوراتهم التى كانت على ذلك الساحل وأمر أيده الله ببناء مرسى آساكا واتخاذها محلا للوسق والوضع هنالك ورتب الحامية والعسات بتلك السواحل من آكادير الى قليميم وكتب بذلك كله الى ولاة المغرب وقفل راجعا فاوقع فى رجوعه بقبيلة ذاوتنان من أهل السوس الاقصى ثم كانت عاقبة القضية النجليزية أن قام فيها أرباب دولتهم وقعدوا وخبوا فى التشغيب على عادتهم ووضعوا حتى وقع الصلح على مال دفعه السلطان اليهم تسكينا للامر ودفع الماهو أعظم والامر لله وحده ﴿وفى عشية يوم الثلاثاء الرابع والعشرين من جمادى الثانية من السنة المذكورة﴾ غيمت السماء غيما كثيفا أسود وذلك بمراكش ونواحيها وهبت ريح سوداء مع رعد قاصف ثم نزل برد مثل البيض وأعظم وتهدمت بمراكش دور كثيرة ومات تحت الهدم خلق كثير نيفوا فيما قيل على المائة وفر الناس الى أضرحة الاولياء بعد أن ودعوا عشائرهم وأحبتهم ولزموا الاستغفار والتضرع الى الله تعالى حتى انجلى الغيم بعد نحو ساعتين والحمد لله على حلمه بعد علمه وعلى عفوه بعد قدرته ﴿وفى هذه السنة﴾ اشتد حرص أجناس الفرنج على تنقيص صاكة الاعشار وطلبوا من السلطان أيده الله أن يحط عنهم من صاكة السلع الموسوقة التى كانت مسرحة من قبل وأن يسرح لهم ما كان مثقفا قبل ذلك وأبدؤا فى ذلك وأعادوا وقاموا فيه وقعدوا فلما رأى السلطان أيده الله شدة حرصهم وتكالبهم كتب كتابا الى الرعية يستشيرهم فيه و يقول بعد الافتتاح أما بعد فقد كان طلب منا بعض نواب الاجناس بطنجة على وجه الخير والمحبة فيما سلف من أعوام تجديد شروط التجارة بقصد تسريح الاشياء الممنوعة الوسق كالحبوب مطلقا والانعام والبهائم ونحو ذلك ونقصان صاكة الخارج ذاكرين أن تسريح ذلك فيه النفع لبيت المال وللرعية وهذه مدة من خمسة أعوام ونحن ندافع ونسدد ونقارب بما يقتضيه الوقت والحال عملا بقول سيد الوجود صلى الله عليه وسلم فى وقائع وقضايا سددوا وقاربوا واحرصا على ابقاء ما كان على ما كان اذ لا أقل من ذلك سيما فى هذا الزمان الذى أشار اليه صلى الله عليه وسلم بقوله يأتى على الناس زمان يمر فيه الحى على قبر الميت فيقول ليتنى مكانك وحاشى لله أن نتسبب للمسلمين فى غلاء أو نوافق لهم على ضرر وكفى بالله شهيدا وكيف والله سبحانه قد استرعانا عليهم والنبى صلى الله عليه وسلم يقول كلكم راع وكل راع مسؤل عن رعيته والآن قد اشتد حرصهم على ذلك وتغالوا فيه على كلمة واحدة وصمموا عليه ولما أفضى الحال الى ما أفضى اليه مما لا ينبغى ولم يمكن الا الاعلان بذلك والمشاورة فيه مع من يعتد به استشرنا فيه جميع من يشار اليه بالخير والفضل والدين والعقل والذكاء

والدهاء موثوقا بديانته وأمانته فلم يشير وافيه بخير واتفقوا على أن لا مصلحة فى تسريح ذلك أصلا و بينوا مايترتب على الكل من المفاسد ففصل الحيوان أوّل مايترتب على تسريحه من الضرر غلاؤه على ضعفاء الرعية بل يؤدّى الى فقده بالكلية من هذه الايالة وأشياء أخر لا يفى بها التعبير هنا وفصل النقص من الصاكة يترتب عليه ضعف المدخول الذى منه يقوّم المخزن الجيش والعسكر ومصالح الرعية وأعظمها تضعيف الرعية بالقبض منهم كتضعيف المكوس وضرب الخراج عليها تقوية لبيت المال والجيوش وما أبداه بعض نوّاب الاجناس الراغبون فى تسريح ذلك من المصالح المالية العائدة على رعيتنا السعيدة على مقتضى ماظهر لهم ردّوه بما يطول شرحه ولا يفى به قرطاس ولما رأينا الامر استحال الى أسوء حال أو كاد تداركنا هذا الخرق بالرفق وجنحنا الى السلم امتثالا لقوله تعالى وان جنحوا للسلم فاجنح لها الآية وارتكبنا أخف الضررين فاقتضى نظرنا الشريف ان ظهر لكم درأ لتلك المفاسد المقدّم على جلب المصالح أن نساعدوا على تسريح أشياء بقصد الاختبار من تلك الامور الممنوعة الوسق كالقمح والشعير وذكران البقر والغنم والمعز والحير ثلاث سنين فقط على شرط الاختبار فى المنفعة التى ذكروها فى تسريحه الكل باعشاره المعلومة فى مثله على أن يكون تسريح ذلك فى وقت غلته مع وجود الخصب مدّة من ثلاثة أشهر و بعد مضيها يثقف ولا يسمع كلام من أحد فى تسريحه ولا يقبل منه عذر فيه وفى العام المقبل اذا كان صالحا يسرّح ثلاثة أشهر بقصد الاختبار أيضا واذا كان ناقصا لا يقع اختبار بتسريحه المدّة المحدودة و يبقى متقفا على ان ذلك ليس بشرط وانما هو على سبيل الاختبار حتى يظهر و لتعلموا انكم لن تزالوا فى سعة فان ظهر لكم ذلك فالامر يبقى بحاله وان ظهر لكم ماهو أسدّ وأحوط فى الدفاع عن المسلمين فاعلموا نابه اذ ما أنا الا واحد من المسلمين وأعلمنا كم بما كان امتثالا لقوله تعالى وشاورهم فى الامر والا فما عند الله خير من اللهو ومن التجارة والله خير الرازقين والسلام فى سابع رجب الفرد الحرام عام ثلاثة وثلاثمائة ألف انتهى كتاب السلطان أعزه الله ولما قرئ هذا الكتاب على خاصة الناس وعامتهم أجابوا كلهم بان الرأى ما رآه السلطان وفقه الله الا ما كان من بعض العامة الاغمار الذين لم يجربوا الامور ولا اهتدوا الى النظر فى العواقب فانهم قالوا ما نعطيهم الا السيف لكن لم يلتفت اليهم ﴿وقد كتبت﴾ فى هذه المسألة جوابا مطوّلا رأيت اثباته هنا خشية ضياعه ونصه اعلموا حفظكم الله ان النظر فى هذه النازلة يكون من وجوه أحدها من جهة الفقه والحكم الشرعى ثانيها من جهة الرأى والسياسة وهذا لابد أن يجرى على ضابط الفقه أيضا ثالثها من جهة الفهم عن الله تعالى والنظر فى تصرفاته سبحانه فى هذا الوجود بعين الاعتبار فأما الوجه الاوّل فاعلم ان الفقهاء رضوان الله عليهم قد نصوا على انه لا يجوز بيع آلة الحرب من السلاح والكراع والسروج والترسة ونحو ذلك من الكفار الحربيين لما يخشى من تقويهم بذلك على المسلمين هذه علة المنع وهى تفيد أمرين أحدهما أن كل ما هو فى معنى السلاح مما يفيدهم تقوية حكمه حكم السلاح فى المنع وهو منصوص عليه فلا نحتاج الى التطويل بجلبه ثانيهما ان مالا يتقوون به يجوز بيعه منهم كيف ما كان وعدم التقوى يكون باحد وجهين اما بكون ذلك المبيع ليس من شأنه التقوى به فى الحرب كبعض المأكولات والملبوسات وغير ذلك مما هو مسرّح لهم اليوم وقبله بزمان واما بكونه من شأنه أن يتقوى به فيها ولكنه عديم الفائدة بالنسبة الى حالهم اليوم لما تقرّر من انهم صاروا من القوة والاستعداد والتفنن فى أنواع الآلات الحربية الى حيث صارت آلاتنا عندهم هى والحطب سواء والدليل على ذلك أنهم يبيعون لنا أنواعا من الآلات الحربية تقضى العجب من جودتها واتقانها ومع ذلك فينقل لنا عنهم أنهم لا يبيعون لنا منها الا ما انعدمت فائدته عندهم لكونهم ترقوا عنها الى ماهو أجود منها واستنبطوا ماهو أتقن وأنفع الافيما قل وعلى هذا فتنبغى اليوم الفتوى بجواز بيع سلاحنا منهم فضلا عن غيره لجزمنا بان ذلك لا يفيدهم فى معنى التقوى شيأ وان كانت هناك فائدة فهى كلا فائدة هذا

اذا لم نتوقع ضررا منهم عند امتناعنا من البيع فأما اذا كنا نتوقعه منهم كما هو حالنا اليوم فيرتقي الحكم عن الجواز الى ماهو فوقه وللضرورة أحكام تخصها ﴿فان قلت﴾ فقد أقدمت بهذا الكلام على مالم يقدم عليه أحد قبلك في استجازتك بيع السلاح من الحربيين ﴿قلت﴾ انما ذكرت السلاح توطئة لما الكلام فيه حتى يؤخذ حكمه بالاحرى ثم اني ما أقدمت عليه الا بالقاعدة الفقهية لا بمجازفة كما أقدم من قبلي على اجازة بناء الكنائس بارض المسلمين لاجل الضرورة الداعية الى ذلك فقد أفتى علماء الاندلس في القرن الخامس بالاذن للنصارى في احداث الكنائس بأرض العنوة وبما اختطه المسلمون من الامصار ومع ان الموجود في كتب السلف هو المنع وماذاك الالان الاحكام المرتبة على الاعراف تختلف باختلاف تلك الاعراف ﴿قال القرافي﴾ في كتاب الاحكام في الفرق بين الفتاوى والاحكام في السؤال التاسع والثلاثين مانصه ﴿ان قلت﴾ ما الصحيح في هذه الاحكام الواقعة في مذهب مالك والشافعي وغيرهما المرتبة على العادة والعرف اللذين كانا حاصلين حالة جزم العلماء بهذه الاحكام فهل اذا تغيرت تلك العوائد وصارت تدل على ضد ما كانت تدل عليه أولا فهل تبطل هذه الفتاوى المسطورة في الكتب ونفتي بما تقتضيه هذه العوائد المتجددة أو يقال نحن مقلدون ومالنا احداث شرع لعدم أهليتنا للاجتهاد فنفتي بما في الكتب المنقولة عن المجتهدين فالجواب أن اجراء هذه الاحكام التي مدركها العوائد مع تغير تلك العوائد خلاف الاجماع وجهالة في الدين بل كل ماهو في الشريعة يتبع العوائد يتغير الحكم فيه عند تغير العادة الى ماتقتضيه العادة المتجددة وليس ذلك تجديدا للاجتهاد من المقلد حتى تشترط فيه أهلية الاجتهاد بل هذه قاعدة اجتهد فيها العلماء وأجمعوا عليها فنحن نتبعهم فيها من غير استئناف اجتهاد اه ونحوه له في كتاب الفروق ونقله عنه الائمة واعتمدوه فبان من هذا أنه لا معنى للافتاء اليوم بمنع بيع شيء من الكفار أيا كان الا المصحف والمسلم ومافي معناهما لانهم بلغوا اليوم من القوة الى الحد الذي لم يكن لاحد في ظن ولا حساب الا أن يريد الله كفايتنا اياهم بأمر من عنده فهو سبحانه ولي ذلك والقادر عليه وذلك ظننا به تعالى ﴿فان قلت﴾ ههنا مضرة أخرى تمنع من بيع ماطلبوه وهي التضييق على المسلمين في معايشهم ومرافقهم لانهم اذا أكبوا على شراء هذه الاشياء فلا بد أن تغلو وترتفع أثمانها وفي ذلك من الاضرار بالمسلمين مالا يخفى ولذا أفتى الائمة بمنع الحكرة في كل مالناس به حاجة من طعام وادام وعروض فان كان في الحال سعة ولم يضر الاحتكار بالناس جاز في الطعام وغيره ﴿قلت﴾ والناس اليوم والحمد لله في سعة وأما حصول التضييق عليهم في معايشهم ومرافقهم بسبب تسريح وسق هذه الاشياء للنصارى فمشكوك فيه قد يحصل وقد لا يحصل والشك مطروح في نظر الشرع بخلاف المضرة المتوقعة منهم عند المنع والمحاربة فمقطوع بها نظرا للقرائن القوية والعادة ﴿فان قلت﴾ بل الغالب حصول التضييق لا انه مشكوك فقط ﴿قلت﴾ ليس بغالب فقد رأيناهم منذ أزمان وهم مكبون على وسق أشياء كثيرة مثل القطاني وغيرها ومع ذلك لم يحصل فيها والحمد لله الا الرخاء بل الحق ان هذا من علم الغيب لا ينبغي لاحد أن يحكم عليه بغلبة ولا قلة لان الحكم في ذلك بالتخمين من باب التخرص على الله تعالى في غيبه وهو حرام على ان النصارى اذا اشتروا منا شيأ من ذلك فانما يشترونه بالثمن الذي له بال ويعشرونه بالصاكة التي لها بال فتحصل الارباح للرعية وللسلطان وهذه منفعة مقطوع بها وأما الغلاء فمشكوك كما قلنا والحاصل ان الابحاث والتفريعات في هذا الموضوع كثيرة وفي هذه النبذة كفاية لمن استبصر والله الموفق وأما الوجه الثاني وهو النظر من جهة الرأي والسياسة ولا بد فيه من الفقه أيضا اذ كل سياسة لا تستضيء بنور الشرع فهي ضلال فنقول لا يخفى ان النصارى اليوم على غاية من القوة والاستعداد والمسلمون لم الله شعثهم وجبر كسرهم على غاية من الضعف والاختلال واذا كان كذلك فكيف يسوغ في الرأي والسياسة بل وفي الشرع أيضا ان ينابذ الضعيف القوي أو يحارب الاعزل الشاكي السلاح وكيف يستجاز في الطبع أن يصارع المقعد

القائم على رجليه أو يعقل فى النظر أن تناطح الشاة الجماء الشاة القرناء كما قال الشاعر

أهم بأمر الحزم لو أستطيعه * وقد حيل بين العير والنزوان

فالمحاربة على هذا الوجه مما لم تقل به سياسة ولا وردت به شريعة فهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو خير الخلق عند ربه وأكرمهم لديه قد صالح المشركين يوم الحديبية صلحا قال فيه بعض كبار الصحابة رضوان الله عليهم نحن المسلمون فكيف نعطى الدنية فى ديننا ورد أبا جندل رضى الله عنه الى المشركين وهو يرسف فى قيوده ويصرخ بأعلى صوته يا معشر المسلمين كيف أرد الى المشركين يفتنوننى فى دينى والقصة مشهورة لا حاجة الى التطويل بها وقد عزم رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الاحزاب أن يعطى عيينة بن حصن والحرث بن عوف وهما قائدا غطفان ثلث ثمر المدينة على أن يرجعا بمن معهما عنه وعن أصحابه حتى رده عن ذلك سعد بن معاذ وسعد بن عبادة رضى الله عنهما حين أحسوا من أنفسهم بمقاومة العدو وأين نحن منهم دينا ويقينا وبصيرة وثباتا فى الحرب وقد أفتى الفقهاء رضوان الله عليهم لاجل هذا الوارد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بجواز عقد الهدنة مع الكفار على اعطاء المال انظر المختصر وغيره فاذا كان اعطاء المال مجانا جائزا عند الضرورة فكيف لا يجوز اعطاء بعض المتمولات بأثمانها التى لها بال وأيضا فهؤلاء الاجناس انما دعونا فى ظاهر الامر الى السلم لا الى الحرب وغاية مطلوبهم فى هذه النازلة الاستكثار من ضروب المتاجرة التى ينشأ عنها فى الغالب كثرة الممازجة بيننا وبينهم ولعمرى ان فى اختلاطهم بنا وممازجتهم لنا المضرة وأى مضرة وما يعقلها الا العالمون ولكنها تستصغر بالنسبة الى مضرة المحاربة وليس من الرأى والسياسة أن يدعوك خصمك الى السلم فتدعوه الى الحرب ما وجدت الى السلم سبيلا وهذا هو الذى فعله رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الحديبية فانه قال لاصحابه لما اغتاظوا من ذلك الصلح وقال بعضهم والله ما هذا بفتح لقد صددنا عن البيت وصد هدينا بل هو أعظم الفتوح قد رضى المشركون أن يدفعوكم بالراح عن بلادهم ويسألوكم القضية ويرغبوا اليكم فى الامان الى آخر ما قاله صلى الله عليه وسلم والى هذا ونحوه الاشارة بقوله تعالى وان جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله ذكر تعالى ذلك عقب قوله وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل اشارة الى ان الصلح يجوز ولو كان بالمسلمين قوة واستعداد كما نبه عليه بعض المفسرين فكيف ولا قوة ولا استعداد الا ان يتداركنا الله بلطف من عنده واختلف المفسرون هل الآية منسوخة أم لا والصحيح كما فى الكشاف وغيره ان الامر موقوف على ما يرى فيه الامام مصلحة للاسلام وأهله من حرب أو سلم وليس بحتم أن يقاتلوا أبدا أو يجابوا الى الهدنة أبدا اه وهذا مذهبنا ومذهب غيرنا ولذلك جازت عندنا الهدنة وان على مال كما مر فدلت الآية الكريمة على ان السلم أولى من الحرب وهذا هو المعلوم المسلم شرعا وطبعا أما الشرع فهذه الآية وقصة الحديبية وقوله تعالى والصلح خير وقوله والفتنة أشد من القتل وها تان الآيتان وان نزلتا فى شئ خاص لكن يجوز الاستشهاد بهما فيما نحن فيه وفى غيره اذ هما من الكلام الجامع الجارى مجرى المثل والحكمة وعن على رضى الله عنه ما دعوت الى المبارزة قط وما دعانى أحد اليها الا أجبته فقيل له فى ذلك فقال الداعى الى الحرب باغ والباغى مصروع وأما الطبع فلا يحتاج الى شاهد لان كل عاقل يعلم أن السلم خير من الحرب وقد قال شريك لمعاوية رضى الله عنهما فى مقاولة جرت بينهما انك ابن حرب والسلم خير من الحرب وقال الحصين بن نمير السكونى لابن الزبير رضى الله عنه يوم مات يزيد بن معاوية اذهب معى الى الشام لادعو الناس الى بيعتك فلا يتخلف عنك أحد فقال ابن الزبير أما دون أن أقتل بكل واحد من أهل الحجاز عشرة من أهل الشام فلا وجعل ابن الزبير يجهر بذلك فقال له الحصين أكلمك سرا وتكلمنى جهرا وأدعوك الى السلم والخلافة وتدعونى الى الحرب والمناجزة كذب من زعم انك داهية العرب اه فقد عاب عليه ذلك من جهة الرأى كما ترى وأنشد صاحب الكشاف وغيره لدى قوله تعالى

وان جنحوا للسلم فاجنح لها قول العباس بن مرداس رضى الله عنه

السلم تأخذ منها ما رضيت به * والحرب يكفيك من أنفاسها جرع

وفى كتاب الفتن من صحيح البخارى ما نصه كان السلف يستحبون أن يتمثلوا بهذه الابيات عند الفتن

الحرب أول ما تكون فتية * تسعى بزينتها لكل جهول

حتى اذا اشتعلت وشب ضرامها * ولت عجوزا غير ذات حليل

شمطاء ينكر لونها وتغيرت * مكروهة للشم والتقبيل

قال القسطلانى المراد انهم يتمثلون بهذه الابيات ليستحضروا ما شاهدوه وسمعوه من حال الفتنة فانهم يتذكرون بانشادها ذلك فيصدهم عن الدخول فيها حتى لا يغتروا بظاهر أمرها أولا اه ولا شك ان هذه حالة العامة الاغمار الذين لم تضرسهم الحروب ولا حنكتهم التجارب تجدهم اذا ظهرت مخايل فتنة نسأل الله العافية استشرفوا اليها وتمنوا خوضها وربما تألى بعضهم وقال والله لئن حضرتم الافعلن وأفعلن وقد قال عليه الصلاة والسلام لا تتمنوا لقاء العدو وحال هذا الغمر المتألى هو الذى أفصح عنه المتنبى بقوله وإذا ما خلا الجبان بأرض * طلب الطعن وحده والنزالا

فهذا القطر المغربى تدارك الله رمقه على ما ترى من غاية الضعف وقلة الاستعداد فلا تنبغى لاهله المسارعة الى الحرب مع العدو الكافر مع ما هو عليه من غاية الشوكة والقوة وقد تقرر فى علم الحكمة أن المعاندة والمدافعة انما تحصل بين المتضادين والمتماثلين ولا تحصل بين المتخالفين وحالنا اليوم مع العدو ليس من باب التضاد ولا من باب التماثل وانما هو من باب التخالف فافهم بل لو فرضنا أن أهل المغرب اليوم مماثلون للعدو فى القوة والاستعداد لما كان ينبغى لهم ذلك لانه ليست العدة وحدها كافية فى الحرب ولا كثرة الرجال والمقاتلة وحدها بالذى يغنى فيها شيأ بل لا بد مع ذلك من اجتماع الكلمة وكون الناس فيها على قلب رجل واحد ولا بد مع ذلك من ضابط يجمعهم وقانون يسوسهم حتى تكون الجماعة كالبدن الواحد يقوم جميعا ويقعد جميعا وهذا معنى ما صح فى الحديث من قوله صلى الله عليه وسلم المؤمن للمؤمن كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا فان لم يكن ضابط وقانون فلا بد من نفاذ البصيرة فى الدين وقوة اليقين والالفة فيما بين المسلمين والغيرة على الوطن والحريم وجودة الرأى والتمرس بالحروب ومكايد المشركين وأهل المغرب اليوم الا القليل منسلخون من هذا كله أو جله فقد توالت عليهم الاجيال فى السلم والهدنة وبعد عهد أسلافهم فضلا عنهم بالحرب وشدائدها ومعاناة الاعداء ومكايدها وانما همهم مأكولهم ومشروبهم وملبوسهم كما لا يخفى حتى لم يبق من هذه الحيثية فرق بينهم وبين نسائهم وليس الخبر كالعيان فكيف يحسن فى الرأى المسارعة الى عقد الحرب مع أجناس الفرنج وما مثلنا ومثلهم الا كمثل طائرين أحدهما ذو جناحين يطير بهما حيث شاء والآخر مقصوص مهما راقع على الارض لا يستطيع طيرانا ولا يهتدى اليه سبيلا فهل ترى لهذا المقصوص الجناحين الذى هو لحم على وضم أن يحارب ذاك الذى يطير حيث شاء وهل يكون فى ذلك ان كان الا هلاك هذا وسلامة ذاك بل وغنيمته فان ذاك ينقر هذا متى وجد فيه فرصة للنقر ويبعد عنه ويطير اذا لم يجدها وهكذا يستمر حاله معه حتى يثبته أو يهلكه بالكلية وليس فى طوق هذا الا ان يدفعه عن نفسه فى بعض الاحيان اذا تأتى له ذلك ولكن الى متى فهكذا حال الناس مع عدونا فانه بقراصينه الحربية ذوات أجنحة كثيرة فهو علينا بالخيار يهجم علينا فى ثغورنا اذا شاء ويبعد عنا فلا ندركه متى شاء وقصارانا معه الدفع عن أنفسنا اذا اتفقت كلمتنا ولم تشغلنا غوغاء الاعراب من خلفنا وهيهات فقد جرب ذلك مرارا فصح والمؤمن لا يلدغ من جحر مرتين كما قال عليه السلام والكلام فى هذا الفصل أيضا طويل وفيما أشرنا اليه كفاية (فان قلت) أراك قد صيرت الجهاد الذى حث عليه الشرع ووعد عليه بالثواب العظيم محض فتنة وقد زهدت الناس فيه وقطعت آمالهم

منه بهذا الكلام ﴿قلت﴾ أعلمت يا أخي ماهو الجهاد الذي حث عليه الشرع ووعد عليه بالثواب العظيم اعلم ان الجهاد المذكور هو قتال أهل الشرك والطغيان على اعلاء كلمة الرحمن لينساقوا بذلك الى الدخول في دين الله طوعا أو كرها ولتكون كلمة الله هي العليا وكلمة الشيطان هي السفلى مع نفاذ البصيرة وخلوص النية والغيرة على دين الله وكل ذلك بشرط القوة المكافئة أو القريبة منها ومهما اختل ركن أو شرط مما ذكرنا كان الى الفتنة أقرب منه الى الجهاد بل نقول أن الجهاد الشرعي قد تعذر منذ أحقاب فكيف تطلبه اليوم فان كنت تسارع الى الحرب لتدركه جهلا منك بحقيقة الامر فاعلم انك انما تسارع الى ايقاد نار الفتنة وايجاد العدو السبيل عليك وامكانه من ثغرتك وتسليطه على السبي لحريمك ومالك ودمك نسأل الله العافية اللهم الا أن تكون ممن اختارهم الله وأهلهم لذلك وكتب في قلوبهم الايمان وأيدهم بروح منه كما نسمع اليوم عن أمة الحبشة والنوبة الذين يقاتلون عساكر النجليز على تخوم صعيد مصر وغيرها فقد تواتر النقل وصح الخبر أن دولة النجليز قد بارت حيلها مع هؤلاء القوم وأنها وجهت اليهم العساكر من الديار المصرية بكل قوة وشوكة مرة بعد أخرى فحقوهم محقا مع انهم لا يقاتلونهم في الغالب الا بالحراب على عادة السودان في ذلك والنصر بيد الله وأما الوجه الثالث وهو الفهم عن الله تعالى والنظر في تصرفاته سبحانه في هذا الوجود بعين الاعتبار فهذا احق الكلام فيه أن يكون من أرباب البصائر المنورة والقلوب المطهرة لا من أمثالنا الذين أصبحوا على أنفسهم مسرفين وفي أودية الشهوات منهمكين تداركنا الله بلطفه لكنا نقول وان كان القول من باب الفضول اذا نظرنا الى ما عامل الله تعالى به عبده أمير المؤمنين مولانا الحسن أيده الله وجدناه والحمد لله مصنوعا له محفوفا بالعناية الالهية مكلوا بعين الرعاية الربانية تصحبه السعادة أينما توجه وبخار له في جميع ما يحاوله ولا تنجلي مهماته الا عن ما يسر الصديق ويسوء العدو فالحمد لله على ذلك حمدا كثيرا وهو مع ذلك جميل الظن بربه حسن العقيدة في توكله عليه مفردا وجهته اليه حريصا على استصلاح رعيته ذا غيرة تامة على الدين والوطن بحيث فاق بذلك وغيره من خصال الخير كثيرا من ملوك عشيرته الذين تقدموه واذا كان كذلك فمن الرأي الذي لا رأي فوقه أن نفوض اليه في ذلك ونثق بحسن رأيه ويمن نقيبته ونجاوبه في هذه النازلة بان الامر في ذلك اليه لا الى غيره اذ هو الذي طوقه الله أمرنا وكلفه النظر لنا والنصح لديننا وان كان لا بد من المشورة فليست الا مع أهل الحل والعقد وقد قال العلماء أهل الحل والعقد هم أهل العلم والدين والبصر بهذا الامر الخاص لانه يشترط في كل من ولي النظر في أمر ما من الامور العلم به فما اختاره أمير المؤمنين اخترناه وما انشرح له صدره وأمضاه أمضيناه وكيف لا وما عوده الله الا خيرا وعسى أن تكرهوا شيأ وهو خير لكم الآية وعسى أن يكون فيما طلبه هؤلاء الاجناس فساد أمرهم وصلاح أمرنا وذلك الظن به تعالى وما هو عليه بعزيز فيكون تدميرهم في تدبيرهم وقد استروحنا والحمد لله نسيم الفرج مما كنا فيه قبل اليوم تمم الله علينا نعمته آمين وأيضا ففي التفويض في هذه النازلة ضرب من التبري من الحول والقوة فحيث ساقت الاقدار الينا هذا الامر فينبغي أن نتلقاه بالرضى والتسليم بخلاف ما اذا استعملنا فيه حيلتنا ورأينا فيكون من باب الدخول في التدبير وشتان ما بين التفويض والتدبير والله يهدي من يشاء الى صراط مستقيم والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته قاله وكتبه أحمد بن خالد الناصري كان الله له في عاشر شعبان سنة ثلاث وثلاثمائة وألف اهـ ثم ان الله تعالى لطف في هذه النازلة بعنه اللطف الجميل وكفى مؤنتها من ذلك المطاوب بشئ قليل وذلك أن السلطان أيده الله سرح لهم وسق القمح والشعير ثلاث سنين ووضع عنهم من صاكتهما نحو الربع لا غير ولم يحصل والحمد لله للرعية ضرر قط ﴿ثم دخلت سنة أربع وثلاثمائة وألف﴾ فيها كتب السلطان مولاي الحسن أيده الله الى علماء فاس كتابا يستفتيهم في حكم التجارة في الاعشاب المرقدة

والمفسدة

والمفسدة ويستشيرهم في تسريحها وامساكها ونص ذلك الكتاب بعد الافتتاح أحباءنا فقهاء فاس
الاجلة المرضيين وعلماءها المرشدين سلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته وبعد فطالما قدمنا رجلا
وأخرنا أخرى في تسريح الصاكة التي هي الاعشاب المرقدة والمفسدة ونحوها وكان تسريحها من أهم
الامور لدينا وآكد من تسريح غيرها كالابواب لما نجده في نفسنا لها من الاستقباح ونستقذره من
أمرها في الغدو والرواح مع مزيد ثقلها على فؤادنا وكونها أحرج في روعنا وكان أسلافنا قدسهم الله
اجتهدوا في قطعها وحسم مادتها بكل ما أمكنهم وأفضى بهم الحال الى احراقها مرارا ولما رأوا تسالؤ الرعاع
والسفهاء والمقلين والمعدمين عليها ارتكبوا فيها ما يحصل به التضييق على مستعمليها وتمنع منهم
فلا يلحقها الامن عنده ما يشتريها به وهم في أولئك الرعاع قليل مع النظر لما يحصل لبيت المال من
النفع الكثير فحيزت لجانب المخزن لتحصيل المقصدين المذكورين وحيث قذف الله في قلبنا تسريحها
ورفض درن ما يحصل منها تعارض لدينا أمران وهما ابقاؤها بيد المخزن وتسريحها أما الاول فهو الذى
فر زمانه وبيناءه وأما الثانى وهو التسريح فقتضاه اغراء الرعاع والسفهاء على استعمالها ولاسيما
مع انحطاط ثمنها فيتناولها القوى والضعيف فيصير ذلك ذريعة الى اباحة ما كانوا ممنوعين منه فيتجاهرون
به ولا يخشون رقيبا ويأتى منها من بر النصارى ما لا حصر له فيعثر كسائر المعشرات المباحة وتنبنى
على ذلك مفاسد هي أعظم من كونها محوزة وأشكل الامر فلتبينوا المخلص من ذلك بما تقتضيه قواعد
الشريعة المطهرة حتى نخرج من عهدة ذلك فان الخطب عظيم والسلام في الثالث والعشرين من
المحرم عام أربعة وثلاثمائة وألف انتهى كتاب السلطان أيده الله وأجاب عنه علماء فاس وفرهم الله
بجواب طويل مرجعه الى حرمة استعمال تلك الاعشاب والتجارة فيها حسبما عليه الجمهور من الفقهاء
والصوفية رضوان الله عليهم ولما كان المقصود الاهم للسلطان أيده الله هو الاشارة بكيفية التخلص
من ورطة تسريحها والحصول على السلامة مما عسى أن ينشأ عنه من المفاسد المرموز اليها في الكتاب
الشريف كتب الى بعض الاحبة من فاس بقصد المذاكرة في النازلة فأجبته عنها بما نصه اعلم حفظك
الله أن ما أجاب به سادتنا فقهاء فاس من حرمتها ووجوب تخلى المخزن عن بيعها هو الحق الذى لا محيد عنه
لما اشتملت عليه تلك الاعشاب من المفاسد العديدة التى كل واحدة منها كافية في الجزم بحرمتها وقد بينا
شيأ من ذلك في كتاب الاستقصاء عند الكلام على حدوثها ودخولها لبلاد المغرب أيام المنصور السعدى
فلينظره من أراده فانه كاف في هذا الباب وأما ما أشار اليه الكتاب الشريف من أن مصلحة احتياز
المخزن لها واستبداده ببيعها هي التضييق على مستعمليها حتى لا يتناولها منهم الا الملى بثمنها دون الفقير الخ
فهى مصلحة موهومة أو معدومة بالجزم فان الحامل لمتعاطيها على استعمالها انما هو التبذل وقلة
المروءة ورقة الديانة وخسة النفس وسقوط الهمة كما أن الوازع لمن لم يتعاطاها انما هو كمال المروءة ومتانة
الديانة وشرف النفس وعلو الهمة لا فقدان ذلك الثمن التافه كيف لا وهي لا يتعاطاها في الغالب
الا الفقراء المقلون فمصلحة التضييق عليهم في ثمنها مفقودة كما ترى واذا كان كذلك فالواجب شرعا
ومروءة هو تنزيه منصب الامامة الاسلامية والخلافة النبوية التى هي أم الخطط الدينية والمناصب
الشرعية عن التجارة فيها وتطهير تلك الساحة الكريمة من التلوث بأقذارها اذ لا يناسب ذلك حال
مطلق المسلمين فكيف بجناب أمير المؤمنين وأيضا ففى تناول ذلك الجناب لها بالتجارة والاستبداد بالربح
تهييج للعامة عليها واغراء لهم بتعاطيها كما قرره علماء فاس حفظهم الله ولو نهوا عنها لما انتهوا بل وربما
احتجوا بانها لو كانت حراما ما احتازها المخزن واستبد بربحها ومن العادة المقررة انه لا يمتثل الاقول
الممتثل ولا يؤتمر الا بأمر المؤتمر ولما انبرم الصلح بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين قريش يوم
الحديبية وأمر أصحابه أن ينحروا ويحلقوا أمسكوا ولم يفعلوا حتى قال ذلك ثلاث مرات فلما لم يقم منهم

أحد قام صلى الله عليه وسلم فدخل على أم سلمة فذكر لها مالقى من الناس فقالت أم سلمة رضى الله عنها يانبى الله أخرج ثم لاتكلم منهم أحدا كلمة حتى تنحر بدنك وتدعو حالقك فيحلقك فخرج صلى الله عليه وسلم ولم يكلم أحدا منهم حتى نحر بدنه ودعا حالقه فحلقه فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا وجعل بعضهم يحلق بعضا حتى كادوا يقتتلون اهـ فكذلك نقول هنا ان العامة مهما رأوا الامير تعاطى شيأ تعاطوه واذا رأوه نبذ أمرا نبذوه لان العامة مولعون بالاقتداء بالامير ومن فى معناه من الكبراء حسبما قرره ابن خلدون فى كتاب طبيعة العمران من تاريخه وأما التخوف من الاتيان بها من بر النصارى واشتغالهم بالتجارة فيها بأسواق المسلمين ونصب الدكاكين لبيعها وما ينشأ عن ذلك من المفاسد فهو مأمون بمقتضى الشروط المنعقدة بيننا وبينهم حسبما تضمنه الشرط الثانى والخامس والسابع من شروط التجارة المنعقدة مع النجليز خصوصا وغيره عموما سنة ثلاث وسبعين ومائتين وألف فقد صرح فى الشرط الثانى منها بان هذه الاعشاب ونحوها من جملة الممنوعات دخولا وخروجا ثم نبه على ذلك أيضا فى الخامس والسابع فلينظره من أراده وانما يكون لهم بعد تخلى السلطان عن بيعها أن يجلبوا منها ما يحتاجون له لانفسهم فقط لا أكثر منه كالخمر ألا ترى انهم اليوم انما يجلبون منها ما يشربونه ويتبايعونه فيما بينهم ولا سبيل لهم الى التجارة بها فى أسواق المسلمين ونصب الدكاكين لبيعها فكذلك هذه الاعشاب حكمها حكم الخمر حذو النعل بالنعل واذا امتنع المخزن من التجارة فيها مع بقاء منع الرعية منها أيضا فلا حجة للنصارى فى ذلك ولا متكلم لهم فيه اذ ليس فى امتناع المخزن حينئذ الا تأكيد المنع الذى كان قبل وانما تكون لهم الحجة اذا بيعت لبعض الرعايا دون بعض لان حاصل شروط التجارة الخمسة عشر ومدارها على أن رعايا الاجناس يكون لها مالرعية الايالة المغربية من التحجير والاطلاق والتخصيص والتعميم بحيث لا يستبد أحد من الفريقين بنوع من أنواع التجارة دون الآخر الا ما للمخزن فيه غرض ومصلحة فى تثقيفه من أشياء مخصوصة فانه يثقفه بنظره اذا شاء ويسرحه كذلك متى شاء وان اقتضى نظره أن يستبد ببار باح شئ من ذلك دون رعايا الفريقين فله ذلك وانما الممنوع أن يبيع لرعيته دون رعايا غيره أو يبيع لبعض الاجناس دون بعض هذا هو الممنوع فى الشروط أما هو فى خاصة نفسه ومصلحة ملكه فله أن يستبد من تلك الممنوعات بما شاء هذا حاصل تلك الشروط وان طالت وامتدت اذا علمت هذا فكيف يتخوف عند امتناع السلطان من بيع تلك الاعشاب مع استمرار منع الرعية منها أيضا الاتيان بها من بر النصارى ومتاجرتهم بها فى أسواق المسلمين ونصب الدكاكين لها الخ هذا لا يتوهم نعم يتخوف من ذلك اذا امتنع السلطان من بيعها وأذن للناس فيه وأطلق لهم يد التصرف به وليس هذا مراد السلطان أيده الله وان أوهمه لفظ الكتاب الشريف حيث قال طالما اقتدمنا رجلا وأخرنا أخرى فى تسريح الصاكة الخ ولعل الكاتب أو المملى عليه لم يحرر مراد السلطان أيده الله فنسج الكتاب على ذلك المنوال وأوهم ان أمير المؤمنين أعزه الله يريد أن يمتنع من بيع تلك الاعشاب تقذرا لها وتأففا منها ويبيحها لرعيته من المسلمين وغيرهم ومعاذ الله أن يكون هذا مراده كيف وهو أيده الله من أخشى الملوك وأتقاهم لله وأحبهم لرعاياهم وأحدبهم عليها وأحرصهم على جلب النفع لها ودفع الضر عنها وأعلمهم بقول جده عليه الصلاة والسلام لا يكون المؤمن مؤمنا حتى يحب لاخيه المؤمن ما يحب لنفسه فقد بان لك من هذا التقرير أن الواجب شرعا ومروءة هو المبادرة الى رفض التجارة فى تلك الاعشاب وتطهير ساحة الامامة الاسلامية من قذرها كما قال الله تعالى فى وصف رسوله صلوات الله عليه ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث وكما يجب على أمير المؤمنين أيده الله تطهير ساحة الخلافة منها يجب عليه السعى فى تطهير ساحة المسلمين أيضا منها لما أسلفناه آنفا ﴿فان قلت﴾ أما ماذكرته من المبادرة الى تطهير ساحة الخلافة منها فسهل متيسر ان شاء الله وأما تطهير سائر المسلمين منها فيظهر انه فى غاية الصعوبة لان العامة اذا ألحوا على رفضها كرة

والجؤا

وألجؤا الى ترك استعمالها بالمرة ضاق بهم المتسع وساءت أخلاقهم وحاصوا حيصة حمر الوحش وربما صدر منهم ما لا ينبغي من الاعلان بالخلاف والمجاهرة بالعصيان ﴿ومن وصايا ارسطوطاليس الحكيم﴾ لتلميذه الاسكندر يا اسكندر تغافل عن العامة ما أمكن ولا تلجئها أن تقول فيك الا خيرا فان العامة اذا قدرت أن تقول قدرت أن تفعل أو كلاما هذا معناه والحاصل ان فطم العامة عما اعتادوه من بعض الجهالات وصرفهم عما مرنوا عليه من بعض الضلالات في غاية الصعوبة ولا يتيسر ذلك الا لمن هيأه الله له من نبي مرسل أو ولي كامل أو امام عادل واذا كان صرف العامة عن هذه المفسدة التي اعتادوها ونشأوا عليها جيلا بعد جيل وقرنا بعد قرن يؤدي الى الهرج والخلاف جزما أو ظنا فالواجب هو تركهم على ماهم عليه لان تغيير المنكر له شروط منها أن لا يؤدي الى منكر أعظم كما هو مقرر في الاصول والفروع ﴿قلنا﴾ كل ما قررته في هذا السؤال حق لا محيد عنه ولكن نحن لا نقول ان أمير المؤمنين أيده الله يحمل العامة على رفضها كرها ويلجئهم الى تركها بالمرة بل يسلك معهم في ذلك سبيل التدريج كما سلكه رسول الله صلى الله عليه وسلم في تحريم الخمر على العرب فان الله تعالى بعث محمدا صلى الله عليه وسلم والعرب من أعشق الامم للخمر وأشدهم بها ولوعا وأكثرهم لها حبا حتى كانت شقيقة روحهم ومغناطيس أنسهم قد اتخذوا لها المجالس الحفيلة واختاروا لها القينات الجميلة وضربوا عليها بالمعازف والدفوف وحكموها على غيرها من مألوفاتهم بغاية الشغوف حتى نسبوا بها في أشعارهم وتوجوا بها بنات أفكارهم وبالجملة فلا يؤثر عن أمة من محبة الخمر ومدحها ما أثر عن العرب فلذلك لما انصرفت عناية الشرع الكريم الى تحريمها كان ذلك على سبيل التدريج كما هو معلوم في الكتاب والسنة حتى تم مراد الله ورسوله من العرب فرفضوها بالكلية وسماها الشارع أم الخبائث زيادة في التنفير منها وما حرمت آلات اللهو الا من أجلها ومبالغة في تحريمها اذ هي وسيلة اليها كما حققه الغزالي رحمه الله في كتاب السماع من الاحياء وفي تفسير الخازن بعد سرده كيفية التحريم مانصه والحكمة في وقوع التحريم على هذا الترتيب أن الله تعالى علم ان القوم كانوا قد ألفوا شرب الخمر وكان انتفاعهم بذلك كثيرا فعلم أنه لو منعهم من الخمر دفعة واحدة لشق ذلك عليهم فلا جرم استعمل هذا التدريج وهذا الرفق قال أنس رضي الله عنه حرمت الخمر ولم يكن للعرب يومئذ عيش أعجب منها وما حرم عليهم شئ أشد عليهم من الخمر اه اذا علمت هذا فنقول كذلك ينبغي لامير المؤمنين أيده الله أن يسعى في تطهير رعيته من خبث هذه الاعشاب التي لا شئ أخبث منها كما أوضحته في كتاب الاستقصاء ويسلك معهم فيها سبيل التدريج صارفا همته اليه ومستعينا بالله ومتوكلا في ذلك عليه فانه لا يصعب ذلك عليه ان شاء الله

اذا كان عون الله للمرء ناصرا * تهيا له من كل صعب مراده

وقال البوصيري لسيد الوجود صلى الله عليه وسلم أقول ولامير المؤمنين من حال جده قسط والحمد لله

كل أمر تعني به تغلب الاعـ * ـيان فيه ويعجب البصراء

﴿وكيفية التدريج في ذلك﴾ أن يأمر أيده الله علماء المجالس وخطباء المنابر ووعاظ الكراسي بالتواطئ على ذم تلك الاعشاب وتقبيحها في نفوس العامة وابداء معايبها لهم وشرح مفاسدها لديهم والتغليظ في ذلك بأبلغ ما يمكن ومن قدر على تأليف ألفه أو شعر نظمه أو رسالة أنشأها ويستمرون على ذلك ثلاثة أشهر أو أربعة أو أكثر من ذلك فان ذلك لا بد أن يؤثر في نفوس العامة بعض التأثير فان الهمم اذا تواطأت على شئ أثرت فيه بعون الله لا سيما هم أهل الخير وفي الحديث يد الله مع الجماعة ثم بعد مضي هذه المدة وتقرر قبحها في نفوس العامة يكتب أمير المؤمنين أيده الله الى قضاته ويأمرهم بتفقد الشهود وأئمة المساجد فمن عثر واعليه أنه يستعمل شيأ من تلك الخبائث أسقطوا شهادته وحظروا امامته وأن لا يقبلوه ولو في اللفيف ويوالي الكتابة والاعتناء بذلك مدة مثل الاولى أو أكثر فيزداد قبحها في

نفوس العامة وتعزف نفوس كثير منهم عنها ثم بعد هذا كله يكتب لولاة الامصار وعمال البوادى أن يتقدموا الى رعاياهم بمنع ازدراعها وادّخار شئ منها أو التجارة فيه بوجه من الوجوه فاذا تم هذا الغرض على هذا الوجه تخلى هو حينئذ عن بيعها وأمر باحراق باقيها وسدّ حاناتها المسماة فى عرفنا بالقهاوى ويمنع الناس من استعمالها فى المجامع العامة كالاسواق ونحوها ويشدد فى ذلك ويعلن بالنداء فى جميع الايالة المغربية بأن حكم هذه الاعشاب حكم الخمر فكما لا يتجاهر بالخمر فى الاسواق ونحوها كذلك لا يتجاهر باستعمال هذه الاعشاب فيها ومن فعل ذلك أدّب أدبا يليق به ويرتدع به غيره فهذا أقصى ما يفعله السلطان والتوفيق بعد ذلك بيد الله واذا تم هذا العمل فى نحو ثلاث سنين فهو قريب واذا يسر الله ذلك كان فيه بشرى للمسلمين وعنوانا لهم على تجديد دينهم ولعمرى ما كان أمر الخمر فى العرب الأرسخ من أمر هذه الاعشاب فى الناس اليوم بكثير وان الشبهة كانت فيها أقوى منها فى هذه وذلك مظنة سهولة زوالها وتطهير البلاد والعباد منها وما ذلك على الله بعزيز قاله وكتبه أحمد بن خالد الناصرى لطف الله به فى خامس عشر ربيع الثانى سنة أربع وثلاثمائة وألف ثم ان السلطان أيده الله رفض التجارة فيها وأحرق ما كان محوزا بالجانب المخزنى منها ومنع تجار الاجناس من جلبها الى قطر المغرب الا القدر الذى يستعملونه فى خاصة أنفسهم منها بشرط تعشيره وقصر نزوله على مرسى طنجة دون سائر المراسى المغربية والحال على ذلك لهذا العهد ﴿ولما دخلت سنة خمس وثلاثمائة وألف﴾ غزا السلطان مولاى الحسن أيده الله آيت ومالو من برابرة فازاز وهم بطن من صنهاجة يشتمل على أفخاذ كثيرة مثل ظيان وبنى مكيلد وشقيرين وآيت يسرى وآيت سخمان وغيرهم أمم لا يحصيهم الا خالقهم قد عمروا جبال فازاز وملؤا قننها وتحصنوا بأوعارها منذ تملك البربر المغرب قبل الاسلام بأعصار طويلة فلما كانت السنة المذكورة خرج السلطان من مكناسة الزيتون عاشر رمضان منها بقصد غزو هذه القبائل العاصية وتدويخ بلادها اذ لم تكن تبذل الطاعة الا للواحد بعد الواحد من ملوك دول المغرب فى الاعصار المتراخية حسبما يعلم مما أسلفناه فى هذا الديوان من أخبارهم وأخبار غيرهم فانتهى السلطان الى تلك الجبال ودوّخها ثم انتهى الى قصبة آدخسان التى بناها المولى اسمعيل رحمه الله فوفد عليه هنالك جل تلك القبائل وبذلوا الطاعة وأظهروا الخضوع وبذلوا المؤن والانزال للجيش والهدايا للسلطان الا ما كان من آيت سخمان فانهم أظهروا الطاعة أولا كغيرهم وطلبوا من السلطان أن يبعث معهم طائفة من الجيش ليدفعوا لهم المؤن وما وظف عليهم من الهدايا والانزال فارسل معهم السلطان مائتى فارس وعقد عليهم لابن عمه الشريف الفاضل الناسك مولاى سرور بن ادريس بن سليمان وجدّه سليمان هذا هو أحد ملوك هذه الدولة العلوية حسبما تقدم فلما توسطوا حلة آيت سخمان مع العشى تناجوا فيما بينهم والشيطان لا يفارقهم فاتفقوا على الغدر بأصحاب السلطان وفرقوهم على مداشرهم وحللهم فلما كان وقت العشاء الاخيرة أظهروا اعلامة بينهم وسعت كل طائفة الى من عندها من أصحاب السلطان فأوقعوا بهم فقتلوا منهم نحو العشرين على ما قيل وأفلت الباقون بجريعاء الذقن وكان فيمن قتل منهم كبيرهم الشريف مولاى سرور المذكور وكان من خيار عشيرته رحمة الله عليه رموه برصاصة وطعنوه بتفالة وكانت هذه الفعلة الشنعاء باشارة كبيرهم على بن المكى من بقية آل مهاوش الذين تقدم الخبر عنهم فى دولة السلطان مولاى سليمان رحمه الله ثم أسروا من ليلتهم تلك فلم يصبحوا الا بآيت حديدو وآيت مرغاد وغيرهما من قبائل البربر وتفرقوا شذر مذر وبقى منهم نفر يسير على ما قيل فقبض عليهم من الغد وضربت أعناقهم وقال بعض من حضر الوقعة انهم لما فعلوا فعلتهم هربوا من تحت الليل وتركوا زروعهم وأمتعتهم فى مداشرهم ولما انتهى الخبر الى السلطان بعث فى طلبهم طائفة من عسكره وضم اليهم خيل شقيرين اخوانهم وكانوا راكبين مع السلطان مظهرين للطاعة فانتهبوا أمتعتهم وانتسفوا زروعهم

وهدموا

وهدموا أبنيتهم وحرقوا بيوتهم وأبلغوا فى النكاية وتحامت خيل شقير بن ذلك ابقاء على اخوانهم وتعصبا للبربرية وبعادسوا اليهم من أعلمهم بالحال وأمرهم بالابعاد فى الارتحال ولما اطلع السلطان على خبيئة شقير بن أمر بنهب حللهم وأسر من ظفر به منهم وقتله فاوقع بهم جيش السلطان وقعة شنعاء فأسروا منهم عددا وافرا وضربوا أعناق نحو الثلاثين منهم وانتهبوا حللهم ومداشرهم حتى كأن لم تغن بالامس ومن الغدجاءت نساءهم وأطفالهم فاستجاروا بالمدافع واستغاثوا بالسلطان فرق لهم وسرح مساجينهم وكساهم وعفا عنهم وكان هذا كله فى أواخر ذى القعدة من السنة المذكورة أعنى سنة خمس وثلاثمائة وألف ثم قفل السلطان راجعا فدخل مكناسة الزيتون أواخر ذى الحجة خاتمة السنة المذكورة ❊ثم دخلت سنة ست وثلاثمائة وألف❊ فيها غزا السلطان جبال غمارة فخرج من حضرة فاس عاشر شوال من السنة المذكورة فسلك تلك الجبال ودوخها وزار تربة الشيخ الاكبر والكبريت الاحمر أبى محمد عبد السلام بن مشيش رضى الله عنه ثم تقدم الى مدينة تطاوين فدخلها يوم الاربعاء ثامن المحرم من السنة التى تليها أعنى سنة سبع وثلاثمائة وألف فاقام بها نحو الخمسة عشر يوما وزار صلحاءها وتطوف فى معالمها وتبارى وجوه أهل تطاوين وكبراؤهم فى الاهداء اليه وبذل المجهود فى الاعتناء بحاشيته وجيشه وأعجب ذلك السلطان وحاشيته ورأوا منهم ما تقربه أعينهم وأنعم عليهم السلطان بعشرة آلاف ريال لبناء قنطرة يرتفقون بها فى واديهم المحيط بمدينتهم لكن لم يحصل مقصود من ذلك لعدم اتقان بنائها فتهدمت فى الحال وضاع ذلك المال ثم سار السلطان من تطاوين الى طنجة ثم منها الى العرائش ثم عاد الى فاس فاقام بها الى أواسط شوال من السنة المذكورة ثم غزا آيت سخمان الذين قتلوا ابن عمه مولاى سرور فأوقع بهم وقبض على نفر منهم ولم يتمكن منهم على ما ينبغى ثم سار الى مراكش فأعرس لجماعة من بنيه وبناته ووفدت عليه الوفود من أقطار المغرب بالتهنئة وتباروا فى الهدايا والتحف على ما ينبغى وبالغ السلطان فى اكرامهم وافاضة الانعام عليهم واستمر أيده الله على كرسى ملكه وأريكة عزه وسلطانه والايام سلم له والدنيا مهنأة بعزه ونصره والرعية طوع نهيه وأمره الا ما كان من نواب أجناس الدول فانهم أكثروا التردد اليه والاقتراحات عليه والتلونات لديه فترة بالنصائح الفارغة ومرة بالتظلمات الباطلة والحجج الواهية وأخرى بطلب التخفيف من الاعشار والتنقيص من الصاكات الى غير ذلك مما لا تكاد تقوم له الجبال الراسية وهو يدافعهم ويراوغهم وحيدا فريدا لا ناصر له ولا معين الا الله الذى أيد به الدين وعصم به الاسلام والمسلمين ❊ولما كانت سنة عشر وثلاثمائة وألف❊ خرج السلطان مولاى الحسن أيده الله غازيا صحراء تافيلالت وقبائلها فخرج اليها من فاس عقب عيد الاضحى من السنة المذكورة فقضى الاوطار من تمهيد تلك الاقطار على ما ينبغى ثم كتب كتابا الى ولاة المغرب يصف فيه الحال وما قاساه فى تلك السفرة من الحل والارتحال فقال فى كتابه بعد الافتتاح والطابع المشتمل على اسمه المبارك ما نصه وبعد فان الله تعالى لما أقام عبده بمحض الفضل والاختيار وأورثه الارض وعمر به الاقاليم والديار لم تكن لنا همة فيما عدا السعى فى صلاح المسلمين وانتظام أمورهم وجمع كلمة المؤمنين ولم نأل فى ذلك جهدا حتى يسر الله سبحانه قبل فى الوصول الى سائر قبائل رعيتنا السعيدة وتخللنا أراضيهم كلها بجيوش الله المصحوبة بالعناية المزيدة فلم نترك من الاقاليم الا النزر الغير المعتبر أو ما كان فى الوصول اليه الا مجرد المشقة والضرر وتفقدنا من أحوالها الامور وأجريناها على ما يرضى الله من الاستقامة فى الورود والصدور وكان مما بقى علينا الوصول اليه هذه الاصقاع الصحراوية والمعاقل البربرية التى كان يفهم قبل أنها صعبة المرتقى عديمة وجوه الارتقا فاستخرنا الله تعالى وتوكلنا عليه وفوضنا الامر كله اليه وعلمنا أنه تعالى اذا أراد أمرا هيأ له الاسباب وفتح الى الوصول اليه المغالق والابواب وكل شئ منه واليه كما قال ابن عطاء الله فى حكمه اذا أراد أن يظهر فضله عليك خلق ونسب

اليك وما من نفس تبديه الا وله فيك قدر يعضيه فنهضنا من حضرتنا العلية فاس المحمية واستقبلنا
هذه النواحي البربرية ونصر الله وفتحه يتواليان علينا في كل أوان ويتجددان ما تجدد الملوان ونعم
الله دينا متسابقة وتدبيرات قدرته الجليلة لنا محكمة العقد متناسقة فجاوزنا بلاد آيت يوسي مرورا
وعبرنا بلاد بني مكيلد عبورا ووجدناهم جميعا منقادين للطاعة أتم انقياد ملقين لجانبنا العالي بالله الرسن
والمقاد واقفين مع النهي والامر لم يتخلف عنهم في ذلك زيدهم ولا عمرو واستقبلنا بجيوش الله
المنصورة وجنوده الموفورة قبيلة آيت أزدك الذين هم بيت القصيد وعتبة الوصيد فسبقت
اليهم من الله الهداية وطويت عنهم أعلام الضلالة والغواية وتلقونا باوائل بلادهم خائفين وجلين
ومن سطوة الله فزعين فخضنا للعفو ايثاراه وحرصا على حقن الدماء وعدولا عن القتال نظرا
للصبيان والعجائز والشيوخ وضعفاء الحال ومعاملة بالصفح لمن كان منهم ضل وغوى أخذا بقول الله
تعالى وان تعفوا أقرب للتقوى وبعد ان تحققت منهم التوبة وسعوا في تحصيل مرضات الله وخاطرنا
الشريف بما جاءنهم الهفوة والحوبة وصيرسيآتهم حسنات وأبعدهم عن المثلات فقابلناهم بما
أزال دهشتهم وفزعهم وكشف جزعهم فانشرحوا وساروا بركابنا الشريف في زيهم وجموعهم بسرور
ونشاط مغتبطين بعقد منا السعيد أتم اغتباط الى أن خيمنا عليهم باوطاط فأظهروا من حسن
الامتثال والطاعة ما وصلوا به الى الغاية وقاموا بواجب المحلة السعيدة من الضيافات والمبرة وشرعوا على
الفور في دفع ما وظفناه عليهم من الاموال متسارعين الى الاداء في الحال منقادين لكل ما أريد
منهم من الاعمال فنهضنا للتخييم بمركز بلادهم على وادي زيز وحادي الميامين يحدو بالفتح المبين
والنصر العزيز فاستوفينا منهم فيه ما بقي من المفترض وحصلنا منهم بعناية الله على غاية الغرض ثم
ارتحلنا عنهم مصحوبين بكتيبة منهم معتبرة وافرة العدد كثيرة العدد مشتملة على عدد له بال من خيولهم
وصناديد رجالهم وحللنا ببلاد آيت مرغاد فتلقوا ركابنا الشريف بطاعة وخضوع وانقياد مظهرين
الاذعان في كل ما منهم يراد وقاموا بأداء الفرائض والنوافل مبتهجين بطلعتنا الشريفة في سائر المنازل
وكل ذلك بتيسير الله وتسديده وارشاده وتوفيقه وارادته وتسهيله كما قال صاحب الحكم ما توقف مطلب
أنت طالبه بربك ولا تيسر مطلب أنت طالبه بنفسك مع سياسة صدقت بها أنباء الكتب وادخرت بها
المرهفات في الحقب وحقنت الدماء باراقة مداد الاقلام وصينت الاعراض وأغنى الكلام السياسي
عن الكلام ودوخنا بلادهم كلها غورها ونجدها على ما هي عليه من الوعورة وتعاظم الجبال التي يخال
أنها تنادم القمر وتصافح الكوكب مهما بزغ وظهر فسبحان الله ما أعظم شانه وأوضح برهانه الى
أن حللنا بمركز أرضهم بتادغوست وبها قرار قطب رحاهم في جاهليتهم المفسد علي بن يحيى المرغادي الذي
طالما حذره الانذار ولسان حاله يقول لا حياة لمن تنادي فوقع القبض عليه ووجهناه مصفدا الى
مراكش على سنة الله فيمن زلت به القدم وصار حليف التأسف والندم وأراح الله منه العباد وطهر
منه البلاد وفيما قبل ذلك كنا وجهنا من يستوفي من آيت حديدو ما وظف عليهم في المغارم ويأتي من
عندهم بما هو لهم لازم فلم يظهر منهم ما يفيد ورجع الموجهون بغير طائل ولا عتيد فترصدنا من أعيانهم
وأهل الحل والعقد منهم جماعة وافرة تقرب من المائتين وقبضنا عليهم بأجمعهم جزاء وفاقا حتى يؤدوا
جميع ما فرض عليهم بحول الله وتوجهنا والسعادة تقدمنا واليمن يحفنا وصحبة ركابنا الشريف من
جيش آيت مرغاد قدر كثير العدد قوي المدد مشتمل على ألوف من الخيل والابطال وليوث الحرب
والنزال الى أن وصلنا الى قصر السوق فوجدنا به جيش خدامنا آيت عطه في انتظار جانبنا الشريف
لمصاحبة ركابنا السعيد المنيف وهم في عدد عديد وقوة ما عليها من مزيد يقربون من الاربعة آلاف
فارس وكلهم ليوث عوابس ومعهم من رماة اخوانهم عدد كثير معتبر كأنهم سيل اذا انحدر فنهضوا

مع

مع جانبنا العالى بالله فى جموعهم وكثرة عددهم وعديدهم الى مدغرة فتبركنا منها بمواطئ الاسلاف وتعاهدنا أمور أهلها بحسن مباشرة واسعاف وأنعمنا على شرفائها بعشرين ألفا من الريال ووجهناها اليهم صحبة ولدنا مولاى عبد العزيز أصلحه الله وفرقت فيهم صلة لهم وأداء لحقوق القرابة والاتصال وتزودنا من دعائهم الصالح بقبول مستجاب يرجى أن لا يكون بينه وبين الله حجاب ونهضنا عنهم الى بلاد عرب الصباح فتلقوا مواكبنا السعيدة فى زيهم بفرح وانشراح وقاموا بالواجبات من الميرة والضيافات ودفعوا فى الحين جميع المفروضات ونهضنا من بلادهم الى تافيلالت بقصد زيارة جدنا الاكبر القطب الواضح ذى السر الاظهر مولانا على الشريف رضى الله عنه ونفعنا به فخرج أهلها من جميع الشرفاء والعامة للاقاة رجالا ونساء وصبيانا وشيوخا وكهولا أفواجا أفواجا جموعا وفرادى وأزواجا وحصل لهم ابتهاج عظيم برؤيتنا وامتلؤا فرحا وسرورا بقدومنا وانشرحت هنالك الخواطر وسرت الضمائر وأدينا واجبا بصلة رحم من هنالك من ذوى القرابة والرحم وكان ذلك عندنا من الامر المهم وأنعمنا عليهم بعشرين ألف ريال أخرى كأهل مدغرة ووجهناها اليهم مع ولدينا مولاى عبد العزيز ومولاى بلغيث حفظهما الله وقسمت فيهم صلة وأقمنا هنالك ثمانية عشر يوما بقصد الاستراحة والزيارة ومشاهدة آثار الاسلاف قدسهم الله وما أجلها من آثر وأعظم سناها فى تلك المظاهر وعاينا مالهم من الاملاك والاصول وتفقدناها بما أحيا مواتها كفاحا وازدادت به بهجة ونجاحا فلله الحمد بداية ونهاية وله مزيد الشكر أولا وغاية نسأله سبحانه أن يجعل ما ارتكبناه فى ذلك كله خالصا لوجهه جاريا على سبيله المستقيم ونهجه ويتقبله بأحسن قبول ويبلغنا فى صلاح المسلمين غاية المأمول ويجعل فى طاعته الحركة والسكون وعلى حوله وقوته الاعتماد والركون وقد نهضنا الى حضرتنا الشريفة المراكشية سائلين من الله سبحانه الاعانة والقوة والتيسير وبلوغ الامنية وأعلمناكم لتكونوا مستبصرين بما كان وتفرحوا بفضل الله وفتحه ونصره فى الاسرار والاعلان وهو المسؤل سبحانه أن يجعل البداية عنوان الاختتام ويبلغنا من كل خير غاية المرام والسلام فى خامس عشر جمادى الاولى عام أحد عشر وثلاثمائة وألف انتهى كتاب السلطان أيده الله وكان رجوعه الى مراكش على طريق الفائجة ولما انتهى الى ثنية القلاوى أصاب الناس ثلج كثير وبرد شديد تألموا منه حتى السلطان ثم خلصوا منه بعد عصب الريق وفى مدة غيبة السلطان هذه حدثت حرب شديدة بين زناتة الريف وبين نصارى الاصبنيول من أهل مليلية وما والاها فحقتهم زناتة محقا وشردوا بهم من خلفهم استئصالا وقتلا وكان السبب فى ذلك انهم اقترحوا على السلطان أن يزيدهم فى مساحة أرض مليلية على عادتهم فى كثرة الاقتراحات والتلونات فاسعفهم وزادهم من أرض زناتة نحو الغلوة وصار الحد المشترك بين الفريقين قريبا من تربة ولى الله سيدى ورياش وهو عند أهل تلك البلاد عظيم القدر شهير الذكر يتناوبونه للزيارة ويتبركون به ويدفنون عنده موتاهم فلم يحل لنصارى مليلية بناء العسات وغيرها الا بمحل يشرف على تربة الولى المذكور ويكشف عنها فراودهم أهل الريف عن التخلى عن ذلك الموضع والبناء بغيره فأبوا وأصروا على الامتناع وربما اسمعوهم بما أحفظهم من الكلام المؤلم على عادتهم فى ذلك فان هذا الاصبنيول منذ كانت له الغلبة فى حرب تطاوين وأهل المغرب معه فى عناء شديد من كثرة ما يتعنت ويتجنى عليهم ويسمعهم من محفظات الكلام وصريح الملام لاسيما أوباشهم ورعاعهم وتالله لقد سمعت أذناى من ذلك ما يضيق له الصدر ولا ينطلق به اللسان واذا رفعت الشكاية بهم الى أكابرهم غمصوا الحق وجادلوا بالباطل هذا دأبهم وديدنهم والى الله وحده المشتكى وله سبحانه العتبى حتى يرضى ولا حول ولا قوة الا به فلما سلكوا هذا المسلك ونحوه مع أهل الريف أذاقوهم من بأسهم شديد العقاب وأليم العذاب كما هو معلوم. فلما احتل السلطان أيده الله بحضرة مراكش من هذه السفرة قدم عليه وفد الاصبنيول يطلبون الانصاف

من أهل الريف فى هذه النازلة واستصحبوا معهم سربا من الحمام الطيار بالمكاتيب والاخبار ودار الكلام بينهم وبين السلطان فى النازلة وحكم فيهما من لم يكن ذا بصيرة بمعضلات النوازل من غافل أو متغافل . فوقع الفصل على أن يدفع السلطان عن دماء قتلاهم أربعة ملايين من الريال وتم الصلح على ذلك وكانوا فى تلك المدة كلما دار بينهم وبين السلطان كلام فى القضية أطاروا به الحمام الى أرباب دولتهم بمادريد والله تعالى يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد ﴿وفى آخر هذه السنة﴾ كانت وفاة السلطان مولاى الحسن بن محمد رحمة الله عليه ورضوانه فانه خرج من مراكش فاتح ذى القعدة من السنة المذكورة غازيا قبائل البربر الذين بجبال فازاز لاسيما آيت سخمان الذين غدروا أباه وأصحابه وابن عمه حسبما تقدم قريبا وكان رحمه الله قد قدم من حركة تافيلالت وهو مريض مرضا خفيفا فى الظاهر ولكنه مزمن فى الباطن فكان يتكلف معه الخروج للناس وينفذ القضايا ويجلس للوفود ويجيزهم ويفعل جميع الامور المخزنية ثم خرج من مراكش فى التاريخ المذكور على ما به من الالم والمرض وتحامل حتى انتهى الى وادى العبيد من أرض تادلا فأدركه أجله هنالك فى الساعة الحادية عشرة من ليلة الخميس ثالث ذى الحجة الحرام متم عام أحد عشر وثلاثمائة وألف وحمل فى تابوت الى رباط الفتح ودفن بإزاء جده الاعلى سيدى محمد بن عبد الله رحمة الله على جميعهم آمين ﴿وكانت مدة خلافته﴾ احدى وعشرين سنة وخمسة أشهر وكان رحمه الله من خيار الملوك العلوية وأفاضلهم بما انشر من العدل وأصلح من الرعايا وأبقى من الآثار بالمغرب وثغوره فالله تعالى يجبر كسر المسلمين فيه ويعوضهم أجرا عن مصابه آمين ﴿وبايع أهل العقد والحل نجله الارضى الابر المرتضى ﴿مولانا عبد العزيز﴾ ابن مولانا الحسن نصره الله نصرا عزيزا وفتح له فتحا مبينا آمين وهو الآن على كرسى ملكه بفاس المحروسة كما ينبغى وعلى ما ينبغى وقد تسرب اليه جماعة من تواب الاجناس كعادتهم مع والده من قبله فقدموا عليه حضرة فاس مظهرين انهم انما قدموا للتهنئة ومرادهم خلاف ذلك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين وما ظنك بمن يزعم أنه قدم للتهنئة وهو مقيم بالحضرة هذه مدة من أربعة أشهر يتجسس الاخبار ويتطلع العورات ويترصد الغفلات ويحصى الانفاس لعله تظهر له خلة أو تمكنه فرصة نسأل الله تعالى أن يرد كيده فى نحره ويعديه بعاره وعره آمين ولعمرى ما الحامل على هذا ونحوه الاقلة الحياء من الله ومن الناس والافما معنى الاقامة فى سبيل التهنئة أربعة أشهر ثم انظر ما يزاد منها بعد ذلك وكان مما يؤثر من كلام النبوة الاولى اذا لم تستحى فاصنع ما شئت وحسبنا الله ونعم الوكيل

﴿واعلم﴾ أن أحوال هذا الجيل الذى نحن فيه قد باينت أحوال الجيل الذى قبله غاية التباين وانعكست عوائد الناس فيه غاية الانعكاس وانقلبت أطوار أهل التجارة وغيرها من الحرف فى جميع متصرفاتهم لا فى سككهم ولا فى أسعارهم ولا فى سائر نفقاتهم بحيث ضاقت وجوه الاسباب على الناس وصعبت عليهم سبل جلب الرزق والمعاش حتى لو نظرنا فى حال الجيل الذى قبلنا وحال جيلنا الذى نحن فيه وقايسنا بينهما لوجدناهما كالمتضادين والسبب الاعظم فى ذلك ملابسة الفرنج وغيرهم من أهل الاربا للناس وكثرة مخالطتهم لهم وانتشارهم فى الآفاق الاسلامية فغلبت أحوالهم وعوائدهم على عوائد الجيل وجذبته اليها جذبة قوية وأنا أحكى لك حكاية تعتبر بها وتستدل بها على ما وراءها وهى أنى ذاكرت ذات يوم رجلا من أهل جيلنا فى هذا المعنى فقال لى ان لى راتبا سلطانيا أقبضه فى كل شهر قدره ثلاثون أوقية قال فكنت فى حدود الستين ومائتين وألف أقبض فيه عشر بسائط لان صرف البسيطة يومئذ ثلاث أواق فلما أخذت السكة فى الارتفاع بعد الستين صرت أقبض فيه تسع بسائط وفلوسا ثم بعد ذلك بسنة أو سنتين صرت أقبض ثمان بسائط وفلوسا ثم سبع بسائط وفلوسا وهكذا الى أن صرت اليوم فى أعوام التسعين أقبض فى الثلاثين أوقية بسيطة واحدة وشيأ من الفلوس اهـ فانظر الى هذا

التفاوت

التفاوت العظيم الذى حصل فى الجيل فى مدة من ثلاثين سنة أونحوها فقد زادت السكك والاسعار فيها كما ترى نحو تسعة أعشار والعلة ماذكرناه ويكثر بكثرة الاختلاط والممازجة مع الفرنج ويقل بقلتها والدليل على ذلك ان أهل المغرب أقل الامم اختلاطا بهم فهم أرخص الناس أسعارا وأرفقهم معاشا وأبعدهم زيا وعادة من هؤلاء الفرنج وفى ذلك من سلامة دينهم مالا يخفى بخلاف مصر والشام وغيرهما من الامصار فانه بلغنا عنهم ما تصم عنه الآذان فليتأمل هذا الذى ذكرناه وليعرف منه سر الله فى خلقه ﴿واعلم أيضا﴾ أن أمر هؤلاء الفرنج فى هذه السنين قد علا علوا منكرا وظهر ظهورا لا كفاء له وأسرعت أحواله فى التقدم والزيادة اسراعا متضاعفا كتضاعف حبات القمح فى بيوت الشطرنج حتى كاد يستحيل الى فساد وعلم عاقبة ذلك وغايته الى الله تعالى المنفرد بالغيب

وأعلم علم اليوم والامس قبله * ولكننى عن علم ما فى غد عم

وهذا ما قصدنا جمعه من هذا الكتاب والله الملهم للصواب ربنا ظلمنا أنفسنا وان لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

تم

ولما تم طبعه الباهى الباهر وتمثيله الزاهى الزاهر قرظه العلامة الاديب الفهامة الاريب المتوكل على مولاه الغنى السيد أحمد بن السيد المأمون البلغيثى الحسنى فقال وقد أجاد فى المقال

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد النبى الكريم وعلى آله وصحبه ذوى المجد الفخيم

﴿الحمد لله﴾ الذى أنعم علينا بالكمال الانسانى وتكرم الينا باحسن التقويم فى النطق اللسانى نحمده وله الحمد فى الاولى والآخرة على نعمه التى لا تحصى ونشكره على مننه التى لا تعد بالاستقصا ونصلى ونسلم على نبيه سيدنا ومولانا محمد أفصح من بالضاد نطق المنزل عليه فى حكيم الذكر وكذلك نقص عليك من أنباء ما قد سبق وعلى آله وأصحابه والتابعين ومن قص علينا قصصهم من أئمة الدين صلاة وسلاما ندرك بهما مدارك الكمال ونبلغ بهما منتهى الآمال ﴿أما بعد﴾ فيقول العبد الفقير الى مولاه الغنى الكبير أحمد بن المأمون الحسنى العلوى البلغيثى السجلماسى أصلا ودارا الفاسى منشأ وقرارا تقبل الله صالح أعماله وبلغه فى الدارين غاية آماله لما أن وقفت على هذا التاريخ المفيد وقوف طالب مستفيد ألفيته مرغوب اللبيب ومحبوب الحبيب قد جمع فأوعى وبلغ من الاتقان غاية المسعى حيث احتوى على أخبار الاقطار المغربية واستقصى أهم الاوطار من أنبائها الشهية فطابق اسمه مسماه ووافق لفظه معناه

كتاب رأيت الحسن فيه مفصلا * كما فصل الياقوت بالدر ناظمه

فكان له نشر يفوح وبهجة * كما افتر عن زهر الرياض كمائمه

ولعمرى انه لتاريخ تشد اليه الرحال وتعتكف بجامعه الازهر جهابذة الرجال اذ أغنى وأقنى وبلغ

الناظر فيه ما تمنى يغنى عن غيره من الموضوعات فى فنه بصحة أسانيده المرفوعات على أعلام حسنه تناديك منه سطوره والطروس لا تلتفت لغيرى فلا عطر بعد عروس وكيف لا ومؤلفه العلامة من هو فى غرة هذا العصر علامة الطالع الاسعد والسند الاصعد المحقق النقاد والمشارك فى جميع الفنون بالذهن الوقاد المرتوى من نهر كل فضيلة عاراق وحلا أبو العباس سيدى أحمد الناصرى الدرعى شمس ثغر سلا أبقى الله بركته وأدام فى اكتساب المعالى حركته فلله دره من مؤلف ألف بين الكمالات وشنف السمع بأصح المقالات فى هذا التاريخ الذى أرخت فى صحائف الكمال آياته وخلدت فى دفاتر المجد فضائله وكراماته وقد زاده رونق الطبع نورا على نور وأفاده اجتلاء على منابر الظهور فقرب نوره لمقتبسه وسهل ملكه لملتمسه ولما ملك حسنه خاطرى وفؤادى وسلك بى منهج قصدى ومرادى وصرت به أنشط من ظبى مقمر وأسلط عليه من ذئب متنمر تشوقت لانشاء امتداحه وتشوقت لاملاء امداحه على الا أعده فى شئ من طبقات الفصاحة عند فرسان هذا الميدان ولكن عذرى عند الواقف عليه انه لقطة عجلان ماله فى الادب يدان فقلت فى ذلك مؤرخا تمام طبعه فى بداعة صنعه ورقة طبعه بقول وسيط من بحر البسيط

أخبار أهل الهوى ما زال يرويها * أحبار كاس رحيق الراح برويها
حتى اذا سمع العشاق مخبرها * هاموا وقاموا بألحان تواتيها
لكنهم أبدا فى الدهر ما سمعوا * ما نالنى فى هوى خود أفديها
خود بها الصب قد لذ العذاب له * لما غداوهو مطروح بناديها
يرجو رضاها ولم تسمح بوصلته * وبالتذلل والشكوى يناديها
قد استرقته فى شرع الغرام وما * رقت لما به من نار يقاسيها
حتى استبان لها أنى على تلف * وأن ما بى منها ليس تحويها
جاءت الى على فور تعللنى * بالعطف من طلعة سبحان باريها
فأتحفتنى بحتف الرمز من مقل * ألسيف حاجبها والحسن كاسيها
ان أومأت بلحاظ جرحت كبدى * أو أعرضت بلغت روحى تراقيها
ما حيلتى فى الهوى وما دوا كبدى * العطف يجرحها والهجر يبليها
انى خلعت عذارى فاعذرونى فى * حب الملاح فان القلب يبغيها
فهل ملام على من صار ذا وله * بغادة سلبت عقلى معانيها
اذا بدت لاولى الالباب شمتهم * صرعى وطرحى جميعا فى مغانيها
ياحسن ما حدثتنى عند ما عطفت * فى شأن من بيعادى كان يغريها
قالت لك الوصل منى ليس يعقبه * هجر على رغم من يبغى لك التيها
تخال نطق لماها عند ما نطقت * أخبار تاريخ الاستقصاء تمليها
ذاك الكتاب الذى فاقت صناعته * كل التواريخ بالاتقان عاديها
لله ما قد حوى من كل واقعة * يا هيك عن نغمة الالحان راويها
ومن محاسن أحوال تتوق لها الاسماع من كل ذى لب يدانيها
ومن نوادر قد كانت لذى أدب * تود اذن العلا ان لو تحليها
أغنى وأقنى باخبار مصححة * قد كان فى المغرب الاقصى دواعيها
كم من فوائد قد كانت أوابدلم * تظفر بها به يستدعيك قاصيها
ما شئت من أدب غض ومن ملح * تشتاقها همم ترجو توافيها

فاعكف عليه ونزه في بدائعه * أبصار فكرك تستجني أمانيها
فانه روضة أشجارها قصص * أزهارها حكم ان رمت تجنيها
أنهارها من معين ما به كدر * من كل معنى غدا للنفس شافيها
بل جنة جمعت آمال أنفسنا * وتستلذ بها أبصار رائيها
لاغرو حيث غدا مفتاح بهجتها * من فيه يرسل أعط القوس باريها
ذاك الاديب الاريب العالم العلم الشـ * ـهمام غايته من ذا يجاريها
الناصري أبو العباس أحمد من * نال العلا واعتلى أعلى أعاليها
نقاد كل فنون العلم ليس له * بغيرها شغل دأبا يواليها
فكم أجاد وكم أسدى فوائدها * في كل قطر من الاقطار يوليها
أنسى اياسا بأفكاره وقد دت * ترى شموس الهدى كشفا لباغيها
فهذه قبسة من نور علمه قد * مدت اليها أقاصي الارض أيديها
نالت أشعتها الايدي على بعد * كالشمس مع رفعها يبدو تدانيها
تريك سيرة قطر الغرب كيف مضت * رأي الحقيقة في أفكار قاريها
ان التواريخ في أخباره كثرت * لكن ذا قد حوى أصح ما فيها
بل زاد أنباء قوم لم تكن جمعت * مما جرى عن قريب فيه تلفيها
مع ما حوى من علوم من مؤلفه * بدت معالمها هديا لآتيها
أعظم بها منحة قد عم نائلها * وطاف في شاسع الاقطار ساقيها
فرقة الطبع قد غنت بها وسرت * لطبع آياتها كيما تجليها
فعاد منها محياها كما قمر * يهدي الضليل بها ان جاء ناشيها
كمال طبع حلاها جاء وفق مني * فالحمد لله كم نعماء يسديها
مع منتهى أرب قل كي تؤرخه * معالم الطبع بالبشرى تناهيها

٢ — ١٨١ ١١٢ ٥٤٥ ٤٧٢

سنة ١٣١٢

هذا التاريخ يعرف من بين أنواعه بالمذيل وحقيقته أن تكون جملة التاريخ ناقصة فتكمل بحرف أو أكثر مع التنبيه على ذلك باشارة تتضمن تورية وبيان ذلك هنا ان جامع عدد قولي * معالم الطبع بالبشرى تناهيها * هو عشرة وثلاثمائة وألف فتوقف العدد المؤرخ به على اثنين أشرت لهما بقولي مع منتهى أرب ومنتهى أرب هو الباء التي باثنين فاستوفى عدد التاريخ هذا وليعلم من يقف عليه من أدباء أهل المغرب اني حسبت حرف الشين من قولي بالبشرى بثلاثمائة على اصطلاح المشارقة فيها الا بألف كما هو اصطلاحنا وهي أحد الحروف الستة التي اختلف فيها اصطلاح الفريقين وقد تمذهبت بمذهبهم في هذا التاريخ مراعاة لمحل الطبع كما يستحسن ذلك مني سالم القريحة والطبع والله الهادي الى سواء السبيل وهو حسبي ونعم الوكيل

﴿ يقول ابراهيم راضي الازهري أسره الله والمؤمنين بسره ورضوانه السرى ﴾

حمدا لمن أضاء عقول الخلف بأنوار تواريخ السلف وصلاة وسلاما على من قص عليه أحسن القصص في كتابه المكنون وأخبره بسائر ما كان وما يكون وعلى آله وأصحابه الذين أشرقت صحائف التاريخ بآياتهم الباهية الباهره وتزينت المحافل بمحاسن أحاسنهم الزاهية الزاهره ﴿أما بعد﴾ فان علم التاريخ كنز يجب التحلي بنفائس فرائده وروض لا غنية لاحد عن مجاني فوائده وكم للعلماء فيه من تصانيف مهمة عادت بالمنافع الجمة على كل أمة فلم ترتق أمة الى عرش تمدنها الا بتبحرها في هذا الفن وتفننها وان أجل ما ألف فيه كتاب الاستقصا لاخبار دول المغرب الاقصى فهو أول كتاب كشف الغطاء عن هذه الممالك وقرب لمن يهمه الوقوف على حقيقة أخبارها جميع المسالك وأبان عن أول من دخلها من الصحابة رضي الله عنهم لرفع اعلام الاسلام وما هي عليه من المعارف التي لم تطو سجلات نشرها تعاقب الايام لاسيما بلاد الاندلس وما لها من الحضاره والابهة والنضاره وما للبلاد الجزائر من كل أثر جليل يشهد برفعة قدرها جيلا بعد جيل مع تحرير التراجم للملوك والاعاظم وما دهم هذه البلاد من الوقائع الحربية التي أثارت غبارها يد الدسائس الاجنبية وما ثبت لهذه الدول من الاختراعات والاستكشافات وما بينها وبين الدول الاخرى من المواصلات والمعاهدات كل ذلك بعبارات صادقة ومحررات شائقة

حديث المغرب الاقصى * قد استقصاه الاستقصا كتاب جل مبدعه * على نسق به اختصا
بداوالناس في شغف * ليقتنص النهى قنصا فتاهوا في محاسنه * فارشدهم بما أوصى
فيا لله ما أعلى * وما أغلى وما أحصى فكيه في فكاهته * صدوق القول ان قصا
عليه فكن أشد الناس في استقصائه حرصا تجد غررا حوت دررا * عليها تكثر الغوصا

وكيف لا ومؤلفه انسان عين الادب وترجمان لسان العرب جوهر بحور المعارف وسويداء صدور العوارف من أجمعت الفضائل على التباهي بسيرته وتسابقت المحامد الى الاقتباس من مشكاة سريرته ألفته الحكمة فسامرها وماسلا علامة المشرق والمغرب فضلا عن كونه تاج مجد سلا بحر العلم الخضم الراوي شهاب الدين أحمد بن خالد الناصري السلاوي ولاجل أن يعم النفع الجزيل بهذا الاثر الجليل قام حضرة مؤلفه بطبعه في احدى مطابع القطر المصري حتى أشرق بدر كماله على الكوكب الدري بمشاركة كل من صاحب الحسب العاطر والنسب الطاهر صاحب الشرف والمجد السني السيد الحبيب البلغيثي الحسني وحضرة من هو لكل كمال مصطفى جناب محمد أفندي مصطفى فهؤلاء السادة هم السبب في تعميم نفعه وتعطير الآفاق بعبير طبعه بمطبعة حضرة الافندي الشهيرة باتقان الصناعه وكمال رونق الطباعه جزاهم الله عنه وفضله أكمل جزاء عن العلم وأهله وكان انتهاء طبعه الانيق واستكمال حسنه الرقيق في أواخر شهر رمضان المعظم سنة اثنتي عشرة بعد الالف والثلاثمائة من هجرته صلى الله عليه وسلم